التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر

ألفه
مستر ألفريد سكاون بلنت

راجعه ووافق على ما فيه
الشيخ محمد عبده

تمهيد
عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب يحتوي على :

١ - تاريخ عرابي بقلمه وبعض حوادث سنة ١٨٨٢م بقلمه أيضاً .

٢ - وتقريرين عن بعض هذه الحوادث بقلم الشيخ محمد عبده .

٣ - وتقارير أخرى من جون نينه رفيق عرابي ومن بعض المصريين الذين اشتركوا فى تلك الحوادث

٤ - وبرنامج الحزب الوطني وخطابات من مستر غلادستون .

٥ - والدستور المصري سنة ١٨٨٢م

Al-Adab
1923
مكتبة الآداب
42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

التاريخ السري
لاحتلال انجلترا مصر

تأليف مستر ولفرد سكاون بلنت
راجعه ووافق على ما فيه الشيخ محمد عبده

تمهيد بقلم عبد القادر حمزة

ذلك الكتاب يحتوي على تاريخ العرابية بقلمه وبعض حوادث سنة ١٨٨٢
بقلمه أيضا. وتقرير عن بعض هذه الحوادث بقلم الشيخ محمد عبده.
وتقارير أخرى من جون نينه رفيق عرابي ومن بعض المصريين الذين
اشتركوا في تلك الحوادث. وبرنامج الحزب الوطني وخطابات
من مستر غلادستون. والدستور المصري سنة ١٨٨٢

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: ٣٩٠٠٨٦٨





الناشر

مكتبة الآداب
علي حسن

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بلنت ، ألفريد سكاون.
التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر/
ألفه ألفريد سكاون بلنت ؛
راجعه محمد عبده ؛ تمهيد عبد القادر حمزة.-
القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠٠٨.
٥٨٢ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ١ ٩٤٩ ٢٤١ ٩٧٧
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - الاحتلال
البريطاني (١٨٨٢-١٩٥٦)
أ - محمد عبده ، محمد عبده بن حسن خير الله ، ١٨٥٠ - ١٩٠٥ (مراجع)
ب - حمزة ، عبدالقادر (تمهيد)
جـ - العنوان
٩٦٢,٠٤

عنوان الكتاب: التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر

تأليف: مستر ألفريد سكاون بلنت

رقم الإيداع: ٤٤٤٢ لسنة ٢٠٠٨م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 - 241 - 949 - 1

مكتبة الآداب
علي حسن
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)
e-mail: adabook@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبينا الكريم

تمهيد

نحن وتاريخنا الحديث

كل ماتعانيه مصر الآن من جراء الاحتلال البريطاني، وكل ماعانته منه في سبعة وأربعين عاما مضت، وكل ماستعانيه منه الى أن تحصل على استقلالها التام، مرتبط بالحوادث التى كانت مصر مسرحا لها من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن احتل الانجليز القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . وذلك أن هذه الحوادث كانت مقدمات أو عللا والحالة التى نحن فيها الآن نتائج لها أو معلولات، وقد كان هذا داعيا لأن نعرف تلك الحوادث معرفة بحث ودراسة لنعرف كيف ومن أين ابتدأنا ولكننا مع الأسف لانعرف منها الا صورة مبهمة يذهب مرور الأيام بما لها في أذهاننا من الأثر . فليس فينا للآن من درسها ووضع فيها كتابا باللغة العربية مع أن الاوروبيين وضعوا فيها عشرات من الكتب ذات اللغة فرنسية وانجليزية وألمانية وايطالية . وحتى هذه الكتب التى وضعها الاوروبيون، والتى لاريب في أن بعضا منها كتبه رجال اشتركوا بأنفسهم في تلك الحوادث فكتابتهم تعتبر مستندا يقابل بغيره من المستندات لاستخراج الحقائق التاريخية كما أن بعضا آخر كتبه رجال لم يشتركوا بأنفسهم في الحوادث ولكنهم استطاعوا أن يصلوا الي المستندات الرسمية الخاصة بها في وزارات الدول فكتابتهم تعتبر مستندا آخر، هذه الكتب لم ينقل منها الى اللغة العربية على مانعلم الا كتاب وضعه اللورد كرومر بعد خروجه من مصر وكتاب آخر وضعه مستر تيودور روتستين ونشرته في سنة ١٩٢٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وقد يكون السبب فى قلة اهتمامنا بدرس تلك الحوادث وبتعريب ما كتبه الاوربيون فيها ان أشخاصاً من الذين ساهموا فيها بنصيب كبير كانوا أحياء الى زمن قريب ، وبعض هؤلاء الاشخاص لم تكن لهم سلطة يخشى جانبها كعرابى ومحمود سامي ورياض ولكن شخصاً آخر هو الخديو توفيق باشا كانت له ولابنه عباس باشا من بعده سلطة تخشى وهو محور دارت حوله الحوادث فى سنتى ١٨٨١ و ١٨٨٢ فكان من الصعب على الباحث المصرى أن يجتنبه أو يجتنب الحكم على مواقفه . وهو اذا كتب هذا الحكم إما أن يكتبه كما يوحيه اليه ضميره وحينئذ قد يكون ضد توفيق باشا فيستهدف لغضب ذوى السلطة واما أن يكتبه مصبوغا بصبغة المداراة واذن يكون بحثه غير برىء ويفقد قيمته .

وهذا الذى يقال فى التأليف يقال فى التعريب لأن كل الذين قرأوا المؤلفات الاوربية التى وضعت فى هذا الموضوع يعلمون أن أصحاب هذه المؤلفات اختلفت آراؤهم فى مواقف توفيق باشا فكان منهم من برأها ومنهم من خطأها ولكنهم جميعا لم تخل كتاباتهم عنه من غمز جارح . ولعل كتاب اللورد كرومر «مصر الحديثة» وكتاب اللورد ملنر «انجلترا فى مصر» هما وحدهما اللذان خلوا من مثل هذا الغمز .

ولكن هذا السبب ليس عذراً صحيحا ، وهو ان صح لا يكون الا لوقت ، وفى رأيي ان هذا الوقت انقضى وان الاوان قد آن لان يدرس الباحثون منا تلك الحوادث التى كانت مصدر ما نحن فيه الآن من المتاعب . ولهذا اخترت « البلاغ » أن يمهد سبيل هذا البحث بأن يعرب بعض المؤلفات الاوربية التى تعتبر مستندات فعرب مترجموه كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » :

Secret history of the inglish occupation of Egypt

ومؤلفه مستر الفريد سكاون بلنت الذى شهد بنفسه حوادث سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ وكان فيها متصلا بعرابى وجرى شطر كبير منها على يديه . وكتاب «المسألة المصرية» La Question Egyptienne — ومؤلفه مسيو دى فريسينيه الذى كان رئيساً لوزارة فرنسا حينما ضرب الانجليز الاسكندرية واحتلوا القاهرة وكتاب «النار والسيف فى السودان» Fire and Sword in the Sudan ومؤلفه سلاطين باشا الذى بقى فى أسر المهدى الى أن أعيد فتح السودان فى سنة ١٨٩٧ .

وقد نشرت هذه الكتب متوالية في « البلاغ » ورأيت اليوم أن أجمعها فى كتب ليتيسر اقتناؤها وحفظها . وهذا كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » أولها وسيليه الآخران .

***

مستر أ . س . بلنت

نشأ مستر بلنت مؤلف «التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر» فى أسرة عريقة في الغنى والجاه وبدأ حياته السياسية وهو لا يزال فتيا غمين فى الثامنة عشرة من عمره ملحقا بالوكالة الانجليزية فى أثينا ثم بقى يتنقل فى المناصب بعد ذلك اثنتي عشرة سنة فى الوكالات والسفارات الانجليزية فى طول اوربا وعرضها الى أن اعتزل خدمة الحكومة فى سنة ١٨٥٩ . وكان قد تزوج حفيدة الشاعر المعروف اللورد بيرون فشرع يطوف معها فى البلاد الشرقية فطاف في تركيا سنة ١٨٧٣ وفي الجزائر سنة ١٨٧٤ وزار مصر أول مرة سنة ١٨٧٥ . وفي هذه الزيارة رأى الفلاحين وجال بينهم جولة أرته ما كانوا فيه من البؤس والبلاء [1] بسبب الديون التى كان الخديو اسماعيل باشا قد أوقع البلاد فيها والضرائب الباهظة الجديدة التى كانت تجبى منهم بالكرباج لسداد تلك الديون .

وغادر مستر بلنت القاهرة فى ربيع سنة ١٨٧٦ فزار بلاد العرب وانشأ علاقات بينه وبين بعض القبائل فيها ثم عاد فى السنة نفسها الى انجلترا . وفى صيف سنة ١٨٧٧ رجع يطوف في الشرق فزار حلب وانحدر فى الفرات الى بغداد وعقد فى رحلته هذه علاقات مودة مع القبائل التي مر بها فى طريقه . وفى سنة ١٨٧٨ ذهب الى دمشق وعرف فيها السير ادوار ماليت وكان اذ ذاك سكرتيرا لسفارة الانجليزية في الاستانة وكان يطوف مثله فى سوريا . والسير ماليت هذا هو الذى كان قنصلا عاما لدولته فى القاهرة في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ فهو الذى جرت على يديه كل حوادث هاتين السنتين في مصر .

ثم انتقل مستر بلنت الى نجد ثم الهند ثم كر راجعا الى عدن وفيها علم بعزل

---

(١) صفحات ١٣ و ١٧ و ١٩ من كتابه هذا

الخديو اسماعيل في سنة ١٨٧٩ ثم واصل رحلته فسار الى السويس ومنها الى الاسكندرية ثم عاد الى بلاده

عاد وقد أخذت تساوره أفكار كثيرة عن الشرق والشرقيين وعلكته فكرة استقلال العرب فصار يعمل لها ويحدث فيها رجال السياسة في بلاده . وكانت هذه الفكرة تبعث فيه الشوق الى الشرق كلما استقر في انجلترا فلم يكد يستقر فيها عاما بعد رحلته تلك حتى أبحر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٠ الى مصر فلما وصل الى القاهرة عرف فيها بعض شيوخ الازهر وتتلمذ لواحد منهم هو الشيخ محمد خليل كي يدرس عليه اللغة العربية واتصل بمريدي السيد جمال الدين الافغاني وزار الشيخ محمد عبده في حي الازهر يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ فانعقدت بينهما من ذلك اليوم أواصر صداقة استمرت ربع قرن وذكر مستر بلنت هذا اليوم في كتابه فقال : « يجب ان أميزه على سائر الايام لأنه فتح لي باب صداقة بقيت الآن ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام » . وبعد أن اقام في القاهرة زمنا ذهب الى جدة فأقام فيها أياما ثم عاد منها الى مصر فسوريا

وفي شتاء سنة ١٨٨١ أي في الوقت الذي كانت فيه نار الحركة العرابية قد اشتعلت عاد مستر بلنت الى مصر فاتصل بعرابي وبكل مؤيديه من الضباط والنواب وبغيرهم من الوزراء ورجال السياسة المصريين. وكان السير ماليت قنصلا عاما لانجلترا في القاهرة فلما عرف صداقته للعرابيين طلب منه أن يقنعهم بان « مذكرة الدولتين[1] » لا ترمي الى سوء فقبل مستر بلنت أن يقوم بهذه المهمة . وهو يقول انه أداها كارهاً لأنه لم يكن مقتنعاً بما كان يحاول أن يقنع به غيره ويقول أيضاً انه لم ينجح في وساطته. واستمر يعاون « الحزب الوطني » الذي كان مؤلفاً اذ ذاك برياسة عرابي فنشر برنامجه في جريدة التيمس ثم لما رأى ان الحوادث أخذت في مصر دوراً خطيراً

---

(١) مذكرة فرنسا وانجلترا للخديو توفيق باشا في ٧ يناير سنة ١٨٨٢ وقد ارسلتاها على أثر اجتماع مجلس النواب المصرى وقالتا فيها انهما تؤيدان سلطة الخديو ولا تريان سلاما لمصر الا بتأييد هذه السلطة . وكان الغرض منها تحدى مجلس النواب . وسيأتى الكلام عنها

وان السير ماليت يستخدم الكذب والتشويه فى محاربة الوطنيين المصريين سافر إلى انجلترا ليطلع مستر غلادستون رئيس الحكومة البريطانية ورجال السياسة البريطانيين والرأي العام البريطاني على الحقيقة وليحاول ردهم عن سياسة العداء . وكان له سكرتير شرقي اسمه صابونجى فأرسله الى مصر ليوافيه بأخبارها . فبقى بلنت يسعى فى لندن فخاطب مستر غلادستون ونشر كتابات كثيرة في الصحف البريطانية وخاصة فى التيمس وكان مما نشرته له التيمس فى يونيو سنة ١٨٨٢ خطابات حارب فيها السياسة التى يجرى عليها السير ماليت والسير أوكلند كولفن (العضو الانجليزى في المراقبة الثنائية التى كانت مضروبة على مالية الحكومة المصرية اذ ذاك) وفضح ما تحتوى عليه هذه السياسة من تعمد التشويه وافساد الجو السياسى وذكر أنهما استعانا به حينما كان يحسن الظن بهما فتوسط لهما عند الوطنيين المصريين غير مرة ولكنه وقف بعد ذلك على دسائسهما فاشمأز واضطر ان ينفصل منهما . فما كادت التيمس تظهر بهذه الخطابات حتى ثارت ضجة حولها في مجلس اللوردات فى جلسة ٢٣ يونيو[1] واضطر السير اوكلند كولفن أن يصرح فى اول يوليو بأنه لم يكلف السير بلنت البتة « بمفاوضات رسمية » مع عرابى . وما كان بلنت يقول انه كلف « بمفاوضات رسمية » وانما كان يقول انه توسط بناء على طلب ماليت وكولفن وساطة غير رسمية .

واستمر بلنت يجاهد فتارة يخيل اليه أنه ناجح وتارة يرى الفشل بارزا امام عينيه الى أن ضربت الاسكندرية وانتهت معركة التل الكبير وسلم عرابى وزملاؤه أنفسهم للجيش البريطانى فأخذ يهتم بالدفاع عنهم أمام قضاتهم وعين لهم محاميين بريطانيين على نفقته ونفقة جماعة من أصدقائه اكتتبوا لهذا الغرض . وبلغ مادفعه للمحاميين قريبا من ثلاثة آلاف جنيه .

---

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » —

La Situation Internationale de l'Egypte et du Soudan لمؤلفه جول كوشيرى Jules Cochèris صفحة ١٤٦

وبعد بضع سنين أوى مستر بلنت الى مصر وأقام فى ضيعة كانت له فى المطرية — بضواحى القاهرة — اسمها « الشيخ عبيد » وكان جاره فيها الشيخ محمد عبده فأطلعه فى سنة ١٩٠٤ على مسودات « التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر » فراجعها الشيخ وصحح ما رآه فيها مستحقاً التصحيح .

وكان الشيخ محمد عبده يلح على مستر بلنت فى طبع كتابه هذا بالانجليزية وكان ينوى أن ينقله هو الي العربية لولا ان المنية عاجلته فى سنة ١٩٠٥ . فلما توفى حزن عليه مستر بلنت حزن الصديق على الصديق ثم طبع كتابه بالانجليزية فبقى كذلك الى أن تولى قلم الترجمة فى « البلاغ » نقله الى العربية .

وفى سنة ١٩١٠ عقد الحزب الوطنى المصرى تحت رياسة محمد فريد بك مؤتمراً فى بروكسل للاحتجاج على الاحتلال وكان مستر بلنت قد انتقل الى انجلترا فأرسل اليه فى ١٣ سبتمبر خطابا أنحى فيه بأشد اللوم على بقاء الاحتلال وعلى السياسة التى تتبعها انجلترا في مصر وحذر المصريين من هذه السياسة فقال كلمات ننقلها هنا لأنها تشهد له بالصراحة والاخلاص .

قال مخاطبا المصريين [1] : « احذروا منا فانا لا نريد لكم شيئاً من الخير . لن تنالوا منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية . وما دمنا في مصر فالغرض الذى نسعي اليه من البقاء فيها هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية فى منشستر ، وأن نستخدم أموالكم لتنمية مملكتنا الافريقية فى السودان » .

ثم قال : « لم يبق لكم عذر اذا أنتم انخدعتم فى نياتنا بعد أن وضح الأمر فيها وضوحا تاماً . فاحذروا أن تنساقوا الى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها »

ثم أخذ ينصح الوطنيين المصريين فقال : « ثابروا على أن تعارضونا معارضة جهرية جريئة كل يوم . اطلبوا بلسان واحد وفي كل فرصة أن يوضع حد لما تتألمون منه وأن نعود نحن الى حظيرة القانون وأن نسحب جنودنا من بلادكم وأن نكف عن التدخل فى شؤونكم . اطلبوا ذلك فانكم بطلبه لا تخسرون شيئا اذ نحن غربا

---

(١) مجموعة المؤتمر الوطنى المصرى Congrés National Eg. صفحة ٨٧ وصفحة ٨٨ وصفحة ٨٩

عندكم ومن حقكم أن تطالبونا بترككم . ذكرونا دائما ، وبكل وسائل الاعلان ، بلاحق لانجلترا في أن تتصرف عندكم تصرف السيد وانكم لا تريدوننا حامين لكم ولا مستشارين ولا منظمين لاداراتكم . ولا تتركوا لنا عذراً نعتذر به لندعي لانفسنا شيئا من ذلك .

« أظهروا معاداتكم لنا بصراحة ، ولكن لا تظهروها بثورات سابقة للأوان لا تفيدكم شيئا ، بل بتلك الوسائل التي تستطيعها كل الشعوب التي تمنى بالاجنبي تثبت له استياءها وهي مقاطعته في معاملاته التجارية والرسمية وفي علاقات الافراد بعضهم ببعض

« لديكم جالية أجنبية كبيرة غير انجليزية فوثقوا روابطكم بها واجتهدوا في أن تقضوا أشغالكم معها بدل أن تقضوها معنا

« سالموا كل الناس ولكن لا تحاولوا أن تسالمونا لان كل محاولة من هذا النوع منا تذهب عبثاً ولأن كل نداء توجهونه الى شعور العدل فينا وشعور الشرف والانسانية يكون بعد اليوم موجبا للسخرية وليس له عندنا غير جواب واحد هو الاحتقار .

« لا . لم يبق لكم الا وسيلة واحدة لاقناعنا وهي أن تثبتوا لنا أن احتلالنا بلادكم مصدر تعب لنا ينمو دائما ومصدر خطر عظيم علينا اذا شبت الحرب. أقنعونا بذلك إذ في اليوم الذى يفهم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم لا توازى المتاعب والاخطار التى يسببها لنا، نرى انكم محقون ونترك بلادكم. وثقوا بانا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة »

تلك هي نصائحه التي وجهها الى الوطنيين المصريين ولا ريب في ان الانجليز الذين يقولون مثلها قليلون

وقد تردد ذكر مستر بلنت في أكثر الكتب التي ألفت للآن عن حوادث سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ ، فقال عنه جول كوشيرى صاحب كتاب «الحالة الدولية لمصر والسودان » [١] ان مساعيه وكتاباته والانتقادات الحارة التي وجهها الي انجلترا

---

(١) صفحة ١٤٦

دلت على أنه من أولئك الانجليز الذين يجوبون العالم وفي رأسهم فكرة أو قضية يبادون بها ويدافعون عنها بكل ما في الخلق الانجليزي من الصلابة وما في الايمان من العقيدة المقدسة . ويروي أشيل بيوفيس Achille Biovès في كتابه « الفرنسيون والانجليز في مصر »[1] انه لما حصل مستر بلنت من العرابيين على برنامج الحزب الوطني وراجعه مع الشيخ محمد عبده علم بخبره السير ماليت فرغب الى مستر بلنت في تعديل بعض فقراته قبل نشره في التيمس فلم يتمكن من ذلك إلا بعد عدة أيام كان فيها مستر بلنت سفيراً بينه وبين العرابيين وحينئذ كتب السير ماليت الى لندن يثني على مستر بلنت ويقول انه « مدين له بكثير من الفضل وانه قد يعتمد عليه في المستقبل في مهام جديدة »[2] . وقال اللورد ملنر ان مستر بلنت كان في بعض الاوقات ينزل في فندق شبرد فكان كلما ذهب الى المحطة للسفر أو جاء منها ركب جملا . وقال عنهم أشياء أخرى لا محل للافاضة فيها

وتوفي مستر بلنت في عام ١٩٢٤ بعد أن طبع مذكرات له في ثلاثة مجلدات ضخمة فيها جزء غير قليل عن حوادث مصر قبل الاحتلال وبعده . وقد نشر « البلاغ » تعريب هذا الجزء وربما جمع في كتاب على حدة .

• • •

عهد اسماعيل باشا

نظرة سريعة

ليس كتاب « التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر » تاريخا بالمعنى المعروف من كلمة « التاريخ » وانما هو قصة شخصية قص صاحبها رحلاته في سوريا والعراق والهند ونجد وجدة ومصر ، ثم اذ استقر في القاهرة في آخر سنة ١٨٨١ قص الحوادث التي جرت على يديه فيها ، ثم اذ غادرها بعد ذلك الى لندن قص مساعيه السياسية فيها من جانب والاخبار التي كان سكرتيره صابونجي يرسلها اليه من مصر

(١) Français et Anglais en Egypte صفحة ٤٣

(٢) الواقع ان السير ماليت كتب تلغرافين بهذه الالفاظ الى اللورد جرنفيل الذي كان اذ ذاك وزيرا لخارجية انجلترا في ٢٦ و ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

من جانب آخر . فهو لم يكتب كتابه هذا ليجعله تاريخا ككل التواريخ وانما كتبه ليكون قصة لحوادث رآها بعينه وكان له ضلع فيها . ولامثال هذه القصص التي يرويها شهود الرؤية قيمة كبيرة فى تحديد الحقائق وتسجيلها في صفحات التاريخ ولكنها ليست التاريخ فى ذاته ولهذا رأينا أن نضع أمام نظر القارىء ، قبل أن يقرأ القصة موجزاً سريعا للحوادث من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن دخل الانجليز القاهرة كي تكون هذه الحوادث ماثلة فى ذهنه أثناء قراءته القصة .

مأساة القروض

لا يسع كل من يقرأ تاريخ مصر من عهد اسماعيل باشا الى اليوم الا أن يحكم ان هذا العهد كان بدء النكبات التي توالت على هذه البلاد بعد ذلك حتى رمت بها بين براثن الاحتلال . فان قصة الديون التي اندفع فيها اسماعيل باشا بطيش لا مثيل له كانت مأساة نقلت البلاد من الرخاء وراحة البال الى الخراب ثم الى الوقوع فى شباك النفوذ الاجنبي ثم الى الثورة ثم الاحتلال . ومهما يقل القائلون فى الاصلاحات التي أنشأها اسماعيل باشا فان مأساة ديونه تذهب بكل قول لانها بايقاعها البلاد في الخراب قضت على جميع الاصلاحات ثم لانها زادت بعد ذلك فقضت على استقلال البلاد .

وقد وصف اللورد ملنر [١] اسماعيل باشا فقال انه « المثل الكامل للتبذير ، وأعظم من عرف في التاريخ بالسفه مع عدم الاكتراث بالعواقب » ثم قال انه « لم تكن له مبادىء يصدر عنها بل كانت له أعمال جنونيه تمتاز بانها تشبه فى ضخامتها ضخامة الاهرامات أو معبد الكرنك » . ثم استمر فقال ان « الاستبداد كان خلقا فيه ولكنه مع ذلك نزل حتى صار مستعطياً وأسيراً » . تلك هى الاوصاف التى وصفها به اللورد ملنر ، واللورد ملنر سياسي انجليزى يعرف أن ديون اسماعيل كانت أول عامل فى الحوادث التى استغلتها انجلترا حتى وضعت يدها على مصر فليس من السهل ان يتهم بالكراهية له والحقد عليه .

ونمر الآن مرور السهم بقصة هذه الديون فنقول انه لما ولي اسماعيل العرش فى

---

(١) انجلترا فى مصر صفحة ٢٦٣

سنة ١٨٦٣ كان كل الدين الذي على مصر ٣٫٢٩٢٫٠٠٠ جنيه انجليزى (١) وكانت ضريبة الفدان ٤٠ قرشا وكانت البلاد في رخاء ظاهر فشرع يبني القصور ويقيم الحفلات وينشيء المشروعات الضخمة بغير تروية ولا حساب كأنما كانت كل فكرته أن يعلن عن نفسه لا أن يصلح (٢). فانشأ طرقا ومعامل وورشا ومصانعات كانت كلها ضخمة ولكنها لم تكد توجد حتى أهملت وصار كثير منها مأوى للوحوش (٣). واندفع في حب الظهور فادهش ملوك أوربا بما كانوا يسمونه كرما شرقيا وما هو الا الاسراف القاتل. وقد بقيت حفلاته التى أقامها لملوك أوربا وملكاتها وأمرائها وأميراتها في فتح قناة السويس مثلا يتحدث به الاوربيون الى اليوم في كل ما يكتبونه عنه. وكان بدهيا أن ميزانية مصر لا تتحمل هذه النفقات فكان من الضروري لاسماعيل أن يستدين فاندفع بما فيه من عدم المبالاة بالعواقب فما زال حتى قضي على نفسه وعلى مصر معه

بدأ فعقد أول قرض في سنة ١٨٦٤ بفائدة ٧ فى المئة غير الاستهلاك. وعقد فى سنة ١٨٦٥ قرضا ثانيا. ثم مضت سنة ١٨٦٦ بغير أن يعقد قرضا ولكن لما جاءت سنة ١٨٦٧ حدث به الحاجة الى قرض ثالث وكان قد برع في التمهيد للاقتراض وفى التظاهر بالبذخ استجلابا لارباب الاموال فحمل لمصر جناحا فى معرض عام فتح فى تلك السنة فى باريس ثم جاء بنفسه اليه وأخذ يظهر

(١) يقول مسيو دى فريسينيه في كتابه « المسألة المصرية » ان اسماعيل باشا لما تولى العرش اصدر بيانا بالدين الذى تركه سلفه سعيد باشا ادخل فيه ثمن الـ ١٧٦ الف سهم التى كانت حصة مصر فى شركة قناة السويس والتى كان على مصر ان تدفع قيمتها ، فكان هذا البيان ٣٦٧ مليون فرنك اي نحو ١٤ مليون جنيه ونصف مليون . وكان ثمن الاسهم مقدرا فى هذا المجموع بمبلغ ٨٨ مليون فرنك وهو لا يصح ان يعتبر دينا .

على اننا لم نجد لهذا التقدير الذى اصدره اسماعيل باشا مستندا صحيحا ووجدنا كل مصادر التاريخ تقول ان دين مصر فى ذلك الوقت لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين جنيه

(٢) انظر كتاب Croquis Egyptiens صفحة ٨٥ لمؤلفه V. de Khonshy

(٣) انظر رسائل كتبتها اذ ذاك مدام Lee Childe تحت عنوان Impressions de voyage

من ضروب الاسراف ما لفت اليه الانظار ، ولم يبرح باريس حتى عقد مع محل مالي بها قرضا يبلغ ٢٩٦ مليون فرنك أى قريبا من ١٢ مليون جنيه [١]

وفى العام التالى ١٨٦٧ عقد قرضا رابعا فبلغ مجموع ما اقترضه ٢٥،٥٠٠،٠٠٠ تتراوح فائدتها الاسمية بين ٧ و ٨ فى المئة اما فائدتها الحقيقية فتتراوح بين ١٢ و ٢٦ فى المئة [٢].

وحينئذ تنبهت الحكومة العثمانية لما قد يكون من تأثير هذه الديون على مصر فحظرت على اسماعيل ان يستدين، ولكنه بالرغم من هذا الحظر عقد فى سنة ١٨٧٠ قرضا مع البنك الفرنسى المصرى يبلغ ١٧٥ مليون فرنك وفائدة ١٣ فى المئة ورهن فيه بعض أملاكه وأملاك أسرته . وهذا القرض هو الذي كان يسمى قرض الدائرة السنية . وحينئذ كتب الباب العالى الى الحكومة الانجليزية باعتبار انها ممثلة لمعظم دائنى اسماعيل « يحتج مقدما على كل اتفاق مالى يمس دخل مصر بالذات او بالواسطة ولا يكون جلالة السلطان قد أقره » [٣]

وهل تظن ان شهوة الاقتراض فى اسماعيل وقفت عند هذا الحد أو أنه شعر بالهاوية التي تحفرها هذه القروض تحت اقدامه وأقدام مصر فكبح جماح نفسه ؟ كلا ، ولم تزدد الشهوة فيه الا استحكاما ولم يبق له شاغل يشغله الا ابتكار الحيل لاجتذاب المرابين وعقد القروض معهم . ولكن سنة ١٨٧٠ كانت سنة الحرب بين المانيا وفرنسا وكانت هذه الحرب قد أقفلت أسواق أوربا فماذا يفعل ؟ انه اذن يلجأ الى حيلة غريبة يبتز بها الاموال من كل ذى مال بين المصريين ، وهي ان يصدر ما سمى « قانون المقابلة » وفيه تتعهد الحكومة لكل من يدفع مقدما ضرائب ست سنوات على أطيانه باعفائه من نصف الضرائب على هذه الاطيان الي الابد . وبهذه الحيلة يحصل اسماعيل على خمسة ملايين جنيه ينفقها الى ان تفتح امامه أسواق المرابين فى فرنسا وانجلترا .

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمسيو دى فريسينيه ص ١٤٨ و ١٤٩

(٢) تقرير بعثة كيف صفحه ١ وسيأتى ذكره

(٣) الصحيفة البرلمانية البريطانية (١٠٠) ١٧٨٠ ص ١ (عن كتاب المسألة المصرية لمستر تيودور رتستين وتعريب الاستاذين عبد الحميد العبادي ومحمد بدران)

وكانت ديون اسماعيل الى هذه الساعة شخصية يقع عبئها على أملاكه وأملاك أسرته المرهونة ثم على دخل الحكومة فى عهده بمقتضى ماله من سلطة التصرف فى هذا الدخل، ولكنها لا تقع على دخل الحكومة بعد عهده . وكان اسماعيل قد وضع يده باساليب مختلفة على أطيان واسعة من أملاك الفلاحين لان المرابين ذكروا بأن جميع أطيان القطر المصرى كانت ملكا للوالى فى عهد جده محمد على باشا وأن سعيد باشا هو الذى خالف هذه القاعدة ونزل عن ملكيتها للاهالى وكان قصد المرابين من ذلك ان يحصلوا على أعظم ضمان ممكن لاموالهم وأطماعهم . ولكن بقاء الديون شخصية كان من شأنه ان يضع حدا للاقتراض فلما بلغ اسماعيل هذا الحد ورأى أن الباب العالى « يحتج مقدما على كل اتفاق مالى يمس دخل مصر بالذات او بالواسطة » فكر فى أن يزيل هذه العقبة من وجهه وان يحصل من الباب العالى على السلطة التى تبيح له ان يرهن دخل الحكومة كى يحول ديونه الشخصية الى ديون على الحكومة وكى يتسع المجال امامه الى قروض جديدة . وفعلا سعى لهذه الغاية فى الاستانة وأرسل اليها نوبار باشا فما زال ينثر فيها الذهب حتى حصل على فرمان سنة ١٨٧٣ وبه نال اسماعيل لقب « خديو » وصار عرش مصر إرثا لابنائه بعد ان كان للارشد فى أسرة محمد على وصار من حق اسماعيل ان « يتصرف التصرف التام المطلق فى شؤون البلاد المالية » ، فحول كل ديونه السابقة الى ديون على الحكومة رهن فيها جزءاً كبيراً من الدخل ثم شرع يطرق ابواب الماليين فى انجلترا وفرنسا لقرض لم يكن يرضيه فى هذه المرة الا أن يكون ٨٠٠ مليون فرنك أى نحو ٣٢ مليون جنيه

ورهن اسماعيل فى هذا القرض دخل السكك الحديدية ودخل ميناء الاسكندرية وكل دخل مرهون من قبل يصبح حراً بعد سداد ما عليه . وكان اسماعيل ونوبار قد بذلا كل الحيل وكل الجهود كي ينجح هذا القرض ولكن لما فتح الاكتتاب

فيه فى باريس ولندن لم يقط فخسرت أسهمه الربع من ثمنها فى أيام قليلة أي ثمانية ملايين جنيه .

وجاءت بعد ذلك سنة ١٨٧٤ وكان لابد لاسماعيل من أن يقترض لان الاقتراض صار عادة له سنوية ثم لان قروضه السابقة بلغت حداً صارت ايرادات الحكومة المصرية عاجزة معه عن أن تسدفوائدها السنوية فكان الاقتراض ضروريا لسداد هذه الفوائد وإلا أفلس اسماعيل ولم يبق في استطاعته بعد ذلك أن يلعب بالاموال . ولما كانت تجربة القرض السابق قد دلته على أن أسواق اوربا لم تعد تعطيه فوق ما اعطته ارتد الى الامة المصرية كما ارتد اليها فى انشائه قانون المقابلة فابتدع ما سماه « الروزنامة » وجعله نوعا من انواع صناديق الايداع وطلب من المصريين ان يودعوا فيه اموالهم ليأخذوا بدلا منها مرتبات دائمة تختلف باختلاف مايودعه كل منهم على ان يكون كل مال يودع ملكا للحكومة من ساعة ايداعه لا يحق لصاحبه ان يسترده . فلم يقبل المصريون علي هذا النوع من الايداع لانهم كانوا قد جربوا اسماعيل وعرفوا قيمة تعهداته فاستخدم سلطته فى اكراههم علي الايداع حتى حصل بذلك على بضعة ملايين من الجنيهات . ثم لم يكفه هذا فأصدر فى الوقت نفسه سندات ، او بعبارة أخرى اوراقا مالية ، على الخزينة المصرية ثمانية ملايين جنيه بفائدة من ١٠ الى ١٥ فى المئة وأكره المصريين على ان يشتروها

وفى سنة ١٨٧٥ توقفت الحكومة التركية عن دفع ديونها وأعلن إفلاسها فأثر ذلك فى أسهم القروض المصرية فانزعج اسماعيل اذ رأى انه صار من الافلاس قاب قوسين او أدنى ، ولم يكن فى استطاعته ان يقترض ولا أن يبتز مالا من المصريين بحيلة من الحيل فبحث فى خزائنه فوجد ان أسهم مصر فى شركة قناة السويس وعددها ١٧٦٦٠٢ لاتزال باقية فعرض على الحكومة الفرنسية أن تشتريها بأربعة ملايين جنيه فلم تعطه الجواب بسرعة، ولكن الحكومة البريطانية علمت بهذا العرض فتقدمت له بالمال الذى يطلبه على تعجل فباعها الاسهم بواسطة بيت روتشلد فى ٢٥ نوفمبر من

تلك السنة [1]

والى هنا بلغت ديون اسماعيل القمة ووقفت البلاد من جرائها على شافة الهاوية . وقد حصرت هذه الديون بعد ذلك بقليل اى حينما صدر «قانون التصفية» فكانت كما يأتي : —

الدين الممتاز	٢٢،٦٨٩،٨٠٠ جنيه انجليزى
الدين الموحد	٥٨،٠٤٠،٣٢٦ « «
قرض الدائرة السنية	٩،٥١٨،٨٠٤ « «
قرض الدومين	٨،٥٠٠،٠٠٠ « «
المجموع	٩٨،٧٤٨،٩٣٠

فاذا نحن استبعدنا من ذلك الثلاثة الملايين التى اقترضها سلفه سعيد باشا كان مجموع ما اقترضه اسماعيل من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٥ أى فى ثلاث عشرة سنة قريبا من ٩٦ مليونا . وهذا عدا خمسة ملايين اخذها فى « قانون المقابلة » وخمسة ملايين اخرى اخذها في « الرزنامة » وثمانية ملايين أخذها فى السندات التى أصدرها على الخزينة وأربعة ملايين ثمن أسهم شركة قناة السويس وملايين أخرى استولى عليها من كبار التجار وكبار المزارعين لم تحصر ولم تقيد في حساب

---

(١) يؤخذ من كتاب وضعه مسيو شارل رو أحد النواب الفرنسيين تحت عنوان « برزخ وقناة السويس » — L'isthme et le Canal de Suez — فى سنة ١٩٠١ أن الحكومة البريطانية قبضت عن هذه الاسهم من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٩٤ فائدة قدرها ٥ ملايين فرنك في السنة أى ١٢٠ مليونا . ثم قبضت من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ حصة كانت تتراوح كل سنة بين ١٦ و ١٧ مليونا اى ٨٥ مليونا . فيكون مجموع ما قبضته من الربح لغاية سنة ١٩٠٠ — ٢٠٥ ملايين اى ضعف الثمن الذى اشترت به من اسماعيل . وهذا غير الربح الذي قبضته من سنة ١٩٠٠ الى اليوم (وصفحة ٣٥ — جزء ثان من الكتاب المذكور)

اما ثمن هذه الاسهم الان فيقرب من ٩٠٠ مليون فرنك ذهبا

ولأية حكومة جمع اسماعيل هذه الديون ؟

لحكومة مصر التى كان كل دخلها فى عهد سعيد باشا لايزيد على خمسة ملايين جنيه، وكان فى عهده هو ، بعد ان زيدت ضرائب الاطيان من ٤٠ الى ١٦٠ قرشاً وبعد ان أرهق أهلها بعشرات من الضرائب ، لايزيد على تسعة ملايين ونصف مليون .

وبأية فائدة كان اسماعيل يقترض هذه الديون ؟

بفائدة اسمية بين ٧ و١٢ و١٣ فى المئة وفائدة حقيقية بين ١٣ و٢٦ فى المئة كما ثبت ذلك مستر « كيف » الذي سيأتي ان الحكومة البريطانية أرسلته فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ ليفحص حالة الماليه المصرية [1]

على ان مبالغ هذه الديون لم تصل كاملة الى يد اسماعيل بل كان مقرضوه من المرابين يكتبون القرض كاملا ثم يقدمون له حسابا طويلا بالسمسرة وبالفوائد التى يحجزونها مقدما على أساس ٢٦ فى المئة كي يكون الباقي منها ٧ فى المئة كما هو مذكور فى العقد ثم بغير ذلك من المصروفات والاتعاب والهبات « البقشيش » . وكان اسماعيل يقبل منهم هذه الحسابات بسهولة ولهذا دل التحقيق على انه لم يستلم من القرض الكبير الذى عقده فى سنة ١٨٧٣ بمبلغ ٣٢ مليون جنيه غير ٢٠٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه[2] ولم يستلم من القرض الذى عقده فى سنة ١٨٧٠ بمبلغ ٧ ملايين جنيه غير ٥ ملايين ثم لما احتج الباب العالي على ذلك رشا اسماعيل الصدر الاعظم فأسدل الستار وعاد كل شيء الى السكوت[3] . وأخيراً ان كل الذين فحصوا مالية مصر فى تلك الاوقات

---

(١) صفحة ٧ من تقرير كيف

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » الذى تقدم ذكره ص ٧٠

(٣) كتاب Croquis Egyptiens الذى تقدم ذكره ص ٩٥ ــ وكتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٧٠

مجمعون على أن اسماعيل لم يستلم سوى مايقرب من ٥٤ مليون جنيه من كل القروض التي عقدها والتي تقدم انها بلغت حوالي ٩٦ مليونا (١)

وانظر كيف كان تأثير هذه الديون في ميزانية الحكومة . حصرت الميزانية في سنة ١٨٧٧ وكان مجموع الايرادات ٩٫٥٤٣٫٠٠٠ جنيه ثم كان ماخصص منها للديون بين فوائد واستهلاك ٧٫٤٧٣٫٠٠٠ جنيه يضاف اليها الويركو المخصص للباب العالى وما كان على الحكومة أن تدفعه لشركة قناة السويس فى تلك السنة يكون الباقي من الايرادات ١٫٠٧٠٫٠٠٠ جنيه. فبهذا المليون الواحد والسبعين ألفا كان على الحكومة أن تنفق على جميع شئون البلاد: على موظفيها وعلى الجيش والبوليس والرى والتعليم والمحاكم والصحة العمومية وغير ذلك من كل مايجب ان تقوم به الحكومة

ولم تكن مصروفات الحكومة فى ذلك الوقت عادية بل كان فيها عنصر مخيف هو المصروفات المخصصة للموظفين الاجانب والتعويضات الفاحشة التى كانت تدفع فى كل وقت للأفاقيين من الاجانب . وذلك ان اسماعيل رغب منذ توليته العرش فى ان يجعل مصر قطعة من أوروبا ، وبما ان الفكرة كانت تتحول عنده بسرعة الى رعونة ظن أنه يستطيع ذلك بالاكثار من الموظفين الاوربيين وباعطائهم المرتبات الضخمة وباسدائهم الهدايا والنعم ليثنوا عليه وعلى كرمه . ثم لما وقع فى الدين انهالت عليه من الدائنين ومن الحكومات الاجنبية سيول من مستحلى الوظائف فلم يجسر أن يرد أحداً ، حتى اذا جاءت سنة ١٨٧٧ التى مر ذكرها كانت مرتبات الموظفين الاجانب ٣٧٣٫٠٠٠ جنيه فاذا هي خصمت من المليون والسبعين ألفا التى تقدم ذكرها لم يبق للحكومة ولجميع شئون البلاد غير ٧٠٠٫٠٠٠ جنيه .

اما التعويضات للأفاقيين فان اكثر عشراء اسماعيل فى السنين الاخيرة كانوا قوما كل همهم ان يستثيروا شهوات نفسه وان يقضوا هذه الشهوات ليقتنصوا من ورائها كل ما يمكن اقتناصه من المغانم . فتقدموا له بطلبات امتيازات لانشاء معامل والبحث عن معادن ولجلب صناعات اوربية ولغير ذلك من الاعمال . ولم تكن طلباتهم هذه جدية ولم يكن قصدهم منها ان يعملوا وانما كان كل قصدهم

---

(١) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » ص ١٩ من الترجمة

أن يحصلوا على الامتيازات ثم أن يتعللوا بأية علة من العلل كي يلقوا مسئولية فشلهم على الحكومة وكي يطالبوها بتعويض . وكان اسماعيل سهلا فى دفع هـذا التعويض حين كانت أبواب القروض لا تزال مفتوحة فى وجهه وحين كانت يده تبقر هـذه القروض يمينا وشمالا فكان ذلك يشجعهم ويحملهم حوله جيشا جرارا . ولكن لما سدت أبواب الاقتراض فى وجهه لجأوا الى المحاكم المختلطة معتقدين انها لابد آخذة بناصرهم ضده . وكانت هذه المحاكم قد أنشئت فى سنة ١٨٧٦ فأحصيت التعويضات المطلوبة من الحكومة المصرية أمامها في تلك السنة وحدها فكانت ٤٠ مليون جنيه [١] . ويروى فى هذا ان اسماعيل استقبل ذات يوم واحداً من أولئك الأفاقين أصحاب الامتيازات وكانت نافذة الغرفة مفتوحة فنادى موظفا من موظفي قصره وقال له : « أغلق بالله هذه النافذة لئلا يصاب السيد (مشيراً الى زائره) ببرد فيكلفنى ذلك عشرة آلاف جنيه » [٢]

تأثير الديون فى حالة الشعب

وفى أثناء ذلك كانت حالة الشعب أسوأ الحالات ، فضرائب الاطيان زيدت كما قلنا من ٤٠ الى ١٦٠ قرشا والضرائب الأخرى لم تكن تعد لأن اسماعيل كان كلما وقع فى الحاجة اقترح ضريبة جديدة وجعل الكرباج وسيلة الى تحصيلها . ثم لما ذكره المرابون كما تقدم بان جميع الاراضى كانت ملكا للوالى وأن جده محمد على بقى الى عدة سنوات صاحب الامتياز فى تجارة مصر الخارجية عول على أحياء هذه الحقوق فى شخصه [٣] فأخـذ يرهق المزارعين حتى تصبح الاراضي عالة عليهـم فيضطروا الى بيعها بأثمان بخسة او الى تركها والفرار منها فيضع يده عليها . وبهـذه الطرق استولى على خمس الاراضي الزراعيـة فى القطر ولمـا يمض على حكمه بضع

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » الذى تقدم ذكره صفحة ٧١
(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها
(٣) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » صفحة ١٧ من الترجمة

سنين [1] وحسبنا ان ننقل هنا ما كتبه مستر بلنت وصفا لحالة الفلاحين وقد رآهم اذ ذاك بعينه ، قال :

« كان من الامور النادرة فى تلك الايام ان يرى الانسان شخصا في الحقول وعلى رأسه عمامة او على ظهره شيء اكثر من قميص . وحتى في ضواحى القاهرة، وبالاكثر فى الفيوم التي عمنا بوجوهنا شطرها بمجرد حصولنا على الجمال ، يكفيني ان اقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عباءة . واينما ذهبنا كانت الحال كذلك . وغصت مدن الارياف في ايام الاسواق بالنساء اللاتي اتين ليبعن ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الاروام لان جامعي الضرائب كانوا فى قراهن والكرباج مشهر فى ايديهم . فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة واصغينا الى قصصهن واشتركنا معهن فى استنزال اللعنات على الحكومة التي حملتهن عرايا »

فهذا الوصف يدل على مقدار ما وصل اليه سوء الحال فى ذلك الوقت . وقد شمل هذا السوء جميع الطبقات وجميع الهيئات ومن بينها هيئة الضباط فى الجيش ، وكان أحمد عرابي أحد هؤلاء الضباط فألف جماعة من زملائه عصبة سرية لخلع اسماعيل [2] ولكن هذه العصبة لم تفعل شيئا . وكان السيد جمال الدين الافغانى اذ ذاك فى مصر فاقترح على الشيخ محمد عبده، وكان احد تلاميذه ، أن يقتل اسماعيل على جسر قصر النيل [3] وهذا ما يقوله الشيخ محمد عبده فى ذلك: « كان الشيخ جمال الدين موافقا على الخلع واقترح عليّ أنا أن اقتل اسماعيل وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما نتهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقا الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة » .

---

(١) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » صفحة ١٧

(٢) انظر « تاريخ احمد عرابى بقلمه » فى ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٤٧

(٣) انظر المصدر السابق فى الصفحة نفسها ـ وانظر ايضا « رأى الشيخ محمد عبده فى تاريخ عرابى » المنشور فى ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٥٤

هذا كان تأثير الديون في شؤون البلاد المادية فننظر بعد ذلك في تأثيرها في الشؤون السياسية وسنرى انها كانت الباب الذى تسرب منه النفوذ الاجنبي الى حظيرة الحكومة المصرية ودخلت منه انجلترا حتى وضعت يدها على مصر

بعد أن اقفلت الاسواق المالية كلها في وجه اسماعيل فى سنة ١٨٧٥ وبينما كان يفكر فى بيع سهوم مصر فى قناة السويس كان يرى أن ثمن هذه السهوم لايكفيه وأن لابد له من قروض جديدة ، غير انه كان يعلم أن اسواق أوربا لن تعود فتفتح أبوابها له الا اذا قام لديها برهان على أن مصر قادرة على الدفع وأن ماليتها تحتمل قروضا أخرى ، فهداه التفكير الى أن يكون هذا البرهان شهادة يأخذها من مندوب تنتدبه احدى الحكومات لفحص حالة مصر المالية . ولم يكن أمامه لهذا الغرض غير احدى حكومتين هما انجلترا وفرنسا لان ديونه كلها كانت فى بلادهما ، ولكن فرنسا كانت لاتزال مرتبكة بعد حرب سنة ١٨٧٠ فلم تكن أسواقها مستعدة لان تقرضه فاتجه الى الحكومة البريطانية وخاطب قنصلها العام في مصر الجنرال استانتن في انه « محتاج الى موظف عليم بالنظم المتبعة في مالية الحكومة البريطانية ليعاون ناظر المالية المصرية على سد الخلل الذى يعترف به تكوه فى هذه النظارة »[1] وكانت الحكومة المصرية فى ذلك الوقت سليمة من كل تدخل للحكومات الاجنبية فكان هذا الطلب أول دعوة لانشاء هذا التدخل[2]

وكتب الجنرال استانتن الى اللورد دربي وزير خارجية الحكومة البريطانية بما طلبه منه اسماعيل فاوعز اللورد بان يكون الطلب كتابة وأن يكون موضوعه « استعارة موظفين يشرفان على الدخل والخرج ويكونان خاضعين لارشاد ناظر المالية وأمره»

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لتيودور روتستين ص ١٠ من الترجمة

(٢) كان اسماعيل قد استعار قبل ذلك من الحكومة البريطانية موظفين هما مستر بل ومستر اكتن للعمل فى مصلحة التجارة ولكن طبيعة عملهما لم تكن تجعل لهما صفة سياسية فكانا كغيرهما من الموظفين الاجانب اما وجود مندوب من الحكومة البريطانية يعاون وزير المالية فهو امر لا تخفى صبغته السياسية

ورضي اسماعيل وكتب ما أملي عليه . وفى أثناء ذلك ، وقبل أن يجيب اللورد دربي على هذا الطلب ، اشترت الحكومة البريطانية سهوم مصر فى قناة السويس فى ٢٥ نوفمبر ، وبعد هذا الشراء بيوم واحد كتبت جريدة التيمس تقول : « ان الجمهور فى هذا البلد وغيره سينظر الى هذا العمل الخطير الذى قامت به الحكومة الانجليزية من نواحيه السياسية لامن نواحيه التجارية . سيعده مظاهرة وشيئاً أكثر من مظاهرة . سيعده اعلانا لنياتنا وشروعا فى العمل على تحقيقها . ان من المستحيل أن نفكر فى شراء أسهم قناة السويس منفصلا عن علاقة انجلترا المستقبلة بمصر » . وبعد ذلك بيوم واحد أيضا أى فى ٢٧ نوفبر كتب اللورد دربى الى الجنرال استانتن يقول ردا على طلب اسماعيل « ان الحكومة البريطانية ترى أن ترسل الى مصر بعثة خاصة تنظر هى والخديو فيما يساله من النصح فى الشؤون المالية » وبذلك حولت الحكومة البريطانيــة طلب اسماعيل موظفين الي « بعثة » وجعلت مهمة هــذه البعثة « النصح » ، والنصح فى لغة السياسيين معناه الوصاية

وقبل اسماعيل رأى الحكومة البريطانية بحكم حاجته الى المال فتألفت البعثة من خمسة من موظفى الحكومة البريطانية تحت رياسة مستر كيف وقدمت الي مصر فى النصف الثاني من ديسمبر وشرعت تفحص حالة المالية المصرية . وفي ٢٩ يناير سنة ١٨٧٦ كتبت جريدة التيمس تقول : « لاشيء أضمن لسلامة مصر من القيام بتغيير أساسى فى الحكومة المصرية وماليتها . ولا شك فى أنه لو كانت الثقة بمصر فيما مضى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع دائنيها على خير من الشروط التى اتفقت معهم عليها . فالمسألة اذن هي كيف تحوز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر ان كل مايقال فى هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بان الخديو سيخضع بطريقة من الطرق صاغراً للارشاد الانجليزى وأنه سيعهد الي انجلترا بادارة مالية مصر ، وبذلك يتحول الى مصر بعض من ثقة الجمهور بانجلترا فتتمكن من تحويل ديونها وانقاص أقساطها السنوية نقصاً كبيراً » . اذن كان الانجليز يريدون من بعثة « كيف » أن تؤدى الى اخضاع اسماعيل للارشاد الانجليزى ثم أن يتولوا ادارة المالية المصريه . وكان معولهم

فى ذلك على مايعرفونه فى اسماعيل من الرغبة فى قروض جديدة ثم على ما يعرفونه ويجانبه من الاشراف على الافلاس

وكان اسماعيل حينما فكر فى طلب مندوب من الحكومة البريطانية يفحص ماليه ويعطيه شهادة عنها يعتمد أولا على استطاعته خدع هذا المندوب واخفاء العيوب عن عينيه وثانيا على مظاهر التودد والاكرام يحيطه بها ومظاهر الغنى والبذخ يتظاهر بها أمامه . وبهذا وذاك اعتقد اسماعيل انه مستطيع أن يأخذ من بعثة «كيف» تقريراً يرضيه فلا يكون عليه بعد ذلك الا ان ينشره لتعود الاسواق المالية فتفتح له أبواب الاقتراض .

ولعله لم يتساهل مع الحكومة البريطانية فى تحويلها طلبه مندوبا الى بعثة وفى حشا سبة هذه البعثة « النصح » إلا توهما منه انه بذلك يستدرجها الى معاونته عن قصده . ولكنه نسي في هذا الحساب أولا أن أكثر دائنيه كانوا من الانجليز الذين تسأل الحكومة البريطانية عن رعاية مصالحهم وثانيا أن هذه الحكومة كانت ترى مصلحتها فى التعجيل بخرابه وشد الخناق عليه لأنها بذلك توقعه فى اليأس وتستذله فتستطيع أن تسخره لتحقيق مطامعها السياسية . ولهذا لم تصع بعثة « كيف » التقرير الذى كان اسماعيل يرجوه بل وضعت تقريرا لا يسره فلما رأى ذلك لسناه ولم يقبل البرنامج الذي اقترحته عليه والذى كان مؤداه أن يخضع « للنصح » البريطاني ، ولكنه مع ذلك لم يفلت من مخالب الحكومه البريطانية لانه قبل أن تعده بموظف من عندها هو السير رفرز ولسن يتخذه مستشاراً ماليا يعاون وزير المالية

وكانت الحكومة الفرنسية تراقب من قرب مساعي الحكومة البريطانية فى مصر فلما علمت أنها سترسل السير رفرز ولسن مستشارا ماليا لاسماعيل رأت أن تجيب على هذه الحركة بحركة مثلها فأرسلت على الفور أحد موظفيها ، وهو مسيو فيليه ليساعد اسماعيل على تنظيم ماليته . فتضايقت الحكومة البريطانية من هذه المقاومة وأرسل اللورد دربي الى اسماعيل يطلب منه ألا يتسرع فى اتخاذ أي قرار وأن ينتظر وصول السير ولسن

ووصل السير ولسن فرأى أن مسيو فيليه عرض على اسماعيل مشروعا لتنظيم

المالية المصرية (ليس هنا مكان بيانه لانا نقتصر فى ماذكرته على الوجهة السياسية) فلم يقبله ولم تقبله معه حكومته ، ولكن اسماعيل قبله وأظهر الرغبة في الاخذ به ، فلم يكن من الحكومة البريطانية الا أن أجابت على ذلك بأن ضربت اسماعيل ضربة أليمة كانت سببا في استعجيل عزله . وذلك أنها كانت قد اتفقت معه على عدم نشر التقرير الذى وضعته بعثة « كيف » فلما رأته ميالا للاخذ بمشروع مسيو فيليه لوحت له بانها ستنشر التقرير فكتب اليها يحتج على نيتها هذه ويقول ان المعلومات التي قدمت لبعثة « كيف » سرية محضة . فتظاهرت بالاصغاء لاحتجاجه ولكنها أوعزت الى أحد النواب البريطانيين بان يسألها فى البرلمان متى ينشر التقرير ، فلما طرح عليها السؤال لم تجب بان التقرير وضع على أن يكون سريا لاينشر بل أجاب مستر دزرائيلي بانه لامانع فى نشره ولكن الخديو هو الذي يعارض في ذلك أشد المعارضة[1] . فكان هذا الجواب أسوأ من التقرير نفسه وكان من تأثيره أن تدهورت في الحال أسعار السندات المصرية تدهورا شنيعاً ، وحينئذ لم ير اسماعيل الا أن يعود فيسمح بنشر التقرير فنشر في ٣ ابريل أى بعد عشرة أيام فقط من تصريح اللورد دزرائيلي . وشعر اسماعيل بألم هذه الضربة فقال وهو يكاد يبكي : « لقد حفروا لى القبر »[2] — Ils ont creuse ma fosse

وكان علي اسماعيل أن يدفع قسطاً من الفوائد — Coupon — فى أول ابريل ، ومع أنه كان قد قبض من الحكومة البريطانية قبل ذلك بأربعة أشهر أى فى ٢٥ نوفمبر أربعة ملايين جنيه في اسهم قناة السويس لم يكن لديه شيء يدفع منه هذا القسط ، ثم لما أعلن اللورد دزرائيلي تصريحه المار ذكره وهوت أسعار السندات المصرية لم يجد اسماعيل بداً عند اليه بقرض جديد يدفع منه ، فكتب فى ٢٨ مارس اى قبل ميعاد الاستحقاق بثلاثة أيام الى الحكومتين الفرنسية والانجليزية يسألها فى تذلل وخضوع أن تأتيا لمعونته والا حل به الدمار[3] فاجابت الحكومة البريطانية بالرفض اما الحكومة الفرنسية

---

(١) « تيودور روثستين ص ٢٠ و ٢١ من الترجمة — و « المناقشات البرلمانية » لهنسارد مجلد ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٣٩

(٢) المصدران السابقان

(٣) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٥٧

وقت لم تمت فرصة سانحة لاحتساب اسماعيل انها فاحت بالقبول ودبرت المال على على وصل الى لندن في الساعة الاخيرة من مساء ٣١ مارس واحتسب اسماعيل بذلك تلافي افلاسه

واقترحت الحكومة الفرنسية حينئذ على اسماعيل أن ينشيء ادارة خاصة تسمي « صندوق الدين العمومي » تتولى، تحت اشراف مندوبين عن الدول، تحصيل جزء من ايرادات الحكومة المصرية ودفع الاقساط منه . فتردد اسماعيل في قبول هذا المشروع لما رآه فيه من تقييد سلطته ورفضت الحكومة البريطانية أن توافق عليه لانها لم ترض عن شروطه . وعلى أثر هذا الرفض كتبت التيمس في يوم ٧ ابريل تقول : « لابد من احد أمرين إما ان تقوم حكومة موالية للخديو فتمد اليه يد مساعدتها حرة تقدير قبوله سلطتها الحامية والا فليتقدم الخديو بمشروع من عنده » وكان هذا جلياً في ان انجلترا كانت تسعى من ذلك الحين لاكراه اسماعيل على قبول حمايتها ، وكان مسلكها جليا في أنها تجعل وسيلتها الى ذلك شرك الديون الذى أوقع اسماعيل مصر فيه والخراب الذى جره على ماليتها

ولم يستفد اسماعيل من القسط الذى دفعته عنه الحكومة الفرنسية (قسط أول ابريل) اكثر من أن يتنفس أسبوعا واحدا لان الداء كان عضالا لا يفيد فيه ذلك المسكن الوقتي. فبعد هذا الاسبوع الواحد عاد الداء فظهر أشد مما كان ولم يجد اسماعيل مناصاً من أن يخضع في هذه المرة لاعلان افلاسه فلقت الحكومة المصرية في صباح ٨ ابريل في بورصة الاسكندرية اعلانا بانها عاجزة عن دفع القسطين المستحقين في ابريل ومايو في ميعادهما وستدفعهما بعد ثلاثة أشهر . فكان هذا اعلانا للتوقف عن الدفع أى للافلاس .

وما كاد هذا الاعلان ينشر حتي امتلأت السوق المصرية رعبا فذعر اسماعيل وسارع الى ابلاغ الحكومة الفرنسية انه يقبل انشاء صندوق الدين الذى اقترحته عليه ظانا أنه بذلك ينقذ موقفه . وأمضى فعلا في ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ امرين بانشاء هذا الصندوق الذى لا يزال قائما الى اليوم وخصص له ايراد مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط ، وايراد الدخولية في القاهرة والاسكندرية ، وايراد

جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وايراد السكك الحديدية ، وايراد رسوم الدخان، وايراد احتكار الملح، وايراد المطرية (دقهلية) وايراد رسوم الكبارى والمراكب ، وايراد كوبرى قصر النيل ، وأخيراً ايراد أطيان الدائرة السنية .

وفى المادة الثانية من الامر الصادر بانشاء هذا الصندوق ان على الموظفين الذين يتولون تحصيل الايرادات المار ذكرها أن يوردوا ما يحصلونه للصندوق لا لوزارة المالية. وفى المادة الرابعة منه ان جميع المنازعات التي تقوم بين الصندوق وادارات الحكومة المصرية ترفع الي المحاكم المختلطة . وفى المادة الثامنة ان الحكومة ممنوعة من أن تعدل ضريبة من ضرائب هذه الايرادات تعديلا يكون من شأنه انقاص الوارد منها الا بموافقة أغلبية المندوبين الذين يديرون الصندوق . وفى ديباجة الامر ان الذين يديرون الصندوق مندوبون أجانب تنتدبهم الدول ويعينهم الخديو بناء على هذا الانتداب . ومن هذه المواد يتضح أن انشاء هذا الصندوق كان انشاء لسلطة أجنبية بجانب سلطة الحكومة وقد قال مسيو دى فريسينيه انه كان «أول اعتداء على سلطة الخديو لانه مكن الدائنين من أن يكونوا سلطة فى الحكومة »[1]

وقدرت هذه الايرادات المخصصة للصندوق فكان مجموعها ٦٫٦٧٤٫٤١١ جنيها[2] من دخل يتراوح بين ٩ و٩ ملايين ونصف مليون جنيه

المراقبة الثنائية

تلك كانت المرحلة الاولى من مراحل التدخل الاجنبي فى شؤون الحكومة المصرية بسبب ديون اسماعيل ، ويقول مثل أوربى ان الخطوة الاولى هى العزيزة فسترى في ما يلي ان اسماعيل بعد ان خطا هذه الخطوة سار بعيداً وبسرعة حتى نزل لانجلترا وفرنسا عن كل سلطة الحكومة ، ثم اذ خطر له بعد ذلك ان يسترد سلطته لم يستطع وعوقب بالعزل والابعاد

رأينا ان الحكومة البريطانية لم ترض عن النظام المالي الذى أنشىء على أساسه

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمسيو دى فريسينيه ص ١٥٩

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٧٧

صندوق الدين لانها كانت ترى فيه مصلحة لحملة السندات من الفرنسيين تمتاز على مصلحة حتى يمكن ان يجنيها منه حملة السندات من الانجليز . فلما أنشىء الصندوق عينت فرنسا والنمسا وايطاليا مندوبيها فيه وامتنعت انجلترا عن ان تعين مندوبا لها.[1] وخرج المستر ريفرز ولسن من مصر عائدا الى أوروبا معلناً ان بقاءه في مصر صار مستحيلا[2]

ورأت الحكومة البريطانية بعد ذلك أن احتلافها مع فرنسا لا يحقق اغراضها فعمدت الى الاتفاق معها ولكن من وراء ستار فسافر الى باريس مستر غوشن، وكان عضواً في البرلمان وشريكا في مصرف فرهلنج الذي أقرض اسماعيل ديونه الاولى ، وهناك اجتمع بحملة السندات من الفرنسيين فما زال بهم حتى اتفق معهم على نظام مالي جديد لصندوق الدين (ليس هنا مكان البحث في هذا النظام لاننا كما قلنا من قبل ننظر الى الحوادث من وجهتها السياسية) أساسه أن يطلب الدائنون من اسماعيل تعيين مراقبين أوروبيين يراقب أحدهما دخل الحكومة ويراقب الثاني خرجها ليضمن الدائنون بذلك حصول صندوق الدين على الايرادات المخصصة له .

ثم سافر مستر غوشن مندوبا عن الدائنين الانجليز ومسيو جوبير مندوبا عن الدائنين الفرنسيين الى مصر وشرعا يهاجمان اسماعيل ليحملاه على الرضى بتعيين مراقبين . فقامت في البلاد ضجة استنكار وكان اسماعيل صديق باشا المشهور بالمفتش ناظراً للمالية فأيد هذه الضجة ونصح الخديو اسماعيل بالرفض والمقاومة . ثم حدث أن قتل صديق باشا غيلة فكتب مراسل التيمس في الاسكندرية الى جريدته يقول: « ان التخلص من المفتش يعد خاتمة نظام عتيق . . . . . لقد كان المفتش زعيم حرب يقاوم النفوذ الاوربي وكل تقدم للمدنية » الى أن قال : « ان سقوط صديق باشا الذي قيل انه كان قد أعد مشروعا معارضاً — (أى معارضاً لمشروع غوشن وجوبير) — يعد من أقوى دواعي النجاح » . وبعد ذلك بأيام أعلن اسماعيل أنه قبل مشروع غوشن وجوبير وأصدر في ١٨ نوفبر أمراً عاليا بضرب المراقبة على المالية المصرية

---

(١) عينت انجلترا مندوبا لها بعد سنة وهو السير افلن بارنج الذي صار فيما بعد اللورد كرومر

(٢) التيمس في ٥ يونيه سنة ١٨٧٦

وتقضي المادة السابعة من هذا الامر بان يعين مراقبان عامان أحدهما يراقب ايرادات الحكومة والثاني يراقب مصروفها والاعمال الحسابية الخاصة بالدين وتقضي المادة الثامنة بأن يكون جميع الموظفين الذين يتولون تحصيل الايرادات تحت ادارة مراقب الايرادات وأن يكون هو الذى يقترح على الخديو تعيينهم بواسطة وزير المالية . وله الحق فى وقفهم عن وظائفهم وعزلهم وتقضى المادة التاسعة بان يكون مراقب المصروفات مستشارا لوزير المالية وأن يكون هو الذى يراقب حسابات الحكومة ويسهر على تنفيذ اللوائح الخاصة بالدين . ولا يكون أمر بالصرف صحيحا الا اذا أمضاه ولو كان صادرا من وزير المالية . وتقضى المادة العاشرة بأن يشترك المراقبان في وضع الميزانية العمومية وتقضى المادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة بأن يكون أحد هذين المراقبين انجليزيا والثانى فرنسيا وأن تختارهما حكومتا انجلترا وفرنسا فيعينهما الخديو بناء على هذا الاختيار .

وبهذا الامر انتقلت سلطة الحكومة كلها تقريبا الى هذين المراقبين الاجنبيين وصار اسماعيل المستبد العظيم أسيرا وصارت مصر في قبضة السياسة الاجنبية تدفع بها الى ما تريد وحيثما تريد .

الرقابة الاوروبية

أخذ هذا النظام الجديد الذي سمى نظام « المراقبة الثنائية » فى العمل فاختارت الحكومة البريطانية مستر رومين مراقبا انجليزيا واختارت الحكومة الفرنسية البارون دى مالاريت مراقبا فرنسيا فعاني هذان المراقبان الصعاب لانهما لم يجدا حسابا منظما ولا قوانين ولا لوائح تضبط الايراد أو الدخل بل لم يجدا أوامر مكتوبة مع أن هذه الاوامر كانت تنفذ بالكرباج فكتب اثنان من أعضاء « لجنة التحقيق » التى عينت بعد ذلك بسنة والتى سيأتي ذكرها يصفان هذه الحالة فقالا فى تقرير قدماه الى تلك اللجنة وقدمته اللجنة الى الدول [1] : « كل ما كان هنالك من النظام هو أن شيخ البلد ينفذ

(١) هذا التقرير كتبه « م . ى . بيرنج » و « ا . دى كريمر » وهو منشور فى القسم الخاص « بمسألة مصر » من مجموعة « المستندات السياسية التى اصدرتها » الحكومة الفرنسية فى سنة ١٨٨٠

الاوامر التي تصدر اليه من المدير . والمدير ينفذ مايصدر اليـه من المفتش العام . والمفتش يتلقى الامر من السلطة العليا (اى من الخديو) . وهذا الامر هو القانون الذى يجب أن ينفذه موظفو الحكومة ولو كان شفويا دون أن يباح لاحد من المولين أن يناقش في وجوده أو في مؤداه » . وبهذا كانت تدار الآلة الحكومية في عهد اسماعيل وبخاصة في ايامه الاخيرة حينما اختلط الحابل بالنابل ولم يكن لاسماعيل هم الا ابتداع انواع جديدة من الضرائب والمغارم كل يوم للاستيلاء على الاموال والمحصولات

واهتم الرقيبان بان يدفعا الاقساط (او الكوبونات) في مواعيدها ليثبتا كفاءتهما وكفاءة النظام الذى يمثلانه فحبسا عن اسماعيل ونسائه وقصوره ومطابخه واتباعه جميع نفقات البذخ وحبسا عن طائفة من الموظفين المصريين مرتباتهم وأمرا بتسريح فريق من رجال الجيش، وبهذه الوسائل وأمثالها استطاعا ان يسددا المال اللازم لقسط يناير قبل ميعاده فتباهيا بذلك وقدماه لارباب الديون برهانا على كفاءتهما ونفع النظام الجديد . ولكن المدين أخذ ينصب في الشهور التالية فاستولى عليهما الانزعاج وارسلا الجباة يجبون الضرائب بالكرباج[1] وتفننا في بيع الامتيازات للشركات[2] ومع هذا قرب الموعد الذى يدفع فيه قسط يوليو ولم يكن لديهما ما يكفيان منه فلما رأيا ذلك وضعا ايديهما على محصولات فلاحى الاقاليم المخصصة لاداء الدين وباعاه صفقة واحدة لشركة آل هوبورث بنصف مليون جنيه[3] .

وعلى أثر ذلك كتب قنصل انجلترا العام الى حكومته تقريراً قال فيه : « لقد استطاعت مصر أن تؤدى في ثمانية أشهر ما يقرب من ٦ ملايين جنيه وهـذا كله يدل على كفاية المراقبة الجديدة غير انى أخشى ان تكون هذه النتائج لم تتم الا بما فيه هلاك الفلاحين بحملهم على بيع محصولاتهم قبل حصادها وجباية الضرائب قبل

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمستر تيودر روتستين ص ٤٥ من الترجمة

(٢) التيمس في ٣ مارس و ٢ ديسمبر سنة ١٨٧٧

(٣) رسالة من الاسكندرية الى التيمس في ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٧ وكتاب « المسألة المصرية » لمستر تيودور روتستين ص ٤٦

مواعيدها . أما الموظفون الوطنيون الذين يقتضي صلاح الادارة الطراد دفع مرتباتهم فقد ذهبوا ضحية الكوبونات وأصبحوا ولهم متأخرات جسيمة »

وحينئذ رؤى أن السفينة لا تجرى وأن دولاب العمل فى مصر وقف فاتهم الدائنون اسماعيل بانه يخفي عن المراقبين بعض الايراد وهددوا بمقاضاة ناظر المالية أمام المحكمة المختلطة وأخيراً طلبوا تعيين لجنة للتحقيق . فحاول اسماعيل أن يصم أذنيه فازدادوا ضجيجاً ولوحوا لهباسم الامير حليم مطالبا بعرش مصر . وكانت نفسية اسماعيل قد ألفت الاذعان فاذعن فى هذه المرة أيضا وأصدر فى ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ أمراً بتعيين اللجنة ، ولكنه قصر اختصاصها على موارد الدخل فاحتج الدائنون وكتب ممثلهم مستر غوشن فى التيمس فى ٣١ يناير يقول « سوف لا أحجم عن بذل ما أوتيت من جهد ونفوذ للقضاء على ما تحاوله الحكومة المصرية من حصر دائرة التحقيق » . فاراد اسماعيل أن يحتمي في سلطان تركيا قائلا انه « السلطة الوحيدة التى يخضع لها » [1] فلم تقبل انجلترا وفرنسا فاضطر ان يصدر في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ أمراً بمد اختصاص اللجنة الي الدخل والخرج وجميع الشؤون المالية .

وألفت اللجنة من فرديناند دلسبس منشىء قناة السويس رئيساً وروز ولسن وكيلا ودي بلنير وبار انقلي وبيرنغ ودى كريمر ورياض باشا أعضاء . ولكن دلسبس كان كثير الغياب في باريس فكان رفرز ولسن الرئيس الفعلي

وأخذت هذه اللجنة في عملها فاتضح في الحال أن السير رفرز ولسن لا يرضى عن هذا العمل الا اذا انتهى الى نتيجة معينة هى أن تتولى هيئة أجنبية ، أو بعبارة أخرى انجليزية ، ادارة الامور فى مصر . وكتب قنصل فرنسا العام اذ ذاك البارون دى ميشل الى حكومته تقريراً أظهر فيه قلقه من هذه الخطة وأشار الى أن هناك اشاعة «بان السير رفرز ولسن سيكون وزيراً لاسماعيل فكأنه يهيء السبيل لتحقيق هذه الاشاعة» [2] . وأتمت اللجنة تقريرها النهائي وقدمته الى اسماعيل فى ١٣ اغسطس

---

(١) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٨

(٢) دى فريسينيه ص ١٦٦ و ١٦٧

سنة ١٨٧٨ وكان السير رفرز ولسن هو الذي انفرد تقريبا بكتابته [1] وفيه اتهم اسماعيل بانه مسئول عن عجز في الايرادات قدره عشرة ملايين جنيه وطلب منه في مقابل ذلك أن ينزل عن أطيانه للدائنين . فتردد اسماعيل في قبول هذه النتيجة ولكنه بعد أن ذل حتى صار أسيراً في أيدى انجلترا وفرنسا لم يسعه الا ان يصدر في ٢٤ اغسطس امرا بالموافقة على ما في التقرير وتنفيذه

وقابله اذ ذاك السير رفرز ولسن وقال له ان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يصلح ماليته وأن يسترد الثقة به هي أن يدخل تعديلا جوهريا على طريقة الحكم . فرد عليه اسماعيل بالكلمة التي اشتهرت عنه وهي قوله : « ان بلادي ليست الآن في أفريقيا . اننا الآن جزء من أوربا فمن الطبيعي ان نترك تيه الماضي وان نتبع نظاما مطابقا لحالتنا الاجتماعية »[2]. وكان هذا التعديل الذي طلبه منه السير رفرز ولسن ان ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كي يكون هذا المجلس مسئولا عن أعمال الحكومة . وكانت هذه هي الوسيلة التي يرى السير رفرز ولسن أن يدخل بها الوزارة . وفعلاً أصدر اسماعيل أمراً الى نوبار باشا في ٢٨ اغسطس قال فيه انه يريد من الآن فصاعدا ان يحكم « مع مجلس نظاره وبواسطته » . [3] ودارت مفاوضات طويلة بينه وبين انجلترا وفرنسا بشأن تأليف هذا المجلس كانت نتيجتها أن أصدر أمراً في ١٤ اكتوبر بتعيين السير رفرز ولسن ناظرا للمالية ومسيو دي بلنيير ناظراً للاشغال . ولذلك لقبت هذه النظارة التي كان نوبار باشا يتولى رئيسها بالنظارة الاوربية

وهكذا صار ناظران اوربيان احدهما اختارته الحكومة الانجليزية والثاني اختارته الحكومة الفرنسية هما اللذان يحكمان مصر . اما اسماعيل ، اسماعيل العظيم

---

(١) دى فريسينيه ص ١٦٩

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٩ وهذا هو النص بالفرنسية :

Mon pays n'est plus en Afrique ; nous faisons partie de l'Europe actuellement. Il est donc naturel que nous abandonnions des errements anciens pour adopter un système conforme à notre état social.

(٣) هذا الامر هو الاساس الذى اعتبر دستورا لمجلس الوزراء من ذلك الوقت الى أن نفذ الدستور المصرى في سنة ١٩٢٤

المستبد الفخور فقد نحي الى زاوية من زوايا الاهمال . وليس اسماعيل وسلطته عما الاذان يعنياننا فى هذا وانما استقلال الحكومة المصرية هو الذى يعنيا وهوالذى هدم الى آخر حجر منه بتأليف هذه النظارة

نهب مقسم

والتنافس بين الدول حين تأليف هذه النظارة الاوربية قصة طريفة هي أنه لما قبل اسماعيل أن ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كان من المتفق عليه بينه وبين الحكومة البريطانية أن يعين السير رفرز ولسن ناظراً للمالية وأن يستغنى بذلك عن المراقبين الانجليزي والفرنسي فلما علمت الحكومة الفرنسية بهذا هاجت وطلبت أن تعطى نظارة فدارت المفاوضات في ذلك بين لندن وباريس الى أن تم الاتفاق بينهما على ان تأخذ فرنسا نظارة الاشغال . وهذا هو السبب فى ان الناظرين الاوربيين لم يعينا الا فى ١٤ اكتوبر مع ان الامر صدر لنوبار باشا بتأليف نظارته فى ٢٨ اغسطس

ولما علمت ايطاليا والنمسا بان انجلترا وفرنسا اقتسمتا الغنيمة على هذا المنوال تقدمت كل واحدة منهما تطلب لنفسها نظارة فطلبت ايطاليا نظارة الحقانية وطلبت النمسا نظارة المعارف [1] فاسترضيتا بان عين ايطالى مراقبا عاما للحسابات وعين نمسوى مساعدا لناظر المالية

اذن كان اعتقاد الدول ان الحكومة المصرية لم تفقد استقلالها فقط بل فقدت وجودها أيضاً وصارت تركتها نهباً مقسما يفوز بالغنيمة الكبرى منه ذوالقوة الجسور

ثورة الضباط

وكان اول ما فعلته النظارة الاوربية أن رهن السير رفرز ولسن الاطيان التى نزل عنها اسماعيل وأسرته (وهى ٤٢٥٫٧٢٩ فداناً) لبيت روتشيلد وعقد قرضاً على ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه، وهو الذى كان يسمى قرض الدومين ،فدفع منه بعض الاقساط

(١) التيمس فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٧٨ - وكتاب « المسألة المصرية » لتيودور روتستين ص ٦٥ من الترجمة

الدائنين وكان من المتفق عليه أن تدفع منه المرتبات المتأخرة للموظفين فلم تدفع ثم لم تنقض سنة ١٨٧٩ حتى كان قد ذاب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس وصار هم الوزارة أن تجبي الاموال لتدفعها للدائنين بحيث رأى كل ذي عينين أنها انما تحكم مصر لمصلحتهم لا لمصلحة المصريين . واشتد الكرب بالناس من جراء هذا النوع من الحكم حتى اعترف به مكاتب التيمس في الاسكندرية فكتب في ٢٣ يناير سنة ١٨٧٩ يقول :
« لست مبالغا اذا قلت ان في القاهرة الآن مئات من المشايخ يمثل كل منهم قرية من القرى جاءوا بعروضاتهم يسألون فيها تخفيف الضرائب وكل منهم يعلن أنه لا يمكن بقاؤها على ماهي عليه . انهم جموع محتشدة امام أبواب النظارات يعترضون النظار في غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقلام المصالح » . وبعد ذلك بشهر ونصف شهر أي في ٣١ مارس كتب هذا المراسل نفسه يقول: « يؤكد أهل الدلتا أن الربع الثالث من ضرائب هذا العام يجبى بنفس الطرق التي كانت تجبى بها الضرائب فيما مضى . قد يعجب الناس من وقوع ذلك بإزاء مايسمعونه من أن المصريين يموتون على قوارع الطرق وأن أراضي شاسعة تركت بوراً لثقل الاعباء المالية المفروضة عليها وأن الفلاحين باعوا دوابهم وأن النساء بعن حليهن وأن أقلام الرهون غاصة بالمرابين يحملون وثائقهم وأن المحاكم لا عمل لها سوى النظر في قضايا غلق الرهون اجابة لطلب هؤلاء المرابين »

وبينما الحال كذلك والناس يضجون بالشكوى في كل مكان جاء قسط مايو وليس في الخزينة مايكفي لدفعه فأمرت الوزارة بتسريح ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش ودفعت القسط مما اقتصدته من مرتباتهم . وكانت لهؤلاء الضباط مرتبات متأخرة مدة ثمانية عشر شهراً فلما فصلوا بغير أن تدفع لهم متأخراتهم هاجوا وماجوا . وكان السخط قد ملأ النفوس استعدادا للثورة فلم يترددوا في أن يكونوا أول من يضرم نارها وأحدقوا بنوبار باشا والسر ريفرز ولسن وهما خارجان من ديوانيهما يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ فهاجموهما ولكوهما وشدوا شاربيهما [1] وسجنوهما في نظارة

---

(١) ص ٣٤٦ من هذا الكتاب

المالية [1] وعلم بالخبر اسماعيل فركب الى نظارة المالية محاطا بحرسه وأمر الضباط بالانصراف فلم ينصرفوا فأمر قائد حرسه باطلاق الرصاص فاطلقه فى الهواء فتفرق المجتمعون واستطاع اسماعيل بذلك أن يخرج نوبار ورفيقه من سجنهما [2]

وعلى أثر ذلك أعلن اسماعيل أنه لايكون مسئولا عن الامن العام اذا لم يستقل نوبار فاستقال . وكان اسماعيل تواقا الى أن يسترد ولو بعض ما كان له من السلطة

---

(١) رواية عرابى المنشورة فى ص ٣٤٦ من هذا الكتاب تقول ان الضباط هاجموا نوبار باشا واهانوه وحده . أما رواية مسيوجول كوشرى (ص ٨٠) فتقول انهم هاجموا نوبار باشا والسير ريفرز ولسن واهانوهما وسجنوهما . وكذلك رواية مستر تيودور رونستين (ص ٦٨ من الترجمة) . وهذه الرواية الاخيرة هى الصحيحة لانها تطابق ما نشر فى « الوقايع المصرية » اذ ذاك . وقد نشر فى « الوقايع » أيضاً أن الحكومة اعتذرت بعد ذلك اعتذاراً رسميا للسير ريفرز ولسن عن الاهانة التى لحقت به

(٢) اشتد الغيظ بالسير ريفرز ولسن بعد هذا الحادث فاتهم اسماعيل بانه هو الذى دبره ليتخلص من النظارة الاوربية وسرى هــذا الاتهام الى كثير من الناس ومنهم مستر بلنت فى كتابه هذا . ولكن يحسن أن ننقل هنا ملاحظة كتبها فى ذلك مستر تيودور رونستين وهى :

« يذكر مستر بلنت تأييدا لرواية السير ريفرز ولسن شهادتى عرابى باشا والشيخ محمد عبده . ولكن عرابى كما يقول هو نفسه كان وقت حدوث الفتنة غائبا فى الاقاليم . وكل ما يقوله الشيخ محمد عبده مجرد تصديق لقول عرابى . ويغلب على الظن أن كلا الرجلين انما كان يردد الاشاعات التى ترددت فيما بعد وصدقها فى غير تمحيص بغضا منه لاسماعيل . اما اللورد كرومر الذى لا يمكن أن يتهم بشدة الاقتصاد فى الطعن على اسماعيل فانه يعترف « بان كل ما يقال من ان اسماعيل كان على علم بالفتنة ليس الا من قبيل الحدس والتخمين » . وغاية ما يستطيع اللورد أن يرمى به اسماعيل هو اشتراكه الادبى فى الفتنة »

تلك هى ملاحظة مستر تيودور رونستين ونضيف نحن اليها أن مستر فيفيان الذى كان قنصلا عاما لانجلترا فى ذلك الوقت كتب تقريرا لحكومته برأ فيه اسماعيل من هذه التهمة وقال ان الفتنة كانت نتيجة استياء عام أضيف اليه استياء الضباط

وكان يرى في تذمر الشعب من النظارة الاوروبية فرصة صالحة لهذا الغرض فلم يعين خلفا لنوبار وتولى هو رياسة مجلس النظار . ولكنه لم يكد يفصل حتى أبلغته انجلترا وفرنسا أن توليه رياسة النظارة مخالف للامر الصادر منه في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ والذى نزل به عن السلطة للنظار . وأبلغه مستر فيفيان قنصل انجلترا العام أن الحكومة البريطانية تعتبر استقالة نوبار باشا عملا شخصيا وأنها لذلك لا تقبل أن يترتب عليها تغيير في سير الامور . وبعد مفاوضات لم تدم أكثر من أيام اضطر اسماعيل أن يعلن يوم ٩ مارس ان الاتفاق تم على ما يأتي :

أولا — لا يحضر الخديو مداولات مجلس النظار في أي حال من الاحوال

ثانياً — يتولى الامير توفيق باشا رياسة المجلس

ثالثاً — للعضوين الاوروبيين اللذين في النظارة حق المعارضة المطلقة :—

« Veto absolu » — في كل مالا يوافقان عليه . وكل أمر يعارضان فيه لا ينفذ . ولكن لكي تكون معارضتهما صحيحة يجب أن تصدر منهما معا[1]

وهناك شرط رابع يضيفه مسيوجول كوشيرى وهو أن يستشير اسماعيل حكومتي انجلترا وفرنسا في اختيار نظاره الجدد [2]

وهكذا جرب اسماعيل فعرف أنه اذ شد وثاق البلاد بالديون شد بهذه الديون نفسها وثاق نفسه، وأنه اذ عالج أن يخفف ضغط هذا الوثاق باء بالفشل وازداد وثاقه شدة على شدة . وهكذا أيضاً رأى المصريون رأي العين أن حكومتهم لم تبق لهم وأن استقلالهم الذاتي الذى اشتروه بدمائهم في حروب عديدة والذي سجلته الفرمانات وأيدته المعاهدات الدولية في سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤١ أصارته ديون اسماعيل حبراً على ورق

وثبة من اسماعيل لاسترداد سلطته

وكان المصريون ينظرون الى هذه الحال متألمين ، وكانت الشدائد التي قاسوها طول حكم اسماعيل قد ملأت صدورهم مرارة ، وكان المتألمون قد عرفوا من المثل

---

(١) فرى فريسينيه ص ١٧٣

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨١

الذي ضرب لهم الصباط في مهاجمتهم نوبار باشا والسير ولسن أن الألم لا يفيد ما لم يصحبه عمل وانه ان أراد الشعب أن يسترد استقلاله الذاتي وأن يضع حداً لاستغلاله لمصلحة اسماعيل تارة ولمصلحة الدائنين الاجانب تارة أخرى فعليه أن يعمل لهذه الغاية . وذلك ما صمم عليه أعيان المصريين فأخذوا يعقدون الاجتماعات يوحدون بها الكلمة ويرسمون الخطة حتى اذا تم لهم ذلك كتبوا العرائض وجعلوا يرسلونها تارة الى النظارة وتارة الى اسماعيل يطلبون فيها أن تكون الحكومة وطنية وأن تكون للأمة رقابة عليها [1]

ولا جدال في أن اسماعيل نظر الى هذه الحركة بعين الرضى لأنه كان يرى فيها وسيلة الخلاص من نير السلطة الاجنبية على العموم والنظارة الاوربية على الخصوص، ولكن لا جدال أيضاً في أنها كانت ضده كما كانت ضد النفوذ الاجنبي، وقد رأينا في ما تقدم أنه كان من بعض اغراضها التفكير في قتله وسنرى في ما يلي أنه لما أراد أن يخضعها لأهوائه بعد أن تخلص بها من النظارة الاوربية أبت ووقفت في وجهه تطلب أن تكون رقابتها على سلطته فعلية [2]

وأجاب السير ريفرز ولسن على هذه الحركة بان أعلن بصفته ناظراً للمالية تأجيل « كوبون » ابريل شهراً فكان هذا بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية وكان من الضروري أن تتبعه قيود جديدة وأعباء مالية جديدة . وكان السير ريفرز ولسن يظن أنه بذلك يضرب اسماعيل والحركة الوطنية ضربة تخمد أنفاسهما فلم يصح حسابه وازداد بالعكس هياج الافكار وكتب الاعيان مذكرة وقعها منهم سبعون من العلماء فيهم شيخ الاسلام وبطريرك الاقباط وحاخام اليهود وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش طلبوا فيها عزل

---

(١) التيمس في ٣١ مارس سنة ١٨٧٩ — وكتاب تيودور روتستين ص ٨٤ من الترجمة

(٢) يذهب كثير من المؤرخين الاوربيين الى أن اسماعيل هو الذى خلق هذه الحركة وأن المصريين كانوا فيها آلات مسخرة في يده ولكن الحوادث أثبتت فساد هذا الزعم

السير ريفرز ولسن وتأليف وزارة وطنية وايجاد مجلس نواب تكون له سلطة المراقبة على أعمال الحكومة وتكون الوزارة مسئولة أمامه [1].

وفي مساء ٧ ابريل استدعى اسماعيل قناصل الدول وطلب منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنه لم يبق في وسعه أمام هياج الرأي العام في مصر الا أن يحكم بنظارة وطنية مسئولة أمام مجلس نواب وأن ابنه توفيق باشا استقال وأن شريف باشا عين خلفاً له في رياسة مجلس النظار . وقدم القناصل في الوقت نفسه مشروعا مالياً جديداً بتسديد الديون في ٦٥ عاماً وتخفيض الفائدة الى ٥ في المئة وتخصيص ٤ ملايين جنيه من دخل الحكومة للشؤون الادارية . وأعلن أن المراقبة الثنائية التي كانت قائمة قبل تأليف الوزارة الاوربية تعود الى ما كانت عليه

ولما علم الوزيران الاوربيان بذلك احتجا على اسماعيل واتهماه بانه هو الذي دبر هذه الحركة ليتخلص من تعهداته . ثم استقالت لجنة التحقيق بعد ثلاثة أيام فقبل اسماعيل استقالتها في ١٣ ابريل وأصدر في ٢٢ ابريل امراً عالياً بتنفيذ المشروع الذي قدمه القناصل

عزل اسماعيل

هنا أخذت الحوادث تجري سراعا فتعلم اسماعيل أنه اذ ألقى بالبلاد في هاوية الديون ألقى بنفسه في أيدي الاجانب وأنه اذ أضاع استقلال حكومته بالمراقبة الثنائية ثم بالنظارة الاوربية أضاع عرشه وأضاع نفسه ، وتلك هي دائما عاقبة من لا يكترث للعواقب

تألفت الوزارة الوطنية برياسة شريف باشا كما تقدم وأعلن اسماعيل في الامر الذي أصدره بتشكيلها أنه يريدها مسئولة أمام النواب ثم أراد أن يرد نظام المراقبة الثنائية الى ما كان عليه فطلب من السير افلنج بارنج (اللورد كرومر) العضو الانجليزي لصندوق الدين ومن زميله العضو الفرنسي أن يتوليا المراقبة فرفضا وأضرب جميع

---

(١) جريدة الوطن عدد ٧٤ في ١٢ ابريل سنة ١٨٧٩ — التيمس في ١٩ ابريل سنة ١٨٧٩

الموظفين الاوروبيين عن العمل [1] في مصالح الحكومة . وأراد شريف باشا أن يدفع كوبون مايو باعتبار الفائدة ٥ في المائة فرفض صندوق الدين أن يتسلم شيئاً . وأرسل وزير فرنسا مسيو وادنجتون الى قنصل فرنسا العام في القاهرة يطلب منه أن يبلغ اسماعيل أنه يعتبر عمله « نقضاً متعمداً في الرعاية الواجبة لفرنسا وانجلترا » ثم أرسل في ٢٥ ابريل تلغرافاً آخر كان فيه أصرح منه في تلغرافه الاول فقال [2] : « اذا استمر الخديو على الامتناع عن الرضى بمعاونة الناظرين الاوروبيين لحكومته لا يبقى أمام فرنسا وانجلترا الا أن تحتفظا بحريتهما التامة في تقدير الحالة وفي العمل لحماية مصالح رعاياهما ثم في البحث عن أفضل الوسائل التي تضمن لمصر حكومة صالحة »

وكان هذا تهديداً صريحاً ولكن اسماعيل كان قد تحمل من ذل الاذعان مالم يبق معه مزيد وكان في وقت ثورة ثارتها نفسه على هذا الذل فاجاب في ٤ مايو [3] : « بان الحالة التي صار اليها الرأي العام المصري لاتسمح بعودة الناظرين الاوروبيين الى النظارة »

وحينئذ تفاوضت فرنسا وانجلترا في ما تفعلانه وطلبتا من الدول الاخرى أن تؤازرهما فيما هما عازمتان عليه . وكان رأي بسمرك هو الذي يهمهما اكثر من غيره فسعى السير ريفرز ولسن حتى حصل عليه وأرسلت المانيا والنمسا في ١٨ مايو تحتجان على الامر الذي أصدره اسماعيل في ٢٢ ابريل خاصاً بتسوية الديون وتخفيض فائدته ثم تلتهما روسيا وايطاليا . وبعد ذلك أي في ١١ يونيو تقدمت انجلترا وفرنسا العمل فارسلتا احتجاجا قالتا فيه انهما « لا تعترفان لامر ٢٢ ابريل باية قيمة قانونية » .

واذ ذاك شعر اسماعيل بان العاصفة تجمعت وستهب فاخذه الرعب وحاول أن يتقيها بان كتب شريف باشا في ١٥ يونيو [4] الى الدول يبلغها على عجل أن الامر ألغي ، ولكن العاصفة كانت أقوى من أن يردها هذا الملاج ، وغضب انجلترا وفرنسا مما كانت تعتبرانه ثورة عليهما من اسماعيل كان أشد من أن يسكنه هذا الاذعان المتأخر ، فأرسلت الحكومة الفرنسية الى قنصلها العام في القاهرة

---

(١) كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر — الجزء الاول ص ١٠٣

(٢) دي فريسينيه ص ٥٧١ الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨٢

(٣) دي فريسينيه ص ١٧٦

(٤) تلغراف من روتر نشر في التيمس في ١٦ يونيو سنة ١٨٧٩

يوم ١٨ يونيو تلغرافا قالت فيه [1] : « اننا متفقون اليوم مع الحكومة البريطانية على أن ننصح للخديو بأن ينزل عن عرشه وأن يغادر مصر . فان أطاع هذا النصح فنحصل معاً لترتيب معاش له وليقاء وراثة العرش لابنه توفيق » . وأرسلت يوم ٢٠ تلغرافا آخر قالت فيه [2] : « اذا رفض الخديو أن يصغى لنصحنا فلن نتردد في الالتجاء الى الدولة صاحبة السيادة على مصر لنطلب من السلطان عزل هذا الامير الذى أنكر واجباته انكاراً خطيراً وتعيين خلف له » . وفى الوقت نفسه توسلت الحكومة البريطانية الى قنصلها العام فى القاهرة مثل هذه الاوامر . فتردد اسماعيل أياماً وعلم الباب العالى أن انجلترا وفرنسا لاجئتان اليه لتطلبا منه عزله وأنه سوف لا يرفض طلبهما ففضل ان يسبقهما اليه ليظهر بمظهر صاحب السلطة [3] فأرسل في ٢٥ يونيو وقبل ان تطلب الدولتان منه شيئا تلغرافا الى اسماعيل بعزله وأرسل فى ٢٦ يونيو تلغرافا الى توفيق بتوليته مكان أبيه [4] . وفي ٣٠ يونيو ودع اسماعيل ابنه باكيا وهو يقول له : « كن أسعد حالا من أبيك » [5]

وعاش اسماعيل بقية حياته فى ايطاليا ثم فى الاستانة الى أن توفى فى ٣ مارس سنة ١٨٩٥ فنقلت جثته الى مصر فوصلت الى قصر رأس التين مساء يوم ١١ مارس. وفي هذا المساء نفسه كانت فرقة أوربية تمثل في مسرح الأوبرا بالقاهرة ، أى فى المسرح الذى بناه أيام مجده وملذاته ليسر به ملوك أوربا وملكاتها وهو يستقبلهم فى عاصمة ملكه ، كانت فرقة تمثل نفس الرواية التى أوصى بها فوضعت ومثلت خصيصاً في نفس المسرح : لاولئك الملوك والملكات : أريد رواية « عايدة » . فيالها كانت سخرية القدر جاءته على يد الاوربيين الذين أعطاهم كل مافى مصر من مال وحكومة لا على يد المصريين الذين أشقاهم وأشقى معهم مصر الى زمان طويل

---

(١) دي فريسينية ص١٧٨

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) يقول هنا مستر تيودور رونستين ان اسماعيل نزل عن العرش بمحضر من أعيان مصر ولكن هذا غير صحيح

(٥) كتاب مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩

الحياة النيابية فى مصر

ليس من قصدى كما قلت أن أكتب تاريخاً وانما كل قصدى ان أمهد لكتاب مستر بلنت بنظرة سريعة يستعين بها القارىء على استحضار الحوادث التى تناولها هذا الكتاب أثناء تلاوته . وهذه الحوادث سلسلة واحدة عقدت حلقاتها الاولى فى عهد اسماعيل وحلقاتها الثانية فى عهد ابنه توفيق ، وقد مررنا بالحلقات الاولى ورأينا فيها اسماعيل يتسلم زمام مصر فى سنة ١٨٦٣ وليس عليها من الديون الا ثلاثة ملايين وحكومتها مستقلة لا سيطرة عليها لغير الوالى ولا يد فيها لغير أهلها فما أخرج عنها فى سنة ١٨٧٩ حتى كان دينها قريبا من ٩٩ مليونا وكانت السيطرة على حكومتها لانجلترا وفرنسا من دون خديويها وكانت اليد العاملة فيها للاوربيين من دون المصريين. والآن نصل الى الحلقات الثانية حلقات الحوادث فى سنتى ١٨٨١ و ١٨٨٢ وفيها ومن أجلها وضع هذا الكتاب فلنترك مستر بلنت يتكلم ليقول لنا ماعرفه وماجرى على يديه منها

ولكننا وقد رأينا أنه كان للحياة النيابية فى آخر أيام اسماعيل شأن مذكور نرى أن نلم هنا بطرف منها ثم بطرف آخر منها فى عهد توفيق ليعرف من لم يعرف أن لهذه الحياة عروقا ذاهبة الى الاعماق فى أرض مصر وأن المصريين الذين نادوا بسلطة الامة فى سنة ١٨٧٩ ، ثم فى سنة ١٨٨٢ ، لا يمكن ان ينصرفوا عنها فى سنة ١٩٢٨

من نابليون الى اسماعيل

يمكن أن يقال ان النواة الاولى للحياة النيابية فى تاريخ مصر الحديث كانت هى التى وضعها نابليون بونابرت فى يوم الخميس ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٨ اذ طلب من العلماء والاعيان ورؤساء الفرق أن ينتخبوا من بينهم عشرة يتألف منهم « ديوان النظر فى الامور الداخلية والفصل فى الدعاوى » فوقع اختيارهم على عشرة كان منهم الشيخ عبد الرحمن الشرقاوي والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدى .

كان هذا الديوان ظاهرة أولى ضئيلة من ظواهر سلطة الأمة ثم جاءت الظاهرة الثانية قوية يوم كره المصريون واليهم خورشيد باشا وسئموا مظالمه فسار علماؤهم ومشايخهم ورؤساء جنودهم الى محمد علي، وكان ذلك في ٦ مايو سنة ١٨٠٥ ، وقالوا له لا نريد هذا الباشا حاكما علينا فقال ومن تريدون اذن . قالوا لا نرضى إلا بك ! ! لما نتوسمه فيك من حب العدل والخير . قيل فتمنع محمد علي ثم رضي فاحضروا له كركا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فالبساه ثم بعثوا الى خورشيد باشا بذلك فقال انى مولى من قبل السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة . فحاصروه في القلعة وكتبوا الى الباب العالي يطلبون تنصيب محمد علي وما زالوا حتى صدر الفرمان بذلك ووصل الى القاهرة يوم ٩ يولية سنة ١٨٠٥

وبعد أن استتب الامر لمحمد علي وشرع بنظام حكومته أنشأ مجلساً كان يسمى «مجلس المشورة» فما كان يقر أمراً إلا بعد عرضه عليه . وها هو ذا ما نشرته في ذلك « الوقائع المصرية » في عددها رقم ٤٩ الصادر في يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٨ :

« بيان كيفية ترتيب المجلس »

«ان حضرة افندينا ولي النعم الاكرم منبع الشفقة والمراحم مابرح متفكراً في عمار الملك والملة وفي راحة أهالي الامصار والبلاد ورفاهية الرعايا والعباد ولا يزال يتصور تحصيل أسباب الامور الخيرية ساعيا ومجتهدا في استخراج أسبابها من القوة إلى الفعل ولاجل ذلك أوصى حضرة افندينا ابراهيم باشا ولي النعم قبل أن أرسله من الاسكندرية الى مصر بان يجمع مأموري الاقاليم المصرية العظام ومشايخ البلاد الكرام وينعقد مجلس المشورة كل يوم ويبدي كل منهم ما في باله ويقولون مرادهم من غير تعصب وعناد أي لا يمارون بما يرون بل يقولون على وجه الحق والانصاف ليتضح منها القضية الخيرية فيحصل رضاه السني . وأمر ايضا بان يجتمع في ذلك المجلس اشراف العلماء المصرية لكي لا يبدو انحراف عن تلك الأصول المستحسنة التي يراد تأسيسها على جادة الشريعة المطهرة فاجتهد سعادة المشار اليه بتحصيل رضا سعادته بما كان مفطورا عليه من حسن المسعى والاجتهاد حيث جمع المذكورين كلهم الى قصره بعد مضي يومين من وقت تشريفه مصر وأوضح لهم ماسمع من أبيه الأكرم من الوصايا والنصائح فلذلك انعقد المجلس في القصر العالي في اليوم الثالث من شهر ربيع الاول بعد العصر وسئل كل منهم عما لاح في ضميرهم وتقرر ان يضبط الوقائع سائر ما جرى ويجرى في ذلك المجلس »

وبقيت الحياة النيابية واقفة عند حد هذا المجلس الى أن تولى اسماعيل فأنشأ فى آخر سنة ١٨٦٦ «مجلس شورى النواب» ووضع له «لائحة أساسية» و«نظامنامة» عرفنا بلائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ [1]

---

(١) هذه «اللائحة» تشتمل كما قلنا على قانونين احدهما «اللائحة الاساسية» والثانى قانون المجلس وكان يسمى «النظامنامة» ونحن نوردها هنا بنصهما :

اللائحة الاساسية لمجلس شورى النواب

(١) تأسيس هذا المجلس مبنى على المداولة فى المنافع الداخلية . والتصورات التى تراها الحكومة انها من خصائص المجلس يصير المذاكرة واعطاء الرأى عنها وعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية

(٢) يجوز انتخاب من بلغ عمره ٢٥ سنة وما فوق ذلك بشرط أن يكون موصوفا بالرشد والكمال وأن يكون من الاشخاص المعلومين عند الحكومة بانه من الاهالى التابعين لها ومن أولاد الوطن

(٣) يحرم من صلاحية الانتخاب الاشخاص الذين حكم على أموالهم وأملاكهم باحكام الافلاس وتعلقت بهم حقوق الغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق التى حرموا منها وأيضا الفقراء والمحتاجون والاشخاص الذين أعينوا على حالهم قبل الانتخاب بسنة والاشخاص الذين صار مجازاتهم بالليمان والطرد بحكم

(٤) ان الاشخاص الذين ينتخبون النواب يلزم أن يكونوا من الذين لم يحكم على أموالهم وأملاكهم باحكام الافلاس وتعلقت بهم حقوق الغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق اليهم وأن لايكون سبق مجازاتهم بالليمان والطرد بحكم وأن لا يكونوا من الاشخاص الداخلين سلك العسكرية تحت السلاح

(٥) المستخدمون فى الخدمات الميرية والمستخدمون فى الجهات الخارجة عن الميرى سواء كانوا من العمد والوجوه أو غيرهم وكذا الداخلون سلك العسكرية سواء كانوا تحت السلاح أو امداديين لايجوز انتخابهم ليكونوا من أعضاء المجلس وأما من رفتوا من المستخدمين بلا جنحة حسب الايجاب أو انقضت مدتهم من الامداديين فيجوز الانتخاب منهم ان كانوا حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة

فتح هذا المجلس فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ والقى فيه اسماعيل خطاب الافتتاح طلب من النواب أن يساعدوا الحكومة على تنفيذ الاشغال العمومية وتحديد مواعيد سنوية لجباية الاموال وغير ذلك مما تريد الحكومة أن تستشيرهم فيه . وكان

---

(٦) ان انتخاب الاعضاء من الاقاليم يلزم أن يكون على حسب التعداد فلذا لزم انتخاب واحد أو اثنين من كل قسم من أقسام المديريات بحسب كبر القسم وصغره ويصير انتخاب ثلاثة من مصر واثنين من اسكندرية وواحد من دمياط

(٧) حيث ان كل بلد عليه مشايخ معينون برغبة الاهالى فبالطبع هم المنتخبون من طرف أهالى ذلك البلد والنائبون عنهم لانتخاب العضو المطلوب انتخابه من القسم ولما كان اولئك المشايخ حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة فهؤلاء المشايخ يحضرون فى المديرية ويكتب كل أحد منهم اسم من ينتخبه من القسم فى ورقة مخصوصة ويضعها مقفولة بالصندوق المعد لقسمه بالمديرية

(٨) بعد ماينتهى وضع الاوراق بالصناديق تفتح على يد المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى وقاضى المديرية فينظر اذا كانت أكثر الآراء متفقة على انتخاب واحد من القسم فيصير هو نائبا عن القسم وان تساوت الآراء فى انتخاب اثنين أو ثلاثة فيقرع بينهم بحضورهم والذى تصيبه القرعة يصير نائبا عن القسم وفى كلا الحالين يؤخذ من المشايخ الحاضرين بالمديرية من البلاد ورقة بأختامهم بما استقر عليه الحال فى انتخاب اولئك النواب واما الانتخاب فى مصر واسكندرية ودمياط فيصير باتفاق أو اكثرية آراء وجوه واعيان تلك المدن

(٩) يصير تجديد انتخاب الاعضاء فى كل ثلاث سنين حسبما هو موضح بالبند السابع والثامن

(١٠) اعضاء المجلس لايزيدون عن خمسة وسبعين شخصا

(١١) لا يعقد المجلس اذا غاب من اعضائه اكثر من الثلث وان كان احد اعضائه له عذر ضروري فيلزم عرض عذره على رئيس المجلس قبل انعقاده بشهر فان قبل عذره بالمجلس فبها والا فان لم يحضر بعد اعلان عدم قبول عذره فيصير انتخاب غيره بدله من قسمه وجهته حسب اللائحة

(١٢) لا يسوغ التوكيل عن أحد الاعضاء بل هو يحضر المجلس بنفسه

اختصاص هذا المجلس ، كما يرى في المادة الاولى من لائحته الاساسية ، مقتصراً على المداولة في « التصورات التي تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس » ونتيجة المداولة في هذه « التصورات » تعرض على الخديو دون أن يكون مقيداً بشيء منها . وهذا معناه أولا أن اختصاص المجلس بالنظر في مسألة من المسائل كان متروكا للحكومة

---

(١٣) يصير تحقيق حال كل عضو من اعضاء المجلس حين اجتماعهم بمعرفة قومسيون فان وجد مستكمل الشروط المتبرة المحررة في البنود السابقة يقبل والا فتلغى نيابته وينتخب غيره من قسمه وجهته

(١٤) بعد مايصير تحقيق احوال النواب المنتخبين القومسيون ويوجدون حائزين الاوصاف المذكورة في البنود السابقة فيعطى قرار عنهم بالقومسيون ويعرض منه الى رئيس المجلس ومنه ايضا الى الاعتاب الخديوية ليعطى كل واحد منهم بيورلدى يتضمن كونه منتخبا في ظرف ثلاث سنين في شورى النواب

(١٥) حيث من المعلوم ان كل مجلس من المجالس المماثلة لهذا له حدود ونظامنامة فبالطبع حدود ونظامنامة هذا المجلس ستعطى له

(١٦) ان عقد المجلس سيكون في هذا العام من ١٠ هاتور لغاية ١٠ طوبه واما في السنين الآتية فيصير انعقاده من ١٥ كيهك لغاية ١٥ امشير

(١٧) لولي الامر جمع المجلس او تأخيره او تمديد مدته أو تبديل اعضائه وانتخاب غيرهم في مدة معلومة حسبما هو موضح بهذه اللائحة

(١٨) لا يجوز قبول عرضحالات من احد ما بالمجلس

حدود ونظامنامة مجلس شوري النواب

(١) مجلس الشورى يكون بمحروسة مصر

(٢) مجلس الشورى وظيفته المداولة في المنافع الداخلية . والتصورات التي تراها الحكومة انها من خصائصه تصير المذاكرة فيها واعطاء الرأى عنها كما هو مذكور في البند الاول من اللائحة الاساسية فما تحصل المداولة فيه بمجلس الشورى فيما يتعلق بالمنافع الداخلية يرسل من طرف الرئيس الى المجلس الخصوصي ويجرى المذاكرة عنه بالاقلام والقومسيونات بمجلس الشورى حسبما يأتي بعده مما يتعلق

ان شاءت سمحت به وان شاءت منعته وثانياً أن رأيه الذي يبديه في ما تعرضه الحكومة عليه استشاري محض

وقد أذاع بعض الاوربيين عن هذا المجلس خرافة من الخرافات التي ألفوا أن يلصقوها بالمصريين فزعم مسيو ملك كون في كتابه « مصر كما هي » — ص ١١٨ —

المحصورات من البند ١٦ الى البند ٢٠ والبند ٢٣ من هذه اللائحة وبعد إعطاء التقرير عنها تنظر بمجلس الشورى ايضا كما في البند ٢١ و ٢٢ وباتمام المذاكرة واعطاء الرأى يعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية

(٣) رئيس مجلس شورى النواب ووكيله ينصبان من طرف الحضرة الخديوية

(٤) افتتاح مجلس شورى النواب اما ان يكون بذات الحضرة الخديوية او من وكيلها بالارادة السنية وتقرأ فيه مقالة فان كان افتتاحه بالحضرة الخديوية فقراءة المقالة بالنطق الخديوى أو من يتوكل من قراءتها متعلق بالارادة العلية وان افتتحه الوكيل فاما ان تكون المقالة من الحضرة الخديوية ويقرأها الوكيل بالافتتاح او انها تكون من الوكيل بالافتتاح وهو الذى يقرأها بموجب الامر

(٥) بعد افتتاح مجلس شورى النواب وقراءة المقالة يكون لاربابه الحق في ان يقدموا جوابا عنها في مدة يومين وهذا الجواب لم يكن الا من قبيل الرسوم بحيث لا يقطع فيه بشيء عن امر من الامور المقتضى نظرها بمجلس الشورى

(٦) اذا كانت المقالة من الحضرة الخديوية فبعد تحرير جوابها في مجلس الشورى يجب تقديمه للاعتاب الكريمة بواسطة رئيس مجلس الشورى ويكون معه من كل قسم اثنان من الاعضاء بالملابس الرسمية بعد تسميتهم بمعرفة جميع الاعضاء

(٧) حيث تقرر في البند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف اللازمة في حق من يحصل انتخابه لوظيفة العضوية ففي حال الانتخاب بالمديرية اذا كان المجوز لهم انتخاب النواب يعينون أشخاصا من الغير جائز تعيينهم لذلك فبالطبيعة بحسب الموضح بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية يصير الايضاح من المديرية الى مفتش العموم عن كيفيتهم ومن طرفه يجرى تبيين ذلك بالكشف الذى يرسل لرئيس مجلس الشورى باسماء النواب الذين يعينون لاجل اجراء منطوق البند المشار اليه

(٨) من بعد افتتاح مجلس الشورى وقراءة المقالة يصير تقسيم الاعضاء الى خمسة اقلام بانتخاب نفس الاعضاء بعضهم بعضا ورؤساء الاقلام يكون انتخابهم بمعرفة

ان شريف باشا أراد يوما ان يوضح لاعضائه النظام الذى ينبغى أن يتبعوه في حلوسهم فقال ان العادة جرت فى البرلمانات الاوربية بان يجلس مؤيدو الحكومة في مقاعد اليمين ومعارضوها فى مقاعد الشمال فما كان من الاعضاء جميعا الا ان انتقلوا الى مقاعد اليمين وقالوا « نحن عبيد افندينا » . وزعم كتاب اوربيون آخرون

الاعضاء ايضا وفى الاقلام المذكورة يجرى التفحص عن المنتخبين حسب المدون بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية بمعنى ان كل قلم يتفحص عن احوال المنتخبين الذين هم بقلم آخر واعضاء القلم الجارى فيه التفحص المذكور يصير التفحص عنهم بمعرفة قلم من الاقلام الاخرى وبعد اعطاء القرارات اللازمة عن ذلك يصير اعطاؤهم الى رئيس مجلس الشورى لعرضهم للحضرة الخديوية كما في البند ١٤ من اللائحة الاساسية .

(٩) متى تم تحقيق صحة الانتخاب لزم رئيس مجلس شورى النواب ان يعرض للحضرة الخديوية بذلك ولا ينتظر صدور الحكم بخصوص الانتخابات الموقوفة او المتنازع فيها متى كان الذين صح انتخابهم يجوز انعقاد مجلس الشورى بهم كالموضح بالبند ١١ من اللائحة الاساسية

(١٠) ترتيب اشغال مجلس الشورى يكون بالنمر بحسب ما يراه رئيسه ويكون لذلك دفتر واضح ببيان تلك الاشغال مادة مادة بغاية الاختصار وتواريخ ورودها والنمر التى وضعت عليها بالنسبة لترتيب رؤيتها وملحوظ يتاشر فيه عما يجرى فيها

(١١) من يؤمر من الذوات من طرف الحكومة بالمباحثة فى شان تصور من التصورات المعروضة للمذاكرة بمجلس شورى النواب متى طلب أن يتكلم لزم الاذن بذلك ولا يقتضي الزامه بالانتظار للنوبة حسب المقيد بدفتر النوبة

(١٢) مجلس شورى النواب له ان يجبر على الحضور بالشوري كل من لم يمنعه مانع صحيح معتبر وذلك بواسطة ترتيب عقوبات على من لم يحضر مجلس الشورى وكل رئيس قلم من الاقلام يعطى الى رئيس مجلس الشوري قائمة كل يوم صباحا بمن حضر من الاعضاء ومن لم يحضر

(١٣) اذا كان عدد مجلس الشورى فى يوم من الايام أقل من القدر الموضح عنه بالبند ١١ من اللائحة الاساسية لزم تأخير عقده الى اليوم الذي يليه وهكذا فى كل

الى الخديو اسماعيل ، وليس شريف باشا ، هو الذى حدثت معه هذه الحادثة .
ولكن لا ريب في أن هذه الرواية مكذوبة لأنها لا تستند الا الى دعاوى أولئك
الاجانب الذين نعرف نحن الآن مبلغ ما يدعونه علينا من الكذب ، وهم يكذبون
علينا بالرغم من معرفتهم ان اتصالنا بعالم المدنية وثيق وان كذبهم لا يكاد يظهر

يوم متى اتضح الحال على هذا الوجه يجب على الرئيس أن يؤخره الى اليوم
الذى يليه

(١٤) اذا كان عدد مجلس الشورى فى يوم من الايام أقل من القدر الموضح عنه
بالبند ١١ من اللائحة الاساسية لكن نفس الاقلام يوجد بعضهم مستوفيا بقدر
الثلثين بالنسبة لاصل اعضائهم فالقلم الذى يكون بهذه الصيغة لا يصير تعطيله بل
ينظر فى الاشغال المحولة عليه

(١٥) الذى يأمر بافتتاح كل جلسة من جلسات مجلس شورى النواب وقفلها
هو الرئيس و يقتضى فى كل آخر جلسة ان يعين الرئيس من بعد السؤال من الاعضاء
ساعة افتتاح الجلسة التى تليها وترتيب الاشغال بالاوقات المقتضية و يعلق الترتيب
المذكور فى محل مجلس الشورى وترسل صورة الترتيب فى الحال الى كاتب الديوان
الخديوى و يقتضى ان يجرى الرئيس مايلزم من طرفه بوصول الاخباريات والتبليغات
اللازمة اليه باوقاتها المقتضية

(١٦) التصورات التى تراها الحكومة تتلى صورتها بمجلس شورى النواب بمعرفة
من ينوب لهذه المأمورية من طرف الحكومة

(١٧) بعد قراءة التصورات المذكورة فى البند ١٦ يصير طبعها وتوزيعها على
الاقلام للنظر فيها باوقاتها فتبحث فيها وتعين الاقلام من مجموعها قومسيون مركبا
من خمسة أعضاء يصير انتخابهم بطريقة اعطاء الرأى عنهم بالصندوق سرا
والقومسيون المذكور ينظر فى تلك التصورات و يحرر التقرير اللازم عنها

(١٨) اذا صدر رأى من واحد او جماعة من الاعضاء الغير داخلين بالقومسيون
المذكور فى البند ١٧ من اللائحة بخصوص مادة من المواد المندرجة بالتصورات
المرسلة من طرف الحكومة ولم يكن ذلك من الملحوظات المذكور عنها بالبند ٢٣ من
هذه اللائحة يقتضى ان يصير تسليم ذلك الرأى الى رئيس مجلس الشورى وهو يوصله
الى القومسيون المختص بالنظر فى ذلك ولا يجوز قبول أى رأى كان فيما يتعلق بمادة

حتى يفصح فكيف بهم فى سنة ١٨٦٦ والصلة بين مصر وعالم المدنية مقطوعة وقد كان للمصريين فى هذا العالم أعداء طبيعيون هم المرابون والافاقيون الذين كان يسرهم أن تذاع عن الامة المصرية كل النقائص ليعاونوا اسماعيل على ضغطها بيديه فيبق لهم الخير الذى تدره عليهم أصابعه . وسنرى فى ما يلى ان هذا

من ذلك متى تقدم التقرير فى شأنها من ذلك القومسيون الى مجلس الشورى وانما عند تلاوة ذلك التقرير بمجلس الشورى يجرى ما يلزم له من المذاكرة وأخذ الآراء حسب الوارد ببنود اللائحة من البند ٢٠ الى البند ٢٢

(١٩) كل من أورد رأيا بخصوص مادة من المواد المندرجة بتلك التصورات كما ذكر فى البند ١٨ من هذه اللائحة كان له حق التكلم فى هذا الخصوص بالقومسيون المختص بالنظر فى ذلك

(٢٠) متى تقدم التقرير الصادر من القومسيون بخصوص صورة مادة لزم ان يتلى بمجلس الشورى و يطبع و يوزع على اعضاء مجلس الشورى قبل المذاكرة بأربع وعشرين ساعة على الاقل

(٢١) تفتح المذاكرة بخصوص التقرير المذكور عنه فى البند ٢٠ من هذه اللائحة فى الوقت المعين له فى ترتيب اشغال مجلس الشورى و يقتضى افتتاح المذاكرة أولا فيما يتعلق بكل قلم أو باب منها خاصة

(٢٢) من بعد أخذ الآراء عن كل مادة خاصة من المواد المتركب منها التصورات المذكورة يجب أخذ الآراء أيضا بخصوص مجموع تلك التصورات على وجه العموم

(٢٣) اذا تراءى للقومسيون المختص بالنظر فى احدى التصورات المرسلة من طرف الحكومة ملحوظات فيما يتعلق بذلك تقدم الى رئيس مجلس الشورى وقبل تلاوتها بمجلس الشورى تبحث من طرفه الحكومة

(٢٤) المسائل التى يلزم التداول فيها بمجلس شورى النواب بواقع ترتيب اشغاله بحسب ما يستقر عليه الحال فى آخر كل جلسة كما ذكر بالبند ١٥ من هذه اللائحة يلزم فى الجلسة الثانية ان كل مسألة منها قبل وضعها فى ديوان المداولة يؤخذ راى مجلس الشورى عن لزوم او عدم لزوم المداولة فيها وعلى واقع ما يقتضى عليه الحال فى ذلك يجري العمل

(٢٥) المواد المتعلقة بالمنافع الداخلية التى يلزم التداول فيها بمجلس الشورى بواقع

المجلس نفسه أثار وجه الحكومة عاصفة من المعارضة ونادى، على الرغم من ضيق اختصاصه، بان سلطة الامة تتمثل فيه وأن من حقه أن يخضع النظار لمراقبته

ويتلخص تاريخ هذا المجلس من سنة ١٨٦٦ الى نهاية سنة ١٨٧٨ فى انه كان للحكومة نعم المرشد فى كثير من المشروعات الزراعية والصناعية وأعمال الري كما

يجب أشغاله كما فى البند ١٠ من هذه اللائحة يلزم ان كل مسألة منها قبل وضعها بميدان المذاكرة يؤخذ الرأى من مجلس الشورى عن لزوم المذاكرة فيها وقتئذ وتأخيرها لوقت آخر او نحو ذلك

(٢٦) اذا طلب الكلام اثنان او ثلاثة من اعضاء مجلس الشورى فى آن واحد تُعمل القرعة المقتضية فى تقديم أحدهم على الآخرين بمعرفة رئيس مجلس الشورى

(٢٧) في حالة المكالمة بمجلس الشورى في مسألة لا يجوز افتتاح المكالمة فى مسألة أخرى

(٢٨) فى حالة المكالمة اذا تكلم احد الاعضاء فيما هو التكلم جار من اجله لا يتكلم غيره قبل اتمام كلامه

(٢٩) لا يجوز لاحد ان يتكلم فى كل مسألة بمجلس الشورى الا مرة واحدة ما لم تقتض الحال على بعض الاعضاء بالتكلم غير مرة اذا احتاج الامر الى اعطاء ايضاحات او اعطاء جواب مرة ثانية بناء على طلب عضو آخر واما فى القومسيونات التى تشكل بمجلس الشورى فلكل عضو من اعضائها حق التكلم متى شاء

(٣٠) لا يجوز لاحد ان يتكلم الا اذا طلب الكلام واذن له الرئيس بذلك ولا يتكلم الا وهو فى موضعه

(٣١) اذا اراد الرئيس ان يتكلم بنفسه ويجب الاصغاء اليه

(٣٢) يجب ان يكون اخذ الاراء بالصندوق فى الجهر وبطريق الاكثرية المطلقة

(٣٣) تفريغ صندوق الاراء يكون بمعرفة كاتب السر

(٣٤) لا تكون عملية اخذ الاراء صحيحة معتمدة الا اذا كان الحاضر بمجلس الشورى كما فى البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٣٥) يجب على مجلس الشورى احترام حق العدد الاقل وفى ضمن المذاكرات يجب الاصغاء للعدد الاقل وان تسمع الملحوظات الصادرة منهم

كان في كثير من الاحيان يردد صدى الشكاوى الجة التى كان الاهالى يشكونها من فداحة الضرائب وعدم النظام فى جبايتها . ثم لما كثرت ديون اسماعيل وارتبكت بها الحكومة وأخذ النفوذ الاجنبى يسيطر على البلاد كان النواب أول المتذمرين ، وفيهم وفي الضباط وفي جماعة من الاعيان والعلماء وجدت حركة وكرة

---

(٣٦) اذا كان عدد الاعضاء المأخوذ رأيهم هو الاقل واما الاكثر لم يعطوا رأيا فى المادة المعروضة لزم الرئيس ان يسال باقى الاعضاء عن رأيهم

(٣٧) رئيس مجلس شورى النواب هو الذي يؤدى وظيفة الرياسة عليه فقط ان يسال ارباب مجلس الشورى عن رأيهم وليس له رأى مطلقا الا فى صورة انقسام الآراء الى طرفين متساويين وأما فيما عدا ذلك من الاحوال فلا يدخل بنفسه فى رأى من جملة الآراء بمجلس الشورى وليس له أن يتدخل فى مذكرات مطلقاً

(٣٨) متى صار التصديق على صورة مادة بمجلس الشورى لزم ان تكون نسختها الاصلية مقيدة فى دفتر مخصوص لذلك ويختم عليها الرئيس والاعضاء وتحرر نسخة اخرى عليها علامة كاتب السر وختم الرئيس وتقدم للحضرة الخديوية

(٣٩) المجىء الى مجلس الشورى يوميا والذهاب منه يكون بحسب ما يراه رئيسه باستنساب المجلس

(٤٠) اعضاء مجلس الشورى يحضرون الى المجلس بملابس الحشمة اللائقة وجلوسهم فيه يكون بهيئة الادب

(٤١) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس شورى النواب ان يغيب بدون اذن يصدر اليه منه وتحرر له تذكرة رخصته من طرف الرئيس ولا يجوز له ان يحرر تذاكر رخصة الا من بعد صدور الاذن من مجلس الشورى مالم تقض الضرورة الشديدة بتحرير التذكرة على وجه العجلة و بعد تحريرها على هذه الكيفية يخبر الرئيس مجلس الشورى بذلك

(٤٢) المحاضر التى تحرر لاثبات وقائع مجلس شورى النواب تكون مشتملة على أسماء الاعضاء الذين تكلموا بالشورى ورأى كل منهم بالاختصار

(٤٣) المحاضر المذكورة فى البند ٤٢ تقيد بدفتر مخصوص لذلك و يقرأها كاتب

تأليف الحزب الوطني ، ومن بعضهم ألفت جمعيات سرية ، وعلى ألسنة هذه الجمعيات وهؤلاء المتذمرين جرت لأول مرة في تاريخ مصر الحديث كلمة : «مصر للمصريين».

وكل هذا كان كما قلنا الى ما قبل سنة ١٨٧٩ أما في هذه السنة فلمجلس شورى النواب شأن آخر

تقرر في أول مجلس الشورى المنعقد في اليوم الذي يلي يومها ويضع الرئيس امضاءه على ذات الدفتر في كل يوم

(٤٤) الاوامر التي تصدر من الحضرة الخديوية فيما يتعلق باحدى الخصوصيات المذكورة بالبند ١٧ من اللائحة الاساسية تتلى بمجلس الشورى في الحال ويجرى العمل على مقتضاها

(٤٥) التنبيه بارجاع ما يخرج عما يليق بحسب الاصول انما هو من وظائف الرئيس وحده

(٤٦) اذا خرج المتكلم في مادة من المواد عن المسألة المقتضي الكلام فيها لزم الرئيس أن ينبه عليه بالرجوع اليها وعدم الخروج عنها ولا يجوز للرئيس ان يأذن بالكلام فيما يتعلق باسباب الرجوع الى المسألة المقتضي الكلام فيها

(٤٧) يؤذن بالكلام لمن خرج عن الاصول ونبه عليه بالرجوع اليها فرجع وطلب الكلام ليعتذر ولا يؤذن بالكلام للخارج عن الاصول في غير الصورة المذكورة

(٤٨) اذا خرج المتكلم عن الاصول ونبه عليه بالرجوع اليها مرتين في مسألة واحدة وطلب الكلام للاعتذار يلزم الرئيس أن يسأل أرباب مجلس الشورى عن لزوم منعه من الكلام في بقية الجلسة فيما يتعلق بالمسألة ويقتضي أن يحكم مجلس الشورى في هذا الامر بالاغلبية

(٤٩) اذا خرج المتكلم عن المسألة المقتضى الكلام فيها وصار ارجاعه اليها مرتين في مسألة واحدة ثم عم بالخروج عنها مرة ثالثة لزم الرئيس أن يسأل أرباب المجلس عن لزوم منعه عن الكلام في باقي الجلسة بخصوص المسألة المتكلم فيها ويقتضى أن يحكم مجلس الشورى في هذا الامر بالاغلبية

(٥٠) اذا اقتضت الحال الى التنبيه على أحد من الاعضاء بالسكوت لكونه تكلم في غير محله وقطع الكلام على غيره فيقتضى أن لا يؤذن له بالكلام في بقية الجلسة

مجلس شورى النواب فى سنة ١٨٧٩

انتهت سنة ١٨٧٨ ومجلس شورى النواب فى عطلة فصدر أمر عال بدعوته للاجتماع هذا نصه :

« نحن خديو مصر

بناء على ما عرض علينا من مجلس وزرائنا نامر :

---

(٥١) لا يسوغ لاحد بمجلس الشورى أن يصدر منه مسبة لاحد ولا اشارة بالاقرار أو بعدمه على قول احد بمجلس الشورى

(٥٢) اذا حصل من أحد الاعضاء أمر يخل بانتظام حال مجلس الشورى لزم أن ينبه عليه بالرجوع عن ذلك بالاسم من طرف الرئيس فان أصر على ذلك ولم يرجع لزم الرئيس ان يامر بقيد التنبيه عليه فى ضمن المحضر الذى يتحرر بما يقع فى مجلس الشورى فى ذلك اليوم وفى صورة مااذا أصر على عدم الرجوع عن الامر المخل بانتظام مجلس الشورى يلزم المجلس بناء على طلب الرئيس ان يحكم من غير مذاكرة باخراجه من محل مجلس الشورى بمدة لا يقتضى ان تزيد على خمسة ايام فقط ولا بأس ان يامر أيضا باعلان صورة المذكور بالجهة التى يكون انتخاب النائب المحكوم عليه بذلك من طرفها

(٥٣) فى مدة افتتاح مجلس الشورى فى الايام المحددة له لا تعمل دعوى على احد من اعضائه بوجه من الوجوه الا ان كان لاسمح الله حصل من احد منهم مادة قتل قطيعا لايعد من اعضاء مجلس الشورى ويعين بدله حسبما هو مدون فى البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٥٤) لايجوز لاحد من اعضاء مجلس الشورى ان يطبع وينشر المقالة التى قالها بمجلس الشورى او المذاكرات التى حصلت بها من غير ترخيص رئيس المجلس بذلك له فان طبع ونشر بدون ترخيص يترتب عليه الجزاء اللازم بقرار من قومسيون يعين من القلم الذى هو من اعضائه

(٥٥) فى مدة العضوية اذا حصل من احد الاعضاء مايمنع لياقة وجوده عضوا بمجلس شورى النواب مما هو واضح بالبند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية يسقط حقه من العضوية ويعين بدله كما فى البند ١٣ من اللائحة الاساسية

(٥٦) فى مدة دوام افتتاح مجلس الشورى فى الايام المحددة له لا يقبل الاستعفاء

اولا بانعقاد مجلس شورى النواب فى يوم ٢٩ ديسمبر الجارى
ثانيا بتعيين احمد رشيد باشا رئيسا على هذا المجلس . ونكلف ناظر داخليتنا بتنفيذ امرنا هذا

تحريرا بمحروسة مصر فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٨ اسماعيل
بأمر الخديو : رئيس مجلس النظار — نوبار

من أحد من الاعضاء وفى اوقات تعطيله اذا اراد احد منهم ان يستعفى لزم ان يقدم الاستعفاء الى رئيس المجلس ويوصله الى يد الرئيس قبل انعقاد المجلس بثلاثين يوما على الاقل وحينئذ تجري المكاتبة لجهته لاجل تسمية غيره كما في البند ١٣ من اللائحة الاساسية

(٥٧) رئيس مجلس شورى النواب هو المنوط بالضبط اللازم فى أثناء الجلسات المنعقدة وفيما يتعلق بداخل المحل المعد لاقامة المجلس

(٥٨) اذا تراءى لرئيس مجلس الشورى تاخير عقد المجلس فى يوم واحد من الايام الى اليوم الذى يليه ولو كان عدد الاعضاء مستوفيا كما كان فى البند ١١ من اللائحة الاساسية فلا مانع من تاخير عقده فى ذلك اليوم فقط ويعرض الرئيس للحضرة الخديوية عن ذلك فى الحال

(٥٩) يرسل القدر اللازم من الخفراء لجهة مجلس النواب من طرف الحكومة

(٦٠) لايدخل بجهة مجلس شورى النواب الا الاعضاء المنتخبون والاشخاص المستخدمون بمجلس الشورى ومن يرسل من طرف الحكومة بمامورية تختص بمجلس الشورى وهذا يتبع اجراؤه لحد ما يصدر الامر من الحضرة الخديوية بجواز دخول من يصرح له بذلك بموجب التذاكر التى تعطى لهم حين ذاك من طرف رئيس مجلس الشورى

(٦١) حيث ذكر في البند ٢ و٣ و٤ و٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف اللازمة فى حق من يحصل انتخابهم بوظيفة العضوية بمجلس شورى النواب ومن يجوز لهم انتخاب النواب ففي الانتخاب السابع يقتضى ان الذين يحصل انتخابهم للعضوية يكون لهم دراية بالقراءة والكتابة زيادة على الاوصاف المقررة فى حقهم وفى الانتخاب الحادى عشر يحتاج ان الذين يجوز لهم انتخاب النواب يكون لهم علم بالقراءة والكتابة علاوة على الاوصاف المنصوصة فى شأنهم أيضا

ولكن لما جاء يوم ٢٩ ديسمبر لم يتيسر لعدد كبير من النواب أن يحضروا فتأخر فتح المجلس الى ٢ يناير سنة ١٨٧٩ . ووصفت « الوقايع المصرية» هذا الفتح في عددها الصادر في ٢٦ يناير فقالت :

« . . . . صار افتتاح مجلس شورى النواب الساعة ٥ ونصف عربي بحضور سعادة الخديو الاكرم وبين يديه دولتلو افندم محمد توفيق باشا ولي عهده ودولتلو افندم حسن باشا ثالث انجاله ودولتلو نوبار باشا ناظر مجلس النظار وناظر الخارجية والحقانية وجناب المسيو ر يفرز ولسن ناظر المالية وسعادة محمد راتب باشا ناظر الجهادية وسعادة مصطفى رياض باشا ناظر الداخلية وسعادة علي مبارك باشا ناظر الاوقاف والمعارف وجناب مسيو دوبلنيير ناظر الاشغال العمومية وسعادة احمد خيري باشا مهردار الحضرة الخديوية وتليت مقالة النطق الكريم وصورتها ادناه:

«أبدى لكم ممنونيتي من اجتماعكم بهذا المجلس واخبركم بان سبب اجتماعكم هو ان نظار حكومتي سيتذاكرون معكم في بعض مسائل مالية واشغال داخلية فنرجو من المولى الكريم ان تتم المذاكرة في ذلك على احسن حال والله الموفق للصواب »

وكان الرأى العام يعلق آمالا كبيرة على هذا المجلس وكان يريد منه أن يخرج عن الطوق الضيق الذي حدد فيه اختصاصه فكتبت جريدة الوطن في عددها الصادر في ٤ يناير تقول : « ان الآمال جميعها متعلقة بان المجلس المذكور يحذو في هذه المرة حذو مجالس أوربا في استعمال حرية الافكار في جميع مناظراته ومداولاته فان ذلك هو السبب الاقوى للعمران الشاهد في عموم أوربا العيان »

وفي يوم الافتتاح ألف المجلس لجنة منه للرد على « مقالة » الخديو ثم وضعت اللجنة الرد ووافق المجلس عليه وقدمه وفد للخديو يوم ٦ يناير في قصر عابدين بحضور جمع من الامراء والنظار والكبراء . وفي هذا الرد جهر المجلس بأن «النواب هم وكلاء الامة والمدافعون عن حقوقها » ثم جهر بمعنى آخر كان يعتبر جريئا في ذلك الوقت وهو أن مجلس النظار مسئول أمام الامة وممثلها مجلس النواب . وها هو الرد ننقله بنصه عن جريدة الوطن الصادرة في ١١ يناير سنة ١٨٧٩ :

« نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها المدافعون عن حقوقها الطالبون لمصلحتها التي هي في نفس الامر مصلحة الحكومة نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب الذي هو اساس المدنية والنظام وعليه مدار العمران وهو السبب الموجب لنوال الحرية التي هي منبع التقدم والترقي وهو الباعث الحقيقي على بث المساواة في الحقوق التي هي جوهر العدل وروح الانصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزراء جعلته مسئولا كفلا أمام الامة تأييدا لمجلس النواب وتتميما له . ولذلك حينما تعلقت ارادتها السامية بأن ينظر الوزراء في أمور المالية والاشغال الداخلية دعت نواب الامة ليتداولوا معهم في ذلك حفظا لحقوق الرعية ومصلحة الحكومة »

ثم استمر الرد فذكر ان ما جاء في « مقالة » الخديو من أن المقصود باجتماع المجلس هو المداولة مع النظار في المسائل المتعلقة بالمالية والاشغال والداخلية بعث في النواب « روح العصر الجديد وأحيا آمال الامة »

وهذا كله يدل على أن المجلس كان يستقبل في تلك السنة روحا قوية في البلاد هي روح الالم مما وصلت اليه الحال على يد اسماعيل والرغبة في أن تتولى الامة أمرها بيدها لتدرأ الخطر عن نفسها . فلننظر ماذا فعل بعد ذلك وكيف كان مسلكه بإزاء الحكومة

كان الوقت وقت النظارة الاوربية ، ويجب أن يلاحظ القارىء أن الوقت كان أيضا وقت رضا اسماعيل بالنظارة الاوربية لانه لم يثر عليها الا في ابريل ونحن الآن في يناير ، فلما عقد المجلس جلساته الاولى بدأ فأخذ على النظار أنهم لا يحضرون اجتماعاته ولا يقدمون اليه المسائل ذات الاهمية . وعلم النظار بهذا الانتقاد فخضع له ناظر الاشغال مسيو دي بلنير فجاء وتناقش مع المجلس وسمع ملاحظاته أكثر من مرة واقتنع بما سمعه من جوابه. أما رئيس النظار نوبار باشا وناظر المالية السير ريفرز ولسن فقد كان لكل منهما موقف يستحق أن يذكر على حدة .

ونبدأ بناظر المالية فنقول إنه كتب الى المجلس يطلب منه أن ينتخب بعض اعضائه

ليذهبوا اليه فى وزارة المالية [1] ويتداولوا معه في بعض المسائل فرفض المجلس وقال ان رأيه لاينحصر في فريق منه ولكنه قبل مع ذلك أن ينتدب خمسة أو ستة منه على شرط أن تكون كل مهمتهم سماع ما يريد الناظر تبليغهم إياه وان يعودوا الى المجلس ليعرضوا عليه ما سمعوه . ولا ريب في أن هذا كان خطأ من المجلس لان النواب ليسوا سعاة بريد ولان على كل ناظر أن يتقدم بنفسه بما لديه ، ولكن لعل المجلس ظن أنه بذلك يبعد عن نفسه تهمة التعصب على النظارة الاوربية والناظر الاوربي وقد كانت هذه التهمة دائرة في ذلك الوقت على لسان كل طاعن فى المصريين

على أن ناظر المالية استمر بعد هذا ممتنعا عن أن يقدم شيئا فاستعجله المجلس

---

(۱) ننقل هنا من محضر جلسة المجلس فى يوم ١٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ٩ يناير سنة١٨٧٩ ما يأتى بنصه :

« سعادة رئيس المجلس اخبر بانه وردت افادة من ناظر المالية صورتها : « من حيث اننا نريد المكالمة مع ارباب شورى النواب فى مسائل مهمة تتعلق بامور مالية الحكومة والاسترشاد من معلوماتهم وتجاربهم المحلية فمنظور انه اذا امكن المداولة مع بعض من حضرات الاعضاء الذين يصير انتخابهم بمعرفة المجلس ويحضرون للمالية يكون ذلك مناسبا لظروف الاحوال ويتأتى منه تسهيلات لاموريتنا. فالرجاء تبليغ ذلك للمجلس والترجى منه بالقبول حسب ما يقتضيه الحال »

«ومحمود بك العطار قال المجلس لا ينحصر رأيه فى بعض الاعضاء بل لا بد من المذاكرة بحضور جميع الاعضاء . وانما من حيث ان سعادة ناظر المالية طالب بعض ارباب المجلس للاسترشاد فلا باس من تعيين قدر خمسة او ستة منهم بحيث ان لا يكون لهم راى ولا قول فى اي مسألة كانت وانما ما هو لازم الاستفهام عنه يصير تبليغه لهم ويحضر منهم مكاتبة للمجلس بالكيفية وعندها ينظر ويعطى القول اللازم

« استقر راى المجلس على ذلك وان الذين يتوجهون هم.....الخ»

فلم يرد عليه فاضطر المجلس أن يجهر بذلك في جلسة ١٩ يناير [1] وأن يعود فيكتب استعجالا ثانيا . ثم مضت ثلاثة أيام أخرى وناظر المالية لايزال ساكتا فلما انعقد المجلس في ٢٢ يناير شكا اعضاؤه بلسان مر من هذا السكوت[2] ثم اعتزموا الآن يبدوا ما لديهم من الملاحظات على الشؤون المالية

وهل تظن ان المتغطرس ريفرز ولسن أصغى بعد ذلك لهذه الشكوى ؟ كلا لم يصغ اليها وكأنه لم يشعر بها ولا بوجود المجلس . ولو انه كان موظفا مصريا لا يستند في منصبه الا الى سلطة الحكومة المصرية ما استطاع أن ينكر المجلس هذا الانكار

(١) ننقل هنا من محضر الجلسة في يوم ٢٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ١٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي بنصه :

« عبد السلام بك المويلحي — قال حيث افتتاح المجلس كان اصل مبناه كما هو من مقتضى المقالة الخديوية النظر في مسائل مالية واشغال داخلية وتقدم تقرير بالمجلس عن لزوم حضور ذلك وقد حضرت افادة من الداخلية عن مسائل لاشغال وحصل الوعد عن حضور مسائل المالية . ولما لم يحضر حرر استعجال وللآن لم تأت والمجلس لم يزل في الانتظار . وقبل افتتاح المجلس معلوم عند سعادة ناظر المالية اهمية المسائل المقتضى تقديمها للمجلس وها هو لحد الآن ما ورد منها شيء فان وافق يكون استعجال حضورها — استقر الرأي على ذلك »

(٢) ننقل من محضر جلسة ٢٩ محرم — ٢٢ يناير ما يأتي بنصه :

« تقدم انهاء من حنا افندي يوسف والشيخ عثمان الهرميل والسيد احمد السرسي ومحمود افندي لطف الله واحمد أغا عبد الصادق والشيخ فضل الزمر ويوسف افندي رزق وعبد الشهيد افندي بطرس والشيخ خضر ابراهيم والشيخ حسن عبد الله والشيخ احمد جاد الله والشيخ محمود عبد الله والشيخ ابراهيم الجيار والسيد اللوزي والسيد سليمان الفرلي والشيخ محمد فرج ومحمود بك العطار صار تلاوته وصورته أدناه :

« مبنى افتتاح المجلس انما هو عن رؤية مسائل مالية واشغال داخلية حسب المنصوص في المقالة الخديوية التي تليت يوم الافتتاح وقد صار الانتظار لورود مسائل المالية ومع تحرير الاستعجالات عنها المرة بعد المرة ما كانت ترد . وقد مضى على المجلس من يوم افتتاحه لحد تاريخه نحو العشرين يوما وقد سبق القول بالمجلس ان بعض حضرات الاعضاء عندهم ملحوظات يرغبون ابداءها لكن منتظرون ورود تلك المسائل وحيث انها ما وردت فقد ألجأت الضرورة لان نوضح ما عندنا من الملحوظات ....الخ»

ولكنه كان موطدا انجلترا يستند في منصبه الي انتداب حكومته من جهة والى السلطة التي كان الدائنون قد كسبوها في داخل الحكومة المصرية من جهة أخري فكان سهلا عليه أن يحتقر المصريين مادام مستطيعا أن يبتز منهم الاموال بقوة الكرباج للدائنين ومن هنا نفهم انه حينما طلب من اسماعيل أن ينزل عن السلطة لمجلس نظاره لم يكن يريد ايجاد حكومة مسئولة وانما كان يريد ايجاد حكومة يمكن أن يدخلها ويكون صاحب السلطة المطلقة فيها

وبقيت الحال كذلك عدة أيام وكان المجلس قد بعث بالملاحظات التي أبداها بعض أعضائه على الشؤون المالية الى الحكومة كي يرد عليها ناظر المالية فانقضت أسابيع ولم يرد الناظر ثم اجتمع المجلس في ٩ مارس فقدم ٤٩ عضواً من اعضائه احتجاجا على الناظر [1] بينوا فيه مسلك العنت الذي يسلكه وشرحوا الضنك الذي

---

(١) ننقل من محضر جلسة ١٦ ربيع الاول — ٩ مارس ما يأتي :

« تقدم أنهاء من تسعة واربعين من الاعضاء وصار تلاوته وصورته ادناه :

«لا يخفى ان منى افتتاح مجلس النواب في هذا العام كان من اجل النظر في مسائل مالية واشغال داخلية لما ان ذلك من مقتضى المقالة الكريمة التي تليت يوم افتتاحه وقد حضرت للمجلس مسائل تتعلق بالعمليات ونظر فيها وتحررت الملحوظات اللازمة عنها وبعثت للداخلية واما المسائل المالية فمع طلبها مراراً وعدم حضورها ومعلوميتنا بما هو حاصل للاهالي من الضنك والمشقة وعدم امكان القيام بوفاء المربوط فتقدم البيان عن التضرر الحاصل من اقلام الايرادات والمجلس التمس حضور سعادة ناظر المالية للمذاكرة معه في هذا الخصوص ولما لم يحضر كتبت الملحوظات المقتضية وارسلت للداخلية وما كان يرد عنها مجاوبة للآن . وبما ان حقيقة حال الاهالي وما هم عليه من درجات العسر والمشقة معلوم عندنا كما يجب ويلزمنا ايضاح ما هو متراء لنا في خصوصها بالنسبة لكوننا نوابا عنهم ولا شك في ان ثقل الاحمال التي كلفوا بها هو الذي صيرهم الى عدم امكان الوفاء بتلك المطاليب....... وحيث قد مضى من وقت افتتاح المجلس لحد تاريخه زيادة عن سبعين يوما اي اكثر من المدة المقررة للائحة وما كانت تحضر المسائل المالية اللازم النظر فيها ولا المجاوبة عن الملحوظات التي تقدمت من المجلس........فقد التزمنا ايضاح الكيفية بالتفصيل وبينا ما هم عليه الاهالي كما هو من واجبات وظائفنا حتى لا يبقى علينا ادنى ملامة في المستقبل — المجلس وافق على هذا الانهاء وقرر ارساله الى نظارة الداخلية »

مطالبه البلاد وأشهدوا الامة على أنهم فعلوا واجبهم فلم تبق عليهم ملامة . وعند هذا الحد من النزاع نقف موقتاً لننتقل الي النزاع الثاني الذي قام بين المجلس ونوبار باشا وسنرى بعد ذلك كيف انتهى النزاعان

لاحظ اثنان من النواب هما محمود بك العطار وعبد السلام بك المويلحي أن أمراً عاليا صدر في ٦ يناير — أي بعد افتتاح المجلس بأربعة أيام — ونشر في عدد ١٦ فبراير من الوقائع المصرية وفيه أن لجنة التحقيق التي عينت لفحص مالية مصر ولمجلس النظار أن يضعا لوائح وقوانين يصدق عليها الخديو ويصدرها بغير أن تعرض على مجلس شورى النواب فاحتجا على ذلك أمام المجلس فأقر المجلس احتجاجهما وطلب حضور نوبار باشا ليستجوبه في هذا الموضوع . وكانت وقفة للمجلس في ذلك اليوم ، يوم أول فبراير وقبل أن يفكر اسماعيل في الثورة على النظارة الاوربية بأكثر من شهرين ، وقفة تذكر في تاريخه وتاريخ الحياة النيابية في مصر ولهذا ننقل من محضر اجتماعه ما يأتي بنصه :

« قال الرئيس تقدم انهاء من حضرتي محمود بك العطار وعبد السلام بك وصار تلاوته وصورته أدناه :

رأينا في العدد ٧٩٣ من الوقائع المصرية دكريتو مبني على ماعرضه رئيس مجلس النظار على الحضرة الخديوية ونصه :

بناء على التقرير الذي عرض علينا من رئيس مجلس النظار وبناء على رأي مجلس النظار الموافق ذلك التقرير أصدرنا أمرنا هذا .

أولا أن قومسيون التحقيق الاعلى مكلف بوضع لوائح وقوانين لجميع المواد التي اشتغل فيها وبعد نظرها في مجلس النظار واستصوابها يرفعها الينا للتصديق عليها ان دعت الحاجة الى ذلك

ثانيا انه من ابتداء التاريخ الذي يبين بعد لايصير تحصيل أموال ولا اجراء أي أمر يختص بعموم الادارة الا بعد صدور قانون من مجلس نظارنا مصدق عليه منا ومنشور في الصحيفة الرسمية . وقد وكلنا رئيس مجلس النظار بتنفيذ هذا الدكريتو. حرر في ٦ يناير سنة ١٨٧٩

ولم نر لمجلس النواب في هذا الدكريتو اسما ولا خبرا مع أن سائر ما يختص بالادارة العمومية من تحصيل أموال وضرب ضرائب ووضع لوائح أو قوانين

لذلك وما كان من هذا القبيل انما يقصد به الاهالى لاغير وكل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضاهم به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به. وحيث انهم انابوا عن أنفسهم نوابا منهم منوطين بالمدافعة عنهم والمحاماة عن حقوقهم والنظر في شئونهم ببين المصلحة فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه. وذلك لايخفى على دولة رئيس مجلس النظار. وكيف يخفى عليه ان للامة المصرية نوابا وهو يعلم دعوتهم للالتئام وقد شهد يوم اجتماع المجلس وحضر افتتاحه وسمع تلاوة الخطاب الخديوى في أعضائه وحضر يوم اجابة الاعضاء على ذلك الخطاب ووقف على مضمون كل من الخطاب وجوابه وعلم ما فوض اليهم أمر المذاكرة فيه. ومن ثم قد أخذنا العجب وذهب منا الاسف كل مذهب ولا شك فى أنكم معشر النواب قد أخذكم من العجب والاسف ما أخذنا وكيف لا وان مثل دولة رئيس مجلس النظار لا يجهل حقوق مجلس النواب ومقدار احترامها كما لاينكر ان موضوع الذكريتو المحكى عنه، هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التى لايصح انتهاكها ولذلك كانت الحضرة الخديوية من عهد تشكيل مجلس النواب لاتبرم غالب الامور المهمة التى تكون من هذا القبيل الا بعد أن تعرض على أعضائه ولا يقضى فيها الا بعد اقرارهم على وضعها مع أن تلك الحضرة هى التى منحت الامة تشكيل هذا المجلس. واذا كانت حقوقه محفوظة في الجملة حيث لم تكن ثم وزارة قائمة على دعائم الحرية مكلفة بأمر الاصلاح ومسئولة عنه فكيف تضيع تلك الحقوق فى عهد تؤمل الامة فيه نوال نوابها كمال حريتهم وغاية حقوقهم علما بأن تلك الوزارة أدرى بشئون البرلمنتو وأعرف بمقداره ـ اهـ

قرر المجلس المداولة فى ذلك وارسال صورة منه الى رئيس مجلس النظار ومطالبة رئيس النظار بالحضور لكى تكون المداولة بحضوره »

فنظن ان كل مطلع على هذا المحضر يوافقنا على أن قول المجلس ان « كل ما يقصد به الاهالى لابد اولا من عرضه عليهم ورضاهم به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به » وقوله ان « من الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه » كانا تعبيرا صحيحا عن المطالبة بسلطة الامة وحق نوابها فى التشريع.

وفي ٤ فبراير اجتمع المجلس وحضر نوبار باشا فابتدأ بأن قال انه « يقدم للمجلس الاحترامات الفائقة » فقابل المجلس هذه الاحترامات بالشكر ثم تلى تقرير محمود بك العطار وعبد السلام بك المويلحي وطلب من نوبار باشا أن يجيب عليه فقال ما ننقله هنا عن المحضر بنصه وهو :

« المسألة التي قالوا عنها انما هي مسألة أساسية ولو كانت من خصائص الداخلية او المالية او الحقانية او الاشغال كان من الممكن ان اجاوب عنها انا ورفقائي لكن ارجو قبول عذري في عدم المجاوبة عنها الآن وهذا بالنظر لكونها مسألة اساسية تحتاج للمذاكرة والمشاورة فيها بمجلس النظار والعرض عنها للاعتاب السنية »

فرد عبد السلام بك ومحمود بك العطار بأنهما يوافقان رئيس النظار على ان المسألة اساسية ولكنهما يقولان ان هذه الاساسية نفسها هي الموجب لان يكون النظر فيها من حقوق المجلس . ثم قالا وقال المجلس معهما « ان كل مملكة وكل حكومة تقدمت كان اساسها اشتراك النواب في امثال ذلك » وان « المرجو هو استحصال المجلس على حقوقه » . فلم يجب نوبار باشا بغير أن كرر قوله السابق ثم لجأ بسرعة الى احدى حيله التي اشتهر بها فطلب من النواب أن يشتركوا معه في اختيار « الموظفين المستقيمي السير » لاصلاح الادارة المصرية ! ! ورجا منهم ان يأتوا اليه في ديوانه لهذا الغرض ! !

ولم يعد نوبار بعد ذلك الى المجلس بالجواب الذي وعد به ولكن مجلس النظار اجتمع في النصف الاخير من مارس وقرر فض المجلس بدعوى ان مدته انتهت واستصدر من الخديو امراً هذا نصـه :

« بناء على ماحواه البند التاسع من مجلس شورى النواب من ان مدة توكيلهم عن الاهالي تكون ثلاث سنوات وماعرض علينا من مجلس النظار من ان المدة قد انقضت أصدرنا أمرنا بانفضاض المجلس وكلفنا ناظر داخليتنا بتنفيـذ ذلك في ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩ »

فكان هـذا الامر جواب النظارة على النزاعين اللذين قاما بين رئيسها وناظر ماليتها من جانب والمجلس من جانب آخر ، كما كان دليلا على ان النظارة الاوربيـة كانت تريد ان تخلص بهـذه الطريقة من مراقبة المجلس ومن الروح القوية التي كانت تراها فيه . ولكنها لم تخلص وما كان الامر الذي استصدرته بفض المجلس

الا سببا لازدياد السخط فى البلاد واذ ذاك شعر المجلس بان من حوله قوة كبيرة من الرأى العام تؤيده وتطلب منه المقاومة فقاوم وكان لذلك يوم جليل مشهود

يوم كيوم ميرابو

ذهب رياض باشا ، وكان وزيراً للداخليـة ، الى المجلس وفي يده أمر الفض فتلاه على الاعضاء وهو معتقد أنهم جميعا سيقابلونه بالسمع والطاعة وأنهم قد يتذمرون ولكنهم سيكظمون تذمرهم فى أعماق قلوبهم وسينصرفون . كان هذا هو الذي يعتقده ، فلشدّ ما دهش اذ رأى بعد الفراغ من التلاوة، أن الاعضاء ما زالوا فى أماكنهم وأن واحداً منهم هو عبد السلام المويلحي بك وقف وقال فى قوة وغضب ان ما تقوله الحكومة من ان مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح لان المدة لم تنته بعد ولهذا سيبقى المجلس فى مكانه وسيوالي اجتماعاته حتى يؤدى واجبـه نحو الامة . وقام عضو آخر [1] وقال ان هذا رأينا جميعا فاجاب كل الاعضاء بالايجاب . وخرج رياض باشا كما جاء فلم يحمل الى النظارة خبر انفضاض المجلس وانما حمل خبر تمسكه بحقه وثورته عليها . ويحسن هنا أن نترك الكلام لجريدة « الوطن »[2] فقد قالت في عددها الصادر في ٥ ابريل سنة ١٨٧٩ :

« بعد ان تكلمنا مراراً كثيرة عن مجلس النواب وأصـل وضعه وحقوقه وواجبات الامة نحوه وذلك فى وقت انعقاد مجلس شورى النواب المصرى شغلتنا عن ذكر مآثره شواغل الايام والآن نقول ان حضرة عطوفتلو رياض باشا حضر أمام المجلس وأخبرهم بلسان حضرة الخديو بانفضاضه وان الحكومة متشكرة لهم على ما أبدوه من المساعى اى النظر فى الاحوال والدعاوى فقام حضرة من اشهر

---

(١) لم نعثر مع الاسف الشديد على محضر اجتماع هذه الجلسة ولكننا عثرنا على ما كتبته عنها جريدتا الوطن والتيمس فى ذلك العهد . ولم نجد فى الجريدتين اسم هذا العضو ولكن حضرة يوسف بك المويلحى اطلعنا على مذكرات عنـده تقول انه حسن بك عبد الرازق

(٢) كان مدير جريدة الوطن ورئيس تحريرها فى ذلك الوقت ميخائيل افندى عبد السيد وكان يؤيد الحركة الوطنية تأييداً صادقا

بالفصاحة والبلاغة والمدافعة عن حقوق ابناء وطنه عزتلو عبد السلام بك المويلحى ترجع بلسانه العضب وبيانه العذب بانه لا معنى لتشكرات الحكومة فانهم لم يبدوا مدة تعشر ولم يفعلوا شيئا مطلقا يذكر وان المجلس يستمر على انعقاده.فقام عضو آخر وقال ان هذا الحكم هو اعراب عن افكارنا ومطابق مطابقة تامة لا تطارنا فاجاب جميع الاعضاء بالايجاب وقالوا له بصوت واحد ان هذا هو الصواب فان الارتباكات المالية والمشاكل السياسية تستلزم استشارة امثالهم كما هو حاصل في الممالك الثانوية والاولية فانه اذا وقعت أية دولة فى ارتباكات ومشاكل وعقد مدلهمة وشواغل استعانت باستشارة نواب الامة . فاستغرب سعادة ناظر الداخلية من هذه الشهامة والهمة وتطلبهم لحقوقهم المهمة وأخبرهم بانه سيعرض هذه القضية على الحضرةالخديوية وعلى مجلس الوزراء.فاجتمع النواب وحرروا خطابالناظر الداخلية بينوا فيه بعض الاسباب الموجبة عدم انفضاض المجلس فذكروا انهم لغاية الآن لم يعرفوا ما استقر عليه مجلس الوزراء من جهة الترتيبات وغيرها مع ان وظيفتهم تستلزم الاطلاع على هذه الامور وتقتضي بذل السعي المبرور لم الشعث وضم المنثور وهذا الامر مناسب جداً فانهم لم يأتوا شيئا إذا وإلا اذا سافروا الى نواحيهم وسألهم بعض منتخبيهم عما فعلوه فبأى شيء يجيبونهم .ألا يبتدرونهم قائلين قد رجعتم بخفي حنين بل انتم السبب فى تجريعنا كاس الحين

ثم ختموا جوابهم باقامة الحجة على منع حرية المطبوعات الاهلية .ويقال انه قد اجتمعت جمية من العلماء وانابت واحدا منهم ليخبر مجلس النواب بانهم مؤيدوهم فى مطلوبهم مساعدوهم على مرغوبهم وانه يجب على كل منهم ان يكتب لاهل ناحيته لتسكين خاطرهم واخماد جاشهم الذى جاش عند بلوغهم بانفضاض المجلس . فهذه هى احوال مجلس النواب فى الوقت الحاضر . ويستفاد من خطابهم الذى حرروه انهم لم يشتغلوا لغاية الان الا بأمور جزئية وانهم لم يبطوا بعد اللثام عن الامور الكلية فلم ينظروا فى الميزانية مع انكشافها للبعض ولم يطلعوا بعد على التقرير الذى حرره ناظر المالية وارسله لجميع القناصل وبلاد أوربا ولم يعرفوا الضرائب وغيرها . وبالاختصار انهم لم يطلعوا على الترتيبات الجديدة والنظامات المديدة ومعلوماتهم بهذه الامور لم تخرج عن حد الحدس والتخمين . وزد على ذلك انهم لم يسنوا لانفسهم قانونا ليكون المجلس آلة قوية فى الاصلاح كما حصل فى امارة البلغار »

ونشرت التيمس لمراسلها في القاهرة في ١٦ أبريل ماياتي :

« ان أعضاء مجلس شورى النواب اظهروا ادلة كثيرة على حياتهم واستقلالهم، وليس آخر هذه الادلة اقلها شأنا فقد ذهب رياض باشا ناظر الداخلية منذ أيام الى المجلس ليعلن رسميا انتهاء دور انعقاده فخطب النواب خطبة لطيفة رقيقة نوه فيها بخدماتهم واشار الى انتهاء واجباتهم كلها. ولكن رياضا لم يجد حذو اوليفر كرومويل وأبى المجلس ان يرفض وقام أحد النواب خطيبا فرفض تحية رياض الختامية وصرح بالنيابة عن جهة النواب بان النواب على عكس ماقال رياض باشا لم يفعلوا شيئا وان أمامهم عملا كبيرا هو مراقبة الوزراء وانهم من أجل ذلك يأبون الارفضاض. وأيد الخطيب زملاؤه كلهم كما أيد الاعيان في ماضي التنس فرساي خطيبهم ميرابو في احد المواقف المشهورة . وعلى ذلك لايزال مجلس شورى النواب المصرى يعقد اجتماعاته وهو الآن يتشدد في وجوب خضوع النظار الاجانب والمصريين لارادته وصيرورتهم مسئولين أمامه عن تصرفهم في أعمالهم . فالنواب في الواقع ينوون تحويل الحكومة المسئولة اسما الى حكومة مسئولة فعلا »

نحو مجلس تسأل الوزارة أمامه

لم يكد خبر هذا الموقف الذى وقفه مجلس شورى النواب يصل الى الجمهور حتى تحركت في النفوس كوامن الآلام والآمال وانتعشت بان وجدت قائداً يقودها وصوتاً ينادى بما يختلج فيها . وكانت فكرة « مصر للمصريين » قد انتشرت وكانت جمعيات سرية وغير سرية قد ألفت ثم كانت الفكرة الوطنية قد نمت حتى شملت كما تقدم اسماعيل صديق باشا قبل قتله، وكانت دروس السيد جمال الدين الافغاني قد أنبتت في شيوخ الازهر روحا تتمرد على الفساد وتنادي بالاصلاح ، فالتأم كل ذلك مع ثورة المجلس على نظام الارهاق فكان أن اخذت البلاد كلها تغلى بثورة فكرية هي ثورة المقيد المعذب يريد ان يكسر قيده ليخلص من عذابه

ومامن شك في أن الخديو اسماعيل باشا كان ينظر الى هذه الحركة بعين الارتياح لانه رأى فيها بابا لاستعادة سلطته والخلاص من اغلال النظارة الاوربية . ويغلب على الظن انه وقد قوي في نفسه هذا الامل وصحت عزيمته على تحقيقه أراد أن

يوجه الحركة الى الطريق التى يريدها فأوعز الى بعض الوزراء السابقين بان يندمجوا فيها ويتولوا قيادتها . فكان ان عقد اجتماع [1] فى أوائل ابريل فى بيت اسماعيل راغب باشا حضره شريف باشا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وجعفر باشا وخيرى باشا والسيد البكرى والشيخ الخلفاوى والشيخ العدوي واتفقوا على كتابة عريضة يطلبون فيها أن تكون النظارة وطنية وأن يعاد نظام المراقبة الثنائية وأن تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب . فكتبت العريضة ووقعها الحاضرون جميعا ووقعها معهم بطريرك الاقباط وحاخام الاسرائيليين وسبعون من العلماء وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش . وقد تقدم ذكر هذه العريضة كما تقدم أن الخديو اسماعيل باشا اعتمد عليها فى استدعائه قناصل الدول مساء ٧ ابريل وأبلاغهم انه كلف شريف باشا تأليف وزارة وطنية مسئولة أمام مجلس النواب .

المجلس فى وزارة شريف باشا

وفى الواقع ان الخديوي كان قد أصدر الى شريف باشا فى اليوم نفسه وقبل أن يستدعي القناصل أمرا نذكره هنا بنصه لاهميته وهو :

« انى بصفة كوني رئيس الحكومة ومصريا أرى من الواجب على ان اتبع رأى الامة وأقوم باداء ما يليق بها من جميع الاوجه الشرعية لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الاسف من ان ذلك السير كان على غير رضا الملة والاهالى حتى نشأ عنه اضطراب وتغير سرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبل ذلك فى غاية الهدوء والسكون . وطالما اخبرت النظار ووكلاء الدول ونبهتهم على تلك الملحوظات فلم يتيقظوا لها ولم يلتفتوا اليها . وزيادة على ذلك فان النتيجة التى حررها ناظر المالية واظهر بها ان القطر فى حالة العدم (٢) وابطل العمل بمقتضى القوانين المعتبرة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة كانت سببا لتغيير قلوب

(١) جريدة الوطن بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٨٧٩

(٢) تقدم ان السير رفرز ولسن اعلن تأجيل كوبون شهر ابريل فكان هذا بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية

الامة ونفورها من هيئة النظارة كل النفور . وحقق لي ذلك المحضر الذى تقدم لي في هذا الخصوص (٢) . فاجابة لما عرض على بذلك وبالنظر لثبوته عندى قد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الارادة الصادرة فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ وان تكون تلك النظارة مشكلة من اعضاء أهليين مصريين يتبعون في سيرهم الطرق المنصوص عليها في الادارة المذكورة وان يحفظوا على مأموريتهم كل التحفظ اذ أنهم مكلفون بالمسئولية لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه وتبيين مأموريته بوجه كاف للقيام بتأدية مايلزم للحالة الداخلية ومرغوب الامة نفسها »

هذا هو الامر الذى أصدره اسماعيل الى شريف باشا ومن السهل أن يرى فيه كل انسان ان اسماعيل تعمد ان يلقي المسئولية فى جميع المصائب التى حلت بالبلاد فى عهده على النظارة الاوربية ليكتسب ميل الامة . وكل من يقرأ تاريخ تلك الايام يرى انه كان يحضر اجتماعات وحفلات تقام في بيت البكري وغيره ثم يقف فيها بين الناس فيدعو بالخير للامة ويقرأ الفواتح لاولياء الله كأنه زعيم وطني ورئيس ديني، ولكننا نمر بهذا لاننا لاننظر فيه بل فى شيء آخر هو الحياة النيابية . والمهم لدينا الآن ان هذا الامر نص على تأليف وزارة يكون اعضاؤها « مكلفين بالمسئولية لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه » ، وتلك هي اول مرة ألفت فيها وزارة على هذا الاساس .

وبعد اربعة ايام من تأليف وزارة شريف باشا اى فى ١٠ ابريل سنة ١٨٧٩ (١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦) اجتمع مجلس شوري النواب فتلا عليه رئيسه خطابا جاءه من وزارة الداخلية هذا نصه[٢] :

« ولو انه كان تقرر بمجلس النظار السابق عن انفضاض مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسب ما تحرر لسعادتكم في ربيع آخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٣١ لكن حيث ان مقتضيات الاحوال مستلزمة إبقاء للمذاكرة والمفاوضة معه فى بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره واقتضى تحريره لسعادتكم للاحاطة بذلك وتفهيم حضرات اعضائه بعدم الانصراف »

---

(١) يريد العريضة التي سبق ذكرها

(٢) الوقائع المصرية فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦

وفى جلسة ١٧ مايو حضر شريف باشا وقال [١] : « وانه يقدم للمجلس اللائحتين المتعلقتين بأسامى المجلس وبالانتخاب. وقد أحضر معه اللائحة الاساسية [٢]. اما لائحة الانتخاب فهي تحت التبييض والنظر فى مجلس النظار »

وفى اليوم التالى الف المجلس لجنة من بعض أعضائه للنظر فى « اللائحة » التى قدمها اليه شريف باشا . وفى ١٥ يونيو قدمت هذه اللجنة تقريرها وتلى فى المجلس. وفى ٢٥ و ٢٦ يونيو عزل اسماعيل وولى توفيق . وفى ٥ يوليو كان عزل اسماعيل عنوة قد أثر في النفوس فعقد مجلس شورى النواب آخر جلساته وذلك ان نظارة الداخلية أبلغته انها لاتستطيع أن تقدم اليه لوائح ولا قوانين الا بعد زمن طويل فرأى أعضاؤه أن يقضوا هذا الزمن فى مهامهم الخصوصية وانصرفوا ثم لم يجتمعوا بعد ذلك الا فى ديسمبر سنة ١٨٨١ .

---

(١) الوقايع المصرية فى ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٦

(٢) لم تصدر هذه اللائحة ولذلك لا نرى حاجة لنشرها غير اننا نلخص هنا أهم ما كانت تشتمل عليه وهو : مدة النيابة ثلاث سنين . المسائل التى تقدم من النظار للنواب تصير المذاكرة فيها بمجلس النواب واذا ترامى فيها ملحوظات تجرى المخابرة عنها مع مجلس النظار وانما يكون ذلك مقرونا ببيان الأوجه والاسباب . اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة للحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس النواب وتجديد انتخاب أعضائه على شرط ألا تتجاوز مدة الانتخاب اربعة أشهر من يوم انفضاضه الى يوم اجتماعه . اذا أيد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه رأي المجلس السابق وجب تنفيذه ويجوز للامة ان تنتخب نفس النواب السابقين او بعضهم . رئيس المجلس ووكيلاه وكتبته يكون تعيينهم بمعرفة نفس المجلس. مذكرات النواب ومداولاتهم فى الجلسات العمومية تكون علنية . وضع القوانين واللوائح يكون ابتداء بمجلس النظار ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتنقيحها بحيث لا يكون القانون معتبراً دستوراً للعمل ما لم يتل بمجلس النواب بنداً فبنداً ويعطى عنه القرار ويجر التصديق عليه من الحضرة الخديوية . لائحة ادارة مجلس النواب الداخلية تعمل بمعرفته . اعضاء مجلس النواب لا يزيدون على ١٢٠ بما فيهم نواب السودان حسب البيانات التى توضح بلائحة الانتخاب. النظار مسئولون امام مجلس النواب عن كافة الاحوال والاعمال المختصة بادارتهم وبناء على ذلك يجب على مجلس

والآن وقد فرغنا من هذا الدور من ادوار مجلس شورى النواب يحسن ان نثبت هنا الشهادات الآتية :

نشرت التيمس لمراسلها بالاسكندرية فى ١٥ ابريل سنة ١٨٧٩ كلمة عن المجلس قال فيها : « اظهر مجلس شورى النواب المصرى فائدة عظيمة فى مناقشة مشروعات الاصلاح الزراعى وتوسيع نطاق الاعمال العامة »

وقال مسيو ملك كون فى كتابه « مصر كما هى » فى هامش صفحة ١١٨ : « ان النواب عامل مفيد فى سياسة مصر الداخلية »

النظار المبادرة الى وضع قانون لمحاكمة النظار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب. لا يجرى العمل بأمر صادر من الحكومة ما لم يكن ممضي من الناظر المختص ومطابقا لقانون معتبر . اذا تراءى للنواب التكلم في بعض مواد خلاف ما يتقدم لهم من النظار فتجرى المداولة فيها ويرسل اخطار بذلك لمجلس النظار وبعد ثمانية أيام من تاريخ إرسال ذلك الاخطار ان لم يرد من مجلس النظار أوجه تمنع من المذاكرة فيها ويقر النواب قبول تلك الاوجه فلهم ان يتمموا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها . النظار ملزمون بالمجاوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب اما بان يتوجهوا بانفسهم او بان ينتدبوا أحد كبار موظفى دوائرهم للمجاوبة بالنيابة عنهم. من حقوق النواب ان يلاحظوا المصاريف العمومية بالدقة التامة وان يقرروا مقدارها ويجب عليهم ان يعينوا كمية الواردات وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطريقة توزيعها وأوقات تحصيلها فلا يجوز ضرب ضريبة من أى نوع كانت ولا توزيعها وتحصيلها ولا تكليف الاهالى بشيء ما الا بعد اقرار مجلس النواب عليها كما لا يجوز صرف شيء من متحصلات الضرائب زيادة عما يقر عليه مجلس النواب . للنواب ان يطلبوا عقب افتتاح المجلس الميزانية العمومية الجارية للواردات والمصروفات لينظروا فيها ومتى قرروا عليها بعد البحث التام لا يعمل بها الا فى تلك السنة ويلزم فى السنة التالية تحرير ميزانية ثانية وعرضها على مجلس النواب كما تقدم وهكذا سنويا . لكل نائب من النواب حق اذا رأى أي قصور من أي مأمور وفى أي ادارة من ادارات الحكومة ان يكتب بذلك للناظر المختصة به الادارة وهذا فقط فى المواد العمومية

وقالت التيمس في مقال افتتاحي في ١٦ ابريل سنة ١٨٧٩ : « وربما كان كثير من الاعضاء صنائع الخديو ولكن مهما تكن طريقة انتخاب هيئة نيابية فلا بد ان تحصل هذه الهيئة على شيء من الاستقلال عندما تصل مجتمعة . ويظهر ان مجلس نواب مصر لا يشذ عن هذه القاعدة »

وقد تقدم ما كتبه مراسل التيمس في القاهرة ونشرته هذه الجريدة في ١٦ ابريل سنة ١٨٧٩ عن جلسة مجلس شورى النواب التي رفض الاعضاء فيها ان ينفضوا ولن يقبلوا الامر الذي تلاه عليهم رياض باشا

هذه كلها شهادات تدل على ان روح مجلس شوري النواب كانت مستقلة تعمل لمصر لا لاسماعيل . واليك شهادة اخرى تدل على ان المجلس كان محاطا بحركة وطنية منبعثة من الشعب وان هذه الحركة كانت حقيقية لا صورية .

كتبت التيمس في ٣ مارس سنة ١٨٧٩ تصف ثورة الشعب الفكرية على أثر فتنة الضباط التي وقعت في ١٨ فبراير فقالت :

« لقد وقعت الفتنة في جو مفعم بالسخط والتذمر فكانت مثل شعلة متقدة ألقيت في مستودع بارود فلا تسل عما ابتعثته من انفجار سخط المصريين انفجاراً تمثل في مظاهرات واجتماعات المشايخ والاعيان والعلماء وأقرت استحلال الفناء النظام (اى نظام الحكم الذى كان موجوداً اذ ذاك) وخرجت منها وفود الى الخديو تمده المعونة في نزاعه مع سادته الاوربيين وتطلب أن تكون للأمة يد في حكومة البلاد »

وكتب السير فرنك لاسل الذى كان قنصلا عاما لانجلترا في القاهرة في ذلك الوقت الى وزارة خارجية حكومته تقريراً في ٢٩ ابريل سنة ١٨٧٩ وصف فيه الاستياء العام الذى كان يشمل الشعب المصرى ثم قال :

« . . . ويؤكدون ان هذا الاستياء عينه من الحال الحاضرة منتشر انتشاراً كبيراً في الجيش وانه ولد شعور عداء للخديو ليس فقط بين أفراد العسكرية المنتسبين الى طبقات الامة المرهقة بل بين الضباط أنفسهم . ويؤكدون لى أيضا ان هؤلاء وان كرهوا كل الكراهة أى تدخل أوربي يعتبرون الخديو مسئولا عن المصائب التى أصابت البلاد »

اذن كان السخط على التدخل الاوربى وعلى اسماعيل شاملا للشعب والجيش معاً. وفى التقارير التى يراها القراء فى ذيل هذا الكتاب قلم احمد عرابي ما يؤيد هذه الحقيقة . ويدهى انه لولا ان يكون السخط قد شمل الجيش لما نشبت فتنة الضباط .

ولدينا بعد ذلك شهادة قوية أخيرة هى التى كتبها مستر تيودور رونستين فى كتابه « المسألة المصرية » صفحة ٨١ من الترجمة وهى قوله :

« ان مايفعله المؤرخون الرسميون من تصوير الاعيان والعلماء وغيرهم من الطبقات المصرية الراقيـة فى ذلك الوقت فى صورة آلات فى يد اسماعيل مسخرة لامره فاقدة الاستقلال الخلقي والفكري لمن قبيل العبث بالحقائق التاريخية وتشويهها. قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين للانقياد لاسماعيل ومساعدته في رفع النير الاوربي عن بلادهم ولكنهم مع ذلك كانوا يمقتونه لانه كان علة شقائهم وبلائهم وقد بلغ بهم الامر بعد الانقلاب السياسى (اى بعد اقالة النظارة الاوربية وتعيين نظارة شريف باشا) ان فكروا فى عزله . ومما يدل حقيقة على مبلغ كره المصريين له انه لما عزل وأخرج من البلاد لم يرتفع صوت واحد بالدفاع عنه »

عهد توفيق باشا

انتهى عهد اسماعيل وجاء عهد ابنه توفيق فلعلنا لا نجد أبلغ من هـذا الابن وصفاً لما خلفه أبوه من الشقاء وايضاحا لما كان على البلاد ان تعانيه من صده وبسببه من المتاعب . فقد كتب هذا الابن غداة توليه العرش الى شريف باشا يكلفه ان يؤلف النظارة فقال :

« يا وزيرى العزيز

لقد استعفت الوزارة فاكلفك بتشكيل وزارة جديدة ولا أزيدك بحقيقـة الحال علما

«ولما قضت العناية الآلهية بتوليق أمر بلادى جعلت على واجبات ليس من همي الا النهوض بها بامانة وشهامة على علمى بمقدار صعوبتها وجسامة المطاليب المتراكمة على مع الارتباك والفترة المالية التى انزعجت منها الخواطر اذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة فى البلاد لم تقع فى مصر من قبل . على انى عظيم الميل الى بلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الامة التى اظهرت السرور بولايتى وفى اخراجها

من هذه الحال السيئة . ومع هذه العواطف فاني عازما عزم أكيدا على بذل الجهد وصرف الهمة الى التماس احسن الوسائل لازالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح . . . . . الخ »

هذا هو ما خلفه اسماعيل : مطاليب متراكمة ، وارتباك ، وحالة مالية ازعجت منها الخواطر ووقفت حركة التجارة ، وفترة لم تقع مصر فى مثلها من قبل ، واختلال مفسد لكثير من المصالح . والذي يقول هذا هو انه توفيق ، وفى نفس اليوم الذى عاد فيه من توديع والده يكفكف الدمع حزنا على هذا الوالد ورثاء لما أصابه . لا جرم كانت البلاد مقبلة على خطر وكان المصريون يشعرون بهذا الخطر ويعرفون انهم لم يستهدفوا له الا لأن حكم الفرد عبث بمصالحهم فى سبيل شهواته فلا منجاة لهم الا من ان يتولوا امرهم بأنفسهم وان يقيموا الحكومة النيابية . ولقد كانت صيحات مجلس شورى النواب باسم الامة لا تزال ماثلة فى الاذهان ، ثم كان الامر الذى أصدره اسماعيل لشريف باشا في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩ بتأليف وزارة مسئولة أمام النواب قد اعتبر خطوة غرت بها الامة بعض حقها ، كما كان مشروع القانون الاساسى الذى قدمه شريف باشا لمجلس شورى النواب قد اعتبر متمما لهذه الخطوة ، كان كل ذلك فكانت النفوس متشمة بالرغبة فى الحكم النيابى متأملة من أنها وقد دنت منه حتى أوشكت أن تقبض بيدها عليه جاءت حوادث قصتها عنه الى حين .

تلك هى الحالة النفسية التى كانت عليها البلاد حينما تولى توفيق العرش . ويجب ان نعتقد أنها كانت قوية لان توفيقا اضطر ان يردد صداها فى « أمر كريم » أصدره فى ٣ يوليو سنة ١٨٧٩ الى وزارة شريف باشا بعد تأليفها وقد أراد منه ان يكون برنامجا يأخذه على نفسه أمام الامة ، وإليك ما قاله فيه :

«ان العناية الالهية سلمت زمام الحكومة المصرية الى يدنا فضلا منه واحسانا فقد تشرفنا بأمر شريف بذلك من متبوعى الافخم وسلطانى الاعظم نصره الله . . . . ولعلمى ان الحكومة الخديوية يلزم ان تكون شورية ونظارها مسئولين فانى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا أحول عنه . فعلينا تأييد شورى النواب وتوسيع قوانينها لكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الامور المتعلقة بها . . . . الخ »

ففي هذا البرنامج قرر توفيق جريا مع الحالة النفسية التي كانت عليها البلاد أولا ان الحكم يجب ان يكون نيابياً، وثانياً ان النظار يجب أن يكونوا مسئولين. نعم انه لم يعين هنا الجهة التي يسأل النظار أمامها أهي مجلس النواب أم الخديو ولكننا لا نظن ان كلمة « مسئولين » كانت تلقي في ذهن الرأي العام في ذلك الوقت شيئا غير المسئولية التي ذكرها اسماعيل في أمره الصادر في ابريل ، وخاصة لان توفيقا يتحدث بعد ذلك عن « تأييد مجلس شورى النواب » و « توسيع قوانينه » كأنه يشير بذلك الى المشروع الذي كان شريف باشا قد قدمه .

ولكن توفيقاً بعد ان ارتبط أمام البلاد بهذا العهد الطيب في ٣ يوليو ترك مجلس شورى النواب ينفض في ٥ يوليو ، ثم مضت شهور وشهور دون ان يدعوه للاجتماع مصغياً في ذلك لنصائح المراقبين الاجنبيين اللذين كانا يتمتعان بالسلطة المطلقة في مالية الحكومة فكانا يكرهان ان يوجد بجانبهما مجلس نواب ينازعهما هذه السلطة . ومصغياً أيضا لنصائح قنصلي انجلترا وفرنسا اللذين كان نفوذهما قد تغلغل في جميع دوائر الحكومة حتى صارا السيدين المطاعين من الخديو والنظارة فلم يكن يسرهما أن يأتي مجلس النواب بعد ذلك فيأخذ منهما هذا النفوذ .

ولم تعش نظارة شريف باشا الا أياما ثم استقالت فتولى توفيق رياسة مجلس النظار بنفسه ثم ارسل فاستدعى رياض باشا من اوربا فلما جاء اصدر اليه في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ أمراً بتأليف النظارة فلم يذكر فيه شيئا لا عن الحكومة التي يجب ان تكون شورية ، ولا عن مجلس شوري النواب الذي يجب توسيع اختصاصه، ولا عن النظار الذين يجب ان يكونوا مسئولين . والف رياض باشا نظارته ورفع بتأليفها كتابا الى توفيق فلم يذكر فيه هو أيضاً شيئا عن الشورى ولا عن المجلس ولا عن مسئولية النظار .

ومضت بعد هذا سبعة عشر شهراً من سبتمبر سنة ١٨٧٩ الى فبراير سنة ١٨٨١ بغير أن يدعي مجلس شورى النواب للاجتماع وبغير أن تبدو على توفيق رغبة في الوفاء بعهده فاشتد التذمر منه ومن وزارة رياض باشا وكان هذا التذمر واحداً من الاسباب العميقة التي حركت عوامل الاضطراب . نعم ان لهذا الاضطراب الذي ظهرت

بوادره فى حادثة قصر النيل ثم فى طلب عرابي وزملائه عزل عثمان رفقي باشا ناظر الجهادية عوامل أخرى كان أظهرها استياء الضباط المصريين من اختصاص زملائهم الشراكسة بكل مناصب الجيش العالية ، غير ان الحق الذى لا يستطيع أحد إنكاره هو أن هذا الاستياء وحده ما كان كافيا لان يحدث اضطرابا ولا لان يؤدى الى ثورة لو أن الامر اقتصر عليه وهاج الضباط من أجله لبقى هياجهم محليا ولوجدت الحكومة من سند الامة ما يساعدها على اطفاء الفتنة بانصاف المستائين أو معاقبة المفتنين ، ولكنها لم تجد هذا السند بل وجدت الامة بالمكر مؤيدة للمنتقضين عليها متحفزة للوثوب أمامهم الى الثورة فانكمشت يدها وطالت يد الضباط . ولا أحب هنا ان اجادل كثيراً في هل الفكرة الاولى التى صدر عنها هؤلاء الضباط حينما هاجوا وطلبوا عزل رفقي باشا واصروا بذلك أول شرارة فى نار الثورة العرابية كانت فكرة المناصب وحدها أو كانت المناصب والحكم النيابى (وباب الجدل فى هذا مفتوح لان عرابياً يؤكد انهم طلبوا فى عريضتهم التى قدموها لعزل رفقي باشا إقامة الحكم النيابي [1] بينما الشيخ محمد عبده ينكر ذلك[2]) ولكنى أقول اننا اذا سلمنا بان الفكرة كانت فكرة المناصب وحدها فيجب أن نسلم أيضا بانها لم تكن كذلك الا في نظر الضباط وحدهم أما الشعب فانه رأى فى انتقاضهم على الحكومة انتقاضا على هيئة كان يعتبرها مصدر آلامه وكان يتهم رئيسها الأعلى بانه حرمه من أمله المشتهي بعد اذ دنا منه ونكث في ذلك بعهد على يشينه النكث به . ولهذا السبب وحده ، ولهذا المعنى لا لغيره ، أيد الضباط . فان نحن قلنا ان المسألة كانت فى نظرهم مسألة مناصب فيجب أن نقول انها كانت فى نظر الشعب غير ذلك ، ثم يجب أن نقول ان الضباط شعروا بهذا وعرفوا قوته فاضطروا على عجل أن يلبسوا حركتهم ثوب المطالبة بالحياة النيابية لان حادثة قصر النيل لم تكد تنتهي حتى أخذ عرابى يوزع على العلماء والاعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان منشوراً هذا نصه بعد الديباجة [3] :

---

(١) انظر « تاريخ أحمد عرابى بقلمه » ص ٣٤٩ من هذا الكتاب

(٢) انظر « رأي الشيخ محمد عبده فى تاريخ عرابى » ص ٣٥٥ من هذا الكتاب

(٣) مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩٠

« ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من مبيع أراض كثيرة للاجانب ووجود كثير منهم فى ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة والسعى فى رفع الاحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية . وان سكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا. فاعلموا يا معاشر الوطنيين ان أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم . وذلك لايتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة . فالمطلوب منكم ان توقعوا على الكتابة للرسالة اليكم فى ضمن هذه النشرة والكتابة المقصود بها ان أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق باحوال البلاد »

ويقول هنا صاحب كتاب « مصر للمصريين » ان عرابيا « تحصل بهذه الوسيلة على أختام الجميع ماعدا سلطان باشا فانه ابى وقال ان هذه الطلبات لا تعلق لها بالعسكرية » . فنقول نحن ان تحصل عرابى بهذه الوسيلة على أختام الجميع هو البرهان الذي لا يدفع على ان الجميع كانوا يتعطشون الى الحياة النيابية ويتألمون لحرمان البلاد منها ويؤيدون كل من يتقدمهم للمطالبة بها .

مظاهرة الجيش فى عابدين

نحن لانتابع حوادث الثورة العرابية وانما نتابع موضوعا معينا هو الحياة النيابية ولهذا ننتقل دفعة واحدة من حادثة قصر النيل (فى ٤ فبراير سنة ١٨٨١) الى مظاهرة الجيش في عابدين (في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١) ولا نأخذ من هذه المظاهرة الا الجانب الذى يمس ما نحن فيه .

رأينا فيما تقدم أن الحركة العرابية لبست بعد حادثة قصر النيل ثوب المطالبة بالدستور وأن عرابيا زعيم هذه الحركة شرع يأخذ من العلماء والاعيان والعمد ومشايخ العربان توكيلا للمطالبة بعزل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب . فهنا نقول ان الاشهر التي انقضت ما بين فبراير وسبتمبر من تلك السنة كانت كلها أشهر ترديد لكلمات الحرية ، وسيادة الامة ، والحكم النيابى ، والعهد الذى أعطاه

توفيق على نفسه فى كتابه الى شريف باشا بجعل الحكومة شورية وبتوسيع اختصاص مجلس شورى النواب ثم تناسيه هذا العهد وعمله بضده . فلما جاء شهر سبتمبر وعاد توفيق من الاسكندرية الى القاهرة كان الحزب العرابي قد أعد عدته للتظاهر فى ساحة عابدين، ففي اليوم التاسع من هذا الشهر (الجمعة ١٠ شوال سنة ١٢٩٨) اجتمع الجيش فى هذه الساحة وأمر عرابي باقامة الحراس على ابواب عابدين لمنع الدخول اليه والخروج منه، ثم ظهر توفيق واستدعى عرابيا فجاءه راكبا جواده سالا سيفه ومن حوله ضباط الخيالة ، فأمره توفيق بالترجل واغماد سيفه وابعاد الضباط عنه ففعل ثم دار بين الاثنين حديث نقتصر منه على ما يأتى .

قال توفيق ماهى اسباب حضورك الى هنا بالجيش

فاجاب عرابي للحصول على طلبات عادلة

فسأل توفيق وما هي هذه الطلبات

فاجاب عرابي هى اسقاط النظارة وعقد مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

وبعد مفاوضات دارت داخل القصر بين توفيق وقناصل الدول استقر الرأى على اجابة هذه الطلبات تدريجا وابلغ عرابي ذلك فرضى ولكنه اشترط عزل الوزارة قبل انصرافه فعزلت فطلب تعيين شريف باشا فاستدعى وعرض عليه الامر فقبل ان يشكل الوزارة على شرط ان يتعهد رؤساء الحزب العسكرى باطاعة أوامره وان يقدم أعيان البلاد وعمدها ضمانا على هذه الطاعة

عريضة الشعب بطلب الحياة النيابية

وفى اليوم التالى تقدم لشريف باشا كل من سلطان باشا وسليمان أباظه باشا وشريعى باشا ومنشاوي بك وامين الشمسى بك والشيخ على الليثى وعبد السلام المويلحي بك والشيخ العباسي والشيخ احمد محمود وابراهيم الوكيل افندى ومعهم تقريران احدهما وقعه فريق من العلماء والعمد والاعيان ضمانا لرؤساء الحزب العسكرى والثاني وقعه الف وستمائة من الكبراء والعلماء والعمد بطلب تشكيل المجلس النيابي .

وهذا التقرير الثاني هو الذى يهمنا فى موضوعنا ولذلك نثبت نصه وهو :

« لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية ، الا بالعدل والحرية ، حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله ، حراً فى أفكاره وأعماله ، بما فيه سعادته وحسن مآله . وهذا لا يتأتى الا بايجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ، ولا تتطرق اليها طوارق الفساد ، اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس ملية من نبهاء أممها ، ينوبون عنها فى حفظ حقوقها ، تجاه هيئة حكوماتها ، ويكونون الواسطة فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الاحكام العادلة . وعلى هذه القواعد ، ولاجل هـذه المقاصد ، كان قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهـد السابق . وبمـا ان مقاصد خديوينا المعظم جميعها خيرية ونياته سليمة فطالبا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر تجاسرنا بعرض هذا راجين من المراحم الداورية صـدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب لامتنا يكون له ما لمجلس الامم الاوروبية المتمدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة و بذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادلها نعم وتصـير حكومتها العادلة أنموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم . واننا على يقين من قبول التماسنا هـذا وفقا لارادة ولى النعم أدام الله إجلاله »

ولا بد لنا هنا من ملاحظة وهي ان تاريخ هذه العريضة ١٤ شوال (٨سبتمبر) فى حين ان مظاهرة الجيش فى ساحة عابدين وقعت فى ١٥ شوال (٩ سبتمبر) فلا تفسير لذلك فى نظرنا غير ان العريضة كتبت قبل المظاهرة وان عرابيا وزملاءه كانوا يعرفونها . ولعلهم كانوا قد انتظروها قبل ان يتحركوا ليكونوا على بينة من ان الامة تشد عضدهم وليستطيعوا ان يقولوا انهم باسمها يتحركون وبلسانها ينطقون . ويكون المعنى حينئذ ان طلب الامة الحكم النيابي سابق للمظاهرة فهو أصل والمظاهرة فرع وليس العكس . اما تقديم العريضة لشريف باشا فى يوم ١٦ شوال فليس دليلا على انها كتبت في ذلك اليوم ، ونظن ان كل انسان يوافقنا على انه كان من المتعذر جمع الف وستمائة توقيع من أعيان القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة والمنيا وبنى سويف وأسيوط فى اربع وعشرين ساعة

خطبتان لعرابي

وطلب شريف باشا من عرابي ان يسافر بألايه الى رأس الوادي فأطاع واجتمع خلق كثير لتوديعه في محطة القاهرة ساعة سفره وخطب فيهم فرد عرابي بخطبة قال فيها :

« بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد وقلمنا عرش الاستبداد ولا ننثني عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها . وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا اننا كنا في اذلال واستعباد ولا يتمتع في بلادنا الا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الامة وقد ساعدتنا العناية الالهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ماطلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا في غير طريق الوطنية ومنحنا بمجلس الشورى لتنظر الامة في شؤونها وتعرف حقوقها كباقي الامم المتمدنة في العالم . . . . . »

ولما وصل الي الزقازيق القى خطبة أخرى مثل هذه وفي معناها

اعادة مجلس شورى النواب

وفي ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ كان شريف باشا قد أتم البحث في انشاء مجلس نيابي ذي سلطة فرأى تمهيدا لذلك ان يعاد مجلس شورى النواب ليكون هو الذي يقرر مشروع القانون المنشيء لمجلس النواب المحدد لسلطته واختصاصه وخالفه في ذلك عرابي وطلب منه انتخاب مجلس النواب دفعة واحدة بتنفيذ مشروعه الذي كان قد قدمه لمجلس شورى النواب في سنة ١٨٧٩ فلم يقبل شريف باشا ورفع الى الخديوي تقريراً هذا نصه :

« لقد أظهرت التجارب في عدة مرار خلل الحالة الموجودة عليها البلاد الآن ولهذا فالاصلاحات التي سنشرع فيها في ظل السماحة العلية تكون متعلقة بأهم صوالح الديار المصرية لانه يترتب على اجرائها تغيير الحالة المذكورة واصلاحها شيئا فشيئا وتوطيد الادارة العمومية على أساسات قوية وثابتة

« اما الاشتغال بمسائل مهمة كهذه والنظر فيما يلزم لاخراجها من حيز التصور للعمل لا يتأتى حصوله بانفراد هيئة النظار فقط بل المتراءى لهم ان تبادل الافكار فيها باشتراك الرجال الذين يؤهلهم استعدادهم وخبرتهم بالاشغال واستقامتهم ومرتبتهم

لحيازة ثقة ورضاء اخوانهم بهم ولانتخابهم للنيابة عنهم هو الواسطة الوحيدة للحصول على الفائدة المقصودة من تلك الاصلاحات. وقد طابق رأى عمد الاهالى بالنيابة عن عمومهم هذا الرأى الذى رأته هيئة النظار ولذلك نرى انه من الواجب علينا ان نطلب من المراحم الخديوية تلبية التماس أهالى البلاد وجميع أعيان ووجوه القطر لاخذ رأيهم بخصوص احتياجات الاقاليم وعرض الخلل الحاصل فى الادارة عليهم واجراء الاصلاحات اللازمة بمساعدتهم

« وللوصول لهذا الغرض لا يوجد الآن شيء سوى اتباع لائحة مجلس شورى النواب الصادرة فى سنة ١٢٨٣ . ثم ان تلك اللائحة ليست مستوفاة ولا ملائمة لافكار الاهالى ومقاصدهم وكانت قد عملت جملة مشروعات وتقدمت عن هذا الخصوص لكن هيئة النظار باتحادها مع مجلس شورى النواب ستشتغل فى البحث عما يلزم اجراؤه من التنقيحات والتعديلات فى قانون النواب مع مراعاة حقوق الحضرة الخديوية وحالة القطر

« هذا ومن الجلي الغنى عن البيان ان العهود والترتيبات التى نشات عن الحالة المالية وارتبطت بها الحكومة وكذلك القوانين والاوامر العلية المشتملة على تلك العهود والترتيبات لا تدخل ضمن المسائل الجائز نظرها والبحث فيها بمجلس النواب لانها موضوع عقد حصل مع الدول ولا يجوز تعديلها او تغيير شيء منها الا برضاء الدول التى عقدت معها

« وعلى ذلك فمجلس النواب سيؤدي مأموريته بدون تعرض للمصالح الواجب احترامها وسيكون عضد الحكومة لذاتكم العلية فى اجراء الاصلاحات المشروع فيها وعونا على تامين المصريين تامينا كافيا على النفس والعرض والمال

«ولهذا واتباعا للمادة ١٦ من لائحة مجلس الشورى المؤرخة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ أتشرف بان أقدم للاعتاب السنية مشروع امر عال بانتخاب النواب وافتتاح المجلس في ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ الموافق غرة صفر سنة ١٢٩٩ و٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ »

وفى اليوم نفسه صدر الامر العالى بانتخاب النواب « بالصفة والشروط الموضحة فى لائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ » وبأن يكون افتتاح المجلس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١.

وفى ١٨ ديسمبر صدر أمر بتعيين محمد سلطان باشا رئيسا للمجلس وسليمان اباظه باشا وكيلا

ولم يتيسر ان يفتح المجلس فى الميعاد المحدد له ففتح فى ٢٦ ديسمبر وجاء

الخديو فجلس على مقعد اعدله فى قاعة الاجتماع ثم مثل بين يديه سلطان باشا وقال ان النواب مستعدون لسماع خطابه فوقف وأخذ يعتذر عن تكلمه بعهده فقال :

« ابدى لحضرات النواب مسرورىتى من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن الاهالى فى الامور العائدة عليهم بالنفع . وفى علم الجميع انى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تاخر للان بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة فاما الان فنحمد الله تعالى على مايسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالى على قدر الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما انا متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذى انا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم »

ثم تكلم عن رغبته فى رفاهية الاهالى وتعميم التعليم وأشار الى قرارات لجنة التصفية وتعهدات الحكومة للدول وقال :

« فالواجب علينا الاعتدال والتأنى وحسن التبصر وان نكون يدا واحدة فى امام الاعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة الشاهانية والدولة العلية ادامها الله ونسال الله النجاح انه ولى التوفيق »

ولم تكن الجلسة علنيه لان لائحه ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ تقضى كما تقدم بان تكون جلسات مجلس شورى النواب سرية ولكن الحراس لم يستطيعوا منع الجمهور من الدخول فكانت الجلسة علنية فى الواقع

وعين المجلس بعد ذلك عشرة من اعضائه لتقديم الرد على خطاب الافتتاح فقدموه فى ٢٩ ديسمبر وفيه قال المجلس انه يشكر الخديو فتحه اياه « اجابة لرغبة الامة ونظرا للمصلحة العامة » .

واقام الناس حفلات عدة فرحا بعودة المجلس نخص بالذكر منها حفلة اقيمت بأمر بطريرك الاقباط فى الكنيسة البطريركية حضرها رجال الاكليروس

مذكرة ٧ يناير

او

انجلترا وفرنسا تحرشان بالمجلس

هنا يقوم البرهان المادي على ان انجلترا وفرنسا ما كانتا تنظران الى وجود المجلس ولا الى نمو الروح الوطنية بعين الاطمئنان لانهما وقد ألمتا بفصل اسماعيل وقروضه ان تسيطرا على الحكومة المصرية كانتا تكرهان أن يتمرد المصريون على هذه السيطرة وأن يوجد مجلس نواب يطالب بحقه الشرعي في مراقبه أعمال الحكومة . وقد درج كثير من الكتاب الاوربيين ، الذين كانوا يشايعون انجلترا وفرنسا في غرضهما هذا ويشايعون القائلين في أن تبقى مصر بقرة لهم حلوبا ، على أن يحتقروا الوطنية المصرية في ذلك الوقت ويهونوا من شأنها ولكن غيرهم من المنصفين اعترفوا بها وقالوا انها كانت جديرة بكل عطف واحترام . ولا بأس ان نذكر في هذا غير شهادتين لرجلين مسيحيين أحدهما دي فريسينيه وقد كان رئيساً لوزارة فرنسا في مفتتح سنة ١٨٨١ ثم في الشهور الاولى من سنة ١٨٨٢ وبقي في منصبه الي ان ضرب الانجليز الاسكندرية وجرت معركة التل الكبير . والثاني بارتلمي سانت هيلير وقد كان وزيراً لخارجية فرنسا في وزارة جول فيرى في بعض من سنة ١٨٨١

فقد صرح دي فريسينيه في كتابه « المسألة المصرية » (ص ١٩٤) بانه كان من الحكمة في ذلك الوقت أن يوسع اختصاص مجلس شورى النواب ثم قال :

« ان كتاب ذلك العصر اجتهدوا في ان يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس حتى ليخيل الى الذى يقرأ خطابات بعض الخطباء ان الوطنية المصرية كانت في ذلك الوقت تلفيقا وان وادى النيل لم يكن يحوى الاعلى فلاحين تحني العصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء هو أن آباءنا كانوا اقل من هذا امتهانا للوطنية المصرية في عهدهم ، وذلك أن نوابنا في سنة ١٨٤٠ لم يترددوا في ان يتكلموا في خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة ». فقد كانت هنالك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية في سنة ١٨٤٠ . ولست في هذا مبالغا ولا انا من محبون المبالغة ولكن لاريب في انه كانت توجد في قلوب

المصريين من اربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن ان تراعى في حدود معتدلة. تلك حقيقة لا تحتمل جدلا ، غير أن الذين كانوا يقبضون على حظ مصر لم يكونوا يرون فى المصريين غير قوم مدينين فلم يكونوا يعرفون فى معاملتهم الا مصلحة واحدة هي مصلحة الدائنين الاوربيين التي يجب ان تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتبهوا الى ان مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ومداخلتهم فى شؤونها مداخلة أدت بحكومتها الى ان تصير فى ايدى الاجانب ، كانا قد انتهيا على طول الايام بان تجرحا شعور الشعب المصرى الذى هو شعب حيّ مهما يقل القائلون فى تعوده الطاعة والخضوع من أجيال »

أما بارتلمى سانت هيلير فقد كتب الى قنصل فرنسا العام فى مصر في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨١ بيانا بما كانت تراه وزارة خارجية فرنسا حينذاك في المسألة المصرية فاشار فى آخره الي الوطنية المصرية فقال [1] :

« ليس من السهل علينا ان نقدر من هنا (أى من باريس) قوة هذه المطامح الشرعية (يريد مطامح الوطنية المصرية) ولا كيف يمكن ارضاؤها . ولكن هذه المطامح حقيقيـة الى أعظم حد ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير فى خنقها »

هاتان شهادتان من رئيسين لوزارة فرنسا في ذلك العهد هما صريحتان فى أن حركة وطنية شريفة كانت تهز مصر فى ذلك الوقت وأن مجلس شورى النواب كان وليد هذه الحركة ، فلا يبقى بعد هذا الا أن يعرف القراء ان انجلترا وفرنسا أعلنتا الحرب على هذا المجلس ليتضح انهما ما كانتا تحاربان شغبا ولا عصيانا عسكريا بل كانتا تحاربان حركة وطنية فكانتا بذلك تدفعان الي الشغب وتؤججان نار الثورة

ففي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ سقطت فى باريس وزارة جول فيرى وخلفتها وزارة غامبتا . وتولى غامبتا مع رياسة الوزارة وزارة الخارجية وكان رجلا جريئا واسع

---

(١) دى فريسينيه ص ٢٠١

هذا نص عبارته باللغة الفرنسية :

Il ne nous serait pas aisé de juger d'ici quelle est au juste la puissance de ces aspirations légitimes ni comment on pourrait les satisfaire. Mais ces aspirations sont trop réelles, et à certains égards trop justifiées, pour qu'on puisse les négliger, ni surtout songer à les étouffer

المطامع وكانت مصر تدخل فى دائرة مطامعه فلم يرض أن يترك الحوادث تسير سيرها العادى البطيء، ولا أن يترك للحكومة البريطانية قيادة دفتها فكتب في ١٤ ديسمبر يسأل الحكومة البريطانية ألا ترى أن الوقت قد حان لان تتمام الدولتان في عمل تعملانه فى مصر؟وهل توافق على أن تكون الخطوة الاولى من هذا العمل أن تطمئن الدولتان انهما تؤيدان توفيقاً وأن توحيا اليه بان يثق بهما ثقة مطلقة وأن يعتمد على معونتهما دون غيرها؟ [١] وكانت السياسة التى تجري عليها انجلترا في ذلك الوقت أن تنفرد بالعمل فى مصر فكانت كلما دعتها فرنسا الى الاشتراك معها في عمل تأبت واعتذرت تارة بأن العمل من حق سلطان تركيا وطوراً بان وقته لم يحن ، ولكنها كانت كلما رأت من فرنسا اعراضا عن العمل تقدمت هى وعملت . فلما جاءتها هذه الدعوة من غامبتا سكتت خمسة عشر يوما ثم أجاب وزير خارجيتها اللورد جرنفيل في ٣٠ ديسمبر بانه يخشى أن يكون ذلك معجلا الثورة[٢]. فرد غامبتا ، وهنا تظهر النية جلية فى محاربة مجلس شورى النواب، بان من الخطر أن تسكت الدولتان حتى تفاجئهما الحوادث وأن المصلحة صارت قاضية « بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس شورى النواب » [٣] فرضي اللورد جرنفيل أخيراً وطلب من غامبتا ان يضع مشروع المذكرة التى ترسلها الدولتان فوضعها ووافقت الحكومة البريطانية عليها فكانت مذكرة ٧ يناير ، وهذا نصها :

« حضرة القنصل العام

« كلفنا كم غير مرة ان تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وانجلترا فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر لاسيما بعد حدوث الحوادث الاخيرة وأخصها صدور الامر الخديوى

---

(١) أشيل بيوفيس ص ٤٨ — ودى فريسينيه ص ٢٠٧ و ٢٠٨

(٢) مجموعة التلغرافات التى تبودلت بين فرنسا وانجلترا فى سنتى ١٨٨١ بشأن مصر

(٣) أشيل بيوفيس ص ٤٩ — ومجموعة التلغرافات التى مر ذكرها

بجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخابرة بين الدولتين واعادة النظر فى شؤون اتفاقهما المذكور

« و بناء على ذلك نرجوكم ان تصرحوا الآن للجناب الخديوى بان حكومتى فرنسا وانجلترا تريان وجوب تأييده فى الخديوية وفقا للاحكام المقررة في الفرمانات السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولا رسميا على اعتبار انها وحدها تكفل الآن و بعد الآن استمرار السلم والسكون وتوجب توسيع نطاق الثروة والعمران في البلاد المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين المتفقتين على الاشتراك في السعى الى دفع كل ما من شأنه ان يحدث في مصر ارتباكا او يخل بنظامها واحوالها سواء أكان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين من أسباب خارجية ام من أسباب داخلية

« ولا ريب عندنا في ان هذ التصريح العلني المبين لمقاصد الحكومتين يمنع حدوث ما عساه ان يطرأ على حكومة الخديو من الاخطار وان حدث فالحكومتان لاتترددان فى دفعه ولا تعجزان عن صده

« وفى أمل الدولتين ان يستمد الخديو من هذا التصريح الثقة والقوة اللتين هو محتاج اليهما لادارة أمور الشعب المصري والبلاد المصرية »

وبينما كانت هذه المفاوضات تدور بين الدولتين كانت مصر هادئة مغتبطة بوزارة شريف باشا وباجتماع مجلس النواب ثم بالامل في تحويل هذا المجلس الى مجلس نواب ذى سلطة . وكان الامن شاملا والنظام تاما وقد تعهدت وزارة شريف باشا باحترام المراقبة الثنائية وقانون التصفية وقبل المجلس هذا التعهد فلم يكن أحد يفكر فى المساس بمصلحة الدائنين أو للاجانب . فلما وصلت مذكرة الدولتين الى الخديو كانت كالقنبلة ألقيت فجأة في جو هادىء بقصدتعكيره ، ورأى فيها كل انسان تحرشا بمجلس شورى النواب لم يكن سبب من الاسباب يقتضيه . ولم يخف على المصريين أن الدولتين تحرضان بذلك توفيقا على مقاومة الحركة الوطنية وتقولان له أنهما من أجل ذلك تبسطان حمايتهما عليه وتريدان منه أن يشتد على هذه الحماية .

وقد كان من واجب توفيق ان يرد على هذه المذكرة وكان على شريف باشا خاصة أن يشجع على هذا الرد حفظا لسمعة نظارته . ويقال انه أعد ردا يرفض

فيه توفيق حماية انجلترا وفرنسا ويقول : « ان اليوم الذى تؤيدني فيه الدولتان ضد ارادة بلادى هو اليوم الذى تحين فيه الساعة الاخيرة . ومتى فصلت الرأس من الجسم لم يبق سبيل الا الى الموت . فأنا اما أن أكون خديوى المصريين أو لا أكون شيئا »[1] غير أن حكومة فرنسا علمت بالعزم على الردفصمت عند توفيق وشريف كي يعدلا عن عزمهما ويلزما السكوت فأطاعا وسكتا

ولكن تركيا لم تسكت بل احتجت بمذكرة ارسلتها الى الدولتين في ١٤ يناير فكان مما قالته فيها :

« ان مصر جزء من ممالك الحضرة السلطانية، والسلطة المعطاة للخديو هى لحفظ الراحة العمومية عند اللزوم وللمحافظة على سعادة البلاد وادارتها على محور حسن، فتأييد هذه السلطة من حقوق الباب العالى وحده ومن اختصاصاته دون سواه . ولهذا كان من الواجب عندما اتضح ان الحالة تدعو الى ارسال تلك المذكرة ان يؤخذ قبل كل شيء رأى الدولة العلية ، وبواسطتها وحدها ترسل التصريحات ، وبواسطتها ايضا يكون الحصول على التأكيدات المطلوبة »

وبسبب مذكرة ٧ يناير هذه وقع خلاف طويل الذيول بين انجلترا وفرنسا فى تحديد ما ارتبطت به كل واحدة منهما فقالت الحكومة البريطانية ، جريا على سنتها فى مراوغة فرنسا حينما تدعوها الى الاقدام ، انها لم ترتبط بعمل معين بل لم ترتبط حتى بالعزم على العمل . وقالت الحكومة الفرنسية ان المذكرة تفقد حينئذ قيمتها وتصبح عبثا. ونحن ندع هذا الخلاف جانبا لانه من تاريخ المسألة السياسية لا من تاريخ الحياة النيابية،غير اننا نقول ان النية التى كان غامبتا يبيتها من وراء تلك المذكرة انفضحت حينما أرسل مكاتب التيمس فى ٣ فبراير (اي بعد ارسال المذكرة بأقل من شهر) الى جريدته يقول ان وزارة غامبتا كانت تعد سرا فى جنوب فرنسا حملة حربية ترسلها الى مصر[2]

(١) روى هذه الرواية بحذافيرها مراسل جريدة الطان الباريسية فى القاهرة اذ ذاك ونشرتها الجريدة فى عددها الصادر فى اول مارس سنة ١٨٨١

(٢) فوجئت الحكومة الفرنسية باذاعة هذا الخبر فحاولت ان تقضي عليه فاوعزت الى جريدتى البال مال غازيت والديلي نيوز بتكذيبه فرد مكاتب التيمس على هذا التكذيب بتأكيد الخبر و بيان الاسلحة والوحدات الحربية التى اعدتها وزارة غامبتا لهذا الغرض ثم ذكر القائد الذى عينته لقيادة هذه القوات ـ (أشيل بيوفيس ص ٥١ و ٥٢)

رأينا أن شريف باشا اخذ على نفسه في كتابه الذي استصدر به في ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ أمرا بعقد مجلس شورى النواب ، ان يقدم لهذا المجلس مشروع « لائحة اساسية » لانشاء مجلس نواب ذي سلطة ، ففي يوم ٢ يناير توجه الى مجلس شوري النواب وقدم له « اللائحة » التي وعد بها والتي خطابا نذكر هنا بعض فقراته وهي :

« لما كانت لائحة النواب التي اجتمعتم على مقتضاها لاتلائم أفكارنا جميعاً كما أوضحت ذلك من منذ ثلاث سنوات وكررته بالعروض الذي رفعته أخيراً للسدة الخديوية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائي بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الان أقدمها لحضراتكم للنظر فيها

« ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر كان يلزم أن السلطة التي تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيئا فشيئا ولكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة في ابداء آرائكم وحق المراقبة على اعمال مأموري الحكومة من أي درجة وأي صنف كانوا وتصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء رأيكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح . وقد التزمت الحكومة بعدم وضع أي ضريبة ولا نشر أي قانون أو لائحة مالم يكن بتصديق واقرار منكم . وكذلك تعهدت بان تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقهم والغاية انه لم يحجر عليكم في شيء ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم

وانما لا يخفاكم الحالة المالية التي كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لنظرها أو نظر النواب ؟ حاشا لانه يجب علينا قبل كل شيء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشيء ما حتى نصلح حالنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية . ومتى رأت منا تلك الحكومات

الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن اخلاص بدون مساعدتها فتتخلص شيئا فشيئا مما نحن فيه ..... الخ »

أما « اللائحة » نفسها فلا داعى لاثباتها هنا بحذافيرها لانها لم تصدر ولكنا نثبت منها مادار الخلاف حوله فكان سببا في سقوط وزارة شريف وهو :

« المادة ٣٠ — ميزانية مصروفات وايرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالا كثر

« المادة ٣١ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الايرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها

« المادة ٣٢ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الادارة العمومية بتلك النظارة

« المادة ٣٣ — لمجلس النواب أن ينظر فى الميزانية ويبحث فيها وتعتمد بعد اقراره عليها . وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك الى ناظر المالية لغاية اليوم العشرين من شهر ديسمبر بالاكثر

« المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للاستانة أو للدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية » (١)

ومن هذه المواد يتضح أن شريف باشا أخرج من اختصاص المجلس ويركو الاستانة والدين العمومي وكل ما التزمت به الحكومة بناء على قانون التصفية او بناء

(١) نذكر هنا مواد أخري من مشروع اللائحة لاتخلو من اهمية وهى :

١٨ — اذا قرقرار النواب على أن يستدعى الحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة فعلى الناظر أن يذهب الى المجلس بنفسه أو يستنيب عنه أحد كبار الموظفين بديوانه ليجيب عما يسأل عنه وله أن يؤخر الجواب لاول مدة الافتتاح الثانى لا أكثر وعليه بيان الاسباب ومسئولية التأخير

١٩ — للنواب حق المراقبة على موظفى الحكومة جميعا فلهم بواسطة رئيس المجلس أن يشعروا كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تعد أو خلل أو قصور نسب لاحد موظفى الحكومة التابعين لنظارته

على معاهدات عقدت بينها وبين الحكومات الاجنبية ولم يترك للمجلس من الميزانية الا ما دون ذلك أى ما لا عس بحال أيه مصلحة للدول أو الدائنين . وكان المخصص للدين العمومى وويركو الاستانة في ذلك الوقت وبعد قانون التصفية يعادل نصف ميزانية الحكومة أو يزيد عنه قليلا فكأن المجلس كان محروما من النظر في أكثر من نصف الميزانية .

وقد قبل المجلس هذا الاختصاص المتواضع منذ أن تلى عليه رغبة منه في أن

---

٢٠ ـ النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل ما يتقرر بمجلس النظار

٢١ ـ اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار واصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فلحضرة الخديو ان يأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة اشهر من تاريخ يوم الانفضاض الى يوم الاجتماع ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السالفين او بعضهم

٢٢ ـ اذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه فينفذ الرأى المذكور قطعيا

٢٣ ـ مشروعات اللوائح والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستوريا للعمل ما لم يتل فى مجلس النواب بندا فبندا ويقرر حكما فحكما ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية واذا تراءى للمجلس لزوم سن قانون وطلبه من مجلس النظار بواسطة الرئيس فيجاب الى ذلك

٢٤ ـ لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو ويركو الحكومة المصرية الا بمقتضي قانون مصدق عليه من مجلس النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة امرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر كشوفات او تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كمختلس وترد الحقوق لاربابها

يطمئن الدائنون وتطمئن الحكومات الاجنبية الى أنه ، وهو يعرف أن شطراً كبيراً من قروض اسماعيل لم يدفع وأن تمسك الدائنين به وبفوائده الباهظة ليس سوى سرقة ، يحترم هذه القروض ولا يتعرض لمصلحة مالية من مصالح الاجانب والحكومات الاجنبية بسوء . ولكن انجلترا وفرنسا لم ترضيا حتى بهذا الاعتدال وشرعتا فى الحال تهاجمان المجلس لانهما كانتا تريدان أن تقضيا على نزعته ونزعة الحركة الوطنية على العموم الى انقاذ الحكومة من سيطرتهما وانقاذ البلاد من مهاوى الضياع .

فى ميدان النضال

ولم تتردد انجلترا وفرنسا فى أن تعلنا الحرب على المجلس عملا بمذكرة ٧ يناير فافهمتا شريف باشا أنهما لا توافقان على المادة الثالثة والثلاثين من مشروعه لأنها تعطى المجلس حق « تقرير » جزء من الميزانية فابلغ شريف باشا المجلس ان النظارة من أجل ذلك تعدل المادة الثالثة والثلاثين بما يجعل الرأى الذي يبديه مجلس النواب فى الميزانية استشاريا .

وكان المجلس قد الف لجنة من ستة عشر عضواً من أعضائه برياسة سلطان باشا لدرس المشروع وتقديم تقرير عنه فبدا فى الحال أن هذه اللجنة والنواب جميعا يتشبثون بان يكون لهم الحق المطلق في تقرير الميزانية فيما خلا ما استثنته المادة الرابعة والثلاثون من المشروع ، فما كادت نيتهم هذه تعرف حتى كتب المراقبان الاجنبيان في ١٢ يناير يحتجان عليها قالا [1] :

« يظهر ان مجلس شورى النواب يتهيأ لان يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا ان نقول ان اعطاء النواب هذا الحق ، ولو اقتصر على الادارات والمصالح التي لم تخصص ايراداتها للدين، يفسد الضمانات المعطاة للدائنين، لانه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل ادارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب،

٤٣ - كل قرار يترتب عليه مسئولية النظار لا يجوز صدوره الا بالاغلبية المتوفرة منها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة

(١) دى فريسينيه ص ٢٢٤

وبهذا أعلن المراقبان ان النظرية التي تتمسك بها انجلترا وفرنسا هي أن تبقى ادارة البلاد في يد مجلس النظار لكي يمكن ان تبقى خاضعة لسيطرتهما ، فما كاد النواب يعرفون ذلك حتى اشتد بهم الاستياء وصمموا على ان يثبتوا في الدفاع عن حقهم . ويحسن أن ننقل هنا ردهم على احتجاج المراقبين فقد روى عنهم دى فريسينيه [1] « أنهم لم يقبلوا أن تكون بلادهم متاعا مرهونا فى يد الدائنين وان يكون عليهم ، لارالة كل شاغل يساور هؤلاء الدائنين ، ان يقبلوا الحرمان من الحقوق الاولية التى تملكها كل أمة متمدينة . وكان مما لاحظوه في ذلك ان هناك حكومات ترزح تحت ديونها أكثر مما ترزح الحكومة المصرية بل هناك حكومات مزقت تعهداتها ورفضت ان تدفع ما عليها ولكنها كلها لم تحرم مع ذلك من حقها في أن تحكم نفسها بنفسها . أمام ، ودائنوها لا يجدون محلا للشكوى منهم ، فانهم يمنعون من أن يدخلوا على قوانينهم ، بالاتفاق مع خديويهم ، اصلاحات يعترف الكل بفائدتها للحكومات والشعوب »

وننقل أيضاً ما كتبه فى مثل ذلك مسيو سينكويكز قنصل فرنسا العام من تقرير أرسله الى حكومته فى ١٥ يناير وهو [2] : « يصدر مجلس شورى النواب في مطالبه بان يكون صاحب الرأى النافذ فى تقرير الميزانية عن اعتقاده بان له الحق فى أن يراقب باسم الامة سير الادارة في مجموعه والطرق التى تستخدم بها موارد البلاد . ويقول المجلس انه يحترم كل الاتفاقات الدولية ، بل يحترم حتى بقاء الموظفين الاجانب فى وظائفهم ، غير انه يحفظ لنفسه الحق في الاقتصاد ليعجل بسداد الدين العمومي »

ونعود بعد ذلك الى سرد الحوادث فنقول ان لجنة المجلس فرغت فى أيام قليلة من النظر فى مشروع شريف باشا ، وكانت قد أخذت من المجلس تفويضا فى أن تتفاوض مع النظارة رأسا فقدمت لشريف باشا يوم ١٥ يناير التعديلات التى رأت أن تدخلها على المشروع ومنها بقاء المادتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين على أصلهما ، أى أن يكون للمجلس حق تقرير الميزانية فيما خلا الوبركو والدين العمومي

---

(١) ص ٢٢٤

(٢) دى فريسينيه ص ٢٢٣

وما التزمت به الحكومة في قانون التصفية أو في المعاهدات الدولية، فلم يقبل شريف باشا هذه التعديلات . وفي هذا اليوم نفسه أرسل غامبتا الى قنصل فرنسا العام التلغراف الآتي [1] :

« اطلعت على المذكرة التي سلمها اليك المراقبان وأنا أوافق عليها وعلى النصائح التي تبذلها لشريف باشا . فثابر على اتخاذ هذا الحزم »

وأرسل اللورد جرنفل الى قنصل انجلترا العام السير ماليت مثل هذه التعليمات. ثم اقترح ماليت على النواب أن يكون رأيهم استشاريا الى ثلاث سنوات وأن يتحول بعد ذلك الى رأي قطعي ، وكلف مستر بلنت أن يقنعهم بقبول هذا الحل، فكتب قنصل فرنسا الى غامبتا يسأله رأيه فيه فجاءه الجواب بالرفض ، وفي الوقت نفسه عاد مستر بلنت الى ماليت يخبره بان اقتراحه لم يلق من النواب وزعماء الحركة الوطنية غير الرفض واليك ما كتبه في ذلك [2] :

« بعد ان تداولت مع الشيخ محمد عبده الذي كان كدأبه من الميل الى التبصر والمسالمة اتفقنا على ان التقي في منزله بوفد منهم لاناقشهم وأريهم النتائج المحتملة للمقاومة أي التدخل المسلح . ومن ثم قيدت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلفن (هو المراقب الانجليزي) ووضعت مع ماليت قواعد المناقشة التي عولت على استخدامها . . . . وكانت تعليماتي تنحصر في ان أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الحاضرة انما هي مسألة دولية لايستطيع شريف باشا ولا البرلمان ان يمسها بغير موافقة الحكومتين الرقيبتين.وكان علي ان أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأريهم مذكرة خاصة وضعها ماليت وفونغ قنصل فرنسا الجنرال وارفقها بالمنشور الذي نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم ان يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغير اجراءات اصدار الميزانية مسألة دولية او ليست كذلك.وهل اذا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم بعد ان اعترفوا بان المسائل الدولية يجب الا تمس . وخول لي كلفن ان اقول انه هو شخصيا لا يمانع في تعديل الاجراءات الحاضرة تعديلا طفيفا بحيث يعطي للمجلس

(١) دي فريسينيه ص ٢٢٥

(٢) ص ١٤٢ من هذا الكتاب

حق استشارى قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراع . فاذا قبلوا ذلك عرض ماليت المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع ان يطمئن على قبولها من جانب انجلترا او فرنسا. اما سائر خلافاتهم مع شريف فعليهم ان يسووها معه بانفسهم.

«على هذه القاعدة وبمساعدة صابونجى والاستاذ الشيخ محمد عبده ناقشتهم طويلا فى المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بانهم لا يذعنون . نعم انهم وافقوا على تعديل ثلاث او اربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وادمجوا التعديلات التى اقترحتها عليهم فيما يختص بها فى اللائحة ولكنهم تشبثوا برأيهم فى مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاستاذ محمد عبده لى ولم يقبلوا ان يغيروا سطراً من المادة الخاصة بها . فعدت مطأطىء الرأس لابلغ ماليت حكاية فشلى»

ثم قال مستر بلنت بعد ذلك :

« ومع انى بذلت كل جهدي لاحمل الاعيان (يريد النواب) على الاذعان تحت تأثير اعتقادى بانهم مهددون بالتدخل الاوربى لم يسعنى مع ذلك الا الاعتراف بانهم على حق فى طلبهم السلطة على نصف الميزانية اذا كان الحكم البرلمانى سيكون حقيقة لا تمويها »

وقال بعد ذلك أيضاً :

« وتدل تلغرافات ماليت فى ذلك الحين على ان الاعيان (اى النواب) كانوا يداً واحدة فى هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذى كان بطبعه رجلا ضعيفا يسهل ارهابه اعلن بصريح العبارة ان دستور شريف باشا كالطبلة تحدث صوتا عاليا ولكنها فارغة »

ذلك ما كتبه مستر بلنت عن وساطته وهو ناطق بأن قنصلي فرنسا وانجلترا لم يجدا سببا صحيحا يهاجمان به موقف الحق والاعتدال الذى وقفه النواب ، وانهما لذلك حاولا أن يدخلا عليهم ان النظر في الميزانية مسألة دولية فلم يفلحا لان النواب كانوا من سلامة الفهم بحيث لا تجوز عليهم هذه الخدعة . وها هو ذا مستر بلنت يعترف بانه وان كان قد جادلهم واجتهد فى اقناعهم الا أنه كان يشعر فى داخلية نفسه بانهم على الحق وانما يريد اقناعهم به هو الباطل . وهم ما ثبتوا فى موقفهم هذا الثبات ولا تشبثوا به هذا التشبث الا لانهم كانوا قد ذاقوا الآلام من جراء

الحكم المطلق ورأوا الخطر داهما على استقلال البلاد فكانوا من أجل ذلك يريدون الحكم البرلماني ، كما يقول مستر بلنت ، حقيقة لا تمويها .

تواضع آخر في طلبات النواب

ولكن الروتيين ترفضانه

فيقتصر النواب ويستقيل شريف باشا

واقترحت الحكومة بعد ذلك على النواب أن يبقى رأى المجلس استشاريا ولكن تعدل المادة الثانية والثلاثون بما يجعل ميزانية المصروفات منقسمة الى أبواب أكثر فرفض النواب قائلين ان قسمة الميزانية الى أبواب أكثر أو أقل لا تفيد شيئا ما دام المجلس لا يملك حق التقرير . وأخيراً رأوا أن يقدموا برهانا جديداً على أنهم يذهبون في مسالمتهم وتواضع طلباتهم الى أدنى حد ممكن فاجتمعت لجنتهم يوم ٢٠ يناير وقررت أن تقترح على شريف باشا حسما للخلاف أن يعين المجلس عدداً من أعضائه مماثلا لعدد النظار فيكون هؤلاء وأولئك هم الذين يقررون الميزانية ويكون لرئيس النظار صوت مرجح عند الاختلاف وتساوى الاصوات في الفريقين . وحمل سلطان باشا هذا الاقتراح في اليوم التالي الى شريف باشا فعرضه هذا على قنصلى انجلترا وفرنسا [١] فقالا انهما سيرفعانه الى حكومتيهما . وفي ٢٣ يناير جاء جواب غامبتا بالرفض القاطع ثم جواب اللورد جرنفيل بالرفض أيضا ولكن مع التلويح باحتمال الاتفاق في مسائل أخرى جزئية [٢]

ومضى بعد هذا أسبوع وضع شريف باشا في أثنائه مشروع لائحة جديد حذف منه المادة الخاصة بالميزانية وأدخل على مواده الاخرى شيئا من التعديل ثم أرسله الى المجلس في ٣١ يناير وأرسل معه كتابا هذا نصه :

« ان جناب قنصلى فرنسا وانجلترا الجنرالين قدما للحكومة مذكرة تتضمن ثلاثة امور وهي أولا ان حكومتي فرنسا وانجلترا تريان ان الاتفاقات الدولية المتعلقة

(١) دى فريسينيه ص ٢٢٦

(٢) المصدر السابق

بالامور المالية لا تسمح للحكومة المصرية بان تمنح مجلس النواب حق تقرير المزانية تقريراً قطعيا. ثانيا ان الدولتين المومأ اليهما مستعدتان لفتح مخابرات للاتفاق على هذه المسألة. ثالثا ان فتح المخابرات بناء على طلب الحكومة لا يكون الا بعد تمام الاتفاق قطعيا بين النظارة ومجلس النواب

« وحيث قد علم من القومسيون المذكور (يريد اللجنة التي عينها المجلس للنظر في مشروع اللائحة) ان النواب يريدون الاشتراك في تقرير الميزانية ومن الواجب حينئذ ان يحصل الاتفاق على سائر بنود اللائحة ما عدا ما يتعلق بالميزانية فبعد تكرار المذاكرة بين النظارة وبين القومسيون المذكور قبلت الحكومة مشروع اللائحة المرفوقة مع هذا. فارجو من سعادتكم التصديق عليه من المجلس بشرط ان قبول المجلس به لا يعد قطعيا ولا يترتب عليه تنفيذ تلك اللائحة الا بعد الاتفاق على مسألة الميزانية ودرجها بها. اما ما يختص بهذه المسألة فان الحكومة مستعدة للمخابرة انما يلزم ان يكون طلبها صريحا مستوفيا ولهذا فالامل ان مجلس النواب يصرح بافكاره في هذه المسألة كتابة ويعمل عنها البنود المترائي له اعمالها حتى تكون اساسا للمخابرة»

فقابل النواب هذا الكتاب بالامتعاض لأنهم رأوا فيه ان شريف باشا يدخل انجلترا وفرنسا في مسألة هي من جهة أساسية في نظام الحكم ومن جهة اخرى داخلية ليس لهما أن يدخلا فيها. وكانوا قد امتعضوا منه قبل ذلك لسكوته على مذكرة ٧ يناير كما امتعضوا منه لعدوله عما وضعه بيده في مشروعه الاول خاصا بسلطة المجلس في الميزانية ولانضمامه الى الدولتين في وقوفهما في وجه المجلس وحيلولتهما دون أن ينقذ الحكومة من السيطرة الاجنبية. فاجتمع فريق كبير منهم في اليوم نفسه في بيت سلطان باشا وتداولوا في ذلك طويلا، ثم اجتمع المجلس في اليوم التالي (١٢ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ — أول فبراير سنة ١٨٨٢) اجتماعا غير عادي فبدأ الرئيس فقال:

« اعيدت من جانب مجلس النظار لائحة مجلسنا الاساسية التي نظرت في اللجنة المعينة لذلك مشفوعة بافادة رياسة مجلس النظار المشار اليه تتعلق باللائحة عموما وبعدم النظر في الميزانية خصوصا فعقدت هذه الجلسة ليعرض ذلك على هيئة المجلس مع تقرير اجمالي من اللجنة المذكورة »

ثم تلى تقرير اللجنة وهذا نصه:

« ان اللجنة التي انتدبتموها للنظر في مشروع لائحة المجلس الاساسية المرسلة من جانب الحكومة قد نهضت بهذه المهمة وعقدت لها جلستها الاولى في يوم

الثلاثاء ١٣ صفر سنة ١٢٩٩ بوجود عزتلو بطرس بك غالى كاتب اسرار مجلس النظار (سابقا)(١) مندوبا عن الحكومة فقرأت وعدلت وقررت محو بعض اللائحة بحضور المندوب المشار اليه ثم توالت جلساتها بغير وجوده حتى اتت على آخر الواجب بحثا وتعديلا واستكملت وضع اللائحة الاساسية على الصورة التى حسبتها موافقة للاحوال حافظة لحقوق المجلس مع الرعاية لجميع العهود والمواثيق المرعية

« وبعد أن فرغت من ذلك ارسلت صورة اللائحة على حسب ما انتهت اليه فى تعديلها الى جانب مجلس النظار لتنظر فيه . ثم جرت بينها و بين المجلس المشار اليه مخابرات ومفاوضات شبيهة بالرسمية على عدة بنود من اللائحة فاقامت الادلة على أحقية ما عدلته وما وضعته مقبولا معظم بنودها ومغيراً بعضها ومحذوفا منها بند النظر فى الميزانية لتقريرها فى مجلس النواب . فأما البنود المغيرة فان المقارنة بين الاصل والمرسل من اللجنة والنسخة الواردة من مجلس النظار تبين لحضراتكم ما حصل فيها من التغيير ومكان ذلك من الاهمية أو عدم الاهمية ومحله من القبول او الرفض واما بند الميزانية فقد كان السبب فى حذفه مايفهم من منطوق الافادة الواردة من رياسة مجلس النظار .

« وقد رأت اللجنة ان واجباتها وحقوقها تقف عند هذا الحد من المخابرة ولذلك فهى تعرض لحضراتكم نص اللائحة الاصلية الواردة اولا من جانب الحكومة ، ثم نص تلك اللائحة بعد تعديلها فى اللجنة ، ثم صورتها الواردة بالامس من جانب مجلس النظار بالتغيير والحذف السابق ذكرهما ، مع الافادة المنوه عنها ليعلم بذلك ما اجرته اللجنة وما آل الامر اليه . فاما ان يفوض الينا من لدنكم حق وحدود جديدة فى القبول او الرفض او تعميم المخابرة واما ان يتولى المجلس هذا الامر بنفسه والله ولى الامور »

ثم جرت المناقشة فتقرر أولا أن تجتمع لجنة المجلس لتنظر في التغييرات الاخيرة التى أحدثها مجلس النظار فى مشروع اللائحة وفي الكتاب الوارد مع هذه التغييرات من رياسة مجلس النظار لان اللجنة « ادري بأطراف المسألة واعرف بأصولها وفروعها».

---

(١) كلمة (سابقا) هذه موجودة فى صلب تقرير اللجنة وذلك لان بطرس بك غالى كان سكرتيراً لمجلس النظار حينما بدأت اللجنة تنظر فى المشروع ثم نقل اثناء نظرها فيه الى منصب آخر

وثانيا ان يكون اجتماع اللجنة لهذا الغرض في اليوم نفسه وان تقدم تقريرها ظهر اليوم التالي . وثالثا أن يجتمع المجلس ظهر اليوم التـالي ليفصل في الموضوع كله بقرار حاسم .

وفي الحال اجتمعت اللجنة فبحثت وتناقشت ثم عادت الى الاجتماع صباح اليوم التالي فوضعت تقريرها ورفعته الى المجلس وهو :

« عقدت هذه اللجنة امس الاربعاء الساعة ٩ ورع فاعادت النظر في مشروع اللائحة الاساسية المعاد الى المجلس من جانب مجلس النظار وجرت مبـادلة الرأي بينها و بين اعضاء اللجنة الذين كلفوا بمذاكرة النظـار في بعض اوجه التسوية . وبعد المفاوضة والمداولة قبلت ما احدثه مجلس النظار من التغيير في اللائحة وردت البعض الآخر الى اصله باعتقاد انه اوفق بالمصلحة واوقع في بابه . ثم وضعت للنظر في الميزانية والاشتراك في تقريرها ثلاثة بنود واثبتت هذه البنود في النسخة المعروضة الان لديكم .

« وقد تلي فيها رقيم دولة رئيس النظار فوقع لديها موقع الاستغراب لعلمها بان المسألة التي بين الحكومة ومجلس النواب داخلية محضة لاتقتضي ازعاج اي خاطر بالتداخل والوساطة ولا سيما بعد تساهل النواب الى حد الرضا بالمشاركة في تقرير الميزانية ليس غير

« على انها لم ترد ان تعد لذلك الرقيم جوابا لسببين الاول انها رأته من الاهمية بحيث ينبغي له راي الهيئة بجملتها والثاني انها تؤثر على مطال المراسلة سرعة المشافهة بمعنى انها ترى من الملائم حسم الامر بوجه السرعة اجتنابا للمخابرة وتصريحا بكون المجلس يرى ان تقرير الميزانية من حقوق الحكومة دون سواها وانها قادرة على اعطاء هذا الحق لمجلس النواب ارضاء للراي العمومي وعملا بما تقتضيه المصلحة الوطنية وحسما للخلاف

« فاذا حسن لدى الهيئة هذا الرأي فليمد على عموم نص اللائحة ببيان ما احدثته الحكومة فيها من التغيير وما قبلته اللجنة من ذلك وما ردته الى الاصل وهذا في امر تعيين الوفد او برقيم الجواب على رقيم رياسة النظار رايها التالي موفقا للصواب ان شاء الله تعالى »

أما البنود التي جاء في هذا التقرير أن اللجنة وضعتها للنظر في الميزانية والاشتراك في تقريرها فهي :

« تعرض الميزانية على مجلس النواب فينظر ويبحث فيها ويعين من اعضائه لجنة مساوية لمجلس النظار عدداً ورأيا ليقرروها جميعا بالاتفاق او الغالبية فان وقع بينهم خلاف وكان العدد متساويا من الجانبين وجب اعادة الميزانية للنواب فاما ان يؤيدوا رأى النظار واما ان يؤيدوا رأى لجنة النواب فان كان الاول وجب تنفيذ الميزانية وان كان الثاني ولم يمكن حصول الوفاق كان الحكم في ذلك حكم بند الخلاف وهو انه عند وقوع الخلاف بين النظار والنواب على امر ما فاما ان يفض مجلس النواب واما ان يستعفى النظار وفي هذه الحال اى اذا ايد النواب رأى اللجنة وخالفوا رأى النظار تنفذ الميزانية في المهم الضروري منها لادارة المصالح وعدم تأخير الاشغال تنفيذا موقتا ويبقى الباقي من أمر الميزانية الى مابعد تسوية المسألة بأى طريقة ووسيلة »

ومعنى هذا ان اللجنة نزلت ، كما قالت هي ، عن المطالبة بحق تقرير الميزانية واكتفت بطلب المشاركة فيه

ثم عقد المجلس فتلى عليه تقرير اللجنة والتعديل الذى وضعته للمادة الخاصة بالميزانية ثم جرت المناقشة كما يأتى (١) :

« محمد بك الشواربى — لا بأس في تشكيل لجنه تسير الى الجناب الخديوى طالبة من حضرته السنية اقرار اللائحة التى استقرت عليها آراء النواب فذلك ادنى للنتيجة واولى من المراسلة خصوصا بعد ظهور المسألة بالمظهر الجديد المنوه عنه في رقيم مجلس النظار

« ابراهيم افندى الوكيل — اوافق على رأى حضرة محمد بك الشواربى في ارسال اللجنة . ولكن ارى ان تسير اولا الى دولة رئيس مجلس النظار فتذكر له سوء تأثير رقيمه في المجلس وتطلب منه التصديق على اللائحة بلا مغايرة ولا تأجيل . فان ابى فاللجنة تقصد الجناب العالى وتسأله التصديق على قبول اللائحة سريعا

« احمد افندى عبد الغفار — ارى ان يكتب مع ذلك رد الرقيم بانكار ما فيه لكي لا يحسب السكوت عنه اعترافا به وقبولا

« احمد افندى محمود — ان سير اللجنة على الوجه السابق الذكر كاف في رد

(١) هذه المناقشة منقولة حرفا بحرف من محضر الجلسة

الرقيم وحاسم للامر بلا مراء . ومع هذا فان تقرير اللجنة الذى تلى الان علينا وقبل مضمونه بالاتفاق رد لا مشاحة فيه يثبت فى سجل المجلس وينشر فيعلم لدى الرأى العمومى

« بعض النواب — احسنت

« الرئيس — يحسن اخذ الاراء على قبول تعيين اللجنة برفع الايدى علامة القبول

« قبول عمومى

« احمد افندى عبد الغفار — ان وافق فليكن عدد اعضاء اللجنة عشرة

« محمد بك الشواربى — بل خمسة عشر

« الجميع — فى محله »

واختار المجلس فى الحال خمسة عشر عضواً من أعضائه يسيرون الى شريف باشا ثم الى الخديو وكلفهم ان يؤدوا مهمتهم قبل أن ينقضي النهار ، فساروا الى شريف باشا في نظارة الداخلية وقدموا اليه التعديل الاخير الذى أقره المجلس لمادة الميزانية وقالوا [1] :

«ان تأخير تنفيذ اللائحة جالب للفشل ولهذا عقدنا النية على ألا نترك هذا اليوم يمضي بغير قبولها او رفضها »

فجعل يلاطفهم وقال : «تعلمون اني منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض لشيء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها على انى ما زلت لا أتحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه من أمر الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن »

فقالوا : «ان هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه فان مسألتنا لا تمس ما لهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة »

فقال : « لا سبيل الى ذلك البتة »

فقال جماعة منهم : « انا نأسف جدا ان يصادق لنا على اللائحة غيرك » . يريدون بذلك انهم سيطلبون من الخديو اسقاط وزارته .

---

(١) انظر « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » لميخائيل شاروبيم بك جزء ٤ ص ٢٧٣ و ٢٧٤

ثم خرجوا متجهين الى قصر عابدين وفيه قابلوا الخديو وقالوا : « انا جازمون بمحبة مولانا الوطن وميله الى اصلاحه ولهذه الغاية منح الامة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة وقدمناها وطلبنا الى الوزير محمد شريف باشا ان يوقعها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما في العقود الدولية »

فقال الخديو : « اذا كانت الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون »

فقالوا : « نطلب ان تعزل فتشكل وزارة أخرى لا تأبى التصديق والعمل معنا »

فسألهم [1] : « وبأى حق تطلبون هذا »

فاجابوا [2] : « تلك هي إرادة الامة »

فوعدهم بالجواب غداً، فانصرفوا وأرسل فاستدعى شريف باشا وقنصلي انجلترا وفرنسا فبعد أن تداول معهم ساعة استقر رأيهم على أن يستقيل شريف باشا وان يترك الخديو النواب لاختيار الوزارة الجديدة [3] وحينئذ لم ينتظر الخديو الى غد بل أرسل في المساء الى الخمسة عشر نائباً فلما جاءوا أخبرهم باستقالة شريف باشا وسألهم عمن تؤلف الوزارة التي تخلف وزارته . فقالوا ان اختيار الوزراء من حق الخديو . فاصر، فاصروا هم أيضا على الامتناع ، وأخيراً عادوا في الصباح (الجمعة ٣ فبراير) فابلغوه أنهم يشيرون بمحمود سامي لرياسة الوزارة على شرط أن يصدق على اللائحة ، فكان ما أرادوا

انجلترا وفرنسا هما المتربتان

هنا نقف لحظة لنقول ان انجلترا وفرنسا هما اللتان خلقتا بتحرشهما وسوء نيتهما هذه الازمة لانهما بارسالها مذكرة ٧ يناير لغير ما سبب تحرشتا بالمجلس وبادرتاه بالعدوان وحاولاتا أن تعزلا الخديو ، أو بعبارة أخرى الحكومة عن الامة . ثم لانهما أرادتا بعد ذلك أن تمنعا النواب من أن تكون لهم سلطة على الميزانية حتى في الجزء الذى

---

(١) و (٢) أشيل بيوفيس ص ٦٥

(٣) المصدر السابق

لا مساس له منها بالدول ولا بالدائنين . وما كان المجلس في كل أدوار الازمة الا واقفاً موقف الدفاع ضد هجمات الدولتين ، وقد تواضع فى طلباته حتى ذهب الى طلب الاشتراك فى تقرير الميزانية ، لا الانفراد بتقريرها ، فاصرت الدولتان على الرفض فكانتا معتديتين أولا وأخيراً وكان اعتداؤهما حلقة من خطة سياسية أريد منها أن تؤدي فى النهاية الى التدخل المسلح . وكل من يقرأ الرسائل والمذكرات التى كانتا تتبادلانها في تلك الايام يرى بسهولة أن نية التدخل والاستيلاء على مصر كانت جلية عندهما على السواء ولكن شيئا واحداً كان يفصلهما وهو أن انجلترا كانت تريد هذا التدخل لها وحدها ، أما فرنسا فكانت تعرف هذا القصد من زميلتها وكانت تخشى أن يتم فكان وزيرها غامبتا يدفع الحوادث دفعاً لكي تتدخل الدولتان معاً ثم لما استقال غامبتا في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ وخلفه دى فريسينيه في رياسة الوزارة لم تتغير هذه الخطة وانما تغيرت الوسيلة اليها وصارت فرنسا لاتدفع الحوادث توصلا الى التدخل بل تجر أوربا للاشتراك مع الدولتين عسى أن يحول ذلك دون الغرض الذى تعمل له الحكومة البريطانية .

فالدولتان كانتا في شهرى يناير وفبراير تحاربان المجلس والحركة الوطنية كلها عملا بسياسة الاعتداء التى أعلنتاها فى مذكرة ٧ يناير . ولسنا نقول هذا وحدنا وانما يقوله معنا قنصل فرنسا العام اذ ذاك مسيو سينكويكز فقد كتب فى ٢٩ يناير سنة ١٨٨٢ الى حكومته تقريراً قال فيه [1] :

« ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب فى ان يصير برلمانا ، والخطة القوية التى رأت الدولتان من جانب آخر ان تختاراها والتى كانت مذكرة ٧ يناير تعبيراً عنها ، هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما بالآخر فاوجدا الموقف الحالى

« وفى الواقع انى كلفت ان أقدم تلك المذكرة بالاتفاق مع السير ادوارد ماليت للخديو فى الوقت الذى بدىء فيه بالتكلم جديا فى اعظم مسألة تشغل الافكار فى الوقت الحاضر وهى مسألة الميزانية . ولهذه المذكرة أهمية عظمى لانها ترسم خطة الدولتين رسما جليا صريحا فتؤكد أن من الضرورى ان يبقى النظام الحالى على ماهو عليه

(١) دى فريسينيه ص ٢٢٨

ولا تعير وجود الحرب الوطني أدنى التفات . . . . ولقد أدركت الدولتان حق الادراك ما كان مقدراً لارادتهما هذه ان تجده من معارضة الحزب الوطني ومعارضة غيره في خارج مصر فصرحتا بانهما مستعدتان لمقاومة الارتباكات الداخلية والخارجية التي يمكن ان تهدد النظام الحالي »

وكتب الى حكومته يوم ٦ فبراير يقول [1] :

« يمكن ان يقال ان الانقلاب الذي أحدثه مجلس النواب المصري جواب منه على مذكرة ٧ يناير . فلقد أعلنا في هذه المذكرة اننا نحتفظ بالنظام الحالي ضد الجميع فاجاب المجلس على ذلك بان غير هذا النظام تغيراً جوهريا . وبذلك وضعنا أنفسنا في موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه ان نتدخل او نعدل سياستنا » (٢)

وهذا اعتراف جلي بان الدولتين هما اللتان تعمدتا سياسة تؤدي بهما الى التدخل المسلح

وكتبت جريدة التيمس في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ تقول :

« ان السير ادوارد ماليت كتب في ٩ يناير الى رئيسه يقول ان مذكرة ٧ يناير أبعدت عنا كل ثقة . لقد كان كل شيء يسير سيراً حسناً وكان ينظر الى انجلترا كما ينظر الى دولة بارة مخلصة لمصر اما الآن فالمصريون يعتقدون ان انجلترا ألقت بنفسها في احضان فرنسا وان فرنسا تحملها أسباب خاصة بحربها التونسية على التدخل هنا »

المجلس في وزارة محمود سامي

صدر الامر لمحمود سامي في ٤ فبراير بان يؤلف الوزارة فالفها ورفع الى الخديو كتابا طمأن فيه الاجانب على احترام التعهدات الناشئة من قانون التصفية والادارات الخاصة بالدين العمومي ثم قال :

« وقد كان أبدا في خلد عظمتكم ان لا بد من مساعدة مجلس شورى لاتمام الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق . وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالي

---

(١) أشيل بيوفيس ص ٦٦

(٢) نثبت هنا نص هذه الجملة الاخيرة باللغة الفرنسية وهو :

Nous nous sommes placés ainsi dans la nécessité d'intervenir ou de modifier notre politique

والوزارة أيضا من هذا الرأي وهي ستوجه همتها وعنايتها الى اصلاح المحاكم والمجالس وانتظام الادارة واجراء التحسين اللازم فى أمر المعارف العمومية مساعدة للبلاد على السير فى سبيل المدنية والنجاح . وستنظر فى اتخاذ الوسائل الآيلة الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية التى كانت موضوع امانى عظمتكم . ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب ان تعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له ان يأتى الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وان يحقق آمال البلاد المحصورة فيه . ولذلك فاول شيء تشرع فيه الوزارة هو وضع نظام اساسى للمجلس المومأ اليه ويكون من احكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعهود الدولية وكل التعهدات المتعلقة بالدين العمومى وما توجب هذه التعهدات درجه فى برنامج الحكومة وتحديد التبعة التى تلحق الوزارة امام المجلس وكيفية المخابرة والمباحثة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها . وسيكون هذا النظام الاساسى محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم مبدأً من ان يكون سببا لقلق البال »

فرد عليه الخديو بكتاب قال فيه :

« . . . . ونوافق على رأيكم المتضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لاتمام الاصلاحات القضائية والادارية ونشر قانون أساسي لمجلس النواب ينطبق على الآراء التى أبديتموها فى لائحتكم »

وفى ٦ فبراير نظر مجلس النظار في مشروع اللائحة الاساسية فوضعه فى الصيغة التي ترضي مجلس شورى النواب . وفي ٧ فبراير عقد المجلس وجاءه ناظر المعارف عبدالله فكرى باشا وناظر الاوقاف حسن الشريعى باشا وقدما اليه المشروع في صيغته الجديدة فصادق عليه النواب بالاجماع [1] وهذه هي المواد الخاصة فيه بسلطة المجلس على الميزانية :

« ٣٤ — لايجوز للمجلس ان ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للاستانة او الدين العمومى او فيما التزمت به الحكومة فى امر الدين بناء على لائحة التصفية او المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية

٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة البند السابق) ويعين لها لجنة من اعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالاكثرية

(١) نص هذه اللائحة منشور فى ذيل هذا الكتاب من ص٤٤٨ الى ص٤٥٤

٣٦ — اذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان أثبت رأى لجنته فيكون العمل بمقتضي المادة ٢٣ و٢٤ من هذه اللائحة . وأما ما حصل فيه الخلاف من الميزانية فاذا كان مقررا فى ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا لاعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثانى بمقتضى المادة ٢٣

٣٧ ـ اذا أيد المجلس الثانى رأى المجلس الاول فى أمر الميزانيـة وجب تنفيذ الرأى المذكور قطعيا كما في المادة ٢٣ »

اما المادتان ٢٣ و٢٤ اللتان أشير اليهما في هذه المواد فهما :

« ٢٣ ـ اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظـار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة و بيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط أن لا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانفضاض الى يوم الاجتماع . ويجوز لارباب الانتخاب أن ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم

٢٤ ـ اذا صدق المجلس الثانى على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخـلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا »

وفي يوم ٨ فبراير كان مجلس النواب مجتمعا فجاءه محمود سامى ومعه اللائحة وقد صادق عليها الخديو والنظار فقدمها وألقى الخطاب الآتي :

« أيها السادة النواب

أحسب نفسي سعيد الطالع بحضوري بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى الذي سيكون ان شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم ويسرنى كل السرور انى لم احمله اليكم الا بعد تيقنى انه خير أساس يمكنكم ان ترفعوا عليه من الاعمـال مايعزز شأن البلاد وينمي ثروتها ويقوى اصول العدالة فيها

وهذه نعمة من الله سبقت الينا على حين احتياجنا اليها والحمد لله قد وصلنـا الى المرغوب مع احترامنا شرائع الحكمة ونواميس السكينة ولم يكن شيء من الوسائل بعيدا لو لم تكن عناية جناب خديوينا الاعظم هى سندنا في جميع اعمالنا ومقاصده السامية هى مرشدنا فى سبيل سيرنا فهو الكريم الذى اجريت هذه النعمة على يديه فاول واجب علينا جميعا ان نقوم لحضرته العلية بفروض الشكر وواجب الثناء

إلا انى اعلم كما تعلمون ان مجرد وضع القانون على اصول الحريه وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لا بد ان ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والافكار منحصرة فى فى دوائرها وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال اعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها فى دائرة القانون انما ينال بمدالعناء وطول التجارب لكن لا اعد هذا صعبا عليكم فان العناية الالهية ساعدت سعد البلاد بوقوع الانتخاب على حضراتكم وانتم على اكمل درجات العقل والفضيلة ولا عناء فى اتباع القانون الا على العاجزين

« وفى املى انكم ستحققون ما يظن احياء البلاد فيكم عندما تبتدئون فى الاعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها بان تستعملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون الا بتخليص الافكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بان نجعل الاعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى ابنائكم

« ان التفات النظر الى الخصوصيات يبث فى القلوب محاسدات ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم (نعوذ بالله) وانكم تعلمون ان الذين رقوا الى ذروة العز واوج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم فى طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأحبتهم القلوب فاحلتهم اعلى المنازل فثبتوا فى مكانتهم ماداموا بحلية الاخلاص

« وانى اهنىء نفسى بوقوفى بين عقلاء البلاد العارفين بحقوق بلادهم عليهم العالمين بان شرفهم معقود بشرف اوطانهم الموقنين بانهم لن يكونوا نوابا حقيقيين الا اذا اقاموا على صدقهم براهين من العمل وحججا من العقبات فى خطة الاعتدال حتى يقتنع بها البعيد كما عرفها القريب

« وفى علم حضراتكم ايها السادة انى عند استلامى رياسة النظار رفعت الى جناب خديوينا الاعظم تقريرا انت فيه مبادىء الهيئة الحاضرة واظنكم قرأتموه وتعلمتم معانيه وقد تكرم على الجناب الخديوى بقبوله وانى مؤمل فيكم ان تكونوا عضدا لنا وساعداً قويا على تتميم ما قصدنا ليستقر امر النظام وتتوفر لدينا اسباب الثروة والرفاهية ونحفظ الحقوق التى لنا ونؤدى الواجبات التى علينا ونوفى بجميع عهودنا لمن عاهدناه ونكون بذلك قد ارضينا سلطاننا الاعظم الذى يسره نجاحنا

وتقدمنا وارضينا جميع الدول المتمدنة التي تحب ان ترانا حائزين لشرفنا حافظين لحقوقنا قائمين بعهودنا

« وآخر ما نتواصى به ان لا نجعل للتعصب المشربي دخلا في الاعمال الوطنية التي كلفتكم البلاد ان تقوموا بادائها وان تكون الوطنية الحقة هي الباعث القوى على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل

« نسأل الله ان يوفقنا جميعا لما فيه رفعة أوطاننا وتقدم بلادنا وان يمتع البلاد ببقاء حضرة خديوينا المعظم أيده الله »

فرد عليه سلطان باشا شاكراً للوزارة انها اجابت طلب النواب. ثم توجه النواب الى الخديو فشكروا له تأليف الوزارة التي لبت طلب الامة. وأقيمت لذلك احتفالات في كثير من انحاء البلاد

وفي ٧ فبراير صدر أمر عال بان نيابة اعضاء مجلس النواب المجتمع اذ ذاك تمتد الى خمس سنوات ابتداء من يوم عقده وبذلك صار مجلس شورى النواب هو نفسه مجلس النواب الذي نص عليه في اللائحة الاساسية

وصدر مع هذا الامر أمر ثان بان يبقى سلطان باشا في رياسة مجلس النواب خمس سنوات .

وأمر ثالث بان انتهاء اجتماع المجلس في هذه السنة يكون في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢

وعقد المجلس بعد ذلك أكثر من عشرين جلسة ما بين ٦ فبراير و٢٦ مارس فنظر في جملة غير قليلة من شؤون الزراعة والتعليم والري والصحة وغيرها. وقدمت له الوزارة مشروعاً لقانون الانتخاب الذي ينتخب على أساسه مجلس النواب فبحثه وعدل فيه ما عدله ثم صدر قانونا في ٢٥ مارس وهذا أهم ما يشتمل عليه :

« يحق الانتخاب لكل مصرى من رعايا الحكومة المحلية سواء كان مولوداً في مصر او متوطناً أقام فيها مدة لا تنقص عن عشر سنوات على شرط ان يكون بالغا من العمر احدى وعشرين سنة كاملة وان يدفع للحكومة من مال الضرائب او الرسوم المقررة أيا كانت ما يبلغ خمسمائة قرش اميري في السنة — (مادة ١)

يثبت حق الانتخاب لمن يأتي ذكرهم ولو لم يكن عليهم المبلغ المقرر وهم أولا العلماء الحائزون رتبة التدريس او المشهورون بصفة العالمية . ثانيا القسس وسائر

الرؤساء الروحانيين من المسيحيين . ثالثا حاخامات الاسرائيليين . رابعا المدرسون فى المدارس الميرية والمكاتب الاهلية والحائزون للشهادات من المدارس العالية . خامسا ارباب الوظائف الملكية سواء كانوا فى الوظائف او متقاعدين. سادسا ضباط العسكرية سواء كانوا فى الخدمة او مستودعين او متقاعدين. سابعا وكلاء المرافعات (الافوكاتية) المقبولون فى المجالس النظامية . ثامنا الاجزائية والاطباء والمهندسون. (المادة ٣)

يكون لمصر مائة وخمسة وعشرون نائبا (المادة ٦)

ينتخب الذين لهم حق الانتخاب فى كل دائرة واحدا من كل مائة منهم على شرط ان يكون بالغا من العمر خمسا وعشرين سنة بالاقل والذين يقع عليهم الانتخاب على هذه الصورة هم الذين ينتخبون النواب (المادة ٣٣)

يصح انتخاب كل شخص بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة فما فوق ايا كان على توطنه فى مصر على شرط ان تجتمع فيه الصفات المطلوبة فى حق الانتخاب ويكون ساريا عليه احكام قوانين البلاد بما فيها القرعة العسكرية ويكون عارفا بالقراءة والكتابة معرفة كافية ـ (المادة ٦٧) ـ »

احتجاج المراقبين

وكان من الجلي الا يرضى المراقبان الاجنبيان عن هذا النظام الجديد لان خضوع النظار للمسئولية امام مجلس النواب واعطاء هـذا المجلس حق المشاركة فى تقرير الميزانيـة ينتشلان الحكومة المصرية من بعض السيطرة التى كانت للدينك المراقبين ويمهدان لها سبيل الاستقلال . ولهذا ما كاد المراقبان يعلمان ان اللائحة الاساسية صدرت حتى احتجا عليها فى خطاب طويل رفعاه الى الخديو [1] زعما فيه ان هذا التغيير الذى حدث بانتقال السلطة من الخديو ونظاره الى مجلس النواب غير ملائم لحالة البلاد السياسية والاجتماعية . ثم أرادا ان يحرضا الخديو على المجلس فقالا انه قضى على سلطته وجعلها كا مهملا وان النواب صاروا يعزلون الوزراء ويعينونهم . الى ان قالا :

« ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الادبيـة شخص الخديو والوزراء أما

(١) الكافى جزء ٤ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

الآن فلا بد أن تصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقام نواب البلاد ورؤساء الجيش »

ثم ادعيا ان قبول وزارة محمود سامي ما قبله « انتهاك لحرمة نفوذ انجلترا وفرنسا » . وأخيراً انذرا بأن استقلال الحكومة المصرية عن سيطرتهما سيذهب بالاصلاحات كلها بعد أن توطدت أركانها في السنتين الماضيتين

اذن كان هذا الاستقلال كل مايغضب المراقبين وحكومتيهما ، ولكنه كان أيضا كل ماسعى اليه مجلس النواب بعد ان رأى الخطر محيقا . وليس في الدنيا عقل سليم كان يطلب من المجلس أن يفرط في استقلال بلاده ليجتنب هذا الغضب

ولم تصغ حكومة محمود سامي لهذا الاحتجاج بأكثر من أنها ردت عليه وأكدت لقنصلي الدولتين ان حقوق الدائنين ستبقى مصونة وأن نظام المراقبة سيبقى محترما

انتهاء دورة المجلس

وفي ٢٦ مارس تقدم محمود سامي الى المجلس ومعه الامر العالي بانتهاء دورة المجلس فالقى كلمة قال فيها :

« ان المدة القصيرة التي اقضيتموها والاعمال الكثيرة التي باشرتموها تدل على شدة ميلكم الى النجاح ورغبتكم في تقدم البلاد . وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المعين لانفضاض المجلس بمقتضى لائحته الاساسية قد أتيت بالاصالة عن نفسي والنيابة عن اخواني لاقدم لكم الشكر على مساعيكم المحمودة وأرغب اليكم ان تشغلوا أفكاركم في مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التي ستوضع في العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة . وهذا هو الامر العالي الكريم الناطق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول في توفيقنا جميعا »

ثم تلا الامر وبعد الفراغ من تلاوته تكلم رئيس المجلس فشكر الوزارة ودعا الله أن يوفق النواب الى الخير والاتحاد . وانفض المجلس فلم يجتمع بعد ذلك لان الانجليز احتلوا القاهرة فكان أول ما فعلوه بعد الاحتلال أن قضوا على الحكم النيابي فبقي معطلا الى أن استردته الامة في سنة ١٩٢٤

والآن ماذا فعل المجلس فى دورته هذه ؟ وكيف كان تأثير وجوده فى الحكومة وفى البلاد ؟

انه اجتمع فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وانفض فى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ فالمدة كلها ثلاثة أشهر انقضى منها شهر ونصف فى انتزاع الدستور وتحويل الحكم المطلق الى حكم نيابي . فالشهر والنصف الباقيان هما وحدهما اللذان كان فيهما صاحب سلطة تحسب عليه وهما اللذان انصرف فيهما الى أعمال الاصلاح . فاذا نحن سألنا كيف كان تأثير وجوده فى الحكومة وفي البلاد فيجب أن يكون مفهوما أن وجوده وعمله لم يتعديا هذه المدة القصيرة

كانت مدته قصيرة ومع ذلك اسمع مايشهد به له الكتاب المنصفون والرجال المسئولون . كتب مستر تيودور روتستين (ص ١٥٦ من الترجمة) يذكر أعماله قال :

« لم يكن ينتظر ان يعمل المجلس في خلال هذه المدة القصيرة عملا يذكر من الوجهة التشريعية اللهم الا ازالة بعض فضائح الماضي الظاهرة لكل ذى عينين . ومع ذلك كانت النظارات المختلفة اثناء هـذه المدة تكدح فى تهيئة مشروعات الاصلاح لعرضها على المجلس فى دور انعقاده القادم فكانت تعد قانونا جديدا للانتخاب (١) وقانونا لمنع السخرة ومشروعا لاصلاح المحاكم المختلطة التى آذت الفلاحين فيا مضى أذى بليغا وآخر لانشاء مصرف زراعي وما الى ذلك من الاعمال . . . . اما المجلس نفسه فكان اثناء ذلك مكبا على فحص المعاهدات والمعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورعاياها وفى مناقشة النظار فى المساوىء المختلفة التى وصلت الى علمه وأهمها المساوىء الخاصة بمسح الاراضى الذى كان قد تم منذ ثلاث سنين تحت اشراف موظفين من الانجليز ولم يكن له أثر ظاهر غير النفقات الباهظة التى ذهبت فى شكل مرتبات واجور ونفقات انتقال وغير ذلك . وقد انتهي الامر فى هذا الصدد بان ألف المجلس لجنة خاصة لفحص هذا الموضوع فازعج ذلك المساحين الذين قاموا بهذا العمل »

(١) تقدم ان المجلس بحثه وصادق عليه وانه صدر فى ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢

وكتب وزير فرنسا مسيو دى فريسينيه في كتابه « المسألة المصرية » (ص ٢٤٩) يذكر المدة التى وجد فيها مجلس النواب وتولت الحكم وزارة محمود سامي تحت مراقبة هذا المجلس فقال :

« كانت ادارة محمود سامي صالحة نافعة الى حد لا بأس به وانقضى شهر فبراير ومارس فى راحة وهدوء كذبا التنبؤات التى كان المراقبان العامان قد توقعاها [1] »

ولهذه الشهادة الاخيرة من فريسينيه قيمة كبيرة لان صاحبها كان فى ذلك الوقت رئيسا لحكومة فرنسا فكان واقفا على حوادث مصر وأعمال حكومتها وعملها النيابي يوما فيوما مطلعا على المخابرات السياسية التى كانت تدور حينذاك بين فرنسا وانجلترا ثم بينهما وبين دول اوربا فى موضوع المسألة المصرية ، فشهادته هذه للحكم النيابي والحكومة الدستورية في سنة ١٨٨٢ لاتعدلها شهادة

فلو أن انجلترا تركت مصر وشأنها لزكا فيها هذا النبات الطيب ولعاشت به فى رغد وراحة بال،ولكنها لم تتركها لان غامبتا كان قد استقال وخلفه دى فريسينيه ، وكان هذا عدوا الدولتين في مصر [2] فرأت انجلترا أن الجو خلا أمامها وأن الفرصة التى كانت تنتظرها سنحت فمضت تدس الدسائس وتنصب الحبائل فى مصر واوربا حتى ضربت الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتلت القاهرة فى ١٤ سبتمبر من السنة نفسها. وقد تقدم انه لما ارتبكت مصر بديون اسماعيل كتبت التيمس في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٦ تطلب بسط الحماية البريطانية عليها . وتقدم أيضا ان غامبتا ما كان يريد بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ غير احتلال مصر وانه كان يعد القوة اللازمة لذلك بينما كان يكتب تلك المذكرة . فنضيف الى هذا وذاك ان قصل

---

(١) هذا هو نص عبارة دى فريسينيه بالفرنسية :

L'administration de Mahmoud fut assez bienfaisante , les mois de février et de mars s'écoulèrent dans une tranquillité qui donnait un démenti aux prévisions des contrôleurs généraux.

(٢) كان فريق كبير من نواب فرنسا يرون فى ذلك الوقت أنه لايزال على بلادهم ان تضمد جراحها التى خرجت بها من حربها مع المانيا فى سنة ١٨٧٠ وأن اشتراكها مع انجلترا فى عمل مسلح في مصر يخلق بينها و بين انجلترا تنافسا فعداوة وأن ذلك يضعفها في موقفها أمام المانيا وهذه هى السياسة التى جرى عليها دى فريسينيه

قرنسا العام مسيو سينكويكز كان بين ديسمبر سنة ١٨٨١ وينايرسنة ١٨٨٢ يكتب الى حكومته فيذكر التدخل المسلح ويقدر القوة اللازمة له باربعين ألف رجل [1]،
ولكن المفاوضات السياسية التي كانت تدور بين الدول فى سنتى ١٨٨١ و١٨٨٢ بشأن المسألة المصرية كانت تتردد فيها كلها تقريبا كلمة « العمل فى مصر » وكيف يكون وممن يكون . فالعزم على هذا « العمل » كان قديما ظهرت بوادره من اليوم الذى ارتبكت فيه المالية المصرية وتجسمت اعراضه فى المراقبة الثنائية وفى النظارة الاوربية . وما كانت انجلترا تنتظر أن يوجد مجلس النواب لتعمل وانما كانت تنتظر أن تخلو لها فرنسا الطريق

ومن ذا الذى يرى تعنت الامير السيمور فى خلق الاعذار لضرب الاسكندرية ولا يحكم بان هذا الضرب لم يكن لانه كان فى مصر مجلس نواب ولا لانه كانت فيها حركة وطنية بل لان الاحتلال كان غرضا مقصوداً

والآن

هذا هو تاريخ الحياة النيابية فى مصر الى سنة ١٨٨٢ أى الى الوقت الذى يقف عنده كتاب مستر بلنت . وقد لا نجاوز هذا الحد كثيراً اذا نحن أضفنا اليه أن الحكومة البريطانية أرسلت اللورد دوفرين الى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٨٨٢ ليضع للحكومة المصرية النظام الذى يتفق مع وجود الاحتلال فجاء وكتب تقريراً أشار فيه بالغاء دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ وانشاء هيئتين هما الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين تعين الحكومة تقريبا غير قليل من اعضائهما ويكون رأيهما مع ذلك استشاريا فانشئت هاتان الهيئتان ورجعت مصر بذلك الى أسوأ مما كانت عليه حينما أنشيء مجلس شورى النواب فى سنة ١٨٦٦ لان اعضاء هذا المجلس كانوا على الاقل منتخبين.

وخيل الى انجلترا أن الروح الوطنية ماتت بعد الاحتلال وان مصر الضعيفة لن تستطيع حراكا تحت ضغطها الشديد فخاب ظنها هذا وهبت مصر بعد قليل لا لتطلب الدستور وحده بل لتطلب الدستور والاستقلال . طلبتهما على لسان

---

(١) دى فريسينيه ص ٢٥١

مجلس الشورى والجمعية العمومية غير مرة ، وعلى لسان صحافتها دائما ، وعلى لسان احزابها السياسية جميعا، فعدل نظام مجالس المديريات في سنة ١٩٠٩ ثم أنشئت الجمعية التشريعية بدل مجلس الشورى والجمعية العمومية سعيا الى استرضاء ذلك الطلب .
ولكن هذا لم يكن الاستقلال ولا الدستور فبقى الطلب على حاله وبقى غضب النفوس يزداد ويتجمع الى ان انفجر فى سنة ١٩١٩ فكان ثورة لم تعرف مصر أعنف منها من قرون وقرون . واشتدت انجلترا فى البطش فاشتدت مصر في المقاومة الى ان انجلت المعركة فى اول سنة ١٩٢٤ ، وبعد خمس سنوات من تضحيات لا تحصى فى الارواح والانفس والاموال ، عن الدستور نظاما للحكم ، فلم تأخذ مصر به جديدا وانما استردت ما كان لها في سنة ١٨٨٢ وما طلبته فأوشكت أن تناله فى سنة ١٨٧٩

وعطلت انجلترا الحكم النيابي مرة أخرى في سنة ١٩٢٥ وسلطت على مصر كل قوى الارهاب والكيد عسى ان تصرفها عن الدستور ، فصبرت مصر للنضال عاما ونصف عام ثم خرجت ظافرة بالدستور .

واليوم ها هو الدستور قد عطل مرة ثالثة فى ١٩ يوليه سنة ١٩٢٨ فمن ظن أنه مستطيع ان يمحوه من قلب مصر أو أن مصر تصبر طويلا على تعطيله فهو متعام عن ماضيها هذا الطويل فى طلبه

٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨ عبد القادر حمزة



مقدمة للمؤلف

عن نشر الكتاب فى سنة ١٩٠٧

منذ ان وضعت المقدمة الموجزة السالفة الذكر حدثت أمور تدل على ما يظهر على أن الساعة التي تكهنت بها قد حانت أخيرا فاصبح من مصلحة الجمهور وبدون أى خطر ينشأ عن عدم التحفظ حيال الافراد أن تعلن الحقيقة بتمامها أمام العالم .

ففي عام ١٩٠٤ روجعت مسودات الكتاب الاصلية مراجعة تامة وصيغ القسم الخاص منها بمصر من جديد فى ظروف تزيد كثيرا من أهميته التاريخية . وذلك ان صديقى القديم الشيخ محمد عبده الذى ذكر اسمه كثيراً فى هذا القسم اتخذ له داراً خلوية بالقرب من ضيعتي المسماة « الشيخ عبيد » بالمطرية واذ ذاك رأيتني مشتبكا بمحادثته فى كل يوم وهي فرصة نادرة لم أضيعها سدى . فهذا الفيلسوف العظيم — الذى فجعنا الدهر بوفاته فى الاسكندرية فى ١١ يوليه سنة ١٩٠٥ وهو يوم الذكرى الثالثة والعشرين لضرب هذه المدينة بالقنابل — بعد أن عبس له الزمان طويلا بلغ فى سنة ١٨٩٩ مرتبة رفيعة بان صار مفتياً للديار المصرية فخطر له وقد أصبح حاصلا على ذلك النفوذ الكبير بين مواطنيه أن يروى لهم قصة حقيقية عن الحوادث التي وقعت فى عصره ، تلك الحوادث التي أصبحوا يسيئون فهمها والتي أحاط بها من الخرافات والاباطيل ما يبعد عن الحقيقة بعد السماء عن الارض

ولطالما حادثني فى ذلك الصدد وأسف لعدم وجود فراغ من الوقت لاتمام ذلك العمل التاريخي . فلما أخبرته بمذكراتي ألح علي فى نشرها وقال إذا لم يتيسر النشر بالانجليزية فلتنشر على الاقل بالعربية بمساعدته . ثم تعهد بمراجعتها معي ليتأكد أن القسم الخاص بالحوادث التي يعرفها قد روى بدقة تامة . وقد لبثنا منذ أول زيارة لى لمصر صديقين حميمين وحليفين سياسيين ولما كانت حديقته ملاصقة لحديقتي كان من السهل أن نتناول ذكرياتنا الرجال والحوادث التى عرفناها . وبهذه الطريقة أخذ تاريخ الحقبة التى تهم كلا منا شكله الختامى . وقد

أسعدني الحظ بإتمامه والحصول منه على الترخيص بطبعه قبل أن يقضي موته الفجائي على المنبع الوحيد للمعلومات عن الحركة السياسية التي أدت الى ثورة سنة ١٨٨١ وعن الدسائس التي عاقتها في السنة التالية

وقد كانت وفاته خسارة جسيمة بالنسبة الى أيضاً ، وأخرت الى أجل غير مسمي نشر هذا الكتاب باللغة العربية . لا بل ان ما وقع من الحوادث الى هذا العام جعل الوقت غير ملائم من الوجهة السياسية لنشر الكتاب باللغة الانجليزية . بيد أن حوادث سنة ١٩٠٦ وانسحاب اللورد كرومر من المسرح المصرى غيرا الموقف تغييراً كلياً حتى صرت أرى انه لا ينبغي لي التردد أكثر من ذلك . ان واجبي نحو مواطني على الاقل يقضي بالمبادرة . فنحن معاشر الانجليز نجد أنفسنا اليوم — من حيث معاملاتنا مع مصر — إزاء نفس المشكلة التي أخطأنا فهمها وخلطنا فيها ذلك الخلط الفاحش منذ جيل ، فاذا كان المسئولون عن تسيير دفة أمورنا العمومية يريدون — كما قلت في المقدمة الاولي — « أن يعيدوا النظر من جديد في مركزهم السياسي والادبى في وادى النيل » بأمانة ولفائدة المجموع فينبغي قبل كل شيء أن توضع أمامهم الحوادث الماضية على حقيقتها لا كما صورتها لهم طول هذه المدة الوثائق الباطلة الواردة في الكتب الرسمية الزرقاء . ولا اظن انى مبالغ اذا قلت أن الحوادث التي وقعت في مصر منذ خمسة وعشرين عاماً لا يعرفها بالدقة اللورد كرومر نفسه ولا السير ادوارد غراى بل ولا السير الدون غورست خليفة اللورد كرومر . وهذا بالرغم من اعتراف اللورد كرومر اعترافاً متأخراً بأن حركة سنة ١٨٨١ كانت حركة اصلاح وبالرغم من ثنائه المتكرر على الشيخ محمد عبده كما هو مذكور في تقريره السنوى الاخير . ويجب أن نذكر هنا أن اللورد كرومر لم يكن في مصر في خلال أى دور من أدوار الثورة العرابية وانه كان الي عهد قريب يظن أن « الحقيقة الرسمية » هي وحدها الحقيقة الواقعة

فلهذا السبب عولت نهائياً علي نشر هذا الكتاب وأثبت فيه نصوص مذكراتي بالصفة التي أتممتها بها في عام سنة ١٩٠٥ . وقد أقرها صديقي الاستاذ فيما عدا بضع فقرات موجزة يستحسن عدم نشرها لانها ماسة بشخصية أفراد

لا يزالون على قيد الحياة . وهي فقرات يمكن الاستغناء عنها دون أن تؤثر في قيمة الكتاب التاريخية ويمكنني أن أقول باخلاص انني جعلت نصب عيني في كل ما كتبته هنا كشف الحقائق كما عرفتها مبتغياً بذلك اصلاح الاباطيل التاريخية

واذا كان ثمة سبب آخر يحملني على النشر فهو راجع الى وعد قديم أعطيته علناً في « مجلة القرن التاسع عشر » في عددها الصادر في سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتعهدت فيه بأن أتمم يوماً ما دفاعي الشخصي عن الحوادث المعاصرة لي ، وذلك أني في سبتمبر سنة ١٨٨٢ راعيت خاطر المستر غلادستون وأملت أن يصلح حتى في تلك اللحظة المتأخرة الخطأ الذي ارتكبه ضد الحرية في مصر . فأمسكت — في وجه مطاعن عديدة لا نظير لها — عن تبرئة نفسي وإزاحة الستار عن الامور الخفية التي كانت تبرر أعمالي . لأنه لم يكن في الاستطاعة أن أبرىء نفسي تماماً دون أن أذيع حقائق تعتبر سرية من الوجهة العامة ولذلك آثرت السكوت .

بيد أن هناك حدوداً لواجب الصمت الذي يلزمه الانسان حيال مسلك الرجال العموميين في الامور العمومية . وانني لواثق من ان احتجاجي نحو ربع قرن سيكون شفيعي لدى المنصفين اذا هم رأوني الآن ألجأ الى الطريقة الوحيدة الممكنة في سبيل الدفاع عن نفسي وهي كشف الستار بالتفصيل عن رواية الدسيسة المالية والضعف السياسي كما مثلت أمامي وقتئذ مع تعزيزها بالوثائق المعاصرة التي ما زالت في حيازتي . فاذا مست تصريحاتي هذه بعض ذوي الحيثيات فجوابي هو أن عدم صراحتهم هو الذي حملني على التكلم ، اذ في خلال هذه السنين الطويلة لم يتقدم للدفاع عني ولو بكلمة واحدة شخص ممن عرفوا الحقائق معرفة تامة

الفصل الاول

مصر في عهد اسماعيل

كانت زيارتي الاولى لمصر في شتاء سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ حيث قضيت بضعة أشهر متنقلا في جهات النيل الادنى . وقبل أن أشرح هواجسي في هذه المرة الاولى التي تعرفت فيها بالمصريين بحسن ، خدمة لهم وخدمة للقراء الاجانب على وجه العموم ، أن أقول كلمتين عن حياتي السابقة من حيث علاقتها بالشؤون العامة . وبذلك يستطيعون أن يعرفوا موقفي بين أبناء وطني بالضبط فيساعدهم ذلك على أن يفهموا كيف انى بعد ان كنت مجرد مشاهد لما يحدث في بلادهم أصبحت تدريجاً أهتم ببلادهم سياسياً الى ان كان لي في النهاية ضلع كبير في الثورة التي حدثت في مصر بعد مرور ستة أعوام على تلك الزيارة . ومع انى وقت هذه الزيارة لم أكن أتجاوز الخمسة والثلاثين ربيعاً فانى كنت قد رأيت الشيء الكثير سواء فيما يختص بالرجال أو بالشؤون العامة

بدأت مبكراً في الحياة ، ونظراً لانتسابي لاحدى الاسر ذوات الضياع في جنوبي انجلترا وذوات التقاليد المحافظة الشديدة ، ثم نظراً لانى كنت على اتصال بزعماء المحافظين في ذلك العهد ، أدخلت في سن الثامنة عشرة في الخدمة السياسية أولا بصفة ملحق بالوكالة الانجليزية في أثينا حيث كان « الملك أوتو » لا يزال على عرش اليونان وظللت فيما بعد — لمدة اثنى عشر عاماً — متنقلا بين الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها فتعلمت بعض الشيء مما يختص بمهنتي وقضيت الوقت في اللهو واتخاذ الاصدقاء . وهكذا أقمت فيما بين عامي ١٨٥٩ و١٨٦٩ بضعة أسابيع في الاستانة على عهد « السلطان عبد المجيد » ثم لبثت عامين في ألمانيا أيام كانت لا تزال مجموعة من ولايات متفرقة ثم عاماً في أسبانيا أثناء حكم « الملكة ايزابيل » وعاماً آخر في باريس أيام بلغ « الامبراطور نابوليون الثالث »

ذروة المجد والعظمة كما أنت ردحاً قصيراً من الزمن في سويسرا وفي أميركا الجنوبية وفي البرتغال . ومذكراتي السياسية عن هذه البلاد لذيذة ولكن ليس لها أهمية خاصة فضلا عن أنها خالية من كل أهمية سياسية

وفي السنوات التي أعقبت حرب القرم كانت سياستنا الانجليزية التي أغضبت الميالين منا الي المحافظات الاجنبية على العكس مما أصبحت عليه بعد ذلك . فقد كان قوامها السلام وتجنب العدوان والترفع عن المكر والخبث اللذين أحرز لها شهرة الدهاء والفطنة على حساب الشرف والامانة . فالتحمس الرسمي لم يكن مرغوبا فيه في الخدم العمومية فضلا عن ان نصيحة أي سياسي حديث السن في نظر وزارة الخارجية كانت لاتحتاج الي أكثر من توجيه سؤال جديد بشكل يتطلب الجواب العلني . وقد أفهمتنا وزارة الخارجية ذلك نحن معاشر الملحقين وصغار السكرتيرين بصراحه تامة كما أنها حظرت علينا التدخل في سياسة أي بلاط أرسلنا لتمثيل بلادنا فيه . بل انتطلب الينا أن نجعل أنفسنا مرضياً عنا من الوجهة الاجتماعية وأن نقضي الوقت في اللهو—باحتشام اذا أمكن—ولكن بشكل غير جدي على كل حال . ولا أكون مبالغاً اذا قلت انني في طول الاثني عشر عاماً التي سلختها في الحياة السياسية لم يطلب الى مرة تأدية أي واجب ذي قيمة سياسية ولو طفيفة . فهذا النظام المثبط للعزائم زهدني — أثناء وجودي في الخدمة — في السياسة ، فلم أشتغل بها ولم أهتم بها اهتماماً جدياً الا بعد ذلك بفترة طويلة وفي ظروف مختلفة جاءت كلها عن طريق الاتفاق . وكانت أعمالي بصفتي ملحقاً منحصرة في اللهو والاختلاط الاجتماعي والادب . فنظمت القصائد وكتبت الرسائل وساعدت سياسياً في احدى الروايات الجدية التي حدثت في أوربا وقتئذ ولكنني فعلت ذلك بصفتي مشاهداً لا بصفتي ممثلا ، أي كرجل ممن لا يسمح لهم بالاطلاع على ما وراء الستار . وعند اقتراني في سنة ١٨٦٩ الذي أعقبته وفاة شقيقي الا بر وصيرورتي الوارث الوحيد لاملاك الاسرة في مقاطعة سسكس ، اعتزلت الخدمة العمومية غير آسف والتفت الى بعض المسائل الخصوصية التي كانت أهميتها عندي تفوق كل شيء آخر

ومع ذلك ظلت علاقتي المبكرة بوزارة الخارجية — ولو انها لم تكن لتحدد مرة أخري بصفة رسمية قائمة علي أسس من الصداقة . وحسبك انها علاقة رجل اعتزل الخدمة بشرف . وقد أفادتني فيما بعد هذه العلاقة مضافا اليها تجاريبي في البلاط الانجليزي والمواسم الاجنبية فائدة لاتقدر عند ما رأيت نفسي مرة أخرى مدفوعا بطريق الاتفاق في تيار الشؤون الدولية . فبواسطتها حصلت علي معرفة أداة السياسة الخارجية معرفة دقيقة . وأصبحت علي اتصال بالاشخاص الذين كانوا يديرون هذه الاداة . وكان لي أصدقاء عديدون بين هؤلاء الاشخاص وبذلك رأيتني في مبدأ حياتي العامة تجمعني الصداقة الرسمية « باللورد كري » الذي ظل عدة أعوام يدير دفة السياسة في وزارة الخارجية و « بالسير هنري درموند وولف » و « بالسير فرانك لاسل » و « بالسير ادوارد ماليت » و « باللورد دوفرين » و « باللورد فيفيان » و « بالسير ريفرد ولسون » وكلهم كان لهم ضلع في تكوين التاريخ المصري فيما بعد . و « باللورد ليتون » الذي صار حاكما عاما للهند في السنين التي سبقت ازمة سنة ١٨٨١ مباشرة . كما ارتبطت الصداقة بيني وبين بعض الساسة الاجانب ومنهم « المسيو نيليدوف » سفير روسيا في الاستانة و « البارون همبرلي » رئيس وزراء النمسا المتوفى « والمسيو دي ستال » سفير روسيا في لندن لمدة ٢٠ سنة . فقبل زيارتي الاولي لمصر بزمن طويل كانت صداقتي مع جميع هؤلاء الرجال صداقة متينة . فاذا تكلمت عنهم وحكمت عليهم فانما أتكلم عن دراية تامة بأخلاقهم الشخصية جميعاً . ونظراً لانى كنت كأني أحد رجال الكهنوت لم يجز علي بسرعة الرياء والنفاق اللذان كانا من السلع التجارية المعتادة في سوق السياسة ولم انخدع في عمل من الاعمال فأحسبه سياسة عمومية وهو في أغلب الاحايين سياسة شخصية . ولا يخفي ان الاعتقاد السائد بين الذين ليس لهم تجارب فردية بأعمال السياسة (دبلوماتيكا) هو ان الحوادث العظام في تاريخ العالم نتيجة التنظيم السياسي المتقن وليست ، كما هو الواقع فعلا في كثير من الاحوال ، مترتبة علي مصادفات غير منتظرة وعلي شجاعة أو ضعف — وأحيانا علي ميل شخصي — لدي الاعوان المنوط بهم القيام بعمل من الاعمال

في خلال السنوات الاولى التي أعقبت اعتزالي الخدمة شغلت نفسي بشؤون الداخلية. ولم يكن الا عن طريق الاتفاق - كما قدمت - اني بدأت أهتم بالسياسة. واذ رأيت صحتي في سنة ١٨٩٣ منهوك القوى ، وفراراً من تحمل فصل الربيع الذي بدأ متأخراً في انجلترا ، قررت أن أقوم أنا وقرينتي بأول سياحة مشتركة لنا في البلاد الشرقية. فذهبنا عن طريق بلغراد والدانوب الى الاستانة حيث وجدنا (السير هنري اليوت) في السفارة. وهناك جددنا تعارفنا بالاصدقاء الآخرين المتصلين بها ومن بينهم (الدكتور ديكسون) الذي سأتكلم عنه فيما بعد بمناسبة مصرع السلطان عبد العزيز والذي عالجني بشفقة تامة في نوبة شديدة من نوبات ذات الرئة والذي أصبحت أشعر نحوه بميل كبير. وكانت الامبراطورية العثمانية تتمتع وقتئذ بفترة هدوء نسبي قبل العاصفة التي قدر أن تهب عليها بعد ذلك فلم أحفل كثيراً بمتاعبها الداخلية ولكن عواطفي كانت في ذلك الوقت ، ككل عواطف غالبية الانجليز وقتئذ ، مع الاتراك لا مع المسيحيين العثمانيين. وبعد البلالي من المرض ابتعت ستة براذين في سوق الخيول باسلامبول ثم عبرنا معها الى اسكودار حيث قضينا ستة أسابيع لذيذة من فصل الصيف متنقلين بين التلال وحقول الحشحاش الاناضولية بعيداً بقدر الامكان عن الطرق المطروقة. ورأينا في ذلك الوقت من حياة الريف التركية بقدر ماسمح به جهلنا التام بلغة البلاد. ولاحظنا — كما لاحظ جميع السياح — طيبة الاهالي وأمانتهم وسوء حكومتهم. والذي جعلنا نلاحظ ذلك سلوك رجال الضبطية الموكلين بحراستنا نحو الاهالي فانهم كانوا يعاملونهم كما لو كانوا جنوداً أجنبية أغارت على البلاد.

ومع ذلك تبينا ان تركيا الرعية كانت بالرغم من كل هذا الارهاق المالي تتمتع بقسط كبير من الحرية الشخصية كالحرية الموجودة في انجلترا المكتظة بشرطتها ومأموريها. والحقيقة ان الشبكة الادارية أينما ذهبت في الشرق وجدتها واسعة الثقوب كثيرة الخروق بحيث تستطيع صغار الاسماك الافلات منها ولا يسمع الانسان في الاوقات العادية باضطهاد الفقراء والمعوزين. واني لاذكر حكاية قصصتها على الفلاحين الذين جاءوا يشكون الى بواسطة الترجمان الارمني مايجدونه

من تشدد الحكومة في معاملتهم . فقد أخبرتهم ان ثمة بلاداً أسوأ حالا من بلادهم بحيث اذا رؤى أحد الافراد في تلك البلاد ليلا في منعرج احدى الطرقات يجمع قليلا من الاحطاب لطهي طعامه عرض نفسه لخطر الوقوف امام القاضي في اليوم التالى بل للذهاب الى السجن . واني لاذكر جيداً ان سامعي أبوا أن يصدقوا وجود مثل هذا الاستبداد في أى بلد من بلاد العالم وكان الاستنتاج الذى وصلت اليه من هذا الحادث البسيط أول خاطر سياسي اتذكره بالنسبة للاشياء الشرقية

أما الشتاء التالى — أي الاشهر الاولى من سنة ١٨٧٤ — فقد قضيناه في بلاد الجزائر . وهنا اشتركنا في منظر آخر خولنا فرصة التفكير ، وهو منظر استعباد شعب شرقي استعباداً عنيفاً بواسطة شعب غربي . فان الحرب السبعينية التى جرحت فيها فرنسا أعقبتها ثورة عربية في بلاد الجزائر امتدت ألسنتها حتى بلغت أطراف العاصمة نفسها وعندئذ بدأ الاهالى المسلمون يجربون عنف وسائل القمع المسيحية . وقد ظهر هذا القمع باشنع مظاهره في الجهات التى امتدت الثورة اليها أى في المستعمرة الحقيقية حيث انتهزت الادارة الملكية فرصة اشتعال الثورة لمصادرة أملاك الاهالي والتحيز للمستعمرين الاجانب على حساب أصحاب البلاد . وبالرغم من حبي الشديد لفرنسا (وقد كنت مقيما في باريس خلال الحرب السبعينية وكنت شديد التحمس في الدفاع عنها أثناء الحصار) رأيت عواطفي كلها في صف العرب . أما في الصحراء — فيما وراء جبال الاطلس — حيث ساد الحكم العسكرى فقد كانت الاحوال أحسن نوعاً لان الضباط الفرنسيين هناك كانوا على العموم أكثر تقديراً لصفات العرب النبيلة وأشد احتقاراً للحثالة المختلطة الاوربية — الاسبانية والايطالية والمالطية والفرنسية — التي تتكون منها « الجالية » . كذلك كانت القبائل الكبرى في الصحراء في حالة رخاء مادى ومحتفظة بقسط كبير من فخر الاستقلال القديم مما لم يسع القادة العسكريين سوى احترامه . وقد اختلسنا النظرات لاولئك الاعراب وهم في « جبل عمور » وأبصرنا طريقتهم القوية في الحياة فسرنا كل ما رأيناه منهم . ثم أصغينا الى أغانيهم في امتداح بطلهم الراحل « عبد القادر » ، ومع أننا لم نفهمها نظراً لجهلنا لغتهم فقد أعجبنا بهم

وأشفقنا عليهم . ولم تفتنا ملاحظة الفارق الكبير بين حياتهم الدينية تصحبهم جمالهم وجيادهم ، وهي حياة تقاليد عالية مملوءة بذكرى أعمال البطولة وبين الانحطاط الاخلاقي الدني، للمستعمرين الفرنسيين وحاناتهم ودور الدعارة . كما أثار فينا ذلك المنظر عاطفة الغضب لعدم التناسق بين هؤلاء الاخيرين سادة البلاد وأولئك الذين يعتبرون خدماً لهم . وكان هذا بمثابة درس سياسي جديداً أثر فى أشد تأثير ولو أنى ظللت أعتبره أمراً لاعلاقة له بشخصي بحال من الاحوال .

ذلك كان التدريب التحضيري فى حياتي السياسية وتلك كانت ظروفه الاساسية عند ما زرت مصر أول مرة كما قلت في شتاء سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ . والمسألة الوحيدة الاخرى التي قد تستحق شيئاً من التفسير والايضاح وخصوصاً لقراء غير الانجليز ، وهي مسألة ستقدرها أوربا قدرها، هي أن قرينتي «اللادى آن بلنت » التى صحبتني في سائر هذه الرحلات كانت حفيدة شاعرنا الوطني الطائر الصيت (اللورد بيرون) وبهذا ورثت عنه شيئاً من العطف على قضية الحرية فى الشرق وهو عطف ترك أثره في أعمالنا اللاحقة فقد بدا لنا فى أثناء وقوع حوادث سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ . ان مؤازرة الحركة العرابية يعتبر عملا مجيداً كالذى مات فى سبيله بيرون فى سنة ١٨٢٧ . ولم يدر بخلد أحد منا نحن الاثنين حتى الآن — أى فى سنة ١٨٧٥ — ان زيارتنا لمصر ستكون شيئاً غير مجرد رحلة لذيذة أخرى فى بلاد الشرق . وكانت خطتنا عند مغادرة انجلترا أن ندخل مصر من الجنوب عن طريق سواكن وكسلا والنيل الازرق ثم نسافر شمالا الى القاهرة فندخلها فى الربيع . ولكن هذه الخطة لم تتحقق — نظراً لسير الحملة الحبشية الذى كان وقتئذ لغير مصلحة مصر — ولم يتحقق سوى جزء واحد من الخطة الاصلية . فبدلا من النزول في الاسكندرية كما كانت العادة المتبعة حينئذ دهبنا من طريق القنال الى السويس حيث وطئت أقدامنا الاراضي المصرية أول مرة

وكل ما أتذكره وقتئذ عن مصر هو اختراقنا لبحيرة المنزلة في آخر يوم في سنة ١٨٧٥ — وكانت وقتئذ وطناً آمناً لطيور لا حصر لها — وهو منظر عجيب حقيقة

للحياة الطبيعية المصرية فى طريقنا إلى نقطة واقعة على القناة شمالى الاسماعيلية . فلله ما كان أبهج ذلك المنظر ! ان بحيرة المنزلة كادت وقتذاك ان تكون منطقة عذراء وقد فاقت أسراب البشروش والبط والبجع وأبي قردان التي غطتها كل ما يتصوره العقل عن كثرتها . بل ان المياه أيضاً ، مياه البحيرات ومياه القناة نفسها ، كانت غاصة بالاسماك ذوات الحجم الكبير حتى أن سفينتنا اصطدمت بالكثير منها أثناء اجتيازها البحيرة بينما كانت من جهة أخرى عرضة للبزاة والاغربة التي كانت واقفة على العوامات والساريات تربصا بمريسنها . وأحسب أن انسياب مياه البحر أول مرة على أراض لم تكن من قبل مغطاة بالماء مكن السمك من التمتع بتربة ذات خصوبة شاذة وهذه مزية فات أوانها منذ ذلك الحين ولكن الشيء الثابت هو أن السمك والطير أخذا في التلاشي بعد ذلك بسرعة حتي أنه لا يحتمل على ما يظهر أن تمتع أعين السياح ثانية بالمنظر البديع الذى شهدناه فى ذلك الشتاء

ثم نزلنا في السويس في الايام الاولى من عام ١٨٧٥ فكان أول ما قابلنا نبأ الأنهزام الشنيع الذى نزل بالجيش المصرى في بلاد الحبشة . ولم تكن تفاصيل الهزيمة قدعرفت بعد ولكن يظهر أن سبع اورط أو فرق من جنود الخديو قد أبيدت على بكرة أبيها وتناقلت الالسن اشاعة فحواها أن ابن الخديو – الامير حسينا – وقع في الاسر وان العدو شوهه تشويها . وهذه اشاعة ظهر كذبها فيما بعد لان الامير ، وكان صبيا في ذلك الحين ، خطف فقط من ساحة القتال في جهة (قور) في طليعة النهار قبل الانهزام كما حدث لنفس راتب باشا قائد الجيش المصرى الذى كان الامير في عهدته . وفقد (لورنج باشا) القائد الامريكي حياته فعلا مع بضعة آلاف من الجنود . وبهذه الهزيمة انتهت أحلام الخديو اسماعيل فى انشاء امبراطورية شاسعة الاطراف على ضفاف النيل . وأثرت هذه الهزيمة في خطتنا الصغيرة فجعلت سفرنا بطريق كسلا ضربا من المستحيل علينا وقضت بان نسافر عن طريق آخر أقل خطورة ألا وهو طريق الوجه البحرى

وكنا شديدى الرغبة فى رؤية مصر باقل كلفة مما يراها به السائح العادى .

ونظراً لانه كانت لدينا الخيام اللازمة للرحلة الطويلة استأجرنا جمالا فى السويس وقصدنا القاهرة عن طريق القوافل القديم . وليس من الضرورى أن أقول شيئاً كثيراً عن رحلتنا في الصحراء . فالايام الاربعة التي قضيناها فيها مع الجمالين البدو كانت أول درس عملي لنا في اللغة العربية — لاننا فى بلاد الجزائر كنا تحت رحمة المترجم — كما أنها وضعت أساس علاقاتنا مع القبائل فى صحراء بلاد العرب ، وهي علاقات أصبحت فيما بعد لذيذة ومتينة . ثم وصلنا الي القاهرة فى صبيحة اليوم الخامس

فعند وصولنا الي العباسية حيتنا رصاصات الجنود المصرية وهي فى أثناء التمرين لاننا ضربنا الخيام فى الظلام وبدون علم منا وراء أهدافهم مباشرة . وكانت رماية الجنودغير محكمة فلم تحدث إصابة . ولم يخطر ببالنا وقتئذ أننا قد نهتم يوماً ما بأفعال أولئك الجنود بصفتهم جيشاً أو أن تتجه اليهم يوماً ما عواطفنا فى حرب طاحنة ضد مواطنينا . وكنت وقتئذ ممن يؤمنون ولكن فيغير تحمس بالعقيدة الانجليزية الشائعة ألا وهي أن لانجلترا فى الشرق مهمة سماوية وأن حروبنا هناك لم تكن الا من أجل أغراض نزيهة صالحة . ولم يكن شيء أبعد عن ظني من أن نكون نحن معاشر الانجليز مجرمين بانتهاك حرمة العدالة بالسلاح لمجرد أهوائنا ومصالحنا الانانية

كما لا ينبغي أن أقول شيئاً بالتفصيل عن القاهرة التى اجتزناها ذلك اليوم دون أن نمكث فيها غير بضع دقائق للسؤال عن بريدنا فى دار القنصلية . وكان غرضنا أن نري الجهات الريفية لا أن نضيع الوقت فى مدينة هي أوربية فى طريقة حياتها . وقد ظننا أننا سنجد فيما وراء النيل مباشرة أرضاً موافقة نضرب بخيامنا فيها ولذلك واصلنا السير ولم نفهم توسل الجمالين الينا كي نحط الرحال وندعهم وجمالهم يعودون الى بلادهم كما لم ندرك اننا كنا نسيء اليهم بحملهم علي نقض العادات المتبعة عند القبائل التى يحظر عليهم بعضهم من بدو الصحراء الشرقية تخطيها الى الصحراء الغربية . وبالرغم من الحاحهم واصلنا السير عن طريق كوبرى قصر النيل ومن ثم

الى طريق الجيزة . وحينئذ لمحنا الاهرامات عن بعد فأممنا نحوها بتلهف واشتياق ولم يمنعنا من ادراكها الا اختفاء الضياء الذى خيم علينا وقت غروب الشمس بالقرب من قرية «الطلبية» الصغيرة التى ليس بينها وبين الاهرامات الا قرية أخرى . وهناك حططنا الرحال أول مرة علي تربة النيل السوداء ولم تكن قد جفت بعد من فيضان الخريف . فقابلنا أهالى « الطلبية » الاجواد بكل اكرام كما هى عادتهم . ومع أنهم يعيشون فى طريق السائحين إلى الاهرامات وقد اعتادوا أن يعاملوا السائحين الفرنسيين كما لو كانوا فريسة لهم فان نزولنا فى قريتهم لقضاء سواد الليل أعطانا صفة الضيوف . ولم يحدث قط أن وقف بمنازلهم شخص واحد من جميع الاوربيين الذين مروا بقريتهم طول السنين الخالية . ولذلك كانت علاقتنا معهم ودية من بداية الامر . وقد خدمتنا هذه الصدفة فى تعريفنا إلى قرويين آخرين عند ما استأنفنا المسير من جديد بعد قضاء بضعة أيام بين هؤلاء . ولم يكن أمامنا في ذلك الوقت إلا الشك حيث كنا لان الجمالين رفضوا بتاتا مرافقتنا خطوة أخرى فدفعنا لهم أجورهم فقفلوا راجعين إلى ديارهم تصحبهم جمالهم فتعين علينا استئجار جمال اخرى . وعلى ذلك قضى القدر بأن أقضى الاسبوع الاول فى مصر باحثاً منقباً عن الجمال فى أسواق القرى المجاورة ثم اشتريت السروج والقرب وسائر المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة

وكان الفلاحون فى ذلك الوقت فى أشد حالات الضنك . وكان هذا هو العام الاول من الثلاثة الاعوام الاخيرة المروعة فى حكم الخديو اسماعيل . وكان المفتش اسماعيل صديق المشهور لا يزال فى أوج عزه وحملة القراطيس الاجانب يجأرون مطالبين بدفع الاقساط « الكوبون » والمجاعة على أبواب الفلاحين . وكان من الامور النادرة فى تلك الايام أن يرى الانسان شخصاً فى الحقول وعلى رأسه عمامة أو على ظهره شيء أكثر من قميص . وحتى فى ضواحي القاهرة وبالاكثر فى الفيوم التى يمما بوجوهنا شطرها بمجرد حصولنا على الجمال ، يمكنني أن أقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عباءة . وأينما ذهبنا كانت

المال كذلك . وعصت مدن الارياف فى أيام الاسواق بالنساء اللاتى أتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الاروام لان جامعي الضرائب كانوا فى قراهن والكرباج مشهر فى أيديهم . فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة وأصغينا الى قصصهن واشتركنا معهن فى استنزال اللعنات على الحكومة التى جعلتهن عرايا . ولم يكن فهمنا وقتئذ — أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم — ذلك الضغط المالى الآتى من أوربا والذى كان السبب الحقيقى فى هذا الضيق . وعلى ذلك جاريناهم فى القاء اللوم كله على اسماعيل باشا واسماعيل صديق دون أن يخامرنا شك فى أن الانجليز أيضاً يقع عليهم جانب من اللوم

وكان القرويون فى منتهى الصراحة . وكان الانجليز وقتئذ محبوبين فى سائر البلاد الاسلامية لان الناس كانوا يظنونهم بعيدين عن الدسائس السياسية المعروفة عن الفرنسيين وكانوا يعتبرونهم أكثر من هؤلاء أمانة ونزاهة فى معاملاتهم التجارية . وفى الواقع أن الانجليز كانوا فى مصر على النقيض مما كان المخاطرون من حثالة الامم الواقعة على شواطىء البحر الابيض المتوسط كسلفى النقود الطليان والاروام والمالطيين الذين كانوا يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين . وكانت ثمة إشاعة بلغت القرية عن احتمال تدخل من جهة أوربا وكانت فكرة التدخل غير مكروهة على شرط أن تكون انجلترا هي التى تنفذها . وكانت الحالة مما لا يمكن احتماله ولذلك كان الاهالى البائسون ينظرون بعين الابتهاج لاى تغيير أملا فى أن يكون فيه خلاصهم . وقد ظهرت انجلترا فى نظر الفلاحين وهم فى حالة تسول فعلي وبعد أن جردوا من أمتعتهم وضربوا حتى كادوا يموتون جوعاً بمظهر العناية المحسنة والصديقة الغنية البعيدة عن الاغراض المنصفة للمظلومين والصديقة للمقهورين فكانت في نظرهم صورة طبق الاصل مما كان عليه معظم السائحين الانجليز الذين كانوا يروحون ويغدون وقتئذ وأيديهم ووجوههم طافحة بعلامات العطف . وهكذا لم يخامرهم الشك فى الاطماع التجارية المائلة التى دفعتنا — كأمة الى اعلان العدوان على الشعوب المستضعفة فى سائر أنحاء العالم

وفى عام ١٨٧٦ كنت أنا أيضاً — كما قدمت — ممن يؤمنون بانجلترا كما

كنت أدين بالعقيدة الذائعة وقتئذ عن حكمها فى الشرق وكان جل ما أتمناه لمصر أن تشترك مع الهند — التى لم أكن رأيتها بعد — فى التمتع بحمايتنا.
وقد كتبت وقتئذ فى مذكراتي مانصه : « إن المصريين شعب طيب أمين ككل شعب حر فى العالم . ثم كل المصريين أى الذين لا يتربعون فى الوظائف العالية لانني لا أعرف شيئا عن هؤلاء . فكل المصريين القرويين لديهم كل الفضائل اللازمة لجعل الجماعة سعيدة ناعمة البال فهم عاملون مبتهجون طائعون للقوانين ثم هم فوق كل شيء مستقيمون لا فيما يختص بالمشروبات الكحولية فقط بل فى كل الملاذ التى تجنح اليها الطبيعة البشرية . فهم ليسوا مقامرين ولا مشاغبين ولا محبين للدعارة والتهتك . وهم يحبون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم . وهم آباء وأبناء صالحون كثيرو الشفقة على العجماوات والزمني والمتسولين والمعتوهين . وهم خلو من كل تعصب جنسي وقد يكونون خلوا من التعصب الديني أيضاً . وغلطتهم الكبرى هي حب المال ولكنها غلطة يستطيع دهاقنة الاقتصاد السياسي التسامح فيها . وقد يصعب أن يعثر الانسان فى أى جهة على شعب أكثر استعداداً من المصريين لادراك الغاية الاقتصادية لاكبر سعادة تشمل أكبر عدد . فكل مطامعهم هي أن يعيشوا ويدعوا غيرهم يعيش وأن يسمح لهم بالعمل والاحتفاظ بنتاج أعمالهم وأن يبيعوا ويشتروا بدون تدخل وأن يفلتوا من الضرائب . ولقد أسيئت معاملتهم وذاقوا الامرين منذ قرون عديدة دون أن تتغير طيبة قلوبهم . وهم ليسوا بالمتحمسين في الوطنية ولا بالمتعصبين ولا بالاسخياء الي درجة الخيالات . ثم أنهم خالون من المعايب الشائنة فكل رجل منهم يعمل لنفسه أو لأسرته على الاكثر أما فكرة التضحية الشخصية للمصلحة العامة فغير مفهومة لديهم ولكنهم بريئون من الدسائس لاستعباد أقرانهم . وبالرغم من الاضطهاد الفظيع الذين هم ضحيته لم نسمع كلمة ثورية وليس ذلك ناشئاً عن أنهم يقدسون حكامهم تقديساً خرافياً بل لان الثورة ليست فى طباعهم أكثر مما هي فى طبائع قطيع من الغنم . وانهم ليحبون ملكة انجلترا أو البابا أو ملك

الثاني بلهف متساو لو أن هؤلاء حاءوم بنعمة تخفيض عبء الضرائب بمقدار قرش فى الجنيه

تلك كانت خواطرى الاولى عن مصر فى بدء عام ١٨٧٦ وهي صحيحة فى مجموعها غير أنني كنت بعيداً عن نمو الافكار السياسية فى المدن فلم أعرفه . كما أنى لم أفهم تأثير المسالة الاوربية فى المشاق التي كان الفلاحون يشكون منها . ومع ذلك رأيت عند عودتنا الى القاهرة في شهر مارس شيئاً مما يجرى وراء الستار . لأن لجنة « المستر كيف » كانت قد وصلت فى إبان تغيبنا وحطت رحالها في احد القصور الواقعة في شارع شبرا . وقد عرفت من أحد أعضائها « فيكتور بكلي » الموظف بوزارة الخارجية والذي كان صديقا قديما لى ومن « الكولونيل ستاونتون» فتصلنا العام شيئاً عن الشؤون المالية . وانضم الى أعضاء اللجنة المالية فيما بعد صديق آخر هو « السير ريفرز ولسون » الذي قدر أن يلعب دوراً مهماً فى الشؤون المصرية . ولست بحاجة لان أثبت هنا تفصيلا التقرير الذي وضعوه عن حالة مصر . وقد يساعد على فهم الحالة أن أذكر بالاجمال كيف تألفت هذه اللجنة التى هي الاولى من نوعها

فقد بدأ حكم الخديو اسماعيل فى وقت بلغ فيه رخاء مصر المادي درجة عالية . وكان سلفه سعيد رجلا متنورا قدم للفلاحين كل ضروب التشجيع في المسائل الزراعية . وكان قد تنازل عن دعوي الخديو فى أن يكون وحده مالك الاراضي فى وادى النيل واعترف بحقوق الملكية للأهالي وقضي بان تكون ضريبة الاراضي زهيدة أي ٤٠ قرشاً عن الفدان . فأدى ذلك الى رخاء الاهالى بصفة عامة وأصبح الفلاحون فى كل جهة بعد تحررهم من حالة العبودية القديمة التى وضعهم فيها باشوات المراكبة يدخرون الاموال . أى أن مصر فى نهاية حكم سعيد لم تكن فقط أسعد ولايات الامبراطورية العثمانية بل كانت من الوجهة الزراعية فى طليعة الامم الناهضة فى الشرق . وكان ايرادها كان أقل مما هو الآن — لا يزيد علي أربعة ملايين من الجنيهات — وكان يجمع بمنتهي السهولة

ثم كانت نفقات الادارة زهيدة جداً وكان الدين الاهلي لا يتجاوز ثلاثة ملايين من الجنيهات . ثم أن سعيداً فى أواخر حكمه منح امتيازات غير قليلة لبعض الأفاقين الاجانب بشروط أصبحت تدريجاً حملا ثقيلا على عاتق الدولة ولكن الرخاء العام فى البلاد كان كبيراً الي حد أن هذه الشروط مما يحتمله نظام الضرائب الخفيف حتى أن الخديو كان لديه بعد دفع سائر النفقات السنوية ما لا يقل عن نحو مليوني جنيه لمصروفاته الحرة . وفى الواقع لم تشهد مصر فى جميع أطوارها مثل ذلك العصر الذى بلغ فيه الاهالي ذلك الحد من الرخاء المادى حتى أن الفلاحين أصبحوا يسمونه « العصر الذهبي » فكان اسماعيل عند تبوئه العرش فى عام ١٨٦٠ أوسع الامراء المسلمين ثروة وحكماً فى بلد يعتبر فى مقدمة البلاد الاسلامية رخاء ويسراً

وكانت أخلاق اسماعيل قبل أن يتبوأ العرش أخلاق رجل واسع الثروة يتبع فى ادارة ضياعه الشاسعة فى الوجه القبلي أحدث الانظمة الزراعية . وكان موضع اعجاب السائحين الاجانب بسبب الآلات الزراعية التي أدخلها والمصروفات التي جعلها تعود بالفوائد . ومما لا ريب فيه أن اسماعيل له أكثر من النصيب العادى من الذكاء الطبيعي والاستعداد التجارى اللذين اشتهرت بهما أسرة محمد علي. وكان اعتلاؤه العرش موضع دهشة له لأنه لم يكن ولي العهد المباشر الي ما قبل وفاة سعيد ببضعة أشهر وكانت آماله آمال رجل مثر . وربما كانت نفحة القدر هذه نفحة غير منتظرة فى أول حكمه هي التي دفعته الى الاسراف . واذ كان ميالا بطبيعته الي المضاربة وشديد الشره فى جمع الاموال فقد حسب — على ما يظهر — أن ميراثه هذا وتمتعه الفجائي بهذا السلطان المطلق ليسا الا وسيلة لتكديس ثروته . وفى الوقت نفسه كان شديد العجب ولعاً باللهو فضاع صوابه بهذا المركز السامي وبالفرصة التي أصبحت سانحة له كي يظهر أمام العالم بمظهر الامير الواسع الثروة . وبدا حال أحاط به المملقون على اختلاف أنواعهم من وطنيين وأجانب فوعدوه أن يجعلوه من جهة أغنى الماليين ومن جهة أخرى أعظم الحكام الشرقيين شأناً .

رجاله ذكاؤه ومهارته التجارية فى اصغائه لهؤلاء الناصحين الذين جعلوه آلة فى أيديهم . وكان قبل تبوئه العرش قد حذق مهنة جمع الاموال بالطريقة التى كانت الاموال تجمع بها وتقتند في مصر ثم انه كان قد تربى تربيـة أوربية — وهي من نوع التربية التي يحرزها الشرقيون فى شوارع باريس — أي تربية سطحية فيما يختص بالامور المدنية فكانت هذه التربية كافية لاقناعه بمقدرته على مقاتلة أشرار البورصة بنفس سلاحهم . ولـكنه لسوء الحظ ضل السـبيل فى كلا الحالين .

وكانت مناورته الاولى بسيطة وناجحة فى آن واحد . وذلك أنه وجد الايراد المتجمع من ضريبة الاراضى قليلا فرأى أن يزيده برفع الضريبة بين آن وآخر فرفعها من ٤٠ قرشاً عن الفدان — وهو المقدار الذى كان معمولا به عند تبوئه العرش — الي ١٦٠ قرشا ولا تزال كذلك إلي الآن . وكانت البـلاد فى أوائل حكمه فى رخاء وانتعاش فاستطاعت فى البداية أن تحمل ذلك العبء الاضافى أى أن الناس كانوا يدفعون هذه الزيادة من الاموال التي زادت عن حاجتهم وقد استمروا على ذلك بضع سنين دون أن يشعروا بغضاضة ما . بيد أن رفع الضرائب لم يكن سوى جزء من برنامج اسماعيـل الجشع . وقد ذكره مملقوه الوطنيون بان الاراضى برمتها كانت فى عهد جده ملكا خاصاً للوالي وأن محمد علي ظل الي عدة سنوات صاحب الامتياز فى تجارة مصر الخارجيـة فعول على احياء هـذه الحقوق فى شخصه . ومع انه لم يجترىء — فى مواجهـة الاجانب — على مصادرة الاراضي مصادرة علنية فانه أدرك غايته من طريق آخر وبسرعة مدهشة حتي أن خمس الاراضى الزراعيـة في القطر المصرى أصبح ملكا له ولمـا يمض على حكمـه سوى بضع سـنوات . وكان طريقه فى ذلك الارهاب والضغط الى أن تصبح الاراضي التي يريد اغتصابها عالة علي أصحابها وتضيق فى وجوههم المسالك فيضطروا الى التخلص منها بأثمـان زهيدة . وقد حصـل بهذه الوسـيلة كما قلت على أراض شاسعة وظن أنها ستـكون مصـدر ثروة عظيمة له . ولـكن جشعه هذا كان سبباً فى افلاسه فقد ظهر من الوجهة العملية أن أطيانه لمـا كان من صغار الملاك كانت

ندار ادارة حسنة وعادت عليه بربح كبير عكس هذه الاملاك الواسعة التى فتحت عليه أبواب الخسارة من عدة طرق . فعبثاً أنفق الاموال الطائلة فى شراء الآلات الزراعية . وعبثاً فرض علي قرى وجهات بأسرها إمداده بعمال السخرة . وعبثاً أنشأ المصانع فى أراضيه وجلب لها المديرين الاجانب بمرتبات فادحة . وقد نهبه أعوانه فى كل جهة الى حد أن المال الذى جمعه من هذه الاراضى كان أقل بكثير مما كان يحصله منها من الضريبة عندما كانت ملكاً للأهالى . وكانت هذه باكورة متاعبه المالية لأنها صادفت هبوط أسعار المحصولات وخصوصاً أسعار القطن فجاءت ضغثاً علي ابالة كما أنها كانت باكورة افلاس الفلاحين الذين أثقلهم بمختلف الضرائب غير المنظمة لسد عجزه . وكان اسماعيل صديق المفتش المشهور ساعده الايمن فى هذه السياسة الخرقاء

ولم يمض غير قليل حتي اوقع اسماعيل نفسه فى أيد أشد فتكا وتوغل فى مشروعات أبعد خطراً من مشروعاته السابقة . فاننا اذا تركنا جانباً الأموال الهائلة التي بددها يميناً وشمالا كأنها المياه علي ملاذه الشخصية، وحماقته فى بناء القصور ، وطيشه مع النساء الاوربيات ، وخرقه فى إقامة الحفلات الملوكية ، ادانركنا كل ذلك جانباً فانه كانت توجد إلى جانبه مشروعات أخرى عظيمة تكفى لاستنزاف خزانة أية مملكة فى العالم . فليس يعرف أحد بالدقة كم أنفق اسماعيل من الملايين فى الاستانة للحصول علي لقب الخديوية ولتغيير نظام الوراثة لمصلحة ولده ، ولكن يحتمل أن يكون قد دفع مبالغ طائلة . وهذا عدا الاموال الجسيمة الاخرى التي أنفقها فى مضاربات خرقاء وفى تعهدات قطعها علي نفسه مع بعض الشركات الاجنبية . وأخيراً كانت هناك حملة النيل الأعلى ومحاولته فتح مملكة الحبشة . ولكيما يجد الأموال الكافية لكل هذه المشروعات التجأ إلي الاقتراض أولا بمقياس صغير من أصحاب المصارف المحلية أى من أروام الاسكندرية ثم فيما بعد ، بشكل أشد طيشاً من البورصات الاوروبية وكان نوبار باشا صديق السوء فى مشروعاته هذه . ونوبار هذا عمول أرمني — أصبح بفضل جهل طبقة معينة من المصريين بالتاريخ يلقب « بالمصرى الوطنى » فى حين أنه الوحيد الذى يتحمل بعد اسماعيل أكبر مسئولية عن خراب

مصر المالي فقد أرسله سيده للبحث عن الأموال بأى سعر للانفاق على حاجاته الباهظة . فعقد له فى اوربا القرض تلو القرض بشروط جعلته لا يستلم أكثر من ٦٠ فى المائة من المبالغ التي استدانها بينما استولي بونار على عدة من ملايين الجنيهات باسم السمسرة . فقد ثبت أن اسماعيل لم يستلم سوى ٥٤ مليون جنيه تقريباً من الديون التى بلغت ٩٦ مليونا

وفى الوقت الذى كنت أكتب فيه ذلك لم يكن اسماعيل قد عقد اتفاقاته الكثيرة بيد أن فوائد الدين بلغت أربعة ملايين من الجنيهات سنوياً فللحصول على ايراد كاف لتسيير دفة الادارة ولتمويل الحرب الحبشية أصبحت أموال الفلاحين تنهب منهم تحت ضغط الكرباج . فالذين يتكلمون الآن بخفة فيصفون اسماعيل بأنه لم يكن مجرماً بل كان أميراً يستحق بعض الرحمة والعطف لبيعه البلاد مالياً إلى المموِّلين الاجانب انما يجهلون الحقائق ولا يدركون تمام الادراك مبلغ الخراب الذى أنزلته حماقته وأنانيته برعيته الفلاحين . فلقد ثبت بصفة قاطعة أن حكم اسماعيل كلف مصر نحو ٤٠٠ مليون جنيه . وعندى أنه ليس ثمة مبالغة في هذا التقدير لانه يشمل كل ما ادخره الفلاحون في سني الرخاء العديدة وجميع دوابهم تقريباً وهذا عدا الدين العام . وفضلا عن ذلك خلف اسماعيل الفلاحين مدينين شخصياً لمرابى الاروام وغيرهم بما يقرب من عشرين مليونا من الجنيهات

تلك كانت أسباب تعاسة مصر كما وقفت عليها في القاهرة فى ربيع عام ١٨٧٦ أما فيما يختص باصل تدخلنا المالى فهو يرجع بلا نزاع الى حماقة اسماعيل فى ذلك العهد لا الى أى دافع سياسي — على ما أعلم — من جهة انجلترا . فقد طلب فى خريف سنة ١٨٧٥ بواسطة « الكولونيل ستاوتون » أن تساعده الحكومة الانجليزية ماليا وبشكل لا مناص معه من أن تتخذ تلك المساعدة صفة سياسية . والسبب الذى دعاه الى تفضيل انجلترا على فرنسا واتمانها على سره هو أنها كانت أقدر من فرنسا على مساعدته ، لأن الحكومة الفرنسية كانت لا تزال تئن من نفقات الحرب السبعينية فكانت عاجزة عن مساعدته بأية طريقة عملية . أضف الي ذلك —

كما قدمت — أن الصداقة القديمة بين انجلترا وتركيا وامتناع الانجليز الى ذلك الحين عن الدسائس التجارية فى مصر ربما أقنعاه هو وغيره من مسلمي الشرق بأن انجلترا دولة بعيدة عن المطامع والغايات فيما يختص بالامبراطورية العثمانية . وبما أن خطة الحكومة الفرنسية فى مسألة قناة السويس بوجه خاص كانت موضع الشك فقد كان من الطبيعي عند ما وطد عزمه على بيع حصته فى أسهم القناة أن يعرض ذلك على انجلترا لا على فرنسا . وانى لاذكر جيداً الأثر الذى أحدثته هذه الصفقة فى انجلترا وقتذاك فانها لم تقابل بالرضاء العام بل أن كثيرين لاموا « دزرائيلي » أشد اللوم على توريطه الحكومة فى مسألة كان من المحتم أن تكون لها نتائج سياسية . والامر غير المعروف فى مصر — على ما أظن — هو أن قرار شراء حصة الخديو بمبلغ أربعة ملايين جنيه لم يصدر باجماع رجال الحكومة الانجليزية — لان « اللورد دربي » كان معارضاً فيه — وانما صدر على مسئولية رئيس الوزراء وحده وهو الذى اتفق — بدون استشارة أحد من زملائه المتعيين عن لندن سوى اللورد دربي — مع بيت روتشيلد على تقديم هذا المبلغ . ولا أعرف ماذا كان يجول فى خاطر « دزرائيلي » من الوجهة السياسية فى صدد هذا الشراء ولكن الامر الذى أعرفه تمام المعرفة هو أن « اللورد دربي » الذى كان وقتئذ وزيراً للخارجية لم تدر بخلده أية فكرة سياسية عدوانية بصدد الصفقة . فقد كان رأى « اللورد دربي » من وجهة السياسة الخارجية عدم التدخل بتاتاً كما أن « دزرائيلي » لم يكن قد نجح بعد فى تلقيح حزبه بآرائه الاستعمارية . وعلى كل حال فقد كانت الصفقة نذير الشر بالنسبة لمصر وخصوصاً بسبب الدور الذي لعبه فيها بيت روتشيلد . وسيظهر فيما بعد أن العلاقة المالية بين هذا البيت اليهودى الواسع النفوذ وبين مصر هي السبب الرئيسي فى التدخل العسكرى الانجليزي بعد مرور ست سنوات (١)

وكانت لجنة « المستر كيف » التى ذهبت إلى مصر بعد صفقة الاسهم مباشرة

---

(١) ظهرت منذ كتابة ذلك معلومات رسمية جديدة فيما يتعلق بشراء أسهم قناة السويس تغير السياق المذكور هنا بعض التغيير . أما الحقائق الاساسية الخاصة بعلاقة بيت روتشيلد ودزرائيلي فلا تزال كما أثبتناها هنا

من عمل اسماعيل بلا جدال . وكان الغرض الذى جال فى خاطره عند طلبه هذه اللجنة أن يستمر استخدام المنجم الجديد الذى اكتشفه ، منجم المساعدة السياسية الانجليزية ، لعقد قروض أخرى . وتحقيقا لهذه الفكرة أراد الحصول على شهادة رسمية ، فى شكل تقرير ينشر على الملأ ، بأن حالته المالية لا تزال بعيدة عن الارتباك وأنه ما برح قادراً على تسديد ديونه لتفتح البورصات الاجنبية أبوابها له من جديد . فمن أجل هذا طلب اسماعيل للكولونيل ستاونتون ارسال لجنة تحقيق انجليزية

وقد أصابت مناورته قسطا كبيراً من النجاح . وكان « المستر كيف » الذى عينته الحكومة الانجليزية لرياسة اللجنة رجلا مستقيما ونزيها على ما أعتقد ولكنه نظراً لقلة خبرته بشؤون الشرق كان من السهل أن يخدع . ثم انه كانت تنقصه الشجاعة اللازمة لمعالجة جميع الحقائق بالجرأة التى يتطلبها الموقف . وكان اسماعيل كسائر المبذرين حريصاً على إخفاء بعض حساباته عند ما جاء دور الخوض فيها ، فبمساعدة اسماعيل صديق قدم للمستر كيف ميزانية خيالية لم يتردد هذا الاخير فى قبولها . وزاد على ذلك أن ذر فى عينه الرماد فيما يتعلق بحالة الضنك التى كان الفلاحون يرزحون تحتها . وكان من خطته أن يحيط كبار الزوار الماليين الذين يريد ايقاعهم فى شراكه بمظهر الأثراء والبذخ . ولذلك قوبلت اللجنة بكل حفاوة وطاف بها مندوبوه الى حيث وضعت المعدات اللازمة من قبل وحيل بكل الوسائل بينها وبين رؤية عراء الارض . وعلى ذلك كان تقرير كيف عند نشره بمثابة وصف لبعض الحقائق فحسب

وأظن انه كان فى استطاعة كيف لو ان خلقه كان أقوى مما هو أن يتشبث بالحقيقة التى كانت فى قرار كل صعوبات مصر المالية ألا وهى ان ديون اسماعيل كانت شخصية لاعمومية فى عرف العدل بل فى عرف القانون وأنها يجب أن تحمل على هذا الاعتبار . وكان ضعف كيف فى هذه النقطة بداية التدخل السياسى لمصلحة حملة الاسهم فكان تقريره حينئذ أداة لاعتبار ديون اسماعيل ديونا

عمومية . ومع أن السير ريفرز ولسن الذى تلاه كان أقدر منه فقد كان مثله غير مدرب ولا مجرب وكان امتحانه في ذلك الوقت راجعاً على ما أعتقد الى معرفة اللغة الفرنسية . وقد عرفته حق المعرفة وعرفت كيف ولكن ليس الى هذا الحد . وبقيت المراسلات متصلة بيني وبين الاول عدة أعوام فوقفت على كل أعماله فى مصر

وآخر ما أذكره من حوادث ذلك الشتاء فى القاهرة مأدبة أدبها الخديو لكيف وأعضاء لجنته دعيت لها اتفاقا . وقد أدبت فى الكشك الخديوي القائم على سفح الاهرام وكانت من المآدب الشائقة التى تعود اسماعيل أن يبهر بها عيون الاوربيين فلم يكن يعوزها شيء مما يدل على البون الشاسع بين غنى صاحبها وفقر أولئك الذين أقيمت المأدبة فى الحقيقة على حسابهم . ومد لنا السماط على مرأى جمهور من الفلاحين الذين يكادون يموتون جوعا والذين جاء المستر كيف لانقاذهم من الخراب ، ومع ذلك لم يظهر على أحدنا انه تفطن الى هذا التناقض فأكلنا كما شئنا وشربنا أفخر الشمبانيا ومضي كل ما فى وجهه . ولم أستطع الى الآن وبعد الاحاطة بكل ما هنالك أن أدرك حقيقة الحال وما فيها من الشقاء



الفصل الثاني

لجنة السير رفرز ولسن

لما غادرنا القاهرة فى ربيع سنة ١٨٦٦ زرنا حدود بلاد العرب أول مرة ، وكان السياح الاوربيون يومئذ يذهبون من مصر الي سوريا بطريق الصحراء أكثر مما يفعلون الآن . ومن ثم عدنا الى الجمال وحياة الخيام والبدو الذين حرسونا من السويس وعبرنا القناة وقمنا بسياحة طويلة في شبه جزيرة سيناء الى العقبة ومن هذه الى القدس . ولما كنا غرباء عن البلاد التى اخترناها ولم تكن لنا معرفة باللغة العربية ولم يكن معنا مترجم وقعت لنا حوادث خطرة تسرنا الآن ذكراها ولكن لم تسرنا يوم حدوثها . منها حادثة أحسب أنها تستحق الذكر وهي حادثة غريبة تتلخص فى أننا كنا نسير على شاطيء خليج العقبة المحلى فى بعض مواضعه بصخور المرجان فوقفنا نفحص ماهنالك من الالوان المختلفة بين أرجواني وذهبي وقرمزي ونعجب بها وبالاسماك الصغيرة التى لا تحصي والتى تسكن تلك الصخور . فبينا كنت واقفاً علي حافة البحر ممسكاً ببندقيتى التى لم تكن تفارقني رأيت اضطراباً عظيماً فى الماء علي كثب مني . وقبل أن أدرك سبب هذا الاضطراب رأيت كلب بحر هائلا يترك زملاءه ويأتى علي غرة مني الي حيث وقفت فصار علي بعد ياردات مني قبل أن أدرك أي نوع من السمك هو أو أفطن الى اني أنا المقصود بهجومه . ولم أكد أتمكن من دفع بندقيتى حتى انقلب علي جنبه — كدأب هذا النوع من السمك — وأخرج نصفه من الماء لينقض علي . وكان قد صار قريباً مني فقتله الطلق الذى سددته نحوه ولم تبق حاجة لطلق آخر يجهز عليه . ثم استطعنا بمساعدة حرارة أن نسحبه الى الشاطيء وكان طوله يبلغ عشرة أقدام تقريباً . ولا شك عندى فى انه كان يجري من الصخرة الى البحر لو أني تهاونت فى شأنه . وقد

ذكرني هذا الحادث بالخطر الذي طالما استهدف له فلاحو مصر من التماسيح في النيل الاعلي . وقد صرت شديد الحذر فيما يختص بالاستحمام فى البحر من ذلك الحين

واتفقت لنا مصاعب أخرى مع بعض الاعراب فى طريقنا لا لشيء غير جهلنا باحوال الصحراء وعاداتها . فلما ضربنا الخيام فى ظاهر العقبة زارنا ابن جاد شيخ العلويين المعروف وهم فرع من عرب الحوايطات . وكان له حق حراسة السياح الى بطره فقادنا الجهل الى إساءته فكانت النتيجة أن قمنا بلا حرس ولا دليل وليس معنا من أهل هذه المنطقة الا علامين عربيين تبعانا من جبل سيناء ولم يعرفا شيئاً عن المنطقة الشمالية . فهم هذين الغلامين حازفنا بالسفر شمالا الى فلسطين ومن ثم نفد منا الماء . وقد وجدنا الآبار التى هدانا اليها حسن الحظ جافة . وبعد معاناة أشد الصعوبات تحت شمس محرقة بلغنا حلة عربية وقد ساءت أحوالنا فى احدي الليالى الى حد أن قررنا أن نترك أمتعتنا ونهيم علي أحسن جمالنا لننقذ حياتنا بالوصول الى البقاع المأهولة اذا نحن لم نعثر على ماء حتى ظهر اليوم التالى . ولكن نهيق حمار أنبأنا باننا على مقربة من حلة قبل الموعد المضروب بساعة واحدة. ثم نظرنا طفلا عربياً جاثيا على كثيب من الرمل فعلمنا منه بالاكراه والتهديد مكان النبع الذى يستقون منه

وكان هذا النبع مجرى بديعاً من ماء المطر يجرى فى تجويف الصخور . وهنا لبثنا طويلا فروينا ظمأنا وملأنا قربنا . وكان عرب العزيزية أصحاب المكان بعيدين عنه لحسن الحظ والا فاني أشك كثيراً فى أنهم كانوا يسمحون لنا بان نأخذ ما شئنا من هذه « النعمة الالهية » لانهم كانوا أصحاب المكان وقد زرعوا الى جانب الماء حقلا من الشعير كما يفعل البدو فى أكثر الاحيان على حدود سوريا معتمدين على نزول المطر . أما هذا الماء فقد أعدوه للاستسقاء على أن ينضج شعيرهم . وقد غضبوا بحق حينما عادوا فاضطررنا أن نقضي الليل ساهرين نترقب خوف هجومهم علينا . ولكنهم لم يظهروا الا فى الصباح وقد ظهروا صارخين مهددين . على أننا كنا قد حملنا الجمال وكنا مسلحين تسليحاً جيداً فنفذنا السير ولم نحفل بهم ، بيد أني بعد أن عرفت البدو خيراً مما كنت أعرفهم فلست

فقك فى أنه كان فى استطاعتنا أن نجتنب التسلحن معهم بقليل من التفاهم ودفع عن اعتدائنا على حقوقهم ، اذن لاحسنوا استقبالنا ولم يحدث مكدر ، أما والحال كما كانت فقد كنا على قيد أنملة من شر جدى . ويجب أن نحمد الله على وصولنا فى اليوم التالى الى الاراضى الخضراء الواقعة بين عبران وعزة حيث أحسن العرب النازلون هنالك لقاءنا وحيث آنستنا صداقتهم الخطر الذى كان قد أوشك أن يحل بنا . وكان هذا آخر سياحتنا فى ذلك العام فعدنا فى أوائل الصيف بطريق البحر الى انجلترا .

على أننا لم نلبث أن عدنا الى الشرق فى صيف سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ببرنامج أوسع فزرنا حلب ثم انحدرنا فى الفرات الى بغداد وعقدنا علاقات المودة أثناء عودتنا مع القبائل العربيـة العظيمة النازلة فى صحراء سوريا والعراق . وكنا قد بدأنا نعرف قليلا من اللغة العربية ونفهم عادات العرب ولم نعد نقع فى مثل الخطأ الذي وقعنا فيه آنفا . ويعود قسط كبير من الفضل فى هذا الى النصائح الحكيمة التى زودنا بها المستر سكين قنصل بريطانيا فى حلب يومئذ وقد كان واسع العلم بأساليب العرب ففهمنا كيف نتقرب اليهم من نواحيهم النبيلة تاركين كل خوف من الركون اليهم كأصدقاء . وقد وفت زوجي هذه السياحة المهمة الناجحة حقها من الوصف فى كتابها « قبائل البدو على الفرات » وهو كتاب وضعناه معاً ويمكن أن يرى فيه من يعنون بالأمر آرائي الاولى فيما يختص بحرية العرب . ولم يكن عطفى على العرب فى حروبهم المزمنة مع الأتراك نتيجة أية فكرة اعتنقتها قبل ذلك ولا هو نتيجة أية خطة سياسية ولكنه كان نتيجة ما رأيت من سوء معاملة الموظفين الاتراك للعرب المقيمين فى تلك البقاع وما رأيته من رفاهية القبائل المستقلة .

وكان ذلك الوقت وقت اضطرابات محلية وكانت الحرب الروسـية التركية فى مرحلتها الاخيرة فى القرص وبلغنا . ومع ان أفضل تمنياتنا كانت للجيوش الاسلامية وضد الغزاة الروسيين فان منظر نساء السوريين والعراقيين اذ يجلدون ويساقون فى الاغلال الى شاطيء البحر أثار غضبنا على الحكومة التركية وهو غضب قواه ما كان يظهره العرب كل يوم من بغض الاتراك . ولم يكن فى طاقة أى انسان يقدر

الجريمة إلا أن يستشعر مثل هذا الغضب اذ يرى سوء حكم الاتراك لولاياتهم العربية

وهنا وصف المستر بلنت أحوال الولايات العربيه تحت الحكم العرفى ثم قال :

ولما عدت الى انجلترا فى مايو سنة ١٨٧٨ أخذنى ابن عمي « فيليب كارى » الذى كان سكرتير لورد سلسبرى الخاص وأحد كبار الموظفين ذوى النفوذ فى وزارة الخارجية الى اللورد سلسبرى ، وكان هـذا قد تسلم مقاليـد وزارة الخارجية حديثا وكان يوشك أن يوقع المعاهدة السرية التي عقدها مع سلطان تركيا (وهي الشهيرة باسم معاهدة قبرص) ولم يكن لى علم بشيء من هذا فى ذلك الحين . فأثارت سياحتي فى قلب الولايات العربية اهتمام اللورد وأراد أن يعرف مني شيئاً عن حقيقتها . وقد أجبت على أسئلته فأدليت اليه بكل آرائي بصراحة تامة وأذكر الآن بصفة خاصة ماقلته له عن احتمال استقلال سوريا ذات يوم وأنها قد تتحالف مع مصر ضد ظلم الحكومة التركية . فلم يجب على هذه الاقوال سوى قوله انه لا توجد رابطة سياسية بين هاتين الولايتين التركيتين وأن لكل منهما أحوالا ونظاماً خاصاً . وقد ظهر عليه التأثر بكلامي حين طعنت فى مشروع السكة الحديدية فى وادي الفرات وكنت أرى في هذا المشروع خطراً جديداً علي استقلال الولايات العربيـة . وقد علمت فيما بعـد أنه اقتنع كثيراً بمـا ادليت به من الحجج فى هذا الصدد وأن وزارته لم تؤيد ذلك المشروع بعد حديثى معه فلم ينفذ الى اليوم .

على أن حديثي مع اللورد سلسبري فى هذه الفرصة أقنعني من ناحية أخرى بسعة اطلاعه فى الشؤون الشرقية . ومع أن آراءه لم تكن تتفق مع آرائي فى هـذا الصدد فانى كنت واثقاً من كفاءته الشخصية وقد توثقت بيني وبينه بعـد ذلك أواصر صداقة هي وان تكن غير صميمة إلا أنها كانت ودية وقد سمح لي أن أكتب له في هذه الشؤون الى النهاية ، ومع أنه لم يوافق علي آرائى الا نادراً فقد كان دائمـا يرد علي خطاباتى بلطف أكثر مما تقتضيه التقاليد الرسمية .

على أن الخطة التى انتهجها اللورد سلسبري صيف ذلك العام من لين لم تلبث

أن يذدب كل ما عقدته من الآمال علي اقناعه بآرائي فيما يختص بالعرب فقد أعلن يومئذ أنه يضمن للسلطان سلامة كل ممتلكاته الاسيوية . ولما كانت مداولات مؤتمر برلين السرية قد أثرت في أحوال مصر تأثيراً عرضياً في الوقت نفسه فلست أجد مندوحة من أن أروي حكايتها هنا وقد عرفت حوادثها عقب وقوعها مباشرة

ويذكر القراء أن شتاء سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٧ العظيم شهد آخر مراحل الحرب بين روسيا وتركيا وان ربيع العام التالي رأى جيوش القيصر على أبواب الاستانة . وقد كان هذا العهد عهد شقاء عظيم في مصر . وكانت لجنة كيف التي شهدت وصولها الي القاهرة قد تبعتها لجان مالية أقل منها نزاهة وطهارة ذمة . وقد انتهي ذلك كله بالاتفاق المعروف باتفاق « غوشن وجوبير » الذي سويت على مقتضاه ديون الخديو ، وفي الحق أنها تسوية جبارة وضعت سبعة ملايين جنيه على عاتق الايرادات المصريه . ولم يكن الحصول علي هذا المبلغ الجسيم من الفلاحين المفلسين ممكناً الا باكراههم تحت الكرباج على ارتهان أراضيهم للمرابين اليونانيين الذين كانوا يرافقون جباة الضرائب في كل مكان أثناء مرورهم في القرى . وكان الفيضان في السنتين الاخيرتين قد جاء شديداً جداً وأصيبت البلاد بالقحط فيما بين البحر واسوان وقد قضي كثير من أهل القرى رجالا ونساء وأطفالا — جوعا — في شتاء ذلك العام الذي لم ير مثيل له من أول القرن .

وكان واضحاً والحالة هذه انه إما أن يعلن الخديو أو يخفض فوائد ديونه بعد اذ أهملت تسوية «غوشن وجوبير» ، وقد كان الحل الاول أعدل الحلين وأفضلها لخير البلاد ولكنه أهمل كرامة لمصلحة حملة الاسهم الاجانب . وقام هؤلاء بجهد نهائي نجح في هذه المرة لحمل الدول العظمي على التدخل السياسي للوصول الي تسوية أخرى بين اسماعيل ودائنيه ، وكانت الفرصة ملائمة فيما يخص انجلترا لاتفاق حدوثها في الوقت الذى عقد فيه الانجليز نيتهم بارشاد دزرائيلي على القيام بلعبة سياسية حربية تمثل دوراً هاماً في شؤون الامبراطورية التركية ، وكان لورد دربي قد تخلف عن رئيسه بعد أن قطع معه وعلى الرغم منه شوطاً في سياسته الاستعمارية الجديدة وقد استقال لورد دربي فعلا من وزارة الخارجية وخلفه فيها لورد سالسبري كما ر

بك . وقد كان ذلك دليلا على تقدم سياسي عام عبر حال من التحدى والتهديد وقد أدخل الاسطول البريطاني الي بحر مرمرة فرعب الجيش الروسي ومنع من دخول الاستانة ووضعت الحرب أوزارها على عقد معاهدة بين السلطان والقيصر تحت ضغط هذه المظاهرة الانجليزية وهي معاهدة «سان استفانو» أما من حيث مصر فقد الفت في الوقت نفسه لجنة تحقيق دولية بالاسم وانجليزية في الحقيقة وعين فيها صديق السير رفرز ولسن ممثلا لانجلترا وأحسب ان أمر تعيينه هو أول أمر وقعه لورد سلسبرى عند استلامه مقاليد وزارة الخارجية في دوسنج ستريت

ولا يغيب عن الذاكرة أيضاً انه لم يمض شهران علي ذلك حتي عقدت معاهدة سرية في الاستانة ، عقدها السير هنري لايارد وهو رجل عظيم الكفاية والدراية بالشرق وكان قد أحرز ثقة السلطان الشاب عبد الحميد . وقضت هذه المعاهدة بتأجير جزيرة قبرص لانجلترا وأعطي ضمان للسلطان بسلامة ممتلكاته الاسيوية في مقابل وعده باصلاحات تدخل في آسيا الصغرى لوجود قناصل بريطانيين متنقلين وهم ضباط يقدمون النصائح ويقدمون التقارير بالتقصيرات والشكاوي .

وكانت فكرة معاهدة قبرص في اعتبار دزرائيلي وسلسبري اللذين وقعاها ولايارد الذي هو منشئها الحقيقي ترمي لتأسيس حماية بريطانية على آسيا الصغرى وهي وان تكن غير رسمية إلا أنها لاتقل في مفعولها عن الحماية الرسمية . وكان الحصول علي قبرص في نظرهم أقل أجزاء الصفقة . وكانت هذه الجزيرة قليلة الاهمية في الحقيقة بالنسبة لبريطانيا كمركز عسكري . ولم يكن اختيار هذه الجزيرة يرجع الى صلاحيتها من الوجهة العسكرية بل الى لوثة من لوثات دزرائيلي أثارها تقرير دورى عن ثروتها أرسله اليه قنصل بريطاني ذو مصلحة في الجزيرة . وكان دزرائيلي قد وضع في سياسته قبل ذلك ببضع سنوات رواية « تانكرد » التي عرض فيها مازحا فكرة انشاء امبراطورية اسيوية تحت الحكم البريطاني وعني بادماج قبرص فيها بصفة خاصة معيداً بهذه الحقيقة التاريخ فان الملك الانجليزي رتشارد قلب الاسد كان يوما من الايام ملكا على هذه الجزيرة . وقد كانت المسألة فكاهة سياسية ولكن دزرائيلي كان يحب أن يقلب فكاهاته السياسية الى حقائق ويقنع أنصاره

الانجليز الذين كان يحترم كيهودى بغداد أعماله الخرافية واحكامها . وكان غرض لايارد الحقيق من عقد المعاهدة هو التحكم فى آسيا الصغرى من الوجهة العسكرية وهو الغرض الذى ظن ادراكه سهلا بواسطة القناصل البريطانيين المتنقلين والواقع أن هذا الغرض يمكن عزوه الي لايارد أكثر من عزوه الى سلسبرى الذى كان حديداً فى وزارة الخارجية والذى أكسبته تجاريبه فى العام السابق فى الاستانة عطفاً على الأتراك . وكان على هؤلاء القناصل أن يشرفوا على الادارة المدنية فى الولايات ويتأكدوا من أن جباة الضرائب لايبهبون الفلاحين وأن ميادين تدريب الجيوش التركية ليست مزدحمة بسبب سوء الادارة .

ومن ثم ظن بأن زحف روسيا علي البحر الابيض قد يقف عند أسيا الصغرى كما وقف زحفها فى أوربا عند سان استفانو .

واذا نحن أمعنا نظرنا اليوم فى الموقف ولا سيما بعد العلم بما تلا ذلك من الحوادث والوقوف علي طبائع السلطان عبد الحميد فليس في وسعنا الا الدهش من أن يوقع السلطان عبد الحميد معاهدة كهذه لو نفذت لوضعت تركية أسيا فى الايدى العسكرية البريطانية كما هي حال مصر اليوم . كذلك يدهش المرء من توقع وزارة الخارجية البريطانية نجاح تلك المعاهدة ويلوح له ان اللقب الذى أطلقه عليها غلادستون « بأنها معاهدة مجنونة » كان فى محله على أنه لا يجوز لنا أن ننسى أن السلطان عبد الحميد لم يكن مخيراً مع وجود الجيش الروسي على أبواب عاصمته فقد كان مضطراً لقبول التحالف البريطانى ولو كان معناه الوصاية وقد كانت انكلترا الى ذلك الحين أقامت الحجة على أنها صديق نزيه يعتمد عليه . وكان لايارد على بينة من قوة نفوذه فى القصر كما أنه كان يعرف ما لاسم بريطانيا من الهيبة فى الولايات الاسيوية . وكان للقنصل البريطانى فى تلك الايام نفوذ تام على ولاة الاتراك وسائر الموظفين منهم وكان له أن يعتقد أن نفوذه لن يكون له آخر .

والواقع أن الشرف البريطاني كان يومئذ عظيما فى نظر الأتراك وكانت السياسة البريطانية مشبعة بالعطف على المسلمين حتى أنه لم يختلج فى صدورهم أى شبهة فى أن لانكلترا مقاصد أنانية . وكان لايارد نفسه حسن الظن بالأتراك وربما كانت له

آمال فى أن يلعب فى قصر يلدز الدور الذى لعبه لورد كرومر فى عابدين . وعندى أنه من المدهش أن يغامر البريطانيون فى أحلام كهذه أو أن يثق المسلمون بنزاهة بريطانيا

وأخيراً يجب أن نذكر أنه بعد توقيع المعاهدة السرية بشهر واحد اجتمع المؤتمر الاوربي المعظم فى برلين . وقد اجتمع بناء على رغبة دزرائيلي وكان المفهوم أن يكون أعظم اجتماع أوربى منذ مؤتمر باريس . وكان غرض هذا المؤتمر كغرض سابقه تقرير مصير تركية أوربا ورعاياها المسيحيين وتعديل معاهدة سان استفانو . وقد علق دزرائيلى نجاحه كرجل سياسي على نجاح المؤتمر فى ذلك . فقد تداخلت انجلترا بدافع سام كأفضل صديق لتركيا منزهة عن الغرض على قول دزرائيلى وأصبح مقامه السياسي فى انجلترا وفى الخارج معلقاً على مصادقة الدول على مزاعمه فى هذا الصدد . وكان نجاح المؤتمر ضروريا لدزرائيلى الى حد أن ذهب اليه بنفسه كرئيس للمفوضية البريطانية وأخذ سلسبرى الذى كان الى ذلك الحين حديث عهد بالسياسة بينما مثل روسيا « غورتشاكوف » ومثل فرنسا وادنجتون وايطاليا الكونت كورتي وتولى البرنس بسمارك رآسة هذه الهيئة الفخمة وقد رافق كورى لورد سلسبرى كما رافق بروتون دزرائيلي .

ولا حاجة بى لوصف اجراءات المؤتمر العامة فهي معروفة للجميع ولكن الذى لم يذع قط من قبل هو هذا الحادث الهام الذى عرفته — كما سيأتي — بعد حدوثه بزمن قصير .

اجتمع المؤتمر يوم ١٣ يونيه وكانت الامور المطروحة علي بساط البحث علي أعظم جانب من الاهمية . ولم يكن ثمة بين المفوضين الا قليل من الشبه فيما يتعلق بامكان تقسيم تركيا فاقترح بعضهم من أول الامر أن يعلن كل مفوض بادىء ذى بدء أنه حضر الي المؤتمر غير مقيد بتعهدات سابقة فيما يختص بالمسائل المعروضة للبحث . وقد فوجيء دزرائيلي وسلسبرى بهذا الاقتراح ولم يكونا على استعداد للافضاء باعمالهما السرية مع سلطان تركيا غير أنهما لم يكن لهما من حضور الذهن ما يقويهما على رفضه فقبلاه كغيرهما بصفة رسمية وقد كان كلاهما حديثى عهد بالسياسة كما أسلفنا . ومن هنا يمكننا أن نصور جسامة الدهش وفداحة الفضيحة

الدين ثارا بعد بضعة أسابيع فى برلين حين نشرت إحدى صحف المساء فى لندن يوم ٩ يونيه نصوص المعاهدة السرية . وكان كورى قد استخدم رجلا يدعى « مارفن » تعود السياحة فى الشرق وعرف لسانه فى ترجمة النص التركي . ولم يكن مارفن هذا موظفاً فى وزارة الخارجية فكان من وراء الطيش فى استخدامه أن باع السر بمبلغ كبير الى جريدة « جلوب » فانقض نشر المعاهدة انقضاض الصاعقة على المفوضين البريطانيين فى برلين ومع أن سلطات لندن نفت صحة النص المنشور فقد كان فوق الطاقة كتمان الحقيقة طويلا فى برلين . وأصبح مفوضونا فى برلين أمام حقيقة لا يمكن تأويلها وهي أنهم خانوا عهد زملائهم الاوربيين خيانة حسية واتهموا بكذب صريح مكتوب ومسجل عليهم . وقد هدد ظهور السر مؤتمر برلين بالاخفاق بل بالانفضاض العاجل . وقد أعلن البرنس عورتشا كوف أنه أهين وشاركه فى غضبته وادنجتون وتهدد كلاهما بالانسحاب من المؤتمر وأخذ وادنجتون يحزم أمتعته استعداداً للسفر من برلين . وكان الموقف حرجا ولم تنقذه الا خدمات بسمارك المشوبة بالتهكم . وكان قد أعجب بدزرائيلي وعطف عليه لمشابهة بينهما فى خلقي التهكم والجرأة . واستطاع كوسيط أمين أن يوفق بين مفوضي فرنسا وانجلترا على القواعد الآتية :

١ — أن يسمح لفرنسا عند أول فرصة وبغير معارضة من جانب بريطانيا أن تحتل تونس كتعويض عن حصول بريطانيا على قبرص .

٢ — أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا فى التسويات المالية التي تتم فى مصر

٣ — أن تعترف انجلترا بزعم فرنسا القديم فى أن لها حق حماية المسيحيين اللاتينيين فى سوريا وعلى قاعدة تسليم دزرائيلي فى هذه النقط الثلاث . وقبل وادنجتون البقاء فى برلين والاشتراك مع سائر المفوضين فى تسوية مسائل البلقان التي تمت على قواعد الاقتراحات البريطانية تقريباً — ومن الغريب أن الثمن الذي دفعه دزرائيلي الى فرنسا وهو ولاية من ولايات حليفه السلطان مكنه من أن يعود بعد قليل الى لندن ويدعي الفوز والانتصار مفاخرا بأنه عاد يحمل « الشرف والسلام » وعندى أن هذا الحادث العجيب يجب أن يعتبر

مبدأ نبذ بريطانيا تقاليدها السياسية الجيدة في الشرق واتباعها سياسة نهب وخيانة والى دسيسة قبرص هذه يرجع مباشرة أو غير مباشرة نصف الجرائم التي ارتكبت ضد حرية الشرق وشمال افريقيا وهي الجرائم التي شهدها جيلنا الحاضر . وهي التي ألقت في روع النمسا فكرة ضم البوسنه في الحال . وهي التي ساعدت علي اخفاق تسوية صحيحة في مقدونيا . وهي التي وضعت تونس تحت أقدام فرنسا وبدأت عهد تقسيم أفريقيا بين الدول الاوربية وما يتبع ذلك من شتى المخاوف والنكبات التي حاقت بالوطنيين من بيزرتا الى بحيرة تشاد ومن الصومال الى الكونغو وفوق هذا كله أفقدت بريطانيا سمعتها الى الابد في الامبراطورية العثمانية وغيرت قلوب المسلمين عليها في عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكانت عاملا مهما في الحوادث العنيفة التي حدثت في مصر في تلك الاوقات المضطربة كما سأبين بعد . ثم انها هرمت نفس الغرض الذي رمت اليـه في تركية آسيا ان كان ذلك الغرض المعاونة حقاً علي ادخال الاصلاح .

وقد لفت عمال المؤتمر نظر السلطان الى الخطر الذي يكمن في المعاونة البريطانية وغيروا قلبه فاتبع سياسة مناقضة للمصالح البريطانية وقد نجح في سياسته هذه نجاحا تاما وقمع دعاة الحرية والحكومة الذاتية بين رعاياه والي هذا السبب تعزى المظالم التي نكب بها الاحرار في الاستانة وليس من المبالغة في شيء أن نعزى له النكبات التي حاقت بالارمن بعد ما أثار فيهم المفوضون البريطانيون في برلين آمالا كباراً وأوهموهم بأنها تتحقق بمساعدة بريطانيا الادبيـة — تلك المساعدة التي لم تكن أحوال السياسة البريطانية غير الادبية تسمح لبريطانيا بتقديمها .

أما النتيجة المباشرة للاتفاق مع وادنجتون فيما يختص بمصر فكانت ارسال تلغراف من برلين الى ولسن في الاسكندرية يتضمن أمراً شديداً أحزنه وأدهشه وهو أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا تماما في جميع التعيينات المالية ذات العلاقة بتحقيقه الرسمي .

ومع أن ولسن لم يعرف الحقيقة في ذلك الحين فقد كان هـذا سبب المراقبة

الثانية (١) — الانجليزية الفرنسية — التي وضعت على المسألة المصرية— بعد مرور عام على هذه الحوادث كانت الاحوال سائرة على هذا المنوال حين وجدت نفسي فى خريف السنة ذاتها — سنة ١٨٧٨ على طريق الشرق . وكانت سياحتي فى الشتاء السابق إلى بغداد . والنجاح الذى أدركته كان فى مسألة أهم لدى كثيراً من السياسة ، وهي شراء الخيول العربية التي كونت نواة اسطبلي المعروف اليوم جيداً فى « كرابت » — والذى أثار الفضول والتعجب فى انجلترا . ومن ثم قضيت الصيف فى اعداد جريدة ارآئي وتقديمها للمطبعة .

وكنا على كل حال قانعين بهذا وقد عقدنا النية على سياحة أشد مجازفة مما حاولنا فى الماضي وقصدنا دمشق التى رسمنا الابتداء منها واختراق الصحراء العربية الوسطي وزيارة نجد وطن الجياد العربية

---

(١) رويت حكاية ماحدث مع وادنجتون كما سمعتها من لورد ليتون فى سملا فى مايو سنة ١٨٧٩ . وكانت التفصيلات مدونة فى خطاب أطلعني عليه . وقد كتب اليه من برلين حين كان المؤتمر يعقد جلساته . أما الذى كتبه له فزميل سياسي وقد تأكدت صحة هذه الحوادث من أكثر من مصدر وإن لم تتفق جميع المصادر على تفصيلاتها بالدقة . أما فيما يختص بالنقطة الجوهرية فى الاتفاق وهى الخاصة بتونس فقد وقفني على تفصيلاتها الكونت كورتى فى سنة ١٨٨٤ وكان يمثل ايطاليا فى المؤتمر . ويؤخذ مما قاله لي أن دهش دزرائيلي الناجم من نشر نص المعاهدة السرية كان من الشدة بحيث مرض ولزم غرفته ولم يظهر فى جلسات المؤتمر أربعة أيام متوالية تاركا لورد سلسبرى يؤول المسألة على أحسن مايستطيع . وقال لي ان المفاوضات لم تقطع بصراحة بين دزرائيلي ووادنجتون وأن هذا عرض المسألة على زملائه الفرنسيين الذين اتفقوا على أن المسألة من المسائل التي لا يتنازع فيها علنا وقالوا « اما الحرب أو السكوت » وجرى الاتفاق شفويا بين وادنجتون وسلسبرى ولكنه سجل فى تلغراف كتبه سفير فرنسا فى لندن إلى لورد سلسبرى وذكره فيه بالمحادثات التي دارت فى برلين وبذلك ضمن الاعتراف بهذه المحادثات كتابة

وكانت سياحتنا البحرية من مرسيليا تمر بنا على الاسكندرية واتفق أن وجدت على ظهر الباخرة في مرسيليا صديقي السير رفرز ولسن الذي عين حديثاً وزيراً للمالية المصرية وقضيت السياحة فى صحبته . وقد استطعت فى خلال أيام السياحة الستة أن أقف منه علي كل ما حدث فى القاهرة أثناء العامين الفارطين وكانت الحكاية التى رواها لي رهيبة جداً . ومن بين الحوادث التى رواها حادثة وفاة اسماعيل صديق المفتش وما غرسته فى القلوب من النفور

كان اسماعيل صديق جزائري المولد وقد جاء مصر فى شبابه الاول وارتفع بمواهبه وكفاءته فى الخدمة المصرية . وكانت أول علاقة له بالبلاط على ما أعتقد فى عهد عباس الأول كسير للركائب . وشغل فى عهد عباس واسماعيل وظائف كثيرة حتى انتهى أمره كما رأينا بأن صار « شيطان اسماعيل » فى ابتزاز مال الفلاحين . وقد استطاع أن يحتفظ بحسن السمعة فى القاهرة على الرغم مما ارتكبه من أعمال القسوة — وقد أظهر براعة لا تنضب فى ابتكار طرق النهب — وكان يحوى ما سمعته فى القاهرة أنه عربي يمتع بفضيلة تقليدية هي الكرم والسخاء فى انفاق الثروة العظيمة التى جمعها . ومن ثم لم يكن مكروهاً فى مصر وقد شغل منصب وزير المالية فى السنوات الاخيرة من حياته فبرهن دائماً علي أنه خادم اسماعيل المخلص الأمين . ولكن انتظ حياته قبل بضعة أشهر من الوقت الذي أكتب فيه عنه .

وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن ثم قال وقد خضت أنا وولسن فى هذه الاحاديث يوما بعد يوم علي الباخرة ودارت بصفة خاصة حول مهمته الخطيرة فقد كان مزمعاً أن يخلف اسماعيل باشا المفتش فى وزارة المالية . وكانت آماله فى نجاح ادارته عظيمة فى ذلك الحين وقد أعرب عن فهم تام للمهمة الخطيرة التى أخذها على عاتقه وهي اعادة مالية مصر سيرتها الاولى من الرفاهية وانقاذ الفلاحين من أصفادهم المالية ولكنه كان كذلك على علم تام بما يواجهه من الصعوبات .

وكان قد تعلم صم أخلاق الخديو وأساليبه كما كان مستعداً لان يجد فيه خصما

قوياجريئا ولـكنه كان يعتمد علي براعته فى التودد وسعة علمه بأمور الدنيا مؤملا
أن يستطيع استبقاء العلاقات الودية مع اسماعيل وأن يتجنب كل الاخطار الشخصية
التى قد تعرض له . وكان يعتمد فى تحقيق هـذا الغرض علي تربيته الفرنسية فقد
كانت سكناه فى باريس الى الحـد الذي جعله يثق بقدرته علي الاحتفاظ بسلامة
الوزارة الفرنسية الانجليزية التى كان عضواً فيها ثم انه كان يعتمد كثيراً علي نوبار
أيضا ويثق به ثقة لا حد لها معتقداً انه سياسى شرقي مخلص للمصالح البريطانية .
وكان يعتقد كذلك أن وزارة الخارجية البريطانية تؤيده كل التأييد بل وهناك تأييد
آخر ربمـا كان أقوي فى أوربا من تأييد وزارة الخارجية وهو تأييد مصرف روتشلد .
وكان يعرف أنه يستطيع أن يعتمد علي هـذا التأييد بعد نجاحه أثناء مروره
بباريس فى اقناع ولاة أمور ذلك المصرف باصدار قرض بتسعة ملايين جنيه بضمانة
الممتلكات الخديوية وقد كان من شأن هـذا القرض أن يكسب تأييد أصحاب
المصرف لحملة الاسهم فى مطالبتهم بالتدخل الاوربى متى اقتضت الحال . وقد خيل
لى — أنا الذي أعرف ولسن حق المعرفة ومع انى عطفت أشد العطف علي آماله
الانسانية وأمانيـه الشخصية — أن فى مركزه عناصر معينـة من الشك ليس من
شأنها أن تساعد علي نجاحه

وقد افترقنا فى الاسكندرية ونحن نرجي أن تستقيم له الامور فى مهمة تدور
حول يأس حكومة مفلسة تملأ صدورنا بالشكوك . بيد أننا توقعنا أن يقوم فى سبيله
كثير من الصعوبات الشديدة . ومع انى كنت واثقاً من جرأة قلبـه وحدة ذهنه
قد خشيت عليـه وحققت الايام أني كنت علي حق فى التشاؤم وحدث هـذا فى
وقت أقصر مما ظننا

وقد كان لاخفاق السير رفرز ولسن في ادارته المالية القصيرة عدة أسباب .

منها شؤم ذلك القرض الباهظ الذي يشق علي المرء أن يدرك فى أى غرض جدى
استخدمت أمواله . ومنها حدوث أخطاء فى الادارة أوقعت مظالم فادحة بالاهلين
ومهدت السبيل — كما سنرى بعد — الى شيوع الاستياء والتذمر . علي أني لست
بحاجة الي الدخول في تفصيلات هذه الاخطاء فهي مشهورة وفى طاقة كل انسان أن

يجدها فى الكتب . أما عذر ولسن فيها فهو أنه اعتمد اعتماداً لا حد له على ارشادات نوبار فى جميع شؤون السياسة الداخلية وفى تجاوزه الحد فى تقدير كفاية نوبار على تصريفها . ولو كان ولسن سياسياً أكثر مما كان ماليا لما سقط سقطته فى المصاعب السياسية التى كان يسهل تجنبها لو كان خبيراً بأساليب الحكومة

ولم يكن نوبار الا تكأة مرضوضة ولم يكن يشق على داهية كاسماعيل أن يثير ضده الشعور الاسلامي كمسيحي وأجنبي . واذ كان ولسن يفكر فى ايجاد التوازن المالى فقد خفض مرتبات جماعة من الموظفين المصريين وهكذا خلق طبقة مستاءة أتاحت للخديو فرصة تحويل الاستياء منه الى وزرائه المسيحيين . وسهل عليه الامر انه لم يحصل تخفيض فى مرتبات الموظفين الاجانب . وكان الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وانجلترا فى برلين يحتم تعيين موظف فرنسى نظير كل موظف بريطانى ومن ثم لم يجرؤ ولسن على أن يمس أحداً من الموظفين الفرنسيين . وكان على ولسن أن يحمل كل ما أثار تصرفه من الغض وفى يده مفاتيح الخزانة المصرية

ولم يدرك كذلك أقل نجاح — برغم نياته الحسنة — فى تخفيف العبء عن كواهل الفلاحين . وقد كان فى برنامجه أن يبقى الخديو قادراً على الدفع ومعنى ذلك أن تدفع فوائد الدين الجسيم فى مواعيدها . وقد أنفقت التسعة الملايين التى اقترضت من روتشلد فى المطالب العامة ولم تخفض الضرائب بل استمر حكم الكرباج بصرامة أشد فى القرى وجيء للموقف الزراعى بعامل مرعب جديد هو مسح الاراضى الزراعية تحت الاشراف البريطانى وقد تم ذلك بنفقات فادحة وعلى أسوأ منوال واعتبره الناس على وجه العموم مقدمة لفرض ضرائب جديدة وتم الفشل أخيراً بعد ذيوع الاقتراح الذى عرضه ولسن وهو يقضى بمصادرة أراض تبلغ قيمتها خمسة عشر مليوناً فقد أوقع هذا المشروع عقول أصحاب الاراضى فى اضطراب وجعلهم يعتقدون بقرب وقوع نكبات على يدى الوزير البريطانى أفدح من التى نزلت بهم فى عهد أسلافه . وعندى وقد عرفت مصر الآن معرفة حقيقية انه لم تكن هنالك مندوحة من وقوع أى انسان له مثل ذكاء ولسن وحسن مقاصده فى مثل هذه الاخطاء . وليس عندى شك فى أن الخديو نفسه دبر له الكثير منها ليورطه

وظلم سوء سياسة ولسن ونوبار القمة حين أخذا يسرحان الجيش المصرى وفيه ٢٥٠٠ ضابط بغير أن يدفعا المرتبات المتأخرة فقد أوقع ذلك الوزراء الاحياء في قبضة اسماعيل وهذه فرصة لم يتردد اسماعيل في انتهازها

ويجب أن أقص هنا تاريخ أزمة فبراير سنة ١٨٧٩ التى طاحت بوزارة ولسن ونوبار كما حدثت اذ من الصعب أن يجد الانسان حقيقتها منشورة في كتاب آخر

كان الخديو كما ذكرنا تواقا لتحويل البغض العام الذي كان ينظر به اليه في مصر إلى وزرائه الجدد لرغبته في تخليص نفسه من وصايتهم . وكان قد نزل بمنشور يسمي دكريتو سنة ١٨٧٨ عن إدارة المالية والادارة لهم ولما كان قد تعود الحكم المطلق ١٨ سنة في مصر فقد عافه فقدان هذه السلطة . وكان قد وقع الدكريتو كبديل من الافلاس فلما نجا من الافلاس صمم علي نقض عهده واذ كان داهية في البصر بالاخلاق تفطن حالا الى موضع الضعف في الوزارة وعرف كيف قضي جهل ولسن وزميله الفرنسى « بلنير » بالشؤون المصرية إلي اعتمادهما كل الاعتماد علي نوبار في الاهتداء إلى الخطة التى يسلكانها كما عرف أيضاً عجز نوبار كمسيحي عن حكم شعب اسلامي

وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعد نوبارا أفاقيا أرمنيا جمع ثروة كبيرة من سمسرته لأصحاب الاموال المستعدين لاعطاء القروض علي حساب الجمهور . أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذى أنشأ المحاكم المختلطة التى يمجدها الاجانب ويمقتها الفلاحون لاعتقادهم أنها وضعتهم في قبضة المرابين اليونانيين وفعلت مالم تفعله هيئة غيرها

وكانت هيئة هذه المحاكم في ذلك الحين تستدعي أى فلاح أمضى أية ورقة بلغة أمام قضاة أجانب وبعد اجراءات أجنبية لم يتعودها بلغة أجنبية لا يفهمها ، وبغير أن تسنح له فرصة الدفاع عن نفسه ان كان فقيراً ، واقامة الحجة علي أن الارقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة تحكم عليه بما قد لا يقل عن تجريده من كل مايمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف باى شيء هو في الحقيقة مطالب . بهذا كان يعرف نوبار ثم انه لم يكن له أنصار وطنيون ولا كان مؤيداً بأى

رأى الا رأى التجار الاجانب في الاسكندرية ومن ثم رأى اسماعيل كيف يمكنه الهجوم على نظام الحكم الجديد في شخص نوبار وكيف يمكنه حمله عاجراً . والواقع أنه لم يكن يقتضى لاسقاط هذا الحكم الا مظاهرة وطنية ضد المسيحي المقوت وقد سهل تنفيذ هذه الخطة بما حدث من غش ضباط الجيش المسرحين وحرمانهم من المرتبات المتأخرة وحقوق المعاش .

وكان عمال اسماعيل فى احداث أزمة فبراير حاهين باشا أحد موظفى البلاط وأخو زوجة لطيف أفندى سليم الذى سهل له العمل مركزه كمدير للمدرسة الحربية . وقد نظم هذان مظاهرة من تلاميذ المدرسة فسار هؤلاء فى الوقت المعين في شوارع القاهرة معلنين أنهم سيطالبون باسقاط الوزارة الممقوتة ثم انضم اليهم جمهور كبير يتقدمهم الضباط المسرحون وكان الاتفاق معقوداً على أن تصل المظاهرة الى ديوان الحكومة في الوقت الذى ينصرف فيه الوزراء . وقد وجد المتظاهرون نوبار باشا يركب مركبته فأهانوه واعتدوا عليه وجذبوا شواربه وضربوه بالكفوف ثم قامت في الحال مظاهرة شعبية وهنا ظهرت فى الميدان فرقة الحرس الخديو الاولي بقيادة القائمقام على بك فهمي وكانت على قدم الاستعداد ثم ظهر الخديو بالذات وأطلقت بضع طلقات فى الهواء فوق رؤوس المتظاهرين ثم تفرق الجمهور حين أمره الخديو بأن ينصرف كل الى بيته . وهكذا نجحت الخطة التى اتفق عليها مع علي بك واستطاع الخديو أن يقنع قنصلي فرنسا وانجلترا بضرورة اقالة نوبار وبانه لولا تدخله القوى وسلطانه على الناس لحدثت أمور سيئة العقبي وعلي ذلك نصح القنصلان لنوبار بالاستقالة وحل محله موظف مسلم اختاره الخديو يدعي راغب باشا . وقد عرف اسماعيل أن وجود رجله راغب في وزارة الداخلية يعجز ولسن وبلنيير عن ادارة البلاد ويستتبع سقوطها عاجلا

وبعد أن تم النجاح فى التخلص من نوبار أصبح قيام ولسن بادارة المالية مستحيلا كما توقع الخديو ثم عجلت حوادث أخرى بسقوطه . وكان قد وقع جفاء بين ولسن وقنصلنا فى مصر حينذاك (المستر فيفيان الذى صار بعد ذلك لورد فيفيان وعين سفيراً فى رومة) بسبب مشاحنة شخصية . فلما طرأت الصعوبات السياسية

وطلب ولسن تأييده لم يقدمه له أو قدمه بغير اخلاص . ولكن فشل ولسن النهائي لم يبطيء بعد ذلك . فقد نظمت حادثة كحادثة فبراير خلال شهر مارس في الاسكندرية اذ آذاه الجمهور هو وزوجته فلما رفع شكواه لوزارة الخارجية ضنت عليه بالتأييد الكافي لنيل الترضية . ثم نصح له كما نصح لنوبار بالاستقالة ولما لم يجد مناصا استقال وعاد إلى اوربا

وقد كتب لي خطابا هاما في ذلك الحين ؛ كتب إلي في ٣٠ ابريل سنة ١٨٧٩ يقول « أحسب أنك سمعت بما كاد لي الخديو . انه لم يقتلني كما قد تظن ولكني هوجمت في الطريق وأسيئت معاملتي وقد حصل الآن على غرضه وتخلص مني فقد تركتني حكومة جلالة الملك تحت رحمة القضاء جريا على عادتها من الاهتمام بوكلائها . . . ان فيفيان هو العامل الرئيسي في سقوط التدبيرات التي كان عليه أن يتولى حمايتها ويرجع ذلك إلى غيرته مني وإلى نقص في الذكاء وزيادة في الخيلاء فقد انضم إلى الخديو . ومع أن سموه لم يجد أساليب الحكم أكثر من أجادته التفريق بين الذين يعمل معهم فقد كان يتطلع إلى التفريق بيني وبين بلنيير أو بينا وبين نوبار . ولكنه لم يتوقع حتى ولا في الحلم أن يصير القنصل البريطاني أداة في يده لاسقاط وزارة فرضتها عليه حكومة بريطانية وأكرهته على قبولها ... سنبحر يوم ٦ ونصل لندن يوم ١٥ ، وأنا الآن مسرور لتخلصي من المسألة كلها فهي سائرة إلى الدمار والبلاد موبوءة بالفساد . ويلوح لي أن حكومتي فرنسا وانجلترا تخشيان العمل وقد طغى الخديو وهو يعصر البلاد لابتزاز آخر قرش . وليس في الطاقة تأخير الخراب وفي هذه الاثناء لا يسع الانسان إلا التضجع حين يفكر فيما يحدث الآن من الشقاء والشر

الفصل الثالث

السياحة فى بلاد العرب والهنـد

بينا كانت تجرى هذه الحوادث فى مصر كنت أسيح بعيداً مع زوجتى فى بلاد العرب الوسطى فلم يكن لي بها ولا بغيرها من حوادث العالم أقل علم

وكنا قد مكثنا عدة أيام فى قبرص ونحن فى طريقنا الي دمشق التى كنا معتزمين أن نبدأ منها سياحتنا . وكان قد دفعنا الفضول الى مشاهدة هذه الجزيرة التى دفعت فيها انجلترا ذلك الثمن الغالى أو بعبارة أخرى تلك الفضيحة الكبيرة . وقد وجدناها تتلق دروسها الاولى فى الادارة الانجليزية علي يدى السر جارنت ولسلى وكانت الجزيرة لا تزال فى حر الصيف ولم تكن قد سقطت أمطار بعد وكذلك لم تبد لنا الا أحسن قليلا من فلاة ترية . وقد زرنا ولسلى فى مقر الحكم بنيقوسيا ووجدناه يحمل الوحشة على خير ما يستطيع فى عزلته . وقد أثنى فى حديثه معنا على هـذه « الجوهرة » الاخيرة التي ضمت للامبراطورية غير انه كان واضحاً أن الجزيرة ليست لها قيمة فى تقديره الفني وكانت أشبه الاشياء بتلك المناظر الكثيرة التى تقرأ فى قصة « فيكار اوف واكفيلد » . انها أحضرت من السوق إلى المنزل . والواقع انه كان يشق علي المرء أن يتبين وجه الاستفادة منها أو طريقة الحصول علي نفقات ادارتها وكان الحصول عليها قد أخل بسمعة انجلترا كما رأيت . وكان المسلمون السوريون يقولون ان انجلترا أخذتها بقشيشاً من السلطان علي خدمتها له

وقد التقينا فى دمشق بكثير من أفذاذ الرجال منهم الامير عبد القادر الجزائرى بطل الحرب بين الجزائر وفرنسا . ومنهم بطل آخر هو مدحت باشا أبو الدستور العثماني . ومع أني كنت ميالا للعطف علي اصلاح المسلمين فانى لم أمل لهذا البطل الاخير . والواقع أن مظهره لم يكن موجباً للتأثر بشخصيته . لم يكن ممتازاً باى شيء فى مظهره سوى انه كان فخوراً مختالا ولم أجد أثناء محادثتي معه فى موضوع تجديد تركيا واصلاحها أى عمق فى أفكاره بل وجدتها من ذلك الضرب الاوربي العادى

الذى يحل عادة فى الشرق محل البوغ المقيق والايمان الراسخ وكانت كل آرائه فيا يختص باصلاح الامبراطورية عامة وسوريا الذى كان قد عين والياً عليها خاصة مقصورة على الماديات كانشاء الخطوط الحديدية والقنوات وخطوط الترام وكلها أشياء طيبة فى بابها ولكنه لم يمس فى حديثه ما تعوزه الادارة من الاصلاح . ثم انه لم تكن لديه البتة أموال يستطيع أن ينفذ بها اصلاحاته المادية فكانت الاصلاحات والحالة هذه أوهاماً فى أوهام . ولم يتكلم قط عن الامور الكبيرة الاهمية كالاقتصاد والعدل وحماية الفقراء كما أنه لم يظهر أى عطف على أهل الولاية التي عين والياً عليها .

والواقع انه كان أكثر من الاتراك احتقاراً لكل ما هو عربى ولم يكلف نفسه مشقة كتمان هذا الشعور ولم تكن طرق معاملته للبدو لاتقبلا انسانية . لهذا لم أمل اليه بطبيعة الحال . ومع ذلك أسفت على عدم محاولتى اثارة عطف الرأى العام البريطانى عليه فى أيام محنته ولو فعلت لكان أنقذه مسعاى من الجراء الفظيع الذى أنزله به السلطان . ولكني لم أعرف الحقائق كلها فى ذلك الحين وفى سنة ١٨٨٤ عرفت من مصدر أثق به حقيقة ما جرى فى محاكمة مدحت فى تهمة قتل كاذب القيت عليه قبل ذلك بثلاث سنوات وهذه مسألة هامة لا أجد داعيا للاعتذار عن ذكراها .

وقد يذكر قرأنى انى كنت أصبت أثناء اقامتي فى الاستانة بمرض خطير وعني بى طبيب يدعى دكسون كان فى ذلك الحين طبيب السفارة البريطانية وكان قد وشجت بيني وبينه صلات المودة . وهذا الشيخ الفاضل قضى فى الاستانة خمساً وثلاثين سنة فاستشرق تماماً وأصبح أدرى بالشؤون العثمانية من أى بريطانى آخر فيا أظن — وكان فوق ذلك عطوفاً على القوم الذين عاش بينهم هذا الامد الطويل . وكان يختلج صدره الى جانب هذا العطف وفاء ونبل على الطراز الانجليزي القديم . فكانت ميزاته تجعله أجدر الناس بالثقة فيا يتعلق برواية الحوادث التي اتصل بها

لهذا يجب أن تعتبر شهادته حاسمة فيا يختص بالحوادث الواقعة فى محيطها .

وقد كنت فى الاستانة في سنة ١٨٨٤ فحدثني بها فظهرت لى من الصحة والاهمية للتاريخ بحيث دونتها فى نفس اليوم الذي سمعتها فيه وهي كما يأتى بالحرف الواحد :

فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ندبت السفارة الانجليزية الدكتور دكسون لتحقيق ما أحاط بوفاة السلطان عبد العزيز فقدم تقريراً مفصلا عن جميع ما رآه فى القصر ذلك اليوم . وكانت لجنة الاطباء مؤلفة من يونانى يدعى ماركو باشا وشيخ انجليزى كان طبيب لورد بيرون الشاعر المشهور وعدة أطباء آخرين . وقد وجدوا الجثة في دار الحرس وفحصوها جيداً . وكان السلطان فى قميص حريرى لا خطوط فيه . وكانت سراويله من الحرير القرنفلي . ولما انتزعت الثياب لم يوجد فى الجثة خدش ولا رض « وكانت أبدع جسم فى العالم » . هذا عدا جرحين فى الجهة الانسية من الدراعين حيث الشرايين . وكان جرح الذراع اليسرى عميقاً بالغاً الى العظم وقد سبر الدكتور دكسون غوره باصبعه أما جرح الذراع اليمنى فلم يكن محكما فلم يؤذ الشريان وكان ظاهراً أن الجرحين سبب الوفاة . وقد قنع الاطباء الآخرون بهذا الفحص وانصرفوا ولكن دكسون والطبيب الانجليزي الآخر أصرا علي سماع شهادة والدة السلطان وقد شهدت بما يأتى :

حاول السلطان عبد العزيز أن ينتحر مرتين منذ أصيب بمرضه . فحاول مرة أن يرمي بنفسه فى بئر . وحاول مرة أخرى رمي نفسه في البوسفور ولكنه منع فى المرتين . وحذرت السلطانة من اعطائه أى اداة يستطيع أن يؤذى نفسه بها . فلما طلب اليها مرآة ومقصاً ليصلح لحيته أعطته أصغر مقص لديها وظنت أنه لا يستطيع أن يؤذى نفسه به . وكانت تسكن غرفة مجاورة لغرفته وكان يقوم علي حراسته فتاة أو فتاتان فى غيابها . فحدث بعد ظهر ذلك اليوم أنه أمر الفتاتين بالخروج وارتج الباب قائلا انه يريد أن يخلو بنفسه ولم يجرؤ الفتاتان علي المعارضة فلما انقضي نصف ساعة أخبراها بما حدث فانزعجت فى أول الامر ولكنها أمرتهما أن تقفا بالباب وتنصتا . فعادتا اليها وقالتا انهما لم تسمعا شيئاً . وبعد ساعة ذهبت تتبعها وصائفها ودفعت الباب ففتحته فوجدت السلطان راقداً علي جنبه فوق متكأ وقد نوقي

وكان المتكأ والستائر من الحرير الاصفر ذى النقوش الحمراء وفحص زميل الدكتور دكسون المكان فوجد جانب المتكأ الايسر مشبعاً بالدم ووجد تحته فوق الارض كثيراً من الدم الكريه الرائحة . ووجد فى وسط المتكأ بقعة دم صغيرة تطابق جرح الذراع اليمنى . ومع أنه فحص المكان جيداً فانه لم يعثر على أثر الدم الا فيما لاصق المتكأ ومن ثم لا يمكن أن يكون قد حدث نضال أو اغتيال .

وكما قالت السلطانة « اذا كان قد قتل فلابد أن أكون أنا القاتلة لاني كنت فى الغرفة المجاورة لغرفته وما كان أحد غيرى يستطيع أن يقترب منه » .

وقد أحضروا في محاكمة مدحت ومن معه قميصاً من الكتان لا من الحرير مشقوقاً من الجنب كأنما قطعته طعنة سيف وسراويل صفراء وخضراء ورداء من الفرو . ولم يحضروا الثياب التى كانت على الجثة . وأحضروا غطاء متكأ من الشيت وستائر شيتية ملطخة بالدم ولم يحضروا تلك التي كانت في الغرفة حيث وجدت الجثة . ومن ثم كتب الدكتور ولسن احتجاجا قرر فيه ما يعرفه وأعطاه الى لورد دوفرين ورجاه أن يقدمه كشهادة لرئيس المحكمة . ولكن دوفرين أبى أن يتدخل بلا تعليمات وفى الوقت الذي أرسل فيه تلغرافا أو زعم انه أرسله حكم على مدحت . وقال دكسون ان ماركو باشا لا بد أن يكون قد أغري على أداء الشهادة التي أداها . وكانت حكاية رؤية رجال يتسلقون داخلا وخارجا حكاية سخيفة فقد كانت الغرفة مرتفعة ولم يكن بد من ان يكسر الواثبون منها سيقانهم . هذا والدكتور دكسون شيخ دقيق وهو من أولئك الشهود الذين يقتنع بشهادتهم أى محلفين فى العالم . ولذلك أصدق شهادته كل التصديق مهما ظهر غريباً عند النظرة الاولى أن يكون السلطان قضى منتحراً لا مقتولا . وقد مات مدحت وداماد جوعاً في السلاسل والاغلال منذ بضعة أشهر . كذلك مات شيخ الاسلام الذى أفتى بخلع عبدالعزيز . وهذا الحادث الارهابي هو الذى أعطى عبدالحميد السلطة المطلقة التي يتمتع بها الآن »

ومن الاشخاص ذوي الاهمية فى هذا التاريخ والذين قابلتهم بدمشق فى خريف سنة ١٨٧٨ السير ادوارد ماليت . وكان يومئذ سكرتيراً للسفارة الانجليزية فى الاستانة ثم كان يسيح فى سوريا للتنزه من ناحية وجمع المعلومات من ناحية أخرى

وقد عملت تحت رئاسة والده الجليل مرتين أثناء خدمتي السياسية وكانت بيني وبين أسرته وبينه علاقة ود متينة منذ كنا ملحقين سياسيين معاً. ومن ثم أستطيع أن أتكلم عن علم فيما يختص بصفاته التي أسيء فهمها في مصر.

كان ماليت رجلا ذا مواهب متوسطة وقد رزق نصيباً وافراً من المثابرة والحرص والتعقل ولما كان قد ولد في وسط سياسي ثم وضعه أبوه في الخدمة وهو في السادسة عشرة فقد كان ذا دراية فنية تامة فكان موظفاً عمومياً كفأً فيما يتعلق بتقاليد عمله وعاداته وكان في استطاعته أن يكتب بلاغا بلغة واضحة. وكان يمكن أن يوثق من أنه لايقول كلمة واحدة أكثر مما تجيزه تعليماته، ولا يورط حكومته في شيء عموماً.

ولديه من المواهب ما هو أنفع وأجدى في أحوال الخدمة العادية التي كان يعمل فيها كالتبصر والتحفظ في الكلام وانكار الذات وهي الصفات التي يمتاز بها وكلاء الدعاوى. ولايخفى أن واجبات السياسي تماثل واجبات وكلاء الاشغال الا في أحوال خاصة نادرة. ولكن ماليت لم تكن له مواهب كسعة الخيال وقوة الابتكار وقوة التصرف تحت مسئوليته في الفرص التي تستدعي عملا قويا وقراراً سريعاً. وكان آخر رجل يصلح لتدبير الدسائس والقبض على ناصية المواقف الحرجة كما كان لطيفاً غير جذاب وفيه خجل كثيراً ما ظهرت في حياته الخاصة وكان كثير المثابرة حسن السلوك. وكانت استقامته ظاهرة بصفة خاصة لصغر سنه وكان يفضل عمله مهما يكن قليل الاهمية على أى ضرب من ضروب التنزه والاسترواح حتى لقد كان وهو في الاجازة يقضي بعد ظهر أكثر الايام في نسخ البيانات في مكتب والده بوزارة الخارجية مفضلا ذلك على عمله في البحث عن شيء يشغله في مكان آخر.

وقد عنيت بالدقة في وصفه لانه أتهم في مصر بالطمع والدس والقلق وكل هذا مناقض لطبعه الهادىء. فلم تكن لديه روح مجازفة لا في عمله ولا في مسراته ولو كان كذلك لرافقنا الى بلاد العرب كما اقترحت عليه ولكنه لم يكن بالرجل الذي يعدل عن الطريق المطروق ومع اني أثرت اهتمامه على قدر طاقتي بمشروعي الروائي فقد فضل السير في طريق السياحة العادي ومن ثم مضى بعد بضعة أيام الى القدس

أما سياحتنا فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . وقد اتفق لنا من الامور الهامة والاحوال الشائقة أكثر مما توقعنا . فنشرت تفصيلاتها بالفرنسية والانجليزية بعنوان « حج الى نجد » : واني لا أرى بأساً في أن أذكرها هنا بايجاز في بضع كلمات — سافرنا بطريق الحج العادى الى المزاريب ومن هناك الى جبل حوران حيث أعطانا زعيم درزي من أسرة الاطرش رفيقاً أو ان شئت دليلا وهكذا انحدرنا في وادى السرحان الى الجوف حيث كان لمحمد عروق بن شيخ تدمر ، وقد كان مسافراً معنا بعض قرابته . وبعد ان قضينا مع هؤلاء بضعة أيام في اجتياز « نفود » وهو معبر خطر في الصحراء الرملية الكبرى يستغرق قطعه عشرة أيام وصلنا « حائل » حيث استقبلنا الامير محمد بن الرشيد الذى كان يومئذ سلطان نجد المستقلة بكل مظاهر التكريم على الرغم من اننا لم نحمل اليه خطابات أو توصيات . وقد كانت جنسيتنا الانجليزية جواراً كافياً في نظره . وكان قد اتصلت به اشاعات عن زيارتنا في العام السابق لكثير من مشايخ عنزه وشمر . وكنا قد تعلمنا الى ذلك الحين من اللغة العربية ما يكفي للتحدث وقد وجدناه نبيلا لطيفاً شديد الاهتمام بسماع كل ما لدينا من أنباء العالم العظيم المعزولة عن نجد عزلة تامة بما يحيط بها من الصحراوات . وكان تواقا لمعرفة آرائنا في كل الشؤون ذات العلاقة بجزيرة العرب ولا سيما فيما يخص شخصيات زعماء البدو من أعدائه أو نظرائه . أما السياسة الاوربية فلم يعن بها الا قليلا وكذلك الحال بالنسبة للاستانة ومصر . ومع أن نجداً كانت تعتبر في بغداد ولاية عثمانية فان أمراء الوهابيين لم يعترفوا قط بسيادة السلطان عليهم ولم يكن بينهم وبينه أثناء القرن الماضي كله الا العداء . وكانت ذكرى غزوة محمد علي الكبير لنجد لا تزال حية . وكذلك كان استيلاء مدحت باشا على الحساء عند خليج العجم وحملته المكروهة على الجوف يذكران بالمقت في حائل وكان من دواعي رضائه عنا اننا قدمنا عليه بغير أن يكون ثمة دخل لاية سلطة عثمانية .

وكانت نتيجة هذه الزيارة الودية لعاصمة بلاد العرب المستقلة وما رأيته فيها من نظم الحكومة الحرة التى عاشت في قلب تلك الجزيرة العجيبة قروناً عديدة أن

راد تحمسي فى عواطف الحب والاعجاب التى كنت أضمرها للجنس العربي . والواقع أن « حبي السياسي الاول » كان لذلك الجنس المجيد ولقد كان حباً ما برح يستحود علي يوماً بعد يوم حتى عقدت النية على أن أبذل من ناحيتي كل معونة أستطيعها لمساعدته على الاحتفاظ بغريزة الاستقلال التي شهدتها فيه . وقد تراءت لى حرية العرب أرضاً مقدسة واعتقدت أن لي فيها رسالة يجب أن أؤديها وعدى انى لم أبالغ فى تقدير الفضائل التقليدية التي رأيت القوم دائبين عليها هناك .

ان نظام الحكم البدوى لا يفضل إلا قليلا فى عرف الشرقيين نظاما يوضع للسلب والنهب . والواقع أنه ينحط الى مايقرب من هذا الدرك على حدود البلدان المتمدينة . أما في قلب بلاد العرب ذاتها فليست الحال كذلك . فقد رأيت « الحرية والمساواة والاخاء » تعيش عيش الحقائق الحية فى نجد ويتمتع بها هناك كل رجل حر ولم أرها كذلك فى أية بلاد أخرى من البلاد التى زرتها فى الشرق والغرب ولا فى أوربا التي تباهي فيها بهاتيك النعم وان كنا لا نملكها فى الحقيقة بل ولا فى فرنسا حيث نجدها معروضة للانظار — كتابة — فى كل مكان . ففى نجد تعيش هيئة اجتماعية طبقا للنظام الذي يحكم به دعاة المثل الاعلى فى بلادنا فلا ضرائب ولا بوليس ولا تجنيد ولا اكراه فى أى شيء . ولا قانون لهذه الهيئة إلا الرأى العام ولا نظام الا ماتمليه مبادىء النبل والشرف . وهنا كذلك أناس فقراء ، قانعون على فقرهم وعائشون فى رخاء نظراً لقلة احتياجاتهم — أناس أجابوا على كل سؤال ألقيته عليهم (وياطالما ألقيت أسئلتي هذه بنصها في غير هذه البلاد) بقولهم « الحمد لله . لسنا كغيرنا من الامم . ان لدينا هنا حكومة منا ونحن راضون قانعون » وهذا هو الذى ملأني دهشا وسروراً . وهذا هو الذى حولني من رجل لايعبأ بما يرى من الآلام العالم الشرقي الي رجل يفيض بالغيرة علي بسط نعمة الحرية على الامم التى ترزح تحت الاغلال والقيود . وقد أيدت اعتقادى ورسخت أماني سياحتى خلال الربيع التالى فى العراق وجنوبى ايران تلك البلاد الاكثر مدنية وأقل سعادة وهناء من نجد . والواقع أن نجداً أنما هي نقيض أودية الفرات الدنيا التى يسكنها شعب عربي أنزل به الحكم العثماني صنوف الفقر والانحطاط .

وأشق من ذلك أهل عربستان الايرانية . وقد فكرت فيما يمكن أن يعيد لهؤلاء القوم نبلهم المفقود ورخاءهم واحترامهم لانفسهم وحيل لى لحظة أن الحماية البريطانية قد تكون وسيلة النجاة . وكانت هذه الافكار تتكون وتتجسد فى عقلي أثناء سياحتنا البرية الصعبة من بغداد الى بوشير علي الخليج الفارسى ثم بطريق البحر الي كراشى حتى وصلنا الهندحيث كانت تنتظرنى تجارب من نوع آخر وحيث تلقيت درساً جديداً فى الشؤون الشرقية .

وكان سبب ذهابنا الي الهند بعدسياحتنا الصعبة اننا وجدنا فى بوشير خطابات كتبها لنا لورد ليتون الذى كان صديق الحميم منذ عدة سنوات وهو يدعونا فيها لزيارته بسيملا . وكان ليتون الذى لا أقول هنا شيئاً عن صفاته الشخصية الجذابة بعد الذى قمت به قبل الآن من حقوق ذكراه المحبوبة موظفاً سياسياً مثلى وقد خدمت معه فى لشبونه سنة ١٨٦٥ وقد قرضنا الشعر معاً وعشنا فى صداقة متينة استمرت إلى اليوم .

فالآن — فى سنة ١٨٧٩ - كان قد مضى عليه عامان حاكما للهند وكاد يختم حملتـه الاولي علي الافغان بنجاح وأمضى معاهدة « جندامك » خلال أول شهر قضيناه معه . وكان ليتون ممن يؤمنون بالخرافات ويعتقدون بالاوهام رغما من سلامة ايمانه الدينى فقضى مدة الحرب وهو يرسل فى الهواء طاطيد صغيرة فاذا ارتفعت بسرعة فى الهواء اعتقد أن جيوشه ظافرة والعكس بالعكس . وليس معنى ذلك انه كان لصعود هذه الطاطيد بسرعة أو بطء تأثير فى قراراته فقد كان كاملا مجداً مستقلا . ولكن سرعة الطاطيد كانت تهديء أعصابه التى كانت أبداً متوترة لما كان يراه فيها من دلالة غير عادية حمل نفسه علي الاعتقاد فيها . وقد قرن بين وصولى سملا وبين التحول الحسن الذى طرأ علي القتال واعتقد أن لى تأثيراً سعيداً فى أحواله ما بقيت معه . وقد أسر لى جميع أفكاره فعرفت منه أموراً هامة فى السياسة العليا لا حاجة بى الى تفصيلها هنا وان كان سوف يوجد بعضها فى هـذه المذكرات بعد . وقد أظهر لى عطفـه علي كرجـل صاحب آراء عربية وروائى

وشاعر وأمر السير الفريد ليال الذى كان سكرتيره الشؤون الخارجية أن يعطيني كل المعلومات الممكنة .

ولم تكن حكومة الهند حينذاك غير راغبة فى أن تخطو الى الامام خطوة فى الخليج الفارسى . وكانت البحرية الهندية قد تعودت فى بضعة الاعوام الاخيرة أن تشمل الموانىء العربية بنوع من الحماية مقصور علي منع القرصنة ومنع القبائل من التقاتل فى البحر مع الامساك عن التدخل معهم فى البر . فكان هذا نوعاً من الحماية محموداً وقد رفضت حكومة كلكتا الاعتراف بمزاعم السيادة العثمانية علي تلك الموانيء وسكانها . وكان السلطان عبد الحميد قد بدأ يزعج سلطاتنا في الهند يبث الدعوة للجامعة الاسلامية . وقد ظنوا أن هذه الدعوة أخذت تؤثر فى ولاء مسلمي الهنود . لذلك كانت فكرة الاستقلال العربى مستحسنة من وجهة النظر الرسمية . وقد أحسن السير الفريد ليال الشهادة لي عند لورد ليتون حتي لقد اتفقنا على أن أعود فى الشتاء القادم الى نجد وأحمل رسالة ودية من حاكم الهند الى ابن الرشيد . على انني مسرور الآن بعد أن عرفت أساليب حكومة الهند لعدم تنفيذ ذلك المشروع ولو فعلت لكنت وقفت نفسي موقفاً كاذباً وأكون قد تبرعت غير متعمد بجعل نفسي أداة فى يد سياسة ترمي الي استعبادهم مهما حسنت نيتي وعظمت رغبتي فى مساعدة العرب وخدمة قضية الحرية . فان من سيئات أساليب السياسة الاستعمارية البريطانية أنها لا تستطيع أن تتدخل بين قوم أحرار الا وتنتهي بعمل سيء حتي ولو كانت قد بدأت عملها حسنة النية . ذلك ان هذه السياسة ملوثة بالاغراض الانانية . وكثرة هذه الاغراض تقلب أحسن البدايات الي أسوأ الخواتم

ولكن هذه الاشياء لم تكن كل ما دار عليه البحث بيني وبين ليتون ومرءوسيه — وقد كلف وزيره المالي السير جون ستراتشى من علمي أساليب المالية والاقتصاد المدنية وطرق مكافحة القحط وجباية ضرائب الاراضى والعملة وضرائب الملح وغير ذلك من المسائل الكبرى التي كانت مدار البحث يومئذ . وكان ستراتشي رئيس المدافعين الرسميين عما كان يسمي فى ذلك العهد سياسة الاقتصاد في النفقات

ومن دواعي الاسف أن نتيجة هـذا التعليم لم تكن زعزعة اعتقادي بامانة حكومة الهند باعتبارها وصية علي مصالح الوطنيين الهنود وسأورد هنا مقتطفات من الخطابات التي كنت أكتبها في هـذا الحين . ومنها يظهر كيف كانت تؤثر في النظرات القصيرة التي كنت ألقيها علي الشؤون الهندية في مراكز الحكم الرئيسية وها هي المقتطفات : « لقد خاب أملي في الهند التي صرت أعتقد أنها سيئة الحكم كسائر البلاد الاسيوية مع فارق واحد هو أن النيات هنا حسنة وهناك سيئة . فالضرائب هنا فادحة والبلاد في أيدي حكام أجانب ويرى الانسان هنا من الاسراف في الاموال العمومية ما يراه في تركيا فدعنا نعتقد أن المسرفين هنا بلهاء وليسوا لصوصاً . ومع ذلك فالنتيجة واحدة ولست أرى فرقا بين أن يرغم الهنود الذين يتضورون جوعاً علي الاكتتاب لانشاء كنيسة في كلكتا وبين ارغام البلغاريين على دفع نفقات قصر يشيد علي شاطيء البسفور . ان الفقر يأكل هذه الامبراطورية الكبيرة في حكومتها المركزية ولا سبيل الي اسعادها الا بشقها وترك كل شق يحكم نفسه » .

وكتبت في خطاب آخر الي صديق آخر يدعي هاري براند وكان يومئذ عضواً في البرلمان وهو الآن لورد هامبدن : « ان الوطنيين — كما يسمونهم هنا — ليسوا الا قبيلا من الرقيق فهم مروعون تعساء وقد هزلت أجسامهم . ومع أني محافظ وعضو في كارلتون كلوب أعترف بأني قد ارتعت من القيود التي تغل الهنود وان ثقتي بالنظم البريطانية ونعمة الحكم البريطاني قد أصيبت بضربة شديدة . لقد درست ألغاز المالية البريطانية علي أحسن أساتذتها — وزراء الحكومة وكبار موظفيها — فانتهيت الى الاعتقاد باننا لو ثابرنا على « ترقية » البلاد بالسرعة التي نصل بها الآن فلا مفر لاهل البلاد من أن يلجأوا في آخر الامر الى أكل بعضهم البعض اذ لا يمكن أن تبقى في البلاد غير أجسادهم الآدمية . ولعمري لست أفهم لماذا تأخذ نحن الانجليز أموال هؤلاء الهنود الذين يتضورون جوعاً لنشيء لهم بها خطوطاً حديدية لا يريدونها وسجوناً وملاجيء للمجانين ومباني أثرية للسير بارتر فرير . كلا ! ولا أعرف لماذا نطعم من أرزهم النزر القليل جيوشاً من رجال البوليس

والحكام والمهندسين . انهم لا يحتاجون شيئاً من هذا ولكنهم فى أشد حاجة للارز كما يظهر لكل من يرى ضلوعهم البارزة . أما الدس الفادح الذى ألقى على عاتقهم فالشرف يقضى بانكاره كدين على الهند على الاقل ، وليس فى طاقتى أن أرى الفضل الادبي الذي تدعيه الحكومات بفرضها ضرائب على قوم لتسديد ديون لم يقترضوها بل اقترضتها الحكومات . ان جميع الديون العامة حتى فى البلاد التي تحكم نفسها بنفسها قليل أو كثير من الغش اما فى البلاد المستعبدة استعباداً أجنبياً فهي لا تعدو أن تكون سرقة » .

وعلى العموم كان لزيارتي القصيرة مراكز الحكم فى الهند تأثير كبير فى تكوين آرائي فيما يختص بمسائل السياسة الاستعمارية الكبرى وتوجيهها فى الوجهة التي جرت فيها فيما بعد . على انى كنت لا أزال أعتقد قليلا أو كثيراً بحسن المقاصد وان لم أكن أعتقد بحسن النتائج فى حكمنا الشرقي وظننت أن فى الطاقة تحسينه وأن الجمهور البريطانى لابد أن يصر على ضرورة تحسينه اذا عرف حقيقته .

ومن آخر ذكريات الشهرين اللذين قضيتهما مع ليتون فى تترهوف كما كان يدعي قصر الحاكم يومئذ فى سملا ، عشاء جلست فيه الي جانب كافانارى وكان ذلك فى الليلة التي بدأ فى صباحها السفر فى مهمته القاتلة الى كابول . وكان هذا رجلا يبعث اهتمام المرء به وقد أخبرنى انه حفيد تاجر من أهل فينيسيا كان قد أقرض بونابارت مالا كثيراً حين احتل جيش الجمهورية الفرنسية فينيسيا ولم يسترده قط . على ان الامبراطور كافأه بان جعل ابنه وزيراً خاصاً له فصار هذا الابن من أشد المخلصين للاسرة الامبراطورية . وكان لويس نابليون كافاناري الحفيد هو أيضاً بونابارتياً مخلصاً وقد اعتقد انه — واسمه كما هو — لابد أن يكون له رسالة هامة يؤديها . وكان ذا ثقة « بنجمه » وأشهد أن الاخفاق والخطر لم يخطرا له ببال فى الحديث الطويل الذى دار بيننا فى ذلك المساء .

ومع ذلك فقد كان واجباً أن يكون له نذير من الانباء المحزنة التي تكلمنا فيها أيضاً وهي أنباء وفاة ولى العهد الامبراطورى فى جنوبى أفريقيا . ولما افترقنا كنا على موعد بان أذهب أنا وامرأتى فى خريف العام القادم لزيارة كابول ، فقال لى

« لا تأت قبل الخريف على كل حال فاني لا أستطيع أن أجهز دار اقامتي قبل ذلك لاستقبال السيدات » ولم يشر أقل اشارة الى أي سبب أشد من هذا خطراً .

ومن الذين عرفتهم في ذلك العهد والذين لهم صلة بتاريخ محزن « كولى » وكان يومئذ سكرتير ليتون الحربي ومات بعد ذلك بعام على تل ماجوبا . وكان ليتون يثق كل الثقة بمواهبه الحربية وقد اشتركا معاً في توجيه الحملة على الافغان من سملا . وأحسب ان خطأه كان في تجاوزه الحد في الثقة بنفسه وفي مطامعه . وقد احتل ماجوبا لانه لم يطق أن تنتهي الحملة بغير أن يكون أحرز نجاحاً شخصياً لنفسه . وكان من أصدقائنا في ذلك الزمن ملجند (لورد منتو الآن) ولول كارو ، وبرابازون وكلهم من أركان حرب ليتون وكذلك لورد رالف كير ، وبلودن وبأن وروجاهما الجميلتان . وقد عدنا من بومباى في صحبة ملجند والماجور جاك تابر تاركين الهند في ١٢ يوليو فوصلنا السويس في ٢٥ منه ووصلنا في اليوم نفسه بالقطار الى الاسكندرية .

وأحسب أنها كانت « عدن » تلك الميناء التي عرفنا اذ مررنا بها أعظم أنباء مصر في ذلك الحين وهو عزل الخديو اسماعيل . ولما وصلنا الى الاسكندرية عرفت من زميلي السابق في الخدمة السياسية وهو فرانك لاشيل الذى كان يومئذ قائماً بأعمال القنصل الجنرال في الوكالة البريطانية تفصيلات الدور الذى لعبه في هذا الشأن . وليس ثم خلاف يذكر بين ما أخبرني به وبين التقارير الرسمية التي نشرت في هذا الصدد . لذلك لا أظن انى في حاجة لذكره هنا ولكن الذي لم يظهر في التقارير الرسمية هو الدور الذى لعبه أصحاب مصرف روتشلد في هذا الصدد . وهو دور لم يعرفه لاشيل يومئذ وقد عرفته من ولسن بعد ذلك والواقع انه كان يحق لولسن أن يفخر بانه استطاع أن ينتقم لنفسه بواسطة هؤلاء . قال لى انه بعد عودته مثبوراً من حكومته ذهب مباشرة الى بيت روتشلد في باريس وأنبأهم بالخطر الذى تستهدف له أموالهم بعد التحول الذي طرأ أخيراً على الاحوال في مصر والاسكندرية فالخديو يريد أن ينكر ديونه ويحتمى وراء اعلان الحكومة الدستورية في مصر . هذا لم يمنعوا ذلك فقدوا كل شيء . وبذلك نجح في ارهاب آل روتشلد وحملهم

علي استخدام نفوذهم السياسي الكبير في مصلحة التدخل العاجل . وقد بذلوا جهدهم عبثاً أول الامر في وزارتي خارجيتي لندن وباريس بعد أن كانت الحكومة البريطانية قد أقلعت عن ميلها التدخل لاشتغالها بمتاعب حروب أفريقيا ، وكذلك لم يكن لحكومة باريس رغبة فيه .

على أن يأس آل روتشلد الناجم من شدة الخوف على اموالهم دفعهم إلى رفع التماس إلى بسمرك في برلين . وكان هذا قد شمل بيت روتشلد العبراني بحمايته منذ ايامه في فرانكفورت ولم يفعل ذلك عبثاً وهنا أفهم المستشار الالماني ، وكان يومئذ قويا مرهوب الجانب ، حكومتي لندن وباريس بأنهما اذا لم تستطيعا التدخل في مصر لمصلحة حملة السندات فان الحكومة الألمانية سوف تجعل قضيتهم قضيتها الخاصة . وكانت هذه الخطوة حاسمة فاتفقت فرنسا وانجلترا على أن يكون التدخل أقل مايستطاع عنفاً وذلك بأن طلبتا من السلطان أن يعزل تابعه المسرف . وقد أبى اسماعيل إلى اللحظة الأخيرة أن يصدق بأن الباب العالي يتخلى عنه بعد الملايين التي حباه بها بسخاء ، ومع بدرات الاموال التي كان لايزال مستعداً لاعطائها له . نقول بدرات الاموال لأن اسماعيل كانت لديه كنوز مخبوءة على الرغم من ظواهر افلاسه . وكان الضغط الاوربي عليه شديداً حتى لقد قالوا لسن أنه قد رفضت اليه مسألة اختيار خلف اسماعيل من اثنين أحدهما الامير حليم الذى كان يميل اليه السلطان والثانى ولي العهد الامير توفيق وقد فضله ولسن لما يعرفه من ضعفه وصلاحيته ليكون آلة فى يد السياسة . ومهما يكن من الامر فقد نقل الي اسماعيل البيان الساحق الحامل نبأ سقوطه وصيرورة امارة الخديوية الى ولده توفيق . وقد كان لاشيل هو الذى قدر عليه أن ينقل هذا النبأ الى اسماعيل . وهنا أخذ اسماعيل كل ما كان في المالية من النقود وجمع كل ما استطاع جمعه من النفائس ومضى الي يخته « المحروسه » ومعه مالا تقل قيمته عن ثلاثة ملايين جنيه .

الفصل الرابع

السياسة البريطانية سنة ١٨٨٠

كانت وفاة كافاماري المحزنة في كابول — تلك الوفاة التي حدثت قبل أن ينتهي صيف سنة ١٨٧٩ والتي ورطت ليتون في حرب جديدة ومتاعب سياسية لا آخر لها — قد وضعت حداً لمشروع السياحة ذلك العام سواء أكان في أفغانستان أم في بلاد العرب ومن ثم قضيت اثني عشر شهراً كاملة في انجلترا وهي من أملأ أيامي بالعمل والمشاغل ومع اني كنت قد بلغت الاربعين من العمر فاني لم أكن الى ذلك الحين قد أديت أي عمل سياسي عام . ولا ألقيت خطبة على جماعة . ولا كتبت مقالا واحداً لاية مجلة أو خطابا لجريدة . وقد حملني الحياء الذي كنت أشعر به في شبابي على الانكماش عن أي عمل في أي شكل كان ولم تزدني تربيتي السياسية الا مقتاً للظهور . ولا يخفى أن السياسة تؤثر الخفية سواء أكان لديها ما تخفيه أم لم يكن فيها . كما انها لا تثق بالاقوال التي تلقى علانية وتغار غيرة شديدة من قلة تبصر الصحف . ولكن الحال لم تلبث أن تغيرت . ومهما كانت الكيفية التي أقنعت بها نفسي بان لي مهمة أؤديها في الشرق ، ثم مهما كانت هذه المهمة مبهمة فقد بدأت أتكلم وأكتب وتغلبت على حيائي الى حد اني ظهرت مرتين على منبر . وكانت أول مرة تكلمت فيها على هذا النحو في اجتماع عقدته الجمعية البريطانية في شيفلد يوم ٢٢ أغسطس وكنت قد دعيت له كسائح ممتاز ، كما دعي سر بابنتو ، وبرازا ، وكاميرون وكلهم ذوو شهرة افريقية وفي هذا الاجتماع عارضت كاميرون في تحبيذه مد خط حديدي في وادي الفرات . وكنت أستطيع أن أتكلم في هذا الشأن بخبرة تزيد على خبرته فانه كان قد أحجم عن السير في الجانب الوعر من هذه المنطقة في العام السابق على الرغم من انه بدأ سياحته بصحة كبيرة . وهذا الجزء هو الواقع بين بغداد وبوشير . أما نحن فقد عبرنا الطريق كله من البحر الى البحر . وقد استأنفت معارضتي في مقال نشرته مجلة « فورتنيتلي رفيو » وهو أول مقال كتبته . وكان حوى

مورلي محرر المجلة حينذاك وقد قدمت له توصية من ليتون واستطعت أن أثير اهتمامه بافكاري الشرقية . وقد عاد علي هذان الحادثان — الخطابة والكتابة — بالثناء الجم وشجعاني على الاستمرار في نشر دعوتي وكنت مشغولا كذلك بقرض الشعر . ثم كان هنالك أيضاً كتاب روحتي عن السياحة « حج الى نجد » لأبوبه وأطبعه . فهذا العمل المضاعف شغلني حد الشغل في الشتاء كله .

على أني لم أشغل نفسي بالسياسة الداخلية قط مع أن الوقت كان وقت أزمة وكان غلادستون — والانتخابات قريبة منه — لا ينفك عن الوعظ والخطابة وكان ميلي مع المحافظين فيما يختص بانجلترا أما في المسائل الشرقية فقد كنت أعتبر غلادستون متعصبا على قلة حبي للأتراك في ذلك الزمن . وكان أصدقائي ماعدا براند وهملتون محافظين ثم أن حبي ليتون حجب عن عيني أسوأ آثام درزائيلي الاستعمارية . وقد نشأت في ذلك الحين فكرة مآلها أن انجلترا قد تصلح أداة خير في الشرق اذا أحسن تفسير معاهدة قبرص . وكنت لازال أترجح فيما يختص بموقفها الاستعماري بين الرجاء والخوف ولم استقر على رأى حتى دونت أفكاري . ومن شواغل ذلك الشتاء الكبيرة عنايتي بتنظيم اصطبلي في كرابت . وكنت فيما يختص به في مراسلة مستمرة مع العالم الرياضي . ومن الغرابة بمكان أن آرائي الخاصة بلحوم الخيل كانت أول فرصة مهدت لي الاتصال بغلادستون كتابة .

وكان عطفه المشهور على يونان القديمة قد أثار فضوله لمعرفة آرائي في خيلها وطريقة تربيتها فأرسل يستوضحني كل ذلك بواسطة المستر نولز محرر مجلة « فورتنيتلي رفيو » فهذا وما حدث من تعيين صديقي ادوارد هاملتون سكرتيراً خصوصياً له حين خلف دزرائيلي في رئاسة الوزارة في ابريل كونا الحلقات التي أدت بعد ذلك الى تراسلنا في الشئون المصرية .

ويتيسر معرفة الثورة الفكرية التي كنت أعيش فيها أثناء ذلك العام سواء أكان في الآداب أم الاجتماع أم السياسة باقتطاف نبذ من مذكرات كنت أخذت في كتابتها في ذلك الحين وسأقصر هذه النبذ على ما كان خاصاً منها بالشرق . والنبذة الاولى يصف فيها لورد سترادفورد رادكليف الذي لبث سفيراً لبريطانيا

فى الاستانة زمناً طويلا والذى يعيش الآن وقد شاخ فى عزلة مع ابنتيه على حدود كنت وسسكس :

مارس سنة ١٨٨٠ — زيارة اللورد رادكليف في فرانت . أعطاني اللورد ورقة عن الاصلاحات فى تركيا . وهو يزمع ارسالها للتيمس وقد قرأتها في فراشي . وهي عمل رجل مسن كلها ابهام وارتباك وليس فيها الاقليل من مضاء العزم . وقد كان الواجب ألا يكتب الشيوخ الا الذكريات . وقد بلغ اللورد الرابعة والتسعين من عمره .

ولكنه مع ذلك شيخ عجيب قد ارتسمت على وجهه أمارات التقوى ولونه مزيج من اللبن وورق الورد وعيناه زرقاوان صافيتان وبياض شعره كبياض الثلج ومع أن سمعه قد ضعف فهو لا يزال يجيد الكلام . وقد رددت عليه بمذكرة أودعتها آرائي في تركية آسيا ثم كنت أقضي معه الصباح مصغياً لذكرياته القديمة فقد كان قائماً بأعمال السفارة البريطانية فى الاستانة حين مر بها لورد بيرون فى سياحته الموصوفة فى قصيدة « تشيلد هارولد » وقد لبث معه ستة أسابيع فى نزهة يومية . وكان بيرون يومئذ لطيف المعاشرة ولم تكن أحاديثه قد امتلأت بكلماته القاذعة . وكان الشيخ رادكليف قد التقى به قبل ذلك سنة ١٨٠٥ فى ملعب كرة اذ كانت تتبارى مدرستا « ايتون وهارو » وكان كل منهما يلعب مع فريق . قال الشيخ « وكان بيرون يلعب الكرة (كركيت) على خير ما يمكنه عرجه » قال وما ملتقط لان أصدق انه كان بين بيرون واللادي كارولين لام أى خطأ حقيق ، وكل ماقى الامر لم يتجاوز الرحمة والرقة والخير وكلها أمور لا تتفق مع ما اشتهر به بيرون . وقد كنت أفضل جلوسي لاستماع هذه الذكريات القديمة على سماع حديث أجمل امرأة فى لندن .

١٦ مارس — تناولت الفطور مع ردفرز ولسن ودارت مناقشات حول شخصية الكولونيل غوردون . والعالم كله متفق على أنه رجل بارع . وقد حكم السودان وحده زهاء أربع سنين واجتث تجارة الرقيق من حدودها . وقد عاد اليوم إلى لندن فلم يكافأ بشيء ولم يره لورد بيكنسفيلد (دزرائيلي) ولا غيره من الوزراء . وقد أخطأ فى أول الامر فيما يختص بعلاقاته معهم وقد مر بباريس في

عودته واجتمع بلورد ليونس في السفارة البريطانية ورجاه في أن يسعى في تعيين خلف أوربي له في السودان . وهدد بأنه اذا لم تعمل الحكومة البريطانية ذلك يذهب إلى الحكومة الفرنسية . وبعد هذا دارت بينه وبين ليونس مراسلات كتب غوردون في خلالها خطابا حاداً يقول في خاتمته « أن من دواعي ارتياحي ثقتي بأنه بعد عشرة أو خمسة عشر عاما يتساوي الجميع . في صندوق أسود طوله ستة أقدام ونصف وعرضه ثلاثة أقدام تودع الرفات سواء أ كانت رفات سفير أم وزير أم رفات خادمك الخاضع المطيع » فهذه الاقوال صيرته مجنوناً في نظر الرجال الرسميين . وكان اليوم قد ترك أوربا ونفض ترابها عن حذائه قاصداً الى زنزبار .

ولست أشك في أن هذه النادرة تمثل أخلاق غوردون كل التمثيل وهي منسجمة مع كثير من الرسائل التي بعث بها الي السير ايفلن بارنج (لورد كرومر) بعد ذلك باربع سنين . وقد كان موظفونا أبداً يكرهونه لتعوده خرق قواعد سياستهم والاخلال بمناهجهم الرسمية . وقد اعتقد بعضهم فيه الجنون واعتقد آخرون انه سكير وآخرون انه متعصب ديني اذا عرضت له مشكلة استفتى فيها انجيله أو اقترع عليها بالقاء قطعة من العملة في الهواء . فلم يفهمه أحد ولا وثق به أحد . في الوقت الذي اكتب عنه — اوائل ربيع سنة ١٨٨٠ كان غوردون مستاءاً جداً من الحكومة البريطانية بسبب الدور الذي لعبته في عزل اسماعيل . وكان غوردون لسبب ما يحب اسماعيل ويكره خلفه توفيق فحين علم في الخرطوم بما حدث تخلى عن الحكم وساءه علي وجه أخص ان خلفه فيه أحد الباشوات الاتراك ولم يخلفه اوربي كما كان يريد . وقد كان غوردون من اهل النبوغ وله كثير من الصفات النبيلة ولكنه كان كذلك مجموعة متناقضات ويظهر ان للموظفين عذراً في اعتقادهم ان عقله لم يكن سليما في كل الاوقات وقد كان هذا هو الرأى الرسمي فيه — كما سيظهر بعد — حتي في الوقت الذي عهد اليه فيه بمأموريته الاخيرة في الخرطوم .

وهناك نبذة أخرى تاريخها ١٦ مارس أيضاً - مررت بالكردينال ماننج وكان حديثنا في السياسة وقد سألني لمن أعطي صوتي في الانتخاب ، فقلت سأعطي صوتي للمحسنين . فقال تريد أن تقول بانك لن تنتخب أبداً فقلت لا أستطيع

لن أثير فى نفسى اهتماماً بمثل هذه الاشياء ، وأنظر الى المدنية كأنها مقضى عليها بالفناء والى السياسة كأنها أداة لا تستطيع أن تقدم النهاية أو تؤخرها . فقال الكردينال هذا هو رأيي وان كنت أبنيه على مسألة أخرى . فى الغالب ان أوربا ترفض المسيحية وترفض معها القانون الادبى . وقد تجدد اليوم حكم القوة على نحو ما كان فى أقدم الاحيان ، ولا يمكن أن يكون لذلك نتيجة غير سفك الدماء والخراب وربما قام على انقاض الكنيسة شيء آخر . ثم تكلمنا عن أشياء فقال ان « رالف كير » أخبره بأن الهنود يعرون خفة وطأة حكمنا هناك الى الخوف وانهم يحترمون الروسيين لانهم يحكمون بالقوانين العرفية . فقلت ان الروسيين أسيويون وهم يحكمون بالطرق الاسيوية — وبالتدليس اذا أمكن — اذا لم يكن بالقوة . وهذا هو مايفهمه الاسيويون . فقال الكردينال ان الروسيين أسيويون كما تقول وأزيد على ذلك ان الجهلمت بوديون وليست الهليستية من نتاج الغرب ولكنها محصول شرقي .

وقد دارت انتخابات سنة ۱۸۸۰ على مسائل السياسة الخارجية أكثر منها على أي شيء آخر . وكان غلادستون قد هاجم بكل قوته مشروعات درزائيلي فى التوسع الاستعماري . ووصف معتقدات الركن الادبى بتداخله فى الاستانة وبرلين لمصلحة الاتراك كما أنحى بأشد اللائمة على استيلائه على قبرص وشرائه أسهم قناة السويس واعتدائه على مصر — كما حمل على حملتي الافغان وعلى حرب جنوبي أفريقيا التى كانت لاتزال ناشبة .

أما فيما يختص بمصر فكان غلادستون قد أعلن آراءه كتابة قبل ذلك اذ كتب مقالا فى عدد أغسطس سنة ۱۸۷۷ من « مجلة القرن التاسع » بعنوان « الاعتداء على مصر » وأعرب فيه بعبارة جلية قوية عن معارضة أخذ انجلترا على عاتقها أية مسئولية على ضفاف النيل . وهذا المقال من الشهرة والترفع عن المساوىء التي أصابت مصر على يديه بحيث يجب أن نقتطف شيئاً منه . وقد ذكر في هذا المقال انه يعارض فى اعتداء كهذا لعدة أسباب . أولا — لأنه يزيد فى ثقل الحكم الشرقي الموضوع على عاتق بريطانيا والذى أصبح ثقله عظيما الى الآن ثانياً — لان توسيع الحكم الاستعماري لايمكن الا بوسائط شائنة . ثالثاً — لان زعم حماية طريق

الهند باحتلال وادى النيل زعم كاذب لان طريق رأس الرجاء الصالح هو طريق المواصلة الحقيق ورابعاً لان أى تدخل فى قناة السويس أو فى القاهرة لا بد أن يؤدى الى محاربات أخرى فى أفريقيا . قال « وسواء اشترينا وجودنا فى مصر ثم سرقناه فلا شك فى أنه سيكون نواة امبراطورية فى شمال افريقيا وهى امبراطورية لا بد أن تنمو حتى تصل الى منابع النحر الابيض وحتى تصل أيدينا منها — فوق خط الاستواء الى أيدينا الأخرى فى ناتال وكاب تون دع عنك الترنسفال والبرتقال فى الجنوب والحبشة وزنزبار اللتين تبتلعان أثناء السياحة . وقد نقنع من حيث سعة الاراضى بامبراطورية فى كل ركن من الاركان الاربعة ولكننا لن نكون منها آمنين . »

ثم كتب كذلك فى معنى المحافظة على الحكومة الذاتية الاسلامية فى القاهرة فقال « ان الاحساسات التى قد يؤديها فى مصر سوف تكون معقولة وعادلة لأنها مأهولة من قرون كثيرة بشعب اسلامى وقد حكمت هذا الشعب سلطات اسلامية وكان لمصر فى وقت من الاوقات سلاطين . وكانت مستقلة استقلالا داخلياً أثناء التبعية التركية وهذه حالة سعيدة فى أى بلاد كانت فلا يجوز لنا أن نغيرها . ثم ان شكاوى الناس هناك جسيمة ولكن لا يوجد دليل على انها تستعصي على الشفاء . لقد أظهرت التجارب أن الاسلام لا يستطيع أن يؤسس حكومة صالحة على الشعوب المتمدينة المسيحية ولكن أى دليل لدينا على أن الحالة لا تكون كذلك. وانه يمكن تحقيق الاغراض السياسية اذا كانت الحكومة الاسلامية مسيطرة على شعب اسلامي حيث لا يوجد مناقضات الدم او الدين أو العادات أو أساليب التعبير » ثم تكهن بالمشكلة التي تنشأ بين بريطانيا وفرنسا على مصر فقال : « أعتقد أن اليوم الذى يشهد احتلالنا مصر يشهد كذلك توديعنا كل ما بيننا وبين فرنسا من العلاقات السياسية الودية . ثم أنه قد لا يحدث عراك في الحال ولا مظاهرات خارجية ولكن سيكون حقد ساكن متأصل كذلك الحقد الذى كانت تضمره أمريكا لنا أثناء الحرب الاهلية وهو الحقد الذى انطفأ الآن. وغنى عن البيان أن الامم قوية الذاكرات » وقد ختم هذا المقال بدعوة حارة سأل الله فيها أن يسد دسائس الوزارات ويحقق تحرير الشرق قال : « ان الارض لم تنم مثل هذا الانقلاد

من أجيال طويلة ولا يسعنا نحن الانجليز ألا أن نحزن ونألم لأننا لم نقدم شيئاً في هذا السبيل على أنه كيفما حدث فاني أرجو أن لانقع في شر من هذا القعود . وأخيراً لنا الرجاء بعدم الوقوع في الخطأ العمد مضافا إلى التخلي عن الواجب »

ولم يكن في طاقتي الا أن أعطف على هذه التصريحات النبيلة التي كررها غلادستون في خطبة أثناء الحملة الانتخابية في سنة ١٨٨٠ لو أنها كانت قيلت بإخلاص أو على قواعد السياسة التي اعتزم الاحرار أن يسيروا عليها اذا هم تولوا الحكم . ولكن غلادستون لم يوح الي في ذلك الحين شيئاً من الثقة وخيل الى أن الفرق بين المحافظين والاحرار كان طفيفا .

٢٠ مارس تعشى معنا اليوم جون بولن سكرتير لورد ريبون الخاص . وقد تكلمنا في الانتخابات وقلنا انه لا يوجد فرق يذكر بين المحافظين والاحرار ولن أعطي صوتي . ومع أن سياسة سلسبري ليست خسيسة كسياسة لورد عراميل أو غلادستون فانها اميل الى الالمانيين من أن ترضيني ولا شك في أن نزول المانيا في الاستانة يكون أسوأ من أى شيء يستطيع الروسيون أن يفعلوه .

٦ ابريل — باريس . (كانت الانتخابات قد انتهت وأسفرت عن أغلبية كبرى للاحرار) تناولت الفطور أنا وجود فرى وب ترز (ابن عمي فرنسيس جون كرى) ثم ذهبت إلى السفارة . شفيلد (سكرتير لورد ريبون الخاص) مباه بحكومة الاحرار الجديدة وبما قاله لمرنجتون وبما قاله غرنفيل له . ومع اني معتكف عن السياسة أظن ان نجاح غلادستون نكبة كبرى . والاحرار اقوياء جداً فلامناص من ان نرى لهم تجارب كثيرة على الدستور البريطاني. وستعطل الآن كل قوانين الالعاب والاراضي. وكذلك سوف يطرأ على سياستنا الاسيوية من التعديل والتهذيب ما نتوقعه . ولا يعرف الاحرار شيئاً عن الشرق وسيجنون عن عكس سياسة المحافظين كما يخافون تنفيذها كما هي الي النهاية . وسيعملون على اصلاح تركيا ومتى تعذر عليهم الاصلاح طاشت احلامهم واندفعوا الى الحرب . وقد ساءني هذا التغيير شخصياً اذ لابد ان يستقيل ليتون مع الوزارة فتقوم الموانع بيننا وبين زيارة الهند في الشتاء القادم ، ولكن هذه كلها أشياء تافهة في سير التاريخ .

٩ ابريل — باريس . جاءني خطاب من آن مفعم بالسياسة . سيأخذ هارنجتون رئاسة الوزارة ويأخذ البحرية غوشن والمالية غلادستون . ولن يتغير شيء في السياسة الخارجية فستحتفظ بقبرص وتشاكس روسيا وتدار تركيا من غاليبولي ولا يعرف لورد ريبون محله ان كان سيكون للعمل . ولا زلت اسمعهم يصفون مدام نوفيكوف (١) بانها نجمة غلادستون السعيدة ... تعشيت مع آدمز سكرتير السفارة الاول وقابلت هناك رفرز ولسن الذي يذهب غداً الى مصر مع دابيني وسوليمان وسيقوم ولسن بمهمة التصفية.

٢٦ ابريل — عدت الى انجلترا حيث أصبح غلادستون موضوع حديث الناس وقد تقلد رئاسة الوزارة واحاط نفسه بجماعة معدومة الكفاءة مثل تشيلدرز ورايت وغرانفيل . وسيأخذ هارنجتون الذي هو رجل من الطراز الثاني وزارة الهند ويذهب إلي الهند ريبون ولايزال هذا الترتيب الاخير سراً .

وعلى ذلك لم يفعل غلادستون شيئاً جديا في سبيل تنفيذ السياسة الذي كان يعظ بها غير ارسال ريبون إلي الهند . وريبون هذا ليس بالرجل النابغ ولكنه رجل جد واستقامة . وقد أخذ علي عاتقه مهمة الاحتفاظ بالسلم علي الحدود الهنديه والشروع في سياسة جديدة الغرض منها تنفيذ المنشور الملكي الخاص بالحكم الذاتي بين الوطنيين . وقد أخذ معه غوردون كسكرتير خصوصي فاثار دهشة العالم الرسمي الذي كان يعد غوردون مجنونا . وعندي أنه لم يكن يستطيع أن يبرهن علي حسن نيته نحو الهندوديين أكثر من هذا . علي أن غوردون لم يكن من طراز السكرتيرين الخصوصيين حتي مع رئيس كريبون فلم يكد يصل في بومباي حتي استقال . ولا أحسب أن ريبون كان مخطئاً في اختياره بل أعتقد أن الاستقالة ترجع إلي ثورة غوردون علي جميع القوانين والعادات . وسأصف حكم ريبون في الهند عندما أصل إلي سياحتي الهندية الثانية في سنة ١٨٨٤ . ويكفي أن أقول هنا أنه اذا لم يكن أفاد كثيراً فذلك

---

(١) كانت مدام نوفيكوف امرأة فتانة في خدمة الحكومة الروسية وكانت قد جاءت الى انجلترا قبل هذا التاريخ بقليل وزارتنا في كرابت وقد مكثت معنا اسبوعاً ثم مضت ووقفت الى فتح سيلمي مع غلادستون .

رجع إلي جبن الحكومة الانجليزية لا اليه ، وقد مرق مروق السهم في الطريق التى رسمت له في أول أمر ولكنه — كالطفل الذى يسبق اخوانه فيضحكون منه بالتباطؤ والوقوف ليجد نفسه منفرداً — وجد نفسه لشدة دهشه يجرى منفرداً وقد اتخذ الوزراء يضحكون من مثابرته بعد أن عبروا آراءهم ولم يخبروه بذلك . ولا بد أن يكون قد تألم كثيراً عند ما اضطر هو أيضاً إلي التسليم . وقد أعطيت جميع المناصب العليا الاخري إلي الاحرار فتقلد لورد عرانفيل وزارة الخارجية وهو نبيل حسن ، لطيف العشرة ، يجيد اللغة الفرنسية ولكنه أصم كسلان . وسياسته من الطراز القديم — طراز التأجيل والتسويف الذى لا يعمل اليوم مايستطيع أن يؤجله للغد . أو كما كان يقول سياسة التخبط وترك الاشياء تصلح نفسها ولم يكن ينتظر من مثل هذا الوزير أن يأتي بسياسة جديدة والواقع أنه لم يحاول جديداً في تركيا أو مصر أو في مكان آخر . فلم ترص معاهدة قبرص ولا حولت إلى أي غرض نافع واذا استثنينا الضغط الضعيف الذى بسط على الباب العالي فيما يختص بحدود الجبل الاسود واليونان نستطيع القول بأن كل قديم بقى على قدمه .

وغاية ماحدث ان استدعى لايارد واصبح المعاهدة من الاستانة وعين غوشن مكانه وهو نفس غوشن الذى كان قبل ثلاث سنين من ذلك العهد اجرى التسوية الظالمة لحملة السندات وقومه — شركة غوشن وفرهيج — منهم والعمل الوحيد الذى يدل على ان وزير الخارجية كان يذكر حملة غلادستون على الاتراك ، وكل ما عمله ليبرهن على ان غلادستون كان مصيبا كما كان دزرائيلي وسلسبري مخطئين هو انه خلافا لما تقضي به تقاليد وزارة الخارجية ولوائحها نشر تلغرافا سريا كان لايارد قد ناقض فيه جميع ماأعلنه في تلغرافاته غير السرية عن الحالة في الاستانة .

وقد اوضح في هذه الوثيقة المشئومة كل سوءات عبد الحميد وضعفه ولا سيما جبنه الشخصي . وفصل مالم يكن العالم الخارجي يعرف شيئاً عن حقيقته من نظام الجاسوسية في حكومته . وكان نشر هذا التلغراف خيانة كبرى للايارد ثم انه كان عملا طائشاً لانزال سياستنا في الاستانة ترزح تحت اعبائه . وقد كان لايارد صديق عبد الحميد الحميم ونال من جوائزه مالا يناله سفير اجنبي فوق العادة . وقد

اظهر السلطان نفسه للايارد كما يظهر نفسه لصديق يستطيع الاعتماد عليه فلما انكشف له ما اعتبره هو خيانة من لايارد فقدت انجلترا مودته إلى الابد .

ومع ذلك وعلي الرغم من أن الموقف فى وزارة الخارجية لم يكن مشجعاً صممت رغبة في انجاح دعوتي أن أحصل على عطف رئيس الوزارة علي مشروعاتى وقد شجعنى على ذلك تعيين أحد أصدقائي الحميمين سكرتيراً خاصاً له وهو ادوارد هاملتون « والآن الجنرال السير ادوارد هاملتون » الذى قال انه مهما يكن من تقلب الاحوال الخارجية فان عطف غلادستون على الحرية الشرقية لم يضعف . ولم أخف عن هاملتون شيئاً من آرائى ومشروعاتي وقد ذكر لي انه لا يعوزنى لاقناع غلادستون بها الا أن انشرها كتابة . وهناك رسائل أخري اعتقدنا انه يمكن التأثير بها فى غلادستون وهي مفصلة فى مذكراتى .

١٢ يونيو — أخذنى هاملتون لزيارة السيدة ل . التي تسكن بيتاً كبيراً فى ميدان م . وهي ارلنديه سمينة طيبة تبلغ الخمسين كثيرة الكلام والتحريض وليس فيها أثر للجمال ولا لأي شيء آخر . وهي احدي نجوم غلادستون وكانت زيارتنا لها نصف سياسية حيث كان قد بدا لي أن افتحها بآرائى العربيه وافتح رئيس الوزارة بواسطتها . وهي عطوفة علي الذين رأتهم من العرب ولها اهتمام كبير بالشرق . وقد قرأت لنا بحماس رواية كانت تضعها على هيرود وكليوبترا ويوليوس قيصر . وهي رواية كئيبة وان كانت قد أكدت لنا ان غلادستون معجب بها كل الاعجاب.

دعونا رولاند وجورج ولن ولورنس اوليفانت للعشاء ، وهذا الاخير ذو شخصية جذابة وقد عاد تواً من الاستانة حيث كان مجتهد في أخذ امتياز من السلطان باراض وراء الاردن ليستعمرها أبناء اسرائيل .

٢٢ يونيو — دعونا آل بلودن للعشاء وكذلك ادوارد هاملتون الذى هو الآن سكرتير غلادستون الخاص . وسيذهب بلودن غداً الي بغداد كقيم سياسي وقد فتحته هو وهاملتون بآرائى فى المسألة الشرقية.

٢٦ يونيو — زارنا لورد كالتروب وبرسي وندهام . وكتبي ليفيت فى كرابيت وعرضنا الخيل . وقال لي الاول انه اطلع كثيراً من أعضاء نادى ركاب الخيل على

خطابي الخاص بخيل السباق العربية وانه سيعرض المسألة فى اجتماعات النادي خلال الشهر القادم وانه حينئذ يحق لنا أن نقدر النجاح . واذا استطعت أن أدخل انجلترا خيلا عربية أصيلة تتناسل فيها واستطعت أن أحرر بلاد العرب من حكم الأتراك أكون لم أعش عبثاً . ظهر فى جريدة سبيكتيتور خطابى الرابع عن « السياسة فى بلاد العرب الوسطى » وأعلنت. . . . مجلة فورتنيتلى رفيو عن مقالى « وارث السلطان فى آسيا » . ذهبت بعد حين الى وزارة الخارجية حيث أثني لورد نورثبروك على خطاباتي (وهي أول خطابات أرسلتها الى الصحف) وكان السير جارنت ولسلي هناك وهو رجل قصير به نشاط ورعدة . ويشق على المرء أن يتصور أنه قائد عظيم وقد ذكرته بزيارتنا لقبرص فقال « أظن لادى آن تكتب كتابا » فقلت نعم ولكننا لم نذكر فيه شيئا عن قبرص . فقال انكما لم تمكثا فيها وقتا كافياً . فقلت لقد ظننا أنه لا يحسن بنا أن نذكر شيئا عنها .

كانت مقالة « وارث السلطان فى آسيا » قد قصدنا بها كما أسلفت لفت نظر غلادستون الي آرائي وقد نجحت فى ذلك بواسطة هاملتون الذي عرضها لنظره وان كان لم يعجبه فيها الا أقل ما يمكن تنفيذه ، وما كان قليل الاهمية فى نظرى ان تصبح المقاطعات الارمنية كولايات مستقلة فى المستقبل . وكانت الفكرة التى شرحتها هي أنه اذا كان قد منح الاستقلال لجزء من تركية أوربا فقد وجب أن نشجع الأجزاء الاسيوية الاخرى على انحلال الامبراطورية على أن تؤلف من نفسها ايالات مستقلة وفاقا لجنسيتها .

وقد دعوت المستر غلادستون باسمه إلى أن يحقق كلماته التى القاها حديثاً وأكثر منها فى مصلحة حرية الشرق وذلك بأن يستخدم الاداة التى صنعها أسلافه — معاهدة قبرص — لا فى تحقيق مقاصد انجلترا الانانية الاستعمارية بل في مصلحة شعوب الشرق . وكان من وراء نشر هذه المقالة فى مجلة « فورتنيتلى رفيو » ان دعيت الي ديوان الوزارة فى « دوننج استريت » حيث أعطيت فرصة سرد آرائي وتأييدها أمام رئيس الوزارة . وسيتضح أن شخصيته لم تؤثر كثيرا فى هذا اللقاء الاول ولكني تشجعت على استيفاء أوجه الرأى ومن ذلك الحين كان

غلادستون يعتد بعض الاعتداد الآراء التي كانت تصله مني بواسطة هاملتون .

٢٧ يوليو — مررت على ا . الذي وجدت معه كونغريف آخذ في الحال يشرح لنا آراءه الدينية في حالة انفعال وتحمس . قال ان هنالك كائنا أعلى ، لا آلها آدميا ، ووجدانا يهدي المرء في بحثه عن الكمال . والقاعدة الرئيسية هي الثقة بالانسانية . والواجب الرئيسي هو الولوع بالجسد والروح الى أوج الكمال . ولم يكن المراكز بالمتكلم الذرب اللسان فاقترح أن يتلو علينا شعراً بدلا من الشرح والبيان . وهو شعر قرضه — وبينما كنا في انتظار التلاوة دخل فيليب كري ومعه شيخ قصير ذو أنف طويل وعينين سوداوين وهو ملكام خان السفير الفارسي . وقد جلسنا بينما أخذ كونغريف يتلو الشعر وهو شعر مبهم وعظي متعب يبتدىء بالمادة وينتهي بالانسانية . فلما فرغ تكلم الشرقي .

قال « ربما كان يهمكم أن تسمعوا حكاية دين أسس في فارس قبل مضي عدة سنين وقد كنت رعيته في يوم من الايام . وهذه الحكاية تريكم بمنشأ الديانات وأن مذهب الانسانية يصلح لآسيا كما يصلح لاوربا .

« وعندي ان أوربا عاجزة عن أن تنشىء ديناً حقيقياً يستولي على أرواح الرجال كما أن آسيا عاجزة عن أن تنشىء نظاماً سياسياً . ان عقل آسيا خيالي كما أن عقل أوربا عملي . اننا ننتج في فارس كل يوم « مسيحاً جديداً » وعندنا « أبناء الله » في كل قرية ، وشهداء في سبيل الله في كل بلدة وقد رأيت بنفسي مئات من البابيين يتحملون الموت والتعذيب من أجل ايمانهم برسول لا تختلف تعاليمه عن تعاليم المسيح وقد صلب كما صلب المسيح . ان المسيحية لا تعدو أن تكون ديناً من مئات الاديان التي أظهرها بين الناس ايمان بعضهم بها . ولو أنها بقيت ايماناً أسيوياً لزالت من الوجود منذ زمان طويل كما زال مائة مثلها من التعاليم الادبية التي وجدت قبلها وبعدها . وقد أنشأت في شبابي — كما أخبرتكم ديناً ، كان له في وقت من الاوقات ٣٠,٠٠٠ تابع . ولقد ولدت أرمنياً مسيحياً ولكني نشأت بين المسلمين وطريقة تفكيري هي نفس طريقتهم وكنت أخاً في الرضاعة للشاه . فلما ولي الملك جعلني رئيس وزارته . فلما بلغت العشرين كنت حاكما مطلقاً على فارس . وقد

رأيت مساوي، الحكم وتدهور الرفاهية المادية في البلاد فساورتني فكرة الاصلاح . فذهبت الى أوربا ودرست فيها نظم الدين والاجتماع والسياسة المتبعة في الغرب وعرفت فيها نزعات فرق المسيحية المختلفة وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والهيئات الماسونية وألفت مشروعا يجمع بين حكمة أوربا السياسية وحكمة آسيا الدينية .

وقد أدركت عبث الاجتهاد في تنظيم فارس على مثال أوربا فصممت على إلباس مشروعي اللباس الذي يفهمه الناس هناك — لباس الدين . فلما عدت جمعت زعماء طهران وأصدقائي ممن يري حاجة الاسلام الى الاصلاح موجها توسلاتي الى نبلهم الادبي ومحتدهم . وفي فارس كلمتان يعبر بهما عن الرجل — الانسان من اللغة العربية وآدم التي هي اشتقاق فارسي . وتدل الكلمة الثانية على الرجل العبقري — وهو نوع خاص من الحيوان أما الثانية فتدل على كائن أدبي ممتاز فقلت لهم كلكم يفاخر بانه أكثر من مجرد « آدم » وانه لذلك « انسان » ولكي أمكنكم من أن تبرروا في هذا الزعم أنصحكم بأن تفعلوا هذا وذاك . وقد وجدوا كلهم كلامي على حق وفي وقت قصير كان لي ٣٠،٠٠٠ تابع وتحت ستر الاصلاح الديني نفذت ما استطعت من الاصلاحات المادية . فلصاحبي يرجع الفضل في انشاء التلغراف وتنظيم مصالح الادارة . ولكن كثيراً من هذه الاصلاحات التي حاولناها قد أدركه الفناء ولم يكن لدي في أول الامر نية انشاء دين ولكن أتباعي أرغموني على أن أكون قديسا ونبيا فقد لقبوني « بالطيف المقدس » ولقبوا الشاه « بمصلح الاسلام » فوضعت كتابا « انجيلا بديني وأصر المتحمسون من أتباعي على ان أجيء بالمعجزات . وأخيرا راع الشاه نمو قوتي التي سارت في الحقيقة أعظم من قوته . فصمم رغم صداقتنا على قتلي كما صمم أتباعي على قتله . وعاش شهرين في خوف دائم من الاغتيال ثم تفاهمنا . لقد كنت أحب الشاه وأحترمه فاستأذنته في السفر وقد ودعني أتباعي بالدموع وقبل الموالون أقدامي فذهبت الى الآستانة معتزما أن أحصل من السلطان على اذن بالاقامة في بغداد وقد ذهبت اليها فعلا وصار لى فيها أتباع من الفارسيين المقيمين فيها ومن أهل بغداد الشيعيين ولكن الأتراك خدعوني واضطررت للرحيل قبل أن أتم عملي . وقد طلب أتباعي في فارس أن أعود اليهم ولكنني لم أعد لعدة

أسباب . فأولا خشيت أن أموت لدين لا يؤمن به . وثانياً كانت صحتي منحرفة .
وثالثاً كنت قد تزوجت فكتبت الى الشاه الذي رد باستعداده لتقليدي أي منصب
قد ترث البقاء في الخارج وقبلت منصب سفير لدى جميع الدول الاوربية .

وكان من الغرابة بمكان أن يسمع الانسان هـذا الشيخ القصير ذي الملابس
الاوربية يتكلم مجيداً الفرنسية الى أقصى حد راويا حكاية جد شرقية . وقد ذهبت
معه الى منزله فيما بعد (وكان يسكن على الجانب الآخر من هيدمارك) ووصل لي
آراءه في الشرق والعرب اللذين يعرفهما معرفة دقيقة فتركته معتقداً انه أعظم
شخصية التقيت بها في حياتي ومؤمناً أكثر من كل وقت آخر بتفوق العقل الشرقي
في الذكاء . وأي رحل في أوربا كان يستطيع أن يجعل الانسان يشعر بأنه طفل ...!

وقد كان لهذه المقابلة العرضية في دار سيدة لطيفة في ملجرافيا وفي قلب
لندن أعمق تأثير في نفسي وقد أحدثت ثورة في آرائي الى حد ما . والي هذه المقابلة
وما أعقبها من الاحاديث مع هذه الشخصية الفريدة يرجع الاعتقاد الذي عرفني
بعد ذلك وهي اني أخطأت في اختيار نقطة الابتـداء في كل ما يختص بآرائي في
تحرير الشرق واصلاحه وانه اذا لم يكن بد من أن أعمل عملا صالحـاً للعرب أو غيرهم
من المسلمين الذين يحكمهم الاتراك فانه يجب علي بادي بدء أن أعرف أفكارهم
الدينية حق المعرفة . وكنت الى الآن قد حللت بينهم كغريب عن آرائهم الحديه
علي الرغم من عطفي عليهم وان لم تكن ساورتني فيهم آراء كالتي تعرض للمسيحيين

لقد تعلمت أن أحترم الاسلام ولـكنني لم أفهمه ولم أتناقش في تعاليمه مع أي
عالم تشريعي أو حبير برأيه العصري . وقد رأيت في الحال ضعف موقفي لا بل عبثه
وصممت قبل أن أسـير في طريقي على أن أخصص الشتاء القادم لدرس نقط ذلك
الدين الرئيسية علي الاقل من وجهة تأثيرها في السياسة . وعلى هذا رسمت مشروعات
الشتاء وكان رأيي أن أذهب الى جدة في وقت الحج وهناك أدرس على خير ما أستطيع
ثم انتهز الفرصة التي قد تعرض لي لاستئناف العمل . وقد اوفق الى أختراق بلاد
العرب مرة أخرى من الحجاز ان امكن أو من اليمن الى نجد . وكنت أحسب اني قد
أجد من الوهابيين العلم الذي يلقي العقيدة العربية في الدين من حيث تعارضها مع

العقيدة التركية فيه ، وانى قد استطيع أن أقوم معه بحركة اصلاح أضع أنا عناصرها السياسية ويضع هو العناصر الدينية . ومع ظهور هذه الفكرة صدقت بها في ذلك الحين واعترافى بذلك يفسر لقرائي المصريين كيف اتفق ان سلكت الخطة التي سلكتها فى القاهرة بعد ذلك بعام .

وكنت متأثراً كذلك فى لندن خلال ذلك الحين بشرقي علامة آخر يدعى صاونجي وكنت قد تعرفت به كأستاذ في العربية . وهو من أصل مسيحي مثل مالكام خان وقد أزمع مرة أن يكون قسيساً واشتغل فى نشر الدعوة فى روما ولكنه صد عن المسوح في آخر الامر وكان كالسفير يعطف علي الدين الاسلامي أكثر من عطفه علي دينه . وكانت له شهرة عظيمة كعالم عربي وله خبرة تامة بالمسائل التى نصفها سياسي ونصفها دينى والتى كان المسلمون يتناقشون فيها فى ذلك الحين . وقد قام بالعمل الرئيسى المرحوم الدكتور بادجر فى القاموس العربي الانجليزى المسمي باسم الدكتور وكان يصدر في لندن يومئذ جريدة عربية اسمها « النحلة » ويكتب فيها كل شهر عظة اسلامية للمسلمين على أساس الآراء العصرية الراقية أما تمويل تلك الجريدة الصغيرة فكان لغزاً وكذلك كانت أغراضه من اصداره وهي أغراض لم أسبر أعماقها قط . وتتلخص روايته لتلك الاغراض فى انه وكيل عن سلطان زنجبار وهو حاكم مستنير حر العقل والتفكير . ولكنى ما اقتنعت قط بهذا التعبير . ولدى من الاسباب التي وقفت عليها بعدئذ ما يحملني على الاعتقاد بان أموالها وبعض وحيها السياسي علي الاقل كان يأتى من الخديو اسماعيل . وكان اسماعيل في ذلك الحين غاضباً على الباب العالى الذى غدر به أمام أوربا . وكانت « النحلة » تحمل على عبد الحميد حملات عنيفة وتتهمه باغتصاب لقب « أمير المؤمنين » .

ولا أذكر الآن هل عرفت أول مرة تاريخ الخلافة وموقفها المعاصر من صاونجي أو من مالكام خان . ولكنها — وأنا علي ما أنا عليه من معارضة الحكم العثمانى — أثرت فى من وجهة أهميتها بالنسبة لنوع الاصلاح الذى كنت أنشده الآن . وفي مذكراتي ما يثبت انى أرسلت مذكرة الي غلادستون في هذا الشأن . ولدى خطاب من هاملتون يدل على أن الوزراء اهتموا برأيي .

٣ يوليو — حفلة شاي في منزل ا . ومن المدعوين رولاند ودرافن واليفانت وقد خلوت بالاخيرين في احدى الغرف فكانت النتيجة أن اتفقنا على أن نعمل معاً في المسألة الشرقية لكي نؤثر على الرأي العام البريطاني . وصممنا على أن نعقد اجتماعاً تمهيديا عند رولاند يوم الخميس

٨ — مررت بيرسي وندهام واقنعته بمذهبي السياسي . وتلقيت زيادة في الموضوع نفسه من المستر جيمس العصو في مجلس النواب . وتعشيت مع درافن واليفانت وأنواي ورسي وندهام وهنري براند وهونيكر محرر مجلة « اليفانت هرالد » في فندق الفر . والغرض من ذلك ان نضم خطة للعمل بقصد التأثير في الرأى البريطاني العام فيما يتعلق با سيا . ولم نعمل شيئًا معيناً غير تأليف لجنة لتلقى الاخبار . ذهبت بعد ذلك الى باريس حيث التقيت برجل يدعي روبرتسون سميث وكان حديثاً في الحجاز (وهو أستاذ معروف)

١٣ يوليو — دعينا الي حفلة عند قرينة غلادستون . وقد بكرنا في الذهاب وقبل أن يأتي سائر المدعوين تحادثت مع الرجل العظيم عشرين دقيقة ففصلت له آرائي في احياء الشرق ، فلاح لى انه اهتم بها علي قدر مايستطيع أن يهتم بها رجل يجهل المسئلة . وقد بدت لي ملاحظاته سطحية وكانت أسئلته مناقضة للاسئلة التي ألقاها على سلسبري منذ ثلاث سنين . وكانت النار قد أطلقت علي باخرة بريطانية في نهر الدجلة فقال لى انه يخشي أن تكون هذه الحادثة دليلا على عداء لبريطانيا من ناحية العرب .

وقد اعتبر حالة الامبراطورية العثمانية « حرجة » وقال انه يرجح ان الشرق لم يمر به مثل هذا الوقت العصيب .

ولو ان معاهدة سان استفانو كانت نفذت لما تحرجت حال تركيا اكثر مما هى الآن . ومهما يكن من هذه الآراء أظن اني نجحت في ارضائه بفكرتين : الاولى هي أن بقاء الخلافة في بيت عثمان ليس ضروريا . والثانية هي أن مدحت باشا كان أبله . ولكن غلادستون لم يعقد النية علي أمر بل عول علي أن يسير على مقتضي الظروف حتي تقع الواقعة .

١٥ يوليو — حضرت اجتماع عقده المشتغلون بالمسائل الاسيوية . وذهبت بعد الظهر الي الدماستون وهي حديقة أنيقة فيها منزل عصري متعب وكنت أظن السير هنري لايارد من أهل الدعاوي والخيلاء ولكني وجدته لطيفاً ومتواضعاً بالنسبة لمركزه ، وهو يحسن التكلم ولا سيما فيما يختص بسياحاتنا ويفهم الشرق حق الفهم وقد ذكرني بسكين وورلامد وكانا من السائحين في عهده القديم وعندى أن مذكرات لايارد تبعث من الاهتمام واللذة ما لا تبعثه مذكرات رجل آخر من أبناء هذا الجيل ، ويتضمن ارتقاؤه من افاق متجول بين الاكراد الى سفير بريطاني لدى الباب العالي كل ما في الحياة البشرية من عناصر الرواية .

١٧ يوليو — اجتمعت بالسير شارلس دايك وكيل وزارة الخارجية فشرحت له فكرتي في الذهاب الى نجد خلال هذا الخريف مع عبد الله بن السعود ولشد ما دهشت حين خيل لي انه يوافق علي ذلك ، ومع ان محادثتنا لم تكن طويلة قد تركتني مقتنعاً بان دايك رجل عظيم . وكانت أسئلته جلية وفي الموضوع . فلما فهم المسألة كتب مشروع تلغراف الى غوشن في الاستانة . ثم كلفني أن أذهب الي تنتردن (مدير الخارجية الدائم) لمعرفة التفصيلات . وكانت الفكرة التي استغرقتني في ذلك الحين هي الذهاب الى بلاد العرب وترؤس حركة يقصد بها اعادة استقلال العرب .

ولم يكن مضى على السير دايك سنة ١٨٨٠ في وزارة الخارجية الا بضعة أشهر على انه قد قدر له أن يلعب دوراً هاما في المسألة المصرية سنة ١٨٨٢ . وكان هو وصديقه السياسي شمبرلين ورايت يمثلون العنصر المتطرف في الحكومة الجديدة . علي أنهما لم يكونا من الطبقة التي يعين الوزراء البريطانيون منها عادة بل كانا من رجال الطبقة المتوسطة ولا زلت أذكر النفور الذي قوبل به تعيين ذلك في وزارة الخارجية حين أن الدعاوى الارستقراطية تقليدية بين الكتبة ولكن ذلك لم يلبث أن ظهر معدنه بالطريق التي قبض بها على عمله في يده وبما هو أحدى معهم من ذلك ألا وهو استخدام اصطلاحات فرنسية في حديثه كما هي ميزة موظفي وزارة الخارجية . لذلك لم يمض وقت قصير حتي وجد نفسه لا محتملا فقط ولكن محبوبا

أما عبد الله ابن السعود المشار اليه في مذكرتي فهو عبد الله ابن ذيبان بن سعود

من بيت الامارة في محمد . وكان قد وجد سبيله الي الاستانة ولجأ فيها الى السفارة البريطانية طالباً المساعدة ليحصل أو يستعيد مركزاً سياسياً فقده فى بلاده . وقد سمعت به من كري ثم رميت الى هذه النتيجة وهي انه قد يكون الفرصة التي أنشدها فى بلاد العرب . ومن ثم طلبت الى وزارة الخارجية أن نصل بيني وبينه وتوافق على سفرى المرسوم . ولكن المشروع لم ينته بأية نتيجة بالرغم من موافقة وزارة الخارجية كما مر بك وذلك لان لورد تنتردن عارض فى المسألة حين عرضت عليه قائلا أن المشروع اذا تم بموافقة وزارة الخارجية تعتبر المسألة كلها مهمة سرية ومثل هذه المهمات لا يتفق مع تقاليد وزارة الخارجية . وعلى ذلك انتهي المشروع . وكانت أنباء هزيمة الجيش البريطانى فى قندهار بواسطة الافغانيين قد وصلت الى لندن فى ذلك الحين وضاعفت حذر الوزارة فى دوننج ستريت . وكانت الهزيمة ضربة حاسمة لليتون ولسياسة المجازفة وراء الحدود الهندية وهي السياسة التى استعارها لنفسه . وأظن انه لم يمر وقت ظهر فيه حظ بريطانيا الاستعمارى فى مثل الهبوط الذي ظهر فيه في ذلك الحين.

٥ أغسطس — سافرنا الى بورتسموث لاستقبال ليتون وأسرته الذين جاءنا منهم تلغراف ينبيء بوصولهم غداً أو بعد غد . وبورتسموث هذه مدينة غريبة على الطرز القديم ليس فيها فندق طيب الى الآن ونزلنا فى فندق «النجمة ورباط الساق» وفى المنزل المقابل للفندق تمثال نصفى لنلسون ويستطيع الانسان أن يرى من النافذة سان فنسنت وفكتورى ومهما علم من قلة مبالاة الانسان بوطنه — والله يعلم انى لست كذلك — فلا يسعه الا أن يتأثر بهذه الآثار الدالة على عظمة انجلترا . ولم أكن حتى الآن قد أدركت تدهور حالها منذ ستين عاماً الى الآن . وأى صدمة كان يصاب بها نلسون وزملاؤه لو أنهم رأوا صحف اليوم غلاها انجلترا فى محاربة تركيا بغير معاونة خارجية ومالآمال الدنيئة فى أن ترى فرنسا طريقاً لمساعدتنا على اجتياز صعوبات فى الشرق. بل هذه الامور كانت تشغل فكري فضلا عن اشتغاله بعودة ليتون — ليتون الذي اذا ساءت حال الهند — سوف يسجل عليه التاريخ انه أول الخائنين من نواب الامبراطورية فى حكم الهند والمسئول عن ضياعها

وغنى عن البيان ان هذه كلها أمور تورث الانسان حزناً لا يستطيع وصفه . ومع ذلك لم أكن واحداً من أولئك الذين اقاموا مناحة على سياسة ليتون وطريقة تمييدها فقد كانت ضرورية وبعدت شجاعة ونجاح . وقد ظهر فى تاريخ تدهور انجلترا لا يشيء الا انه هو نفسه ظاهر . ولم يكن في استطاعته أن يصد تيار الحوادث فدفع معها محاولا قيادتها على خير مايستطيع ولكنه لم يستطع أن يعمل أكثر من ذلك . وعندي أن أسباب تدهور انجلترا أسباب واسعة لا يمكن القاء مسئوليتها على رجل فرد أو حزب واحد . اننا نفشل لاننا لم نعد أمناء ولا عادلين ولا مهذبين وحكومتنا « لامة » وليست هيئة ذات حصافة تؤيدها حصافة الامة . وما وصلنا الى المركز الذى نشغله فى العالم الا بالمثابرة العظيمة والحصافة القوية والنبل العظيم فلما انقرضت هذه الوسائل هبطنا الى مستوانا الطبيعي . وقد صنعنا الخير في العالم خلال المائة عام الماضية وسنصنع الشر فيه خلال المائة عام القادمة ثم لا يعود العالم يسمع بنا بعد ذلك

٦ — أغسطس بعد اشارات كاذبة أعطيت اشارة بوصول الباخرة «هيمالايا» وقد التقيت لحسن الحظ بجماعة صغيرة قادمة لتحية ليتون وركبنا الزوارق لمقابلتها فى عرض البحر وصعدنا اليها قبالة « وربور » وقد وقف ليتون على ظهرها وجه لوحته الشمس وملابس رديئة عمرها أربع سنوات وفى فمه « السيجارة » التي كلفته حكم الهند . وهي اتفه الاشياء التى يعتمد عليها فى النجاح بعض الاحيان !! ولو انه استطاع أن يكف عن التدخين في الوقت الملائم ، ويذهب مع زوجته الى الكنيسة لغفر له الجمهور الانجليزى كل مساوئه ولو تجاوزت الحصر . أما والحال كما هي فقد كان خطأه هذا ملازماً له طول مدة حكمه وقد أثقلت موازينه حين أصابته الهزيمة السياسية . على انه ما كان يستدعي من الهند لولا هذه . على انه لم يكن يعبأ بمثل هذه الشئون وقد وثق من انه بذل أقصي جهده وأجاد وهو على حق في ذلك . وقد عبطته على هذا الشعور كما غبطته على نهمة ذهابه الى داره في نيوبورت .

ولما أوصلناهم البر وتناولنا معهم الشاى فى الفندق ودعناهم خير وداع وقد سمعت لادى ليتون تصيح من أعماق قلبها « آه !! أحب منظر أولئك السكارى الاعزاء الذين يسيرون في الشوارع شد ما أحبهم » .

وكذلك اتفقت آراؤنا على أن آخرة الامبراطورية البريطانية قربت . فاما فيما يختص بي فما كنت أعبأ وقد حان حينها وأما ليتون فكان أكثر مني وطنية ...

٢٩ اكتوبر — كرابت . قضيت اليوم مع ليتون ... وقرأ لي دفاعه المعد لمجلس اللوردات ولا شك لدى في أن الحق في جانبه وستكون خطبته من أعظم خطب هذا العصر اذا صرح له بان يبرز جميع المستندات الموجودة لديه . وقد اطلعت على هذه المستندات فاذا بمراسلات روسية أخذت في كابول بنص معاهدة سرية بين شيرعلي والروسيين . وقد أخبرني « شوفالوف » انه مر بها حين كان يتهيأ للذهاب الى الهند واقترح عليه قسمة أفغانستان بين روسيا وانجلترا .

هذا آخر ما قيدته في مذكراتي يومئذ على وجه التقريب ويسوءني أني اهملت القيد فيها مدة عامين بعد ذلك أي بعد سنة ١٨٨٠ . ولم يصرح لليتون بان يشرح قضيته في البرلمان شرحاً وافيا وكان لخطبته وقع فاتر في مجلس اللوردات بعد أن سلبت أقوى قطعها . على اني سأقتطف هنا نبذة من خطاب كتبه الي في ١٨ نوفمبر وبه يتم هذا الجزء من قصتي ولهذه النبذة قيمة خاصة من حيث انها تشرح حقيقة الحال السياسية يومئذ . قال ليتون « قرأت في احدى الصحف أمس أن عبد المطلب ، شريف مكة الجديد ، الذي هو أداة بيد عبد الحميد يعمل بكل نشاط وطبقا للتعليمات التي ترد عليه من الاستانة لاثارة المسلمين علينا في جميع أنحاء الارض وقد صارت الصيحة الآن : الخليفة في خطر . وعندي أن فرصة الاستفادة من العرب التي عرضت في العام الماضي قد أفلتت تماماً . ولست أرى نتيجة لما فعله غلادستون سوى انه اعدم نفوذنا في الاستانة وحوله الي المانيا بغير أن يدبر وسيلة غيره لحكم العالم الاسلامي . ويلوح لي أن خطبته التي انتظرها الناس بفضول كبير ليست الا اعترافا ضعيفاً بالفشل الساحق الذي أصاب سياسة الحكومة البريطانية فهم يطرحون اليونان وأرمينيا وكل شيء آخر باعترافهم أن أصابعهم أخذت تحترق بنار طرف العصا الذي قبضوا عليه منذ تسعة أشهر . ثم انهم يتخبطون في سياستهم الارلندية بما لا يبعد معه ان تكون هذه المسألة سبباً لسقوط الوزارة . والحقيقة هي ان الامة ترفض السياسة التي تريد الوزارة تنفيذها في كل مكان وان الحكومة لا تجرؤ على تنفيذ

السياسة التي تريدها الامة لرغبتها في المحافظة على وعودها وتعهداتها . وعلى هذا كانت النتيجة انه لا توجد سياسة معينة الآن . أما فيما يختص بي فسأبقى ساكتا حتى يجتمع البرلمان وان كان قلبي يحترق في صدري »

ولم تكن الاسابيع الاخيرة التي قضيتها في انجلترا من ذلك الخريف مشغولة بالسياسة فقد شغلت بنشر جزء من ديوان شعرى كان ليتون قد حرضني على نشره وقد تركت له (البروفات) لتصحيحها . وهذا هو الجزء الذى لقي اقبالا كبيراً ونفدت منه عدة طبعات للآن . وقد وضعني هذا الديوان في مركز أدبي كان له تأثير في أعمالي السياسية التي اعقبت نشره :



الفصل الخامس

زعماء الاصلاح فى الازهر

أبحرت من انجلترا فى خريف سنة ١٨٨٠ يوم ٣ نوفمبر الى مصر ولم يكن لي قصد غير الذهاب منها الى جدة للتعلم والدرس استعداداً لما عسى أن يعرض فى المستقبل من الفرص وقد خيل لي مؤقتاً ان مشروعاتي الاشد تهوراً ليست عملية فصار أقصى همي أن أحصل على المعلومات الكافية عن الدين الاسلامي وميوله الحاضرة لعلي أصلح للعمل متى سنحت الفرصة وكنت قبل رحيلي من انجلترا اتفقت مع هاملتون على أن تستمر المراسلات بيننا مدة الشتاء وعلى ان أكتب له عن كل شيء قد يستحق الاهتمام من حوادث سياحتي وهو ينقل منه الى غلادستون ما يرى محلا لنقله وكان هاملتون قد أكد لي ان غلادستون لا يزال يهتم بآرائي . وكانوا ينظرون الي في وزارة الخارجية كشيء خيالي أكثر منه جدياً يمكن أن يكون له تأثير يذكر فى وجهة النظر الرسمية للمسألة الشرقية على الرغم من وجود رئيس وزارة متطرف.

ولما نزلت فى القاهرة أدركت بعد بضعة أيام انها قد طرأ عليها تغيير كبير ولكنه تغيير حسن فيما لاح لي . فقد حل عهد المراقبة الانجليزية الفرنسية محل استبداد اسماعيل ونظمت المالية وأكثر فروع الادارة . وقد زرت بعض القرى التى عرفت بؤسها منذ خمس سنوات فوجدت انه قد وضع حد لما كانوا يألمون منه . ومع أن الفلاحين كانوا لا يزالون فقراء رازحون تحت عبء الضرائب الفادحة فقد تبدد اليأس الذى حملهم على مكاشفتي بتاريخ شقائهم حين التقيت بهم أول مرة كرجل أجنبي يعطف عليهم . ولما ذهبت الى الوكالة البريطانية سرني ان وجدت فيها « ماليت » قنصلا جنرالا . وقد قص علي تفصيلات الاصلاحات التى أدخلت والتى لا تزال متنواة مصبوغة بصبغة وردية وكان أكثر هذه الاصلاحات لم ينفذ بعد الا فيما يختص بالمالية . وقال ماليت ان الامور تتحرك ببطء ولكن بثبات فى طريق التحسين ، وان السحب التى لا يرى غيرها في الافق هي أولا فى السودان

الذي هو عبء باهظ على كاهل المالية المصرية وثانياً في الجيش حيث ظهرت أخيراً شواهد التذمر . وقد أكثر من امتداح الخديو الجديد توفيق وأخذني لزيارته في القصر ومع انه لم يبحث اهتمامي فقد وجدته يحسن التكلم الاحسان الخليق بالامراء وفي الطاقة أن يستبين المطلع على الخطابات التي كتبتها من مصر يومئذ صدى تفاؤل ماليت وقد كتبت الى هاملتون خطابا أقتطف منه النبذة الآتية :

تحسنت الامور كثيراً عما كانت عليه منذ خمس سنوات . ومهما كانت نقائص حكومة انجلترا السابقة فلها ان تقول انها نجحت في مصر . وقد سمن الناس هنا وظهرت عليهم امارات الرخاء . وقد سمعت الناس الذين كانوا يشكون بحرارة منذ خمس سنوات يثنون على الخديو الجديد ويطرون الادارة . ويلوح لي أن ولاة الامور هنا وقفوا في طريق العمل وقد اقتصروا على تغيير الاشخاص الذين كانوا مصدر الخطر ولم يغيروا في الاساليب الا قليلا . لقد كان التخلص من اسمعيل عملا سياسياً كبيراً ولا شك في أن الرجل الحاضر يستقيم على الجادة مع قليل من التوجيه السديد . وعندي ان ثروة مصر وقلة نفقات حكومتها يضمنان نظام ماليتها متى قصرت مطامعها على توفير الرخاء . على أنه توجد صخرة أو صخرتان في الطريق مثال ذلك حكم السودان الذي سوف يبقى مصدراً للانفاق وسبباً للاحتفاظ بجيش . ولا أدري لماذا تهتم مصر بحكم النيل فيما وراء الشلال الاول الذي هو حدها القديم . أما القضاء على تجارة الرقيق في افريقيا فسار لا حاجة لان يحصل عليها غير البلاد الغنية . ولا شك في أن سحب الرقابة والحماية التي تتمتع بها حكومة مصر يكون عملا سيء الحظ والواجب أن يستمرا بضع سنوات على الأقل حتى ينشأ جيل أكثر تعوداً على حسن النظام من الجيل القديم . ولشد ما تتوق نفسي لرؤية سوريا تتمتع بهذا النظام واذا نحن لم نعبأ بالصحراء استطعنا القول بأن سوريا قطر غني وفي الطاقة أن تنفق على نفسها . ولكنها سوف تكون في حاجة الى اعلان حماية أوروبية بحالة لا تحتمل الشك حتى يمكن أن تستغني عن الاحتفاظ بجيش . أما فيما يختص بحفظ الامن فتكفي لذلك قوة صغيرة . ولست أشك في أن القوم في انجلترا يبالغون في صعوبة المحافظة على الامن في بلاد أهلها مزيج من المسلمين

والمسيحين فان الشقاء الذي بلوه جميعاً في خلال القرون الطويلة الماضية لم يبق أثراً لما في صدورهم من الحزازات .

وقد أسعدني الحظ من أول الامر فيما يختص بما أريد أن أتعلمه من شئون الاسلام وكان روجرريك أحد المستشرقين الممتازين والذي عرفته قبل ذلك قنصلا في دمشق قد جاء الى مصر وعين فيوزارة المالية فعرفت منه اسم عالم شاب متصل بالازهر يدعي الشيخ محمد خليل ومن ذلك الحين أخذ هذا الشيخ يتردد علي يوميا لاعطائي درساً في اللغة العربية وكثيراً مابقي يتحدث معي طول بعد الظهر ومن ثم ظهر لي انه أكثر من أن يكون مجرد استاذ لتعليم لغة القرآن .

ولعل هذا الشيخ أعظم من عرفتهم من المسلمين صراحة واخلاصا وتحمسا وكان من طلاب تلك المدرسة الواسعة النقية التي كان استاذها يومئذ استاذه الشيخ محمد عبده . وكان الشيخ خليل يبلغ الثلاثين من عمره في ذلك الحين وهو رجل ذكي طيب مجتهد لا أثر فيه للتصنع . وكان كذلك تقياً غيوراً بدينه مجرداً من الرياء والتعصب المذهبي والتحفظ الذي يمليه السلف على بعض المسلمين في معاملتهم مع قوم لايدينون بدينهم . لقد كان على نقيض هذا كله . وكان سروره منذ اليوم الاول في تحصيلي كل مايعرفه . وكان مذهبه في التفسير أوسع المذاهب . وقد اعتبر جميع الديانات التي تنص علي وحدانية الله صحيحة ولم تكن اليهودية والمسيحية في نظره الا صورة مشوشة لذلك الدين الحقيق دين ابراهيم ونوح ولذلك لم يسمح بسماع أي قدح في أصحاب هذين الدينين لقربهم في اعتقادهم من المسلمين . وعنده ان المثالب والحزازات انما هي ميراث الحروب القديمة ويعتقد ان العالم سيرقي الى حالة اجتماعيــة كاملة حيث تنزع الاسلحة ويتوثق الاخاء بين الامم والمذاهب . ويمكن تصور سروري العظيم اذ شرح لي هذه الآراء وأيدها بذكر التقاليد والقواعد معلناً أنها تعاليم — الاسلام الحقيقية — أقول يمكن تصور سروري اذ وقفت علي هذه الا راء التي هي قريبة جداً من آرائي ولا سيما حين أكد لي أنها من الآراء التي يعتنقها الجيل الحاضر من الازهريين وغيرهم من الطلبة في العالم

الاسلامي وحكي لي كيف نشأت هذه الآراء في الازهر وكيف كان نشؤها في أول عهده بالتعلم في تلك الجامعة الكبرى.

ومن أغرب مايروي ان الفضل في نشر هذا الاصلاح الديني الحر بين العلماء في القاهرة لايعود الى عربي أو مصري أو عثماني ولكن الى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الافغاني وهو رجل لم تتجاوز تجاريبه العالمية قبل حضوره الى مصر دائرة آسيا الوسطي وهو أفغاني المولد وتلقى تربيته الدينية في بخارى . وفي ذلك المكان السحيق وبغير أن يتصل بأي أستاذ من الذين يعيشون في مراكز الافكار الاسلامية الراقية. استنبط من درسه وتفكيره الآراء التي تعزى اليه اليوم . وكانت حركات الاصلاح في العالم الاسلامي التي قد انحصرت الى ماقبل ذلك في التقهقر القديم ولم تسر في طريق التطور . وقد جاء في القرنين الاخيرين كثير من الواعظين الذين لم يزيدوا علي ان علة ضعف الاسلام راجعة الى كف متنفذيه عن السير على سنن السلف الصالح ووجد كذلك في مصر وتركيا مصلحون نظموا الادارة على الاساليب الاوروبية لاغراضهم السياسية . ولكن هؤلاء أدخلوا اصلاحهم بالعنف والمنشورات التي حصلوا عليها من العلماء بالاكراه . وبغير أن يقفوا بينها وبين قواعد القرآن وتقاليده . وكانت الاصلاحات السياسية تأتي من الطبقة العليا ولم يزل حكم الرأى العام الرشيد قاسيا عليها . أما نبوغ جمال الدين في اجتهاده في حل المالك التي وعظ فيها على أن تعيد النظر في الموقف الاسلامي كله وأن تستبدل التمسك بالقديم بالتحرك الى الامام حركات أدبية منسجمة مع العلم العصري . وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة من اقامة الحجة على انهما لو أحسن تأويلهما معا لكان الاسلام كفؤا لاحداث تطور راق عظيم .

ولما أتم دروسه في سنة ١٨٧٠ وكان يومئذ يبلغ الثلاثين من العمر اخترق الهند الى بومباى وانضم الى الحج في مكة . وبعد أداء الفريضة حضر الى القاهرة ثم ذهب منها الى الاستانة . ولم يلبث في هذه الزيارة الاولى أكثر من أربعين يوماً في مصر ولكنه وجد وقتاً كافياً لتوثيق عرى الصداقة مع نفر من طلبة الازهر ولوضع أساس التعاليم التي شادها بعد ذلك .

أما في الاستانة فما أسرع مانبه ذكره بما أوتيه من الفصاحة والتبحر في العلم. وقد عين في منصب ديني سام وأخذ يلقي المحاضرات في جميع الموضوعات لسعة معارفه ووفرتها. وكان حاد الذكاء قوى الحافظة حتى قيل انه يستطيع أن يقرأ كتابا برمته في أى موضوع ثم لايشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك وقد ابتدأ بتعليم النحو ثم علوم اللغة ومنها انتقل الى الفلسفة والدين وقال ان الاسلام السنى يوفق بين نفسه وبين أرقى ماتصبو اليه النفس الانسانية وما تحتاجه الحياة العصرية واذ كان سنياً صحيحا محيطا بالحوادث قد أصغي اليه الناس باحترام ثم لم يمض وقت قصير حتى صار له أتباع من صغار الطلبة. وكان يوحي الشجاعة بجرأته وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب ابى حنيفة فيقبل الناس نقده بما لايمكن أن يتيسر لرجل غيره وكان همه أن يطلق العقول من الاغلال التي قيدتها طول الاجيال الماضية ويقيم الحجة على ان الدين الاسلامي ليس شيئاً ميتا ولكنه نظام يصلح للانسانية المتطورة فى جميع العصور فهو لايأبي التطور وكل هذا يماثل ماحدث من أحياء المسيحية باوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر على ان الغريب فى شأن الاسلام الغريب هو أن يعود الفضل فى نشوء روح النقد بين أهله الى رجل تربي فى بلاد رجعية كآسيا الوسطي وتعلم فى جامعة سحيقة كجامعة بخارى.

وقد كانت الفترة التى قضاها الشيخ جمال الدين فيالاستانة زاهرة ولكنها كانت قصيرة فقد كان رجلا غير مقيد وكان كأكثر الافغانيين لا يحفل بالتقاليد المتبعة فى خطاب العظماء وهي التقاليد التي كان لها أعظم اعتبار فيعقلية العقل التركي ومع انه كان محوطاً برعاية علي باشاوفؤادباشا اللذين رأيا فى تعاليمه تأييداً لاصلاحهما السياسي ضد قدماء العلماء وقع سوء فهم بينه وبين السلطات الدينية العليا ولا سيما فيما يختص بمسلكه الشخصي نحو شيخ الاسلام فلم تجد هذه السلطات سبيلا لان تجد فى محاضراته محلا للمؤاخذة ولم يمض وقت قصيرحتى اقتبست من اقواله فقرات اخذتها دليلا علي الكفر والزيغ. فلما أجاب علي ذلك بانه مستعد لان يناقش المسألة علنا مع منهميه الكبار فزعت الدوائر الرسمية ورعبت وكان هذا التحدى قد أحدث حركة كبيرة بين « السفطاء » فكان الشبان منهم فى جانب جمال الدين

وظهر أن النزاع قد يؤدي الي عواقب وخيمة . ومن ثم اكره الساسة على اداره علائمة العودة الي مصر والبقاع المقدسة فعاد الي مصر في ظل هذا الاضطهاد الديني ولكن بعد أن بذر بذور النقد التي آتمرت بعد عدة سنين اذ اجمع السعطاء على المطالبة بالاصلاح الديني . وهذا هو الجزء الديني في الحركة السياسية التي قدر أن تنتهي بالثورة التي قام بها مدحت باشا في سنه ١٨٧١.

وقد تقدمته شهرته الى الازهر حين عاد الى القاهرة ١٨٧١ وكانت مصر في عصر ديني مظلم لان فساد الحكم ولا سيما في عهد اسمعيل كان قد لوث جميع الطبقات واطفأ جذوة الشجاعة والاستقلال في صدور العلماء ومع ذلك كان فضول الناس يزداد حول جمال الدين . وقد رحب به الاصدقاء القليلون الذين كان قد تركهم في مصر . رحبوا به سراً ان لم يكن علناً ثم ما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما حديثه ان جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدين كما حدث في الاستانة . اما أهم هؤلاء المريدين فهو الشيخ محمد عبده الذى قدر له أن يلعب فيما بعد دوراً هاماً في الشؤون العامة والذى هو الآن مفتي الديار المصرية . والشيخ ابراهيم المحى الصحفي المعروف . والى هذين استطاع الشيخ أن يفضي بكنوز علمه بلا تحفظ وأن يغرس فيهما روح النقد التي طبع عليها وينفث فيهما كثيراً من جرأته . والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لكل رجل يتكلم في مصر بصراحة . ولم يكن اسماعيل يسمح باقل معارضه وكان حكمه مطلقاً حتى فقدت الالفاظ المستقلة من أفواه الرجال . ولم يكن يجرؤ على الشكوى الا الفلاحون المعذبون في قراهم أو غيرهم ممن لا يعتد بهم من الوجهة السياسية أما السلطات الدينية العليا والموظفون الكبار فقد طال سكوتهم على الظلم وآثروا الموافقة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الاسلاب .

وعلى هذه الاحوال السيئة ، إن عقلية أو أدبية ، أشرقت تعاليم جمال الدين الحرية كما يشرق الضوء الغريب وضمنت له شجاعته مؤقتاً اصغاء الناس بغير تدخل من جانب الحكومة وقد يكون الفضل في ذلك الي أن العراك الذى أثاره جمال الدين في الاستانة قد برره في نظر اسماعيل أو يكون اسماعيل قد اعتبره أضأل من أن يستدعى القمع أو ربما كان قد فكر — كما فكر على باشا وفؤاد باشا — في استخدام التعاليم

الجديدة فى حربه الطويلة مع القناصل الاوربيين . ومهما تكن الحقيقة فى ذلك فقد أبيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التى بقيت من حكم اسماعيل ولم يلق القبض عليه الا فى عهد توفيق وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنسية . وقد أرسل بلا محاكمة الى الاسكندرية ونفي من القطر . ولكنه كان قد أدى رسالته واعتنق كل زكي نبيه فى الازهر قواعد الاصلاح الحر على الاساسات الدينية . أما عباءة المصلح نفسه فقد ألقيت على خير عاتق يحملها بل لا أغالى اذا قلت أنها ألقيت على عاتق أقوى من عاتق صاحبها الاصيل وما كل معلمي اللغة العربية — الشيخ محمد خليل ولا يمكن أن يكل من الاستفاضة في وصف أستاذه الروحي — الشيخ محمد عبده — ووصف كفاءاته العقلية وقد خلف هذا جمال الدين فى زعامة حزب الاصلاح الحر في الازهر .

وقد وجدت بين أوراقي مفكرة يوجد فيها ان معلمي الفاضل أخذنى لرؤية الاستاذ الشيخ محمد عبده فى منزله الصغير بحي الازهر للمرة الاولى فى ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ وهذا يوم يجب علي أن أميزه علي سائر الايام لانه فتح لى باب صداقة بقيت الآن نحو ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام . ويجب أن لا يتوهم أحد اني اذ استخدم هذه الالفاظ ألقى القول علي عواهنه أو أبالغ مثقال ذرة ولكني أقولها معتمداً على معرفتي باخلاقه فى ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته فى أول الامر معلماً دينياً ثم قائداً لحركة الاصلاح الاجتماعى ثم زعيما أدبياً للثورة السياسية ثم أسيراً فى أيدى أعدائه ثم منفياً فى أقطار أجنبية مختلفة ثم تحت مراقبة البوليس فى القاهرة حين ألغى نفيه وأخيراً حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد اذ استأنف محاضراته فى الازهر وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم عين فى أواخر أيامه مفتياً للديار المصرية فحل فى أسمي مقام دينى وقضائى فى مصر .

وقد كان الشيخ محمد عبده حين رأيته لاول مرة في سنة ١٨٨١ فى الخامسة والثلاثين ربع القامة أسمر اللون نشيطاً يلوح ذكاؤه السريع فى عينين تنفذان الى الاعماق وهيئة صريحة ودية توحي الثقة فى الحال . أما فى اللباس والمظهر فشرقي بحت يلبس عمامة بيضاء وقفطاناً كما يلبس شيوخ الازهر ولم يكن يعرف حينئذ لغة

فنجية أو أية لغة أخرى غير لغته وقد بحثت معه بمساعدة محمد خليل الذى أعان بفرنسيته الضعيفة عربيتى فى جميع الموضوعات التى بحثتها قبل ذلك مع محمد خليل وحصلت بهذه الواسطة على آراء واسعة فيما يختص بتعاليم المسلمين الاحرار ومخاوفهم الحاضرة وآمالهم في المستقبل وقد دونت هذه الآراء فى كتاب طبعته فى آخر السنة باسم « مستقبل الاسلام » وكان الشيخ محمد عبده يصر على ان الاسلام في حاجة الى الاصلاح الديني الحقيق وليس فقط لهيأة سياسية دينية. أما فيما يختص بالخلافة فكان يشاطر كل المسلمين المستنيرين رأيهم فيوجوب اصلاحها وتحديدها على قواعد روحية . وقد شرح لى كيف يؤدي حسن استخدام سلطتها على وجه شرعي الى مساعدة حركة الرقي الادبي وكيف ان أصحاب هذه الخلافة أهملوا بحيث صاروا غير أهل لامارة المؤمنين . والواقع ان الاسرة العثمانية لم تحفل بالخلافة مثقال ذرة خلال القرنين الماضيين ولم يبق لها حق ولا سلطان حق السيف وسلطانه . على انهم ما زالوا أقوى الامراء المسلمين ومن ثم يستطيعون القيام بالشطر الاكبر من العمل لخير الجميع أما اذا لم يمكن حملهم على القيام بواجبهم فلا مناص من البحث عن أمير آخر للمؤمنين ولم يكن ثمت شك في حاجة الاسلام الى أساسات سياسية . وكانت آراؤه مشربة بروح الاعتدال وهي آراء زاد في اعجابي انها عملية ورشيدة .

وفى أثناء الشتاء ذهبت وعقيلتى لزيارة « جدة » حيث جمعت كثيراً من المعلومات التى كنت فى حاجة اليها عن نزعات الطوائف الاسلامية المختلفة وأحسب أن تلك كانت خير بقعة للاوربي الباحث عن تلك المعلومات فقد تعرفت فيها بواسطة المدعو يوسف أفندى قدسى بعدد من الاشخاص المسلمين الذين تهم معرفتهم . وكان يوسف أفندى هذا متصلا بالقنصلية الانجليزية . وكان بين الذين تعرفت اليهم الشيخ حسن جوهر وهو من خيرة علماء الصومال الاذكياء والشيخ عبدالرحمن محمود من جهة حيدر اباد بالهند والشيخ مشعث المكي وعدد من أعضاء أسرة بسام في عنيزة بنجد وهو شيخ بدوى متعلم تعليما راقيا من جنوبي مراكش . ولم أقم فى جدة سوى بضعة أيام فقد أصبت بحمى الملاريا المنتشرة جداً فى تلك الجهات وحال هذا المرض دون فكرة التعمق فى داخلية البلاد . ولقد وجدت أن الوقت لم يكن ملائما

أيضاً لتحقيق تلك الفكرة نظراً للعداوة الجديدة التي أبدتها السلطات في مكة حيال انجلترا . فان السلطان كان قد بدأ فعلا في جعل كلمته مسموعة بصفته الزعيم الديني للمسلمين وهو شيء لم يكن معروفا منذ عدة أجيال لاسلافه العثمانيين بل انه أصبح شديد الغيرة على نفوذه في بلاد العرب بصفة خاصة بينما ان نزاعه مع حكومتنا جعله أكثر ارتيابا في النفوذ الانجليزي منه في أي نفوذ آخر . وقبيل زيارتي لجدة بعدة أشهر فقط أراد أن يظهر مقدار سلطته في مكة فعين لها شريفا ذا نزعات رجعية شديدة ضد الاجانب . فالشريف الاسبق حسين يدعون انه كان رجلا ذا أفكار حرة ومعروف بصلاته الودية مع القنصلية الانجليزية فاستحق لذلك غضب السلطان ومات أشنع ميتة . وليس من المستطاع الجزم اذا كان ذلك في الحقيقة بتدبير السلطان أو بواسطة الوالي ولكن الناس في جدة عند ما كنت فيها كانوا على كل حال يعتقدون بأن للسلطان دخلا في القتل .

وقد وقفت على تفاصيل مقتل الشريف حسين من وكيله في جدة المدعو عمر ناصف الذي عزا القتل للسلطان بلا مراء . وهذه الرواية هي أنه في آخر موسم الحج ركب في صحبة الحجاج قاصداً جدة — كما كانت العادة — لتوديع الحجاج والدعاء لهم . وقد كان سفره ليلا . وفيما هو يوشك أن يدخل بصفة رسمية الى الميناء على ظهر جواده بصحبة الحرس الذي كان بعضه عثمانيين وبعضه الآخر أعراب تقدم اليه أحد الحجاج الافغانيين في ملابس رثة كما لو كان يطلب صدقة وطعنه في بطنه وبالرغم من هذا الجرح فان الشريف ظل راكبا الى أن دخل دار وكيله عمر ناصف ومات في اليوم نفسه بسبب — كما سمعت — عدم تضميد هذا الجرح غير المميت تضميداً كافياً وكانت هناك ظروف عديدة تفرق بين أن يكون الاعتداء حادثا مشوها للتعصب الديني أو حادث قتل عادي . ولم يكن القاتل من جماعة الشيعة كما تبادر الى الذهن بادئ ذي بدء بل كان من متطرفي السنيين . وقد فاه بعد القبض عليه بعبارات تدل على انه كان يعتبر نفسه مكافئاً بفعل مافعل فانه قال عند ما سئل عن السبب الذي دعاه لارتكاب هذه الجريمة . ويحكي انه كان يوجد فيل وهو أكبر الحيوانات الموجودة في الغابة . فجاءته علة وهي أصغر حيوان في هذا الوجود فعضته

وقمانه» ولم تكن هناك أيضاً محاكمة علنية للجاني فقد أعدم بعد اعتقاله بأربعة أيام كما اتخذت الاجراءآت الممكنة لاخفاء المسألة .

وكان الشريف عبد المطلب خلف الشريف حسين من بيت آل زيد وهي الاسرة المنافسة لاسرة الشريف حسين وكان أيضاً من أشد الرجعيين المسلمين تطرفاً. وقد كان طاعناً في السن بحيث انه كان شريفاً لمكة عند ما كانت في أيدى الوهابيين الذين انضم الى مبادئهم ولو فى الظاهر .

والآن وقد تقدمت سنه اعيد الى ذلك المنصب بلقب أمير ليقوى حركة الجامعة الاسلامية التى كانت سائدة فى الاستانة . وفى عهد الشريف حسين كان في استطاعة أى فرد انجليزى أن يجتاز الحجاز من أدناه الي أقصاه بدون أى اعتداء بل ان « درتى » والاستاذ « روبرت سميث » حصلا على مساعدته وحمايته والآن فان أى محاولة من هذا القبيل تعتبر خطرة جداً وفي الواقع ان السائح الفرنسي « هير » فقد حياته لمحاولته اجتياز الحجاز فى السنة نفسها . ثم عدنا الى السويس فيما بعد ومن ثم الى سوريا عن طريق الاسماعيلية .

وفى أثناء اجتيازنا الاراضي المصرية وصلني الخطابان التاليان من « هملتون » رداً على الخطابين اللذين أرسلتهما اليه . وأهمية الخطابين هي في أن اهتمام الحكومة بالمسائل الشرقية بدأ يتحول الى المشاكل الداخلية كالتى كانت فى ايرلندا . ومن المدهش والمحزن أن نلاحظ كيف ان الضرورة ـ كما سماها الاحرار وهم في الوزارة ـ فى قمع الوطنية والضغط على الحرية فى ايرلندا أحدثت رد فعل فى الشعور الشريف الذى أبدوه به — قبل دخولهم الوزارة — عطفاً على الحرية الوطنية في الشرق . ويظهر انغلادستون — الذي كانت ميوله بلا ريب متجهة نحو إعطاء هاتين الجهتين الحرية انقاد لزملائه الاحرار فى الوزارة الذين كانوا مصممين على السير في الطريق التي لا تلائم نزعته وكانت ايرلندا طول العامين التاليين العقبة الكؤود في سياسته وسأبين فى موضعه ان قرار القمع الذى تقرر فى سنة ١٨٨٢ لاستعماله فى ايرلندا كان فى نص مجلس الوزراء الذى قرر أيضاً استعماله في مصر . فالاشتراك في سوء الحظ بين هاتين البلادين كان مأساة كبيرة لا لمصر وارلندا وحدهما بل لشرف انجلترا

وهاهو الخطاب الاول

رقم ١٠ دوننج ستريت

لقد تجاسرت على عرض خطابك على عدد من الذين أعلم انهم يرغبون فى قراءته ومنهم « الورد غرانفيل » و« ريفرزولسون »و« بروك » و«هارى براند » وأظن ان الخطاب سر «ريفرزولسون» بصفة خاصة لان « ريفرز » ينظر بعين الابتهاج الى ماصنعه فى مصر . وقد زاده سروراً أن يسمع من مصدر مستقل بأن العمل الذى كان له يد كبرى فيه قد أنتج هذه النتيجة الحسنة وانى أخشي من أنه يعتبر ان نصيبه فى ادراك هذه النتيجة لم يقدر بعد حق قدره .

« وما برحت ايرلندا تحتكر كل وقت الحكومة ومجهودها وأخشي أن يكون من الصعب المبالغة في الحالة الخطيرة السائدة الآن فى ذلك البلد البائس. وانى لاحمد الله على اننا أصبحنا على مقربة من عودة انعقاد البرلمان . وسيظهر اذا كانت الحكومة بالغت او لم تبالغ فى التذرع بالصبر والتمسك بحبل الاناة وليس لى أن ابدى رأيا فى هذا الصدد . على أن الحالة هي بلا جدال عار على هذه البلاد (انجلترا) والحكومة ترى نفسها مضطرة الى العودة الى الخطة العتيقة خطة العنف والقمع. وقد بدأت أشعر — بالرغم مني — بأن ايرلندا ليست صالحة للحكومة الدستورية . واننا مهما سعينا لازالة المظالم المشروعة فليس من المستطاع استتباب السكينة فيها بدون العود الى ما يشبه سياسة كرومويل . وانه لعمل تنفطر له الافئدة . فاذا لم يحدث تغيير غير عادى فسنصبح فى هذه البلاد معرضين لسقوط وزارة تلو الاخرى وهكذا فى خلال بضع السنوات القليلة المقبلة. وانى لشديد التشاؤم بالنسبة للمستقبل. وبودى لو استطعنا أن نطبق على ايرلندا شيئاً من التطور فالذى رأيته فى مصر ... أن ايرلندا البائسة هذه كادت تقضي على الحكومة قبل الاوان من حيث السياسة الخارجية . ولا نزال يؤمل أن يستطيعوا ايجاد مكان لليونان فلا يدعوا مسألتها تصبح نهائياً فى زوايا النسيان والا اصبح من المحتم نشوب الحرب بين تركيا واليونان . ان اليونان لاتستطيع وحدها أن تكافح تركيا وقد يعنى دخول تركيا الحرب رفع لواء الثورة العامة فى الروملي الشرقي وفي مقدونيه . ولا ازال اؤمل أن توحد تسوية

لمسألة حدود المملكة اليونانية بتدخل الدول العظمي باعطائهـا قطعة أرض صغيرة في الشمال وربما أيضاً بتسليمها جزيرة كريد . ولا جدال في أنه يلزم ايجاد وسيلة من الوسائل لتقوية اليونان وتوسيعها ليس لحفظ السلام في الشرق مؤقتـاً فقط بل لوضع الاساس لما عساه أن يكون قوة مضادة للعناصر الاسلامية ... ».

وهاك نص الخطاب الثاني :

رقم ١٠ دوننج ستريت

تحريراً في ١١ فبراير سنة ١٨٨١

لقد تناول الوزراء خطابك على أثر وصوله . وقد تلوت بعض فقرآته المستر غلادستون وقد اتيح للورد غرانفيل والمستر غوشن أن يقرآه بنفسهما وباهتمام على ما سمعت . أما اللورد غرانفيل فارسل صورة من الملاحظة التي ختمت خطابك بها وهي الخاصة بشؤون الهند الي لورد هارنجتون وأرجو ان لا أكون خنت الثقة التي وضعتها في باطلاع الدوائر الرسمية على معلوماتك المذكورة في الخطاب. وقد اطلعت هاري براند عليها أيضاً . ولقد قامت في وجه والده — رئيس مجلس العموم — مصاعب لم يقم مثلها لاحد من أسلافه في كرسي الرئاسة . ولـكنه خرج من هذا النضال فائزاً . فاذا صرفنا النظر عن جلسات المجلس التي لا نظير لها والتي استمرت أياماً وليالي ووقف العدد العديد من الاعضاء المشاغبين فقد مررنا في دور برلماني مهيج . واني لشديد الامل باختفاء شبح العرقلة الناشيء عن الشغب الخاص بالاراضي الارلندية . فاذا ما صادق البرلمـان على الاجراءات القمعية او بالاحرى الاجراءات الواقية وصار المشروع العادل التام الجريء الخاص بالاراضي قانونا فلن تصبح مهددين بالـكابوس الارلندي في القريب العاجل على كل حال .

وفي الوقت نفسه كان اهتمام الجمهور في خلال الاشهر الماضية موجها طبعاً الى تلك المملكة القاحلة ولذا لم يعن الجمهور كثيراً بالشئون الخارجيـة . وعلى كل فالمسألة اليونانية لم تصبح نسياً منسياً . فاللورد غرانفيل مازال يشد طرف الحبل بمهارة تامة وبنجاح كبير على ما أعتقد والعقبة الـكؤود طبعاً في سبيل التقدم بنجاح في هـذه المسألة المعقدة هي الدور المحيري الذي لعبته فرنسا التي بعـد ان هددت وتوعدت

خفت صوتها وبردت حرارتها . وعلى كل فان بسمارك قد عمل على أن يتولى الامر بنفسه وذلك بعرض اقتراح جديد قد يؤدي الى نتائج حسنة .فأول شرط تتمسك به الدول العظمى هو طبعاً الاحتفاظ بالسلام الاوربي فلولا ان نشوب الحرب بين تركيا واليونان يؤدى حتما الى حدوث القلاقل والقتال فى بلغاريا والروملي الشرقي ولولا أن اليونان لاتستطيع وحدها مكافحة تركيا لكان التمهيد الطبيعي لرفع اليونان نفسها الى صف الدول الاوربيـة هو الالتجاء الى السيف . فالرومانيون الحديثون ما كانوا لتكون لهم ملوكية متحدة لولا انهم حاربوا في سـبيلها ولا محل لان يشكو اليونان الحديثون اذا رأوا أنفسهم مضطرين لمواجهة أمثال تلك المصاعب والمخاطر . ولكن بصرف النظر عن الحرب التي يلزم أن يخوضها اليونان فان هذه قد أصبحت تحت كنف أوربا فلها الحق فى ألا تتغاضى أوربا عنها الآن . فاذا لم يكن تنفيذ حكم برلين سلبياً وهذا يظهر انه مسلم به نظراً لعمل فرنسـا — فان المنفذ الوحيد هو ايجاد صفقة معادلة لليونان وأقصد بذلك اعطاءها تعويضاً فيجهة أخرى عما لم تأخذه مثل تساليا وابيروس وهما الاقليمان اللذان تقبل أخذهما واللذان يمكن الدول فيما بينهن مساعدتها على الحصول عليهما وربما كان اقتراح منهذا القبيل انحرافا جديدا وأخشى من العلاج الذى تشير به — ولو انه أنجع وأكثر نجاحا — هو من الشدة بحيث لا تستطيع أوربا أن تقبله .

ولا اذكر انني كتبت في خطابي مايرر كل هذا الحديث الطويل عن اليونان التي لم تهمني بصفة خاصة فى ذلك الوقت . وان عبارة الخطاب لتشبه لهجة المستر غلادستون نفسه الى حد اني أظن أنه لابد أن يكون أملي هذا الخطاب والخطاب الذى سبقه . لهذا رأيت أن أثبتهما بنصيهما ونظراً لاسهـابه في شرح المصاعب المملوءة بها سياسة اليونان قد لاح لى أنه ـ اذا حدث عصيان على الحدود اليونانية ـ ربما شجع فى الوقت نفسه عصيان العرب فى سوريا .

وكانت رحلتنا من الاسماعيلية سارة . فبعد أن عبرنا القناة تطوحنا الى جهة الشرق فى طريق تحيط بها الوهاد الرملية الى تل غير مشهور يدعي جبل هـلال . وكان هذا الوادى يشبه من بعض الوجوه حالة نجد من حيث الزراعة وترتيب

سواحل الرملة فتعرفنا بقبيلتي عيده وطياها والى الشمال من ذلك بقليل بقبيلة مراتين وأيضاً قبيلة المزارعة وأيضاً كنا قاب قوسين أو أدني من التصادم معها بعد خمسة أعوام وكانت هذه القبائل كلها مستقلة عن تركيا وتقيم في الاراضي التي لا صاحب لها التي تكون الحدود بين سورية ومصر . وقد كانت هذه القبائل كما هي العادة دائماً في جهات بلاد العرب المستقلة — في تشاحن بعضها مع بعض وكانت بينها ثارات الدم ولهذا استمرت الحرب بينها بعضها مع بعض مما سبب كثيراً من القلاقل حتى الى قرب حدود غزة .

فلكي تضع الحكومة العثمانية حداً لهذه الاضطرابات لجأت الى احدى وسائلها المعروفة فأرسلت دعوة الى زعيمي القبيلتين المتنابذتين للاجتماع بمتصرف غزة ليتفاهما وديا ثم أمرت بالقاء القبض عليهما غدراً وخيانة وقد زجتهما في سجن القدس كرهينة لحفظ السلام في الحدود . وفي ذلك الوقت كانت تقاليد النفوذ الانجليزي في تركيا حية في اذهان العرب فترتب على ذلك أن طلب الي — نظراً لمعرفتي بالزعيمين المذكورين — أن اتدخل مع الحكومة لاطلاق سراحهما . فقبلت التدخل ولقد بهما . ثم استصحبت معي الشيخ القائم بشؤون قبيلة طياها وهو علي بن عطيه والابن الصغير لشيخ قبيلة طرابين وقد ركبا برفقتنا الى القدس فسرنا بطريق التلال الى أن وصلنا القدس دون أن نعرج على مدينة أو قرية في أثناء رحلتنا هذه . وفي القدس زرت قنصلنا مور في الحال فحصلت بواسطته على اذن من الباشا بزيارة السجن وهناك وجدت الشيخين المطلوبين في طبقة سفلية تحت الارض بالقرب من جامع عمرو . وقد كانا في حالة يرثى لها إذ كانا يشكوان من الامراض والسجن الطويل فوسطت لها عند الحاكم على شرط أن يرفرف السلام بين القبائل . وقد تمكنت من جعلهما يوقعان هذا التعهد . ولكن المتصرف أعلن انه ليس في وسعه اطلاق سراحهما واحالني على رئيسه والى دمشق فهو الذي يستطيع أن يفعل ذلك . فذهبنا الى دمشق بصحبة علي بن عطية وبصحبة قافلة الجمالين عن طريق وادي الاردن وسهل حوران وهي سياحة شيقة ولذيذة لان الارض نظراً لانقطاع الامطار كانت كجنة عدن غاصة بالازهار البهيجة .

وفي حوران وجدنا الحرب ناشبة بين الجنود العثمانية والدروز ولكنا تمكنا من المرور بين الجيشين دون أن يمسنا الضرر ووصلنا الى دمشق حيث القينا عصا التسيار أمام باب منزل صغير يحتوى على حديقة مساحتها فدان فى حي باب توما كنت ابتعته منذ ثلاثة أعوام عند بدء رحلتنا الى نجد .

وكان منزلنا فى دمشق ملاصقا لمنزل سيدة انجليزية مشهورة تدعى اللادي انيره أو المسز ديجبي كما تدعى الآن فيمد مخاطرات عربية فى الشرق والغرب تزوجت وهي طاعنة في السن من شيخ بدوى من قبيلة عنيزة وأقامت فى دمشق مع بعلها مجول بعد ان أصبحت لا تحتمل متاعب حياتها السابقة في الصحراء . وقد علمنا منها ومن بعلها المجيد الذى كنا نعرفه جيد المعرفة ان خير وسيلة لاطلاق سراح المعتقلين هي الا نعرض قضيتنا على القنصل ولا على الوالي مباشرة بل بطريق غير مباشر على صديقهم الكبير السيد عبد القادر الذى عرفناه فى عام ١٨٧٨ والذى كان له اكبر نفوذ فى الحكومة فى دمشق فى كل ما يختص بالعرب . وكان عبد القادر وقتئذ فى سن الشيخوخة وكان معتكفا على العبادة وكان موضع اجلال جميع سكان المدينة . وكان له بين عرب سورية بصفة خاصة اتباع كثيرون لانه كثيراً ما أظهر انه حاميهم وحامي مصالحهم . وقد أكد لي مجول أن المسألة هى مسألة نقود مع الوالى فاذا تعهد السيد بان يتتبع باب المفاوضة وبيده مبلغ كبير فان النجاح محقق. فذهبت معه ومع على ابن عطية الي عبد القادر فوجدناه مع ولده الاكبر محمد وهو رجل مستقيم ولد له من أم من الجزائر أثناء اقامته فى تلك البلاد . فوقفناه علي مهمتنا فقبل السيد بارتياح أن يتوسط لنا لدى الباشا وأن يصل الترتيب اللازم لاطلاق السجينين على الشرط المذكور وهو الاحتفاظ بالسلام العام بين القبائل. ثم أعطيته كيساً يحتوى علي ٤٠٠ جنيه فرنسي (بنتو) ذهبا فاخبرونى ان المبلغ كاف لتحقيق رغبتنا . وكانت الرشوة من الامور العادية بين الموظفين العثمانيين وقتئذ حتى انني لم اشعر لا أنا ولا السيد ولا أى شخص آخر بيننا باى تردد في تقديم النقود. وكان المبلغ كبيراً ولكن عطفي كان شديدا نحو السجينين المعتقلين وكنت مصمما على الا أرسل على ابن عطيه الى القدس الا مصحوبا بامر الافراج عنهما . وعلى ذلك

قدمت على هذه التضحية ولكن المفاوضات أخفقت في ادراك الغاية المطلوبة . وبعد بضعة أيام جاءني محمد ابن عبد القادر ومعه الكيس دون أن يمس شيء ، وأخبرني أن والده كلفه بأن يبلغني تحيات الوالي وأسفه على عدم استطاعته فعل هذا المعروف لأنه خارج عن حدود وظيفته . فان المسألة قد أبلغت الى الاستانة وهناك فقط يمكن تسويتها .

وان عاقبة هذا الحادث البسيط لمدهشة ولها علاقة مباشرة بما وقع في مصر من الحوادث في السنة التالية فبعد ان فشلت محاولاتي المحلية عملت بنصيحة الوالي كتبت من فورى الى غوشن سفيرنا في الاستانة وعرضت عليه القصة بحذافيرها. ولكيما أزيد اهتمامه بالمسألة اخبرته ان الحكومة الانجليزية قد تحتاج يوماً من الايام الى حماية ضفة قناة السويس الشرقية من المهاجمة اذا نشبت الحرب بين انجلترا وبين احدى الدول الاخرى . فاتخذ غوشن — على ما أتذكر — بعض الاجراءات ولما خلفه اللورد دوفرين في منصب السفارة بعد بضعة أسابيع أوصاه غوشن بالاهتمام بالامر . وفي النهاية أجيب طلبي بعد طول الانتظار وافرج عن الشيخين . على ان اقتراحي بخصوص القبائل قد أثمر فيما بعد ثمرة من نوع لم أكن أتوقعه أو أرغب فيه ذلك لانه لما تقرر في صيف عام ١٨٨٢ ارسال حملة ولعلي تذكر غوشن أو شخص آخر له صلة بالحكومة اقتراحي السالف فتقرر ارسال مندوب سري لاستعمال اسمي في القبائل التي تعرفت بها في جنوبي غزة لحثها الى عقد تحالف مع القوات الانجليزية ضد الجيش الوطني المصري وكنت اذ ذاك كما قالوا « كالباحث عن حتفي بظلفي » وهذه هي بعثة بالمر الشهيرة التي سأتكلم عنها باسهاب في حينه .

وكانت سورية وحدود بلاد العرب وقتئذ في حالة تخمر سياسي . فقد كان هناك تياران من الشعور بين المسلمين بخصوص الجامعة الاسلامية أحدهما شعور التعصب الديني وهذا كان مستمداً من السلطان نفسه والآخر شعور الرغبة في الاصلاحات الحرة . وقد قيل لي في دمشق ان الشعور ضد السلطان وضد الادارة العثمانية الفاسدة قد بلغ حداً يصح معه توقع الثورة في أي لحظة وقد حادثت محمد

ابن عبد القادر فى ذلك الصدد فوجدته هو وأباه متحمسين لفريق الاحرار وانه — كغيره من علماء العرب — من انصار فكر الخلافة اذا كان في الامكان تحقيقها وقد خطر لى وقتئذ ان ليس بين العرب من هو أحق بهـذا اللقب من عبد القادر نفسه . وعلى ذلك رجوت محمداً ان يستطلع رأى أبيه فى ذلك الصـدد ويسأله هل يقبل أن يكون زعيم هذه الحركة اذا جد جدها

وقد فعل محمد ما أشرت به عليه وعاد الي بحمل رسالة من والده يقول فيها انه رغم شيخوخته التي تحول دون الاشتراك فعلياً فى أي حركة من هذا القبيل فان أولاده يقبلون ذلك وانه لا يمانع فى ذكر اسمه كمرشح للخلافة اذا طلب اليه هذا الترشيح . وعلى كل فان الحركة لا يمكن أن تصادف نجاحا الا بمساعدة من الخارج فان الحكومة العثمانية قادرة حربياً على كبح جماح القائمين بها وقد تم الاتفاق بيننا على أن أبلغ رده بصفة سرية الى الحكومة الانجليزية واستطلع ماذا تكون خطتها اذا حدثت ثورة فى سوريا . وهو مافعلته بالفعل عن طريق الوسيط المعتاد بيني وبين مستر غلادستون وهو سكرتيره الخاص هاملتون وقد سألت ما عن نوع المساعدة التى يمكن أن يعتمد العرب عليها . وقد اقترحت عند الاشارة الى خطاب هاملتون الذى سبق نشره ان مثل هذه الحركة قد تنظر اليها حكومتنا بعين الارتياح خصوصاً بمناسبة المصاعب التي بينها وبين الباب العالي بخصوص اليونان . ولكن اهتمام غلادستون بالشرق بل بالسياسة الخارجية على العموم كان قد خمد وقتئذ خموداً تاماً ولذلك كان جواب هاملتون موجزاً ومثبطاً للعزائم . فقد كتب يقول « انى أؤمل أن يوجد ما يحول دون وقوع الحرب بين تركيا واليونان واذ ذاك تنتفي عن الالتجاء الى مشروعك فى سوريا . وكل ما أقوله هو انه يحتمل ان توجد حالة كهذه واذ ذاك يصبح من اللازم استعمال الوسائل التى تشير بها ولكن هذه الحالة لم توجد بعد . ان هذا مبهم وغامض ولكن أخشى ألا أستطيع ان أضيف الى ذلك شيئاً

آخر » . فلم أجد مناصاً من السكوت على ذلك ولكني بادرت بابلاغ النتيجة الى السيد .

ولم يكن لبقية سياحتنا في ذلك الصيف أي غرض سياسي .وقد زرنا أصدقاءنا من آل عنزة مرة أخرى فوجدناهم ضاربين خيامهم بالقرب من بالميرا ولكن معاملاتنا معهم اقتصرت على شراء الخيول ولم تكن هذه القبيلة تعنى بالسياسة فيما يخرج عن دائرة الصحراء وكذلك كانت عنايتها بالمسائل الدينية قليلة . والواقع ان الانسان لا يستطيع على وجه التقريب ان يسميهم مسلمين فانهم لا يصومون ولا يصلون ولا يؤدون أي فرض من الفروض الدينية الاسلامية . وكل ما يربطهم بالاسلام هو أنهم لايزالون متمسكين بتقاليد الصحراء وهي التقاليد التي بنيت عليها الشريعة ولكنهم لا يعرفون من عقائد الاسلام الا التوحيد أما الرسل والاولياء والقرآن فذلك ما لا يعرفونه وكذلك لا يعرفون شيئاً عن الدار الآخرة . وقد سحنا معهم الى أقصى حدودهم الشمالية حتى وجدنا أنفسنا في حلب في أول حرارة الصيف ومنها عدنا سريعاً الى انجلترا (١) .

---

(١) مما يخلق بالذكر بهذه المناسبة اننا تعرفنا في حلب بضابطين بريطانيين لعبا بعد ذلك دوراً كبيراً في الشؤون المصرية وحرب السودان أحدهما الكولونيل سيتوارت الذي اشترك مع غوردون في الدفاع عن الخرطوم ضد حملات المهدي . والثاني الكولونيل السير شارل ولسن الذي قاد القوات البريطانية في المتامنة بعد واقعة أبو كلية .وقد ساح ستيوارت بايعازي في ذلك الصيف بين بدو عنزة وشمر ولكنه لم يستطع أن يتفاهم معهم وهذا راجع في الحقيقة الى خلوه من العطف على الشرقيين . أما ولسن الذي كان أوسع منه رأياً فقد صحبنا في سياحة العودة حتى أزمير التي وصلناها وقت القبض على مدحت باشا . وكان كلاهما في ذلك الحين قنصلاً متنقلاً لبريطانيا في تركية آسيا من النوع الذي نصت عليه معاهدة قبرص .

الفصل السادس

مقدمات الثورة المصرية

قضيت صيف سنة ١٨٨١ كله فى « كرابيت » أكتب الكتاب الذى كان ثمرة تجاريب الشتاء وهو كتاب « مستقبل الاسلام » وقد وضعته في عجلة وأحوال لاتساعد على دقة الحكم فقد ازدحمت علي الحوادث اثر الحوادث خلال كتابته حتى شق علي أن أضع نبوة هادئة عن مصير الاسلام بيد اني أعتبر هذا الكتاب مؤلفاً جدياً رغم ما فيه من نقائص واذا لم تكن له أهمية تاريخية فلا أقل من أنه تصور آمال المسلمين ومخاوفهم فى الوقت الذى كتب فيه . وقد دافعت فى هذا الكتاب بلا تحفظ عن قضية الاسلام باعتبارها قضية افضه الخير على شطر كبير من الارض وهي قضية يجب علي كل محب للانسانية أن يشجعها لا أن يقمعها . وبينت أصل الاسلام ومفاخره وتدهوره الظاهري الشبيه بالتدهور الذي خيل الناس أنه استولى علي المسيحية منذ أربعمائة عام والذى قد تلافاه الاسلام كما تلافته المسيحية بالاصلاح الدينى وتحرير أفكارها من قيود التقاليد العتيقة التى وقفت تطورها وعرقلت تقدمها . وقد شرحت الآراء كما تعلمتها من الشيخ محمد عبده أستاذ المدرسة الحديثة الحرة وتوسلت الى مواطنى بكل مافيهم من خير أن يعطفوا علي آمال أحرار المسلمين ويؤيدوهم ضد الرجعيين ذوى المكائد والتعصب الأعمى والذين يلجأون فى آخر الأمر الي حل مشكلاتهم الاصلاحية بحد السيوف . وقد خاطبت انجلترا بصفة خاصة اذ كنت أعرف ان صاحبة الهند لابد أن تهتم كثيرا بمستقبل الاسلام طالبا أن تكون ذا سيادة نشطة مصادقة لافضل عناصر الافكار الشرقية فى مكافحتها أسوأ مافيها من العناصر وألا تقتصر علي الاستفادة من حالة الانحطاط لتوسيع منافعها المادية وقلت « ان النقطة الرئيسية هي أن تفى انجلترا بحق الأمانة التى حملتها « باعتبارها وارثة الامبراطورية المغولية وبحق علاقتها القديمة بالشؤون العثمانية » وهي أمانة ترقية عناصر الخير الشرقية لاهدمها ان

انجلترا لا تستطيع أن تهدم الاسلام ولا أن تقطع علاقتها به لذلك يجب عليها بحق خالق الكون أن تأخذ بيد الاسلام وتعينه على السير فى طريق الفضيلة . هذه هي الخطة الحكيمة الخليقة بانجلترا وهي لعمري أشرف وأحكم من حرب صليبية تستغرق قرناً بتمامه » .

وقد نشرت هذا الكتاب فصولا شهرية فى مجلة « فورتنيتلي رفيو » فأحدث تأثيراً كبيراً في انجلترا وبين قراء الانجليزية فى الهند وترجمت أكثر الفصول الى العربية فى مصر وكان ظاهراً في الوقت الذي كتبت فيه أن حوادث خطيرة توشك أن تحدث في الشرق بل أنها أخذت تحدث بالفعل . فقد بكرت الحكومة الفرنسية في مايو الى غزوة تونس بغير تنبيه أو انذار تمهيداً للاتفاقية السرية التى عقدت قبل ذلك بثلاث سنوات بين واد يجتون ووزارة الخارجية الانجليزية واحتلت نصف تونس الغربي بحجة حماية الباى من الخطر الذى يهدده به رعاياه — وهو خطر وهمي — وأعلنت الحماية الفرنسية . ولم تكن فى حالة الحار الذى هجم عليه هكذا غدراً مايبرر هذا الهجوم كسوء الحكم أو الخطر علي الاوروبيين أو حتى الضيق المالى . وكان الباى نفسه رجلا طيباً محترم الشخصية ولم يأت بأى شيء يفقده حسن نية الشعب نحوه فكان اعتقاله بواسطة الجنرال « بريرت » واغتصاب سلطته بواسطة الجمهورية الفرنسية من الاعتداءات المعدومة النظير حتي بين ماحدث من الاعتداءات علي الامم الضعيفة فى عصرنا الحاضر اذا استثنينا اعتداءات بونابرت علي مصر سنة ١٧٩٩ . وكان لهذا الاعتداء أسوأ وقع فى انجلترا حيث كان الناس فى جهل باتفاقية برلين السرية . أما فى العالم الاسلامي فقد أوقد نار الغضب والاشمئزاز الذى أخذ يعظم حين افتضح السر .

ولم يكد أهل تونس العربية يطلقون ناراً علي الفرنسيين لفرط ما لجأم هؤلاء بالاعتداء واضطر الباي الى توقيع معاهدة قدمت له علي ذبابة السيف بواسطة الجنرال « بريرت » فكانت النتيجة أن فقدت تونس استقلالها قبل أن تعرف أين هي . ولكن أهل الشطر الشرقي من تونس نفروا الى أسلحتهم وقبل أن ينتصف الصيف عمت الثورة صحاوى الجزائر وطغى موج الغضب علي النصرانية

الى الشرق وبدأ يؤثر تأثيراً خطراً في مصر كما سأبين بعد كما أنه حفز المصلحين فيها الى الجد فى حركتهم وحمل جيشها علي المطالبة بالحكومة الذاتية .

ومما يخلق بالذكر لاثبات اشتراك الحكومة الانجليزية فى هذا الشأن الفاضح أن لورد جرانفيل سمح لنفسه أن يكتفي بوعد بسيط من الحكومة الفرنسية بأن الاحتلال موقت لاعادة النظام على الرغم من أن النظام لم يكن قط مهدداً وبأن الاحتلال لا يستمر يوما واحداً مما يستلزمه توطيد حكومة الباي . وهذه خطة زور قلدها لورد جرانفيل بكل دقة بعد ذلك بسنة واحدة حين انعكس موقفا فرنسا وانجلترا في مصر . كذلك يستحق الذكر انه مع أن البرلمان البريطاني كان معقوداً لزم لورد سلسبري زعيم المعارضة جانب الصمت المطبق فيما يتعلق بتونس على الرغم من أن أتباعه الذين لم يعرفوا شيئاً من سر المسألة أقاموا ضجه كبرى طالبين الشرح والبيان . كذلك سكت بسمارك فى برلين ولم تبد أي دولة من الدول التي كانت ممثلة فى مؤتمر برلين أي اعتراض وان كان الشعب الايطالي قد استاء كثيراً من فعل الحكومة الفرنسية . أما السلطان فقد نشر احتجاجه إذ كانت تونس جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وقبلت أوربا الحالة كحقيقة واقعة .

ويجب على أن أقص تاريخ الحركة التى عرفت فى صيف سنة ١٨٨١ باسم النهضة الوطنية المصرية ويرجع أصل هذه الحركة فى الحقيقة الى مجاهدة اسماعيل حين وقع الخلاف بينه وبين ولسن واجتهد اسماعيل أن يحتفظ بسلطته ضد الوصاية القنصلية التي أوقعه فيها سوء تصرفه وديونه . وقد أراد اسماعيل أن يسترد مركزه الادبي الذى كان قد فقده ويستعيد حسن ظن رعاياه بنشر نداء عام يطلب فيه تأييدهم ومن ثم أعلن في ربيع سنة ١٨٧٩ عزمه على دعوة جمعية من الوجهاء . ولم يكن شك فى أنه يريد أن يرفض جزءاً من الدين على الاقل مستتراً بالرأى المصرى العام . ومع انه لم يعتقد فيه الاخلاص بومئذ الا نفر من الاوربيين المقيمين فى مصر فان فكرة معالجة السيئات التى كابدها الاهلون بادخال نظم الحكم النيابي أخذت تشيع وتتأصل فى القاهرة من ذلك الحين . وكان الشيخ جمال الدين وتلاميذه قد حكموا بان استبداد أمراء المسلمين الآخذ فى الزيادة مخالف لتعاليم الاسلام الذى

هو فى الحقيقة جمهورية لشكل مسلم فمهاجم الخطابة فى مجتمعاتها كما أن سلطة الحاكم فيها لا تعتمد الا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة وبيعة الناس وقد طعن علماء الازهر على اسماعيل فقالوا أنه معتد على القانون وظالم سياسى . وكثيراً ما تباحثوا سراً فى ربيع سنة ١٨٧٩ عن كيفية عزله والوسائل التى تمكن من ذلك أو حتى من التخلص منه بالاغتيال. وعندى أن شعور اسماعيل بالخطر المزدوج الذى يهدده من الخارج وفي مصر ذاتها من ناحية آراء الازهريين هو الذي حمله على الظهور بالمظهر الدستورى. وهنا يجب أن نذكر أن الآراء الدستورية لم تكن سائدة فى مصر فقط فى ذلك الحين بل كانت سائدة كذلك فى الاستانة وكان السلطان قد استدعى الجمعية قبل ذلك بخمسة أعوام

لذلك لم يكن للمصلحين بد من الموافقة على حركة اسماعيل مهما تكن ثقتهم فيه قليلة ومن ثم أخذوا يشرحون هذه الحركة على صفحات الصحف اللاتى انشئت فى مصر تحت اشرافهم . وكان الآن بين الموظفين عدد غير قليل يميل الى النظام الدستورى ومن بينهم شريف باشا وعلى مبارك باشا ومحمود باشا سامى البارودى. ولم يقف الامر عند هذا الحد . فقد وقع وارث الخديوية محمد توفيق تحت نفوذ جمال الدين القوى وصار هذا صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم مرة بعد أخرى بأنه متى وصل الى العرش سوف لا يحيد شعرة عن جادة الحكم الدستوري . وقد كان توفيق وشريف الدستوريان عضوين فى وزارة اسماعيل الاخيرة التى عمرت ثلاثة أشهر وكانت مقاليد الادارة فى أيديهما حين عزل اسماعيل .

وعلى هذا رحب جمال الدين والمصلحون بارتقاء توفيق منصة العرش واعتبروه دليلا على حسن الطالع . ومع أنهم أسفوا لان المصريين أنفسهم لم يستطيعوا خلع سلطانهم فقد تطلعوا الى العصر الجديد بثقة الرجال الذين خطوا خطوة فى سبيل تحقيق أمانيهم . ولكن الخديو لم يلبث أن غير رأيه حين تسلم مقاليد السلطة ، شأنه فى ذلك شأن غيره من أولياء العهود ولم يمض شهر حتى نسى وعوده وغدر باصدقائه . وقد كان توفيق ضعيفاً . وكان قد ولدته لاسماعيل احدى سراريه فلم يعامله اسماعيل المعاملة الخليقة بولى العهد كما ان والدته كانت تتركه فى خوف مستمر من صولة والده فلم تربطه بهذا الوالد رابطة الاخلاص والتقرب . وكانت نشأته بين سيدات الحرم

أكثر مما هي بين الرجال فنشأ ضعيفاً لا يسعه الا الادعان لاية ارادة أقوى من ارادته ولكنه يسعى بعد ذلك لتمهيد ما يريد بالطرق الخفية . ومن ثم كان شديد الغيرة محباً لحوادث الانتقام الصغيرة . أما فيما يختص بحياته المنزلية فكان مستقيما بالقياس الى أسلافه ولم يكن كذلك خلواً من كثير من الفضائل الكريمة ، وكانت سلبية أخلاقه تجعله خطراً كبيراً علي أولئك الذين قدر لهم أن يتعاملوا معه . وكان همه الاول أن يخفي الحقيقة ويلقي على الغير تبعة الفشل الذى يكون قد حدث بخطئه . وكذلك لم يكن يفضه الشيء يظهر رفضه ابدا صراحة ولكن باصطناع الاقاويل والوقيعة وبالتفريق حيث يريد أن يسود ويتحكم وقد ذكر عنه أنه لم يخلص لشيء قط وانه لم يثق به أحد الا غدر به .

فلما ارتقى توفيق العرش ووجد نفسه بين قوتين متناقضتي الغرض — قوة أصدقائه المصلحين الذين أخذوا يحثونه على الوفاء بعهوده الدستورية وقوة القناصل التي منعته أن يتنزل عن شيء من سلطته التي كانوا يريدون أن يستعملوها باسمه أذعن أولا لاقتراح وزيره شريف بأن يصدر منشوراً يمنح به دستوراً ولكنه أبى بناء على إشارة القناصل أن يوقع المنشور . وقد أفضى هذا الى استقالة شريف باشا فحل محله رياض باشا الذى رشحه القناصل لذلك والذى كانوا يعتمدون عليه في تنفيذ آرائهم الخاصة بالاصلاح الدستورى في الوقت الذى يتمتع فيه بالسلطة المطلقة طبقاً لمنشور سنة ١٨٧٨ ويتصرف فى شؤون الادارة كيف يشاء باسم الخديو وبغير رقابة من أى مجلس أو جمعية .

وقد كان الضعف الذى أظهره توفيق في هذا الشأن وهو أول شأن مهم عرض له في حكمه سبب كل ما أصابه بعد ذلك من المتاعب . ولو أنه وفى بعهوده للمصلحين ولوزرائه واستدعى مجلس الاعيان لبقي رعاياه موالين له ولما كان قد وجد محل للدسائس التي راجت سوقها في العامين التاليين والتي مهدت السبيل لثورة سنة ١٨٨٢ أما والحال كما هي فقد وجد نفسه بعد ما أطاع القناصل مجرداً من السلطة وصار القناصل والوزراء يعاملونه كأنه دمية .

وقد اختلف الناس فى الحكم على رياض . وقد كان الوطنيون شديدى الحكم

عليه حين زرت مصر فى خريف سنة ١٨٨١ وكانوا يحملونه تبعة اجراءآت العنف التى اتخذت ولكنى أعتقد الآن ان التبعة كلها لم تكن واقعة عليه وكان رياض باشا من رجال العهد القديم ولم يكن يثق الا بأشد أنواع الحكم اطلاقا وقد أدار الادارة بالطرق التى كانت متبعة في عهد اسماعيل أى بالجاسوسية وقوة البوليس والاعتقال والنفى . على أنه لم يكن ظالماً أو واشياً بالطبع وعندى أنه كان محوطاً فى كل أعماله بضرب من الشعور الوطنى.وكانت فكرته فى حكم مصر طوعاً لامر قنصلى فرنسا وانجلترا وعلى رغم الشعب.تنحصر كما أكد لى.فى رغبة انقاذ مصر من مصاعبها المالية ووفائها بالديون ومن ثم التخلص باسرع ما يمكن من كل تداخل أجنبى . وليس هنالك شك في انه بذل في السنة الاولى من حكمه جهداً عظيما لتخليص الفلاحين من أثقالهم المالية . ولكن الوفاء بالديون عملية طويلة بطيئة وليس ثم دليل على انه كان يمكنه أن ينجح فى تحريرها من الوصاية التي ضربت عليها أوحتى تخليص الناس من أفظع ما حاق بهم من سيئات الادارة.والواقع أن المراقبة الثنائية التى خدمها رياض لم تعن إلا بالمسألة المالية طارحة كل ما عداها فى زاوية الاهمال. وقد كان الفلاحون لا يزالون يحكمون بالكرباج.وكانت المحاكم بؤراً للفساد والملاك المدينين يخسرون ممتلكاتهم للدائنين وكانت سلالتا الأتراك والجركس لا تزالان تسودان البلاد .

ولم تقم الحكومة باي تحسين أدبي ولا هي حسنت حتى نظم الادارة . وقد كان هذا موضع ضعف الحكم الانجليزى الفرنسي وسبب فشله فى ارضاء الناس . ومع ذلك يجوز أن نتساءل ألم يكن بد من أن تأتى الازمة بالسرعة التى جاءت بها لو ان الخديو كان مخلصاً لوزيره ممتنعاً عن الدس له ، ولكن هكذا كان طبع توفيق كما أسلفت ـ فهو يخضع ظاهراً للضغط ولكن يحاول تحقيق غرضه بوسائل أخرى لذلك أخذ يدس لرياض من أول الامر وكان غيوراً من سلطته ناقماً عليه القوة التى منحها له . هذا هو التاريخ الصحيح لسلسلة الاوقات التى مرت فيها مصرسنة ١٨٨١ بما فيها القلاقل العسكرية التى انتهت بسقوط رياض من دست الوزارة .

ان تدخل الجيش فى شتاء ١٨٨٠ ـ ١٨٨١ كقوة سياسية فى مصر له أهمية

كبيرة تستدعى الحال شرحه شرحا وافيا وقد كان هذا الجيش عاملا من عوامل الاستياء منذ حلت به الهزيمة فى الحبش وقضت على سمعة الخديو رد على ذلك ان الصعوبات المالية جعلت دفع المرتبات عسيراً وغير منتظم . وكان الجنود العائدون من الحرب قد استخفوا بقوادهم الذين برهنوا على قوة كفاءتهم واشترك معهم أكثر الضباط الصغار في عواطف الاستخفاف والاستياء . وقد ساعد على ذلك ان مناصب الجيش العليا كانت مقصورة على الجراكسة الذين يتكلمون اللغة التركية فهذه الطبقة احتكرت السلطة . أما الجنود والضباط الى رتبة يوزباشي فقد كانوا من الفلاحين . وقد اشتد الشعور بكراهة الطبقات حين حرم هؤلاء من مرتباتهم في الوقت الذى كان الرؤوس الجراكسة يستولون على مرتباتهم الكبيرة غير منقوصة . وعلى ذلك كان الجنود وصغار الضباط يشاطرون الشعب استياءه فى الثلاث سنوات الاخيرة فى حكم اسمعيل وحدث كثير من المؤامرات التي لم تعلن أبداً بين صغار الضباط الذين وصلوا فى وقت من الاوقات الى الشروع فى استخدام القوة . وكان بين زعماء هذه الحركة منذ سنة ١٨٧٧ احمد بك عرابي الذى خوله رتبته — بكباشي — وهي رتبة قلما شغلها مصرى — نفوذاً قوياً استثنائياً على مواطنيه . وأحسب ان المكان هنا يتسع لكتابة شيء عن هذا الرجل الشهير .

ولد عرابي سنة ١٨٤٠ وهو ابن شيخ صغير فى احدى القرى يملك ثمانية فدادين ونصف فدان في « هرية » القريبة من الزقازيق حيث نشأت أسرته منذ زمن بعيد وكان لها احترام خاص شبه ديني وقد زعم كثيرة من الشيوخ ان دماء السادة « سلالة النبي » تجرى في عروقه أما عدا ذلك فهو فلاح قح ولكن هذه السيادة رفعت قدره على جيرانه الفلاحين ولا أدرى ماهو مبلغ الصحة في زعمهذا وقد اختلف الناس فيه ولكنى أعرف انه حمل الاسرة على العناية بالتربية الدينية التي لايمكن تحصيلها فى قرى الوجه البحرى ومن ثم أرسل عرابى فى شبابه كما أرسل والده الى مصر ومكث عامين يدرس فى الازهر .

وقد اقترع فى الرابعة عشر من عمره وأخذ جنديا ولما كان شابا طويل القامة باكر النمو وكان سعيد باشا قد وضع مشروعا لتدريب أبناء مشايخ القرى ليكونوا

ضابطاً فقد مرق فى الرتب الصغرى بسرعة وصار ملازماً في السابعة عشر ثم يوزباشياً فى الثامنة عشر وصاغاً فى التاسعة عشر وبكباشياً في العشرين. وقد حدث هذا الترقي السريع المعدوم النظير بالنسبة لابناء الفلاحين تحت حماية القائد الفرنسى الذي كان يعمل تحت امرته وهو سليمان باشا الفرنساوى ولكن الفضل الحقيقي فيه يرجع لرغبة سعيد باشا الذى اراد أن يكون مصرياً كرعاياه لافرداً من جماعة الاتراك ورغب كذلك فى أن يكون محاطاً بالضباط المصريين . وقد حظي عرابي الذى كان وسيما ووجيها برضائه حتي سمي أركان حرب له ورافق سعيد الي المدينة في السنة التي سبقت وفاته. وعندى ان عرابي كون آراء السياسة الاولي أثناء حديثه مع سيده فى هذه السفرة التي كانا فيها متلازمين وتنحصر هذه الآراء فى المساومة بين الطبقات وفى الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الاساسي الجد في الجيش المصرى . وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى ميز عرابي على مصلحي ذلك العصر . وغني عن البيان ان حركة الاصلاح الازهرية كانت تشمل المسلمين ولا تميز بين الاجناس . أما حركة عرابى فكانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر واقبال الناس عليها أقوى وأكثر .

وكانت وفاة سعيد الفجائية ضربة شديدة على آمال تابعه عرابي فقد زالت الحظوة عن الضباط الفلاحين فى عهد اسمعيل وأعطي التفضيل كله للجراكسة وقد وجد عرابى ان هؤلاء يعاملونه بازدراء ثم أعطيت له مهمات ثانوية فى مصلحة النقل وفي المناصب المدنية فأدى هذا الي انضمامه للتذمرين والى تفانيه فى الدفاع عن حقوق طبقته . وكان عرابي فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التي يفهمها مواطنوه ويحبونها . نم أنها ليست لغة صحيحة ولكنها حافلة بالمجازات محلاة بالمقتبسات من القرآن وكان قد استمدادها من دروسه فى الازهر . ومن ثم كان له نفوذ كبير عن الذين اتصل بهم .

وفي هذه الاثناء امتزج عرابي بكثير من الاوربيين ولا سيا في الاسكندرية التى كان قد أرسل اليها بمأمورية رسمية غير عسكرية خاصة بدائرة الخديو وكانت علاقته بهؤلاء الاوربيين ودية وقد ظل عرابي الى اللحظة الاخيرة مجرداً من كل

شائبة من التعصب فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدينه فمع أنه كان شديد المحافظة على فروضه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم انه كان محباً للانسانية في آرائه الخاصة باتحاد الامم وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابى فى الحرب الحبشية ولكن فى خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كسائر زملائه ساخطا على ماحدث فيها من سوء التصرف . والى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذى كان موجهاً بعد ذلك نحو الخديو . وقد زاد هذا الغيظ حين اعتقل هو والضابط الفلاح على بك الروبى بتهمة كاذبة هى ان لها علاقة بالهجوم على نوبار وهي مناورة قام بها اسماعيل ليستر وراءه دوره الذاتي . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الضباط فى مشروع لم ينجح وكان مؤداه خلع الخديو والراجح ان هـذا الخلع كاد يتم حتى لو لم تتداخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاغتيال وغني عن البيان انهذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هنالك شك في أن حرب المصلحين والفلاحين قد سرع سقوط اسماعيل .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن عرابى كان معاديا من أول الامر للحكم الجديد فلم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حزازة بل كان يرى على عكس هـذا نفوذاً وديا صالحاً كما كان يرى فى القناصل حماة للفلاحين من ظلامهم القدماء . زد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام فى أحب الامكنة اليه أى فى ثكنات العباسية . ولو أن مظالم الجنود الحقيقية عولجت بشيء من الحذق والاعتدال وعين وزير للحرب غير معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . ولكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولغيرة الخديو توفيق من سلطة وزيره رياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القلاقل على النحو الآتي : لما ألفت وزارة رياض باشا عين عثمان رفقي باشا وهو ضابط تركي من الطراز القديم لوزارة الحرب . وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي ظلت قروناً طويلة تنظر الى مصر كضيعة خاصة وتنظر الى الفلاحين كعبيدها وخدمها فكان مسلكه بالنسبة للضباط الفلاحين مسلكاً عدائيا من

شائبة من التعصب فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدينه فمع أنه كان شديد المحافظة على فروضه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم انه كان محباً للانسانية فى آرائه الخاصة باخاء الامم وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابى فى الحرب الحبشية ولكن فى خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كسائر زملائه ساخطا على ما حدث فيها من سوء التصرف . والى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذى كان موجهاً بعد ذلك نحو الخديو . وقد زاد هذا الغيظ حين اعتقل هو والضابط الفلاح على بك الروبى بتهمة كاذبة هى ان لهما علاقة بالهجوم على نوبار وهى مناورة قام بها اسماعيل ليستر وراء دوره الذاتي . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الضباط فى مشروع لم ينجح وكان مؤداه خلع الخديو والراجح ان هـذا الخلع كاد يتم حتى لو لم تتداخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاغتيال وغني عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هنالك شك في أن حرب المصلحين والفلاحين قد سرع سقوط اسماعيل .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن عرابى كان معاديا من أول الامر للحكم الجديد فلم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حرازة بل كان يرى على عكس هـذا مفوذاً وديا صالحاً كما كان يرى فى القناصل حماة للفلاحين من ظلامهم القدماء . زد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام فى أحب الامكنة اليه أى فى ثكنات العباسية . ولو أن مظالم الجنود الحقيقية عولجت بشيء من الحذق والاعتدال وعين وزير للحرب غير معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . ولكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولغيرة الخديو توفيق من سلطة وزيره رياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القلاقل على النحو الآتي : لما ألفت وزارة رياض باشا عين عثمان رفقي باشا وهو ضابط تركي من الطراز القديم لوزارة الحرب وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي ظلت قروناً طويلة تنظر الى مصر كضيعة خاصة وتنظر الى الفلاحين كعبيدها وخدمها فكان مسلكه بالنسبة للضباط الفلاحين مسلكاً عدائيا من

أول الامر وقد أعطي التفضيل للجراكسة لا للفلاحين في جميع التعيينات والترقيات التي حدثت في عهده . وساء الجنود أنهم كانوا يكلفون باداء مهمات غير واجباتهم الرسمية ثم انهم كانوا معرضين لضروب شتى من الاشغال الشاقة كحفر الترع ومباشرة الاعمال الزراعية في أراضي الخديو ، وكانوا قد فقدوا بطبيعة الحال عادة الاشتغال بالزراعة .

فلما وقف عرابي في جانب رجاله وأبي أن يسمح بتشغيلهم في حفر الترعة التوفيقية غضب عليه وزير الحرب وكانت هناك مسألة مرتبات منعت فرفع عنها الضباط الفلاحون مذكرة في ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ وكان عرابي واحداً من هؤلاء الضباط .

ولم يكن في المذكرة شيء سياسي وقد رفعت بالطريقة القانونية الي وزارة الحرب فتداخل قنصلا انجلترا وفرنسا والفت لجنة للتحقيق فأقرت اللجنة مطالب الضباط . وقد انتصر المسيو رنج قنصل فرنسا في هذه المسألة للضباط واستمر علي حمايتهم من ذلك العهد الي حد ما خصوصاً اذ قد شجر بينه وبين رياض خلاف أثناء التحقيق . ومع ان عرابي كان يقوم في هذا كله بنصيب كبير قد كان متبصراً معتدلا وقد أرضي القناصل بذلك . وكان قد جدد الصداقة مع زعماء الاصلاح في الازهر منذ عاد الي القاهرة وقلد قيادة الكتيبة الرابعة ثم انه كان متصلا بواسطة زميله علي بك الروبي بوزيرين أحدهما علي باشا مبارك والثاني محمود بك سامي البارودي . وكان هذان علي رغم ما عرفا به من الميول الدستورية والتمية لشريف قد احتفظا بوزارتيهما بعد سقوطه فكان الاول وزيراً للاشغال والثاني وزيرا للاوقاف .

وإذ بلغت الاحوال الى هذا المأزق رأى الخديو فيها فرصة سانحة للدس ضد رياض فاتصل بالضباط بواسطة أركان حربه علي بك فهمي وهو ضابط فلاح ولكنه اتصل بالقصر بواسطة زوجته الجركسية الاصل وعين قائداً لكتيبة الحرس الاولي . وكان هذا الضابط رجلا فاضلا . ومع انه لم يوقع المذكرة التي أرسلها الضباط الي وزارة الحرب ولم تكن له آراء سياسية قد كانت صلته بعرابي واخوانه ودية ولم يجد صعوبة في اقناعهم بان الخديو هو أيضاً في جانبهم وانه أرسله خصيصاً لانذارهم بان رياضاً ورفقته يدبرون لهم تدبيرات سيئة وان الخطر سيظل محدقا بهم أو يستقيل هذان

الوزيران ، وقد سهل اقناع عرابي بذلك لان رياضاً كان الى ذلك الحين قد اعتقل كثيراً من المطالبين بالاصلاح الدستوري ومن بينهم كثير من أصدقائه . وكان الشيخ جمال الدين قد انتهي أمره بسرعة ونفي شاب من ذوى الاملاك في الشرقية يدعي حسن موسي العقاد منذ مدة قصيرة الى النيل الابيض لا لشيء الا لانه طعن على قانون المقابلة الذي كان الخديو اسماعيل قد أصدره وكان طعنه هذا رداً علي خطاب نشره رفرز ولسن ومن ثم اقترح على الضباط أن يسبقوا عثمان رفقى فيطلبوا رفته وان الخديو ينظر فى مثل هذا الطلب بعين الرضاء .

وقد انتهت المسألة الى أزمة فى أواخر سنة ١٨٨٠ حين علم عرابى ذات مساء وهو مع الضباط في منزل نجم الدين باشا أن الوزارة قررت حرمانه هو وزميله القائمقام عبد العال بك حلمي قائد الكتيبة السودانية من مناصبهما ورفتهما من الخدمة . وقد نمي اليه فى الوقت نفسه أن على بك فهمي هذا فى منزله ويريد أن يراه ، فذهب الي داره فوجد فيها على بك فى انتظاره ومعه عبد العال حلمي الذي أكد له صحة ما بلغه من الانباء . وبعد أن تشاور الثلاثة — لان على فهمي كان قد قرر الاشتراك معهم — قرروا أن يذهبوا الي رئيس الوزارة ويطلبوا منه أن يضع حداً لما يصيبهم من اضطهاد عثمان رفقى بعزله . وقد فعلوا هذا فى اليوم الثاني .

وقد قص على عرابى نفسه ما حدث فى هذا اللقاء ولا شبهة عندى فى صحته قال : ذهبنا بالعريضة الي وزارة الداخلية وطلبنا مقابلة رياض . أخذنا الى غرفة خارجية وانتظرنا ريثما يقرأ الوزير عريضتنا فى حجرته . ثم خرج الوزير وقال لنا « ان عريضتكم مهلكة . فهى مسألة شنق . ماذا تريدون ؟ تريدون تغيير الوزارة . فماذا تضعون في محلها . من الذين تطلبون أن يديروا الحكومة؟» قال عرابي فأجبته قائلا : ولكن يا سعادة الباشا هل مصر امرأة لم تنجب الا ثمانية أبناء ثم ابتليت بالعقم . وقد أشرت بذلك اليه هو والسبعة الوزراء . فغضب جداً من ذلك ولكنه قال فى النهاية أنه سينظر فى المسألة . وهكذا تركناه .

وقد لعب الخديو دوراً . غادرا فى مجلس الوزراء الذي عقد بعد هذا الحادث مباشرة فقد اقترح اعتقال الضباط ومحاكمتهم رغبة منه فى توريط الوزارة اذ كان يعلم

فى المسيو دي رنج القنصل الفرنسي سيتدخل لحماية الضباط . ولم يكن عثمان رفقى رفض هذا الاقتراح الذى يمضى الى محاكمته هو أيضاً بطبيعة الحال كما أن رياضاً لم يكن يريد أن تفتضح المسألة علناً وبذلك وقف فى جانب الضباط . على انه قد أوعز رياض سراً أن موقفه قد يساء تأويله فتعتبر معارضته تمصاً فى اخلاصه للخديو فسحب معارضته واتفق فى آخر الامر على أن يترك أمر الضباط لعثمان رفقى للتصرف فيه بالطرق التى كانت متبعة فى عهد اسماعيل . لذلك لم يعمل شيء علناً ضد الضباط ولم يفصل مجلس الوزراء في مسألتهم بقرار .

أما ماتلا ذلك فمعروف . فقد دعي أصحاب العريضة الثلاثة بعد بضعة أيام الى قصر النيل ليتفقوا مع وزير الحرب على الادوار التى تشغلها كتائبهم في الاحتفال بتأهيل الاميرة جميلة . فلما وصلوا هناك وجدوا كثيراً من رؤسائهم الضباط الجراكسة مع عثمان رفقي ولم يمض على وصولهم لحظة حتى اعتقلوا وأهينوا . وقد عرف عرابى الى آخر الامر بأن المراد كان وضعهم فى باخرة نيلية راسية بجوار القصر والصعود بهم فى النيل واغراقهم وليس ثمة ما يحمل على الشك فى صحة ذلك . فقد كان كل غرض عثمان رفقي أن يتجنب محاكمة قد تفتضح ظلمه . ولو أنهم وضعوا في الباخرة وأقلعت بهم لاعلن حالا أن هؤلاء الضباط رفتوا وأرسلوا الى بلادهم . ومهما يكن من ذلك فقد أتقدم جنود كتيبة على بك فهمي فى الحال وقد زحفوا علي القصر وفتحوا بالقوة أبوابه بقيادة الصاغ محمد عبيد وهو رجل طيب مخلص قتل بعد ذلك في معركة التل الكبير . وقد تقهقر القواد الجراكسة بعد ذلك وأرغم عثمان رفقي علي الفرار من نافذة الدور الارضي ثم سار الضباط الثلاثة فى طليعة جنودهم ووسط قرع الطبلات الى ثكناتهم . وهناك وضعوا خطاباً دونوا فيه ماحدث وقالوا انهم فعلوا ما فعلوا دفاعا عن أنفسهم ولم يرقموا سلامة أى انسان فى خطر ثم أرسلوا الخطاب الي المسيو دى رنج طالبين توسطه لدي الخديو في عزل عثمان رفقي وتعيين وزير آخر فى محله وقد قبل الخديو ذلك في الحال . ولا شك في أن المسيو دى رنج والخديو اجتهدا كذلك في خلع رياض باعتبار أن رئيس الوزارة هو أول مسئول عما حدث من الاضطراب ولكن رياض كان مؤيداً من جانب المراقبين الماليين

ومن جانب القنصل الالماني بل من جانب ماليت على ما أظن وكان هذا كما أسلفت غير راض عن الضباط فلما رفعت المسألة الي حكومتي باريس ولندن لم تحملا رغبة الخديو ولم يمض وقت قصير حتي استدعي المسيو دي رنج الي فرنسا يتعثر في أذيال الخيبة.

وقد حدث هذا الاضطراب العسكري في قصر النيل يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ وحدث بينما كنت لا أزال في مصر ولكني لم أكن في القاهرة واذكر انني لم اسمع اسم عرابي قبل ذلك . ولكن عمله هذا أكسبه شهرة عامة واسعة وصار اسمه يذكر في الافواه كرجل استطاع أن يتحدي الحكومة بنجاح ويرغمها على تغيير الوزراء. ولم تمض عدة أسابيع حتى صار عرابي قوة يعتد بها في البلاد وهطلت عليه من انحاء البلاد كلها عرائض المظلومين الذين يشكون اليه ما أصابهم ويطلبون معونته فيه والواقع ان ظهوره بمظهر الدفاع عن مصالح الفلاحين ضد طبقة الاتراك الحاكمة أكسبه حب الناس خارج القاهرة فأقبل كثير من الاعيان والمشايخ على الاتصال به . وكان عرابي يحسن الرد عليهم على قدر ماتسمح به قوته المحدودة . ومهما يكن من شأن الناس الذين أقبلوا على الاجتماع به فقد كان يؤثر فيهم ابتسامته الجذابة وبيانه العذب ورقته .

وقد كان منظر عرابي في ذلك الحين حسناً جداً لائقاً بالدور الذي قدر عليه أن يقوم به بالنيابة عن بني جنسه . فهو فلاح أصيل طويل القامة ثقيل الاطراف بطيء الحركة نوعاً كأنما هو يمثل تلك القوة العظيمة التي اشتهر بها الفلاح العامل في الوجه البحري .

ولم يكن في عرابي شيء من شموخ الجندي بل كان في اشاراته ذلك البطء الذي أعطاه مظاهر النبل والذي يشاهده الانسان في مشايخ القرى ولم تكن ملامحه تدل على شيء من اليقظة وقت سكوته كما أن نظراته كانت شاردة ولم يكن الانسان يتفطن الى ذكائه الكبير ولطفه إلا حين يبتسم ويتكلم حينئذ كان وجهه يستضيء كما يستضيء الوادي بأشعة الشمس .

والظاهر ان الباشوات الجراكسة والاتراك ما كانوا يحملون مثل هيئته وهي هيئة الفلاح الذي سادوه قروناً واستعبدوه وارغموه على العمل في حقولهم بغير أجر

ظنوا أنه لا يصلح الا أن يكون آلة في فى أيديهم الماكرة . وقد كان رياض يحتقره من أول الامر الى آخره ولم يعتد به مصلحو الازهر الا قليلا . ولـكن هذه الظواهر كانت أعظم شفعائه لدى الفلاحين فقد أدركوا أنه واحد منهم وقد تركزت فيه خصالهم فصارت باهرة بما تحلى به من قوة وبما تعلمه فى الازهر من العلم . وهنا يجب علينا أن نذكر انه لم يتفق فى خلال الثلاثة قرون الاخيرة أن صعد أى فلاح مصرى الى ذروة الشهرة السياسية أو ظهر فى لباس المصلحين أو وسوس بكلمة واحدة فيها معنى الثورة . على أنى أشك فى أن خصاله وحدها وقد كانت سلبية لا ايجابية أو مواهبه التى لم يكن برهن على شيء منها بعد كانت تضعه فى الطليعة كزعيم وطني لولا الاضطهـاد الطائش الذي انصب عليه من رياض فى الاشهر التى تلت حادثة قصر النيل والذى استطاع دائماً أن يرفضه أو يتخلص منه بواسطة دسائس خصوم الوزير.

وكان أهم أولئك الخصوم وأقدرهم على تحذير عرابى من المخاطر التى تهدده بطبيعة موضعه محمود بك سامي الذي خلف عثمان رفقي في وزارة الحرب بتوصية المسيو دي رنج والذى كان من أعضاء حزب شريف وكان دستورياً متحمساً . ورغم أنه لم يكن قد تعرف الى عرابى الى الآن فقد كان يميل اليه ميلا وديا كما انه كان صديقاً حميا لعلي بك الروبى الذى هو أحد الضباط الفلاحين . فلما تقلد وزارة الحرب أصبح في استطاعته أن يساعدها بالفعل ويطلعها على ما يصل الى علمه من الدسائس التى تدبر لها وقد استطاع أن يفعل ذلك بنجاح لاقلاله من الاجتماع بعرابى ولو أنه كان دائم الاتصال به بواسطة علي الروبى . وقد وعد الضباط وعداً صريحا بأن يطلعهم حالا على الحقيقة اذا انضم الخديوي للذين يعملون ضدهم فاذا لم يستطع التذارم استقال وكان عليهم أن يعدوا استقالته انذاراً لهم .

اما محمود سامي البارودى فقد نال دوره فى ذلك السلام وهو سليل أسرة شركسية عاشت فى مصر أجيالا طويلة فكان على هذا من طبقة الحـكام ولـكنه كان كشريف باشا مصلحا ووطنيا صادقا . أما من حيث مواهبه فقد كان أسمي بكثير من عرابي بل كان من أعظم الناس علماً وتهذيباً في مصر فقد كان

متضلعاً فى آداب اللغتين التركية والعربية كما انه حجة فى تاريخ مصر وهـذا كله فضلا عن مواهبه الشعرية العظيمة الممتازة وقد وصفه الـكتاب البريطانيون الذين اهتدوا أو بعبارة أصح ضلوا عما في الـكتب الرسمية الزرق اذ قالوا انه كان يدس لوزير ينتمى لحزب غير حزبه ولم يتطوع هو لخدمته . وقد كان محمود سامى فى الوزارة حين تقلد رياض الرئاسة فى سنة ١٨٧٩ . وكان هناك تفاهم على أن يحتفظ هو وعلى باشا مبارك باستقلالهما فى كل مايختص بوزارتيهما . ولم يكن ثمة شك فى أنهما كانا يدسان لرياض فى ربيع سنة ١٨٨١ ولـكن غرضهمـا من ذلك لم يكن إلا اعادة رئيس حزبهما شريف الى السلطة . ومن هذه الناحية يجب أن ينظر الانسان لاعمال محمود سامى ولست أشك ان تاريخ الوزارات البريطانية حافل بهذا الضرب من الدسائس

وقد كان الدور الذى قام به فيما عقب ذلك من الحوادث دور اخلاص لمبادئه الدستورية وللحركة الوطنية وقد دفع فى ثباته ثمنـاً عاليا فانه كان رجلا غنيا ومن ثم كان معرضاً أكثر من غيره للخسارة .

أما الدور الذى لعبه الخديوى أثناء الشهور الستة التالية فلم يكن على شىء من مثل هذه الاستقامة والظاهر انه كان فى خلال هذه المدة فريسة للتردد والغيرة والمخاوف والمطامع . وقد كان خصوم رياض يوهمونه أن هـذا الوزير يدس له ويعمل لخلعه والحلول محله . ومع أن هذه فكرة لا يمكن تصورها فقد صدقها الخديوى فى وقت من الاوقات . وفى أوقات أخرى أثارت شهرة عرابى غيرته فكان ينتقل من خوف الى خوف فى الوقت الذى كان فيـه يتوق لاستعادة السلطة التى كان يحكم بها والده وقد كانت المراقبة الانجليزية الفرنسية تثير ثائرته ثم انه كان يعرف ان السواد الأعظم يكرهه ويزدريه . وكانت بطانته الجركسية تضمر أشد العداء للضباط الفلاحين ولا تنقطع عن تحريضه على معاملتهم بأقصى الشدة وهـذا بينما يستخدم شريف باشا واخوانه الدستوريين على أمل أن يعيدوا تمثيل الظاهرة التى كان يريد أن يتخلص بها من رياض ومن المراقبة الثنائية معا . هذه هى الحالة التى كانت عليها البلاد فى شهر اغسطس سنة ١٨٨١ حيث وقعت الازمة وحيث كان للانحلال الذى عرى العالم الاسلامى من جراء اعتداء فرنسا على تونس تأثير كبير .

الفصل السابع

انتصار المصلحين

ليس من السهولة فى شىء أن يحدد الانسان الدور الذى لعبه الخديو توفيق فى آخر فصول رواية الثورة وهو المظاهرة العسكرية التى جرت يوم ٩ سبتمبر فى عابدين وقد ذكر بلنت وغيره من الكتاب انه كان هناك اتفاق تام بين توفيق فى ذلك اليوم وبين الزعماء العسكريين ابتغاء اسقاط رياض والتخلص من الوصاية الفصلية التى ضاق بها الخديو ولكن ليس هذا صحيحاً الا من الوجهة العامة وقد أكد لى عرابى انه لم يكن له فى سنة ١٨٨١ علاقة بالخديو خلاف العلاقة الرسمية التى كانت له بصفته قائد كتائب الحرس ولم يخاطبه عرابى شخصياً الا ثلاث مرات ولكن لم يرد للسياسة ذكر فى واحدة منها ومع ذلك لا شك فى أن توفيق ظل يوحى الى الضباط بواسطة أركان حربه على بك فهمى فكرة المظاهرة العسكرية ذات الاغراض المحدودة وكان هذا الضابط قد عاد الى خدمة الخديو على الرغم من اشتراكه مع عرابى فى حادث قصر النيل واعتقاله معه وكان الخديو يستخدمه جاسوسا على الضباط الفلاحين ووسيطا لديهم فى الوقت نفسه وكان توفيق يظن أن صلة على فهمى بالبلاط بواسطة زوجه ضمان لوفائه ولم يغضب عليه توفيق ذلك الغضب الشديد الا حين انضم نهائياً الى عرابى بالرغم من علاقته بالقصر . وقد كان توفيق كما قلنا متقلباً فبينما كان يعتمد على الجيش فى التخلص من رياض كان ينحرف عنه بدافع الغيرة من شهرة عرابى الآخذة فى الزيادة . وقد برزت شهرة عرابى خلال ذلك الصيف ومكنته من الاتصال بكثير من مشايخ القرى ووجهاء الاقاليم وكان هؤلاء قد فرحوا بفكرة تحرير الفلاح التى كان يلهج بها عرابى . وكانوا يسمونه فى الارياف «الواحد» وعندى أنه كان جديراً بهذا الاسم فقد كان الفلاح الوحيد الذى استطاع أن يقمع بنجاح طبقات الحكم الجركسية

وليس فى الطاقة أن يتجاوز الانسان الحد مهما غالى فى التأكيد بان حركة سنة ١٨٨١ الوطنية كانت حركة فلاحية بحتة غرضها تحرير الفلاحين وأنها كانت موجهة

قبل كل شيء آخر ضد حكومة الجراكسة المعدومة الكفاءة والتي خربت البلاد وأنها لم تتجه ضد المراقبة الثنائية الا حين وقفت هذه فى جانب الطلبة وأيدتهم . على انه قد امتزجت شؤون أخرى بالحركة بطبيعة الحال . وإذ أقبل كثير من وجهاء البلاد وأعيانها على عرابي والتفوا حوله وصاروا قوة لا يستهان بها أخذ كثير من الدستوريين الذين كان أكثرهم من الطبقة الحاكمة يعاملون عرابي كحليف على الرغم من انهم كانوا فى الحقيقة خصوما لحرية الفلاحين كما كان رياض معه . وكانت فكرة الدستور فى عقول هؤلاء الرجال تنحصر فى تخليص السلطة من يد الخديو ووضعها فى يد طبقة الحكام الجراكسة وهى الطبقة التى اعتبروها وحدها صالحة لحكم البلاد . وكان رأس هؤلاء الدستوريين شريف باشا وقد وجد نفسه فى خلال الصيف متصلا بعرابي من طريق المراسلة وباعتباره واسطة الحصول على دستور عهد لشريف باشا سبيل الوصول الى رئاسة الوزارة مرة أخرى .

ولما كان عرابي ميالا لفكرة الدستور قد أخذ فى تأييدها وخصوصاً ان سلطان باشا الذى كان أقوى وجهاء الفلاحين كان كذلك دستوريا كبيراً وكان واسطة الاتصال بين عرابي وشريف وقد اتفقوا فيما بينهم جميعاً على انه متى حانت فرصة ملائمة يلقى عرابي نفوذ الجيش فى كفة أي ضغط يبذل لحمل الخديو على الموافقة على طلب الدستور . على ان الخديو نفسه لم يكن يكره هذا الطلب لاتصاله بطبيعة الحال الى إقالة رياض تلك الاقالة التي كانت غرضاً رئيسياً من أغراض الخديو . ولذلك أوعز الى عرابي بواسطة علي بك فهمي بعبارات التشجيع وأكد له موافقته .

وتدل أول رسالة تلقاها عرابي من توفيق فى هذا الصدد دلالة واضحة على طرق الدس التى كان يسير عليها الخديو . فقد كان يتحدث ذات يوم الى علي فهمي عن الجيش ونماء قوته كعامل سياسي فقال « أنتم الثلاثة عرابي وعبد العال وأنت جنودي وأنتم أربعة بانضمامي اليكم » ثم أمره أن يبلغ هذه الرسالة الى عرابي . ثم تبعت هذه الماعات أكثر وضوحاً حتى اقتنعوا بأن الخديو يؤيد سراً ان لم يكن علناً كل مظاهرة عسكرية يكون الغرض منها اسقاط رياض . وكان يجب لاقناع القناصل أن يظهر بمظهر المضطر للاذعان بحكم القوة حين يقبل الوزارة .

ولكن الشك فى مسلك الخديو لم يلبث أن عاد الى الاذهان حين دقت فعلا ساعة العمل . وقد حدثت الازمة على الوجه الآتى : كان رياض باشا حتى شهر أغسطس قد احتقر حركة الفلاحين الى حد انه لم يحفل البتة بها ولكنه أزعج الآن للمرة الاولى . وكان يعتقد انه يستطيع أن يقمع الحركة العسكرية بوسيلة من تلك الوسائل الشاذة التى تعودت عليها حكومة الجراكسة وكان قد أحاط عرابي وزملاءه بالجواسيس واجتهد أن يورطهم فى مشاجرة شخصية بواسطة رجال البوليس أو فى اضطراب آخر يقع فى الشارع فيقعوا في قبضته ولكن محاولاته ذهبت عبثاً لان صديقهم محمود سامي وزير الحرب ينذرهم بكل مشروع جدي يدبر لهم فى الخفاء فكانوا أبداً على قدم الحذر وكان قد اتفق بين عرابي ومحمود سامي على أن يتوقع الضباط الفلاحون شراً كبيراً اذا اضطر محمود سامي للاستقالة من وزارة الحرب حتى ولو لم يسمع شيء من جانب محمود . فلما فرغ صبر رياض فى أغسطس ووقع الخصام بينه وبين وزير الحرب وأعلن ان محمود سامي قد استقال اعتقد الضباط فيما يختص بهم أن ساعة العمل أوشكت أن تحين . وكان رياض أراد ان يرغم وزير الحرب على ابعاد الضابطين الرئيسيين وفرقتيهما من القاهرة ووافق الخديو على ذلك فى نوبة من نوب غيرته من شهرة عرابي فلما عارض محمود سامي فى ذلك أعلن بالرفت فى الحال . وكان الخديو ورياض لا يزالان يومئذ فى مصيفهما باسكندرية فارسل رياض الى محمود سامي خطاباً يأمره فيه بترك القاهرة والسفر الى عزبته ولذلك لم يسمح وقته بمقابلة أصدقائه الضباط . ولكن هؤلاء عرفوا حالا ان عهد المتاعب قد ابتدأ ولا سيما ان ذلك الذى خلف محمود سامي فى وزارة الحربية لم يكن أقل ولا أكثر من داود باشا يكن زوج أخت الخديو وهو جنرال جركسي من شرار الرجعيين . وقد عاد الخديو الى مصر فى أوائل سبتمبر وكان الضباط قد تشاوروا فى الامر مع سلطان باشا وحلفائهم الملكيين وقرروا أن يأخذوا حالا فى العمل . وقد صمموا على القيام بالمظاهرة العسكرية معها تكن خطة الخديو نحوهم وان يصروا على ضرورة استقالة الوزارة كضمان لازم لسلامتهم الشخصية . وكانوا قد رأوا انهم اذا سمحوا بان يبتعدوا من مصر ويفرقوا سهل حينئذ على رياض ان يضربهم واحداً فواحداً وكان أيسر

ما يتوقعونه على يديه ولكن الغالب ان يعمد الى اعتقالهم ومحاكمتهم بتهمة العصيان على ماحدث منهم فى فبراير . وكان فى برنامجهم المطالبة بزيادة الجيش فضموا هذا الطلب الى الدستور الذى اعتقد الجميع أنه العلاج الوحيد ضد ظلم الحكومة .

وانتهت المسألة سريعاً الى أزمة في ٨ سبتمبر . فإن داود باشا الذى كان كأفراد طبقته يسرف في احتقار الضباط الفلاحين ولا يتوقع مقاومة من جانبهم أصدر أمره بسفر أورطة عرابى الى الاسكندرية وأورطة عبد العال الى دمياط . فلما وصل الامر الى الضابطين قررا أن يعملا فى الحال. ولا شك في أنهما اعتمدا على اعانة الخديو اذا لم يكن على عطفه وكانا على بينة من ضعف الخلق وعرفا انه سينضم الى الجانب الأقوى معما كان القرار الذى اتخذه قبل ذلك بتأثير رياض . وكانا يعتمدان كذلك على صداقة علي فهمي وان كانا فى شك من أمره وكانت أورطة علي فهمي لا تزال معسكرة فى ثكنة عابدين ولم يرد لها ذكر فى أمر النقل الذى أصدره وزير الحربية فاذا كان الخديو خصما لها وكان علي فهمي مطيعاً لها فحينئذ لا بد من وقوع القتال والا فالراجح اذا لم يحدث شيء من هذا أن تبقى مظاهرتهما سلمية وتنتهي بسلام . ولاجل أن يتوقيا سوء الفهم أرسلا مذكرة للخديو أطلعاه فيها على مشروعهما وقالا فيها انهما لن يذهبا بجنودهما الى قصر الاسماعيلية الذي هو قصره الخصوصي بل يذهبان الى عابدين الذى هو القصر الرسمي وانما منه أن يقابلهما ويسمع شكواهما .

أما ماحدث بعد ذلك فاسمعه من فم عرابي نفسه . قال : كتبت فى صباح اليوم التالي خطاباً الى الخديو فى قصر الاسمعيلية يتضمن مطالبنا وقلت اننا سنذهب الى قصر عابدين في وقت العصر لنتلقى الجواب . أما سبب ذهابنا الى عابدين وليس الى الاسماعيلية فهو أن عابدين مقره الرسمي وكنا أردنا أن نتجنب ازعاج سيدات بيته . على اننا كنا قررنا الذهاب الى الاسماعيلية اذا امتنع الخديو من الحضور الى عابدين . فلما وصل الخطاب الى الخديو استدعى رياض باشا وخيري باشا وستون باشا الامريكي ثم ذهبوا أولا الى ثكنات عابدين حيث خاطب الخديو ورياض الجنود وأمرا علي فهمي أن يحتل قصر عابدين بجنوده . فوافق علي فهمي ووضع جنوده فى

الغرف العليا بحيث لا يراهم أحد وبحيث يستطيعون أن يطلقوا علينا النار من النوافذ. ولكني لا أعرف هل زودنا بخرطوش فيه رش أم لا. ثم ذهب الخديو والجنرالات الى القلعة وخاطبوا الجنود بالمعنى نفسه وطلبوا من قوده بك أن يساعد الخديو علينا وقد أنبه الخديو وهدده بان يضعه في السجن ولكن الخديو خاف وترك القلعة ثم جاء الى العباسية بنصيحة رياض ليتكلم معي. ولكني كنت سرت بجنودي بطريق الحسينية الى عابدين فسألوا عن الدفعية فقيل لهم انها ذهبت هي الاخرى الى عابدين.

ولما عاد الخديو الي عابدين وجدنا معسكرين في الميدان وكانت المدفعية والجنود الراكبة واقفة أمام الباب الغربي وكنت واقفاً بجنودي أمام الباب الكبير. وكنت قد أرسلت الى علي فهمي الذي علمت بوجوده وتكلمت معه فسحب جنوده من السراي ووقف بهم معنا. وقد دخل الخديو من الباب الشرقي ثم قدم علينا بقواده وأركان حربه ولكني لم أركلفن معه وان لم يبعد انه كان هناك. ثم أمرني الخديو بالترجل فترجلت. وأمرني أن أرفع سيفي فرفعته ولكن زملائي الضباط تقدموا معي خوف الخيانة وكانوا نحو خمسين ضابطا وقد وقف بعضهم بين الخديو وبين القصر فلما بلغت رسالتي وذكرت الطلبات الثلاث قال «أنا خديو البلد وأعمل زي ما أنا عاوز» فقلت «ونحن لسنا عبيد ولا نورث بعد اليوم» فلم يقل شيئاً بعد ذلك ولكنه أدار ظهره وذهب الى السراي وبعد ذلك أرسلوا لي كوكسن مع مترجم فسألني «لماذا أطلب البرلمان مع أني جندي» فقلت «ليضع حداً لحكم الاستبداد وأشرت الى جماهير الشعب التي احتشدت خلف الجنود لتأييدنا مهددني قائلا «ولكننا سنحضر جيشاً بريطانياً. ثم دارت مناقشة طويلة بيننا. وقد عاد ست أو سبع مرات الى القصر وعاد الي مثلها حتى قال لي أخيراً ان الخديو وافق على كل شيء وانه ذكر حيدر باشا كخلف لرياض فلم أوافق على ذلك ولما سألني ان أذكر خلفه ذكرت شريف باشا الذي كان أعلن عن ميله الى مجلس النواب. وكنت قد تعرفت قليلا بشريف لما كان يخدم في الجيش. وفي المساء نفسه أرسل الخديو يستدعيني الى قصر الاسماعيلية فشكرته على اجابة مطالبنا ولكنه قال «يكفي. اذهب الآن واحتل عابدين ولا تستصحب الجنود موسيقاها في الشوارع.»

الى هنا تنتهي رواية عرابي وهي متفقة فى كل شيء مع المعلومات التى وقفت عليها من أوثق المصادر المصرية فيما يختص بحوادث ذلك اليوم بل هي متفقة على العموم مع الكتب الزرق . ولم يكن الدور الذى قام به الخديو فيها ينطوي على شيء من البطولة ولكنها كانت فى الحقيقة مسألة جبن مادي أكثر مما ترينا الروايات الانجليزية الرسمية . وكان الخديو يعرف أن لا خطر عليه من الجنود وهم لم يطلبوا اليه شيئاً لم يكن موافقاً عليه أو كان يتعذر عليه أن يعد بقضائه . ولكنه كان يتردد بين الطرفين بنية الانضمام الى الفائز وكان مسلكه هذا من الغموض بحيث لم يفهمه كلفن ولا كوكسن .

أما هذان الانجليزيان اللذان ذكرهما عرابي فأولهما السير شارلس كوكسن القنصل البريطاني فى الاسكندرية والقائم بأعمال الوكالة البريطانية أثناء غيبة ماليت باجازة في القاهرة - وثانيهما السير أوكلاند كلفن المراقب المالي البريطاني . وكان تمثيل الهيئات الرسمية الاجنبية فى مصر يكاد يكون محصوراً فيهما لان الوكيل الفرنسي الجديد المسيو دي سنكوكر لم يكن قد وصل الى مصر بعد وكان المسيو دى بلينجير زميل السير كلفن في المراقبة غائباً أيضا - لذلك كان عليهما عبء النصح للخديو وارسال التقارير للحكومة البريطانيـة - وكان كلفن يميل الى أخذ الامور بالشدة والعنف لسببين أحدهما انه كان قبل ذلك موظفاً فى حكومة الهند ولم يكن يعرف من وسائل تدبير الامور الا التقاليد المرعية في تلك الحكومة وهي تقاليد العنف . وثانيهما انه كان يجهل شبه التفاهم الموجود بين الخديو والضباط - لذلك نصح للخديو بأن يلجأ الى وسائل العنف التى كان يمكن أن يلجأ اليها محمد علي الكبير مع أمثال هؤلاء الضباط قبل ذلك بستين عاماً ولكنها لم تكن مما يلائم الظروف الحاضرة وكانت نصيحته تنحصر فى أن يطلق الخديو بيده مسدساً على عرابي بعد محادثة قصيرة - أما كوكسن الذى كان أدرى منه بضعف توفيق فقد نصح مع جهله بسبق الاتفاق القائم بين الخديو والضباط بالاتفاق واقترح الحل الذى كان يريده الخديو منذ زمن بعيد وهو اقالة رياض باشا وتعيين شريف - ولقد يستفيد الانسان من قراءة مارواه عن هذه الاحوال فى الكتب الرسمية الزرق كما يستفيد من قراءة

رواية كلفن للحوادث ذاتها فى جريدة « التيمس » وفى « البال مال غازيت » التي كان هو مراسلا لها فى مصر . وكانت نتيجة اعلان رأيهما أن أثنت عليهما الحكومة البريطانية وأنعمت على كلفن برتبة « سير » ووضعته فى مركز سياسي لم يكن له قبل ذلك فى مصر وعلى ذلك انتهت الحال . فان رياض الذى اتعظ بما جرى لنوبار وعثمان رفقى لم يشترك فى مناقشة الضباط بل بقى فى القصر حتى أقيل فى ذلك المساء من الوزارة وسافر الى الاسكندرية ومنها الى أوربا ليبقى حتى يأتيه العون من الدول الحامية وحل محله فى رئاسة الوزارة شريف باشا بعد أن أظهر شيئاً من المعارضة والنفور . وقد استيقظت مصر فى صباح اليوم التالى لتعرف ان المسألة لم تكن مسألة عصيان فقط بل كانت ثورة أيضا وأنه قد وضع حد للحكم الاستبدادي الذى طال عليه الزمن . وقد وعد الخديو أن يجمع الاعيان ويمنح الدستور وأن تحكم بلاد الفراعنة والمماليك والباشوات الترك من الآن فصاعدا على مقتضى قوانين الحق والعدل لا بواسطة الاجانب ولكن بواسطة نواب الشعب المصرى أنفسهم .

وكانت الاشهر الثلاثة التي عقبت هذه الحادثة الشهيرة من أسعد الاوقات التى مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسرني أن حظيت بمشاهدتها بعيني رأسي . ولو اني كنت سمعت بها سماعا لشككت فيها وعندى انها لم يكن لها شبيه فى الايام التى رأيتها فى مصر وأخشى أن تكون مقطوعة النظير فى الايام التى يمكن أن أراها فيها . فجميع الاحزاب الوطنية وجميع سكان القاهرة اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية وشاركهم الخديو فى ذلك على ماظهر يومئذ للناس . وكان قد سر بعد انقضاء الازمة بنجاح دسيسته ضد رياض والمراقبة الثنائية البغيضة . وقد وثق بان شريفاً لا بد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عرابي . ثم أن شريفاً وزملاءه من وجهاء الاتراك لم يكونوا كذلك أقل سروراً بعودة السيطرة اليهم بل ان الاتراك الرجعيين أنفسهم قد سروا بما سموه انتصارا على أوربا . ونجا العسكريون من كابوس الخطر الذى طالما هددهم وارتاح المصلحون المدنيون للحريات التى اعتقدوا اليوم أنهم لا بد حاصلون عليها . اما الذين شكوا وأساءوا الظن للنهاية . فقد اعترفوا

كذلك بأن النتائج قد بررت الالتجاء للقوة وما كان لهــا من نصر لم تسفك فيه نقطة دم . وتصاعدت من انحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على حوانب النيل منذ مئات السنين . وقد حدث فعلا أن الناس كان يستوقف بعضهم بعضاً في شوارع مصر ويتعانقون على غير تعارف سابق ويتهجون معاً لعصر الحرية المدهش الذى بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل. وكانت الصحف قد أسرعت بنشر الانباء السارة وقد حررتها رقابة الشيخ محمد عبـده المستنيرة من قيودها السابقة واستطاع الناس أن يجتمعوا ويتكلموا بلا خوف أينما شاءوا فى الاقاليم وبلا وجل من تدخل البوليس والجواسيس . وقد سرت عـدوى السرور الى كل الطبقات فالمسلمون والمسيحيون واليهود قد سروا جميعـاً وشاطرهم السرور جماعة الاوربيين الذين كانت لهم صـلات وثيقه بالحياة الوطنية . وقد اعترف القناصـل الاجنبيون أنفسهم بأن العصر الجديد خير من العصر القديم وان رياضاً قد أخطأ وان أعمال عرابى إذا لم تكن كلها سديدة فليسـت كلها خطأ .

وكان المسلك الذي سلكه عرابى نحو الخديو والوزراء الجدد مسلكا صحيحاً نبيلا وقد اجتمع عدة مرات بالخديو فكانت خطته ودية كما أنه أظهر لشريف باشا ومحمود سامي الذى عاد فتقلد وزارة الحربية انه وقد تم عمله يريد أن يتنحى جانباً ويترك أمر ترقيته واعانته لاصدقائه المدنيين وكل الخطب التى القاها في ذلك العهد — وبعضها مدون فى الـكتب الزرق — مشبعة بهذا المعنى الحكيم وتنم علي نشعه هو نفسه بأسمي الآراء الانسانية التى كانت من مقومات عمله السياسى. وليس فى هذه الخطب الا العطف الواسع المدى على جميع المذاهب والطبقات ولا يمكن أن تجد فيها أثراً لسخط على المراقبة المـالية الاوربية التى كان عرابي فى مقدمة المعترفين بعوائدها وكان المعني السائد على خطبه هو أن الحكم التركي المطلق القديم قد انتهي وابتدأ عصر جديد من الحرية الاهلية والسلام وحسن النية المتبادل بين جميع الناس.

ولم يمض أسبوعان اثنان على تقلد وزارة شريف أزمة الحكم حتي سار عرابى — يوم ٢ أكتوبر — في طليعة فرقته الى رأس الوادي بين هتاف سكان العاصمة المعترفين له بالجميل .

وأخيراً تكلمنا فى علاقة مصر بكل من فرنسا وانجلترا فاعترف عرابى لنا بالخير الذى أصابته مصر اذ تحررت من اسماعيل وانتظمت ماليتها ولكنه قال انه لا يجوز لهاتين الدولتين أن تحولا دون تجدد مصر الاهلى بتأييد حكم الخديو المطلق والباشوات الجراكسة ضد المصريين وكان يتوقع عطف انجلترا علي جهاده للحرية أكثر مما يتوقع العطف من جانب فرنسا وا كثر ما كان يتوقعه من العطف كان من ناحية المستر غلادستون الذي أظهر صداقته للحرية فى كل مكان ، قال هذا ردا على الشرح الذى أبديته له على آراء غلادستون ولكنه كان يشاطر كل أهل القاهرة قلة الثقة فى ماليت وقد بذلت كل جهدى لاريح خاطره من هذه الناحية ثم افترقنا . وكان لهذا اللقاء الاول من حسن الاثر على رأيى فى الضابط الفلاح ما حملنى علي الذهاب فى الحال لصديق الشيخ محمد عبده لافضي اليه بحقيقة هذا التأثير ثم اقترحت وضع برنامج بما أخبرني عرابي به وأن أتولى ارساله الى غلادستون اذ لم يخالجني شك فى عطفه علي الاماني الوطنية متى عرضا على حقيقتها من مصدر موثوق به . وقد خاطبت ماليت في هذا الشأن فقال ان مثل هذا العمل قد يعود بشيء من الفائدة ومن ثم وضعت أنا والشيخ محمد عبده وآخرون وصابونجي منشوراً يتضمن آراء الحزب الوطنى بكل دقة . وقد أخذ الشيخ محمد عبده هذا المنشور الى محمود سامى الذى كان وزير الحرب وضمن موافقته عليه وكذلك أطلع عرابى على المنشور ووافق عليه . ولما تم هذا قدمت المنشور بعلم ماليت وموافقته الى غلادستون شارحا له الموقف كله طالبا عطفه على حركة متفقة كل الاتفاق مع مبادئه المعروفة وختمت خطابى قائلا : « لا أستطيع أن أفهم أن حكومة الاحرار البريطانية يمكن أن تأسف علي هذا الشعور أو تقضي على مثل هذه الاعمال . وفي الطاقة أن يحسن توجيهها وأظن أن محبي تقدم العرب لا يسعهم الا أن يهنئوا أنفسهم على شواهد الحياة السياسية الغريبة وغير المتوقعة التي ظهرت فى بلاد اعتبرت أقل مناطق الشرق الراكد تفكيراً وأذكر ياسيدي انك قلت لى مرة أن أمم الشرق لا تستطيع أن تحي حسها الا بتجديد ارادتها الاهلية المفقودة فانظر الى هذه

الارادة الاهليـة الناشئة في مصر والتي تستنل حيدها لتجد أقوالا تقنع أوربا بوجودها .

وبينما أرسلت « برنامج الحزب الوطنى » هذا الي غلادستون أرسلته فى الوقت نفسه الي جريدة التيمس بناء على اشارة السير وليام جريجورى . ولكن ماليت لم يوافق علي هذه الخطة لاعتقاده انها تعقد الامور في الاستانة. وهي فكرة رسخت بقوة فى عقله السياسي الرسمي ولكن جريجورى أصر على وجوب نشره والا وضع على الرف فى « دوننج ستريت » وغض عنه النظر فوافقت على ذلك . وكان جريجورى صديقا شخصياً لشنرى رئيس تحرير التيمس الذى خدم القضية الوطنية المصرية فى وقته أعظم الخدمات . وكان شنرى رجلا واسع العقل اذ يفكر فى الشؤون الشرقية وكان على جانب عظيم من العلم باللغه العربية وقد ترجم ونشر قطعاً شائقة من مقامات الحريرى ومن ثم كان واسع النظر فى المسألة المصرية فلم يرها كغيرها من الصحفيين مسألة لا تعني غير بورصة لندن على الرغم من أنه كان هو نفسه من حملة أسهم الدين المصرى . ومن ثم عني عناية كبيرة بنشر خطابات جريجورى كما أنه نشر لى خطابات كثيرة كتبتها اليه في بضعة الاشهر التالية واستمر ينشر لى كل ما أرسله في تأييد الحركة الوطنية حتى بعد أن وقعت الحرب . وقد تجاوز شنرى كل حد فى الانتصار للحركة المصرية حيث كتب أن عرابي نفسه هو الذى أرسل اليه البرنامج ولكن هذا التجاوز مكن ماليت الذى كان واقفا على الحقيقة من أن يعلن بواسطة شركة روتر أن الوثيقة التي نشرتها التيمس ليست حقيقية .

ويحسن بى هنا أن أشرح الطريقة التى احتكرت بها الصحف البريطانيـة ولا سيما شركة روتر بصفة رسمية فى القاهرة وجعلت خادمة لدسائس السياسة . لم يكن للصحف البريطانية مراسلون معينون في القاهرة الا التيمس والبال مال غازيت . وكانت هاتان الجريدتان فيما يختص بالسياسة فى يد السر أوكلند كلفن المراقب البريطانى المالى . وهو موظف هندي داهية مشبع العقل باساليب السياسة الهندية. وله تجاريب صحفية مذ كان متصلا بجريدة « بونير » وهي جريدة انكليزية هندية

شديدة فى استعاريتها ، وكان السير كلفن مراسلها في مصر . وكان ايضاً مراسل مورلى رئيس تحرير البال مال غازيت وكان واثقاً من اصفياء الحكومة اليه من هذه الناحية . وستظهر قيمة هذه العلاقة غير العلنية فيا بعد حين يأتي الكلام على المجهود الذى بذله لتحقيق التدخل الانجليزى . وكان كذلك أخيراً يوحي الى التيمس بآرائه بواسطة مراسلها سكوت الذي كان يعتمد عليه فى استقاء المعلومات أما وكالتا روتر وهاماس فكانتا واقعتين تماماً تحت نفوذ المراقبة الثنائية التى كانت تعطي كلا منهما الف جنيه فى العام من الميزانية المصرية الفقيرة . وكانت وكالة روتر بصفة خاصة لسان الوكالة الانجليزية وخادمتها وكانت التلغرافات التى ترسلها الى لندن لاترسل الا بعد مراقبة ماليت .

ويجب أن أشير الى أن احتكار مصادرة الانباء العامة لمصلحة السياسة البريطانية لم يكن مقصوراً على القاهرة ولكنه كان موجوداً في جميع العواصم التي لنا فيها وكلاء سياسيون وأن هذا أسلوب قوي من أساليب تضليل الرأى البريطانى العام . ولا تقوم السيطرة على تلك المصادرة عادة بدفع مبالغ معينة ولكن باعطاء المعلومات السرية الثمينة والامتيازات الاجتماعية الواسعة وكانت السيطرة على الصحف البريطانية تامة فى السر الا فى الاوقات التى كانت تحول فيها كثرة المراسلين وامكان السيطرة عليهم جميعاً ولكن هذا لم يحدث الا فى الاوقات الخطيرة . أما فى الاحوال العادية فقد كانت لموظفيها السيطرة العامة على الاخبار التي يجوز أو لايجوز ارسالها الى لندن والاخبار التي تنشر أو لاتنشر فى مصر من أخبار لندن . ويجب على المؤرخين أن يذكروا دائماً هذه الحقيقة حين يرجعون الى أنهر الصحف ليستقوا منها معلومات عن حوادث تلك السنين .

واذا استثنينا هذا الخلاف البسيط مع ماليت أمكن القول بأن علاقتي به بقيت الى آخر سنة ١٨٨١ . ودية وقد أسر الى شكوكه ومتاعبه وقلقه فيا يختص بالسير على مانصره وزارة الخارجية من الخطط وخوفه من أن يأتى فى أبان أزمة بعمل لايجوز المواضعة الرسمية . وقد قرر لى أنه يعطف كل العطف على الامانى الاهلية وأظنه كان فى الحقيقة كذلك واعتمد علي كرجل قادر فى كل حال على وقايته من كل صعوبة

عنيفة حتى يأتيه قرار دوسيج صريت بالسياسة التى ينتهجها . وقد دونت فى مذكراتى انه هو والسير اوكلند كلفن الذى كنت قد صادقته والذى لم يكن أقل عطفاً على الوطنيين من ماليت طلبا منى يوم ١٩ ديسمبر أن أساعدهما فى حل صعوبة ربط ميزانية الجيش .

كان الوقت وقت ربط الميزانية وقد طلب محمود سامي وزير الحرب لوزارته مبلغ ٠٠٠ر٦٠٠ جنيه . ولست أذكر الآن مقدار الزيادة فى هذا المبلغ عن المبلغ الذى ربط لوزارة الحربية سنة ١٨٨١ .

ولم يكن على أفق السياسة المصرية فى ذلك الحين الا غيمة واحدة هى ما يحتمل من عداء سلطان تركيا لفكرة الدستور وكان عبد الحميد بعد أن داعب هذه الفكرة وقتاً فى الاستانة قد برهن على انه ألد عدو للدستور ، اذ كان فى ذلك الصيف بالذات قد أمر بتمثيل مهزلة محاكمة مدحت والحكم عليه وقد كان مدحت أعظم أنصار الدستور فى تلك البلاد . ومن ثم قلق الناس حين حضرت فى أوائل اكتوبر الى القاهرة بعثة خاصة من قبل السلطان لتحقيق ما حدث فى مصر ولا سيما مع مبادرة عرابى بالذهاب الى رأس الوادى وتعجيل عبد العال بالذهاب الى دمياط . على أن زيارة اللجنة انتهت بسلام واستطاع الوزراء أن يقنعوها بأن الحركة الاهلية التى لم يبق شك فى أنها حركة وطنية لا تنطوى على شيء من قلة الولاء للسلطان .

وكان مصير تونس قد ألقى فى روع المصريين أن توثق الرابطة بينهم وبين الامبراطورية العثمانية هو عصمتهم الوحيدة من عدوان أوربا وقد اعتقدوا ان الغرض من الثورة لم يكن الا منع المراقبة الثنائية من الاعتداء على استقلالهم . ومن ثم حسنت نية الجميع وساد الرضاء والقنوع . واستطاع على نظامى باشا رئيس اللجنة أن يحمل معه تقريراً طيباً عن الحالة وقد أيده فى ذلك العضو الذي يليه فى اللجنة — احمد باشا راتب . وكان هذا قد تحادث مع عرابى شخصياً فى رأس الوادي وهو ذاهب الى السويس فى طريقه الى مكة .

وقد حدث هذا اللقاء الذى كان له فيما بعد أهمية بالنسبة للحالة السياسية فى القطار بين الزقازيق والتل الكبير وقد أكد لى عرابى أنه حدث اتفاقا حين كان

عائداً الي رأس الوادى بعد زيارة صديقه احمد افندى الشمسي وسليمان باشا أباظه في الزقازيق . قال:« كنت عائداً بقطار رأس الوادي فاتفق ان احمد راتب باشا كان فى هذا القطار ذاهباً الى السويس حيث كان قاصداً الي مكة لاداء فريضة الحج . وقد وجدت نفسي فى المركبة التى كان فيها وتبادلنا التحيـة كغريبين وذكرت له اسمي وذكر لى اسمه وانتواءه الحج ومسائل أخري . ولكنه لم يخبرني عن اللجنـة ولا سألته عنها . علي أنى أخبرته بأنى موال للسلطان باعتباره رئيسا الديني ثم ذكرت له كل ما حدث فقال لى « لقـد أحسنت صنعاً » ثم تركته في رأس الوادى . وقد أرسل لى مصحفاً شريفاً من جدة ولما عاد الى الاستانة كتب الى بانه أحسن الشهادة في حق السلطان ثم تناولت بعـد ذلك الخطاب الذى أملاه السلطان على الشيخ محمد ظافر والذى يحتوى على الامور التي ذكرتها » وعلي هـذا انقضت مهمة اللجنة العثمانية بغير أن تحدث اضطراما أو متاعب . وقد اتفق أن وصل معهـا الى مياه الاسكندرية مدفعيتان بحريتان احـداهما فرنسية والثانية بريطانيـة وكانت حكومتا انجلترا وفرنسا أرسلتهما حين اتصل بهما نبأ المظاهرة العسكرية فى عابدين. ثم أبحرت المدفعيتان في نفس اليوم الذي سافرت فيه اللجنة من شهر اكتوبر. وكان ماليت قد عاد في هذه الاثناء الى مقر وظيفته وكذلك كان سنكوكر المعتمد الفرنسي قد حضر واتفق الاثنان على أن الحالة ليست فى حاجة الى تدخل من قبلهما . وقد أحسن ماليت الشهادة أمام حكومته يومئذ فى حق الوزراء الجدد وعرابى الذي بدأ ماليت يعتقد الآن أمانته وصدق وطنيته .

وقد عدت الى القاهرة فى أوائل نوفمبر حين كانت الحال كما وصفت ولم تكن قد وصلت الي أنباء جديدة من أصحابي الازهريين ولم أعرف مما حدث فى أثناء ذلك الصيف غير ما كان يعرفه الناس جميعاً ولا كنت أقصد الى اكثر من عبور قناة السويس فى طريقى الى بلاد العرب حيث كنت قررت الذهاب اليها في الشتاء. وكان اهتمامي قد اشتد بالازمة التى أخذ العالم الاسلامي يقطعهـا كما كنت على أمل من أن أقوم أنا بنفسي بدور فى الحوادث المهمة — التى كنت أتوقعها وان لم أكن أعرف ماهيتها فيما عدا أنها سوف تساعد على تحرير العرب والاسلام . وكنت لمـا

ثارت الجزائر بسبب عنده، ومرسا على تونس كتبت الى صاحبي السيد محمد عبد قادر فى دمشق أطلب منه خطابا يقدمني فيه لزعيم الثورة « أبى عمامة » ولكنه لم يستطع ذلك . ثم ذهبت عبثاً كل المجهود التي بذلتهـا لمعرفة مقر السيد جمال الدين الافغانى فى أمريكا حيث قيل لى انه ذهب اليها بعد أن قضى عامين متجولا فى الهند واتجهت أفكارى الآن الى جزيرة العرب التى بدأت أنظر اليها كأرض مقدسة واعتبرها مهد الحرية الشرقية ومهبط الدين الصحيح . ومن الغريب انى لم انتبه الى ان هدف اهتمامي بالاسلام ماثل بجانبي فى الثورة المصرية . وأنى لم أعتقد النية على القيام بأى دور فيها — ولو كان دور المشاهدة — إلا بتأثير حادث عرضي.

ولعل السبب فى عدم اهتمامي يرجع الى أن الصحف البريطانية صبغت ما وقع في مصر من الحوادث اثناء الصيف بصبغة عسكرية فلم يدرك أحد مغزى تلك الحوادث حتى ولا وزارة الخارجية وقد كنت اشاطر أنصار الحرية ومحبيها قلة الثقة برجال العسكرية واعتقد انهم لا يتصورون الا الظلم فلم استطع أن أصدق حتى ولا كما صدق ماليت أن عرابي أمين القصد فيما فعل . ثم أني كنت أعلم أن الشيخ محمد عبده وغيره من اصدقائي الازهريين الذين لا يميلون الي استخدام القوة وأن تنفيذ الاصلاحات يستغرق فيما يعتقدون وقتاً طويلا وقد ظننت أنه من المستحيل أن تنجح حوادث ذلك الصيف وحدها فى تحقيق تلك الاصلاحات أما عن الدستور الموعود فقد ذكرت الصحف البريطانية انه كلام فى كلام لايعدو أن يكون دعوى كتلك التى استخدمها اسمعيل ضد رفرز ولسن . وقلن أن ماليت اعلن بان هذا الدستور سيبقى مجرد وعد لان السلطان الذى اجتمع به فى الاستانة اثناء عودته الى مصر لا يمكن أن يسمح بتحقيقه .

ومما زاد فى ارتيابي وجود لجنة التحقيق العثمانية لذلك ومطالبة عرابي بزيادة قوة الجيش ليكون ١٨٫٠٠٠ وهذه هي الاراء التي كانت شائعة يومئذ فى لندن ولم تكن لدى أنباء خاصة تصحيحها . واذكر أني حين مررت قبل مبارحة لندن بوقت قصير بابن عمي فيليب كرى فى وزارة الخارجية دهشت حين قال ربما كان فى الحركة الوطنية المصرية أكثر مما تدل عليه الظواهر وقد قال لى حينئذ أن ماليت

أصبح ميالا الى اعتقاد ذلك . ثم أظهر تعجبه من عدم ذهابي الى مصر وقال لي أني وجدت في بلاد العرب الآن الرجل الذي ابحث عنه . وكان فيلبس يعرف بطبيعة الحال آرائي التي لم يأخذها قط بصفة جدية ولم يعتقد انها أكثر من خيالات روائية. وقد قال لي ما قال بلهجة مراح فضحكنا ولم نتناقش في المسألة . ولكني ذكرت بعد ذلك أقواله ودهشت من قلة تأثري بها ولكن الحقيقة هي أن أفكاري كانت موجهة الى ناحية أخرى .

ومما يستحق الذكر أني دعوت في عشية يوم سفري الى عداء في نادي السياح ثلاثة من أصدقائي الحميمين هم جون مورلي الذي كان قد عين حديثاً رئيساً لتحرير « البال مال جازيت » فضلا عن قيامه برئاسة تحرير « الفورتنيتلي ريفيو » والسير الفرد لايال قنصلنا في جدة . وزهراب .

وقد تكلمت مع هؤلاء طويلا في الشئون الشرقية واتفقت مع مورلي على أن أخبره اذا عثرت على بطل الاصلاح الشرقي الذي أبحث عنه وأن يتولى هو عرض قضيته باحسن ما يستطيع على الرأي العام البريطاني . ولم يكن مورلي قد دخل بعد في البرلمان ولكنه كان ذا نفوذ كبير في الحكومة لعلاقته بشمبرلن وكانت جريدة « البال مال جازيت » من الصحف القليلة التي يقرأها جلادستون بل الصحيفة الوحيدة التي يعتقد أن في آرائها شيئاً من السداد ويوليها شيئاً من ثقته .

وقد كان عشاء ساراً وكنا متحمسين في عطفنا على الفرص التي يمكن أن تعرض للاسلام أما فيما يختص بمصر فمن سوء الحظ أن مورلي كان واقعاً تحت تأثير نفوذ غير نفوذي وقد كان مراسله « للبال مال جازيت » السير أوكلند كلفن عضو المراقبة الثنائية عن بريطانيا فلما وقعت الأزمة في الربيع ظهر مورلي على غير ما كان ينتظر منه لو أن كلفن لم يكن مراسلا له . أما والحال كما كانت فقد كان في جانب الرأي البريطاني الرسمي ومن أقوى القائلين بوجوب استخدام أشد وسائل العنف لقمع الحرية .

وقد اتفقت لي أثناء عودتي الى مصر حادثة سأعود الى ذكرها حين يأتي السياق الذي تظهر فيه أهميتها . فقد وجدت في محطة « شارنج كروس » بلندن

م — ١٦

المستر ديلك وسكرتيره أوصلني الى مسافرين مثلي الى تونس فقضيت السياحة كلها معهما . وكان ديلك مشرح الصدر طروبا فان صديقه الحبير « غمبتا » كان قد خلف في ١٥ نوفمبر المسيو سانت هيلير في رئاسة الوزارة الفرنسية وكان ديلك عائداً الى باريس ليستأنف مفاوضة الحكومة الفرنسية في تجديد المعاهدة التجارية المعقودة بينها وبين حكومة بريطانيا بعد أن تعذر عليه النجاح في السنة الاشهر السابقة أما وقد تقلد غمبتا رئاسة الوزارة فقد كان ديلك واثقاً من النجاح وكان لغمبتا مشروع خاص يستطيع أن يستفيد فيه بديلك الذي كان وكيلا لوزارة الخارجية البريطانية . وكان سانت هيلير قد أحدث ارتباكا كبيراً في غزوة تونس وترك خلفه شمالي أفريقيا يضطرم ناراً . وكان غمبتا قد تقلد رئاسة الوزارة مصمما على استخدام الشدة والقبض على ناصية الحال وكان مملوءاً بالخاوف من ثورة اسلامية ثم انه لم ير في الحركة الوطنية المصرية الا مظهراً من مظاهر التعصب الاسلامي وكان أصله الاسرائيلي قد جعله مرتبطاً بالمصالح المالية في مصر . وقد عقد النية على أن يضيف الى اعتداء سانت هيلير على تونس التدخل بالقوة في مصر .

وقد أراد أن تنضم له الحكومة البريطانية في ذلك وتقوم الحكومتان بحرب صليبية باسم التمدن وان يبدأ في ذلك بتقوية المراقبة الاوربية في مصر. وقد حدثني ديلك طويلا عن مسألتي المعاهدة التجارية ومصر باعتبار الأولى مصلحة انجليزية والثانية مصلحة فرنسية . وكانت المسألة الأولى تتعلق بشرف حكومة الأحرار الحزبي فقد أرادت أن تقيم الحجة على انها إذا كانت تتمسك بحرية التجارة فلها ان تحمل الحكومات الاجنبية على معاملتها بالمثل .

وقد عرف ديلك أن نجاحه في هذه المهمة وحمله الحكومة الفرنسية على تجديد الامتيازات التجارية يعد فخراً عظيما له . وكان ديلك متحمساً الى حد انى لم يسعني عند الفراق إلا أن أخاطب نفسي بصوت مسموع قائلا . « ان هذا الرجل يريد أن يبيع مصر لفرنسا بالمعاهدة التجارية » وقد أثبتت الحوادث أن الحقيقة لم تكن الا كذلك . وسيظهر فيما بعد كيف ان حرية مصر كلها كانت مرهونة بتخفيض لميل في الضرائب التي تجبيها فرنسا على الصادرات الانجليزية . ثم بيعت حرية

مصر وفكرة الاصلاح في العالم الاسلامي كله وصحتها حكومة الاحرار الانجليزية بهذا الثمن الزهيد . ولكن الكلام على هذا لم يحن بعد

وقد أسلفت ان ذهابي الى القاهرة في ذلك الشتاء كان اتفاقا وأحرى بي أن أقول بانه كان بتدبير العناية الالهية لولا اني أخشى أن أعبر ما فعلته في مصر معنى عظيم السمو وأهميته كبيرة . وقد شحطت الباخرة التي حضر عليها خدمي وادوات معسكري في قناة السويس بعد أن كادت تغرق في خليج سكاى فاضطررت الى الذهاب الى السويس ثم برحت هذه الى القاهرة حيث اعتزمت قضاء بضعة ايام . وكان قد شاع في انجلترا أن مصلحي الازهر نبذوا فكرة الاصلاح وانضموا الى السلطان في آرائه الرجعية . واذ خالجني هذا الشك أرسلت أولى رسائلي الى أول أصدقائي من رجال تلك الجامعة وهو الشيخ محمد خليل وهنا حدث حادث غريب فبدلا من أن يأتي الى الشيخ محمد خليل في فندق النيل الذى نزلت فيه ورجوت منه أن يحضر لزيارتي جاءني شيخ آخر بالاسم نفسه . جاءني الشيخ محمد خليل الهجرسي وحياني تحية القريب للغريب اذا كان احد منهما لم يرى الآخر من قبل . وكان هذا القادم الجديد قد استلم رسالتي فظن انها من تاجر اوربي بينه وبينه معاملة ترجع الى قريبه في الشرقية وجاء معه الخادم الذى حمل الرساله . ومع أن هذا الشيخ كان أقل قيمة ذاتية من صاحبي الا انه كان ذا مركز هام في الازهر .

ثم ظهر لى انه قد يكون أحرى باهتمامي من صاحبي في ذلك الحين لتوثيق الصلة بينه وبين الحزب العسكرى في القاهرة ولعلاقته الشخصية بعرابي ولو لم يكن للشيخ محمد خليل صاحبي ولا رئيسه الشيخ محمد عبده صلة من هذا القبيل ولا كانا يستطيعان أن يفيداني أقل فائدة من هذه الناحية بعد ان لم يوافقا على تداخل جماعة العسكريين في الشؤون السياسية في سبتمبر وكانا لايزالان هما وسائر مصلحي الازهر مبتعدين عن العسكريين على الرغم من فرحهم بنتيجة عملهم فلما أفاق الهجرسي من الذهول الذى استولى عليه حين وجدني انجليزيا وعرف أني لست بصاحبه التاجر لم يأنف مع ذلك ان يتحدث معي عن عرابي واعماله ولما افضيت اليه بارآئي الخاصة بالاصلاح الاسلامي على قاعدة عربية أسر الى آرائه التى لم تكن تختلف كثيراً عن

آرائي . وقد أخبرني انه أحد شيوخ السادة الشافعية وان له علاقة متينة بجماعة الاصلاح الاحرار بمكة وكل هؤلاء يجهرون بمعارضتهم للسلطان عبد الحميد ويتطلعون الى خلافة عربية . وكانت هذه نقطة اتفاق بيننا فلم يمض وقت قصير حتى تبادلنا كل ما لدينا من الآراء . وعندى انه ليس أدل على حرية الرأى والقول التى سادت يومئذ فى مصر من ان الشيخ الذى لاشك فى انه كان يكتم هذه الاراء في صدره حتى عن أصدقائه قبل عام واحد قد اجابني بكل صدق وصراحة على أسئلتي وأفضى الي باشد اماينه خطراً على حين انى أوربي وغريب عنه . ولا شك ان بعض هذه الصراحة راجع الى أن أستاذى العلامه صابونجى الذى كان معي وكنت قد احضرته معي من لندن ليساعد ضعفي فى اللغة العربية .

من المحروسي علمت أول مرة ما حصل فى مصر اثناء الصيف ومنه عرفت موقف العسكريين الحقيقى تجاه الحزب الوطني وهي حقائق ايدت صحتها عدة مصادر كما ايدها صاحبي الشيخ محمد خليل .

أما صابونجي الذى كانت له براعه خاصة في هذا الضرب من الاعمال فقد أخذ يطوف فى القاهرة من أدناها الي أقصاها ليجمع لي الاخبار حتى انه لم تمض بضعة أيام الا كنا قد عرفنا كل شيء تقريباً من مجريات الحال . كذلك لم يمض وقت قصير حتى تعرفنا الى بعض الضباط الفلاحين الذين اشتركوا مع عرابي فى المظاهرة وخصوصاً عبد ديلب وعلى فهمي اللذين كان لمعرفتي بهما وقع حسن فى نفسي وكانت الامور التى يدور عليها البحث فى ذلك الحين خلق الخديو وهل يفي أو لايفي بوعده . لقد وعد بالدستور ولكن هل يكون هذا نزولا حقيقاً عن السلطة لوزراء مسئولين أمام مجلس الممثلين أو المسألة لن تخرج عن دعوة جماعة من الاعيان يكون لهم رأي استشارى ؟ ولم يكن الناس يثقون بتوفيق فى هذه النقطة بل كانوا يعتقدون أن ما ليث يغريه بأن يحنث بالوعد وكان هذا قد عاد حديثاً من الاستانة وأعلن أن السلطان لايوافق على دستور حقيق .

هذا ولو كانت الطبقات المستنيرة قد غضبت من الاسرة العلوية ولا سيما فرعها الذى ينتمي إليه توفيق وكانوا يذكرون ما أصابهم فى عهد اسماعيل وجده ابراهيم من

المظالم التي قضت عليهم أدبياً وخربتهم مالياً وجلبت عليهم نكبة التدخل الأجنبي. وقد بدأت الصحافة بعد أن تحررت من قيودها توجه المطاعن تلو المطاعن على الصحاف نظام الضرائب الذي وضعته المراقبة الأوروبية فاعفت الأوربيين وألقت العبء كله على كاهل الوطنيين كما انها ألحت بأشد اللائمة على كثرة تعيين الفرنسيين والانجليز في الوظائف التي لا لزوم لها والتي تدفع فيها مرتبات باهظة كما ألحت على سيطرة هؤلاء الأجانب على مصلحة السكك الحديدية والأراضي التي يقوم على ادارتها مندوبو بنك روتشلد وعلى فضيحة التسعه آلاف جنيه التي كانت تدفع لجوقة الأوبرا الأجنبية على الرغم من فقر البلاد .

وكانت جريدة «الطيف» التي كان يحررها رجل حاد نابغ هو «عبدالله النديم» تحمل حملة شديدة على الترخيص بادارة المواخير والحانات والمراقص والمغاني التي عمت على القاهرة تحت حماية الامتيازات الأجنبية فاستاء منها كل مسلم تقي وكان في مصر صدى لاعتداء فرنسا على تونس واشتد النفور مما اتصل بالمصريين من استباحة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء ومع ذلك كانت العلاقة بين مسلمي مصر وقبطيها ودية للغاية . وكان الاقباط على العموم في جانب الوزارة وكانت العلاقات بين البطريرك والوزارة التي كان بطرس غالي أحد كبار أعضائها ودية جداً وكذلك كان اليهود والوطنيون بزعامة الرياعي يطلبون الحكم الدستوري. وكان أهم ما يعنى به الضباط يومئذ مسألة زيادة الجيش التي قالوا بأنها واجبة الآن بعد اعتداء فرنسا على تونس حيث لم يكن الباي على استعداد عسكري كاف للدفاع عن بلاده وكانت الفرمانات تخول مصر أن تؤلف جيشاً من ١٨،٠٠٠ جندي وقد طلب الضباط أن تكون القوة كاملة .

وقد حدث أول تدخل فعلي من جانبي مع الوطنيين على الوجه الآتي: أخبرني الشيخ محمد المجرمي ان بين طلبة مذهبي الشافعي والمالكي هياجاً يراد به التخلص من شيخ الاسلام أو بعبارة أخرى شيخ الجامع الشيخ محمد العباسي الذي كان حنفياً . وقيل لي أن السبب في ذلك عائد الى قلة الثقة في ان يفتي هذا الشيخ فتوى في مصلحة النظام الدستوري . فهذا لم يفت وجرى في ذلك على رغبة الخديوي الذي

عينه استطاع الخديوى ان يجد عذراً للحنث بوعده . وقد كان المذهب الحنفى المذهب الرسمي في مصر وكذلك كان مذهب الولاة الترك من عهد السلطان سليم وكانت الحكومة تختار شيخاً حنفياً لرئاسة الجامع الازهر ولكن الغالبية العظمى من الطلبة الذى كان يبلغ عددهم ١٥٫٠٠٠ كانت دائماً من اتباع المذهبين الآخرين وقد أراد الطلبة الآن اتباعاً لتقاليد ثورة اليوم أن يعودوا الى طريق تعيين الرئيس الديني الاعلى القديمة وهي طريقة الانتخاب . وقال لى المجرسى انه جاء ليستشيرنى فى الموضوع لانهم يعتقدون ان ماليت يؤيد الخديوى فى تأييده الشيخ محمد العباسى وفي سعى الخديوى للتخلص من وعده بالدستور وقد ظن ان فى استطاعتى أن أزيل الصعوبات اذا استخدمت نفوذى عند ماليت . وقد وافقت على ذلك فى الحال فاتضح لى ان ماليت يجهل كل الجهل المسألة كلها وانه لا يريد تدخلا فى مصلحة أى طرف من طرفى هذا النزاع الدينى . وفى ٥ ديسمبر خلع العباسى من وظيفته بقرار أغلبية الطلبة وعين الشيخ الامبابي خلفاً له . ولم يكن الشيخ الامبابى أشهر المشايخ وأحبهم لدى الطلبة الذين كانوا يميلون فى الحقيقة الى الشيخ عليش المالكي وهو رجل ذو شجاعة كبيرة ونفوذ دينى عظيم وقد لعب دوراً هاما فى الحرب التى وقعت بعد ذلك ومات في السجن خلال أشهر الاحتلال الاوربي . والمفهوم انه مات مسموما كما اتضح من الشهادات الصريحة التى ألقيت فى محاكمة عرابي . وكان اختيار الامبابي نتيجة رفض الخديوي تعيين الشيخ عليش . وقد صوت أربعة آلاف من طلبة الازهر فى هذه الفرصة فكانت عدة الذين لم ينتخبوا الشيخ عليش منهم خمسة وعشرين . وكان من شأن الخدمة الصغيرة التى أديتها لهم أن وثق الشيوخ الوطنيون بحسن نيتي نحوهم وقدرتى على مساعدتهم ومن ثم طلبوا الى أن أؤجل سفرى أو أنتظر ريثما أراهم يخلصون من مصاعبهم فأجبت طلبهم فى الحال وقد رأيت أن العمل الذى يطلبونه منى هو نفس العمل الذى أسعى اليه وأرغب فيه فضلا عن استطاعتى أن أؤدى خدمة حقيقية فيه بالاعراب عن مطالبهم الحقة المشروعة الى ماليت هنا وغلادستون فى انجلترا .

وكنت أجتمع بماليت يومياً تقريباً خلال بضعة الاسابيع التالية وصار لى نفوذ

كبير لديه . وقد وجدته قليل العلم بحقيقة أغراضهم على الرغم من أنه لم يكن مجرداً من العطف عليهم . ولم يكن يعرف شخصيا من زعماء المصلحين غير شريف باشا فكان يعتمد في توجيه الحالة الى مايستصوب كل من شريف والخديوى أن يخبراه به . أما من حيث الحوادث اليومية فلم يكن يعتمد فى العلم بها الا على مترجمه اليوناني قرانجي الذى كان يلتقط الانباء من قهوات الاحياء الاوربيه . ومن ثم لم يكن لديه الا قليل من الوسائل التى يستطيع أن يعرف بها حقيقة الموقف ، ولم يكن زميله القنصل الفرنسى الجديد « سنكوكز » أفضل منه من حيث وسائل الاستخبار .

وكان ماليت كذلك فى حيرة من أمر مقاصد الحكومة البريطانية الحقيقية . وكان لورد غرانفيل قد أرسل اليه حديثا تلغرافه المشهور في ٤ نوفبر وهو التلغراف الذى ذكر فيه بابهام وغموض عطف حكومة جلالة الملكة على الاصلاحات فى مصر .

ولكن هذا التلغراف كان واسع مدى التأويل ولم يكن فيه شيء خاص يرشد ماليت الى الوجهة التى يتجه اليها اذا قام شجار جديد بين الخديوى والمصلحين أو بينهم جميعا وبين المراقبين الماليين . وكان كذلك فى شك من رأى المستر غلادستون فى مسألة الدستور . لذلك كان من دواعى ارتياحه أن يجد رجلا مثلى ذا سياسة معينة وقد كانت سياستى واضحة فى وجوب مساعدة الوطنيين .

وقد استطعت أن أؤكد له بأن غلادستون نفسه سيكون فى جانب الدستور متى وقف على الحقيقة . وقد أيدنى فى ذلك عند ماليت أصدقاء بريطانيون كانوا يسيحون حينئذ فى مصر واستطعت أن أقنعهم بآرائي .

كان أشهر هؤلاء الاصدقاء عضوا برلمان سابقان أحدهما لورد هاوتون الذي كان فى أوائل أيامه مدافعا متحمسا عن حرية الشرق والسير وليام جريجورى أحد أتباع غلادستون القدماء وعضو من الاحرار المعروفين ولم ينتصف شهر ديسمبر حتى كنت قد استطعت أن أضم الى رأيي أكثر البريطانيين الموجودين فى مصر حتى إن السير أوكلاند كلفن المراقب البريطاني الذي كان قد نصح الخديو قبل ذلك ثلاثة أشهر بأن يطلق النار بيده على عرابى اعترف بأنه تحول عن رأيه إلى رأيى وأصبح ميالا لعقد الصلح مع الثورة .

الفصل الثامن

(سياسة غبتا — المذكرة المشتركة)

كان عرابي قد احتفظ بمنزلته فى رأس الوادى وهي نقطة عسكرية قريبة من التل الكبير الى ذلك الحين ولكنه حضر الي القاهرة فى ٦ ديسمبر ورأيته شخصياً أول مرة فى ١٢ منه . وقد استأجر منزلا بجانب منزل صديقه علي فهمي الذى كان معه الآن قلباً وقالباً . وكان هذا المنزل قريباً من ثكنات عابدين . وقد ذهبت اليه مع عبد دياب وصابونجي بعد أن اتفقت معه علي المقابلة بواسطة أصدقائنا المشتركين . وكان عرابى يومئذ في قمة شهرته إذ كانوا يطلقون عليه فى طول مصر وعرضها لقب « الواحد » وكان الناس يتسابقون من جميع أنحاء القاهرة ليبثوه شكاويهم . وكانت غرفته الخارجية بل كان الشارع الموصل الى المنزل يمتلىء كل يوم بجماعة الشاكين . وكان قد اتصل به نبأ عطفى على الحركة ورغبتى فى مساعدة الفلاح فاستقبلنى بأسمى مظاهر المودة لهذا السبب وللصلة التي تربط أسرتى باللورد بيرون الذي قد كان عرابى وإن لم يعرف شيئاً من شعره يمجده لدفاعه عن حرية اليونانيين . وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدلالتها علي عطف عرابى على الانسانية كلها وعدم تفريقه في ذلك بين الاجناس والأديان وقد كان عرابي مجرداً من التعصب اذا كان معني التعصب الكراهية الدينية وكان أبداً مستعداً لعقد الخناصر مع المسيحيين واليهود وحتى مع المشركين والكفرة للدفاع عن الحرية وان لم يؤثر استعداده هذا مثقال ذرة فى تقواه .

وقد تحدثت معه بصراحة تامة وبغير تحفظ في كل مسائل اليوم فوجدته صريحاً الى أبعد حدود الصراحة . وقد أعرب عن الولاء للخديو « فبقى محافظاً علي وعوده ولم يحاول أن يحول بين المصريين وبين حريتهم الموعودة » على انه كان ظاهراً أنه لم يكن يثق بالخديو وأنه كان يعتقد أن واجبه يقضى عليه بمراقبته مراقبة دقيقة لئلا ينحرف عن الجادة . وقد قلت فى خطاب كتبته للمستر غلادستون فى ٢٠ ديسمبر

بعد أن كان قد كثر اجتماعي بعرابي ومباحثتي معه « إن الآراء التي يعرب عنها عرابي ليست مجرد ترديد العبارات التي تستعملها أوربا الحديثة ولكنها آراء تعتمد على العلم بالتاريخ وعلى تقاليد الافكار العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الاسلام. انه يفهم الاسلام الواسع الذي وجد قبل محمد يفهم رابطة عبادة إله واحد التي تربط دينه بالاسرائيلية والمسيحية وليس لعرابي مطامع شخصية ولا شك في أن الجيش والبلاد مخلصان له كل الاخلاص ... أما عن مركزه الخاص فيتكلم بتواضع شديد. فهو يقول أنه ممثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش به ولكن الجيش نفسه هو الذي مثل الأمة وهو حاميها ومرشدها حتى تستغني عن ارشاده . ويقول ان الجيش هو القوة الواقفة الآن بين مصر وحكامها الاتراك الذين لا يحجمون عن تجديد مظالم اسماعيل فى أى وقت إذا لاحت لهم فرصة ويقول أن المراقبة الاوربية تحول بصفة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين ينقضى أجل المراقبة . وهذا هو الذى يجب عليه أن ينظر فيه ويعنى به . ويقول لقد كسبنا للناس حق التكلم فى مجلس الاعيان ونحن نؤيدهم حتى لا يخدعوا أو يزعجوا من ثم بالقوة . ولسنا نعمل فى هذا لأنفسنا بل لأبنائنا ولأولئك الذين وثقوا بنا . إننا نحن الجنود نقف اليوم فى مثل موقف ذلك الاعرابى الذى رد على عمر فى أواخر أيام حكمه إذ كان يسأل هل الناس راضون عن حكمه وهل جرى فى كل أعماله فى مجرى العدل فقال له ذلك الاعرابى لو رأينا يا ابن الخطاب فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا

ويقول عرابى اننا نحن المصريين لا نحب الدماء ولا نود أن يسفك شيء منها ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهى مهمتنا نحن الجنود ولكننا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا ولا نبالي بعون الله بقيمة الثمن الذى تقتضيه هذه الحراسة أو الذى يجب أن ندفعه فى مقابل حراسة الشعب الذين يحاولون اسكات صوته ».

وقد تأثرت كثيراً بهذه اللهجة البعيدة عن اللهجات التي يتكلم بها ساسة الشرق للاوربيين ولم يسعني أن أوازن بين عرابي وبطل الحرية الآخر الذى قابلته في

دمشق وهو مدحت باشا فشد ما كانت النتيجة فى مصلحة عرابى . لم يخلط عرابي في أقواله فليس فيهـا سكك حديدية ولا ترع ولا تراموايات يمكن أن ترد للشرق حريته بل فيها كلمات تنفذ الى جـذور الأشياء وأصولها وتضع مسئولية الحكومة الصالحة علي العواتق التى تستطيع حملها وقد شعرت أن مثل هذه الاقوال قد تسمع اذا قيلت فى مجلس النواب البريطاني على الرغم من امتلاء جوه بالشؤون التافهة والمهاترة .

وكان رأى عرابي جلياً فيما يتعلق بالسلطان وعلاقة مصر بتركيا . وقد ذكر لى أنه لا يضمر حباً للأتراك وقد أساءوا حكم مصر قروناً وانه لا يقبـل أى تداخل من جانب الاستانة فى شؤون مصر الداخلية ولكنه فرق بين الحكومة العثمانيـة وبين السلطة الدينية للسلطان الذى قال عرابى بأن طاعته واجبة عليه باعتباره أمير المؤمنين ما دام يحكم بالانصاف والعدل . وان مثل تونس التى فصلتها فرنسا أولا من الامبراطورية العثمانيـة ثم ضمتها بعد ذلك الى أملاكها لتحمل المصريين على التشبث بالعلاقة التى تربطهم برئيس العالم الاسـلامي . وقال عرابى « كلنا أبناء السلطان ويجب علينا أن نعيش كأسرة فى منزل . وكما أن أعضاء الأسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة ينظمهـا حسب ما يهوى ولا يحق لرب البيت أن يستبيح حرمتها فكذلك لكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يحب ويهوي . وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وسنبذل كل جهـدنا فى المحافظة على ذلك الاستقلال ولكننا نخطيء اذا طلبنا اكثر من ذلك ولا يبعـد أن نفقد حريتنا فى مثل هذه المجازفة (١) ».

وقد سألته هل بينه وبين الأستانة مخاطبات كما كان قد شاع يومئذ فأبدى لى انه يلزم جانب التحفظ فى هذه النقطة وراغ من السؤال . ولاشك عندي في أن ذكرى حديثه مع أحمد راتب باشا عرضت لذهنه وقتئذ وكان ذلك سبب تردده ولكنه لم يشر الى شيء من ذلك فى كل حال وقد كنت فى ذلك جاهلا أمر هـذه الحادثة التى رويت حكايتها فيما سبق .

---

(١) نشر السير وليـام جريجورى فى التيمس أقوالا كهذه لعرابى وكان قد سمعها منه فى نحو الوقت الذى سمعت فيه هذه الاقوال منه .

وقال محمود سامي انه طلب هذه الزيادة نظراً لوعد الخديو برفع قوة الجيش الي الحد الأقصي الذى تسمح به الفرمانات أى الى ١٨٫٠٠٠ وبرر الوزير أصراره بقوله ان رفض الزيادة قد يؤدى الى مظاهرة عسكرية جديدة وقد كلفت أن أعرف المبلغ الذي يرضي الجيش على وجه التحقيق وحولني كلفن سلطة الاتفاق على مبلغ لا يتجاوز ٥٢٢٫٠٠٠ جنيه وان أخبر عرابي وزملاءه الضباط بانه لا يمكن اعطاؤهم اكثر من هذا من الوجهة المالية . وقال لى كلفن أنه لا مانع فى زيادة الجيش بشرط الا يزيد المربوط وانه يظن أن المبلغ كاف لجيش عدده ١٥٫٠٠٠ وعلى ذلك ذهبت الى عرابى وناقشته هو وزملاءه الضباط فى المسألة وتمكنت من حملهم على الكف عن المعارضة مؤكداً لهم أن فى استطاعتهم أن يعتمدوا على كلمة كلفن فقالوا انهم يقبلون مبلغ ٥٢٢٫٠٠٠ جنيه وسيزيدون الجيش الى أقصي حد يسمح به هذا المبلغ . وقالوا انهم سيقتصدون فى وجوه يعرفونها ويبلغون الجيش أقصي قوته . وقد وعدوني فى هذه الفرصة أن يصبروا ولا يقوموا بمظاهرات مسلحة أخرى ثم وفوا بهذا الوعد الى اللحظة الاخيرة . وكانت آخر عبارة سمعتها من عرابى يومئذ « من صبر ظفر » وقد أرسلت فى اليوم عينه مذكرة الى كلفن أخبرته فيها بالنتيجة ثم شكرني ما ليت على اخراجي لهما من الصعوبة التي كانا يقاسيانها . على أن ما ليت لم يلبث أن أدهشني بعد ذلك باسبوع واحد حين أطلعني وأنا ألاعبه كرة التنس فى دار الوكالة البريطانية بعد ظهر يوم ٢٨ ديسمبر علي صورة تلغراف أرسله لوزارة الخارجية وقد ذكر فيه زيارتى لمصر والتشجيع الذى قدمته للوطنيين . ولم يذكر فى هذا التلغراف شيئاً عن المساعدة التى قدمتها له ولكنه شكا من ارسالى البرنامج الى جريدة التيمس على الرغم من معارضته فى ارساله . ولما كنا قد عملنا الى ذلك الحين باتفاق وولاء تام ولم يحدث مكدر أكثر من نشر البرنامج فقد أنبته على سوء نيته فى اخفاء الخدمات التى أديتها لسياسته وأصررت على أن يرسل تلغرافا يلحق به تلغرافه الاول فلم يسعه الا أن يفعل ذلك امامي وأرسل تلغرافاً آخر أصلح به بعض الحيف الذي أنزله بى . ولم أستطع قط أن أفهم غرض ماليت من هذه المناورة . وقد حملتها فى ذلك الحين على محمل الغيرة العارضة وكراهيته ان تعرف

وزارة الخارجية انه كان لى شأن فى تحسن الصلات بينه وبين الوطنيين . ولكى بعد انعام النظر حملت هذه المناورة علي حذره الطبيعي الذى أوحي اليه أن يحتاط ليدرأ عن نفسه كل مسئولية امام الرأى العام فيما يختص برأيي فيالوطنيين المصريين اذا بدأ للوزارة الانجليزية أن تطعن على هذا الرأى. ولعل هذا هو السبب الحقيق والذى يؤيد ذلك أن ذمته لم ترتح الا حين كاشفني باجراءاته الرسمية هذه . ومع انه ندم على غدره قد كان لى من عمله هذا محذراً لم أنسه فيما بعد فكنت أشعر بشيء من توقع الغدر علي يديه فى بضعة الاسابيع التى كنت أذهب فيها الي الوكالة البريطانية بعد ذلك . علي انى كنت مستعداً لمساعدته ولم يمض وقت قصير حتى اضطرته الاحوال القاهرة الناشئة من عزلته السياسية فى القاهرة الى الالتجاء الى خدماتى.فأرسلنى حين طغى عليه الموج كرسول السلام الى عرابى وأخوانه الضباط.

وقد سار كل شيء على مايرام الى آخر ذلك العام وفى خلال الاسبوع الاول من سنة ١٨٨٢ كان الاتفاق قد ساد بين جميع الاحزاب المصرية وهدأ الجيش واعتدلت لهجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدي الجميع ، وأخذ الوزراء الوطنيون وقد اطمأنوا ولم يعد أحد يهددهم يضعون مشروع القانون الاساسي الذي يمنح البلاد حريتها وفى ٢٦ ديسمبر اجتمع مجلس النواب للمداولة فى نصوص الدستور بالقاهرة وفتح بخطبة تدعو الى الثقة من الخديوى بالذات . وكان هذا قد أحسن السلوك نحو الحركة الوطنية الى حد أن كتب ماليت عنه الي لورد غرانفيل يقول « وجدت سموه منشرحا لاول مرة منذ عودتى في سبتمبر وقد صار الآن كبير الامل من تحسن الاحوال . ولم يستطع الانسان الا أن يرى هذا التغير الكبير فيه والظاهر أنه راض بالحالة كما هي » وكان عرابى قد كف عن شغل نفسه بشكاوى الناس . واتفق معتمدا فرنسا وانجلترا على أن ينظم عرابي مركزه بقبول المسئولية المترتبة على نفوذه السياسي وذلك بأن يتقلد وزارة الحرب . وقد قصدا بذلك التوقي من خطره ووضعه الى جانب المحافظة على النظام.

ولم يبق محل للشك الا سلوك النواب حيال نصوص الدستور الذى اجتمعوا لمناقشتها . على ان اغلبيتهم بدت كأصدقائي الازهريين ميالة للاعتدال . وقال الشيخ

محمد عبده « لقد لبثنا عدة قرون في انتظار حريتنا فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر » ولست أشك فى أن ماليت وكلفن وستكوكز كانوا فى ذلك الحين يعطفون على طلب الوطنيين البرلمان عطفاً حقيقيا . وقد بدأوا يرون ان هذا هو المطلب الوطنى العام وان البرلمان يقى من شر الافكار الاشد تطرفاً . ولو ان حكومتى فرنسا وانجلترا أعلنتا فى ذلك الحين حسن النية حيال الامانى الوطنية لكان فى الطاقة ان يوضع نظام حسن للعمل بين المراقبة الثنائية والحكومة الوطنية ولو تم هذا لضمن مصلحة حملة الاسهم كما ضمن حرية مصر . وقد حسبنا يومئذ ان الحكومتين لاتبطئان فى اعلان كهذا .

وقد نشر البرنامج الذى أرسلته الى التيمس فى عددها الذى صدر فى اول يوم من أيام سنة ١٨٨٢ مصحوبا بمقال افتتاحي يتضمن الموافقة والاستحسان : وقد أحسنت أوروبا تلقى هذا المنشور علي الرغم من تطير ماليت بالسوء ولم يكن له في الاستانة وقع سيئ . وكان هذا البرنامج من اعتدال اللهجة والصراحة واستقامة المنطق بحيث خيل الينا انه لايمكن ان يسيء أحد فهم حقيقة الموقف فى مصر بعد الاطلاع عليه . وكذلك لم يتصور أحد أن تسيء انجلترا استقباله مع وجود أغلبية حرة في مجلس النواب ومع وجود المستر غلادستون فى رئاسة حكومة حرة . نعم لم تتصور ذلك نحن الذين كنا ننتظر رد غلادستون ولم يخطر على بال أحد منا ان وزارة الخارجية البريطانية كانت في ذلك الحين تعد عدة التحدى والتدخل المسلح. ولكن من سوء الحظ ان هذه الوزارة كانت قد قررت مناهضة أماني المصريين وان لم يعرف أحد ما ذلك ولا ماليت نفسه . والظاهر ان البرنامج وصل الى غلادستون بعد الوقت الملائم بأسبوعين. وبينما كنا ننتظر رسالة سلمية اذا بمذكرة ٦ يناير المشتركة تقع علينا وقع الصاعقة . وقد نقضت هذه المذكرة كل آمالنا وضيعت حسابنا وقدمت مصر « حومة بحر لجي من المتاعب .

وهنا يجب علي ان أقص الحقيقة فى كيفية تكون فكرة هذه المذكرة المشئومة التى يرجع اليها كل ما حدث من المتاعب فى خلال ذلك العام ، والتى أفقدت مصر حريتها كما أفقدت غلادستون شرفه وأفقدت فرنسا نفوذها على جانبي النيل . وقد

يمكن ان يعرف الانسان شيئاً عنها من الوثائق الرسمية التي نشرت انجليزية كانت أو فرنسية ولكن الذي يمكن معرفته من هذه الوثائق ليس الا بعض الحقيقة ثم لايمكن معرفته الا بطريقة غير مباشرة . وربما كنت أنا الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يقص قصتها كاملة اذا استثنينا الذين وضعوها وكانت لهم علاقة رسمية بها

وقد اعتقد المصريون بطبيعة الحال ونظراً لاستخدام المذكرة في مصلحة الاعتداء البريطاني انها من وضع وزارة الخارجية البريطانية وقد وضعتها لاستخدامها في قضاء اغراضها الخاصة ولكن الحقيقة ليست كذلك فلم توضع المذكرة في خارجية بريطانيا بل في خارجية فرنسا ولخدمة المطامع الفرنسية التي لم تكن سياسية فقط بل كانت مالية أيضاً .

وقد ذكرت كيف سافرت مع السير شارلس ديلك من لندن الى باريس وسردت الحادثات التي دارت بيننا في الطريق والتأثير الذي تركته في نفسي من حيث اعتزامه بيع حرية مصر بالمعاهدة التجارية وهذا هو نفس ما حدث تماماً

في ١٥ نوفمبر استقال سانت هيلير وخلفه غمبتا الذي وجد امامه ثورة اسلامية على الحكومة الفرنسية في تونس والجزائر . وقد ازعجته صبغتها الاسلامية وعزاها الى نشر الدعوة الذى يقوم به السلطان عبد الحميد وقد ظن أن الحركة المصرية قائمة على الاساس ذاته وكذلك كان يعد دسائس اسمعيل وحليم وغيرهما . وكانت فرنسا معادية من أول الامر للحقوق التي يدعيها الباب العالي في شمالي افريقيا وقد تقلد غمبتا الوزارة مصمما على مقاومة تلك الحقوق بالقوة والصرامة . واذ كان غمبتا يهوديا فقد كان متصلا بالمصالح المالية في بورصة باريس وكان كذلك ذا صلة متينة ببيت روتشلد وغيره من أصحاب الاموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين المصري . وكان نوبار باشا ورفرز ولسن يعيشان يومئذ في باريس فكانا اخص من ينتصح بارائهم في المسألة المصرية وقد كون رأيه في الموقف بناء على المعلومات التي كان يستمدها منهما.

فلم يمض عليه بضعة أيام في الوزارة حتى اخذ يفاوض وزارة الخارجية البريطانية ابتغاء حمل انجلترا على الاشتراك مع فرنسا في القيام بعمل عنيف ضد الحركة الوطنية

ولن يكون ذلك بمثابة حملة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدنية وتنظيم مالية مصر . وكانت وزارة الخارجية البريطانية تريد ان تجدد المعاهدة التجارية المعقودة بين فرنسا وانجلترا التى أوشكت أن يحين أجلها بأسرع ما يمكن . وقد ارادت الحكومة البريطانية أن تنتهز فرصة الصداقة الموثقة بين رئيس الحكومة الفرنسية الجديد والسير ديلك وكيل خارجية بريطانيا لاستكمال المفاوضة في هذا الصدد . وكانت قد ألفت لجنة لهذا الغرض في باريس منذ شهر مايو وقد مثل فيها ديلك وولسن انجلترا ولكنها لم تصل الى نتيجة . وقد استقر الرأى على أن يعود ديلك الى باريس ليفاوض فى مسألتي مصر والمعاهدة التجارية ولم يمض أكثر من اسبوع على تقلد غمبتا رئاسة الوزارة . واذا راجعنا الصحف التى كانت تصدر فى نوفمبر سنة ١٨٨١ نجد المفاوضة بين الدولتين كانت قد وصلت الى نقطة حرجة حتى لقد أشيع أكثر من مرة انها قطعت . ولكن عودة ديلك أحيت المفاوضات أو على الاقل حالت دون انقطاعها . ولبث ديلك يروح ويغدو بين فرنسا وانجلترا من ٢٢ نوفمبر الي ١٥ ديسمبر وقد جاء فى الكتاب الازرق الذى صدر فى سنة ١٨٨٢ برقم ٥ ان غمبتا أرسل الى لورد ليونس السفير البريطاني في باريس يوم ١٥ ديسمبر مشروعا يقضي بالتدخل المشترك فى مصر . وقد ذكر في مشروعه انه يرى التدخل ضروريا لتقوية سيطرة الخديو توفيق . وقال « انه يجب بذل كل جهد لحمله على الثقة بتأييد فرنسا وانجلترا وحضه على الحزم والثبات وانه يجب اقناع أنصار اسمعيل باشا وحليم باشا كما يجب اقناع المصريين عموماً بانه ليس فى استطاعتهم أن يخلعوا توفيق وانه مما يرغب فيه ان يوضع حد حاسم لدسائس الاستانة الخ . » وقد بلغ لورد ليونس هذه العبارات الى وزارة الخارجية البريطانية وفى ١٩ ديسمبر . « وافق لورد غرنفيل على أنه قد حان الوقت لتنظر الحكومتان فيما يجب اجراؤه » وبعد هذا التشجيع انتهز غمبتا فى يوم ٢٤ ديسمبر فرصة التئام مجلس الاعيان المصرى ليقوم « بمظاهرة جلية على اتحاد انجلترا وفرنسا في تقوية مركز توفيق باشا واضعاف العاملين على الاخلال بالنظام » وقد التأم المجلس المصري يوم ٢٦ وذكرت التيمس ان ديلك الذى عاد الي باريس يوم ٢٧ اجتمع بغامبتا يوم ٢٨ وحادثه طويلا بشأن

المعاهدة التجارية بينما اعلن لورد غرنفيل فى اليوم نفسه موافقته على « أن يعطي توفيق باشا تأكيداً بعطف انجلترا وفرنسا وتأييدهما له وأن يشجع سموه على الاحتفاظ بسلطته واظهارها فعلا » .

وغنى عن البيان أن اتفاق التاريخين كاف وحده لاثبات العلاقة بين المسألتين . وانه يبين اللحظة التى حدث فيها الاتفاق الخطر وان البرنامج الذى أرسله الى غلادستون فى ٢٠ ديسمبر وصل متأخراً عن الوقت الذى كان يمكن أن يحول فيه دون وقوع النكبة . وكان وصول الخطابات الى لندن يستغرق فى ذلك الحين أسبوعا وكان غلادستون متغيباً عنها بهاوارة عيد الميلاد فلم يتسع الوقت لان يرسله الى وزارة الخارجية مهما كان ميله الى ذلك .

وعلى هذا المنوال تورطت حكومتنا فى سياسة غمبتا ومن ثم قدم هذا فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨١ الى لورد ليونس مشروع المذكرة المشتركة (راجع الكتاب الازرق رقم ٥ لسنة ١٨٨٢) مكتوبا بخط يده لترسل المذكرة الى مصر تأييداً لرسالته المؤرخة ٢٤ ديسمبر وهنا يجب علينا أن نذكر أنه أعلن فى اليوم نفسه أن المفاوضات الخاصة بالمعاهدة التجارية استؤنفت رسمياً .

وفى أول يناير أرسل مراسل التيمس في باريس الى جريدته نحوي المذكرة الثنائية قائلا انه يقدمها الآن اتباعاً لتعليمات غمبتا الذى قال له أن لا يذيعها الا « في الوقت الملائم » . وقد دل هذا على أن ديلك نجح فى مهمته التجارية وقد عاد في اليوم التالى « ٢ يناير » الى لندن وانى لأجد تأثير الخطاب الذى أرسله الى غلادستون في تأخير خمسة الايام التي مضت قبل أن يوقع غرنفيل المذكرة على كراهية للتوقيع وفى تحفظه الذى ذكر فيه « أن حكومة جلالة الملك لا تعتبر نفسها مقيدة بهذا التوقيع بالعمل بأية خطة خاصة . » وهو تحفظ خليق بغرنفيل دال على تناقض الآراء فى ذهنه وقد ظهر هذا التناقض بعد ذلك بين غلادستون وبين وزارة الخارجية ومن ورائها السير ديلك .

هذه هي الشواهد التى أمكن استخراجها من الوثائق التى نشرت يومئذ على أن عبدى خطايا من رفرر ولسن جاءنى بعد ذلك بعدة أيام — فى ١٣ يناير — رداً

على خطاب لي . وخطاب ولسن هذا يوضح المسألة فى بضع كلمات . قال في هـذا الخطاب « يسرنى اهتمامك بالشؤون المصرية وانت تؤيد ما اعتقد أنه الحقيقة فى نقطتين على الاقل وهما أن الضباط يعربون عن الرأى المصرى العام وان الخديو توفيق يعمل بالاشتراك مع السلطان . وعندي أنه لا محل للدهش فى هـذه النقطة الاخيرة فقد قال غمبتا منذ ستة أسابيع « أن الخديو فى حجر السلطان » والسبب فى هذا ظاهر فتوفيق ضعيف مجرد من الشجاعة ، والجيش قائم ضده والحريم يكرهه فلا يجد منهن المعونة التى يتطلع لها منهن بطبيعة الحال فلم يجد بداً من ان يلتفت الى ناحية يمكن ان يأتي منها الحلف ورعاحات منها المعونة المادية أيضاً وهى ناحية حكومتى انجلترا وفرنسا

وانه لمعالجة هذه الحالة فكرت الحكومتان فى نشر المذكرة الثنائية مهما كانت الاسباب التى تتنحل لاصدارها الآن . وسيكون أسفى عظيما اذا أخفقت المذكرة في استحداث هذه النتيجة ولم تلق فى روع الضباط والعلماء والاعيان ان تجديد الاضطراب لا يكون له بعد الآن معنى الا تدخل أوروبا المسلح . وقد لا تحب حكومتنا مثل هذا التدخل ولكنها أصبحت مقيدة عن تسابصفة رسمية ولم يعد يسعها الانسحاب » .

ومتى ذكرنا المنصب الرسمي الذى كان يشغله رفرز ولسن في باريس وأضفنا اليه اتصاله التام بديلك وغمبتا عرفنا ان هذا الخطاب وثيقة تاريخية مهمة وقد رأينا كيف انه وضع على الحكومة الفرنسية بصفة قاطعة مسئولية اقتراح التدخل المراد وهـذه مسألة تؤيدها الكتب الصفر ذاتها رغماً عن عـدم وضوحها . وقد سمعت حينئذ وأصـدق الآن أن كيفية التداخل التى اقترحها غمبتـا هي أن تقوم انجلترا بمظاهرة بحرية وأن تترك فرنسا جنوداً فى مصر . ولو حدث لما كان هناك شك في أن النفوذ الفرنسي كان يسود مصر اليوم . وقد كان هذا هو الذى يكون لولا ان حال دونه سقوط غمبتا اذ صوت مجلس النواب ضد حكومته فى مسألة داخلية على غير انتظار فى آخر شهر يناير لان غلادستون كان في ذلك الوقت أبعد عن الميل الى استخدام وسائل العنف من أن يرسل اسطولا بريطانيا مع جيش فرنسي فلم يكن بد حينئذ من أن تتوسع فرنسا فى حركتها البرية .

وفي الطاقة أن يستخرج الانسان أكثر من نتيجة واحدة من هـذه القصـة التاريخية . وربما كان من اهم هذه النتائج أن الوزيرين أخفق كل منهما فى تنفيذ غرضه على الرغم من اشتهار كل منهما بالبراعة السياسية فى دائرته وعلى أسلوبه الخاص . ولا شك فى أن غمبتا وغرنفيل تباهيا فى الاسابيع الاولى من شهر يناير بفوزهما فى تحقيق غرض مهم وتقويتهما العلاقات الودية بين حكومتيهما عما حدث من الاتفاق وقد فاز غمبتا بالمذكرة كما فاز غرنفيل بالمعاهدة التجارية . ولكن الحقيقة هي انه لم يستطع أحد من هذين الشاطرين أن يجلب السلب الى بلاده فقد عجز غمبتا مع كل مهارته عن حمل أغلبيـة مجلس النواب الفرنسي على الموافقة على المعاهـدة التجارية فسقطت المعاهدة وسقط معها ما زعمه حرب الاحرار البريطانيين من أن حرية التجارة لا تجعل انجلترا فى عزلة . ومن ناحية أخرى وجد غمبتا انه لم يعد — اذ نجح في اكراه غرنفيل على توقيع المذكرة التى اعتقد انه سوف يستخدمها لاعلاء شأن فرنسا — ان صانع سلاحا لا يستطيع هو نفسه أن يحسن استخدامه . وهو سلاح لم يمض عليه ستة أشهر حتى تحول الى يد مزاحمه فى الوقت الذى ظهر فيه ان الاتفاقية الودية قد هدمت بمجرد حدوثها كل الشعور الودى الذى كان متبادلا بين الامتين اثناء جيل كامل . وفى استطاعتى أن أفرق بين اخفاق السياسين وبين تنافس مصالح أمتيها أما المأساة الحقيقية فهي ان أملا وطنياً قد خاب واصـلاحا دينياً قد تأجل سنين عديدة كرامة لمطامع دنيئة وشهوات أدنأ منها .

كان تحدى غمبتا الحزب الوطني خطراً على السـلام فى القاهرة . وقد كنت مع ماليت بعد وصول المذكرة اليه بوقت قصـير فأعطانيها لاقرأها ثم سألني رأيي فيها فقلت « سيعتبرونها اعلان حرب » فقال « ليس المقصود بها غرضاً عدائيا » . ثم شرح لي كيف يمكن تفسيرها بما يوافق الاماني الوطنية . وقد طلب مني أن أذهب الى ثكنة قصر النيـل وأطلب الى عرابي الذى كان قد عين حديثاً وكيلا لوزارة الحرب أن يقبلها بهـذا المعنى ثم خولني أن أقول له « ان معنى المذكرة كما تفهمه الحكومة البريطانيـة هي أنها لا تسمح بان يتدخل السلطان فى مصر ولا تسمح للخديو أن يحنث بوعد . ويؤذى البرلمان : » وأخبرني انه يرجى أن ينال إذناً بنشر تفسير

مكتوب للمذكرة بالمعنى المتقدم ولكنه لم يخولني سلطة قول ذلك لعرابي . وأعرف انه أرسل أكثر من تلغراف طالباً مثل هذا الاذن وانه كتب ينتقد المذكرة بشدة ويقول انها خطرة مجردة من السياسة ولكنك لا تجد شيئاً من هذه الطلبات والاحتجاجات في الكتب الزرق وان كانت تلك الكتب تظهر اهتمام لورد غرنفيل بها الى حد اظهار رغبته في نشر تفسير للمذكرة ولكن غمبتا منعه من ذلك . والظاهر ان سكوبكز طلب هو أيضاً من حكومته أن تأذن له بتفسير المذكرة ولكنه منع من ذلك . وكذلك أخي السير أوكلند كلفن على المذكرة اثناء حديثه معي بأشد اللائمة كما فعل ماليت .

وقد ذهبت الى ثكنة قصر النيل في ظهر يوم ٩ (وكانت المذكرة قد وصلت يوم ٨) فوجد عرابي وحده في مكتبه . وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي رأيته فيها عاضباً . وكان وجهه كسحابة الرعد . وكان في عينيه بريق خاص . وقد رأى نص المذكرة وان كان لم ينشر بعد وقد سألته كيف فهمها فقال « اخبرني كيف تفهمها أنت » وحينئذ أديت رسالتي فقال « لاشك في ان السير أدوارد ماليت يحسبنا اطفالا لانفهم معنى الكلمات . هذه لغة تحد وتهديد وليس في هذه الادارة كاتب يستخدم مثل هذه الالفاظ لغير هذا المعنى » ثم أشار الى الفقرة الاولى التي ذكر فيها الاعيان وقال « هنا نجد لحرياتنا ، وليس لاعلان اتحاد فرنسا وانجلترا معنى الا ان انجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس » ثم قال « دعهم يأتون فكل رجل وطفل في مصر سيقاتلهم . ليس من مبادئنا ان نضرب الضربة الاولى ولكننا سنعرف كيف نردها » ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش توفيق « ان السلطان هو الذى يحافظ على عرش توفيق فليس هو في حاجة الى ضمان أجنبي ولك ان تخبرني بما تشاء ولكني أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت » والواقع ان تفسير ماليت كان هراء في هراء وقد شعرت لما صرت امام عرابي بخفتي وخجلت من حملي اليه مثل هذا الهراء ولكنى أكدت له انى أديت الرسالة كما تماها الى السير أدوارد ثم قلت وهو يرجوك ان تصدقها وأنا كذلك » ولم يبد عليه شيء من آثار الرقة الا حين استأذنت في الذهاب فتناول ذراعي ورافقني الى

الباب ودعاني لزيارة منزله كما كنت أصل قبل ذلك. فقلت « سأجيء عند ماتكون لدى أنباء أفضل من هذه » وقد ألمعت بهذا الى التفسير الذى أستأذن ماليت في نشره . على ان الاذن لم يأت . كما انى لم أر عرابي في الاسابيع الثالثة التالية ولكني رأيته بعد ذلك حين وصل الى خطاب من المستر غلادستون ففسرته بما أملاه على التفاؤل وكان هذا الخطاب سبب سرورنا» .

وقد عدت الى الوكالة البريطانية وسألني ماليت كيف أديت الرسالة فقلت « لقد نفروا وأصبحت مصالحتهم مستحيلة وقد قذفت المذكرة بهم فى أحضان السلطان » والواقع ان هذه كانت الحقيقة ليس فيما يتعلق بالحزب الوطنى وحده بل فيما يتعلق بجميع الاحزاب والطبقات . ولقد فشل غمبتا وباء بالخيبة اذا كان قد أراد تقوية يدى توفيق بمذكرته الحمقاء هذه فقد رعب الخديوى أما الوطنيون فقد هاجوا ولم يخافوا . وهنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لاول مرة .

وانضم الشيخ محمد عبده والازهريون المعتدلون الى الحزب المتطرف بكل قوتهم وحنق كل الناس ومن يهتم الحراكة من التهديد الاجنبي ورأى اعداء الترك كصديق المحجرمي ان عرابي كان بعيد النظر محقاً ان اعتمد سراً الى السلطان وبهذا كسب عرابي شهرة عظيمه واحتراماً رهيباً ومضت عدت أيام لم أسمع خلالها من أصحابي المصريين الا كلاماً في الرابطة الاسلامية وكان كل من ألقاه يقول هذه سياسة روستانيه (١) وقد بذلت جهدى فى التهدئة حتى يصل التفسير الذى وعدنا به ماليت ولكن جهدى ذهب عبثاً . وكانت هذه الاسابيع الثلاثة مزعجة للجميع وهي الاسابيع التي انقضت منذ أرسل غمبتا مذكرته حتي سقط وكان يأتى فى هذه الاثناء أنباء بان قوة فرنسية تحشد في طولون استعداداً للابحار . وقد كان هذا شكل التدخل الذى توقعه الجميع . وعندى ان سقوط غمبتا أنقذ مصر من مصيبة ربما كانت أكبر من مصيبتها الحاضرة — مصيبة غزوة فرنسيه موجهة علناً ضد الاسلام وفى مصلحة المصالح الاوروبية وحدها .

---

(١) نسبة الى روستان الذى أعد مشروع الهجوم على تونس

الفصل التاسع

(استقالة شريف)

ولم ينتصف شهر حتى ظهر فى القاهرة أن الازمة السياسية تقترب بسرعة والواقع انه لم يبق ريب فيها. وقد اتفق أن نشرت المذكرة الثانية والقانون الاساسي فى وقت واحد . وكان المراقبون الماليون قد ألحوا على الوزارة فى أن لاتمس سلطتهم فى وضع الميزانية على مقتضى اعتقادهم فى الحاجات الاقتصادية وان لا يتعرض المجلس الجديد لها ببحث أو اقتراح ووافق شريف باشا على ذلك ووضع المشروع بغير أن يجعل للمجلس أى حق فى المسائل المالية . ولم يكن غير طبيعى ان تستاء أكثرية النواب من ذلك وقد قالوا أن المراقبة المالية الاجنبية ليس لها شأن الا الاشراف على كل ما يختص بمسألة الديون ولما كانت فائدة الدين تبلغ نصف الايراد فقد وجب أن تكون الامة حرة فى التصرف بالنصف الثانى.

ومع ذلك فليس ثم محل لان نعتقد بان النواب كانوا يصرون على المعارضة لاسيا أن سلطان باشا الذى انتخب لرئاسة المجلس كان متفقاً مع شريف فى أن الفطنة تقضي بالاذعان . ولكن الاحوال تغيرت فى آخر الشهر عما كانت عليه في أوله . وقد رأينا كيف سهل الاتفاق بين وزارة الحرب والمراقبين الماليين علي ميزانية هذه الوزارة. ولكن الاعيان صاروا الآن — أي تحت تأثير المذكرة — بعيدين عن فكرة المسالمة فقابلوا مشروع شريف بمشروع وضعوه بانفسهم وضمنوه عدة مواد توسع سلطتهم البرلمانية وتضع نصف الايراد الذى ليس للديون به شأن تحت تصرفهم . ومن ثم وقع الخلاف الفعلي بينهم وبين المراقبين وقد تولى بلنجير القيادة وجركلفن وراءه وقد أعلن المراقبان انه لاساس من بناء الميزانية كلها تحت تصرفهم المطلق وقالوا أن المشروع الذي قدمه النواب ليس مشروع لائحة برلمانية بل مشروع « معاهدة » ولا شك أن هذه العبارة مقتبسة من اصطلاحات الثورة الفرنسية وان بلنجير هو الذى وضعها فتلقفها منه كلفن وارغم ماليت على ازدرادها وكان الخلاف جدياً وربما أفضي الى الشر الذى كان يخشاه ماليت ويعطي الحكومة

الفرنسية فرصة التدخل التي تنشدها . ومن ناحية أخرى كان شريف قد ربط نفسه بوجهة نظر المراقبين وكان هذان يلحان عليه في الثبات أما موقف الخديوى فكان مشكوكا فيه . وكانت فرصة وقوع الخلاف بين الخديوى والنواب على الميزانية المرتبطة بالديون الاوروبية هي نفس الفرصة التي تنتظر الحكومة الفرنسية أن تنتهزها بعمل السوء وكان غمبتا لايزال في رئاسة الوزارة.

ففي هذه الشدة العصيبة طلب منا ماليت وكلفن الذي كان يود أن ينفذ رأيه كمراقب مالى وان لم يكن يرضى عن تدخل فرنسا ان أساعدهما مرة أخري بان أبذل جهداً جديداً لحمل المتطرفين من الاعيان على النزول عن بعض ما يطلبون . وبعد أن تداولت مع الشيخ محمد عبده الذي كان كدأبه من الميل الى التبصر والمسالمة اتفقنا على أن التقى في منزله بوفد منهم لاناقشهم في المسائل وأريهم النتائج المحتمة للمقاومة أي التدخل المسلح ومن ثم قدمت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلفن ووضعت مع ماليت قواعد المناقشة التي عولت على استخدامها وكلها مدونة لدى في مذكرة عنوانها « مذكرة بالامور التي سأقولها لاعضاء البرلمان المصرى في ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ »

ويؤخذ من هذه المذكرة أن تعلياتي كانت تنحصر في أن أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءآت الميزانية الحاضرة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان أن يمسها بغير موافقة الحكومتين الرقيبتين . وكان على أن أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأريهم مذكرة خاصة وضعها ماليت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارفقها بالمنشور الذى نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم أن يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءآت اصدار الميزانية مسألة دولية وليست كذلك . وهل اذا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم وقد اعترفوا بان المسائل الدولية يجب أن لا تمس . ومسألة الميزانية مسألة دولية وعلى ذلك يجب أن لا تمسوها . وقد خولني كلفن أن أقول بانه هو شخصياً لايمانع في تعديل الاجراءآت الحاضرة تعديلا طفيفاً بحيث يعطي للمجلس حقاً استشاريا قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراح . فاذا قبلوا ذلك عرض

ماليت المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع أن يطمئن على قبولها من جانب انجلترا أو فرنسا . أما سائر خلافاتهم مع شريف فعليهم أن يسووها معه بانفسهم . الخ . الخ .

على هـذه القاعدة وبمساعدة صابونجي والاستاذ الشيخ محمد عبده ناقشتهم طويلا فى المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بانهم لايذعنون ثم انهم وافقوا على تعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وأدمجوا التعديلات التى اقترحتها عليهم فيما يختص بها فى اللائحة التى نشرت ولكنهم تشبثوا برأيهم فى مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاستاذ محمد عبده لى ولم يقبلوا أن يغيروا سطراً من المادة الخاصة بها وعدت مطأطئ الرأس لأبلغ ماليت حكاية فشلي ولم أتوسط بعد ذلك بينه وبين الوطنيين . فقد بذلت أقصى جهدى لاساعده على حل مصاعبه حلا سلمياً ولكن شقة الخلاف بين وجهتى نظرنا اتسعت منذ ذلك الحين حتى لم يبق محل لتعاونى معه . ومع أنى بذلت كل جهدى لاحمل الاعيان على الاذعان تحت تأثير اعتقادى بانهم ميددون بالتداخل الاوربي لم يسعنى مع ذلك الا الاعتراف بانهم على حق فى طلبهم السلطة على نصف الميزانية اذا كان الحكم البرلمانى سيكون حقيقة لاتمويها . وتدل تلغرافات ماليت فى ذلك الحين على ان الاعيان كانوا يداً واحدة فى هذا الصـدد حتى ان سلطان باشا الذى كان بطبعه رجلا ضعيفاً يسهل ارهابه أعلن بصريح العبارة أن دستور شريف باشا « كالطبلة » تحدث صوتاً عالياً ولكنها فارغة .

وقد حملتني كراهتى للاتراك على الانضمام للوطنيين في النضال الذى نشب بعد ذلك بينهم وبين شريف باشا . وكنت قد زرت شريف قبل ذلك بناء على رغبة ماليت وبحثت معه فى المسألة وخرجت من البحث غير راض .

كان شريف تركياً متفرنجا طيب العنصر والاخلاق ولكنه لم يخل من شئ من الغطرسة واحتقار الفلاحين وهما الوصفان اللذان كانا من مميزات طبقته في القاهرة . وكان ماليت يقدره قدراً كبيراً لاجادته معرفة اللغة الفرنسية وعلومها وسهولة التعامل معه لا سيما فى الشؤون السياسية العادية ولكن تفرنسه هذا لم يكن يروقني كلما وازنت

بينه وبين الرجال المصلحين ذوي الفكر السامية الذين كانوا دعاة الحركة الوطنية الحقيقية والذين لم يكن يعتبرهم شريف الا بمثل الاحتقار الذى قد يستشعره رجل فرنسي نحوهم وقد كان شريف واثقاً من كفاءته لحكمهم وقلة كفاءتهم .وقد قال لي «ان المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الاطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الخليق بهم فاذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه .اني أنا الذي أنشأت الحزب الوطني وسيجدون انهم لا يستطيعون العمل بدوني .ولا شك في أن هؤلاء الفلاحين فى حاجة للارشاد» ومن ثم لم يشق علي أن أختار الجانب الذى أوليه عطفي حين نشب بينه وبينهم النضال العلني بعد ذلك بزمن قصير .

ولم أكن في القاهرة عند مابلغتني أنباء استقالة شريف فى ٢ فبراير وكان فشلي فى معاوضة الاعيان قد نكدنى وشعرت أن قيامي بمعاوضتهم قد أفقدنى مودة أصدقائي الاوربيين وانهم ربما يسيئون بى الظن لمحاولتي اقناعهم بخطة لا تتفق مع الخطة التي عقدوا عليها عزائمهم فبعدت عن النضال الذي لم تبق لي عليه سلطة ولا عدت قادراً على أن أقوم فيه بخدمة غرض طيب ومع انى كنت مقيما اثناء الشتاء فى فندق النيل . فقد كان لي خارج المدينة خيام وجمال وخدم من العرب وكنت أزور هذه الخيام أحياناً ولكني الآن قبعت فيها . وكانت الخيام مضروبة فى الصحراء بين قصر القبة والمطرية فى نقطة اسمها الزيتون وكانت هـذه المنطقة كلها لا تزال صحراء قاحلة فى ذلك الحين والخيام قائمة الى جانب بقايا شادوف وهى الأثر الوحيد الذى يدل على انه كان فى هذا المكان سكان .وقد كنا منفردين فى هذا المكان لولا معسكر الامير أحمد الذى كان خارج دائرة المطرية ولم يكن يوجد أي نوع من أنواع المواصلات العامة بيننا وبين القاهرة فكنا اذا أردنا الذهاب الى القاهرة نركب جمالنا الى مكان بين الفجالة والعباسية حيث نستطيع أن نكترى الحمير . ولم يكن يوجد ولا منزل واحد فى الرمل بعد العباسية من الناحية الشمالية الشرقية .وعلى هذا استطعت أن أنسى السياسة لحظه وأن أتمتع بالعيش فى الهواء الطلق وهو ما كنت ولا أزال أفضله على كل شيء على انى كنت قد قمت لاصحابي بخدمة أخيرة اذ كتبت في التيمس دفاعاً حاراً عن الوطنيين . وقد حضني على ذلك السير جرجوري الذى

ترسل أكثر من خطاب قوي بالمعنى ذاته الى التيمس التى كانت تعد فى ذلك الحين أقوى صحيفة في أوربا بلا نزاع .

وليس فى الطاقة أن أبالغ فى أهمية أي خطاب ينشر فى التيمس فى تلك الايام كما انه لاشك فى اهتمام الساسة الذين لهم علاقة بالخطاب المنشور بالاطلاع عليه والعناية بأمره . كذلك ليس من المبالغة القول بان خطاباتي وخطابات السير جرجوري بصفة خاصة كان فيها وقاية لمصر من كثير من الاخطار التى كانت تهددها . وقد وثق منا أصدقاؤنا المصريون لما وصلت التيمس تحمل هـذه الخطابات وترجمت الى اللغة العربية وتجدد اعتمادهم علينا . ولـكن هذا ضايق ماليت . فقد كان مثله كمثل كل رجال السياسة فى بعض العلانيـة وقد حنق منا نحن الذين كنا موظفين فى خدمة الحكومة اذ تجاورناه هو ووزارة الخارجية ولجأنا الى الصحافة . وكان يعرف كيف يتصرف مع مراسلي الصحف ولـكنه لم يعرف كيف يفعل معنـا نحن الكتاب الاحرار ولا استطاع أن يراقب آراءنا أقل مراقبة . ومن ثم انتهى عهد الصـداقة التي كانت بيني وبين الوكالة الى ذلك الحين رغم ما حدث من الخلافات الصغيرة وكان هذا من سوء الحظ الذى قذف بماليت — الذى كان دائماً فى حاجة الى الاعتماد على من هم أقوى منه — فى أحضان قوم أقل ميلا منا الى المسالمة والصلح .

وفى مذكراتي أجد اني ذهبت فى يوم ٣١ يناير وهو اليوم الذي سقطت فيه وزارة غمنا الى القاهرة وقابلت كلفن وتحادثت معه حديثاً خطيراً . وقد استحدثت الحوادث التى جاءت بعد ذلك لهذا الحديث أهمية تاريخية لجيئه في تاريخ على مدى بضعة أيام من الوقت الذي غير فيه المراقب البريطاني مسلكه ففرت معه سياستنا نحو الوطنية المصرية كما انه يضع على كاهل كلفن مسئولية القطيعة التى جلبها بأعماله. قد ذكرت فيما سبق طرفا من أخلاق السير أوكلاند كلفن فهو نموذج الموظفين فى خدمة الهند قوي الاعتماد على نفسه وصار معتاداً على الاساليب المتبعة منذ زمن طويل في الهند ولـكنها تعتبر مع هذا جديدة بالنسبة للسياسة الاوربية ولا يميل الى الشرق الا الميل الذي يجعله يستخدمه للاغراض البريطانيـة بغير ان يحبه وهو فوق هـذا كله بارد الطبع غير جذاب . وكنت قبل ذلك التاريخ قد أخذت الاستاذ الشيخ

محمد عبده لزيارته ابتغاء التقريب بينهما وكذلك فعلت مع الصباط ولكن أخلاقه نفرت الشيخ منه وكان الصباط أشد حياء من أن يذهبوا اليه معي . وكان كامل فى بعض الاحيان مدهشاً فى صراحته ولا زلت أذكر قوله لي ذات يوم اذ كان يتحدث عن الاعمال الخفية التى اشتهر بها الشرقيون . انه مخطئ من يظن ان الشرقيين يفوقوننا فى ذلك . قال ان فى استطاعة أي انجليزي يعرف اللعبة ان يغلبهم بأسلحتهم وهم أطفال فى الغش متى قام بيننا وبينهم النضال.

وقد كان فى الفرصة الحاضرة أشد صراحة منه في أي وقت آخر . وكان الخلاف بين الاعيان وشريف فى أشد أطواره فسألته عن رأيه فى الموقف فقال انه يعتبره خطيراً . فقد ظهر أن الوطنيين عقدوا النية على اسقاط شريف فاذا نجحوا قطع كلفن علاقته بهم . وقال لي انه غير فكره تماماً بالنسبة اليهم . فقد كان يظنهم معقولين ولكنه وجدهم خياليين وسيبذل كل جهده فى هدمهم اذا تقلدوا أزمة السلطة . فسألته كيف يفعل ذلك وكيف يقف حركة وافق عليها حديثاً وان كان قيادها خرج الآن من طوق كل انسان . كيف يفعل ذلك بغير ذلك التدخل الذى اجتهدنا جميعاً أن نحول دونه . فقال انه غير فكره فيما يختص بهذا التدخل أيضاً وانه يعتقد أنه صار الآن ضرورياً ولا مفر منه وانه لا يضن ببذل جهد فى تحقيقه . فجادلته فى ذلك وقلت ان التداخل معناه الحرب والحرب معناها الضم . فقال انه يفهم بهذا المعنى وانه شهد هذه المسألة تكررت مرة بعد أخرى في الهند . وليس فى الطاقة أن ترفع انجلترا القدم التى وضعتها في مصر ولا فائدة البتة من التحدث عن حقوق المصريين أو اخطائهم النظرية . فليس ثم محل لاعتبار مثل هذه الشؤون . وقد كرر ماقاله عن تدمير الحزب الوطني وقال انه أعلن عزمه هذا ولم يبق سراً وسيعمل للتدخل والضم اذا لزمت الحال .

هذا واني واثق من اني لم أحرف شيئاً من العناصر الرئيسية في هذا الحديث فلم تكن المسألة مسألة كلمات قليلة تبودلت على عجل ولكنها كانت مناقشة استغرقت نصف ساعة وقد بلغ من تأثرى منها ان قررت تحذير أصدقائي المصريين الذين كنت قد أكدت لهم فيما سبق حسن شعور كلفن نحوهم وقد وجب الآن أن

يتوقعوا أسوأ الشر من جانبه . وقد أجابونى بأنهم يعرفون ذلك وانهم قد وصلت اليهم أنباء كهذه عنه .

وقد فتح هذا الحديث عينى لخطر جديد . وكان قد وصل الى قبل ذلك بيومين خطابان أحدهما من معسكر المحافظين في انجلترا وكلاهما يحمل مثل هذا الانذار . فقد كتب الى جون مورلى رداً على خطاب طلبت فيه مساعدته للقضية الوطنية المصرية يقول فيه « انى أشك الآن فى أن تصيب مشروعاتك أي نجاح . فمصر لسوء حظ أهلها ميدان المنافسات الأوروبية وستحول مصلحة فرنسا دون حل مسألتها حلا يتفق مع مصلحة أهلها . ولست أجد مهربا من هذا . انها لعنة الدنيا تلك العظمة السياسية التى سوف تفسد كل شيء » .

أما الخطاب الثانى فمن بيتون وقد جاء فيه ما يأتى « ان الجمهور الصغير الذى يعنى بمسائل السياسة الخارجية فى قلق من جراء المركز الكاذب الذى سوق أنفسنا اليه في مصر وهو يخشى أن يرفع صوته ويتكلم فى المسألة . ويلوح لي أن آراءهم مع ذلك ليست واضحة . وعندى ان هذه هى أولى ثمرات سياسية مبنية على خطأ وقد أفقدتنا معونة ألمانيا والنمسا ووضعتنا تحت رحمة فرنسا التى لا يمكن أن يكون بيننا وبينها أى تحالف حقيقى فى أى يوم » وقد كتب الخطابان قبل سقوط غمبتا ويخيل لى الآن انى أسمع صدى ما فيهما من الكلمات ولا سيما كلمات مورلي عن العظمة السياسية من رجل فى استطاعته أن يفسد حلا عادلا لارضاء مصلحة فرنسا وكذلك مصلحة بريطانيا . والحق انه قد استولى على الخوف وندمت على أن صدرت منى الكلمات التى قلتها لكلفن فى هذه الفرصة . فقد قلت له « ان أحداثك لتحقق ما تزعمه من التداخل أو الضم البريطانى » وكان ندمى راجعاً الى أن هذه الكلمات حركته من ناحية شخصية فضلا عن الناحية السياسية لتنفيذ ما عمله بعد ذلك فقد صارت المسألة مسألة مباراة بيننا .

ولما وجد شريف باشا بعد يومين أى فى يوم ٢ فبراير انه لا يستطيع أن يطوى النواب الوطنيين لارادته قدم استقالته متأثراً بتهديد كلفن بالتداخل فيما اعتقد لخلفه

محمود باشا سامي البارودي الذى اختاره النواب وعين عرابي وزيراً للحرب فكانت الوزارة مزيجاً وطنياً ابتهجت به البلاد (١)

وقد جاءني الانباء فى عزلتى بالصحراء فقابلتها بشعور من مزيج الفرح والقلق ولم يخف قلق الا فى ٢٧ فبراير حين وصل الى رد المستر غلادستون على الخطاب الذى كنت أرسلته له منذ ستة أسابيع وأرسلت معه البرنامج الوطني . ولا شك فى أن التأخر في الرد راجع الي الحيرة التى ورطته فيها ارتباطات عرنفيل مع غمبتا . ولكن سقوط غمبتا اطلق الحرية لحكومتنا فأدمجت فى خطاب الملكة عند افتتاح البرلمان فقرة تتضمن العطف علي الامانى الوطنية المصرية . وهنا ارسل الى المستر غلادستون رده وختمه بالعبارة الآتية « انا واثق من استطاعتنا حل المسألة على وجه مرض اذا لم يقع من أحد الطرفين أو كليهما أو على الأصح من الجميع خطأ كبير . أما رأيي فى المسألة المصرية فقد أعربت عنه في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن أتقلد الوزارة بوقت قصير ولست علي بينة من أن هناك ما يستوجب تغييره الى الآن »

وكانت اشارته الى مقاله هذا الذى عنوانه « الاعتداء على مصر » على جانب كبير من الاهمية لان المقالة كانت حكماً صارماً على سياسة التدخل والضم التي أعلنها

---

(١) كان فى الوزارة نقطة ضعف أو نقطتان أهمها ما يختص باختيار وزير الخارجية . ولم يكن محمود سامي أو عرابي أو غيرهما من الضباط المصريين يعرف لغة أجنبية . ولما كانت معرفة الفرنسية ضرورية للتفاهم مع القناصل فقد اختاروا رجلا يعرفها ولكنه ليس من حزبهم ولا يرتأي مثل آرائهم . وكان هذا الرجل مصطفى باشا فهمي من طبقة الحكام وأحد أتباع شريف وأركان حرب اسمعيل فى سنة ١٨٧٨ والذى اشترك فى مأساة اسمعيل باشا المفتش . وكان فزعه من تلك الحادثة هو سبب تحوله الي المبادىء الدستورية . ولكنه كان مثل شريف يحتقر زملاءه الفلاحين وقد أصابهم بضرر بليغ بعد ذلك بشهرين اذ كان يصور قصيتهم فى مراسلاته تصويراً سيئاً . ولم يستطيعوا أن يدركوا هذه الحقيقة لجهلهم الفرنسية الا بعد فوات الاوان .

الى كلفن فلما حصلت على هــذا البرهان الدامغ على حسن نية غلادستون عدت بسرور الى القاهرة واستطعت ان أخــبر عرابي انى لم أؤكد له عطى عبثاً . وقد وجدته فى وزارة الحرب يحيط به أصدقاؤه وهو البطريرك القبطي وبعض المشارقة والاوروبيين الذين قدموا لتحيــة الشمس المشرقة . وكان عرابى يتحرك بمظاهر السيادة والنبل فى هذا المحيط وشــد ما كانت تخيل عليه تلك المظاهر . ولم يكن الآن مجرد قائد فرقة بل كان رجلا اكسبته المسئوليــة الجديدة التى ألقيت على عاتقه كثيراً من الرصانة . وكان لا يزال مع ذلك فلاحا ووطنياً وان اكتسى مظاهر الرجل السياسى . وقد انفرد بى قابلتــه على خطاب غلادستون وابتهجنا به معاً كبشارة سعيدة .

على اننا لم ننتظر طويلا أولى ثمرات عداوة كلفن . ولــت أدرى مصــدر الكذبة بالضبط ولــكني ارجح أن يكون الخديوى هو الذى حمله غــيرته الســيئة من سلطة الوزراء على اذاعتها . فقد أرسلت شركة روتر تلغرافا قالت فيه ان استقالة شريف باشا حدثت تحت التهديد العسكرى . ثم قصت التيمس قصة طويلة مفادها ان سلطاناً باشا رئيس المجلس لم يدعن الا تحت تأثير التهــديد الشخصى وان عرابي استل سيفه امامه وهدد بتيتيم أطفاله وقد كانت هذه قصة طائشة فان سلطاناً باشا لم يكن له أبناء فلم يسع كل من عرف هــذه الحقيقة فى مصر الا ان يضحك من هذه القصــة ولا سيما أولئك الذين عرفوا متانة العلاقة بين عرابى وسلطان باشا ولكن هذه القصــة كانت كافية مع ذلك ليتخذ منها كلفن ســلاحا « لتدمير الوطنيين » فمرت بسهولة من رقابة الوكالة البريطانيــة وذكرها ماليت في بلاغاته اليوميــة هي وحكاية أخرى مفادها ان الخديو قبل اســتقالة شريف تحت تأثير تهديد كهذا .

ومهما يكن من سخافة القصــة فقد استاء منها سلطان باشا وطلب مني بعد ان كان النواب قد عرفوا اصدقائى لم ان اكذبها تكذيباً باتاً لدى ماليت . وقد ذهبت الى منزل سلطان باشا فوجدت فيه طائفة كبيرة من النواب وكثيرين من ذوى الحيثيات والمكانة فى مصر وهم الشيخ العباسي وعبد الســلام باشا المويلحي

واحمد بك السيوفى وهمام افندى حمادى وشديد بطرس احد كبار النواب الاقباط وغيرهم .

وقد أنكر هؤلاء جميعاً مع سلطان باشا أنهم عملوا تحت تأثير أى تهديد وتكلم سلطان باشا بلهجة شديدة مستنكراً القصة التى اخترعت عنه وقال « ان احمد عرابي انما هو بمثابة ابن لى وهو يعرف حقى وواجبه فكانه في وزارة الحرب ومكاني فى البرلمان . وهو يتنصح لرأيي وليس يعتدى على حقوقي . أما من حيث استلامه السيف أمامي فهو لا يفعل ذلك الا اذا رأي أعداء يهاجموني وهذه حكايات لا يصدقها رجل يعرفنا نحن الاثنين وهى حكايات كاذبة لا أساس لها من الصحة . ولك أن تثق بأن أصغر نائب هنا يمثل الناس يحسن الحكم على ما يحتاجه أولئك الناس أفضل من أعظم جندى . ونحن نحترم أحمد عرابي لاننا نعرف انه صادق الوطنية عظيم المواهب السياسية وليس لانه جندى » وقد نقلت كلمات سلطان باشا هذه عن مذكرة لى أثبتها فيها يومئذ . وقد انحي الشيخ على ماليت لنشره مختلف الاباطيل وطلب مني أن أنقل اليه الحقائق وأن أبلغها لغلادستون وأنشرها في الصحف وقد أرسلت الحكاية بالتفصيل الي التيمس ولكنها لسبب لا أعرفه لم تنشرها وأرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه للمستر غلادستون ثم أرسلت خطاباً مستفيضاً ضمنته رأيي فى الموقف كله .

وقد ذهبت في الحال من منزل سلطان باشا الى ماليت وجادلته فى المسألة بحدة . ولكنه أصر على أن حكايته هي الحقيقة وانه استقاها من سلطان باشا بالذات فلما علم أني قادم من منزل سلطان عاد فقال انه استقاها « من ثقة » فلما شددت عليه النكير وسألته عن هذا « الثقة » حنق وقال انى لا حق لي فى استجوابه . وكان ذلك آخر حديث لى معه فى السياسة . وقد فهمت من مسلك ماليت هذا انه مثل كلفن انضم الى معسكر العدو وانه لم يبق محل للركون اليه . وقد ظهر لي خطر الموقف ملموساً لان الصحف ووزارة الخارجية كانتا بين أيديهم وقد شعرت بضعف مركزى في مناضلتها على الرغم من اصغاء رئيس الوزارة لى وعدم ضن التيمس بنشر آرائى . لذلك قررت أن لا أؤخر عودتي الى انجلترا حيث أستطيع

أن أخدم المصريين أكثر مما أستطيع ذلك فى القاهرة وذلك بالخطابة وبالتكلم مباشرة مع غلادستون . وقد تحدثت مع كار الوابل وأصدقائى الأزهريين قبل سفري واطلعتهم على مشروعاتي فوافقوا عليها واتفقت مع السير وليام جريجورى على أن يتولى فى غيبتي الدفاع عن القضية المصرية التى كان متحمساً لها مثلى فى التيمس وبالخطابات يرسلها الى أصدقائه فى انجلترا . وكنت أحسب أني سأعود الى مصر فى ظرف بضعة أسابيع وأن أشترك في التطورات التي قد تقع.

وزرت عرابي آخر مرة يوم ٢٧ فبراير وهو اليوم الذي سافرت فيه الى انجلترا. وكان قد مضى علي أكثر من ثلاثة أشهر فى مصر وقد بدت لي كأنها عمر بما أثارته فى من بواعث الاهتمام . وقد نظرت الى مصر كأنها وطن لى ثان واعتزمت على أن أقف الى جانب المصريين كأنهم هم مواطني . وقد شعرت بالبعد عن مواطنى فى اليوم ما عدا السير جريجورى الذى كانت تتألف منه الحالية البريطانية فى مصر

وقد انقاد الجميع لآراء كلفن كما تنقاد الغنم وصاروا جميعاً يقولون بالتدخل . ولم يكن التدخل الذي يتكلمون عنه تدخلا فرنسياً بل تدخلا انجليزيا وقد تحول فصار الآن واجباً بعد أن كان محض اعتداء كما كان مفهوما أنه سيكون من جانب فرنسا . ثم كان التدخل بغيضاً وكان اعتداء أمحضاً لما هدد به غمبتا ولكنه صار عادلا ومرغوبا فيه بل صار واجباً وطنياً لما نادي به غرنفيل وكذلك حدث مع الحالية الفرنسية فى مصر فقد صارت فى جانب المسالمة لما تغير رئيس الوزارة الفرنسية وخلفه المسيو فرسينيه وعكس سياسة سلفه . ولم يشذ عن هذه القاعدة من الجالية كلها الا المسيو بلنجير وغيره من الفرنسيين ذوى الوظائف الرسمية الذين خافوا الضغط في العهد الجديد.

وقد جد كلفن وبلنجير فى بث الرعب بين أصحاب الوظائف وكان من دواعي الدهش أن غير الشاعر لورد هاوتون موقف العطف الذى كان قد اتخذه حيال القضية الوطنية حين أخبره زوج ابنته فتزجرالد أن عيشه اليومى أصبح مهددا. وكان مفهوما ان البرنامج الوطنى يقضي بالاقتصاد في المرتبات غير الضرورية وعدم السماح بأن يشغل رجل واحد وظيفتين ويتناول مرتبين . ولم يعز كلفن هذه الخطة

لسمها الحقيق وهو الاقتصاد المشروع ولكنه عزاه الى « التعصب » وهذا لفظ يلائم الاعراض الجديدة . وقد بدأوا يكثرون من استخدامه فى وصف الحركة الوطنية . أما الذى استندوا فى الحكم عليه فقد كان ما سماه جماعة الموظفين البريطانيين « قرار مجلس النواب المصرى الفظيع » اذا هو تمكن من السيطرة على الميزانية على قطع الالاف الجنيه التى كانت تعطى لشركة روتر . وكان يخيل لهم انه اذا قطعت هذه الاعانة استحال عليهم أن يعرفوا تفصيلات ما يجرى فى سباق القوارب بين جامعتى كمبردج واكسفورد !! أو تفصيلات الحصول على جائزة سباق دربى ... وكانوا كذلك يقولون أن المجلس سوف لا يبقى التسعة الآلاف التى تعطى للاوبرا وشد ما كان فرجر الد بدى، ويعيد فى هذه القصة ويؤكد انهـا نتيجة التعصب الفظيع . وكانت هذه الترهات وأمثالها من التافهات قد اعتبرت جرائم هائلة ضد المجلس وضد الوزارة التى كان يقال انها متفقة مع المجلس فى وجهة النظر . وقد تعودت أن أسمع قصة هذه الشكايات من جريجورى الذى كان الصق بالجالية الانجليزية الآن مني . وقد بدا لى أن أظهر ثقتى فى نجاح القضية الوطنية — بعد أن أخذ أثر التهديد بالتداخل يظهر فى انخفاض أسعار أسهم الدين المصرى والأراضي المصرية — فاشتريت جنينة الشيخ عبيد وهي أربعون فدانا بين المرج والمطرية ونويت أن أقيم فيها في المستقبل

وقد يعنى القراء المصريون أن يعرفوا سعر أراضي تلك المنطقة فى ذلك الحين. ولم يكن قد بنى ولا منزل واحد كما أسلفت فى شقة الصحراء بين العباسية وكفر الجاموس وكانت الحكومة راغبة فى بيع الصحراء لكل من يقبل أن يدفع في الفدان بضعة قروش . وقد فكرت ذات يوم أن أنشىء لنفسي مقراً فى المكان الذى ضربت فيه الخيام وتحريت من صديق روجرز بك الذى كان فى مصلحة الأراضى بوزارة المالية عن الأسعار وقدمت طلباً لمشترى مائة فدان فى الزيتون على أن أدفع في الفدان خمسة عشر قرشاً . وهذه الاراضى يساوى الفدان منها الآن ، في سنة ١٩٠٤ مائتى جنيه . ولكن حدث انى حين كنت أساوم فيها علمت أن جنينة الشيخ عبيد معروضة للبيع فاشتريتها بالمزاد من لجنة الدومين بألف وخمسمائة جنيه . وقد كانت

حينئذ أحسن حديقة للفاكهة فى مصر يحيط بها سور وتروى من ماء بئر وكان فيها شجرة من شجر الفاكهة في أحسن حال .

ولهذه الحديقة تاريخ لا بأس بايراده . فهي قطعة أرض حصبة على حافة الصحراء وكان يملكها فى أوائل القرن التاسع عشر أمام جيش ابراهيم باشا الذي غزا به بلاد العرب . ولكن الامام وقع فى أزمة فاشتراها منه ابراهيم باشا وسور منها ثلاثة وثلاثين فدانا واحتفر السواقي ونظمها كما هي الآن . وقد حدث هذا كله من الثلاثين سنة الاولى من القرن الماضي . وقد جلب بعض الشجر المغروس فيها من الطائف فى الحجاز وبعضه من سوريا . وكان ابراهيم باشا قد عني بأن يجعلها أحسن حديقة من نوعها وكان اراد بيع ما كنها في عصره وعصر ابن أخته مصطفى الذى ورث الحديقة بلغ ٠٠٠ جنيه. أما العمل فيها فكان سخرة على الفلاحين المجاورين وكان رمانها من كبر الحجم بحيث شاعت بين السائبين قصة فحواها ان الجمل لايحمل اكثر من ثلاثين رمانة من رمانها وانه كانت ترسل كل عام هدية من هذا الرمان للسلطان . والذى أعرفه هو أنه فى زمن توفيق حفيد ابراهيم وفى الوقت الذى كان توفيق فيه يعيش فى عزلة أثناء حياة أبيه اسماعيل بقصر القبة كان سيدات الحرم يذهبن الى هذه الحديقة يوماً فى الاسبوع للرياضة فى فصل الربيع. فلما خلع اسمعيل فى سنة ١٨٧٩ وقعت هذه الحديقة فى أيدى المصفين وكانت من المناطق الصغيرة التى استقر رأيهم على بيعها وهذا هو الطريق الذى وصلت منه الى السوق . وكنا في العام السابق قد ضربنا خياماً خارج أسوارها ونحن فى الطريق الى سوريا وقد شاقنا ما فيها من جمال ولا سيما شجر المشمش الذى كان يومئذ فى ابان ازهاره لذلك ما أسرع ماأقبلت عليها ونبذت كل مشروعات الشراء الاخرى حين علمت أن فى الطاقة الحصول عليها وهأنا أكتب الآن في ظل احدى مجالسها الظليلة .

والآن أعود لزيارة الوداع التى زرتها لعرابي .ففي هذه الزيارة تناقشنا فى كل الموضوعات التي كانت محل الكلام يومئذ فى الدوائر الوطنية عما فيها من مشروعات للاصلاح وأمان ومخاوف فى الداخل والخارج . وكانت بضعة الاسابيع التي قضاها

عرابي في مركزه الجديد — وزير الحربية — قد أنضجته وقوته فناقشني في كل الموضوعات برصانة واعتدال عظيمين سواء في التفكير او في اللهجة . وقد أكد لي انه هو وزملاؤه الوزراء يرغبون كثيراً في أن يصلوا الى تفاهم ودي مع الحكومة البريطانية في كل المسائل التي يختلفون فيها مع الوكالة البريطانية في القاهرة وطلب الي أن أبلغ رسالته هذه بصفة رسمية الى غلادستون وقد شكا شكوى مرة من كلفن وماليت اللذين ظهر مسلكهما العدائي من الخطة التي جريا عليها فيما يختص بتشويه سمعة الوطنيين في الصحف البريطانية . وقال لي « ان السلام لا يمكن أن يوطد في القاهرة ما بقي هذان وما بقيت علاقتنا مقصورة عليهما فانا نعرف انهما يعملان لابذائنا سراً ان لم يكن علناً . وسنقف عمل عنهما جميعاً . ولكننا لا نريد أن نختلف مع انجلترا كرامة لها . دع المستر غلادستون يرسل لنا أيا كان خلافهما لتفاهم معه ونحن نستقبله بأذرع مفتوحة » وقد أطنب كذلك في تفصيل مشروعات الاصلاح التي ينويها محمود سامي وزملاؤه الوزراء . وقد نفذ كثير من تلك الاصلاحات بعد أن عزى للموظفين البريطانيين في عهد الاحتلال وادعى لورد كرومر انه مبتكر كثير منها . فمن ذلك الغاء السخرة التي كان يفرضها الباشوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان وحماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين أنشبوا فيهم الاظفار بسبب فقدان العدل في المحاكم المختلطة . ومن هذه الاصلاحات أيضا انشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة . وهذا هو البنك الذي باهى به كثيراً المرحوم اللورد كرومر .

كذلك تناقشنا في الاصلاحات القضائية وكانت دوائر القضاء يعمها الفساد كذلك تكلمنا في نظم تربية الذكور والاناث وفي طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد ومسألة الرقيق . وقد أطال عرابي الكلام في هذه المسألة الاخيرة وكان الموظفون الاجانب في مصلحة الرقيق قد خشوا أن يتناول الاقتصاد في المرتبات مراكزهم ومن ثم كانوا يزعمون أن احياء الاسلام معناه احياء الاسترقاق . وقد أظهر لي عرابي ضعف هذا الزعم وما فيه من الافتراء وبين لي انه ليس في مصر من يود أن يكون للعبيد غير أمراء البيت الخديو والباشوات الاتراك الذين تعودوا استعباد الفلاحين

وان الاصلاحات الجديدة سوف توطد المساواة بين الناس مهما اختلفوا في الجنس واللون والدين وليس مع هذا الاصلاح محل للاسترقاق أما فيما يختص بضرورة الاستعداد لحرب محتملة — ذلك الاستعداد الذي يجب أن يشغل ذهن وزير الحرب فقد تكلم عنه بصراحة وقوة فقال ان الحكومة الوطنية لا تنزع سلاحها ولا تخفضه حتى يوطد الحكم الدستوري وتعترف أوربا به . وكان يرجو ألا يتجاوز مربوط وزارة الحرب الذي اتفق عليه مع كلفن والا يضطر الى زيادة عدد رجال الجيش عن ١٨٫٠٠٠ . أما اذا استمر التهديد بالتدخل فلا مناص له من اتباع الطريقة البروسية أي التجنيد العام لمدة قصيرة ليتمكن من انشاء احتياطي كبير . وقد سأل عن رأيي في احتمال وقوع الحرب فقلت له صراحة انى بما علمته من اتجاه كامن في احداث التداخل وبما أراه من المباح الذي ثبت في الصحف أعتبر أن الخطر حقيق واني ذاهب الى انجلترا لا لشيء الا لأضع حداً لحملة الكذب التي ثارت في الصحف . وستكون مهمتي هناك نشر الدعوة للسلام وحسن النية . وفي الوقت نفسه لم أستطع أن أنصح له الا بالثبات والحزم في موقفه وبان أفضل وسيلة لضمان السلم انما هي الاستعداد للدفاع . وقلت ان شر أعداء مصر ليس الحكومات الاوربية بل الماليين الاوربيين وان هؤلاء لا بد أن يفكروا طويلا قبل أن يعرضوا مصالحهم للخطر بالحض على اثارة حرب طويلة ذات نفقات طائلة . وقل أن يسيء أحد الى أمة مسلحة مستعدة للدفاع عن حقوقها . واذكر اني اقتبست له من شعر لورد بيرون قوله « لا تأمن الفزع على الحرية » فوافق عرابي على ذلك وكانت هذه فيما أظن آخر كلماتنا . وقد وعدته بان أعود وأنضم الى الوطنيين اذا شاء القضاء ووقع السوء

الفصل العاشر

توسطي في « دوننج ستريت »

هذه قصة الدور الذى قمت به فى مصر اثناء ذلك الشتاء.قد رويتها تفصيلا وبكل أمانة ودقة . وقد اعتمدت فى مراجعة حوادثه المهمة وضبطها على الخطابات والمذكرات الوجيزة التي وجدتها بين أوراقي ولكن أكثر اعتمادي كان على قصصها الذى وضعته خلال حرب سنة ١٨٨٢ ونشرته فى عدد ستمبر في مجلة « القرن التاسع عشر فى ذلك العام » والواقع ان قصتى الحاضرة ليست الا تفصيلا لتلك القصة .

أما قصصي الآتى فسيكون جديداً لاني اذا كنت قد كتبت قطعاً منه و نشرتها فى أوقات مختلفة فانى لم أجد بعد فراغا لاستكمال ما كتبته منه واعتمادي فى تقرير ما سوف أذكره من التواريخ والحوادث سيكون على مذكراتى اليومية التى استأنفت تدوينها منذ عدت الآن الى انجلترا وعلى الخطابات الكثيرة التى نشرت أو لم تنشر ولا تزال عندى وهي الخطابات التى تبادلتها مع كبار الساسة الذين وجدت نفسي متصلا بهم فى الأربعة الاشهر التى انقضت بين وصولى الى انجلترا وضرب الاسكندرية والتى تبودلت بينى وبين الذين كانوا يقولون بمحاكمة عرابي بعد موقعة التل الكبير . فهذه شهادات سوف أثبتها متى اقتضت الحال سواء فى القصة ذاتها أو فى ملحقها . وسيظهر أن هذه الخطابات وحدها تقص القصة بذاتها متى حبك بعضها الى بعض بالشرح الضرورى وسرد على القراء أسباب الحرب

وقد كان الموقف السياسي الذى وجدته في لندن عند وصولي اليها في ٦ مارس يناقض الموقف الذى تركته ورائي فى القاهرة منذ اسبوع مناقضة غريبة . كان قد مضي عامان على تقلد غلادستون رئاسة الوزارة وكان تحمسه للقوميات الشرقية والحرية الشرقية ذلك التحمس الذى رفعه فى انتخابات سنة ١٨٨٠ الى فرصة السلطة قد فتر في كل مكان ثم خلفته فى الدوائر الرسمية آراء الصنف الاستعمارى ولا سيما مع الوطنيين الارلنديين فلم يكن في ذلك فأل طيب لمصر . وكان مجلس الوزراء قد

انشطر شطرين فكان كبار زعماء الاحرار المسيطرين على مصالح الحكومة المهمة وهم هارتختون ونورث بروك وتشيلدرز يميلون الى استخدام وسائل العنف والشدة. وكان غلادستون وهاركورت وبرايت وحدهم تقريباً يميلون الى المسالمة أما الشعور العام في البلاد فكان قويا ضد « العصيان ومخالفة القانون » في كل مكان وكان قانون « الغاء القبض » Habeas Gorpus قد علق في ارلندا والقى القبض على بارنل ومعه عشرون من أعضاء البرلمان الوطنيين والقوا بغير محاكمة في سجن « كيلماهام » وكان سائر أعضاء البرلمان الارلنديين قد أخذوا يعطلون العمل في مجلس النواب وصارت كل « قومية » قذى في أعين حزب الاحرار . ومن ثم لم يكن جو « وستمنستر » وغيره من الوزارات صالحا لقيامي بنشر الدعوة لمصلحة القومية المصرية . وكان الاشخاص القليلون الذين يهتمون بمصر حقاً هم حملة سندات الدين وهؤلاء أقنعهم كلفن الذى كان قد احتكر الصحف على مابر بلت بان عرابي والحزب الوطني اما هم عصبة من المهيجين المتعصبين الذين لا يحجمون عن احراق بورصة لندن اذا وجدوا لذلك سبيلا والذين نجحوا فعلا في تخفيض قيم الضمان وجعلوا القطع صعباً وخطراً .

أما في وزارة الخارجية فكان الموقف فيما يختص بمصر كما يأتي : كان غرانفيل، الهرم الاصم المكسال، حين وجد نفسه قد خلص من كابوس سياسة غمبتا الجريئة قد استسلم الى غريزته التى من شأنها فعل لا شيء، وترك الشؤون تسوى نفسها بالهدوء الذى تسمح به الاحوال . فلم يكن راغباً في التدخل ولا كان يريد أن يقوم بأي عمل عدائي نحو الوطنيين ولا بأي عمل على الاطلاق في الحقيقة . ولم يكلف نفسه مشقة قراءة البلاغات ولكنه ترك الى سكرتاريه الخصوصيين مهمة العلم بما يجرى حوله وكان جل اعتماده على وكيله السير ديلك الذى كان في استطاعته أن يفحص له الانباء ويعرض له ما يختاره من الحقائق ويلائمه من الآراء . وكان ديلك الذى شاطر غمبتا مسئولية المذكرة المشتركة المؤرخة ٦ يناير قد أصبح عاملا رئيسيا في سياسة التدخل بعد اختفاء غمبتا من قيادة الشؤون الفرنسية وكان يعمل بالاتفاق مع كلفن والماليين على دفع الامور الى مأزق لا يسع رئيسه المتحرج منه الا أن يتدخل. ومع

أن ديلك نفسه لم يكن وزيراً فقد كان يعتمد في هـذا الصدد على تأييد قوى من وزارة شمبرلين وهو صديق شخصي له وحليف ليس فى طاقتـه أن يفهم الشؤون الخارجية . وكانت كلمته هو وزميله هذا هي أهما أشد عناصر الوزارة تطرفا ولذلك كان لهما نفوذ على قسم من حزب الاحرار يميل الى المجازفات الخارجية وكان سواد المتطرفين في البرلمان لا يعرف شيئاً من حقيقة الحال ولا يبالى بالمسائل المختلف عليها ما دامت على بعد شاسع .

بيد أنى وجدت في استطاعتي لفت كثير من الانظار وكان قد كثر اطلاع المطلعين على خطاباتى التى نشرتها التيمس ثم كان الناس يقبلون بشوق لسماع كلامي وقد استطعت أنا والسير جريجورى أن نلف عرابى فى بهجة البطولة التي كان خليقاً بها بصفته مدافعاً عن حقوق الفلاحين وكنت استطيع أن أحد من يسمعون لي من هذه الناحية دائماً . وكانت الاشاعات المختلفة لا تفتأ تدور حوله و كذلك الحكايات المضحكة التي تصوره كفرنسى أو أسباني فى أهاب مصرى أو كأجور من مأجورى الخديو اسماعيل أو الشيخ حليم أو السلطان أو أي شيء آخر الا الشيء الحقيق . أما أنا الذى رأى عرابي رأي العين فقد كان في استطاعتى أن أشرح الحقيقة على انه لم يكن أحد يهتم بالمسألة اهتماما جديا ولكن كانت مسألة فضول وكنت أجد من الناس أصدقاء .

وكانت أول زياراتي بعد وصولي الي لندن لديوان رئيس الوزارة ومع أنى لم أقابل المستر غلادستون شخصياً فقد قابلت صديق هاملتون سكرتيره الخاص وتحدثت معه حديثاً طويلا مرضيا . وكنت بعد اختـلاف مع ماليت فى شك من الطريقة التى يستقبلونني بها ولكنه أسرع فاخبرنى أن تداخلي فى سياسة ماليت لم يغضب رئيسه ولكن المستر غلادستون بعكس ذلك ممنون من خطاباتي ومن الخطة التى سلكتها فى مصر . وكانت المسألة الارلندية تكشف كل ما عداها فى ذهن غلادستون ولكني مع ذلك أستطيع أن اطمئن نفسي من ناحية المخاطر التي يلوح لى أنها توشك أن تحل بالقاهرة فهذه المخاطر لا يمكن أن تفضي الى متاعب حديثة ومهما كانت آراء وزارة الخارجية فسيحول المستر غلادستون دون تنفيذها . وان

التداخل المسلح « مستحيل » ما بقى غلادستون فى رئاسة الوزارة . ولا ريب فى أن الفكرة فى ذاتها مضحكة . وسنستأنف الكلام فى ذلك بعد كما أنى سوف أقابل المستر غلادستون . وفى هذه الاثناء سيعى هاملتون بان يقف لورد غرنفيل على نبأ حضورى . وأخيراً تركت هاملتون وثقتى كبيرة .

فى صباح اليوم نفسه زرت ابن عمى الجرنون بورك وكان يومئذ معروفا من أصدقائه باسم « باتون » (١) وكان مقدورا أن يكون دوره فى المسألة المصرية فى ذلك العام دورا مهما ومن ثم كثر ما تكرر اسمه فى مذكراتى وكان موقفه فى الحياة الاجتماعية موقف شاب على الطراز الاخير وثيق الاتصال بالعالم الرسمى فانه كان الابن الاصغر للورد مايو الذى حكم الهند وكان ابن أخى الثالث روبرت بورك (الذي صار بعد ذلك لورد كونيمارا) الذى كان وكيلا لوزارة الخارجية وكان اليوم أي فى سنة ١٨٨٢ زعيم معارضة المحافظين فى مجلس العموم فى مسائل السياسة الخارجية

وكان باتون أيضاً له مركز فى تحرير التيمس لا كمحرر ولكن كوسيط بين شبرى رئيس التحرير ورجال السياسة . واذ كان ابن نبيل من ذوى الرتب كان يستطيع ان يدخل ابهاء المجلسين . وكان يعرف كل انسان هناك وكل ما يجرى من الشئون ثم كان ذا صلة متينة برجال البلاط وبأصحاب الاموال وبجميع القابضين على أزمة الشئون المهمة في الدولة . وكانت صداقتنا متينة وكان اخلص نصحائى واكبر ثقاتى في بضعة الاشهر العصيبة التالية بما كان له من حكمة دنيوية لا أستطيع أن أزعم مثلها وما كان فى ذهنه من خصب وسعة حيلة يعجب بهما . واليه يرجع ثلاثة ارباع الفضل فى ذيوع كتاباتى فى الصحف وفى المعونة التى بذلت فى البرلمان . ولما التقيت به رويت له كل ماحدث فى مصر خلال الشتاء كما أفضيت اليه بمشروعاتى التي أعددتها للمستقبل . وكان رأيه في المعارضة يختلف كل الاختلاف عن رأى هاملتون لان معرفته بآل روتشلد صيرته على بينة من الحبائل المالية التي يشدونها لتحقيق فكرة التداخل . ثم كان قليل الثقة بقدرة غلادستون على فهم المسائل السياسية

---

(١) ذو

الخارجية او التصرف فى مسألة فيها من المصالح المالية أحدثت كل هذا التأثير على أسعار بورصات اوربا . ومع ذلك كان ينصح لى بالمحافظة على المركز الذى نلته في رئاسة الوزارة وان استخدم نفوذى كأحسن ما استطيع فاذا أخفق الاعتماد على غلادستون استطعت أن أعتمد على المعارضة فى مجلس النواب وقد أكد لى حصولى عليها متى اقتضت الحال . فلم يبق لى فى تلك اللحظة إلا أن أحادث كل من أعرفهم من أعضاء المجلسين فى هذا الصدد والا ان استمر على مراسلة التيمس وقد أخذت بهذه النصيحة الحكيمة ونفذتها بلا بطء

وفي مذكراتي أحدثى ذهبت يوم ٩ مارس لزيارة جورج هوارد (والآن لورد كارليل) وعقيلته ونجحت فى حملها ولا سيما السيدة على الاهتمام لآرائى . وكانت يومئذ كما هي الآن سياسية قوية وكانت عظيمة الثقة في غلادستون وقد نصحت لى بأن أضع كل ثقتى فيه وانه لاشك فى انه سيحول دون وقوع أى أذى بالمرية . وكان . أما زوجها فكان أقل ثقة ولكنه بادر الى الموافقة على اخذى لمجلس العموم الذي كان عضواً فيه ليقدمنى بعد ظهر ذلك اليوم الي زملائه أعضاء حزب الاحرار الذين يعتقد أنهم أقدر على مساعدتي . ومن ثم ذهبنا معا وتعرفت الى دلوان برايس وغيره من الاعضاء ذوي النفوذ ولا سيما الذين كانوا منهم يعنون بمسألتى بلغاريا وأرمينيا حين عقد مؤتمر برلين . وقد وعدني كل هؤلاء بالمساعدة كما وعدني بمساعدته ذلك الرجل الفاضل تشسون الذى تحادثت طويلا معه ومع ستانلى زوج أخت هوارد في غرفة الشاى . وكان تشسون ذا قوة سياسية كبيرة على الرغم من أنه لم يكن عضواً فى البرلمان وذلك انه كان يحترف السياسة اذ كان سكرتيراً لجمعية « حماية اهل البلاد الاصلاء » وكان يثير هياجا كلما اعتدت أوربا على قوم غير أوربيين وقد دلت الحوادث علي عظم قيمة المساعدة التى قدمها لى فى أوربا من ابتداء الامر الى آخره فقد كان دائم الاتصال اليومي بجميع أعضاء البرلمان المتطرفين. وقد نصح لى هوارد بالا أضع القضية فى أيدى جماعة « المحترفين بمقاومة التدخل » وان أقوم بنشر دعوتى على أساس مستقل . وكنت فى ذلك الحين حديث عير متمرس باحوال السياسة الانجليزية .

ولقد كنت قليل الفرس الى حد ان هذه كانت أول مرة دخلت فيها الى حجر مجلس العموم مع ابي كنت في سن الحادية والاربعين . ومنذ ذلك اليوم أصبحت كثير التردد على ذلك المجلس .

وفي اليوم نفسه حادثت فيليب كري مليًا في وزارة الخارجية وتناقشنا طويلا في المسألة المصرية .وقد لحت بادئ ذي بدء انمستاء مما عمله في القاهرة — بسبب شكوى ماليت مني — ظانًا انى ألعب « لعبة كبرى علية على حساب وزارة الخارجية » ولكن مالبث أن تلاشى هذا الزعم لانى ماأسرع ماأقنعته بخطورة المسألة وباهتمامي بها بصفة جدية وبانى مصيب في آرائي فأشار علي بمقابلة ديلك وغرانفيل في اليوم التالي .

ثم انى أجدى أيضا في اليوم نفسه حادثت اللورد ملتون أحد لوردات ايرلندا مما يظهر الصلة القريبة بين مصر وايرلندا في الافكار السياسية وقتئذ . وهاك ما كتبته عن محادثته « ان قصته — أي قصة ملتون - عن شؤون ايرلندا لتشبه كل الشبه القصة التي يرويها الموظفون الاجانب عن مصر . فهو يرى أن المصاعب الموجودة في ايرلندا ليست الا من عمل الشاغبين وان الفلاحين الايرلنديين لا يميلون بتاتًا الى الحزب الوطني وان التدخل بقوة السلاح كفيل بأن يعيد الامور الى مجاريها الطبيعية » .

وفي يوم ١٠ قابلت ديلك في وزارة الخارجية بعد ان زرته في داره في سلون ستريت .وقد كان في حالة غضب . فبدلا من أن يصغي لاقوالي شرع يشكو الي من الوزارة المصرية الجديدة قائلا ان وزارة عرابي منذ تربعها في دست الحكم أنفقت على الجيش ما ينيف على نصف « مليون جنيه » وانها أتت أعمالا صبيانية أخرى . وكنت أعلم أن تلك الحكاية لا يمكن أن تكون صحيحة لان الوطنيين لم يمر عليهم في كرسي الحكم سوى ستة أسابيع فقط . فذهبت الى ساندرسون وكان وقتئذ السكرتير الخاص للورد غرنفيل (وهو الآن سير توماس ساندرسون رئيس وزارة الخارجية) وطلبت اليه أن يحقق حرافة النصف مليون الجنيه فوجدنا بعد مراجعة الرسالة الخاصة بها أن المبلغ المذكور لم ينفق كما أخبرني ديلك في « الستة الاسابيع »

ماضيه بل في «سنة» الماضية على ان هذا التشويه الغريب من جهة ديلك — الذى قرر ما قرره كما لو كان حقيقة لا تقبل الجدل — ربما كان مجرد غلطة شنيعة ولكن الصحف رددت تلك الخرافة في ذلك اليوم مع أن عدداً غير قليل من تلك الصحف كان يستمد الوحي من ديلك مباشرة . وهو مثل للطريقة التي كان ينشر بها الاخبار الضارة بسمعة الوطنيين المصريين بقطع النظر عن سخافة هذه الاخبار .

وكان مورلي هو البوق الرئيسي لديلك . كما ان البال مال غازيت (وهي الجريدة الوحيدة التي كان غلادستون يقرأها تماماً) أصبحت طول الربيع وأوائل صيف ١٨٨٢ بسبب تأثير ديلك وكأنها معرض الاكاذيب الفاضحة والقائلة بوجوب التدخل . فقد حمل مورلي نفسه — على ما أعتقد — على تصديق ما ألم اليه وراح يعمل بسلامة نيته ولكن الشيء الاكيد بالرغم من ذلك كله هو ان مورلي يقع على رأسه أكثر من أي شخص آخر مسؤولية حمل غلادستون على الاتجاه الى القوة في مصر وهي أكبر خطيئة في تاريخ حياة غلادستون العمومية . ولم يكن موقف مورلي وقتئذ موقفاً مستقلا كما انه لم يكن هو صاحب الآراء المنشورة المعزوة اليه ولم يكن قد دخل البرلمان وقتئذ بل كان ينتظر فراغ كرسي . فكل آماله في الحياة السياسية كانت قائمة على مساعدة أصدقائه السياسيين مثل ديلك وتشمبرلن .

فلم يكن له والحالة هكذا مناص — اذا لم يشأ العدول عن مطامعه الشخصية — في أعلى الخطة التي رسمها له ديلك في الشؤون المصرية . ولكم كان أسفه شديداً فيما بعد على ما فعل حتى انه على ما أظن — ما كان يحب أن يتذكر الدور الذى لعبه وقتئذ . ولكن لا ريب في أن مسئوليته عن اشعال نار الحرب كانت عظيمة . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن مورلي في كتابه المسمى «حياة غلادستون» قد أخفى حقيقة الرواية المصرية واكتفى بتلخيصها تلخيصاً مشوهاً في بضع صفحات . ولكن التاريخ تاريخ ولا مفر من إثبات سلطته .

بعد تسوية هذه المسألة مع سابدرسن أخذني كري لرؤية لورد غرانفيل ولم أكن عرفته قبل الآن وهناك حدثت مناقشة أخرى .

وكان لورد غرانفيل على جانب عظيم من التهذيب وقد أخذ يسأل عن خيلي

العربية وبطريبي من أحلها ثم تحول الى موصوع المسألة المصرية وأخبرني « ان لديه معلومات موثوق بها تدل على أن عرابى انما هو صنيعة اسماعيل وأن المسألة كلها مسألة دسيسة يراد بها رجع اسماعيل » وكانت هذه أيضا حكاية من الحكايات غير المعقولة التى دست لوزارة الخارجية وللجمهور لحمل الرأي العام على سوء الظن بالمسألة المصرية . وقد نمت الى وزارة الخارجية فيما أعلم من تلغراف أو خطاب خصوصي أرسله اليها السير أوغسطس باجيت سفيرنا فى رومه الذى قال له اسماعيل مباهيا على ما يظهر « ان عرابى فى جيبه ».

وليس ضروريا ان نبحث هنا الاسباب التى حدت اسماعيل الى ذلك فان كانت هذه لم يكن لها أى قيمة ولا شك فى أن مسلك عرابى من أوله الى آخره يدل على عكس ذلك تماما . بل أن مسلك عرابى فى ذلك الحين كان أدل منه في أى وقت آخر على عدائه للباشوات الجراكسة ، انصار اسماعيـل الذين كانوا يدسون الدسائس لتوفيق . ولم يكن يخفى على كل حال ان لاسماعيل اغراضًا فى اظهار الحركة المصرية كأنما حدثت من احله . وكان دائم التشبث بفكرة مآلها ان الدول الاوروبيـة سوف تقدم ذات يوم على خلعه وان ترجع اليه باعتباره الحاكم الوحيد القادر على حكم بلاد اضطربت امورها على أثر غيابه . على اني لم اكن اعرف في ذلك الحين مصدر الحـكاية كما انه لم يكن فى استطاعتى نقضها باكثر من التأكيد بان الزعيم المصري أشد الناس معارضة لاسماعيل (١) فعلت ذلك فابلغت الرسالة التي كلفني عرابى ابلاغها الى غلادستون فلم يزد في الجواب على أن قال « هل ينزلون عن حق المجلس فى الاقتراع علي الميزانية ؟ » فقلت له انى أخشي ان لا يكون ثمت أمل فى

---

(١) وجدت بين مذكراتي بعد أعداد هذا الطبع مذكرة تاريخها سنة ١٨٨٤ تؤيد وتصحح عبارة باجيت وهذا نصها . فينا فى ٢٠ سبتمبر . تغديت في السفارة . وكان السير باجيت أنيسا . وتكلم عن مصر ولايزال يذكر مترجم نوبار . وقد سألني رأيى فى عرابي فسألته هل حقاً أخبره اسماعيل بان عرابي أخبره فقال انه لم يخاطب اسماعيل بشأن عرابي قط ولكنه يذكر ان اسماعيل قال (لقد كلفني هذا الصبي مالا كثيراً)

ذلك نظراً لاتفاق جميع النواب عليه . فقال « ادن اعتبر انه لا أمل في مسألتهم ولابد أن تنتهي بحملهم على الاذعان بالقوة » فقلت له اني لا أستطيع التصديق بأن الحكومة البريطانية تدخل في هذا الشأن حقاً وأن تصادر الحرية على مثل هذا الاساس . ولكنه احتفظ برأيه وتركته غير راض مصمماً على الا اضيع وقتاً آخر فى اقناع وزارة الخارجية وانما يجب على ان ابذل كل جهدى فى الضغط عليها من الخارج وانه « لابد لى من مقابلة غلادستون » .

وقابلت فى اليوم نفسه موزلى فى مكتب تحريره محاولا أن أشل مفعول الاقتراحات التى كانت تنهال عليه من كل جانب ولكن عبثا حاولت . فقد كان شديد الثقة بكلفن الذي كان مراسله المبين فى مصر . وكان تحت نفوذ آخر يعمل تحت تأثيره وقد شق علي ان أقاوم ذلك النفوذ .

وفى الحادى عشر تغديت مع « باتون » الذى دعا جماعة لمقابلتي خصيصاً . وكان هؤلاء السير فرنسيس نولي سكرتير ولى العهد ورد جنالك بريت (والآن لورد ايشر) الذى كان يومئذ سكرتير لورد هارنجتون وكليفورد احد كبار كتاب التيمس والجنرال السير جون آبد الذي كان من اصدقاء ولسلي وحدم تحت امرته ذلك العام فى الحملة المصرية وقد بقى مع ذلك عاطفاً على المصريين في كل ما حدث خدمة للانسانية كما سيتضح بعد حادث التل الكبير . وقد قضينا ليلة سارة وأظهر الكل اهتماماً بآرائي المصرية وبقيت أتحدث مع بعضهم الى الساعة الاولى بعد منتصف الليل ولقد أعرف ان نولى تأثر بأقوالى اما بريت الذي كان متصلا بآل روتشيلد وغيرهم من الذين كانوا يلحون بوجوب التداخل فقد ظهر بعد ذلك انه من أعدى أعداء القضية المصرية . وكان يعمل يومئذ لموزلى فى « البال مال غازيت » وأوحي الي انه لم يكن كتب بنفسه بعض المقالات التى أثرت كثيرا على غلادستون .

وفي ١٣ قابلت غوشن . وكان قد أرسلني اليه هاملتون باقتراح غلادستون باعتباره رجلا تثق به الحكومة وقد خضت معه فى تفصيلات القضية المصرية أكثر مما فعلت مع ديلك وغرنفيل وقد أظهر كثيراً من العطف على آرائى . اظهر أكثر

مما شعر في الحقيقة . باقناعي بانه لا ينظر الى المسألة من وجهة مالية . ولا شك في أن ذلك يرجع الي أنه كان في الماضي نائباً عن مدايني اسماعيل . وقد وجدته لطيف المسلك ذا صوت جذاب وبقيت معه ساعتين وقال لي « لك أن تطمئن الى شيء واحد علي الاقل وهو ان الحكومة لا تعمل الا وفقا للمبادىء السياسية العامة ولا تعمل وفقاً لمصالح اصحاب الديون وكان هذا القول مرضياً وخيل الى انه متفق كل الاتفاق مع حالة الموقف الراهن فقد كانت الصحف نشرت في ذلك الصباح انباء استقالة بلنجير من منصبه كرقيب مالي فرنسي في مصر . واستدل الناس في لندن من هذا الحادث على أن هناك خلافا بين الحكومة الفرنسية وحكومة القاهرة الوطنية ولكني عرفت ان الحقيقة لم تكن كذلك فقد كان بلنجير أسبق من كلفن نفسه في العمل للتدخل ففهمت من استقالته ان حكومته قد تخلت عنه وهذا هو المعنى الصحيح . ولو كان كلفن قد استقال في ذلك الحين ، ولم يكن ذلك بعيداً فيما اعتقدت فقد كان في الطاقة تجنب كل المتاعب التي حدثت فيما بعد . ولكن كلفن كان مؤيداً من ديلك الى حد جعل ذلك عسيراً .

وقد تركت غوشن وذهبت لاتغدى مع باتون فوجدته مع لورد ده لاوار وهو نبيل من المحافظين ، وأحد جيراني في سيسلس . وكان قد ذهب في العام السابق الى تونس وتشرب شيء من العطف على العرب اثناء الغزوة الفرنسية . وقد عملنا معاً بعد ذلك كثيراً في المسألة المصرية وبرهن على عظيم قيمة مساعدته حين تحرجت الامور وانتهت الى أزمة يوليو . وكنت في ذلك الحين أحض على تأليف لجنة تحقيق تذهب الى مصر وكان يظهر انه لا يبعد أن يرأس هو هذه اللجنة.

وقابلت هاملتون بعد ظهر ذلك اليوم في « دوننج استريت » وكان قد ظهرت في ذلك الصباح مقالة شديدة في «البال مال غازيت» عنوانها ايقاد النار في مصر ولم يكن أكثر ولا أقل من تكرار الحكايات السيئة مضافا اليها حكايات أخرى ترمي الى غرس سوء الظن في الوطنيين.

وقد أشار هاملتون الى هذه الحكايات باعتبارها أدلة مقنعة لظهورها في «البال مال» واني لابد أن أكون مخطئاً والا لما كان مورلي يسمح بسلوك هذا المسلك

المناقض للحرية وهو لا يقل عي انتصاراً لها وقد شرحت له موقف كافن بالنسبة لمورلى وإذا كن شرحته له من قبل وطلبت منه بالحاح أن أجتمع برئيسه . وكنت قد أمسكت الى ذلك الحين عن شكوى الاصدقاء الذين كنت أعمل معهم فى المرحلات الاولى رعياً لصداقتهم ولكن وجدت الآن سكوتى لا ينتج الا الضرر وصممت على اخبار غلادستون بكل ما أعرفه عنهم . وكان مورلي قد أنذرني في اليوم السابق لهذه المقابلة باعتبار اني لا يمكنني أن أوافق عليها وطلب مني أن أرد عليها . ولكني كنت أكثر غضباً من أن أرد الا بمذكرة قصيرة اعقبتها في اليوم التالي بزيارة الى شارع نورثمبرلاند حيث وبخته على نشر مثل هذا المراء المؤذى ولكن السوء كان متوقعا فقد سبق النشر طلب قدمه السير جورج كامبل واستخدم لهذه الحكايات الشائنة وقد شهدت مناقشة هذا الطلب الذى تكلم فيها غوشن باسم الحكومة بلهجة المسالمة وان كان لم يذكر الوطنية المصرية بخير وربما كان حديثى معه فى الصباح قد أنقذنا من شر ذلك وعلى كل حال لم يوضع قرار فى مصلحة الحرية .

وقد جاء فى مذكراتي اليومية فى ١٤ مارس حديث جرى بينى وبين سير هنرى رولنسون السفير البريطانى فى فارس وهو من مؤرخى الشرق المشهورين وآراؤه من طراز الآراء التى تسمع عادة من الانجليز المقيمين فى الهند . فقد قال لى ان المصريين كانوا فى الماضي عبيداً وسيبقون كذلك فى المستقبل وستدخل بلادهم ضمن أملاك انجلترا أو روسيا مع سائر بلاد آسيا . وقال ان معرفته بالاسيويين تجعله يدرك انهم لا يستمرئون الحكم الذاتى .

وقد تحادثت أيضا مع والتر صاحب جريدة التيمس الذى اقترح على باتون أن أقابله . فأخذ يتكلم فى أشياء لا قيمة لها ثم وعدنى فى النهاية بان يرسل مكاتباً خاصاً للقاهرة لكي يبعث اليه بالاخبار (ولكنه لم يفعل ذلك لان ما كدونالد مدير الادارة عارض محتجاً بعدم ضرورة صرف هذه المصاريف)

وفي الخامس عشر من هذا الشهر ذهبت الى سير جارنيت ولسلي وتحادثت معه حديثاً جديراً بان أذكره هنا . فبعد ما تكلما عن قبرص انتقلنا الى موضوع مصر وامكان مقاومة الوطنيين في حالة التدخل وسألني رأيي عن ذلك . فقلت له انهم

بالطبع سيقاتلون والقتال لن يقتصر على الجنود لان الامة ستنضم اليهم وربما استعملوا طرقا أخرى بعد ذلك وقد أبى أن يصدقني في قولي بان الجنود ستقاتل . ولكن ثبت على رأيي وقلت له انه اذا كان بان يذهب لغزو مصر فعليه أن يأخذ معه على أقل تقدير ستين ألف جندى » .

وقد بالغت بلا شك في هذا التقدير لاني كنت أرمي الى جعل هذه المهمة شاقة في نظرهم حتى لا تقدم عليها الحكومة الا بعد تردد ومراجعة « وقد تطوع لى بلصارى بانه قد استشير مرتين أو ثلاثا مدة الشتاء بصدد الغارة على مصر والاحتلال وقد أكد لي أن ليس هنا من يود التدخل وان احتلال مصر سيكون مكروها عند الجنود وأنه هو نفسه يكون آسفا جداً اذا اضطر الى الذهاب الى مصر ومن رأيه أنه يجب على المصريين أن يسرحوا جيشهم ويثقوا بحماية أوروبا . ولكني أخبرته بأنه ليس من المستطاع لي أن أنصح لهم بذلك وان الامة التى تنوى القتال بنية صادقة قبل أن يهاجمها عدو . فقال لى انه ليس هناك شئ يدعى الشرف في الحروب واذا كانت المسألة مسألة حرب فلا يجب عليهم أن يثقوا بنا ولا بأي دولة أخرى »

ثم أخذ في الكلام عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة فذكر بونابرت وطريقه على الشط الايسر بين فرع النيل وطريق الصحراء بين قناة السويس والدلتا حتى شعر بأنه اذا ذهبت الجيوش ستتخذ هذه الطريق ولكني احترست من أن أعطيه أي معلومات تفيده أقل فائدة واكتفيت بالضحك عندما سألني عما اذا كنت توافقه لأدله على الطريق عند ما ترسل الحملة وكان الأثر الذى تركه ولسلي في ذهني هو : « انه جندى لبق من الارلنديين الذين يعرفون من لهجة كلامهم . ولكنى لم أشعر انه من العبقريين الذين كان يصف نابوليون أحدهم بقوله « قائد عشرة آلاف »

ومن الجدير بالذكر أنى عند ما كتبت للشيخ محمد عبده بواسطة سكرتيرى صابونجي أشرت الى الخطر الذى يمكن أن يقع فيه الوطنيون من غارته من جهة الاسماعيلية وأظن أن هذه الاشارة هي التى جعلت عرابي يشرع في تحصين التل الكبير .

وفي اليوم نفسه رأيت ليال على وشك أن يسافر الى الهند لانه كان قد عين حاكما لاحدى الولايات الشمالية الغربية .

وقد وجدته أقل الموظفين الانجليز في الهند ارتياباً في الحركة الوطنية المصرية وفي المساء تمشيت مع هاملتون وجودلى وهما سكرتيرا مستر غلادستون وعرضت عليهما مسودة الخطاب الذي أرسلته للورد جرانفيل وفي هذا الخطاب أثبت بصفة رسمية تحيات عرابي ونياته الحسنة نحو الحكومة البريطانية وشكواه من كلفن وماليت التي أذكرها له مع ما ذكرته من الاسباب عند ما كنت في وزارة الخارجية .

وقد وافق السكرتيران على هذه المسودة وكانت الموافقة أكثر من جودلى وقد جعلني أتحرج لما كنت اعتذرت بها عن تدخلي في مسألة مهمة كهذه . فقد قال لي مؤكداً : « تدخلك ليس في حاجة الى الاعتذار »

لقد كان جودلى رجلا عالي الهمة وكان يمثل أحسن ما في أخلاق غلادستون من الحماسة والعطف لما هو طيب في هذا العالم والاحتقار لكل ردىء . وكان يخالف كل الموظفين الذين يخدم الانسان عادة في الوظائف العمومية الا من حيث القدرة على الاعمال الرسمية وكان طول الازمة المصرية يعطف علي ويساعدني . أما هاملتون فقد كان يعطف ايضاً ولكن عطفه كان يعزى الى صداقته لا الى حماسة الطبيعية للقضية التي كنت ادافع عنها وقد كان ختام خطابي ما قدمته من الطلب للحكومة بان ترسل بعثة للبحث والتحرى عن الحقائق الراهنة في مصر وتفحص المسائل بروح الود والصداقة للمصريين . وأهمية الخطاب تبرر اثباته هنا برمته :—

لندن في ٢٠ مارس سنة ١٨٨٢

ان ما أظهرتموه من التكرم في سماعكم ماقلته لفخامتكم عن بعض تفاصيل الحالة في مصر يشجعني على أن أقدم الاقتراحات التالية لتكون محل الاعتبار . واني اذا كنت قد فهمت ما فهم به فخامتكم فاني اعتقد ان حكومة جلالة الملك تنوى ان تتعجل في الموضوع اذ هي تميل الى قبول حل سلمي — اذا تيسر هذا هذا الحل للخلاف بين المراقبة وبين الحكومة المصرية . وانها لا تلجأ الى القوة الا

في اللحظة الاخيرة عندما تعجز عن جميع الوسائل للمحافظة على المصالح الانجليزية والتعهدات الدولية من أن يصيبها الوطنيون بسوء .

هذا وانى واقف على آراء الحزب الوطني أو على الاقل على آراء زعمائه الظاهرين فيه ويمكنني أن أقول وأؤكد انه ليس هناك شيء أحب اليهم من التفاهم مع حكومة جلالة الملكة . بل الواقع أن عرابي بك قد كلفني بان أؤكد لفخامتكم انه اذا خوطب بلهجة الصداقة فانه يستعمل كل نفوذ حزبه — وهو نفوذ خطير — لأن يخفف من مرارة الشعور الذى نشأ بين المصريين والانجليز وسائر الموظفين الاجانب وانه مستعد لأن يسير الى منتصف الطريق اذا فتحت المفاوضات للوصول الى تسوية سلمية .

وقد رجا إليّ مع ذلك أن أضع أمام فخامتكم مصاعب الحالة اذ قد أعلن المراقب العام الانجليزى عداء شخصياً نحوه كما فعل ذلك أيضاً الوكيل السياسي المفوض لجلالة الملك .

وفخامتكم تعلمون ان سير أوكلاند كولفين قد كان ذا أثر كبير في تغيير الوزارات وفيما يمكن أن يسمى « ثورة » أي تلك الحوادث التى حدثت في مصر في الستة الاشهر الماضية فنى ٩ سبتمبر كان هو نفسه الذى أوعز الى الخديو بان يقبض على عرابى ويضربه بالرصاص . وعرابي الآن هو وزير الحربية . ثم هو لم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذه الحقيقة لأنه على ما أفهم أبلغ الصحف الانجليزية هذه التفاصيل

ثم من المشهور عند المصريين انه على صلة بالصحف وانه يكتب عن الحزب الوطني خصوصا الجيش بلهجة عدائية وانه عندما استقال شريف باشا صرح دون أن يتحفظ أنه ينوى تبديد شمل الحزب الوطني وانه سيستعمل كل الوسائل المؤدية الى هذا الغرض فى امكان التداخل. ولو كانت هذه الاشياء لا يعرفها سوى عرابي لأغفلها ولم يعلق عليها أهمية كما قال لى ولكن لسوء الحظ قد صارت هذه الاشياء معروفة مشهورة بين الناس بحيث صار من المحال ان يظهر عرابي علاقة ودية بينه وبين هذا الرجل .

وقد قال عن سير ادوارد ماليت مثل هذا أيضاً بدرجة أخف . فقد كان من

سوء بخت سير ادوارد ان اتفقت زيارته للاستانة مع تفشى الاشاعة عن تدخل الاتراك الذى ذكرته الصحف الانجليزية فى الخريف الماضي . واني مقتنع بان الحكومة الفرنسية هى صاحبة المسئولية في تفشى هذه الاشاعة التى لا يمكن استئصالها الآن من أذهان سكان القاهرة وهى أن سير ماليت قد اقترح مرارا مختلفة التدخل العسكري . وانى أعرف أن هذا زعم باطل وان سير ماليت قد استنكر هذا الحل. ولكن هناك بعض حقائق تسوغ هذا الزعم . مثال ذلك انه رفض ان يعتبر طلب المصريين الدستور من الشئون الجدية الى وقت انعقاد مجلس النواب المصرى . ثم انه قد انضم الى سير أوكلاند كولفين فى انحيازه الى شريف باشا وقت النزاع بينه وبين أعضاء المجلس . وقد استاء كثيرون منه لتصريحه بانه يعتقد صحة الرواية المكذوبة التي لا أساس لها وهى ان عرابى قد أهان سلطان باشا رئيس المجلس وسبه.

ومهما يكن من قيمة هذه المزاعم فان الواقع الراهن ان سير اوكلاند كولفين وسير ادوارد ماليت قد قاطعتهما الحكومة المصرية او كادت . فمما لهذا السبب محرومان الآن من معرفة الحقائق والوقوف عليها من مصادرها وقد صار الميدان واسعاً للدساسين من الدول الاخرى الذين ليس لهم مصلحة ما فى اعتدال الوطنيين أو في تجنب انقطاع المفاوضات انقطاعا نهائيا .

فاذا كنتم فخامتكم ترون ما قلته حقاً فاني أستأذن فخامتكم فى تقديم الاقتراحات التالية :

ان الوزراء الوطنيين يشتغلون الآن فى اعداد جملة من الشكاوى عن النظام الذي وضعته فرنسا وانجلترا وصدقت عليه المراقبة . وبعض هذه الشكاوى حقيق. وهم يرغبون فى فتح باب البحث فيها بروح الاعتدال والصداقة ولكنهم اذا رأوا من المراقبة والدول عداء فمن المحقق أنهم سينظرون فيها بروح العداء أيضاً . فان المسائل المختلف عليها هى حقائق واضحة فى الاكثر فاذا روعى الحق والعدل وكان غرض حكومة جلالة الملكة ان تكسب منزلة أدبية لاشك فيها فيجب ان تفحص هذه المسائل بروح النزاهة وان يعتد ببينات المصريين كما يعتد ببينات الاوربيين واني أقرر لفخامتكم انه من المحال على ممثلى جلالة الملكة أن يحصلوا على هذه

الجهات سواء أكانوا ماليين أو سياسيين وان المصريين سينظرون اليهم بعين الاشتباه والريبة . أفليس إذن من الأفضل أن يرسل الى مصر في مدة الستة الأشهر التي ستمر قبل انعقاد البرلمان المصري مندوبون لبحث الحال الراهنة وفهم المسائل التي يشتكون منها بروح الصداقة التي لا يمكن أن تتلافى الكارثة بدونها ؟ .

ولنرجع الآن إلى المذكرات فأقول إني أجدني قد كتبت بواسطة صابونجي سكرتيري خطابا مطولا إلى عرابي أخبرته فيه بأني قد اقترحت على الحكومة تعيين مندوبين وان آمالي كبيرة ولكني قد رجوته أن يكون على حذر كما رجوت ذلك أيضاً من جرجبوري الذي كان لا يزال مقيما في القاهرة . أما الحالة في مصر في ذلك الوقت فتتلخص في أن مجلس النواب قد ألح في اثبات حقه بأن نصف الميزانية لم يكن مقيداً بشروط الدين وان له الحق في التصويت فيه . وأن الخديو قد أصدر لائحة موقعة باسمه بمنح الدستور على الطرق الاوروبية . وأن الوزراء قد عرضوا على المجلس جدولا يتضمن عدة اصلاحات عملية كانت البلاد في حاجة شديدة اليها منذ سنين وقد نفذ بعضها الآن .

فلما انتهى ذلك أجل انعقاد المجلس إلى الخريف القادم . وفي غضون هذه المدة شملت البلاد السكينة التامة ولم يكن من سبب للخلاف مع أوربا سوى مسألة التصويت عن المالية وهي مسألة لن تبلغ درجة الحدة إلا بعد ستة أشهر عند ما يتم ترتيب الميزانية الجديدة . وليس هنالك ظل من الشك في أنه لو كان كولفن قد اقتنع بضرورة انسحابه من البلاد مثل ما فعل زميله الفرنسي مسيو بلانجير ولو كان اقتراحي بشأن ارسال مندوبين قد قبل لكانت الحال في مصر قد عادت إلى الهدوء ولم يكن ثمت حاجة الى التدخل العسكري . فان الوزراء المصريين لم يكونوا يرغبون في أكثر من أن يعيشوا في سلام مع جميع العالم وأن يتفاهموا مع حكومتي المراقبة الثنائية عن جميع المسائل المتنازع عليها .

وفي ٢٠ مارس تناولت الغداء مع بانون لكي أقابل عنده روبرت بورك الذي كان قد نوى أن يضع المسألة المصرية في البرلمان في الاسبوع التالي ويعرضها للمناقشة . وكان بصحبته عضو آخر من المحافظين كان يهتم بمسألة تونس . وكان

هذان من الاسهم التى احتفظت بها فى كنانتى إذا خذلني غلادستون . ثم ذهبت إلى الجمعية الاسيوية وحضرت اجتماعاً فيها وقد كنت انتخبت عضواً فيها . وفى المساء تناولت العشاء مع وفرز ويلسون . ومع ويلسون هذا « قد تشاجرت مشاجرة عنيفة بشأن مصر » وقد قال بأنه قد ساعد فى اعداد مذكرة جديدة على وشك أن ترسل الى ماليت من وزارة الخارجية للافصاح عليه بأن يتقاضى الحكومة المصرية تأدية جميع التعهدات الدولية . وكان القصد من هذه المذكرة أن تكون بمثابة الوعيد للحزب الوطنى ولكني أظن أنها لم ترسل مطلقاً أو انها قد ألغيت إذ لم أجدها فى الكتاب الازرق . وربما كان خطابى الى جرانفيل هو سبب الغائها . وقد كان ولسون يؤكد بأن جميع الحركة الوطنية هي من اختراع اسماعيل وانه اذا فرضنا وذهب الخديوى المنفي الى مصر ونزل في الاسكندرية لأتى اليه جميع المصريين وجثوا له على ركبهم . وبعد هذا العشاء قمت الى دار الليدى كنارى حيث رأيت الليدى سالزبرى وقد انتحت بى ناحية وأخذت تسألنى بلهجة العطف عن القضية المصرية وقد عرضت عليها ذلك بأحسن ما استطعت علماً منى بأن ما أقوله لها سيعاد على مسامع زوجها اللورد سالزبرى . وبديهي أنه لا يوجد عطف حقيقى بين المحافظين على آرائى بصدد الحركة المصرية ولكن كان من مصلحتهم بصفتهم الحزب المعارض أن يتخذوني سبباً الى حد ما فى الحط من كرامة الحكومة والنيل منها : وكان سالزبري من القائلين بالتدخل الملحين فيه . وقد توجهت الى دارى بصحبة هاملتون وأخبرته فى الطريق عن فخر ولسون بالمذكرة الجديدة ورجوته أن يتوسل لى فى مقابلة رئيسه وقد حثنى على ارسال خطابى الى جرانفل وارسال صورة أخرى منه الى غلادستون . وقد فعلت ذلك في الصباح التالى وكلفت هاملتون بايصال الصورة . وكان قد هيأ لى فى ٢١ مارس مقابلة رئيسه فى اليوم التالى . وفى المساء تعشيت مع روبرت بورك والجنرال تيل ومراقب حزب المحافظين والليدى لى وعدد آخر من المحافظين

مارس ٢٢ — كان هــذا اليوم من أهم الايام فقد مضى عليّ الآن أسبوعان وأنا بانجلترا ومع انى لم أتهاون أو أهمل في شيء فاني لم أحصل الى الآن على مقابلة

ئيس الوزارة . ولكنى قد نلت حق اليوم . فاني ذهبت الى شارع دونـج قبـل ميعاد المضروب بقليل حتى أتمكن من مقابلة هاملتون والتحدث معه قليـلا . وقد قال لى هاملتون ان الرئيس قد قرأ خطابي وعنـد ما كانت الساعة ١١ والدقيقة ٢٠ استقبلنى الرئيس . وقد لاحظت ان مستر غلادستون قد تحسنت صحتـه فهو يخيل الى أنه أصغر وأصح عافية مما كان منذ سنتين . فقد رأيته في ذلك الوقت وشعرت كأنه في الهبوط أما الآن فهو نشيط الجسم متقد الذهن. وقد استقبلنى بكل بشاشة وود . وكان خطابي الذى أرسلتـه للورد جرانفيل أمامه على المنضـدة . وكان على ما يظهر لى مشتاقا لسماع ما ألقيه عليه . وقد سألنى أن أقص اليه بجميع ما عنـدى وأخذ يستمع لى دون أن يتكلم . وكان اصغاؤه لى بما فيه من العطف والتشجيع باعثاً لى على أن أتكلم بسهولة بل بفصاحة لم أعتـدها قبلا . وكنت أرى دلائل الاهتمام بادية عليـه فى كل كلة أفوه بها . وقد تركنى نحو ربع ساعة لا يقاطعني الا بنحو هذه العبارة : « لا تخبرني عن هـذا فاني أعرفه » وذلك عنـد ما كنت أريد أن يؤمن بحقيقة الشعور الوطنى فى مصر . وقد ظهر لى منه أنه كان قلبا وقالباً مع الوطنيين .

ثم سألني عن موقف الجيش والشعب فى ظهوره فى المسائل الوطنية فانه توجس من هذا الظهور . فأوضحت له تاريخ الحركة وأكدت له ان ما قيل عن تدخل الجنود قد بولغ فيه وان تلك الرواية القائلة بان الجنود كانوا يتوعدون النواب ويرهبونهم من الروايات المختلقـة وقلت له أيضاً ان الاستعدادات الحربية الحاضرة ليس لها من غرض سوى الخوف من الاعتداء والتدخل . وأوضحت له موقف الحزب نحو الخديو توفيق والخديو المعزول اسماعيـل والامير حليم . فسألنى عما اذا كنت قد أفضيت بكل هذه الاخبار الى اللورد جرانفيل . فقلت له : « ان اللورد جرانفيل منعنى من اخباره بهذه التفاصيل بقوله فى ابتداء حديثه ان اسمعيل قد اشترى عرابي. فماذا كان يمكننى أن أقول له ؟ »

وفي هذه اللحظه دخل الينا شخص يقول ان اللورد جرانفيل فى المنزل فخشيت جداً أن يأذن له مستر غلادستون فى الدخول علينا لان دخوله كان يمنعني من تتميم

قصتي . ولكن المستر غلادستون خرج متمصاً وسرح لورد جرانفيل وعاد الىّ وهو يفرك يديه فعل من تخلص من ثقيل . فكانت اشارته هذه تشجيعاً آخر لى فأخذت فى الحديث فذكرت وقدمت اليه جميع رسائل عرابي عن الاتجار بالرقيق ومشروعات الاصلاح الأخرى ثم جعلت أشرح له مركز ماليت وكولفن فقال لى بلهجة التأثر : « ما ذا نستطيع أن نفعل ؟ انهما موظفان محترمان وقد نالا الأوسمة لخدمتهما فى مصر » وأخذ يلح ويكرر ذكر لفظة الأوسمة . ثم سألنى أن أخبره شيئاً عن زعماء الحزب الوطنى من غير الجنود فشرحت له أحوال بعضهم مثل الشيخ محمد عبده واحمد محمود وسعد الله حلمي وحسن شريعي وآخرين من النواب وكان آخر من ذكرت له عبد الله نديم الصحفي الخطيب . وكان وصفى لهذا الاخير بأنه « صحفي خطيب » قد لفت نظر مستر غلادستون فكتب اسمه على ورقة صغيرة امامه . ومضينا فى الحديث حتى كانت الساعة الثانية عشرة حيث كان عليه أن يقابل بعض الزائرين . فأكون قد قضيت معه أربعين دقيقة . فما كان أسرع هذه الدقائق . وعند ما خرجت التفت اليه وسألته لخاطر خطر لى عما اذا كان يأذن لى بأن أرسل لعرابي خطاباً أجيبه فيه عن لسانه عن الرسائل التى أرسلها اليه . فتفكر قليلا ثم قال: « كلا » ثم قال فى تدبر وروية : « ولكنك تستطيع أن تخبره عما فهمته من احساسى نحوه » ثم غير لهجته وقال كأنه يخاطب مجلس العموم فكان كلامه عندئذ مخالفاً للهجته الشخصية التى كان يخاطبنى بها : « اذا أراد (الوطنيون) أن يحكموا على موقفنا فعليهم أن يقرأوا ما نقوله فى البرلمان وبخاصة ما أقوله أنا لانى أعنى تمام العناية بما أقول فىالبرلمان . ونحن فى رسائلنا الرسمية مقيدون برأى أوروبا ولذلك لا تكون هذه الرسائل مطابقة للآراء الحرة فى مصر . فعليهم أن يقرأوا خطبنا » ثم التفت الى المنضدة وأخذ ورقة قد كتبت عليها رسالة موقعة فنظر فيها مليا وشعرت كأنه يتردد فى أن يرينيها ولكنه ألقاها على المنضدة . وقد شعرت أيضا ان هذه الرسالة هى التى أخبرنى ولسون انه قد هيأت لترسل الى مصر . ثم عاد الى بشاشته وشكر لى ارسالى الخطابات اليه ورجا الى ان أرسل ما يتجدد من الاخبار . وعند ما سلم

عليّ ورأيت في وجهه ولفظه من العطف ما كاد يجعلني أستعبر فخرجت وأنا أحس أني كنت في حضرة رجل طيب وعظيم معاً وصرت أتعجب كيف يصل مثل هذا الرجل الطيب الى مركز رئاسة الوزارة . فصرت أقول « الحمد لله . الحمد لله . نصر من الله وفتح قريب » .

هذا هو غلادستون الذي رأيته في ذلك اليوم : رجل يعطف عطفاً كبيراً على كل ما هو طيب ومن يراه يقسم انه لا يحيد قيد شعرة عن محجة الحق . ولكن كان في شخصه غلادستون آخر هو السياسي الوصولي الذي يغتنم الفرص والذي قد كتب على أن أراه « يلعب ألاعيب هوجاء تجعل الملائكة التي في السماء الأعلى تبكي » .

واليك وصف ما عرفته عنه مدة العشر السنوات التالية :

كان غلادستون ذا شخصيتين . فكان جانبه الانساني يسر الناظرين ويجذب اليه قلوبهم وكان كبير العطف اذا أحب شيئاً أسرف في صرف حماسته عليه وكان مع ذلك متواضعاً حتى مع أولئك الذين كانوا أقل منه مكانة فكانوا بذلك يجبرون على حبه والولاء له وكان في خلقه أشياء من الضعف لم تذكر في التراجم التي ألفت عنه وكانت هذه الاشياء تجعل الناس يحبونه أيضاً . وكان الشباب أكثر الطوائف تعلقاً به وكان الناس يحبونه أيضاً لهذا السبب .

أما حياته العمومية فكانت زوراً وغشاً كما هي حياة جميع العظماء من رجال البرلمان فان الخدع البرلمانية كانت قد انطبعت فيه . وكان قد شرع في تعلمها أيام كان طالباً في المدرسة فلما بلغ سن الثلاثين صار مقياس الحق والباطل في نظره أصوات البرلمان . وكانت مراعاته لهذه الاصوات تضطره الى أن يهمل ميوله الشخصية حتى اذا بلغ آخر سني حياته صارت ميوله هذه أشبه شيء بأذواق منها بمبادىء . فكان يشعر نحوها كما يشعر نحو الموسيقي أو الصيني أو سائر التحف ، يميل اليها ولكنه يقيد احساسه نحوها بما يشعر انه واجب الاكثرية البرلمانية . وقد كان هذا السبب الاخير في جميع أعماله بل ضميره الحق الذي كان يضحي له جميع أمانيه العليا . ثم أن حياته العمومية الطويلة قد ولدت فيه نوعاً من الخداع الفاني

الذى يتولد عند الممثلين . لانه لما كان مصطراً الى التمثيل والظهور بغير المظهر الذى يهواه أتى عليه وقت صار يستطيع فيه أن يتخلق بأى خلق شاء .

فلما اتفق أن وجد نفسه مصطراً الى السير على خطة جديدة لا تتفق عمد الى نفسه فأغراها باعتقاد أن هذه الخطة ليس فيها ما يضيره . ويأخذ نفسه بذلك حتى يؤمن بما يتوهم ويؤلف في سبيل ذلك جملة او عبارة يكسب بها رضا نفسه . ومن هنا كان عدم شعوره بالمغالطات . فكان مثله كمثل البطل في احدي قصص دكنز اذا أراد أن يمثل دور عطيل دهن جلده بالسواد . هذا وأظنني فيما قلته لم أشط في تقدير غلادستون. والحق ان أعماله في هذه السنة وخيانته للقضية المصرية يثبتان كل ما قلته

وهنا يمكن اختصار ما حدث قبل عيد القيامة في لندن . فاني ذهبت لقضاء عدة ايام في كرابيت لاشغال خاصة بي ولكن هذا لم يمنعني من مراسلة أصدقائي مثل عرابي ومحمد عبده ونديم وكنت أخبرهم عن نجاحي مع غلادستون وأتوصل اليهم لكي يتبصروا في العواقب . وفي ٢٦ منه تسلمت خطابا من باتون وفي الخطاب رقعة من أحد ذوى المناصب العليا . وقد وجدت هذه الرقعة لاتزال بين أوراقي وهي قصيرة وكبيرة الدلالة فلذلك أري من المفيد اثباتها هنا :

« ٢٢ منه . انى في أشد الاشتياق لكي يذهب مستر بلنت ويقابل ناتي روتشيلد الذى لا يحتاج أحد الى ايضاح مصالحه في مصر . فانه يكثر من الذهاب الى وزارة الخارجية والى مستر جرانفيل . وهو في هذا العمل « يموت كل يوم » كما قيل عن القديس بولس . وانه ليخدم الجميع خدمة عظمي اذا هو استطاع ان يوفق بينهم . وقد رغب إليَّ أن أسأل عما اذا كان مستر بلنت يمكنه ان يتغدى في نيو كورت يوم الجمعة الآتي في الساعة الاولى بعد الظهر فليفعل إذا استطاع . فان هذه المقابلة تكون مفيدة من عدة وجوه » .

فهنا يجد القارئ لب الموضوع فان قرض روتشيلد كان يبلغ تسعة ملايين جنيه وكان لاسرة روتشيلد وحدها نصف هذا المبلغ وكان المعتقد أن هذا المبلغ قد أصبح في خطر الضياع في مصر . وبناء على هذا ذهبت الى لندن في ٢٧ منه وهو اليوم المتفق عليه ومعي باتون . ولكن لسوء الحظ وجدت ان ناتي روتشيلد قد سافر

خروج انجلترا هذا اليوم لان أحد ذوى قرباه كان مريضاً . فلم نجده ولكني وجدته قد ترك لي رقعة برجوني فيها أن أكتب له آرائي . ولقد أسفت على هذه المصادفة التي منعت التقائي به لان مثل هذا الالتقاء كان يكون لذيذاً وان لم يكن يؤثر على آرائي . ولقد أخذت بعد ذلك أتعجب من معنى « أن يوفق بينهم » وماذا كان يقصد من هذا التوفيق . وقد خامرتني الشكوك بان الغرض الحقيقي كان ارشاء عرابي بعدد من الاسهم حتى يخون بلاده . ويظهر انه قد عرض على عرابي مثل هذا الغرض بعد ذلك بشهرين عن سبيل أخرى . ولم ينتج عن هذه الزيارة سوى أني كتبت مذكرة مطولة لا يمكن اثباتها هنا لطولها قلت فيها ان المساهمين يخسرون بالحرب مع مصر أكثر مما يكسبون وان مصلحتهم هي في قبول الثورة كما هي فليسكنوا اليها . وقد علمت بعد ذلك ان روتشيلد بعد أن كاد يقتله الهم أيام ضرب الاسكندرية وهو يعتقد وقتئذ ان أمواله قد ذهبت عاد لما استردها بأكملها يذكرني بالسوء ويقول اني نبي كاذب . ولكن هذا لم يكن ليهمني . فان مذكرتي إنما كتبت في مصلحة الفدينين المصريين لا في مصلحة الدائنين .

وقد كتبت في ٢٨ منه في مذكراتي شيئاً على عقلية كتاب جريدة التيمس . قد ذهبت الي ادارة هذه الجريدة أول مرة في حياتي وكان باتون أيضاً دليلي . فرأينا هناك مكدونالد مدير الجريدة وخاطبناه بشأن ارسال مكاتب للجريدة في القاهرة يرسل اليها آراءه مستقلا عن أي تأثير وفكرنا في مكنزي وولاس معتقدين انه يستطيع ان يقوم بهذه المهمة . ولكن مكدونالد كان اسكوتلانديا يعرف قيمة المال فلم يوافق على هذه المغامرة المالية . وقال لنا انه راض كل الرضا عن الاخبار التي تصل اليه من سكوت المكاتب في الاسكندرية . ثم قال ان للانجليز مصلحتين في مصر هما قناة السويس وحملة الاسهم وآراء سكوت من هذه الوجهة لاغبار عليها فما عدا هذا لم يكن ليستحق اهتمام التيمس . ومع ذلك قد شكر لي ما كتبته اليه من الخطابات وهي خطابات لم آخذ عليها أجراً وقال انهم يشكرونني كل الشكر عليها وسينشرون لي كل ما سأرسله اليهم . ولكن ليس هناك حاجة لارسال مكاتب خاص .

ولكني الى ذلك الوقت لم تكن قد داخلتني الشكوك فكتبت الى أصدقائى فى القاهرة مسهباً لهم فى الاخبار السارة . اذ ما كنا نخشي وغلادستون قد انضم الى صفوفنا . وكل ما سألتهم أن يتريثوا حتى تصل اليهم اللجنة التى طلبت ارسالها وهناك ما يدل على أن لورد جرانفيل لم يكن صادق النية في تنفيذ الاقتراح أو أن من قاومه فى وزارة الخارجية مثل ذلك لا غير . فقد كتب الىَّ فى الرابع والعشرين من الشهر يسألني أن أتناول الغداء معاً لكي نتحدث معه بشأن اللجنة ولكن لسوء الحظ — وربما لم تكن المسألة قاصرة على الحظ — لم تصلنى الدعوة الا بعد ان فات ميعادها .

وهذه مناورة تكرر حدوثها فى الاسبوع التالى . هذا والكتب الزرق تذكر خبر مفاوضات لم تنجح مع فرنسا . وكان الغرض منها بحثاً جديداً للحالة . ولكن المفاوضات وقفت وعاد لورد جرانفيل الى طريقته المألوفة فى عدم الركون الى الحد والعزم . ولم تمض عدة أسابيع حتى كانت الدسائس قد انتهت بالغاية المقصودة منها فى القاهرة فى احداث القلاقل الجديدة وصارت مصاعب التوفيق أشد مما كانت

وكنت أكاتب فى هذا الوقت الين سكرتير جمعية منع النخاسة . وهو رجل ذو جدارة وان يكن محدود الآراء . فقد انتقدني سير وليام موير في جريدة التيمس لاني قلت في أحد خطاباتى ان برنامج الحزب الوطني في مصر يتضمن محو ما بقي من تجارة الرقيق فأخذ يبرهن بواسطة مقتبسات من القرآن على أن الرق من العادات التى كانت ولا تزال صفة دينية فى الاسلام . وقد وجدت أن الين قد غضب غضبا شديداً لقولى بأن عرابي يطلب الغاء الرقيق الذى كان الين يعتبره من الاعمال الخاصة بجمعية منع الرقيق وحدها . فكان غضبه أشبه شيء بغضب صاحب كلاب الصيد التى قد ربيت على صيد الثعالب عند ما يجد أحد المزارعين يقتل ثعلبا بنفسه . فان من آرائه أن محو الرقيق شيء لا يخص المسلمين إذ ماذا تكون فائدة الجمعية اذا فعلوا ذلك ؟ وعلي أى حال هذا هو الأثر الذى تركه في ذهني مناقشتي معه .

وقد وجدت أيضاً ملاحظة فى أول ابريل بشأن مقابلة ولى العهد الذى رغب الىّ أن أتمشى معه . وكان رب البيت فى تلك الليلة هو ارد فسنت ولى العهد الحيم . ولكنى افرط بلادتي لم أذهب الى هذا العشاء الذي كان يمكن ان يكون ذا أهمية لى . وسبب ذلك اني كنت على ميعاد مع الاميرة لوبزاف لورن فى ذلك المساء فلم أرغب فى اخلاف وعدى لها . ومع ذلك فقد ذهبت الى منزل فنسنت والتقيت بولى العهد بعد ذلك وتحدثنا معاً عن شؤون مصر ولكن الحديث لم يتناول الموضوعات التى تهمنى أهمية خاصة .

والى هنا يمكن أن أعتبر ان حملتى الاولى في سبيل مصر قد انتهت . فقد سار كل شيء على الرغم من العقبات الكأداء نحو نشر دعوتي . وتقبل الجميع دعوتي عن الوطنية المصرية تقبلا حسناً فى كل مكان وخفتت أصوات القائلين بالتدخل . وكان رجائي في بعض الاحيان عظيما جداً لان باتون كان يؤكد لى ان اللجنة التي اقترحت ارسالها لمصر قد تقرر ارسالها بالفعل وذكر اسم الشخص الذى انتدب لذلك ولكن وا أسفاه . كان هذا الخبر اشاعة ليس غير . ثم جاءت أجازة العيد فغادر الناس لندن وماهم ان عادوا حتى فاجأتنا المؤامرة الشركسية . فكانت بداية النهاية المشؤومة

...

الفصل الحادى عشر

المؤامرة الشركسية

يمكن القارىء ان يحكم على الحال الحسنة في مصر فى الاسبوع الاول من شهر ابريل على الرغم من اشاعات القلق التى فشت في أوروبا بخطابين كتبهما لى عرابي وبخطاب آخر أرسله الىّ الشيخ محمد عبده . هذا وان الخلق العظيم الذى يمتاز به الشيخ محمد عبده لزومه الحقائق ثم هذا المركز السامي الذى يعلاه الآن فى مصر وهو منصب الافتاء الشرعى كل هذا — يجعل لشهادته قيمة تاريخية لا يبالغ الانسان مهما قال فى مدحها . وهذه الشهادة يصح وضعها بجانب الكتب

الزرق لادحاض أكاذيبها المختلفة . وكان في ذلك الوقت رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية ومديراً لقلم المراقبة الصحفية فكان مركزه هـذا يجعله على علم بما يدور في الوزارة الوطنية . بحيث لم يكن ماليت او كولفن أو أى أوروبي آخر ليدعى مثل معرفته بهذه الشئون . فلهذه الاسباب ألفت نظر المؤرخين الى هذه الوثائق :

القاهرة في أول ابريل سنة ١٨٨٢

الى الصديق المحترم المخلص الحر الضمير مستر ولفرد بلنت نجح الله مساعيه

بعد حمد الله غالب الاقوياء وناصر الحق أخبرك بان خطابك رقم ١٠ مارس قد وصلني وسرني غاية السرور ولا شك في ان كل رجل حر الضمير يفرح برؤية من هم مثلك من الصادقين في القول والعمل الذين عقدوا نيتهم على انفاذ مشروعاتهم التي يرمون بها الى منفعة النوع البشرى عامة ومنفعة بلادهم خاصة

هذا وان محتويات خطابكم تدل على انكم قد شغفتم بحرية النوع البشرى وانكم تفعلون جهدكم لخدمة مصالح أمتكم الانجليزية وذلك لعلمكم بأن هذه المصالح وبخاصة تلك التي في مصر لا تكون مضمونة مأمونة الا اذا كان المصريون أحراراً فيكسبون بذلك ودهم . ومن الواجب على الانجليز الاحرار ان يساعدوا اولئك الذين يجاهدون في سبيل الحصول على استقلالهم وعلى الاصلاح وعلى ايجاد حكومة عادلة وجهودك الجديرة بالشكر ستكسبك بلا شك اسما شريفا بين أبناء وطنك عندما يعرفون الكيفية التي كشفت بها القناع عن المفتريات التي أذاعهـا أناس ذوو أغراض .

واما بخصوصنا فنحن نشكر الخدمات الجلى التي أديتها لمصر وانجلترا معاً . ونحن نرجو لانجلترا أن تكون أقوى الاصدقاء لمساعدتنا في ايجاد نظام حسن على أساس الحرية فنسير عندئذ على غرار الامم المتمدينة الحرة . وبحمد الله فاننا سنرى قريبا نجاحك في جهودك ولهذا نعتبر وصولك سالماً لبلادك فالا حسناً للنجاح المنتظر

أما بخصوص النصيحة التي زودتنا بها فنحن نشكرك ونخبرك باننا لا نقصر في حفظ النظام والهدوء لاننا نعتبر هذا من أهم واجباتنا ونؤكد لك ان كل شيء هنا هادي. . فالهدوء والسلام يسودان البلاد ونحن واخواننا الوطنيون ندافع بأقصى

ما يمكننا عن حقوق جميع السكان بصرف النظر عن الامة التى ينتمون اليها . ونحن نحترم جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية ولن نسمح لاحد بمساسها ما دامت اوربا تحفظ وترعى علاقاتها الودية معنا .

اما عن تهديدات الماليين واصحاب المصارف في أوربا فاننا نتقبلها بالسكينة والثبات . واعتقادنا ان هذه التهديدات تعود عليهم وحدهم بالاذى وتضر الدول التى تنخدع بأقاويلهم .

وغايتنا الوحيدة هى تخليص البلاد من العبودية والظلم والجهل وان نرفع السكان الى مركز لا يمكن فيه الاستبداد ان يعود كما كان في الازمنة الماضية ينشر الخراب والدمار فى مصر .

ان هذا الذى اكتبه اليك هو ما يفكر فيه كل مصرى عاقل يحب حرية بلاده وارجو ان اقدم تسليماتي لزوجتك الطيبة واقبل تحيات صديقك المخلص »

احمد عرابي

القاهرة في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز مستر ولفرد بلنت

بعد حمد الله لما أنالنا من الحرية والاصلاحات التى أنعم بها علينا أخبرك انى تسلمت خطابك الثاني بعد ان أرسلت لك جوابى على خطابك الاول . وأنا انتهز هذه الفرصة لكي أكرر لك تشكراتى الخاصة لمساعيكم الحسنة . وانى أعتبر من واجباتي كما هو من واجب جميع الناس ذوى الضمائر النقية أن أشكرك لما أديته من الخدمات العظمى . وفي الاعتراف بالصنيعة توثيق الصداقة بين الافراد وكذلك بين الامم . فنحن ميالون أشد الميل الى التفاهم عن المصالح المتبادلة بيننا وبين الدول المرتبطة بنا وليس للدول ذوات المصالح فى بلادنا من سبيل للانتفاع بنقودهم ومساعداتهم الا اذا كانت الصداقة التي بيننا وبينهم وثيقة . فاذا قطعت هذه الصداقة فالضرر لن يعود علينا وحدنا بل يعود على الدول أيضاً وبخاصة انجلترا وليس هناك سياسي كبير الادراك الا ويفهم قيمة المنافع التى تعود على انجلترا من صداقتها لنا ومعونتها ايانا فى كفاحنا .

أما عن المراقبة فيجب ان تطمئنوا وتعرفوا انها لن تجد منا ما يعطلها عن تأدية واجباتها حسب الحقوق التي خولتها إياها المعاهدات الدولية . هــذا ولم تكن قط مقاصدنا أو مقاصد أي انسان في هذه البلاد ان تمس المراقبة وتقلل حقوقها أو نعتدى على المراقبة الدولية .

فاذا كان ممثلو الدول في بلادنا يؤدون واجبهم كما ينبغي لهم ويراعوا مصالح بلادهم فاحسن ما يفعلونه أن يعاونونا على تحقيق أمانينا فيثبتون بالعمل مايعدوننا به بالقول

اننا قد نوينا نية صادقة على ان يكون لامتنا مركز بين الامم المتمدينة بنشر المعارف في البلاد والمحافظة على الاتحاد والنظام والقضاء بالعدل بين الناس أجمعين ولا يمكن لشيء في العالم ان يردنا عن قصدنا قيد شعرة . فلن نخشى الوعيد أوالتهديد ولن نخضع الا لحكم الصداقة التى نقدرها ونكبرها .

أما عن الهدوء في مصر فنخبرك انه ليس هنا أى قلق . ونحن الآن نحاول ان نمحو الآثار السيئة التي تركتها لنا الحكومة السالفة .

اما عن الاسئلة التي وجهتها الينا فقـد أرسلنا بواسطة الشيخ محمد عبده بالتلغراف . والحق ان جميع الاشاعات المنتشرة في أوربا بخصوص الاستعدادات الحربية العظيمة لا أساس لها البتة . فان المصروفات على الجيش لم تزد بارة ولم تنقص درهماً عما كانت عليه سابقا . فهي الآن طبق ما كان قد تقرر في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨١ في عهد شريف باشا . فيجب ان تطمئن وتعرف ان هذه الاشاعات مفتريات يروجها أناس لا ضمير لهم ، وانه لما يؤسف له ان تجد للاكاذيب مجالا واسعاً في صحف أوربا المتمدينة .

ونحن ندعو الله ان يرشد ساسة أوربا المفكرين الى مواطن الحق حتى يعرفوا حق المعرفة حالة بلادنا . وبذلك يخدمون بلادهم وبلادنا معاً لان في علمهم هـذا توثيقا للروابط الحسنة . ونبتهل في الختام الى الله ان يمتعنا ببركات السلام وحسن الاخاء .

احمد عرابي

وكان هذان الخطابان ردين أرسلهما لى عرابي عند ما بعثت اليه أخبره عما لاقيته من شعور غلادستون نحو الحركة الوطنية في مصر . وقد أرسلت ترجمة هذين

الردين عند وصولها الى مستر غلادستون . وكنت أظن أن مستر غلادستون لو كان قد اطلع على هذين الردين لكان صرف اليهما انتباهه . ولكنه كان في ذلك الوقت بعيداً عن لندن وقد شغلته أشياء أهم مما كنا فيه — أعني أشياء تهدد كيان الحكومة — وهي الثورة في ارلندا . ثم لم تسنح لي الفرصة لرؤيته أو رؤية هاملتون حتى انتهت اجازة العيد حوالي آخر الشهر . وفي أثناء ذلك دخلت المسألة المصرية في طور خطير وذلك بسبب المؤامرة الشركسية التي وصلت أخبارها الى لندن في الاسبوع الثالث من شهر ابريل . ولم أعن العناية الكبيرة بهذه المسألة عند أول ظهور أخبارها معتقداً بأنها احدى المفتريات التي تنشر عن مصر . ولكن الاحوال أثبتت أنها خطيرة تستدعي الالتفات . ولم تكن خطورتها متوقفة على حدوثها من حيث هي بل من حيث أنها كانت فرصة لحكومتنا تترقبها لكي توقع الخلاف بين الخديو ووزرائه . وكان ماليت قد خضع تمام الخضوع لكولفن في هذا الوقت وصار ينتصح بنصحه ويسير على هواه .

وأصل هذه المؤامرة هو بلا شك الخديو اسماعيل . وأنا أعرف هذا من جملة مصادر أحدها ابراهيم بك المويلحي سكرتيره . فان اسماعيل كان وهو في نابولي يدير حركة عصابته في القاهرة وكان يرسل بواسطة هذه العصابة نصائحه الى ابنه . وكان وكيله رجلا يدعى راتب باشا الذي كنت قد سمعت عنه في الخريف الماضي بأنه عدو الوطنيين الازرق . وكان هو واسطة المؤامرة . وكان التدبير ينطوي على ايجاد حركة رجعية بين الضباط الشراكسة في الجيش لمقاومة الفلاحين . فعرابي وسائر الضباط الفلاحين يحكم عليهم بالاعدام . فيؤدي هذا الحكم الى ايجاد حركة أخرى بين الضباط الفلاحين ويحصل التصادم فاذا جرى كل ذلك وأدى الى خلط هرج ومرج ووجد اسماعيل ثغرة يدخل منها الى مصر ويعود على عرشه . ولقد كنت أنا مقتنعا تمام الاقتناع بأنه لا أمل لاسماعيل في تحقيق هذا المشروع ولكن القارىء يذكر أن ريفرز ويلسون كان يعتقد امكانه بل هو صار يفكر في وجوبه باعتباره شيئاً مرغوبا فيه للتخلص من ضعف توفيق الذي لم يقدر على حماية المراقبة وكان توفيق متردداً بين سبيلين فاما أن يسير مع الوزارة الدستورية وعرابي

الذى صار الآن يغار منه أشد الغيرة واما أن ينضم إلى الرجعيين الاتراك ولو كان في هـذا امكان رجوع والده . وكان شريف وماليت يشتغلان معاً وصار منزل شريف مركزاً للدسائس التى كان يوحيها اليهما كولفن لاسقاط الوزارة . ولست أقول ان كولفن أو ماليت أو شريفاً نفسـه كانوا يعرفون المؤامرة ولكن كان من المعروف المشهور أنهم كانوا يرمون الى وجود أى حزب يرمي الى قلب الوزارة وكان هذا مما زاد ثقة المتآمرين . ومع ذلك قد وصل خبر المؤامرة الى عرابى قبل ما يتحقق . فقد حاول المتآمرون أن يقتلوا عبد العال بك فقبض عليهم فى الحال وحبسوا . والقارئ يجد فى الخطاب التالى الذى أرسله الى الشيخ محمد عبده فى ٢٥ ابريل تفاصيل هذه المؤامرة وأخباراً أخرى مفيدة :

« أما عن ترقية الموظفين التى تلغط فيها الصحف الاوروبية فاسمحوا لى بأن أوضح الحقائق . فأقول أولا أن هذه الترقيـات لم تعمل بناء على أمر عرابي باشا وحده ولم تكن بمثابة الرشوة للضباط لا كتساب عطفهم نحو عرابي . كلا . فالواقع أن هذه الترقيات عملت بناء على القانون الحربي الجديد الذى يأمر باحالة الضباط الذين يبلغون سنا معينة أو يمرضون ويصابون بعاهة على المعاش . وقد نفذ هـذا القانون في عهد شريف باشا وأحيل على المعاش ٥٥٨ ضابط . ثم أرسل ٩٦ ضابطاً الى حـدود الحبشة وزيلع وأماكن أخرى . بينما قـد أخرج من الجيش نحو مائة ضابط توظفوا في الوظائف المدنية . فعدد جميع هؤلاء ٧٥٤ ضابطاً . فكان اذن من الطبيعي أن تحصل ترقيات لملء الوظائف الخالية . ولا يزال فى الجيش خمسون وظيفة قد حفظت لخريجى المدرسة الحربية .

« والآن أريد أن ازيل من العقول هـذا الوهم السـائد فى ادعاء البعض أن عرابى أو الحزب الحربي او الحزب الوطنى آلة فى يد الأتراك . فان كل مصرى سواء أكان من العلماء او من الفلاحين او الصناع او التجار او الجنود او الموظفين او السياسيين او غير السياسيين يكره الاتراك ويمقت ذكراهم . ولا يستطيع مصري ان يفكر فى نزول الاتراك فى بلادنا بدون ان يشعر بعاطفة قوية تدفعه الى امتشاق سيفه والهجوم به على هذا المعتدى .

ان الأتراك ظلمة وقد تركوا فى بلادنا من آثار السوء ما لاتزال قلوبنا تضطرب منه ضربان الجرح . فلسنا نريد رجعهم ولسنا نريد ان نعود الى معرفتهم . وكفى الأتراك مالهم من حقوق الفرمانات . فعليهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه . ولكنا إذا علمنا بأنهم يحاولون دخول بلادنا فاننا نتلقى هذا الخبر بشيء لا يخلو من الترحيب . ولقد شعرنا نحن بشيء من هذه النية عند الأتراك وكان هذا الشعور سبب استعدادنا . فاننا سنغتنم هذه الفرصة لكي نحقق استقلالنا التام . هذا وساسة البلاد وقادتها يتربصون لحركات الأتراك فى مصر وسيقفونها اذا رأوا انها قد عدت طورها . ولست أنكر ان فى مصر أتراكا وشراكسة يدافعون عن الباب العالى ولكنهم قليلون فى جانب اولئك الذين يحبون بلادهم

« هذا وبخصوص المؤامرة الشركسية لاغتيال عرابى أخبركم انها ليست ذات خطر فان الخديو اسماعيل قد مضت عليه مدة طويلة وهو يضمر الانتقام لكي يدمر حكومتنا وهو يعتقد ان هذا العمل يرجعه الى مصر . ولكن الله القدير قد بدد آماله في الهواء لان كل مصرى يدرك ان رجوع اسماعيل لا يعنى سوى خراب مصر . فهذا الفرعون قد أرسل الى مصر أحد المنفيين وهو راتب باشا الذي حصل علي إذن بدخوله مصر بوسائط سرية فى عهد شريف حيث اتصل بأخيه محمود افندى طلعت البكباشى ثم استخدم ايضاً يوسف بك نجاتى ومحمود بك فؤاد بن اخت خسرو باشا وعثمان باشا رفقى « وكل من هؤلاء شراكسة » وهؤلاء أخذوا فى نشر دعوتهم وهي قتل الوزراء الحاليين ثم قتل كبار الضباط فى الجيش ولكن هذا الجزء الاخير قد اضطروا الي تأجيله حتى يجدوا من الاعاليل مايبررون بها عمله . ثم حدث ان تسعة من الضباط الشراكسة رفضوا الذهاب الي السودان . فأخذت عصابة راتب باشا في إغراء هؤلاء الضباط واقترحت عليهم أن يرفضوا الذهاب الا بترقية

« وكانت الوزارة تعرف منذ زمن شيئاً عن هذه الحركات . فعند مجيء راتب باشا الى مصر كان محمود سامي رئيس الوزراء الآن وزيراً للحربية فطلب من شريف باشا أن ينفيه الى خارج القطر . ولكن شريف على الرغم من تحذير محمود سامي

رفض أن يأمر ببيعه وسبب ذلك ان راتبا زوج ابنة شريف باشا والبعض يظن ان الاثنين متواطئان على رجوع اسماعيل

« وحدث ان عصابة راتب دعت ضابطاً شركسياً يدعى راشد أنور افندى لكي ينضم فأبي ان تكون له بهم أية علاقة . فلما ترك المتآمرين قام تواً وذهب إلى عرابي وكشف له المؤامرة . فألق القبض عليهم وقدموا للمحاكمة العسكرية

« وقد أحدثت هذه الحادثة قليلا من التهيج بين العامة . والجميع يعرفون ان حياة عرابي مثل حياة أى انسان آخر . وليس بين الناس أحد مهما كان عظيما يستطيع أن يجذب اليه قلوب الجميع دون أن يكون بينهم من يريده بسوء . ولكننا جميعاً نضحك اذا قيل لنا ان انجلترا على وشك الفوضى لان أحد المجانين قد حاول قتل الملكة

« ان عدد الشراكسة فى الجيش لايزيد عن ٨٦ ضابطا ولا يمكن عاقلا أن يتصور أن مثل هذا العدد قادر على قلب الحكومة

« أما عن تجارة الرقيق فنبلغكم بأن الوزارة الراهنة تعمل بجد فى الغائها . والدين الاسلامي لا يعارض فى هذا الالغاء بل بالعكس نرى أن أوامر الدين تمنع اتخاذ الرقيق الا من الكفار الذين يقاتلون المسلمين . فالعبد هو فى الواقع أسير قد أخذ فى حرب مشروعة أو هو أحد أفراد أمة ليست على صفاء فى علاقاتها بأمراء المسلمين وليست بينها وبينهم معاهدات أو محالفات تحميها . زد على ذلك ان الكافر الذى ينتمي الى أمة متحالفة مع أمير مسلم لايمكن أن يؤخذ فى الرق . ومن هذا يتبين لكم ان الدين الاسلامي لا يعارض فى الغاء الرقيق ، كما هو الحادث في هذه الايام بل هو لا يوافق علي استمراره . وأولئك العلماء الذين لا يوافقون على هذا الرأى فى انجلترا او غيرها عليهم أن تأتوا الينا ويعلموا نحن شيوخ الازهر أصول إيماننا فان مثل هذا العمل يصير من المناظر المدهشة . فان العالم الاسلامي بأجمعه سيصعق وينعقد لسانه عند ما يعلم أن مسيحياً قد أخذ علي نفسه تعليم علماء أكبر جامعة اسلامية أصول ديانتهم وكيفية شرح القرآن

« هذا وستصدر فتوي من شيخ الاسلام اعلاناً بأن الغاء الرقيق يوافق روح القرآن والسنة .

« وستجتهد الحكومة المصرية في ازالة جميع العوائق في سبيل هذا الالغاء ولن يهدأ بالها حتى تمحي هذه التجارة من جميع الاراضي المصريه »

« محمد عبده »

وهكذا فشلت مؤامرة ٢٥ ابريل ولم تكن لتستتبع أى ارتباكات أخري لولا تدخل مالت . فبدلا من أن ينصر الوزارة التي كانت هدف هذه المؤامرة مال بكل عواطفه نحو المتآمرين . فقد حوكم هؤلاء المتآمرون أمام محكمة عسكرية وحكم عليهم بالنفي الى البحر الابيض . وليس هذا بالعقوبة الهائلة وكثيراً ماحكم بمثلها في عهد المراقبة الثنائية . فكتب مالت خطابات الى لندن يقول فيها ان العقوبة لا تقل عن الحكم بالاعدام . وأخذ مكاتب التيمس ينشر قصة مفتراة في جريدته مؤداها ان عرابي ذهب الى السجن وعذب أمامه المتهمون . وليس لهذه القصة أساس مطلقاً ومع ذلك فقد ألبسها مالت رسالته شيئاً من الوجاهة لانه ذكر ان هذه القصة من الاشاعات الجارية على الالسن وانه سمع صراخ من السجن في الليل . والحقيقة ان مالت جعل هذه القصة من الاعاليل التى تقدم بها للخديو للسعاية بينه وبين الوزارة لكي ينقل قضية المؤامرة من يدهم الي يد الخديو بغية تخفيف الحكم الى نفي بسيط مع أن هذا العمل طبقاً لقواعد الدستور الجديد لم يكن من حقوق الخديو

ولنعد الآن الي مذكراتي فأقول انى اجد فى ٢٨ ابريل انى ذهبت الى منزل رئيس الوزارة وأنا في أشد الحنق لانه لم يعمل شيء الى هذا الوقت لمصلحة مصر . ولكن هاملتون نصح بالصبر وقال لى ان هناك فكرة ترمى الى ارسال بعثة لمصر تدرس احوالها الآن . وفي اليوم التالى أيضاً هنأني باتون « وقال لى أن هناك ازمة شديدة عن مصر وأن من رأى الباب العالى ارسال الجيوش وخلع توفيق وتولية الاميرحليم مكانه واعدام عرابي . ولكن الحكومة الانجليزية والحكومة الفرنسية قد منعتا ذلك وان عرابي سيعاون وسترسل البعثة » وفي يوم الثلاثاء سيكون موعد القاء تصريح من الحكومة فى مجلس العموم خاص بمسألة مصر . وحين تتدخل الباب

العالي هو بلا شك أزمة قد أوجدها وتشبيد بمعاونه بسمارك . فقد توترت العلائق بين الاستانة والحزب الوطني في مصر في الاسابيع الاخيرة وذلك لظروف عديدة يليق بي تفصيلها هنا الآن مع اثبات المكاتبات الغريبة التي دارت بين السلطان وعرابي وهذه المكاتبات عظيمة الاهمية لانها تثبت سلطة عرابي ونفوذه وظهورهما على سلطة سائر الوزراء.

والقارئ يذكر انه عند ما زارت بعثة السلطان مصر في خريف سنة ١٨٨١ لقى أحمد باشا راتب (وهو غير راتب باشا وكيل اسماعيل) ياور السلطان عرابي في القطار عند سفره الى السويس لكي يذهب منها الى مكة . وقد تبادلا الافكار والآراء في هذه السفرة وتصادقا، وان ياور السلطان هذا قد وعد بان يذكر عرابي بالخير لدى السلطان ويبين له انه مسلم مخلص يدين بالولاء للخليفة. وجرت مكاتبات بينهما على أثر ذلك وعندي من هذه المكاتبات أصل الوثيقتين التاليتين. وقد وقعتا في يدي في وقت محاكمة عرابي وقد كتب هذان الخطابان في الاسابيع الثلاثة التي تلت وزارة محمود سامي في فبراير سنة ١٨٨٢ وكان عرابي وزير الحربية في هذه الحكومة . والخطاب الاول من أحمد راتب والثاني من الشيخ محمد ظافر وهو من كبار رجال الدين في الاستانة وكان في ذلك الوقت مكلفاً بملاحظة مكاتبات السلطان السرية وقد كتب الخطابان بناء على أمر السلطان الشخصي !

« الى وزير الحربية المصرية احمد عرابي باشا

« لقد قصصت على جلالة السلطان الحديث الذي جرى بيننا في القطار بين محطة الزقازيق والمهدية بعد رجوعي الى الاستانة فامرني بان أبلغكم تحياته الشاهانية. وقصصت على جلالته مالقيته من حسن رعايتكم لي ولطف آدابكم في القاهرة وقد سر جلالته غاية السرور لذلك فضاعف بذلك رضاه عليكم . وقد سبق ان بعض الناس أوهموه ولا أدري باي كيفية بانكم لا تسيرون على الحق حتى جعلوه يسيء الظن بكم . اما الآن وقد عرضت عليه حقيقة الحال فاني أقسم لكم ان جلالته قد أسف أشد الاسف لما سبق ان اعتقده خطأ بكم . واثباتاً لذلك أمرني ان اكتب لكم هذا الخطاب وان أخبركم بما يأتي:

« لا يهم جلالته شخص الخديو . وانما على حاكم مصر أن يكون افكاره ونياته وسلوكه موجهه نحو المحافظة على مستقبل مصر وسيادة الخليفة وعليه أن يحافظ على ديانة البلاد وحقوقها

« وهذه الواجبات المذكورة يجب على الجالس على عرش مصر . أن يؤديها وقد عمد اسماعيل باشا ومن سبقه من الولاة الى ارشاء على باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا وسائر من يماثلونهم لدى الباب العالى من الخونة فأخفوا الحقائق ، وأخذ ولاة مصر فى البغى والظلم وأثقلوا كواهل المصريين بما طلبوه منهم ثم هم فضلا عن ذلك قد اقترضوا أموالا جسيمة ووضعوا البلاد تحت نير ثقيل وان حالة المصريين الآن لما تدعو الى الاسف والتحسر ولكن المسألة فى غاية الدقة وهي تدعو الى العلاج السريع الوافى . فلذلك يجب عليكم قبل كل شيء ان تتوقوا كل ما من شأنه أن يجلب على البلاد تدخل الاجنبي والا تحيدوا عن محجة الصواب والحق وألا تسمعوا أقوال الخونة ولكن عليكم أن تتخذوا جميع الوسائل بالعناية التامة لمنع الاجانب من احداث الفتن . هذا هو اكبر مايرجوه السلطان

« وبما اننا سنتكاتب نحن الاثنين في المستقبل يجب عليك ان تحتاط حتى لاتقع خطاباتنا في أيد غريبة . وأسهل طريقة لذلك ان تسلم خطاباتك لهذا الشخص الذى يحمل اليك هذا الخطاب وخطاب الشيخ محمد ظافر

« هذا وأزيد على ما تقدم أنه يجب عليك ان ترسل الى اعتاب جلالة السلطان خفية دون ان يعلم أحد ضابطا من الواقفين على الحقائق فى مصر وممن تثق بهم لكي يخبر جلالته عن حقائق الاحوال بتفاصيلها

« وأرجوك ان ترسل الرد عن يد حامل هذا الخطاب   احمد راتب
« ٤ ربيع الثاني — ٢٢ فبراير ١٨٨٢ »   ياور السلطان

* * *

الى صاحب السعادة وزير الحربية المصرية

« لقد قدمت كلا خطابيكم الى جلالة السلطان وقد علم من مضمونهما عواطفكم الوطنية ويقظتكم وبخاصة ما ذكرتموه من السعي في رعاية مصالح جلالته وقد طلب

الي جلالته لهذا السبب ان أعبر لكم عن سروره وان أكتب اليكم ما يلي :

بما ان المحافظة على سلامة الخلافة واجب على كل رجل ذي شرف فيجب على المصريين ان يعملوا لتوثيق عرى الاتحاد بين مصر والدولة وان يمنعوا السبل التي تؤدي الى خروج بلادهم من الدولة الى ايدي الاجانب الطامعين فيها كما حصل في تونس . وجلالته يضع ثقته في شخصك ويطلب اليك أن تستعمل كل نفوذك لمنع وقوع هذا وعليك ان تحترس والا تغفل عن هذه النقطة وان لا تهمل في اتخاذ جميع الاحتياطات التي يتطلبها رمامنا الحاضر واضعاً نصب عينيك في كل وقت الدفاع عن دينك وبلادك . وعليك أيضاً أن تحافظ علي الثقة التي أحرزتها عندنا وأن ترعى الروابط التي تربطك بنا

« ان مصر ذات أهمية كبرى لكلتا فرنسا وانجلترا وخاصة لانجلترا . وقد حدثت هنا دسائس من رجال هاتين الدولتين يرجون بها تحقيق أغراضهم المعينة السابقة وقد رأوا أن يمدوا شباك هذه الدسائس الى مصر . فجلالته يرغب اليكم أن تتيقظوا وتحذروا هؤلاء الناس . هذا ويرى من تلغرافات الخديو توفيق باشا أحد أفراد هذا الحزب انه ضعيف يتطوح وراء أهوائه . ويلاحظ أيضاً ان تلغرافاته متناقضة . وزيادة علي ذلك نخبرك ان علي نظامي باشا وعلي فؤاد بك قد حدثا جلالته بشأنك وامتدحاك لديه . وقد ذكر احمد راتب باشا لجلالته الحديث الذي جرى بينكما في القطار بين الزقازيق والمهدية وجلالته يثق كثيراً بأحمد باشا وبهذه المناسبة قد أمرني أن أخبرك بثقته فيك وأن أكرر عليك ضرورة الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يكون سبباً في تدخل الاجانب بأي وجه .

« اما الأوامر التي سيتلقاها راتب باشا في هذا الصدد فسترسل اليك على حدة وقد كتب هذا الخطاب والخطاب المرسل من احمد راتب باشا احد سكرتيرية جلالته ووضع كل منا ختمه عليه كما وضع ايضاً ختم على كل ظرف

« ثم أخبرك بصفة سرية خاصة ان جلالة السلطان لايثق باسمعيل او حليم او توفيق ولكن الشخص الذي يفكر في مستقبل مصر ويقوى العلائق التي تربطها بالخلافة والذي يحترم جلالته ويراعي الفرمانات والذي يؤكد استقلاله في الاسئلة

وغيرها والذي لا يدفع الرشي للموظفين . والذى لا ينحرف قيد شعرة عن واجبه والذى يعرف أساليب الدسائس الاوروبية ويحتاط لها ويحافظ على البلاد من شرورها مثل هذا الرجل يسر جلالته ويجد لديه قبولا

« ثم أرجوك الا تؤاخذني اذا كنت قد اختصرت القول في هذا الخطاب فان احمد راتب باشا قد وصل الي هنا منذ ثلاثة أيام وأخبر جلالته عن ولائكم حتى وثق بكم جلالته تمام الثقة . وهذه التعليمات المذكورة هنا قد تسلمتها امس فقط . واني آمل أن أرسل لك في بريد الاسبوع الآتى خطابا أكبر تفصيلا من هذا . وعلى كل حال يجب ان نحذر لئلا يقع أحد الخطابات فى أيد غريبة وليكن لك رسول خاص . ويحسن أن ترسل الرد بواسطة حامل هذا الخطاب

خادمك — محمد ظافر

« ٤ ربيع الثانى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ »

هذان الخطابان عليها الأهمية التاريخية واذا قدر لى أن أطبع مذكراتى فانى سأضع صورهما الفتوغرافية ازاء ترجمتها . فهما يوضحان ماحدث بعد ذلك في يونيه وقت بعثة الدراويش . واذا كان عرابي قد أخذ لنفسه فى ذلك الوقت وفى مدة الحرب سلطة المستبد المستأثر فانه انما فعل ذلك وعنده من الوجهة الشرعية ما يبرر عمله وكذلك عنده من أوامر الخليفة ما يبرر مركزه ايضاً اذ قد ندبه الخليفة للدفاع عن البلاد وحمايتها من اعتداء النصرانية .

وكان الذي دعا الى تغيير هذه الخطة موقف هارنجتون فانه اعتبر مسألة قتل أخيه كأنها ظلامة شخصية له يجب ان تثأر ومن ذلك الوقت صار أعدي أعداء الوطنية الارلندية

وهذه الخطابات توضح ايضاً السبب فى كراهية السلطان عبد الحميد لان يعلن في شهر اغسطس أن عرابي ثائر خارج على الدولة كما تبين ايضاً سخافة هذه التهمة التي قدمت ضده فى وقت المحاكمة

ومع ذلك يجب الا يعتقد القارىء ان عرابى قد رضى بان يكون آلة في يد السلطان في أى شيء مما له علاقة باستقلال البلاد الادارى . فقد كان موقفه من هذه الناحية

موقف ثبات فقد كان يكره الأتراك ومن المحقق انه كان يقاوم قوة السلاح أي محاولة منهم في دخول القطر المصري . وخطاب الشيخ محمد عبده يشهد بذلك. وهو يتفق وما قاله عرابي نفسه لي . فكان مركزه في بلاط السلطان مقلقلا غير ثابت على حال واحدة لهذا السبب. فقد كان له صديقان في الاستانة هما أحمد راتب ومحمد ظافر ولكن كان له بجانبهما اعداء عديدون . وكان احد هؤلاء ثابت باشا السكرتير التركي للخديوي فانه لم يكن يهمل في أخبار السلطان كل ما يوغر صدره على عرابي . ولا بد انه عند ماحدثت المؤامرةالشركسية وقبض على عدد من وجهاء الأتراك وكان بينهم عثمان باشا رفقي اغتاظ السلطان واستاء كثيراً . ولكن يظهر ان هذا الاستياء لم يدم طويلا لانه عند ما صارت المسألة تنحصر في مقاومة أوربا عاد عرابي فكسب رضي السلطان ونال حظوته . ولم يكن عند السلطان أى تردد في أيهما يجب أن يختص بعطفه . توفيق العوبة فرنسا وانجلترا أو عرابي الذى يذود الدول المسيحية عن بلاد اسلامية

وأظن أنه مما يؤسف له ان رغبة السلطان في خلع الخديوى وتولية حليم مكانه لم تنفذ لانه وان لم يكن لعرابي أى صلة بحزب حليم في مصر فانه لم يكن ليعارض في توليته مادام قد رأى الخديوىتوفيق قد ألقى نفسه فى احضانالسياسة الانجليزية وكانت هذه التولية تقابل بالاستحسان والموافقة عند عدد عظيم من سراة مصر الذين كانوا يعرفون ان حليم أكثر ذكاء وأسمى آراء في السياسة من الخديوي . ولو تدخل السلطان على هذا الوجه وبهذا القصد لعد تدخله سلمياً ولما كان في حاجة الى تدخل حربي . وربما كان هذا على وجه العموم أمثل حل للمسألة . ولكن فرنسا كانت ترغب أشد الرغبة في تدخل السلطان وكان ممثلو حكومتنا في القاهرة يكثرون من التعهدات لتوفيق . وكانت نهاية هذه المساعى أى فكرة ارسال بعثة انجليزية وهو ما كنت اقترحه انا وفكرة تدخل السلطان ان اقترح مسيو فريسيه ارسال بعثة مؤلفة من قائد فرنسي وآخر انجليزى وآخر تركي « لاعادة النظام في الجيش المصرى »

وكان اللورد ليونز هو الذى أشار على مسيو فريسيه بهذا الاقتراح وكان

هذا اللورد يميل الي الاخذ بآراء ماليت . لان هذا الاخير كان سكرتيره الخصوصي مدة طويلة فكانت الثقة فيه لهذا السبب كبيرة

ولم يعمل شئ مما كنت قد وعدت بمن الوزارة الانجليزية ولاتلك الكلمات القليلة التي وعد غلادستون أن يفوه بها فيالبرلمان . وحدث لسوء الصدف ان الازمة التي كانت حادثة في مصر قد اتفق وقوعها في وقت الازمة الارلندية . فقد جرب فورستر في أرلندا نظاماً من الحكم ينحصر في التهديد والضغط . فقد قبض على اعضاء من البرلمان وحبسوا دون أن يحاكموا وتمادى رجال البوليس في اتخاذ أساليب صارمة لم تؤد الى تهدئة البلاد . وكان غلادستون قد أقنع وزارته بضرورة تغيير هذه الخطة بخطة المصالحة والمسالمة . وجرى اتفاق سري مع بارنل زعيم الارلنديين وهو في السجن ومع صديقه ديلون وهذا الاتفاق يعرف بمعاهدة كلمنهام أفرج بمقتضاها عنهما . وكانت نتيجة ذلك أن استقال فورستر في ٢ مايو وحمل على الحكومة لصعها في مجلس العموم . وكان هذا اليوم ضه أى ٢ مايو قد عين لان يكون اليوم الذى تفوه فيه الحكومة بتصريح عن مصر وكان مقترح هذا التصريح اللورد دلاوار وقد وجدت في مذكراتي مايلي :

٢ مايو — لقيت اللورد دلاوار فى مجلس اللوردة . فأخذني الى الداخل وكنت أنتظر ان أسمع شيئاً عن التصريح الخاص بمصر . ولكني بدلا من ذلك سمعت تصريح اللورد جرانفيل عن استقالة فورستر من ولاية أرلندا . وحدث على أثر ذلك هياج عظيم في المجلس وكان يبدو على لورد جرانفيل حيرة وارتباك . فقد وقف لورد سالزبرى مرة أو مرتين وسمعت روزبرى يقول بضع كلمات بهيئة مؤثرة ممتلئة وقاراً . أما المسائل المصرية فقد أرجئت باعتبارها غير مهمة » .

فقد أنستنا أرلندا جميع المسائل المصرية وبلغت هذه الحال حداً ان ذهبت مرة الى مورلي في السادس من الشهر لكي ينشر لي في جريدته خطابا جاءني من الشيخ محمد عبده يوضح فيه المؤامرة الشركسية فرفض مورلي نشر الخطاب معتذراً لي بطوله وقال لي « ليس هنا من يهتم بمصر الآن » .

وكان هذا أول فصول المأساة القادمة . ففي السابع من الشهر اغتالت عصابة

أرلندية فى دبلين كافنديش شقيق اللورد هارنجتون وأحد أصدقاء غلادستون الحميمين وكان قد عين والياً على أرلندا بدلا من فورستر وفقاً لخطة المسالمة الجديدة وقتل معه أيضاً مستر بورك. ولم يكن لهذه العصابة علاقة بحزب بارنل ولكن الجمهور لم يميز بين الاثنين وكانت النتيجة ان الامة قامت بصوت واحد تطلب اتخاذ تدابير شديدة ضد الثورة فى أرلندا. وصار غلادستون يقاوم هذا التيار وعرض على ذلك أحد الاحرار الذين كانوا مثل مستر تشمبرلن على ولاء مع حزب بارنل أن يعين والياً على أرلندا ويستمر فى اتخاذ خطة المسالمة ولكن ذلك لم يرقه هـذا المنصب المحفوف بالاخطار ورفضه. وبات من الصعب أن يوجد من يملأ هذا المنصب

فكان امام غلادستون طريقان: إما الاستقالة وإما النزول عن سياسته. وقد وجد الاكثرية فى الوزارة تخالفه فاختار الطريق الثاني ونزل عن سياسته. فأرسل الى دبلين عاصمة ارلندا ترفيليان وانعقدت النيات على اتخاذ خطة حزم وشدة فى أرلندا. وحدث مثل ذلك في مصر. فان غلادستون كان الى هذا الوقت باعتباره صاحب الصوت الاعلى في الوزارة يمنع بشخصه أى تدخل حربي على الرغم من خطة المنافرة والمخاصمة التى التزمتها وزارة الخارجية. أما الآن فقد وجد أكثرية الوزارة قد تبحثعنه فألقى بمصر الى الذئاب. فكان لسان حال زملائه فى الوزارة يقول: انظر ماذا فعلت سياسة المسالمة فى ارلندا وما جنينا منها»

وإذا كان ما قيل لى صحيحاً فان القرار بشأن سياسة الحزم والشدة فى ارلندا والقرار بشأن التدخل في مصر قد اتخذا فى جلسة واحدة فى الاسبوع التالى من شهر مايو. وإليك بعض مختارات من مذكراتي عن تلك الأيام.

« ٨ مايو — كانت نتيجة الاخبار السيئة عن مصر انى أرسلت « بلاغاً أخيراً » الى غلادستون أرجوه فيه أن يخلصني من الحيرة التى وقعت فيها بسبب صمت الحكومة. فقد قلت انى سأقول الحق اذا لم يفككه اللورد غرانفيل. والناس فى كل مكان فى هياج عن ارلندا فقد جاءت أخبار امس تنبىء باغتيال اللورد كافنديش ومستر بورك وشعر الناس لأول وهلة كأن الحكومة ستوشك ان تستقيل ولكن بارنل قد كتب اليوم ينكر أى صلة أو علاقة بهذه الجريمة وسيقوى

هذا الانكار مركز غلادستون . وفى يوم الجمعة كنت بمجلس العموم فى إحدى أروقته وكان الى جانبي ارثر براندين رئيس المجلس فأشار بيده الى «الثلاثة الارلنديين المتآمرين » وهم يتحدثون فتأملت بارنل . وهو رجل طويل حسن الوجه يبلغ عمره نحو اثنتين وثلاثين سنة . وليس فى سحنته ما يدل على أنه من القتلة السفاحين . اما ديلون فطويل القامة شاحب جداً أسمر اللون تقريبا . ولو ألبسه الانسان عباءة وأمسكه خنجراً لصار مثل جاي فوكس وكان مظهرها يتميز عن سائر من حولهما كما يتميز الرجل المهذب من بين أوباش يحيطون به .

« ١٠ مايو — جاءت اخبار سيئة من مصر . فان الخديو رفض ان يوقع على الحكم فى قضية المؤامرة الشركسية فطلب عرابى اجتماع مجلس النواب . وهم الآن يتحدثون عن خلع توفيق . وقد ذهبت الى منزل رئيس الوزارة ورأيت جودلي فألححت بضرورة حصولي على جواب من غلادستون على اسئلتى الماضية . فقال ان غلادستون غير موجود لانه ذهب لتشييع جنازة اللورد كافنديش واتفقت مع جودلى على أن أعود فى اليوم التالى لكي أحصل على اجابة . ورأى جودلى شدة قلق فوعدني بهذه الاجابة قائلا أن الوقت الحاضر فرصة سيئة » .

هذا ما كتبته في مذكرتي وانى أتذكر الآن أن جودلى كان يعطف على أشد العطف في هذه المسألة . فقد كنت متأثراً غاية التأثر . فقد تراءى لى عندئذ انه من المحزن أن يتوقف حظ امة بأسرها واحسن الآمال لاصلاح ديانة وكلتاهما — الامة والديانة — ذات مكانة فى التاريخ علي الحصول على مقابلة رجل مسن والتحدث اليه مقدار نصف ساعة لاني كنت أشعر أني قادر على إقناعه . ولم أكن أعرف احدا فى مجلس الوزراء ولكن لابد ان جودلى كان يعرف كل شيء وانى أعرف انه كان على الدوام يعارض خطة الوزارة الخارجية نحو مصر وأظن أنه شعر بجناية مستر غلادستون فى اشتراكه فى الخطة عندما وقف يدافع عن التدخل وإعلان الحرب على حرية الشرقيين لمصلحة الماليين . ولم يمض زمن طويل على تغيير خطة غلادستون حتى تركه جودلى وعين فى وظيفة أخرى وكنت أشعر على الدوام أنه فعل ذلك احتجاجاً على مستر غلادستون . واليك المذكرات .

« ١٢ مايو — لقد صرح فريسنيه بأن الأتراك لن يسمح لهم بالتدخل . وقد ذهبت الى منزل هوارد الذى وافق على ما رسمته وهو أن أنشر جميع الحقائق وعندى جميعها . وستنشرها التيمس . ويظهر أن روتشيلد قد اشتغل بجد لكي يجعل الحكومة الفرنسية توافق على عزل الخديو ووضع الامير حليم على عرش مصر . هذا وقد أمر أحد الأساطيل بأن يكون على قدم الاستعداد بعد خمسة عشر يوماً فى بليموث . . . وقد قابلت لدى هاملتون وهو يعدنى بالاجابة هذه الليلة . هذا وقد أحدث رفض ذلك لولاية ارلندا غضب هوارد . وقال عنه : « انه سيفقد مكانته الاجتماعية بهذا العمل » فهم ينظرون الي ذلك فى امتناعه عن قبول هذا المنصب كأنه قد أحجم عن خطر ولكن ربما كان الصحيح ان ذلك آثر البقاء فى وزارة الخارجية ليشرف منها على جميع مسائل أوروبا ولو أنه قبل هذا المنصب لكان في قبوله خير لمصر » .

« ١٣ مايو — جاء جواب غلادستون عن أسئلتي وهو لا يستطيع إعطاء التعليمات ولكن اللورد جرانفيل سيخطب يوم الاثنين وهو يرجونى أن أنتظر الي هذا اليوم وكل ما يعد به أن خطة الاحرار ستكون طبق مذاهب الاحرار . وهذا ما يرضيي . وقد كتبت الي غلادستون أقترح أن أذهب وأتوسط لفض الخلاف بين الخديو وعرابي وارسلت التلغراف التالى الى عرابي . « أرجوك الصبر . ولو فعل شيئاً طائشاً أو بدون رأى البرلمان . وأجل ما تنوي أن تصله مع الخديوى وأنا أشتغل بجد لمصلحتك ولكني في حاجة الى الوقت . ان الخطر حقيق » وجاءلى خطاب فى الساعة الخامسة من غلادستون يقول فيه أنه يظن ان خطابى الاخير قد كتب قبل أن تصل الاخبار الاخيرة من مصر .

ولا أدرى ماذا يقصد بهذا القول لانه ليس فى جرائد المساء شيء من الاخبار عن مصر وفى المساء جاء رد جوابى : « ١٢ مايو — أشكر لك نصائحك وقد عرض الخلاف على النواب. الهدوء شامل. ليس هناك أقل خوف على الاوربيين . احمد عرابي »

وكنت فى ذلك الوقت فى كرابت وكان معي فان بينجسن القاضى الهولندى المعروف وأحد المؤلفين وهو مؤلف كتاب « قاض مختلط » وهو من أحسن

الكتب التي ألفت عن مصر فى عهد المراقبة الثنائية . وقد وجدت فيه رجلا شديد العطف على الوطنيين المصريين .

واليوم التالى أي فى ١٥ منه كان اليوم المعين لكي تفوه فيه الحكومة بتصريح عن مصر فى البرلمان . وذهبت الى لندن وكلي رجاء عن الحالة وقد تقويت بالتلغراف الذى أرسله الى الشيخ محمد عبده . ولكن خيبة الامل كانت قد قدرت لى . فقد حدثت مناقشة فى مجلس اللوردات عن مصر ولم يفه اللورد جرانفيل باكثر من التصريح بما يشبه الوعيد باعادة مذكرة عامبتا وبقوله الذي أعتقد انه لم يكن صادقا فيه ان المجلس وجميع الامة فى صف الخديو ضد الوزارة . فهذه اذن هي « خطة الاحرار » التى وعدنى بها هاملتون . فشعرت عندئذ بانى غير مقيد بهذا الصمت الذى التزمته نحو غلادستون الذى ظهر لى كأنه قد لعب بي وخدعني . فتركت مجلس اللوردة عند ما انتهي اللورد جرانفيل من القاء خطبته وأنا فى أشد الغيظ وعزوت من ذلك الوقت على الا أرعي الحكومة . وأخذت افكر في المسألة طول الليل لكي أقرر لنفسي خطة وأخيراً قر رأيي على شيء واحد وهو مقاومة الدسائس التى كانت تعمل والعمل لافسادها .

« ١٤ مايو - قرأت فى الابزرفر أن سلطانا باشا قد ذهب أمس الى الخديو لكي يمشي الصلح بين الخديو وبين عرابي . واستنتج من ذلك أن تلغرافى قد أرسل في حينه ووقته الملائم . وتقول الصحف أنه هو والمجلس قد انضما الي الخديو ضد عرابي . ولكني لن أصدق هذا حتى تصل الى الاخبار . والارجح أن سلطانا باشا بعد غضب لاجتماع المجلس اجتماعا غير قانونى وفي وقت غير ملائم . ولا بد أن الجيش لنفوذه الكبير فى الوزارة قد أوجد لنفسه اعداء . وربما كانت هناك غيرة ولكنى لن أصدق أكثر من ذلك . وكل ذلك طبعاً هو من عمل كولفن وماليت وقد تشجع الشركس لامل تدخل الاتراك وقد أمرت بعض البوارج بالابحار الى الاسكندرية وسيكون من تأثير هذا العمل اتحاد الجميع ضد الاوروبيين

« وفى المساء جاء تلغراف من الشيخ محمد عبده لا أكاد أفهمه يقول فيه .

« ليس هناك خلاف بين سلطان باشا والبرلمان والذنب (يعني الخديو المخلوع

اسماعيل) الذي ذكرت لكم اعتقادي اشتراكه في المؤامرة الشركسية قد ثبت الآن انه مشترك فيها . ومسائل الخلاف المهمة قد عرضت على الاعضاء . وليس هناك ما يخشى منه على الامن العام » وحقيقة هذه الازمة التي حدثت في النصف الاول من شهر مايو في القاهرة كما علمت بعد ذلك كانت كما يلي :

وجد الخديو نفسه في الثاني من هذا الشهر أمام الحاح عرابي وزير الحربية مضطراً الى التوقيع على أحكام النفي على المتآمرين الشركس . وكان من بين هؤلاء المتآمرين أصدقاء لهم عليه دالة الصداقة . فاستدعى ماليت لكي يستشيره فنصح له بأن يمتنع عن التوقيع ووعده بمظاهرة السياسة الانجليزية له . ويجب أن نعتبر هذا الوقت أول فرصة عقد فيها الخديو نيته على أن يترامى في أحضان الحكومة الانجليزية ويطلب حمايتها من وزرائه . وكتب ماليت على أثر ذلك رسالة مهمة طبعت بعد ذلك في الكتب الزرق تمدح فيها باخلاق الخديو وعده جديرا بثقة حكومة جلالة الملكة . وبناء على هذا رفض الخديو التوقيع مع أنه ليس له حسب قواعد الدستور حق الامتناع عن التوقيع على أحكام المحكمة العسكرية

وكان هذا الامتناع الذي عرف وذاع في الحال داعياً الى حنق الوزراء الوطنيين وكان علم الوزراء أنه آت عن قنصل أجنبي مما يزيد حنقهم . وكتب محمود سامي رئيس الوزراء خطابا الى أعضاء البرلمان يستدعيهم للحضور الى القاهرة لانعقاد البرلمان . وكان هذا العمل غير قانوني لان استدعاء البرلمان من اختصاصات الخديو . ثم أن الوقت لم يكن ملائماً لانعقاد البرلمان من حيث الفصل فاستاء بعض الاعضاء لهذه الدعوة . ومع كل ذلك قد حضر عدد كبير من الاعضاء ولو أنهم لم يجتمعوا اجتماعا رسمياً الا أنهم في اجتماعهم في منزل سلطان باشا قرروا مؤازرة الوزارة . وقرروا أيضاً باكثرية ٤٥ ضد ٣٠ صوتاً انه اذا استمر الخديو على دسائسه مع القنصلين الفرنسي والانجليزي لم يكن ثم مناص من محاكمته وخلعه . وكان ماليت في هذا الوقت قد تسلم تلغرافاً من وزارة الخارجية تصدق فيه حتى خطبه . وكان ماليت قد وجد من الخديو تردداً فذهب اليه وأخبره بأن الاسطولين الفرنسي والانجليزي قد أمرا بالابحار الى الاسكندرية لحماية الاجانب . فارسل الخديو أو

سلطان باشا رئيس المجلس وعرض للوقف عليه وألق فى روعه وصار يلعب على المعرة التى كانت بينه وبين عرابي حتى أغراه بالانضمام اليـه والثقة بمعاونة أوروبا بدلا من المقاومة بالحرب . فلما اجتمع أعضاء المجلس اجتماعهم غير الرسمي فى المرة التالية صرح سلطان بأنه في جانب الخديو وانه يعارض خطة الوزارة وانضم اليه ستة من الاعضاء فى هذا الرأى . أما الباقون فقد ثبتوا على ولائهم للوزارة . وكان هذا هو الوقت الذى تسلم فيـه عرابى تلغرافى فى القاهرة ويظهر أنه كان له بعض التأثير على سلطان الذي لابد أنه قد اطلع عليه . ولكن الصحف الانجليزية نشرت فى ١٣ منه أن المجلس قد انضم الى الخديو ونشرت فى ١٥ منه أن محمود سامي قد استقال . وما يلى مأخوذ من مذكراتى .

وما هو الا أن جاء وقت فتح مكاتب التلغرافات في الصباح حتى أوصلت التلغراف التالى الى القاهرة وذلك فى ١٦ مايو :

« الى عرابي باشا وزير الحربيـة : قال لورد جرانفيل فى البرلمان ان سلطانا باشا والنواب قد انضموا الى الخديو ضدك . فاذا كان هـذا القول غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا أن يرسل الي تكذيباً . واذا اتحدتم فلا تخشوا شيئاً ، ألا يمكنكم أن تؤلفوا وزارة يكون سلطان باشا رئيساً لها ؟ وعلى كل حال عليكم بالثبات »

وأرسلت أيضاً هذا التلغراف التالى :

« الى سلطان باشا رئيس مجلس النواب : أعتقد أن جميع أولئك الذين يحبون مصر يجب أن يتحدوا . فلا تتشاجر مع عرابى . ان الخطر عظيم »

وأرسلت الى كل من بطرس باشا و « أبو يوسف » ومحمد باشا الفلكي هذا التلغراف :

« هل الحزب الوطني مع عرابي الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعى أنه ليس كذلك اذا ذهب اتحادكم ضمنتكم اوروبا الي أملاكها »

وأرسلت هذا التلغراف نفسه الى الاستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ الهجرسي وعبد الله نديم الخطيب . وجميع هذه التلغرافات كانت موقعة باسمي وكنت أعرف أنى فى ارسال هذه التلغرافات سأتعرض لغضب وزارة الخارجية ان لم يكن لغضب

مستر غلادستون نفسه . لانه لم يكن من المعقول أن الوكالة البريطانية في القاهرة ستجهلها لان تلغرافات شركة التلغراف الشرقي كانت تذاع في الغالب عند وصولها . ولكني كنت قد عقدت النية على المخاطرة وكل شكي وارتيابي ينحصر ان فيما اذا كنت قد أوضحت الخطر للنواب . واعتقدت ان عبارة « اذا ذهب اتحادكم ضمتكم اوروبا الى املاكها » تؤدي غرضي . وذلك لانه وان لم تكن نية انجلترا او فرنسا في ذلك الوقت ضم مصر الى املاكها فان النهاية كانت نحو هذه الغاية وكانت كلمات كولفن ترن في أذني . وأعتقد أن الحوادث قد بررت اعتقادي . فلما أن رميت سهمي ذهبت الي كرابت لاستريح وأنتظر ما تجيء به الايام . فجاء الجواب على تلغرافاتي بأسرع مما كنت أنتظر . في ذلك المساء وأنا أتناول العشاء تسلمت تلغرافاً من سلطان باشا يقول فيه :

« لقد زال الخلاف الذي كان بين الوزارة وبين الخديو ولم يبق له أثر . وكلنا متفق على المحافظة على الامن والسلام وعلى مناصرة الوزارة الحاضرة . سلطان »

ولشدة سروري أرسلت هذا التلغراف الى مستر غلادستون كما أرسلته أيضاً الي التيمس لكي تنشره .

وعدت الى لندن في السابع عشر من شهر مايو وأنا في أشد الغبطة وفي طريق تسلمت التلغرافات الآتية .

« من الشيخ الامبابي شيخ الاسلام . قد سوي الخلاف بين الوزارة والخديو والحزب الوطني راض بعرابي . والامة والجيش متحدان » .

ثم أيضاً هذا التلغراف التالي وهو بلا إمضاء ولا شك انه من أحد الاعضاء :

« جميع البلاد تظاهر عرابي والوزير سامي . والفلاحون والبدو والعلماء متحدون . وليس بيننا سوى واحد يقاوم الحرية المصرية ويجتهد في افساد الرأي العام » .

وجاءني تلغراف ثالث من محمد عبده في هذا المعنى .

ثم جاءت صحف الصباح فأيدت هذه الاخبار السارة وذكرت أن الخديو مساعي سلطان باشا قد صفح عن الوزارة . فظهر لي من ذلك أني قد نلت فوزاً

سياسياً مهماً . فذهبت وأنا مسلح بهذه التلغرافات الى شارع دوننج حيث منزل رئيس الوزراء فوجدت هاملتون وجودلي فأريتهما التلغرافات .مهآ بي على فوري . وأخبرتهما ان هذه التلغرافات قد كلفتني عشرين جنيهاً فقال هاملتون انه يجب أن يدفع لي هذا المبلغ من مخصصات النفقات السرية . هذا وقد قال هذا القول طبعاً على سبيل المزاح ولكنه يدل على ان فوري على وزارة الخارجية قد قوبل بالارتياح وقد نصح لي كل من هاملتون وجودلي بان أكتب الى مستر غلادستون — بما اني لم أره — خطاباً رسمياً أحمل فيه على وزارة الخارجيه لتعمدها الكذب .وقد قبلت أن أفعل ذلك وقطعت الليل فى كتابة هذا الخطاب . وقد اتفقت مع باتون على انه اذا طرأت الحاجة تنشر الخطاب فى جريدة التيمس . وفى اثناء ذلك أرسلت الى سلطان باشا تلغرافا رجوته فيه أن يهنئ الخديو.

ولكن جاء الصباح فتقوضت آمالي وانقلب فوزى هزيمة . فقد نزلت فى منزلي في لندن فى شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت فيطلب الجرائد فوجدت فيهن حيهن تلغرافا لشركة روتر وفيه نص تلغرافي الى الاعضاء الذي قلت فيه ان أوربا ستضم مصر الى أملاكها .وفيه ان شيخ الاسلام قد تبرأ من الرد الذى جاءني باسمه .

ووجدت فى «ذي ستاندارد» تلغرافا من مكاتبها فى القاهرة يقول فيه انه قد صرح لهمن سلطان باشا بان يكذب التلغراف الذى أرسله لي ونشر في التيمس . وان تلغراف سلطان انما كتب وهو تحت تأثير الارهاب الحربى . فكتبت الى غلادستون خطابا ثانياً وأرسلت اليهالخطابين معرسول قبلالظهر .وكذلك أرسلت الى هاملتون مع نفس هذا الرسول أخبره بوجوب نشر الخطابين . ووجدت باتون فىالمنزل ووعدني بأن الخطابين سينشران فيالتيمس .وقدسر كثيراً منهما وقاللي أنهما سيحدثان ضجة بين القراء .

ومع ذلك ومع انه قد صفت حروفهما فانهما لم ينشرا. وقد ذكرت سبب ذلك فى مذكراتي .وفيالساعة السادسة وجدت رقعة من ادى هاملتون يقول فيها انه سيكون بالمنزل فى أصيل اليوم التالي فذهبت اليه .فقال لي انى لم أكن أحسن صنعاً في ارسال تلغرافى الى شيخ الاسلام وانه لا يحسن بي انأنشره.

«فسألته عن الضمان الذي يستطيع أن يقدمه لي عن انه لا يقصد سوءاً بالاسكندرية فقال ان ذهاب الاسطول لا يقصد منه سوى تأمين أرواح الرعايا البريطانيين. ولم يكن يعتقد أن من المرجح أن يطلب تسريح الجيش المصرى أو انزال جنود فى الاسكندرية. وأكد لي أيضاً أن اللجنة التى أشرت بارسالها ستُرسل الى مصر. وقد سررت بهذا وأرسلت دافيد (خادمى) الى التيمس لكي يقف نشر خطاباتى»

ولست أشك أن هذه التأكيدات التي سمعتها في منزل رئيس الوزارة كانت صادقة. ولكن أعمال وزارة الخارجية كذبتها. وسكوتي عن الرد على التلغرافات وضعني في موضع غير حسن لدى الجمهور. فقد قالت عني سانت جيمس غازيت انى عرض أبعث العين من مراقدها. ورأت الجرائد الاخرى انى لزمت الصمت فاتبعتها في ذلك. وكان لهذه الاقوال رد فعل عند الحكومة وأيضاً عند مستر غلادستون ولو انه كان يعرف الحقائق التي كان يجهلها الجمهور. وواصلت زياراتى لمنزل رئيس الوزارة ولكن هذه الزيارات صارت تفقد بالتدريج الالفة السابقة. ولهذا السبب آسف الآن على انى قد رضيت بالا تنشر خطاباتي فى التيمس. ولو ظهرت هذه الخطابات لما كان هناك مجال لان يصدر البلاغ الاخير فى ٢٥ مايو

الفصل الثاني عشر

الدسائس ومكافحتها

ان تاريخ الستة الاسابيع التالية في مصر من بدء وصول الاسطولين الفرنسي والانجليزي الى ضرب الاسكندرية بالقنابل هو تاريخ محاولة السياسة الانجليزية فى أن تستعيد مركزها الذى فقدته. فلما لم تنجح فى ذلك لجأت الى احداث مصادمة. ومحاولة وزارة الخارجية أيضاً ان تدفع غلادستون الى أن يلجأ الى العنف. وفى كل هذه الاعمال كان المدار على احقاد شخصية اكثر مما كان على السياسة او على النفوذ المالي فلم تكن وزارات اوربا او «البورصات» ملحة الحاحا يجعل التسوية السلمية مستحيلة فقد تراجعت فرنسا فى وزارة فرسينيه عن خطة عدائها الاعتدائية. وكانت راضية

محال الموجودة بالقاهرة بينما كانت النمسا والمانيا اللتان عثلهما روتشيلد وبعض الماليين يميلين بالاتجاه الى العلاج الناجح الذى استعمل فى سنة ١٨٧٩ بدخول السلطان فى المسألة وتولية حليم مكان توفيق . وقد كان هذا حلا سهلا للنزاع بين توفيق والوزارة وقد كانت جميع الاحزاب فى مصر تقبله لحسم النزاع وان لم تكن تعتبره مثل الحلول . اما سائر الامم الاوربية فكانت تعطف علي الوطنيين وكان أشدها عطفاً سويسرا وبلجيكا . وبلغت الحماسة فى ايطاليا على الرغم من أن الحكومة كانت تعضد السياسة الانجليزية ان غاريبالدى كان يهيئ فيلقاً للذهاب الى مصر ومعاونة عرابى . ولم يكن الرأى العام متهيجاً ويطلب اتخاذ خطة نشيطة الا فى انجلترا حيث دأبت الصحف التى اغرتهن وزارة الخارجية على التأثير فيه . أما الاحقاد الشخصية للمسألة فتتلخص فيما يلى :

فقد تورط ماليت وكولفن عند تشكيل الوزارة في مقاومتهما من البداية . فكان كل حل يقضي بوجود هذه الوزارة واستقرارها يعنى فى الواقع خزيهما وانهزامهما فقد كان محتوماً على كولفن ان يقال من الخدمة عندئذ ويفصل مثلما فصل زميله الفرنسي دوبلانجير : أما ماليت فانه كان يرسل الى وظيفة صغرى لا تكون لاغلاطه فيها هذا الخطر . ثم كانت وزارة الخارجية مضطرة أيضاً الى المحافظة على كرامتها . فكان ذلك رجلا ذا اطماع وآمال ولم يكن يرضى بالهزيمة . وكان جرانفيل هذا الشيخ المسن على الرغم من حبه للراحة مغرماً بان تكون خطبه جيدة . وعلى هذا نجد من نصف مايو الى ١١ يوليو وهو تاريخ ضرب الاسكندرية عدة مناورات لا تبررها الضرورة بل تخالف ايضاً مبادئ غلادستون وليس فيها أدنى مراعاة للضمير والذمة بحيث انى لا أعتقد ان فى وزارة الخارجية ما يماثلها من هذه الوجهة

ومن الجانب الآخر نجد الحزب الوطنى فى الوقت الذى انال فيه مصر حق الحكومة الذاتية وحصل فيه على حق الحرية المدنية والشخصية وهي حقوق لم يسبق في التاريخ ان حصلت عليها مصر . وبعد ان اجتمع برلمانها واقتضى الفصل الاول من اجتماعاته . وعند ما كان النواب يشتغلون بالاصلاح ورغبة الجميع الهدوء والسلام فى هذا الوقت وجد الحزب الوطنى نفسه مهدداً بالمخاطر فى الخارج وبالخيانة التى

تؤازرها الدسائس الاجنبية من الداخل . وقد جاء فى ثلاثة خطابات . الاول والثاني من عرابي والثالث من حسن بيتيه وهو الوحيد بين العاطفين على الوطنيين الذى بقى فى مصر واشترك مع الجيش . وهذه الخطابات تبين القارئ شعور الوطنيين فى الاسابيع الاولى :

القاهرة في ١٥ مايو سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز المخلص المستر بلنت

بعد حمد الله . نخبرك ان خطابك المؤرخ فى ٢٠ ابريل قد وصلنا . وقد قرأناه ونحن فى غاية السرور . ونرجو أن نحيي قريباً ثمار مساعيك . والحقيقة ان كل من يعشق الحرية يشهد بفضلك ويحمد لك مساعيك . وقد تضاعف سروري عند ما علمت ان خطابى قد وصلاك في الوقت المناسب . والله برحمته يهدى، بالنا بحسن الحال ويرشدنا الى مافيه صلاح البلاد .

اما عن نشر الخطابين اللذين أرسلتهما لك فقد كان قصدي أن أسفه الاعداء الذين يحملون على ويتهمونني بأنني أركب الشطط وأطمح الى الاستبداد والاستئثار بالسلطة . وانت تعرف ان هذا سلب ليس غير وأحب أن أذكرك بصفتى وزير الحربية فأنا مسئول عن وزارتي كما ان كل وزير آخر مسئول عن وزارته . وليس فى الوزارة سوى صوت واحد وأنا أتبع رأى رئيس الوزارة والخطة التى يشير بها على كما يظهر ذلك من الخطاب الذى أرسله الى الخديو عند ما ألف الوزارة . ويمكنك أن تثق بأننا جميعاً غيورون على مصلحة بلادنا مجتهدون في أن نسير على أصول الحق . وقد عزمنا بمعونة الله ان نتغلب على جميع الصعوبات . فاذا كان فى أوروبا أمة تميل الى الخير وتحب نشر الحضارة تود أن تضع يدها في يدنا لكي تعيننا على التقدم فنحن نكون لها من الشاكرين . واذا لم يكن هذا فنحن نشكر الله وحده الذي أعاننا في البداية.

أما عن حالة البلاد فالهدوء شامل . والحيرة الوحيدة التى نعانيها هى فى تلك الاكاذيب التى تنشرها الصحف الاوربية . فان هذا عداء لا مبرر له . ولكن عسى غشاوة الاغرار تزول عن أعينهم؟

احمد عرابى

القاهرة فى ٢١ مايو سنة ١٨٨٢

بعد تقديم أحسن التحيات والتسليمات نقدم لكم تشكراتنا على مساعيكم وهمامكم بمصالح بلادنا وسؤالكم عنا بالتلغرافات والخطابات بعد الحوادث التى حدثت هنا . وقد أجبنا كم الى ما طلبتم منا كما أجاب أيضاً جميع الذين سألتموهم وشرحنا الاحوال بالصدق والامانة . واليكم الآن بعض التفصيلات.

ان جميع الاهالى فى حزن لمجىء البوارج الانجليزية والفرنسية وهم يرون في هذا العمل نيات منطوية على السوء بالبلاد كما أنهم يرون فيه أيضاً اعتداء لاضرورة له ولا مبرراً . وقد قرر المصريون على ألا يسلموا للدولة التى تتدخل فى شؤونهم أو فى إدارة البلاد الداخلية . وهم أيضاً مصممون على الاحتفاظ بامتيازاتهم التى ثبتتها المعاهدات . ولن يسمحوا لأحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام فيهم رمق . ثم هم أيضاً سيجهدون فى المحافظة على مصالح الاوروبيين وحياتهم وممتلكاتهم ومقامهم ما دام هؤلاء لايتعدون الحدود التى رسمتها لهم القوانين .

ونحن جميعاً نجتهد في تأدية واجباتنا ونتوكل على الله فى الدفاع عن حقوقنا وبعونه سننال غايتنا . وغايتنا تنحصر فى سعادة الوطن ونشر السلام والأمن بين سكانه . ونحن نأمل فى عدالة اوروبا ألا تتعدى الدول علينا بل بالعكس ننتظر منهم أن يحسنوا السلوك معنا . لأن هذا فى مصلحتهم ويؤدي الى تحقيق رغائبهم ونحسن بانجلترا ألا تثق بوكلائها هنا لأن هؤلاء الناس لهم مآرب خفية شخصية يريدون تحقيقها . ونحن نظن أن نجاحهم في تحقيق مآربهم هذه سيعود بالضرر على بلادهم . وعلى حكومتهم .

وفى هذا ما يكفي وسيأتيك الغد بما تجهله الآن .

وقد أرسلت طى هذا خطاباً أرجوك أن ترسله الى سير ولیم جرجوری.

وفى الختام أرجوك تقديم تحياتي لمابورتجي والليدى آن بلنت . والله يرعاكم بعنايته.

احمد عرابى

أما خطاب نينه فله قيمة خاصة من حيث التاريخ لأنه كتب فى ١٩ مايو وهو آخر أيام الحكومة الذاتية فى مصر . فهو يقول :

« إن قلبي وهو قلب وطني سويسرى يتفطر الآن على هذا الظلم الصارخ الذى ارتكبته الدول في مصر . فالأمة بأجمها قد اتحدت وانضمت الى زعيمها الشريف الذي أنبتته مياه النيل وتكون من غريزة مثل سائر الفلاحين . وقد قبلت الامة المصرية على نفسها أن تدفع الديون التى استدانها حاكم مستبد لا ضمير له . — هذا الحاكم الذى أنفق وبعثر في ستة عشر عاما نحو ثلثمائة مليون جنيه لكي يملأ جيوبه وجيوب الساسة كباراً وصغاراً وجيوب المرابين النصارى واليهود ... ثم جرت ثورة سلمية بإرادة الأمة . ولم يحدث مدة هذا الانقلاب عمل واحد لا يليق بحكومة تراعي الذمة والشرف . ولكن أوربا التي تهتم بالبورصات وبالاسهم أكثر مما تهتم بأماني الشعوب ترسل أساطيلها . ولماذا ؟ لان مجلس النواب قد وجد من المناسب أن يناقش الحكومة عن الميزانية . فاين الحيلة هنا ؟ هب أن وزيراً من وزرائكم اختلف مع المملكة فهل ترسل الامم الكاثوليكية اساطيلها الى ارلندا لتهدئتها ؟ ومع ذلك في المشابهة فارق . فان مصر هادئة . ولم يشك فيها أحد من الاوربيين أو المسيحيين . ألا تحرج هذه الحالة الصدور ؟

ومع ذلك فعرابى رجل هادىء عاقل ينتظر الغد بحكمة فلاسفة العصور القديمة. فالجيش والامة والمدن معه . وقنصل فرنسا كان الي الآن صامتاً . أما سير ماليت فقد كان الى الآن يطلب الصدام ولا يرغب في صلح او اتفاق يبذر فى القاهرة وبذر الخوف بدلا من أن يغرس الثقة والطمأنينة فى قلوب الأهالى . ولا تكاد يا سيدى تعرف مبلغ المفتريات التى تنشر فى التيمس والأستانة والديلي نيوز بواسطة الشركات التلغرافية . ومع كل ذلك لا تسمع كلمة لوم ولا نجد من الاهالى ما يسىء أحداً . فقد كنا وما زلنا فى هدوء يشبه هدوء المجتمعين فى بستان رجنت فى يوم أحد . هذا وينتظر وصول الاساطيل غداً » .

وثم خطابات أخرى تبين الحالة فى تطورها بعد ذلك . وكان هذا الظلم الفادح والهجوم على البلاد أدعي الى تغيظ الأهالي وحنقهم بحيث تعدوا طورهم لان هذه الدولة الهاجمة عليهم كانت الى هذا الوقت تعد فى نظرهم صاحبة الأثر الحسن فى حب الحرية والمذاهب الانسانية التى كان رجالها يدعون اليها بحماسة الرسل . فـ

يكن اذن من المدهش أن يتطوح العقلاء ويتأثروا بخواطر هوجاء وهم قد رأوا أنفسهم مهددين ساعة بالهجوم من جانب انجلترا وساعة أخرى بالهجوم من جانب تركيا بفعل الدسائس الانجليزية . فلم يكن لهم من يثقون به وكانوا يخشون الخيانة في كل مكان . ثم ليس أيضاً من الغريب أن يرتكب الزعماء بعض الاغلاط وهم في مثل هذه الظروف المتغيرة المتقلبة الشاقة . وكلما دقق الانسان النظر في هذه الاغلاط شهد لهؤلاء الزعماء بالفضل . فانه عند ما فشلت دسائس وكلائنا واحدة بعد أخرى وتقطعت في أيديهم أسباب الخيانة التي لجأوا اليها ووجدوا أنفسهم بعد حلهم حيال هزيمة محزنة — عند ذلك لجأوا الى المدافع والاساطيل لكي تحل عقدة لم يستطيعوا حلها . وعندئذ فقط تغير المصريون عن موقف العدوء الذي لزموه الى الا ن . واستطاعت عندئذ وزارة الخارجية الانجليزية أن تدعي الظفر .

وإثبات هذه الاقوال لا يحتاج الى ان ننسب الى عرابي او الى الزعماء الآخرين صفات من الطراز الاول . إذ لم يكونوا من حيث الادارة أو السياسة او العسكرية يبلغون مبلغ خصومهم وكان اكثرهم قليل الخبرة باساليب الحكم ودقائق السياسة الدولية . وأظن أن أحسن صفات عرابي هو تشبثه بغرضه الأصلي وهو استعداد يصادف جميع العالم مع استعداده أيضاً للدفاع عن البلاد وحمايتها من جميع من يهاجمها من الاعداء . وقد أدى من هذه الوجهة عدة خدمات لابناء وطنه مدة هذه الاسابيع القليلة يجب تذكيرهم بها الآن .

فليس هناك شك في أنه لو كان عرابي أقل عنادا أو ثباتا مما كان في عدم مغادرته مصر خوفا من التهديدات أو رغبة في الرشى ولو أنه لم يحارب لبقي الفلاحون عبيدا لاسيادهم الاتراك كما صاروا عبيداً أيضاً للاوربيين . اذ ماذا كان ينتج عن خضوع عرابي ؟ هل كانت تستمر الحكومة الذاتية ؟ هل كان الحكم الأجنبي يكون أقل شدة مما هو الآن ؟ كلا ثم كلا . انما كان يحدث شيء من نوع النظام الذي أعقب الحرب . أي استبداد الشرطة والجاسوسية والعصابات السرية . يضاف الى ذلك وقوف أوروبا عن الاهتمام بالمسائل المصرية وجمودضميرها الأدبي من هذه الناحية . ومن الممكن أنه كان يؤذن بوجود مجلس من الاعيان يجتمع « شكلا » بضعة أسابيع

ويكون بمثابة هيئة استشارية ولكنه يكون عندئذ خلوا من النفوذ وساقطاً من حيث الدعوة الوطنية . وكان حكم طبقة الأتراك والشراكسة يعود الى ما كان عليه من القسوة وكانت المراقبة المالية بعد أن تكون قد زادت سلطتها التي تستعملها لمصلحة الماليين الاوربيين تقف موقف الجمود فلا تبالي بتحرير الفلاحين من سادتهم الأتراك الذين هم أيضاً عبيد أوربا وكانت قصة الوطنية التي ذاعت عن الفلاحين تزول زوالا مخزيا لان الأمة التي لا تجسر على القتال دفاعا عن كيانها جديرة بأن تحتقر . وكانت الصحف الوطنية تنزل الى الدرك الذي بلغته صحف تونس لا يكون للحرية الشخصية أو المدنية وجود كما أن حقوق الوطنيين تكون عندئذ لا قيمة لها ولم يعتد بها أحد بل تكون مصر عندئذ كما كانت في سنة ١٨٨٣ حيث لم يكن يستطيع أي إنسان أن يتكلم بصوت عال أو يأمن جاره على أن لا يؤذيه . فأقل ما عمل عرابي أنه نجى بلاده من هذه الحال . واذا كان قد أخفق باعتباره جنديا فانه لم يخفق باعتباره وطنياً وبلاده مدينة له بذلك . فقد حال دون الاحجام عن الحرب في وقت كانت فيه الحرب لازمة لانها كانت الفرصة التي أسداها التاريخ للمصريين ليصمدوا ويدافعوا عن حريتهم .

أما وقد قلت هذا فلا فلأرجع إلى قصتي . فأقول أن تاريخ التلغراف الذى أرسل الي من القاهرة كما يأتي :

كانت الحال قد بلغت حداً خطيرا وذلك للموقف الذى اتخذه بعض الاعضاء ضعاف القلوب وبعض الزعماء من غير رجال الجيش . فان هذا الموقف كان يدعو الى الريبة . وكان ماليت قد أغري الخديو بالشجار مع وزرائه وكان الخديو قد أغرى أيضاً سلطان باشا لكي ينحاز اليه وقد توصل الى ذلك بالغيرة التى كانت بين سلطان وعرابي . وذلك أن سلطانا كان يؤمل أن يكون عضوا في وزارة محمود سامي فلما لم يحقق أمله شعر بالخيبة . زد على هذا أن الخديو أخبره بان الأسطولين الفرنسي والانجليزى كانا على وشك الوصول الي الاسكندرية فانضم اليه سلطان وأغري ثلاثين عضوا بالانحياز الى الخديو فبقي مع الوزارة ٤٠ عضواً . واستطاع ماليت أن يرسل الى وزارة الخارجية تلغرافا يقول فيه أن مجلس النواب يعضد

خديو على عرابي . ولكن تلغرافاتي أعادت الى المترددين ثقتهم وحملت سلطانا
ذهب الى الخديو الذى كان يشتغل وقتئذ فى تأليف وزارة برياسة مصطفى باشا
فهمى وزير الخارجية ولم يكن ذا خطة سياسية معينة . فتمكن سلطان من ايجاد صلح
بين محمود سامي والخديو . فاعتبر كل أحد أن الأزمة الوزارية قد انفضت . ولكن
ما كاد يتم هذا الترتيب حتى عاد فانتكث ما انعقد . فان ماليت سمع بتلغرافاتي
فأرسل فى الحال في طلب سلطان ثم أحدث فى وعده ساعة ووعيده أخرى بالأسطول
حتى أغراه بأن ينحاز الى المراقبة الاوروبية .

وكان سلطان الذى كثيراً ما ندم بعد ذلك على عدم تأديته واجبه نحو القضية
الوطنية يقول أن ماليت قد وعده بشرفه فى ذلك الوقت العصيب بأن تراعى حقوق
البرلمان . وقد قال لى أصدقاؤه أن سلطانا مات وهو يوبخ نفسه لأنه صدق ما قاله له
ماليت . ومع ذلك فأنه لم ينشق بعد ذلك أحد عن القضية الوطنية خلاف سلطان .
وكان جميع الذين تصلهم تلغرافاتي يصدقونني أكثر مما يصدقون ماليت وتقوى
ساعد عرابي بذلك عند ما جاءت الازمة الكبرى بعد هذه الحوادث بعشرة أيام
فان لعبة ماليت من حيث ارسال الأسطول فشلت فشلا تاماً . فقد كان غرض
لورد جرانفيل من ارسال الأسطول أن يكون جعجعة بغير طحن لينال غرضه دون
أن يلجأ إلى العنف وكان يؤمن بهذه الطريقة . وقد زاده ايمانا بها أنه جربها فى
العام المنصرم فى مسألة الحدود اليونانية فى دلسينيو . وكان من الحكم التى تروى
عنه قوله « التهديد يفعل فعل الضرب » وكان ماليت الذى يعرف عقلية لورد
جرانفيل يعتمد على الحصول على انتصار لا تراق فيه دماء وكان طول الوقت يسيء
تقدير العاطفة الوطنية . ولم يلجأ الى العنف والقوة الا عند ما عجز عن تحقيق غرضه
بالوسائل السياسية فعمد الى رأى كولفن فاتبعه . وهذا هو تاريخ هذا التطور .

فى ١٧ مايو انضم سلطان باشا الي ماليت . وطلب من الوزارة أن تستقيل .

في ٢٥ مايو أصدر ماليت وسكيفكس بلاغا أخيراً قالا فيه ان سلطانا قد
اقترح عليهما اصداره وطلبا استقالة الوزارة ومغادرة عرابي لمصر .

فى ٢٧ مايو استقالت وزارة محمود سامي

في ٢٨ مايو هاج أهالي القاهرة وطلبوا رد عرابي الى مركزه وزيراً وأعيد عرابي وصار له شيء شبيه بالقوة الدكتاتورية وكانت الأحوال في انجلترا في هذا الوقت على أسوأ ما تكون وقد زادها سوءاً تخلي سير وليام جريجوري عني وأنا في أشد الاحتياج اليه . فان جريجوري قد انحاز مثلي الى الوطنيين منذ ظهور الحركة وقد كتب عدة خطابات قوية في التيمس يمتدح فيها عرابي ويدافع عنه . وكان نفوذه أكبر حداً من نفوذي في المراكز الرسمية وكانت له مكانة عند تشنري رئيس تحرير التيمس . فلما رأى أن ذهاب الأسطول قد يؤدي الى وقوع القتال أخذه الخوف والفزع وصار يكتب في التيمس خطابات يعلن فيها ارتيابه ويشترط لأقواله السابقة شروطاً . وكان منذ أن ترك مصر في ابريل يسيح ويتجول في اوروبا وكنت أؤمل كل يوم أن يصل الى لندن لكي أدعم به دفاعي عن مصر لدى الحكومة . فبدلا من ذلك وجدت ما أحزنني لأنه وان لم يكن يقاومنا الا أنه لم يكن معنا . وكنا قد تواعدنا على أن نذهب معاً الى اجتماع لمقاومة القائلين بالتدخل . ولكنه رفض الذهاب .

واليك مذكراتي :

« ١٩ مايو — لقد خذلنا جريجوري فانه تعشى أمس مع تشنري الذي ألقى في قلبه الرعب وهو يرفض الآن أن يذهب الى الاجتماع . وقد ذهبت أنا وألقيت خطبة وأجبت على عدة أسئلة وأوضحت حقيقة مسألة التلغرافات . وقد طلب دلوين من المجتمعين أن يصرحوا بأني سلكت مسلكاً وطنياً »

« ٢٠ مايو — قيل لي ان لورد جرانفيل يسخط علي لأني قد شرحت مسألة التلغرافات »

وفي يوم الاحد ٢١ مايو — بعد ان دونت هاتين المذكرتين التقيت بجرانفيل وكانت مقابلتنا بعد يومين من القاء الخطبة عن التلغرافات مما ضايقني بعض المضايقة فقد دعينا أنا وزوجتي الى قضاء يومين عند لورد بورتسموث وهو ابن عم زوجتي في قصره في بورستبورن وكان لورد جرانفيل وآخرون قد دعوا أيضاً . وأظن ان جرانفيل قد قصد مقابلتي « صدفة » كما هي العادة المألوفة بين السياسيين . ولكن

كانت قد حدثت حوادث خطيرة فلم أكن أحب مقابلته ولم أكن أعرف انه مدعو. فلم يعجبي حضوره بيننا . واتفق سوء الحظ انا أحضرنا معنا جريدة الاوزفر التي روت الحفل الذي نال رجال الاسطول بعد ذهابهم الى الاسكندرية . وهاك التذكرات : « وصلنا مع لوويل سمير أمبركا فلم نجد أحداً بالقصر لانهم كانوا قد ذهبوا جميعاً للكنيسة . وعند رجوعهم نظرت ففزعت عند رؤية لورد جرانفيل وزوجته قادمين مع سائر الضيوف . ولكن سارت الاحوال على ما أشتهي لان الجميع كانوا في صفي وخصوصاً عند ما اطلعوا على الخبر القائل بان عرابي عند رؤيته الاسطول في مياه الاسكندرية طلب في الحال نصف الجيش . وان أربعة آلاف من الرديف قد تطوعوا للقتال . والقلق ظاهر على اللورد جرانفيل ولذلك فان حجتي قوية ودفاعي عن الوطنيين لا يرد . وقد تحادثت معه عن كل شأن في العالم الا مصر . وهو رجل تطيب للانسان صحبته فانه محدث من الطراز القدم اذا أورد قصة أتقن ايرادها وقصصه وان لم تناسب المقام كل المناسبة هي على الدوام جيدة . أما مع سائر الضيوف فقد كنت أتحدث عن مصر وأرى العطف والسرور باديين على محيا كل من كنت أحدثهم . فقد كان هنري كوبر حداباً وكان لوويل وستوارت راندل يعطفان أشد العطف . وكان ثانيهما لا يبدي عطفه الا عند ما يغيب عنا لورد جرانفيل وكان اليوم جميلا فأخذنا نتمشى في البستان والحدائق . وكان هنري كوبر يقص علينا القصص المستملحة . وقد روى لنا قصة عن دزرائيلي بخصوص المسألة الشرقية . فقد سمع دزرائيلي يقول عن تانكرد وهو قصة قد ألفها عن المسألة الشرقية انه كثيراً ما يراجع هذا الكتاب للفائدة لا للتسلية ... »

وكان لوويل كما قلت يؤمن أشد الايمان بالحزب الوطني وكان طول الصيف عند ما نجتمع يوافق على جميع ما أقوله .

ومما هو جدير بالذكر وله علاقة بهذه الزيارة أن لورد جرانفيل أرسل بعد يومين أي في ٢٣ مايو تلغرافاً الى ماليت يفوض له فيه أن يعمل بما يناسب وكانت نتيجة ذلك ارسال البلاغ الأخير في ٢٥ مايو

وكانت الأحوال كما كان يراها مورلي في جريدة البال مال كما يلي :

« لا تزال الأحوال فى طور خطير . فعرابي مستمر فى اتخاذ خطة التحدى . وهو الآن يلعب بأحسن ما عنده من الورق . وقد أحضرت جنود الاحتياطي الى القاهرة في السلاسل والجنود ترسل بسرعة الي الساحل لمقاومة نزول البحارة الى البر . وقد أرسلت فرق المدفعية الى الاسكندرية والمدافع تحيط الآن بالبوارج . وربما كان كل هذا فى الأرجح تهويشاً يقصد به عرابي الحصول على شروط اصلح مما ينتظر »

وقال مورلى فى الجريدة أيضاً : « ان تجربة الاحتجاج الشديد بواسطة البوارج قد تمت وقد فشلت تماماً وهاك المذكرات :

« ٢٢ مايو — عدت الى لندن . وقابلت هاري براند الذى قال لى ان ذلك قد أخبره بأن المسألة لن تنتهي الا بالتدخل وقد أرسل هوتون يطلب منى أن يستشيرني عن مصر وقد قابلته فى بهو مجلس اللوردة وتحادثنا ملياً . وقد نصحت له بأنه اذا كان سيدفع الحكومة الى ارسال جيوش الي مصر أن يرسل الى ابنته في الحال ليستدعيها الى مصر

٢٣ مايو — سئل اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردة عن شؤون مصر فأجاب اجابات فكاهية

٢٦ مايو — تكلم غلادستون عن مصر فماه بعبارات طويلة كلها خبط بلا معنى وكان أهم ما فيها انه أعلن ثقته بان المسألة ستسوى تسوية سلمية . وقد أرسل القناصل بلاغا أخيراً طلبوا فيه أن تعاد الى الخديو سلطته وأن ينفى عرابى

« ٢٧ مايو — أنكر سلطان باشا أنه هو الذى اقترح كتابة البلاغ الأخير . رفض البلاغ الأخير . قابلت جرجورى . وكلانا يعتقد أن المصريين لا بد أن يحاربوا وأشعر أنه يجب علي أن أذهب الى مصر لكي أنضم اليهم . في تلغراف فى صحف المساء خبر استقالة وزارة عرابى .

« ٢٨ مايو — كنت في كرابيت يوم الأحد . جميع الأحوال تدل على أن الأمور تسير نحو الخراب فى مصر . وأظن أن سلطة الخديو ستعاد اليه الآن تحت المراقبة . واذا غادر عرابي البلاد وسرح الجيش أو أعيد اليه ضباطه الشراكسة فان

مصر ستودع الحرية الوداع الأخير وسيكون نصيبها نصيب تونس . لقد انتصرت يا كولفن .

« ٢٩ مايو — لم أستطع النوم فلما كانت الساعة الثالثة فت أعشي . لقد آلمني وعذبني اني لم أذهب الى مصر عند ما ألقي جرانفيل خطبته . وربما كنت أقدر على تسوية . الآن عاد النور . فقد حدث انقلاب مدهش فى الجرائد فانها أعلنت أن جمهور القاهرة قد هاج وطلب اعادة وزارة عرابى وقد خضع الخديو لهذا الطلب . وهذه الاخبار لا نكاد تصدق لأنها لم تكن تنتظر . ولا يمكن الشك فى صحتها لأن غضب الجرائد يدل على صحتها.

« فقد عدنا الآن الى الحال السابق بل نحن فى حال تفضلها وليس ثم مايخشى منه سوى الباب العالى . وقد استقر رأيي على أن أسافر في الحال الى مصر . . . ذهبت الى لندن وزرت جريجورى وتناولت الغداء عند هوارد وكتبت خطابا الى هاملتون أخبره فيه عن نيتي » .

وهذا هو خطابى الذى كتبته الى هاملتون وأنا متأثر بالجو الغلادستونى :

عزيزى هاملتون .

انه وان يكن مستر غلادستون لم يسره ارسال تلغرافاتي الى مصر منذ أسبوعين فاني لا استصوب الاقدام علي عمل ما فى مسألة مصر دون أن أكون على علم به . وأنا مقتنع بأنه سوف يغفر لي ما فعلته ويستصوب ما أنوى فعله الآن . وأنا واثق تمام الثقة بانه سينحو فى مسألة مصر ذلك النحو الذى تمليه عليه خطة الاحرار وذلك عند ما يقف على الحقائق .

وهأنذا أخبرك بالضبط عما سأقوله لزعماء الوطنيين . فاني سأحضهم بادىء بدء علي أن يزيلوا من بينهم أسباب الخلاف الصغرى وهم الآن حيال خطر عظيم . وسأحضهم أيضاً كما سبق ان فعلت في الماضي على أن لا يشتبكوا مع الخديو فى شجار . واذا سنحت لى الفرصة بمقابلة الخديو فاني سأحثه أيضاً علي أن لا ينقاد الي الفناصل الذين يغرونه بالأمة وسأحض عرابى علي البقاء فى وزارة الحربية حتي تكون قيادة الجيش في يده ولكني سأنصح له بأن يترك جميع المناصب الاخرى لكي يملأها

رجال من غير الجيش وخاصة من أعضاء مجلس النواب . وسأحث المصريين على أن يحتفظوا ببقاء أحسن العلاقات الودية مع السلطان الا فيما يختص بدخول الجيش التركي للبلاد كما عليهم أيضاً أن يحتفظوا بمثل هذه العلاقات مع الدول الاوربية إلا فيما يختص بحقوقهم الدستورية .

وأيضاً سأنصح لهم بان يسلموا ببعض ما تطلبه منهم المراقبة كما سبق أن نصحت لهم بمثل ذلك في يناير الماضي . فتنال المراقبة بذلك ماتدعيه بشأن الميزانية وسأطلب الى النواب تأجيل النظر في حقوقهم الى العام الآتي . وسأشرح لهم الحالة بمقدار ما يتيسر لي فهمها فأخبرهم بان الحكومة الانجليزية وان تكن ترغب في بقاء استقلالهم معي مع ذلك مرتبطة بروابط قد عقد عقدها الوزراء السابقون . وسأخبرهم أيضاً عن مرامي الحكومة الفرنسية التي تجرى على المأثور من خطتها وهي خطة التوسع في البحر المتوسط وأن الماليين يدفعونها الآن الى الجري على هذه الخطة . وسأخبرهم عن مرامي الحكومة الالمانية وانها تنوى تحويل اتجاه السياسة الفرنسية من المسائل الداخلية الى المسائل الخارجية والي حل التحالف الانجليزي. ثم أخبرهم أخيراً عن مطامع السلطان واحلامه في الخلافة وهذه مسألة يهمونها على الاقل بمقدار ما أفهمها أنا .

ولست أقصد الى الاشتراك معهم في المسائل الحربية اذا نشب القتال إلا عند الضرورة القصوى اذا كان الاتراك هم المعتدين عليهم لاني لا أعرف شيئاً عن الحرب ونفسي تشمئز منها وتستفظعها.

ولكني سأحض المصريين على أن يقاوموا الغزو من أي الجهات أتاهم . وفي حالة الهزيمة عليهم أن لا يدفعوا الضرائب التي لم تقرها القوانين . أما إذا لم يعتد عليهم أحد فاني أطلب اليهم أن يقوموا بسداد جميع ما عليهم من الديون الى آخر فلس . ولست في حاجة لأن أخمد فيهم روح التعصب لانهم ليسوا متعصبين ولكني سأضم صوتي الي صوت عرابي في تفسير قوانين الحرب بما يلائم قواعد المروءة . ثم اني أرغب أن أكون قريباً من الوطنيين حتى أستطيع حماية الاوربيين في بدء القتال .

وأظن أنى لست مخطئاً فى اخبارك بهذه الأشياء . فالخطة التى أرسمها فى ذهني لكي يجرى عليها الوطنيون هى أن يتخذوا قاعدة يسيرون عليها تغاير ما يجرى عليه سائر الشرقيين مغايرة تامة . فانى أطلب اليهم أن يقولوا الصدق حتى لأعدائهم . وأن يكون فى جنودهم من المروءة أكثر مما عند أندادهم من الجنود الاوروبيين . وأن يكونوا من حيث الذمة أشرف من دائنيهم . لأنهم بهذا فقط يمكنهم أن يحققوا الاصلاح الذي ينشده رجال الدين عندهم وانى المخلص لك

و . س بلنت

وقد ذكرت البال مال في هـذا التاريخ أقوالا جديرة بالاثبات هنا . لأنها تظهر كيف أن وزارة الخارجية بواسطة كولفن وبلت وأمثالها كانت تصور الحالة تصويراً كاذباً . فان رسائل ماليت قد جعلت هـذه الوزارة تعتقد أنه ليس وراء عرابى سند من الأمة وأن الخديو محبوب عند جميع أفراد شعبه . وانه لم تكن الأحوال تستدعي سوى شيء من التظاهر بالمساعدة الخارجية من ناحية الاستانة حتى يتضح الولاء للخديو . واذا كانت هـذه المساعدة الخارجية لا تجعل الجيش يخضع فانها ستحدث حربا أهلية تتطلب التدخل .

وهاك ما تقول البال مال فى ٢٦ مايو :

« ان البلاغ الأخير الذى أرسلته فرنسا وانجلترا للوزارة المصرية سيقبل أو يرفض فى ظرف ٢٤ ساعة . وعلى ذلك ستنحل الأزمة هذا المساء . وسيرسل الى الاستانة فى طلب « الجندرمه » لكي تعيد الى الخديو سلطته تحت مراقبة انجلترا وفرنسا» .

وتقول أيضاً فى ٢٧ مايو . « ان الحالة فى مصر سيفصل فيها فى بضع ساعات وسنرى ما اذا كانت الازمة ستنفرج فى سلم وأمان أو تنتهي بحرب أهلية وتدخل أجنبي . لقد استقالت الوزارة وقبلت الى الآن شروط البلاغ الأخير الذى أرسلته فرنسا وانجلترا . لكن علينا أن نحسب لما سيفعله عرابى حسابا فقد يلقي القناع عنه ويصارح رئيسه بالعداء » .

أما هذه الحرب الاهلية التي تقول عنها البال مال ووضحتها في اليوم التالي أى في ٢٨ مايو اذ قالت :

« قضي الخديو ليلة أمس في قصره بالاسماعيلية يحيط به اثني عشر الف بدوى من المخلصين لسموه . ووجود أطفال الصحراء هؤلاء في عاصمة مصر سيكون حائلا دون ظهور عرابي وانتصاره . ولا شك أن وقوع قتال بين البدو والجيش المصرى سيكون من الأشياء المزعجة المخيفة . ولكن حدوث هذا القتال سيحل الازمة حلا سلمياً ... فان مركز عرابي لم يعد كما كان قبلا . فانه ليس ينفرد الآن وحده بقوة السيف . لأنه اذا كان الخديو لا يستطيع اخضاع عرابي بمعونة البدو والى ظهره البوارج الانجليزية والفرنسية ومعه مجلس الأعيان فان الحالة يجب أن تكون عندئذ أكثر مما قدرها الناس الى الآن » .

فما أعجب هذه الأقوال : أجل أليس من العجب أن يقال أن اثنى عشر الف بدوى قد أحاطوا بقصر الخديو بالاسماعيلية ؟ وان أعضاء مجلس النواب على ولاء تام للخديو وان عرابي قد وقف منفرداً يهدد الجميع ويلقي الروع في قلوبهم ؟ ومع ذلك فان هذه المفتريات التى كان يذيعها جون مورلي « الشريف » هي التى اغرت غلادستون بأن يعاقب الوطنيين المصريين الذين لا يخضعون بأن يرسل اليهم الاتراك حتى تفصل بهم جنودهم ما كان يفعله الباشبوزق في الفظائع البلغارية بل كان يود لو يرسل اليهم « رجل الخطيئة » عبد الحميد نفسه .

ولكن هذا الوهم الذى أذاعته هـذه الصحف عن الخديو وانه محبوب عند شعبه لم يعش يومين اثنين . لأننا بعـد ذلك نقرأ في البـال مال جازيت في ٣٠ مايو ما يلي :

« لقد آن الأوان لأن نقوم بعمل عاجل في مصر . فان الخديو قد سجن في سرايه . أما الاثنى عشر الف بدوى فقد ذهبوا في الهواء كأن لم يكونوا .. » الخ

وكنت في هذه الأثناء أنتظر خطاباً من دار رئيس الوزراء رداً على خطابي السابق وكنت أيضاً أتهيأ السفر الي مصر في أقرب وقت . وكان مستر غلادستون خارج لندن يقضي بضعة أيام مع لورد روزبرى في دوردان . وكان وجوده خارج

ـدن في ذلك الوقت نذير شؤم لي : فقد كنت أعرف آراء روزبري عن المسألة المصرية لاني كنت قد قابلته في دار رئيس الوزراء قبل ذلك وخرجنا معاً بصحبة هاملتون وسرنا مدة في الحديقة الصغيرة القريبة من باب متنزه سان جيمس . فسألته ونحن في الطريق عن رأيه في مصر فأجابني جوابا مختصراً بقوله : « ليس لي آراء مطلقاً عن مصر . فان رأيي هو رأى المساهمين » .

فقد كان يهتم بالوجهة المالية في الموضوع وذلك لان زوجتـه كانت من أسرة روتشيلد ولذلك اعتبرت زيارة غلادستون له في هـذا الوقت نذير شؤم . ولم يكن روزبرى بعد عضواً في الحـكومة ولـكنه كان ذا نفوذ عند غلادستون وقد عرفت من بالون ان روتشيلد كان يدفعه الى تحقيق غاية السياسة . واستمرت الحال على ذلك سنوات وقد كانت المهمة التى سافر من أجلها الى برلين في سنة ١٨٨٥ يعزى نجاحها الى مساعى روتشـيلد . وبعد ذلك كان يوالى خدمة أسرة روتشيلد في وزارة الخارجيـة ولو اني قد سمعت انه باع أسهمه في الدين المصرى قبل أن يعين في الحـكومة

واليك شيئاً من المذكرات :

« ٣٠ مايو — لم يصلني الى الآن رد من هاملتون . ومستر غلادستون ليس في دوردان الآن . ولـكن كل شيء يسير سيراً حسنا في مصر . فالمعترف به الآن أن عرابي قد امتلك ناصية الحال . وقد وصلتني رقعة امس من هاوتون يطلب فيها ان يراني ثانياً . وقد ذهبت اليـه في منزله في مايفير وأخبرته بعزمي على السفر الى مصر . وقد شعرت من أسلوبه أن لورد جرانفيل قد دسه لـكي يهجم عودي . وقد أخبرت ادارة المصرف الذى أحفظ به أموالى ان يعد لي ألف جنيه ذهباً فرنسويا لـكي انفقها على مصاريف الحرب . وانى أكره هذا السفر الآن ولـكنى سعيد لاني أؤدى حقاً . وسيسافر معي أيضاً صابونجي

« ٣١ مايو — بكرت في الصباح وذهبت الى لندن فوجدت رقعة أخرى من هاوتون يؤكد علي فيها بعدم السفر : وانا متأكد الآن ان ماقاله انما قد أوحي اليه به من مقام رسمي . وفي رقعـة هاوتون ما يستحق الذكر . فهو يقول : « عزيزى

ملت . أؤكد عليك بأن لا تذهب الى مصر فى هذه الاوقات . ومن ما ستقوله أو تعمله هناك سيساء تفسيره ويحمل على محل لم تقصد اليه . وقد تحالف الحزب العسكرى والباب العالى وهذا التحالف لا يوافق آرائك . وأرجوك أن تخبرنى عما يصلك من الاخبار . هذا وابنتى لا تزال في الاسكندرية ولكنى قلق بخصوص فترحير الذي يكرهه الجيش الآن لاقتصاده الحربى — واقبل صداقة المخلص لك — هاوتون . حاشية . اذا ذهبت فاحضر معك صديقك عرابي وتعال معه الينا هنا لنتناول العشاء معاً »

« وجاءنى أيضاً تلغراف من هاملتون يقول فيه : « وصلنا خطابكم . أرجوك أشد الرجاء ان لا تعمل شيئاً قبل أن تراني . وسأعود هذا المساء » وكان قد ذهب الى سالزبرى وفي الساعة الخامسة والنصف وجدت هاملتون في منزل رئيس الوزارة فرجانى كثيراً أن لا أذهب الى مصر لان مركزى هناك وعلاقتى بمستر غلادستون سيساء فهمها وبحدثان جلبة وضجة هنا . ثم وعدنى بان الجيوش لن ترسل الى مصر ولن يحدث تدخل ما . أما انا فقد سألته الا يعدونى مسئولا عن حوادث قد يمكن وقوعها وكان وجودى هناك يمنع وقوعها هذا . فقال انهم لن يلقوا على هذه المسئولية » .

« وصلتنى رقعة كبيرة من الليدى جرانفيل تدعونى فيها لحضور احتفال سيعقد بوزارة الخارجية فى الثالث من الشهر تذكاراً ليوم ميلاد الملكة . وسأحفظ هذه الرقعة باعتبارها جواباً على التهمة التي يتهمني بها هارى براند بأني أخون بلادى والان أنا فى غاية الرضا وسيذهب صابونجي بدلا مني وسيقوم بجميع ما أرغبه . وقد أرسل الى عرابى تلغرافاً عني جواباً على خطابه لي . وهذا نص التلغراف :

« وصل خطابكم . لا تخش الزوارج لن يحدث التدخل . وزع منشورات فى جميع أنحاء البلاد بخصوص سلامة الاجانب »

وكان هذا التلغراف قد أرسل بناء على اقتراح هاملتون

« أول يونيو » تسير الاحوال كما أشتهى . فعرابى مالك لناصية الحال فى مصر . . . ويظن باتون ان التيمس ستدفع لى ثمن التلغرافات اذا أرسلها اليها صابونجي

وهذا ما أحب . وقد اتفقت مع صابونجي على ان أدفع له مرتباً قدره ثلاثون جنيهاً شهريا غير مصاريفه . . . ذهبت الى مجلس العموم مع نيجل كحكوت وهو القيم على خيول ولي العهد . فدخلنا فى قاعة الرئيس . فأعلن غلادستون انه سيعقد مؤتمر في الاستانة . ولن تعبأ الجيوش فى الهند ولن ترسل جيوش الى مصر . لأن هذا العمل يجعل حياة الاوربيين فى خطر . وقد سأل مكوان رئيس تحرير جريدة الليفانتهيرالد السابق عما اذا كنت سأسافر الى مصر لكي أدبر فتنة هناك . فأجاب ذلك بانه يعتقد أني قد تحولت عن هذه النية .

« ثم صرح غلادستون بهذه العبارة العجيبة وهي : (ان عرابي قد ألقى عنه القناع) وهدد الخديو بالخلع ووضع حليم مكانه على عرش مصر . وهذا القول سخيف ومن واجبي ان انقضه وهو ايضاً برهان على مبلغ الجهل الذي تتورط فيه وزاراتنا الخارجية . ولا شك ان غلادستون سيغضب من ماليت لانه قد قاده الى هذه الورطة . وقد صاحبني وراتك لاسل فى الطريق وأخبرني انه رأى تلغراف ماليت الخاص بتصريح غلادستون . وكل مافي التلغراف ان الخديو أخبر ماليت بذلك وانه لا يضمن صحته فيمثل هذه الاخبار تتعلق سياستنا »

وتلغراف ماليت كما ظهر بعد ذلك فى الكتب الزرق يصرح بأقل من هذا وهذا نصه : « ارسل الخديو اليوم في طلبنا انا ومسيو سينكمكز وأخبرنا انه علم أن الحزب العسكري ينوى خلعه مساء اليوم واعلان حليم باشا خديوياً لمصر . . . وقال لنا الخديو انه لا يكاد يصدق هذا الخبر » ومع ذلك فان مستر غلادستون يتعلق بهذه الاشاعة الواهية مع انه سبق أن صرح لي بأنه لايلقى القول جزافاً فى البرلمان وقد أشار علي أن أنتظر ماسيقوله فى مجلس العموم وان للمصريين سيرون فى أقواله بشرى سعيدة لبلادهم . أقول انه مع كل هذا يفوه بهذه الكذبة بعد مدة طويلة لم يقل فيها كلمة عن مصر . وان هذه العبرة ندرك منها هذه الطرق التى يتبعها الوزراء والاسباب التى يتعلق بها عقل غلادستون و كان الأثر الذى احدثته خطبة غلادستون في ذهني زوال الشك والأمل فى مسألة مصر من ناحية وزارتنا فلم تطاوعنى نفسي بعد ذلك على أن أثق فى مستر غلادستون أقل ثقة . حتى انه عندما

قام يدافع عن الحكومة الذاتية في ارلندا وجعل من نفسه رعيا لهذه الحركة لم انخدع به بل اعتبرته رجلا برلمانيا لا أقل ولا أ كثر . ولست اقول اني عند ما قابلته في ٢٢ مارس وخاطبني وكله مروءة وحماسة عن الوطنية المصرية لم يكن مخلصاً فيما قال ولكني أقول ان عطفه على الحق لم يكن العامل الأ كبر في سياسته التي كانت تمليها عليه بواعث النجاح وانتهاز الفرص . ومن ذلك الوقت زال عني ما كنت أتوهمه فيه ولم يعد الى رأيي السابق فيه .

واليك المذكرات : « ٢ يونيه . كان بمنزلي لورد دلاوار وحرجوري وبراند وباتون . وكلهم متفائلون عن الحالة إلا براند ولا يزال هاري يقول أني خائن وان عرابي قد أثرى إثراء عظيما وانه يجب طرده من مصر . ثم اتفق باتون مع صابونجي على رموز لكي يستعملها باتون في ارسال التلغرافات اليه . وقد اعطيته مائة جنيه لمصاريفه سيقدم لي عنها حساباً . وسترسل لي التلغرافات فاحولها أنا بواسطة باتون على النيس . وقد اعطيت التعليمات اللازمة لصابونجي وأهمها أن يخبر عرابي بان يتصالح مع الخديو وأن لا يذهب الى الاستانة مهما كانت الاسباب . وقد رزمنا له أمتعته وودعناه وليس عندنا من قلق بشأنه سوى الخوف من أنه ربما يحجز في الاسكندرية . ويقول لي باتون انى لو كنت الححت على الذهاب الى مصر لكانت الحكومة أصدرت الأوامر لسير سيمور بمنعي من النزول في الاسكندرية .. وأنا الآن مطمئن » .

ولو كنت سمعت خطبة غلادستون قبل أن أعد هاملتون بعدم السفر الى مصر لما رجعت عن نيتي في الذهاب . ولكني لا أظن أنه كان ينتظر من هذا السفر شيئا من الفائدة كما دلت على ذلك الحوادث التالية . ولو كان قد سمح لي بالنزول في الاسكندرية لما كان لي من النفوذ لدى عرابي ا كثر مما كان لصابونجي . لان صابونجي كان فذاً في تأدية مثل هذه المهمات ولا أعتقد أني كنت أحصل على خير منه لو لم يقم هو بها . فقد كان رئيساً لتحرير صحيفة تدعي النحلة . وسواء اكانت هذه الصحيفة تحصل على اعانة من اسماعيل أم لم تحصل فانها كانت تدافع عن الابرياء سائرة في سبل التقدم واصلاح الاسلام . فكان لصابونجي مركز عظيم عند رجال

الازهر ثم هو كان مع الحركة الوطنية قلباً وقالباً وكان يقابل بالترحاب عند جميع الوطنيين باعتباره نائبي وكانت الثقة فيه عظيمة جداً وهو أيضاً كان جديراً بهذه الثقة . فان الخطابات التي ائتمنته على ارسالها الى رجال الحركة قد وصلت اليهم وقد بلغني جميع ما قالوه له . وهذه الخطابات شاهد عدل بل الشاهد الوحيد على مجرى الاحوال فى تلك الاوقات. وفى نهاية هذا المجلد يرى القاريء خلاصة هذه الخطابات وقد وصل صابونجي الى الاسكندرية في ٧ يونيه وبقي فيها الى قبيل يوم ضربها بقنابل البوارج .

« وقد بقي صابونجي في خدمتي الى آخر سنة ١٨٨٣ . ثم تركني وسافر الى الهند حيث كان له أقارب . وتقلبت به الاحوال حتى انتهت به الي ما ينتهي اليه جميع رجال الثورة الشرقيين . أي سراي يلدز . فقد عين هناك مترجماً ينقل للسلطان ما يريد معرفته من الجرائد الاوروبية . وأظن أنه لا يزال هناك الى هذا الوقت أي سنة ١٩٠٧ »

الفصل الثالث عشر

« بعثة درويش »

لقد وصلت الآن الي نقطة فى تاريخ هذه الدسائس لو لم يكن لدي مواد مطبوعة شبيهة بالرسمية اعتمد عليها لعد القراء ما أرويه لهم قصصاً خيالية لا أصل لها. فان الانسان لا يكاد يصدق أن حكومة حرة على رأسها هذا العظيم الطيب القلب غلادستون تقدم علي عمل يخالف الآداب سواء كان هذا لاسباب سياسية أم مالية أم لضرورة خاصة . وقد وضع جون موزلي ترجمة غلادستون فاغضي عن تاريخ هذه الاقتحامات التي اندفع فيها غلادستون فى مسألة مصر . فلم يذكر عن هذه المسألة فى ترجمته هذه سوى خمس عشرة صفحة مع أن الترجمة تحتوى على الف وخمسمائة صفحة كلها تقريظ . وله الحق فى ذلك لانه لو أراد الاسهاب والتفصيل لما وجد ما يبرر خطة المترجم له . ومع كل ذلك يجب أن يكون لدى المؤرخين الذين

لا تضطرون الى مراعاة التكتم هذه التفاصيل . لان التاريخ الذى يهمل هذه الاشياء عن احتلال انجلترا لمصر لن يساوى قيمة الورق الذى يطبع عليه .

فانه عندما جاء أول يونيه تبين أن خطة الارهاب والتخويف التي اقتضت مجيء الاسطول للاسكندرية قد فشلت فشلا تاماً . نعم ان وزارة محمود سامى قد استقالت ولكن هذا النجاح الابتدائي قد أعقبه هبوط عظيم .

وكان البلاغ يطلب من عرابي بكل وضوح أن يخرج من مصر . فلم يقابل عرابى هذا البلاغ بالعصيان فقط بل ان الخديو نفسه قد اضطر بقوة الرأى العام أن يرده الى مركز وزارة الحربية ثانياً بعد أن زاد فى سلطته ووجاهة مقامه . فوجدت وزارة الخارجية نفسها بين أمرين . اما أن تكظم غيظها وترضي بهذه الهزيمة العلنية واما أن تبرر ارسالها هذا البلاغ وتقيم لكلماته وزنا فى وقت كانت قد بدأت فيه أوروبا تنظر الى عرابى باعتباره بطلا من أبطال الوطنية .

وكانت فرنسا شريكة انجلترا فى هذه المسألة قد أخذت منذ وقت طويل تجهر برغبتها فى الخروج من هذا المأزق . فكادت حكومة مستر غلادستون تكون الوحيدة فى الاستمرار على هذه الخطة . وكانت هذه الخطة من أغرب ما يمكن حكومة متمدينة أن تتبعه وكان وجود مستر غلادستون على رأس الحكومة الانجليزية مما يزيد هذه الخطة غرابة . فقد كانت تتلخص هذه الخطة فى الرغبة الى الباب العالى أن يتدخل ويخلص مصر من عرابى . ولم يكن هذا التدخل قائماً على استعمال الباب العالى سلطته باعتباره صاحب السيادة على مصر ولا كان أيضاً بارساله « الجندرمه » التى سبق أن ذكرنا الاشاعة التى راجت في وقت ما عنها . كلا . فانما كان هذا التدخل قائماً على تلك الأساليب التركية القديمة المنطوية على الخيانة والغدر . وهي أساليب كثيراً ما استعملها الباب العالى فى اخماد حركات الثائرين المسيحيين وغير المسيحيين من رعاياه عندما كان يشتم منهم بارقة النجاح فى ثوراتهم

وأول مايلمح الى هذه التدبيرات ما ذكرته البال مال غازيت فى احدى مقالاتها الموحي اليها بها وذلك فى ١٥ مايو حيث ذكر مورلى بعد ان أوضح رضي الحكومة عن الحالة « ان عرابي قبل مضي زمن طويل ستتخلص البلاد منه بطريقة سلمية

ملاتة » وهذه التدابير لم يفش بالطبع سرها فى الكتب الزرق . ولكنها ظهرت بعد ذلك فى البال مال حيث صرحت باشياء صراحة فادحة كأن كاتبها لم يشعر أقل شعور بعدم اللياقة فيما روى . وخلاصة هذه التدابير أن يرسل السلطان الى مصر مبعوثاً حربيا من طراز الجنود الذين مارسوا الخدمة مدة طويلة وفيهم من النشاط والاستعداد للدوس على الضمير ما يمكن ان يخيف بها المصريين ويحولهم عن المقاومة . أما عن عرابى فان النية كانت فى ان يغريه بالنزول فى احدى السفن حتى اذا استقلها أبحرت به الى الاستانة . واذا لم ينجح هذا التدبير كان على هذا المبعوث ان يدعو عرابي الى اجتماع ثم يقتله بنفسه . وكان هـذا المقترح يوافق ما كان قد اقترحه كولفن منذ تسعة أشهر على الخديوى وكان كولفن يفتخر بذلك فلم يكن اذن هذا التدبير بعيد الاحتمال . وعلى ذلك أرسل السلطان رجلا يدعى درويش باشا وكان من حيث الخلق والسوابق يوافق هذه المهمة التي انتدب لها فى القاهرة

وقد قال مورلى في مقال يطفح سروراً لارسال هذا المبعوث العثماني مايلي :

« لقد وصلت الازمة المصرية أقصى حدودها . ولكن يظهر ان فى القاهرة الآن رجلا يستطيع ان يملك ناصية الاحوال . فان فى وقاحة درويش باشا الهادئة الرصينة شيئاً من التأثير . فهو بلا شك رجل الساعة . فانه مما يريح البال ويزيل القلق انه بعد عدة تقلبات ومراوغات مارسها السياسيون الذين يمثلون الآن هذه الدراسة المصرية نجد رجلا يجعل الآخرين يخضعون لارادته بقوة شخصيته الكبيرة . فليس هناك شيء أكبر أثراً من اثباته لسلطته ولا أبرع من اشارته اشارة عرضية الى مذبحة المماليك . ان درويشاً رجل من حديد وحق عرابى ان يرتجف أمامه . فما هو ان ينطق بكلمة خرقاء حتى يرى رأسه تتدحرج أمامه على السجاد . أجل ان درويشاً قادر على ان يعالج عرابى بالطريقة الشرقية لابالطريقة الغربية . ومن المرجح ان الثورة المصرية قد وجدت سيداً لها فى هذا التركي القوي العزيمة »

ثم هناك ما يقوله أيضاً فى ١٥ يونيو « ان تاريخ درويش الماضي حافل بالحوادث التى تزيد هذا الأثر الذى تركه فى القاهرة من حيث نشاطه وقوته. فهو أنشط القواد فى الجيش العثمانى وأقلهم احتفالا بالضمير والذمة . وهو مع انه فى السبعين من عمره

فان ارادته لا تزال كما كانت قديماً من حديد . وقد مارس الحروب أولا في الجبل الاسود وكان الجبليون يرون فيه أخطر القواد الذين يقاتلونهم . وفى آخر قتال حدث بين الباب العالي والجبل الاسود (فى سنة ١٨٥٦) سار درويش الى جراكوفو وهى أبعد بلاد الولاية الشمالية . ومنع بعض الاهالى من التقهقر الى الجنوب فلجأوا الى مغارة واختبأوا فيها . وهذه عادتهم اذا دهمهم عار . لان هذا الكهف الذى كانوا يأوون اليه كان يمتنع على الغزاة اخراجهم منه لان الطريقة المألوفة فى مثل هذه الحالات وهى التدخين على باب الكهف لم تكن ناجحة فى هذه الحالة . وحاول الاتراك النفوذ الى المغارة ولكنهم ردوا عنها بسهولة . فعمد درويش الى المفاوضات واتفق على التسليم بشرط أن تحترم حياة المحصورين وأموالهم وحريتهم . وكانت النتيجة ان الاتراك بقيادة درويش حافظوا على شروط هذا الاتفاق بأن قتلوا جميع المحصورين . وكيفية ذلك انهم سيقوا الى مطبق فى القلعة ثم وضعوا فى الاغلال كل اثنين منهم معاً ظهراً لظهر ثم قتلوا . وذلك بأن يقتل أحد الاثنين فيحمله الثانى الى حيث يدفنه . . . وبعض الناس لا يعرف الطريقة التي سلكها درويش فى الحرب الالبانية . فقد ذهب الى البانيا لكي ينفذ قانون التجنيد ففشل فشلا تاماً . وقد أشاع أساطير عن معارك لم يكن لها أصل لأنه لم يلق مقاومة تذكر . ولكنه نجح فى طريقة أخرى وذلك بأنه كان ينزل فى ضياع البكوات الاغنياء وكان يعتصرهم حتى يخرج منهم آخر فلس . فاذا انتهى من أحدهم ذهب الى غيره . وكان يرسل الى الاستانة . بالنقود ولكنه لم يرسل اليها مجندين . فاذا كنا نبني تنبؤنا بصدد البعثة درويش فى مصر على أعماله السابقة فى البانيا والجبل الاسود فاننا نرى انه سينجح فى مصر . فان المصريين أقل ميلا للقول من الجبليين والالبانيين ولكن عقدة المسألة المصرية تحتاج أيضا الى السيف لقطعها »

فهذه أقوال عجيبة وجدير بجون مورلى اذا تذكرها الآن ان يعروه الخزى والخجل لانه قد انخدع بما قاله له أصدقاؤه فى وزارة الخارجية حتى وقف من قضيته فى ذلك الصيف محاميا يذود عن جرائمهم . فلا عجب بعد ذلك ان لا يذكر المسألة المصرية الا فى عدة صفحات فى تاريخه . وهذه أعمال عجيبة أيضا من رجل مثل

غلادستون اذ ماذا يقول فيها لو انه دعى الى ايضاحها امام ضميره الرسمي او غير الرسمي . حقاً ان طيف درزائيلي ليضحك من هذه الاعمال والاقوال !

الا ان بعثة السلطان لم تكن كما توهمت وزارتنا الخارجية مهزلة من الأمم ساذجة فان امير المؤمنين لم تكن له رغبة فى أن يكون آلة مسخرة فى يد الغرب يعمل لهم أفاعيلهم ويحترم جرائمهم . فقد كان راضيا بالتدخل ولكن على هدى . وكان يجهل الحالة فى مصر وكان يريد ان يستعد لجميع الطوارئ . وكان لعرابى أصدقاء فى البلاط يشاورنه باعتباره مدافعا عن الدين ولم يكن السلطان يثق مطلقا بتوفيق . وكان يرغب أن يصبح حليما فى مكانه . فاتبع السلطان طريقته المعهودة فى تعيين وكيلين متعارضين فى الخطة . فانه الى جانب درويش عين شخصا آخر يدعى الشيخ احمد اسعد وكان من مشايخ طرق المدينة وكان يقيم بالاستانة ويستخدمه السلطان فى المهمات السرية الخاصة بالمسائل العربية . وكان يستشيره فى جميع المسائل الخاصة بالعرب وبالدعوة الى الجامعة الاسلامية . وكان هذا الشيخ مواليا لعرابى

فلما وصلت البعثة الى الاسكندرية تبين الناس ان لها صفتين . احداهما فى شخص درويش وتنطوى على تهديد عرابى . والاخرى فى شخص الشيخ احمد اسعد وتنطوي على المصالحة والمسالمة . وكان من المهمات التى عهدت الى هذا الشيخ خاصة ان يبلغ السلطان عن الشعور العام وعن رأى علماء الازهر وكان يخاطب السلطان بأرقام قد اتفق الاثنان عليها قبلا وكان درويش لا يعرف هذه الارقام . وكان عرابى وأخصاؤه قد علموا بذلك قبل وصول البعثة فقابلوها بشئ من الترحاب . فكان منظر استقبالها غريبا . فمن جهة كان الشراكسة والأتراك يرحبون بدرويش بينما كان المصريون يرحبون بشيخ المدينة

وقد أرسل كل من الخديو وعرابي مندوبين لاستقبال البعثة فى الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الخديو وكان يعقوب سامي باشا ينوب عن عرابي وكان عرابي قد سبق فأرسل عبد الله نديم الخطيب لكي يهيء الجمهور حتى يحسن استقبال البعثة ويحتج أيضا على البلاغ الأخير الذى أرسله ماليت وزملاؤه الفرنسيون للحكومة

وعلى هذا استقبل الجمهور المبعوثين وكان كل منهما فى مركبته ومعه مندوب . فكان الجمهور يصيح « الله ينصر السلطان » ثم يلي ذلك : « اللائحة مرفوضة . مرفوضة » يريدون بذلك رفض البلاغ الاخير . وأيضا « ردوا الاساطيل » .

وكان لهذا الهتاف أثره عند درويش فانه احتاط لنفسه من ذلك الوقت . وقد ذهب الى البعثة وهى فى الاسكندرية والقاهرة مندوبون من الاعيان والتجار والموظفين وكان درويش يجيبهم على السواء إجابة عامة . وهي ان السلطان سيجري العدل وانه هو قد أتي لكي يرد للسلطان سلطته ويعيد النظام . ولم يصرح الا للأتراك بأن عرابي سيرسل الى الاستانة . اما للمصريين فانه كان يصرح أن الاساطيل ستغادر المياه فى أقرب وقت بينما كان الشيخ اسعد يطمئن عرابى ويخبره بان السلطان لا ينوي نحوه الا النيات الحسنة .

أما الصفات التى اعتقدت وزارة الخارجية الانجليزية ومورلي وجودها فى درويش كما تدل على تلك القطعة التى نشرها مورلي واقتبسناها هنا فلم يكن لها تلك المسحة القاسية التي توقعها مورلى . فقد كان درويش رجلا مسنا وكانت غايته أن يملأ جيوبه لا أن يشتبك فى نزاع مع زعيم الفلاحين . وقد تمكن توفيق من أن يدفع له خمسين ألف جنيه وقدم له من هبات الحلى مايقدر ثمنه بخمسة وعشرين ألف جنيه ولكن درويشا مع ذلك لم يحاول ان يضرب عرابي ضربة قاضية . فقد حاول مرة ان يهدد الوطنيين ولكنه تعلم من هذه ألا يعود الى مثلها بعد ذلك . وفى يوم الجمعة التالى لقدومه زار بعض المساجد وعبر عن استيائه من العلماء لأنه عندما خرج من الأزهر تجرأوا على أن يقدموا له عريضة ثم لم يكتفوا بذلك بل زادوا جرأتهم وذهبوا اليه بعد الظهر وزاروه وعبروا عن أفكارهم بحرية لم يألفها .

وكان جميع هؤلاء العلماء باستثناء العباسى شيخ الاسلام السابق والبمرامي والابيارى والسادات فى صف عرابى . أما هؤلاء الاربعة فكانوا فى صف الخديو . وقد طلب العلماء منه أن يرفض البلاغ وبخاصة تلك الفقرة التى تشترط نفى عرابى . فأمرهم درويش عند ذلك أن يلزموا الصمت وقال انه انما أتى لكي يلقى الاوامر لا لكي يسمع النصيحة وطردهم وفي نفس الوقت أنعم بالوسام العثماني على شيخ الاسلام وسائر المنشقين .

ولكن الرأي العام تجلى فى الحال بصورة لاتترك مجالا للشك .فقد عاد هؤلاء المشايخ من لدنه وهم فى أشد الغيظ وأخبروا كل واحد باتجاه التيـار حسب مارأوه من لهجة درويش وفى نفس هذا المساء أرسل الوطنيون رسلهم الى المديريات فى قطارات المساء لكي يدبروا الاحتجاجات . وعقدت عدة اجتماعات تلك الليـلة فى القاهرة تسخط فيها المجتمعون على البعثه .وفى اليوم التالى عقد اجتماع كبير من الطلبة فى الازهر واحتجوا على الاهانة التى نالت مشايخهم وفى هـذا الاجتماع دعى عبد الله نديم الى الخطابة فخطبهم خطبة بليغة .

فلما بلغ درويشا هذه الحوادث اهتز لها فقد ثقته ولم تمض ساعات حتى أرسل الى عرابي الذى كان الى ذلك الوقت يرفض مقابلته ودعا أيضا محمود سامي وخاطبهما بواسطة مترجم وبلهجة المصالحة .وكان الشيخ أسعد مع المترجم يساعده فى ايضاح مايريده

وعلى الرغم من أن درويشا لم يقـدم لهم القهوة أو السجاير — وهو مالاحظه عرابي ورفيقه — فان لهجته كانت تميل الى المصالحة . فقد جعلهما يجلسان الى جانبه وأخذ فى فحص الحالة فحصا عليه مسحة الصراحة .فقال : «اننا هنا جميعا اخوان لاننا أبناء السلطان .ويمكنكما أن تنظرا الي والى هذه اللحية البيضاء باعتبارى أبا لكما . ثم ان قصدنا جميعا واحد وهو مقاومة الاجانب ومبارحة الاسطول الذى يهدد سلامة القطر المصرى ويجلب العار بوجوده هنا على السلطان .فالواجب علينا أن ننظر الى هذا الغاية وأن نظهر غيرتنا لمولانا .كل هذا يمكن عمله بان (وهنا وجه الخطاب الى عرابي) تنزل عن سلطتك لي ولو فى الظاهر وتسافر أنت الى الاستانة لكي ترضى السلطان»

فأجاب عرابي بانه مستعد لان يستقيل .ولكن بما ان الحالة خطيرة والمسئولية عظيمة فهو لا يرضى بأن يؤدى نصف العمل .فاذا استقال فيجب أن تكون استقالته بالفعل والقول . ولـكنه لن يستقيل الا اذا تسلم خطابا تدون فيه اقالته . ثم انه لن يكون مسئولا عن الاشياء التى تعزى اليه والتى يعتبر نفسه بريئا منها .فقد سبق ان اتهم بارتكاب المظالم وانتهاب أموال الحكومة وما الى ذلك فهو لن يترك منصبه الا اذا حصل على اقالة مكتوبة تتضمن تبرئته بما عزي اليه . ثم انه يؤجل سفره للاستانة الى وقت تكون قد هدأت فيه الحالة .وعندئذ يذهب باعتباره أحد أفراد

السلمين ليقدم فروض الطاعة للخليفة .ولم يكن درويش مستعداً لقبول هذا الجواب فلم يستمرئه وتغيرت هيئته . ولكنه قال : « فلنعتبر ان المسألة قد سويت » ثم أشار الى الميساج الذى رآه فى الاسكندرية وقال : « ارسل تلغرافاً لعمر باشا لطفى (المحافظ).وقائد الحامية فى الاسكندرية . وقل لهما انك قد نزلت عن وظيفتك لى وانك تعمل الآن باعتبارك وكيلي . ويوم الاحد سيجتمع الفاصل بالخديو وسنعطيك الاقالة التى تطلبها » .

فرفض عرابى أن يعمل ذلك قائلا انه لن يستقيل حتى يتسلم خطاب الاقالة . ثم افترقا دون أن يحدث بينهما تفاهم .

هذا هو بيان ما جرى فى هذه المحادثة كما رواها نينه وغيره ممن وقفوا عليها. وكانت هذه المقابلة فى ظهر يوم ١٠ يونيو . وهي ذات أهمية من عدة وجوه وخاصة لما كان لها من العلاقة بما حدث فى اليوم التالى من الشغب الذى كان في الأصل مشاجرة بسيطة بين مالطي ومكارى مصرى . فقدابتدأت هذه المشاجرة في الساعة الأولي بعد الظهر وانتهت فى الساعة الخامسة وكانت نتيجتها ان مائتي شخص قتلوا وكان بينهم ضابط من البارجة « سيوبرب » وقتل أيضاً مائتا اوروبى زيادة علي ذلك . وحدث لكوكسون القنصل البريطانى عدة اصابات خطرة وأصيب أيضاً قنصل ايطاليا وقنصل اليونان ببعض اصابات . ولم يهدأ الاضطراب حتى وصلت الجنود النظامية فأخمدته . وكان هذا الاضطراب أول ما حدث من نوعه بعد عام من الثورة فى مصر . وقد أحدث خبر هذا الاضطراب الذى ارسل الى اوروبا بالتلغراف ضجة كبيرة وخاصة فى انجلترا .

وبما أن تبعة هذا الاضطراب الذى عاد شؤمه على القضية المصرية قد القيت علي كاهل رجل هو أكبر من اودى منه — اعني به عرابي — وبما أن هذا الاضطراب قد أخذت وزارة الخارجية الانجليزية تستغله لمصلحتها وتعللت به لضرب الاسكندرية لأنها اعتبرت مصر « فى حالة من الفوضي لا يمكن انكارها » فانه يحسن أن نقف هنا قليلا لكي نقرر مكان هذه التبعة وما لحقها من الجرائم .

فاني عند ما سمعت عن هذا الاضطراب فى لندن شعرت لأول وهلة أنه نتيجة

المؤامرة التي دبرها رجال وزارة الخارجية بواسطة درويش لايقاع عرابي في الشراك التي نصب له والقدر به . ولكني لم أحصل على المستندات الخاصة بهذا الاضطراب الا بعد الحرب . فلم يكن في مقدوري الدفاع عن الوطنيين وتبرئتهم من ارتكاب هذه الجناية الا بعد حصولي على هذه المستندات .

فاننا نعرف الآن جميعاً أن هذا الاضطراب وان كان في الأصل قد حدث دون تدبير سابق فان حزب الخديو كان ينوى احداث مثل هذا الشغب لكي يثبت عدم أهلية عرابي لحفظ النظام في البلاد .

أما الحالة في الاسكندرية فكانت كما يلي :

كانت الاسكندرية أكثر من كل بلدة أخرى في مصر تحتوى على عدد كبير من الأجانب فكان فيها الى جانب المسلمين عدد كبير من اليونان والايطاليين والمالطيين . وجميعهم يشتغلون بالتجارة وأكثرهم يشتغل بالربا . ولم يكن بين طبقتين الأجانب والوطنيين ود كبير . ثم أن مجيء الأسطول الى الاسكندرية كان الغرض الظاهر منه حماية الأجانب باعثاً على إيغار الصدور . فقد كان محافظ المدينة يحتاج الى صفات الثبات والولاء والرفق لكي يحافظ على النظام كما كان رجال الأسطول أيضاً محتاجين الى الرزانة ولكن كان المحافظ لسوء الحظ وهو عمر باشا لطفي يكره الوطنيين . فانه كان شركسياً وأحد أفراد الحاشية وكان موالياً لاسماعيل وقد خدم توفيقا وقت المؤامرة الشركسية بأن فاوض البدو في الجهات الغربية بأن يكونوا في صف الخديو . فهو لهذا السبب كان يشجع العناصر الوطنية على الشغب . أما اليونان فقد كانوا مسلحين من قبل بواسطة رئيس طائفتهم امبراوز سينادينو وهو رجل مثر وكان أيضاً وكيلا ليت روتشيلد في مصر . وقد تسلح المالطيون أيضاً واغضى عنهم القنصل الانجليزى كوكسون . فكانت جميع الأحوال مهيأة لاحداث شغب منذ الأسبوع الأخير من شهر مايو توقعاً للحرب الأهلية التي يذكر القارئ أن البال مال غازيت قد تنبأت عن حدوثها واعتبرتها حلا لابأس به اذا رفضت الوزارة الوطنية أن تستقيل .

وليس هناك من شك في أن الساسة الانجليز في القاهرة كانوا ينتظرون هذا

الاضطراب ليعتبروه حجة على الفوضى بل انه كان في نظرهم لا ينافى خطتهم . ومن السهل أيضاً أن نثبت أن عمر لطفي كان يرغب فى ازالة عرابى من مسرح السياسة .

وقد ورد فى التلغرافات انه عند ما كان البلاغ الأخير بوشك أن يرسل الحكومة المصرية كانت قد هيأت قائمة بأسماء أعضاء الوزارة الشركسية الخديوية المرشحين بعد استقالة وزارة محمود سامى . وقد رشح لوزارة الحربيــة بدل عرابى محافظ الاسكندرية هذا عمر لطفي . ولم يكن هذا الخبر غير مؤسس على حقيقة لأننا نعرف انه بعــد ذلك بأيام دعا الخديو عمر لطفي الى قصر الاسماعيلية وعرض عليه هذا المنصب .

جاء في البال مال غازيت فى ٢٨ مايو ما يأتى : « القاهرة فى ٢٧ منه — اجتمع فى سراى الاسماعيلية ظهر اليوم عمر باشا لطفي وشريف باشا وسلطان رئيس مجلس الأعيان وراغب باشا ... وستكون رئاسة مجلس الوزراء لشريف باشا أو لعمر باشا لطفي ... وسيكون عمر باشا لطفي وزير الحربية » .

وقد سلم البلاغ الأخير في أول يونيو واستقالت الوزارة فى ٢ يونيو وانتظر الوزراء يوماً لأن الخديو أخبرهم بأنه سيرسل تلغرافاً يستشير فيه الاستانة ولكن عند ما جاءه الوزراء فى الصباح أخبرهم بأنه قد قرر أن يقبل البلاغ ولو أنه لم يتسلم من الاستانة جوابا على تلغرافه . فلما كان اليوم الثالث من يونيو ورأى الخديو أنه مضطر الى اعادة عرابى بضغط الرأى العام عليه ومظاهرات الجمهور ومناصرة القنصل الالمانى والقنصل النمسوى لعرابى لأنهما كانا يريان فيه أكفأ رجل لحفظ النظام فى مصر كانت خيبة آمال عمر لطفي كبيرة . وكان يرى فى خيبة آماله هذه ما يدعو الى تفنيد رأى هذين القنصلين باقامة برهان عملى . وهناك زيادة على ذلك شاهد آخر يقوى ظننا في اتهام عمر لطفي . وذلك أن الخديو الذى كانت خيبته لا تقل عن خيبة عمر لطفي أرسل فى ٥ يونيو تلغرافاً قال فيه :

« لقد تعهد عرابي بحفظ النظام وأعلن ذلك فى الجرائد وقبل على نفسه المسئولية أمام القناصل . فاذا نجح فى هذا التعهد فان الدول يثق به وعندئذ تضيع اعتبارات ثم أن أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية . فعقول الناس متهيجة فالمشاجرات ليست

هيبة الحدوث بين الاوروبيين وغيرهم . فالآن : اختر لنفسك اذا كنت تنوي خدمة عرابي مساعدة على تمهيد أو تنوى خدمتنا » .

وكان في هذا التلميح ما يجعل عمر لطفي يتخذ اجراءاته . وكان باعتباره محافظا صاحب حق الأمر على المستحفظين وهم يؤلفون بوليس الاسكندرية الشبيه بالحربي فبواسطة هؤلاء أمر أن تحمل النبابيت في أثمان الأقسام لكي توزع في الوقت المعين وبعد الاعدادات اللازمة الاخرى لاحداث الاضطراب المقصود .

وهناك أدلة قوية في الكتب الزرق تثبت اشتراك البوليس في الاضطراب . ويرى أن هناك اختلاطاً في التمييز بين رجال البوليس هؤلاء وبين الجنود وذلك لأن لفظة عسكرى تدل في مصر على الاثنين . فان الجنود النظامية كانت بقيادة المحافظ حربي ولم تشترك في الاضطراب الا عندما دعيت في الساعة الأخيرة بناء على طلب عمر لطفي عندما رأى ان الاضطراب قد عدا طوره وانه لا يستطيع امتلاك ناصيته . ومما يلاحظ أن رئيس المستحفظين سيد قنديل وكان من المنتصرين لعرابى وهو رجل ضعيف القلب رفض أن يشترك في أعمال ذلك اليوم واعتذر الى المحافظ بالمرض .

فالاضطراب كان قد دبر عند وصول درويش ورفيقه الى الاسكندرية في ٨ يونيو . والأرجح أن القصد كان أحداثه في نفس الوقت الذى يقبض فيه على عرابي وذلك لاقامة البرهان أمام مبعوث السلطان بان عرابى غير قادر على حفظ النظام . ولست مقتنعاً بأن درويشاً كان يجهل ما سيحصل وأظن أن الارجح أنه كان يعرف كل شيء قبل حديثه مع عرابى . وأنه لو كان قد نجح في جعل عرابى يستقيل لكان ألغى تدبير هذا الاضطراب . وهناك ما يدل على ان الاضطراب وقع قبل الوقت الذى كانت النية معقودة على احداثه فيه . لان من المحقق ان حادثة المشاجرة بين المكارى والمالطي كانت حادثة عرضية ولكن المرجح انه لم تصدر أوامر الى البوليس بوقف المشاجرة فاستمرت وفقا لبرنامج الموضوع للاضطراب . ولكن ما لا شك فيه ان الخديوي في القاهرة وعمر لطفي في الاسكندرية كانا يحتكران المواصلات التلغرافيـة بين هاتين المدينتين . وان عمر لطفى كان يؤجل وهو يتعلل بعدة أعذار

طلب الجنود الذين لم يكن لهم الحق في العمل الابادة باعتباره المحافظ الملكي للمدينة.
ثم ان هذا الاضطراب كان مدعاة الى اعلان الفرح بين رجال بلاط الخديو بينما هو
كان مدعاة الى الاسف عند عرابي والوطنيين الذين أخذوا أيضاً في التصغير من
شأنه ثم ان اللجنة التي عينها الخديو لتحقيق هذه الحادثة كانت مؤلفة من أعضاء
من حزبه ولكيلا يجعل لتحقيقها قيمة جعل عمر لطفي رئيساً لها . وصلة الخديو بعمر
لطفي تزداد وضوحا عند ما نعرف انه لما اشتدت شبهة القناصل في عمر لطفي منحه
الخديو اجازة . فلما ضربت الاسكندرية ظهر ثانيا ونال ما كان يطمع فيه وهو
وزارة الحربية . وقد بقي هذا المنصب في يده الى شهر مايو سنة ١٨٨٣ عند ما أبهم
لورد راندولف تشرشل في البرلمان هو والخديو . فاستقال عندئذ . وفي ملحق
الكتاب براهين أخرى تؤيد اشتراكهما في احداث هذا الاضطراب .

ولكن هناك نقطة في هذه المسألة المشئومة لاتزال عندي موضع الاشكال. وهذه
النقطة هي تقدير المسئولية التي تحملها وكلاؤنا في القاهرة والاسكندرية من هذه
الحوادث . فان في رسائل ماليت ما يفهم منه الانسان انه كان ينتظر حلا ...
لمصاعب السياسية التي كانت تواجهه وذلك في وقت الذي كان يدبر فيه ...
الاضطراب. ثم ليس من يشك في ان جميع ما كان يحتج به على الوطنيين ان ادا...
ستؤدي الى الفوضى . ثم من المحقق أيضاً ان كوكسون القنصل الانجليزي باسكندرية
قد تغاضي عن تسليح المالطيين . ومع ذلك فهناك فرق شاسع بين هذه الا...
وبين التواطؤ على احداث هذا الاضطراب . وكل ما أعرفه عن اخلاق ...
وسلوكه في المستقبل يدعوني الى تبرئته من هذا الاضطراب.

وكان ماليت يثق في توفيق ويعتبره جديراً بالثقة وكان يصدق جميع ...
يقصه عليه وقد علمت ان وقوفه على حقيقة توفيق بعد الحرب قد آلمه أشد ...
وهذا القول يصدق أيضاً عن كولفن . فانه كان يجهل تدبيرات الاضطر...
كان يجهل أعمال الخديو منذ عام ولو انه من الصعب ان يعتقد الانسان ا...
يعرفا الحقيقة بعد ذلك بوقت قريب . فانهما كانا متحالفين مع عصبة ...

في الاضطراب وبعد ما حدث الاضطراب سارعا الى تصديق الخديو لانهما رأيا في تصديقه ما صادف هواهما فلم يبحثا عن الحقيقة .

وكان كلاهما ينظر الى الاضطراب باعتباره اداة تشتعل لتمهيد مآربهما وكانا يحتجان به على الوطنيين وان ادارتهم ستؤدي الى الخراب والتدخل الاجنبي . فهذه صلة التي لهما بالاضطراب هي كل ما القيه عليهما من المسئولية .

ويمكن تلخيص ما حدث بعد ذلك في أسطر قليلة قبلما أعود بالقارىء الى مذكراتي . فأقول : أن نتيجة الاضطراب لم تكن كما توقعها الخديو وأصحابه بالضبط فقد خرج الاضطراب عن الطور الذي عين له قبلا في برنامجهم حتى دعت الحالة الى ادخال الجنود النظامية لاعادة السكينة . وبدلا من أن تسقط كرامة عرابي به حدث من الرعب بين الاجانب وهم طائفة ترتعد لاقل حادث ما جعلهم ينظرون الى عرابي باعتباره المنجي الوحيد لهم . حتى أن القناصل باستثناء القنصل الانجليزي وافقوه على رأيه . ثم ان النظام الذي أحدثه وجود الجنود النظامية في الاسكندرية زاد مقام عرابي في أعينهم . وهنا أقول انه لو كان عرابي رجل أعمال بدلا من أن يكون رجل أحلام وأماني أي لو كان فيه صفات الحاكم القوى التي كانت لسوء الحظ تعوزه كثيراً لاستطاع في ذلك الوقت أن يكسب المعركة السياسية من خصومه الذين كانوا لا يراعون الذمة او الشرف فيما كانوا يفعلون فلو كان عرابي حاكما قويا لكان من الضروري أن يتهم المرتكبين لجرائم الاضطراب ويحاكمهم وكان عندئذ يثبت للجميع انه ليس من يد أقوى من يده وان العقاب سريع النزول بمن يحدث أي خلل بالامن العام . فكان يمكنه أن يناشد أوربا والسلطان بكلمات عليها طابع الحاكم القوى بحيث لم يكن من الممكن عدم المبالاة بها . وفي هذه الحالة لم يكن لحكومتنا أن تشذ عن الجميع وتناوئه .

ولكن عرابي لسوء حظ الحرية لم يكن رجلا قويا وانما كان ذا أماني انسانية وكان في خلقه شيء من العناد والتشبث لآرائه والرغبة في تحقيقها . فكان يجهل أوروبا جهلا تاماً وكان يجهل أيضاً الطرق والاساليب السياسية الغربية . فضاعت منه الفرصة السانحة وكان ماليت وكولفن قد غرسا الخوف في قلوب القناصل

وفي الوقت الذى كانا يكلفانه فيه بالمحافظة على النظام فى الاسكندرية كانا يهيئان ضربها بالاسطول . ومن ذلك الوقت زال الامل فى تسوية المسألة بالوسائل السلمية .

فحدث بين عرابي وبين سير بوشامب سيمور قائد الاسطول مشاجرة تشبه ما يقع بين الذئب والحمل . وكان الدافع اليها ان خادم سير سيمور وهو رجل يدعى مستر اكت . قتل فى الاضطراب . فاراد سير سيمور ان ينتقم من الاسكندريين لقتل خادمه بضرب الاسكندرية ولو كان فى الميدان رجل أقوى من عرابى لاستطاع الخروج من هذه الأزمه . ولكن عرابي لم يكن يزيد عن أن يكون فلاحا متفوقا له عدة أفكار قليلة جلية فكان نصيبه الفشل . ولكنه مع ذلك لا يستحق اللوم الذى القاه عليه بنو وطنه . فانه لم يستطع أحد منهم أن يفعل شيئاً يفضله به (١)

ولنرجع الي المذكرات :

« ٣ يونيو — كنت بوزارة الخارجية ضيفاً عند ليدي جرانفيل وكان جميع السياسيين هناك . وكان جميع المتصلين بالوزارة يرحون ويشون . وقد تكلمت عن الحالة مع واسلى ورولنسون والسفير الامريكي « لويل » وغيرهم . وتحادثت أيضاً مع سير الكسندر والليدى ماليت على الرغم من الشجار الناشب بينى وبين ابنهما . فكانا يحدثانى ببشاشة ولطف . ويظهر على الجميع أنهم قد تنفسوا الصعداء لتأجيل الازمة المصرية . ولكن واسلى يقول لي ان السلطان رفض أن يشترك فى مؤتمر . وكان ابن عم الخديو وهو رجل سمين يدعى عثمان باشا احد الضيوف .

---

(١) المرجح ان الذى منع عرابى من محاكمة عمر لطفى هو أولا اضطراره الى وقوفه الى صفه باعتباره مسلماً مثله فى شجار مع غير مسلمين . والثاني انه كان هناك شبهة بتواطؤ الخديو معه . وكان لا يرغب أن يدخل فى شجار مع توفيق فى ذلك الوقت لانه مضي وقت طويل على تصالحه معه . وكان قد اقسم منذ أيام قليلة أن يحافظ على حياته كما يحافظ على نفسه . ففضل أن يلقى اللوم على كوكسون وسينادينو وهما بلا شك يستحقان اللوم . وهذا ظاهر من خطابات صابونجي ووثائق أخرى ملحقة بهذا الكتاب .

. كل حاضراً أيضاً ولي العهد وأمراء آخرون ومما أدهشني تلك البشاشة التي وجدتها في هنري ستانلي . فقد قال انه يحب شديد الاعجاب سرابى لأنه يبصر الايمان بأنه يستحق الترقية وان يبقى هو وتوفيق فى القاهرة . وبما انه يمثل في أقواله هذه آراء الاستانة فقد اطمأنت من هذه الناحية . فاذا لم تطرأ حوادث جديدة «فلنفوز لنا » .

وهذه الاشارة الاخيرة عن لورد ستانلى ذات أهمية . فانه كان صديقاً حميما لى قديما . ولكننا كنا نختلف في الرأى عن المسألة المصرية وسبب الاختلاف هو هذا :—

فقد كان منذ مدة طويلة ملحقا بسفارتنا فى الاستانة وهناك تشبع بحب الأتراك وكان حب الأتراك فى ذلك الوقت نزعة فاشية بين الانجليز . وفى سنة ١٨٦٠ كان قد سافر الى الهند الشرقية فآمن بالاسلام . وقد عرفته بطريقة غريبة فى ذلك الوقت فقد كنت مسافراً الى انجلترا عن طريق اثينا والاستانة ونزلت فى نهر الدانوب فى احدى البواخر . فلما وصلنا الى إحدى موانى رومانيا نزل الي الباخرة عائلة أمير من امراء الفلاخ ويصحبها انجليزي شاذ الهيئة ساذج اللباس ظننته أولا مربى الصبيان أو سكرتير رب العائلة ودامت سياحتنا عدة ايام فصادقت هذا السائح وقد لذ لى وقتئذ معرفته الواسعة بالشرق ولكنه لم يخبرني عن اسمه . وعند ماوصلنا الى فينا اقترح على أن يذهب معي الى دار السفارة .

وهناك تحققت من شخصيته وسافرنا من هناك الى مونيخ حيث كان أخوه ليولف ستانلى يتعلم الالمانية . ومن ذلك الوقت عرفته حق المعرفة وانتهز هذه الفرصة الآن لكي أقول انه على الرغم من أطواره الغريبة كان رجلا شريفا بعيداً عن الانانية .

وكان باعتباره مسلما شديد الحماسة والعطف على آرائى ولكنه لم يكن يوافقني على تفضيل العرب على الترك الذين كان يرى فيهم قادة الاسلام . وكان وهو فى لندن على اتصال دائم بالسفارة العثمانية . ولذلك فرأيه عن علاقة

السلطان نعرابي فى الوقت الذي كانت تروج فيه اشاعة ارسال بعثة درويش له قيمة تاريخية عظيمة .

واليك ما كتبته فى مذكراتى بهذا الصدد :

« ٤ يونيو — فى كرابت يوم الاحد . وهو أول يوم لم نفكر فيه بمصر بعد اسابيع عديدة كثر فيها اشتغالى بهذا الموضوع . وأظن ان المسألة قد سويت الآن وقد لعبت التنس بعد الظهر وانا فرح . وكان الجو بديعاً وزارنا وتورث ونوبل وفرانك لاسل وهنرى وكور ومولوني وآخرون .

« ٥ يونيو — عدت الى لندن . . تقول ليدى جريجورى انهم الآن غير مرتاحين الى سلوك كولفن ويقولون انه غير موافق لمركزه فى مصر . وقائل هذا هو اللورد نور تبروك . وكان لورد جرانفيل قد ارسل الى سير وليام جريجورى يستشيره فى موضوع مصر » .

ومما يلاحظ ان ليدى جريجورى قد بقيت على عهدها الاول موالية للقضية الوطنية بخلاف زوجها . وقد خدم كلاهما عرابي بعد ذلك وبخاصة فى وقت المحاكمة وكانت صحف لندن قد بدأت تهتم بمصر وتكتب عنها بشيء من المعرفة وأرسل أكثرهن مكاتبين خصوصيين فى القاهرة والاسكندرية . وكان من بين هؤلاء مكاتب الديلى تلغراف الذى انتصر لعرابى بشدة .

« ٦ يونيو — جريدة الديلى نيوز تهيء نفسها منذ الآن لأن تدعو الى العودة الى الحالة التي كانت قبل ارسال البلاغ الاخير . والارجح ان اكثر الجرائد سيسير وراءها فى القول بهذه الخطة بل جميع الجرائد ماعدا التيمس والبال مال اللتين قد وعظنا عن الحق فأبتا أن تتعظا . وليس للرأى العام الانجليزي قيمة الآن . . . تحادثت مع لاسل محادثة طويلة وأرجو أن أكون قد جعلته فى صف مصر . وفى المساء كنت راكبا مع برترام كراى وقد تطوع ان يراهن على انه لن تمضي خمسة عشر يوما حتى يكون قد انتهي عرابى وانهزم .

« ملاحظة : برترام هو شقيق فيليب كرى احد اصحاب المصارف وهو أيضاً من انصار غلادستون المتصلين به . ورأيه هو بلا شك رأى رئيس الوزارة »

« ٧ يونيو — زارتني ليدى جرجورى وأفضت الى بجملة أخبار . فأخبرتني ان لورد جرانفيل قد قال لزوجها ان آمالهم معلقة على بعثة درويش . ومما قاله لورد جرانفيل ان درويشاً عديم الذمة والشرف وسيتخلص من عرابي بطريقة ما وأظن ان هذه الطريقة هي الرشوة (١) ويظهر ان لورد جرانفيل قد ألمع الى غير ذلك فقد تكون طريقة التخلص بواسطة فنجان قهوة ولكني لست أخشى هذا . لان غرض السلطان لا يرمي الى قتل عرابي بل الى حفظه بالاستانة رهينة . ومع ذلك فأنا في أشد الاشتياق لان يصل صابونجي . ولا يزال يساورني الشك بأنهم لمعرفتهم بصلته بي سيمنعون نزوله الى الاسكندرية . وقد كتب الى رقعة وهو في القطار زاد فيها بعض علامات سيستعملها في الاصطلاحات التلغرافية التي اتفقنا عليها وهي علامات مضحكة . ثم قابلت جرجوري وقد أعاد على جميع ما قالته لي زوجته . وهو يظن انه يجب استدعاء كولفن وماليت .

وقد كتب بمبروك الى برلين يقول له أن حق وزارة الخارجية على لاحد له . ولكن هذا لا يهمني . . . التقيت باوستين لى في النادي فسألني عن آخر ما وصل من الانباء من مصر ولى هذا هو سكرتير ذلك . فقلت له انه بلغني انكم سترسلون الى مصر عدلا من الملح لتعلقوه في ذنب عرابي . فأجابني على الفور قائلا : كلا . فان الملح سيستعمل في تمليحه . وقد ركبت في المساء مع سيريل فلور وقد تزوج من أسرة روتشايلد فنصحت له بأن يبيع اسهمه المصرية . وتناولت العشاء مع برترام فكان أرق من قبل . فهو يؤمن بغلادستون ويعتقد ان أرلندا ستحصل على الاستقلال الذاتي . ومما قاله ان غلادستون يتقدم الزمن الحاضر بجيل فبعد مضي عشرين سنة ستؤمن بقيمة الاهتمام بمسائلنا .

---

(١) اجد في المذكرات عن سنة ١٨٨٨ مايلي :

« القاهرة في ٢٢ ديسمبر — تناولت الغداء مع زبير باشا وقال انه حضر محادثة بينه وبين درويش باشا فعرض عليه درويش ان يذهب الى الاستانة بمرتب شهرى قدره ٢٥٠ جنيه . فأجابه عرابي بانه لو رضي هو نفسه لوقف بينه وبين السفينة عشرة آلاف شخص يمنعونه من السفر »

« وقد كتب فريدريك هاريسون يحتج على تدخلنا في مصر . وكان مقاله شديد اللهجة وقد نشر في البال مال تحت عنوان : المال . أيها السادة . المال » وقد توالت الخطابات على أثر هذا المقال . وقد أسفت كثيراً على عدم معرفتي بالكاتب قبل الآن فهو أعقل وأشجع من يكتب في المسائل الخارجية في حزب الاحرار وأقوى المؤلفين الذين ينشرون الرسائل السياسية ولو كنت قد لقيته منذ شهر أو شهرين لما حصلت الحرب لانه وان لم يكن في البرلمان قد كان ذا نفوذ عظيم بين الاحرار . ومما يزيد سوء الحظ انه لم يكن في الحزب أحد ذو مكانة ذهبية في هذا الصيف باستثناء فريدريك هاريسون . لان الجميع كانوا متقيدين بالوظائف . . .

« ذهبت الى ليدى سولزبرى مدعواً في سهرة . وتحادثت مع ملتون وكان الاستياء باديا عليه بشأن أعمالي في المسألة المصرية وذكر تلغرافاتي فلم يتكلم عنها بأدب . وتحادثت أيضاً مع ستراتنير فقال لي انه يود ان يذهب بعشرة آلاف جندي لكي يشنق عرابي . وجرى بيني وبين عثمان باشا وكامل باشا ابن عم الخديو حديث في غير السياسة . . . وقد وصلت بعثة السلطان الى مصر »

« ٨ يونيو — وصل تلغراف من صابونجي يقول فيه انه قد صرح له بالنزول في الاسكندرية وبذلك زال عني همي . وهو يقول ان البعثة التركية قد سافرت الى القاهرة . . . ويرفض هارى براند أن يزورنا في كرابيت حتى يرى ما تنتهي اليه الحال في القاهرة . وأخشى ضياع امواله في مصر فان جل ما يملكه فيها

« ٩ يونيه — كتب فريدريك هاريسون خطابا آخر في البال مال . وقد كتبت اليه اقترح عليه أن أطلعه على مكاتباتي مع مستر غلادستون . وزرت جريجورى . وقد قوبلت البعثة بالترحيب والتهليل في القاهرة وظني أن الناس هناك يتفاءلون بايجاد تسوية . وكتب الى صابونجي يخبرني بالتلغراف أن عرابي قد أعلن بانه سيقاوم الجنود التركية اذا انزلت في سواحل مصر . وهو لا يزال في الاسكندرية وهذا يقلقني لانه ينبغي أن يكون في القاهرة الآن . وتناولت العشاء في منزل وتورث لكي اقابل سير مارتل فرير وهو رجل حلو اللسان ذكي الفؤاد »

« ١٠ يونيو — تناولت الغداء مع مستر جرين وزوجته وهما يعطفان على مصر

كبيراً » — والاحظ هنا ان مستر جرين هذا هو المؤرخ المعروف . وكانت صحته قد تضعضعت في ذلك الوقت واني أذكر الآن عطفه عليّ وعلى القضية التي كنت ادافع عنها . وكانت وفاته خسارة كبرى لجميع الذين يدركون قيمة سياسة البيرة .

« لقد ابتدأ القلق يعتريني هذه الايام عن الحالة بعد مضي اسبوعين وأنا مرتاح البال . وتقول صحف المساء أن درويشاً قد نجح وذلك بأن «اشترى» جزءاً كبيراً من الجيش وانه يطالب عرابي بان يذعن له . فاذا لم يصمد له عرابي فان كل شيء يذهب سدى . وبعد تفكير طويل قر رأيي على أن ارسل هذا التلغراف الى صابونجي . الساعة ٧ مساء « اقبضوا على البعثة . لا تخشوا أحداً الا الله » وبعض هذا التلغراف أرسل بالارقام . ولكني أخشى أن لا يكون قد ذهب صابونجي الى القاهرة . والا فلماذا لا يراسلني . هل حدث له ما يمنعه ؟ ... تناولنا العشاء عند ليولف ستانلي وكان معنا آخرون منهم رابط . وكان كلامه عن مصر كله مروءة وقد افضيت اليه ببعض الحديث وأظنه كان مناسباً . وصرحت له بجملة ما عندي والمسألة الآن تتوقف على مقدار الجراءة التي عند أعضاء الحزب الوطني . وأظن أن أوامر درويش كان القصد منها سبر غور الحزب من هذه الناحية فاذا وجد منهم مراساً شديداً عضدهم. وهو لو استطاع لسحقهم على أيدي الشراكسة ولكني أرجو أن يسحقوه أو على الاقل يخيفوه فان السلطان لا يجرؤ على اتخاذ الحركة بالعنف .

« ١١ يونيه — سافرت في قطار الصباح الى كرابت وقد كنت قلقاً لئلا أجد في الجرائد خبرا عن حدوث انقلاب . ولكن الابزرفر تقول انه لم يجد شيء . وتذكر الجرائد بعض الحكايات عن كبرياء درويش وغطرسه نحو العلماء . ولكن لا أهمية لهذا . . . في الساعة الثانية جاء الينا الامير عثمان والامير كامل وابن عمهما — وفقيهما عارف بك ودليلها الانجليزي وهو رجل يدعى لبريير لكي يروا خيولنا وبينما كنا نريهم الخيول جاءني تلغراف من صابونجي هذا نصه :

« القاهرة في ١٠ يونيو الساعة ١٢ — تحادثت مع عرابي . البرلمان والازهر

والجيش يعضدونه الا سلطانا باشا وشيخ الاسلام والامة قد قر رأيهما على خلع الخديو . والباب العالى لا يميل الى مقترحات أوربا . وعرابى يلح على انه لن يستقر السلام حتى يخرج كولفن وماليت وهو سيقاوم هجوم الاتراك ولن يسافر الى الاستانة . عين الشيخ عليش شيخاً للازهر . قرر الباب العالى خلع الخديو . ماليت يلح على البعثة بان تقبل مقترحات أوربا . خطب عبدالله نديم فى عشرة آلاف نفس فذم هذه المقترحات وطعن فى الخديو » ولو كان ابنا عم الخديو قد قرءا هذا التلغراف لما استطاعا أن ينفذيا . وقد تناقشا في الموضوع وسنرسل لهم تلغرافاً ننصح لهم فيه باعلان الجمهورية في حالة خلع الخديو . وقد زال عنى الهم الآن لوجود صابونجي بينهم »

واني فيما قلته هنا عن الأميرين عثمان وكامل لم أقل كل الحق . فانهما لم يكونا يحبان توفيقاً وكان أبوهما مصطفى قد طرد من مصر وأخذ اسماعيل أكثر أملاكه وكانا هما على شيء كبير من الوطنية . وقد برهنا على ذلك مدة الحرب اذ كانا ينتصران لعرابى . وقد قدمت أختهما الأميرة نازلى مساعدة كبرى لعرابى وقت محاكمته . وكان عارف بك رجلا ذا كفاءة وكان كرديا فيه شيء من الدم العربي وكان حاصلا على تربية وافية وله مزايا عليا وقد صار بعد ذلك سكرتير مختار باشا في القاهرة وكان يحرر مجلة أدبية ولكنه انغمس بعد ذلك في الدسائس واختفى أما الشخص الرابع فكان تركيا متفرنجا من رجال بلاط السلطان ولم أر اسمه في المذكرات . وقد أخذنا فى الحديث عن السياسة الشرقية وقت الغداء وان لم نتكلم عن مصر . وكان كلامنا عن الجامعة الاسلامية والأمل فى طرد انجلترا وفرنسا من شمالي أفريقا.

ويحسن بي هنا أن أثبت خطاباً أرسلته الى صابونجى فى التاسع من الشهر وخطاباً آخر أرسله هو إلى يوم ١١ يونيه .

« شارع جيمس رقم ١٠

« ٩ يونيو سنة ١٨٨٢

« ان تلغرافكم الذى تخبرونني فيه عن وصولكم للقطر المصرى قد أراح بالى ... وأرجو أن تكون قد سافرت الى القاهرة والتقيت بأصحابنا وأظن أن ... ما يصبونه الآن أن يحسنوا علاقاتهم مع رجال البعثة . ولكن يجب عليهم ... يلزموا جانبهم لانى أعرف أن أعداء مصر يعلقون آمالا عظاما على درويش باشا رجلا عديم الذمة والشرف فى كيفية معاملته للثائرين . فانهم سيحاولون ... قوتهم أن ينقلوا عرابي الى الاستانة . ولكن يجب الا يفعل ذلك . وسيغرونه ويحاولون ارشاءه ويقولون له ان الغاية من سفره صلاح البلاد . فلا يغترن بهذه الأقوال . ومن الممكن أنهم يحاولون القبض عليه أو دس السم له وان كنت ... أرجح هذا . ولكنهم اذا رأوا انه ثابت لا يتزعزع أمامهم وان الأمة من ورائه ... فانهم لن يتشاجروا معه ونصيحتى الوحيدة له هي أن يخضع لتوفيق باعتباره ... السلطان على شريطة أن يبقى وزيراً للحربية . فاذا قبل ذلك لم يعد لدى حكومة الفرنسية أو الانجليزية مجال للمشاجرة معه واذا اجتمع المؤتمر الاوربي فانه ... يشير بالتدخل . وأنا متأكد بأن حكومتنا لن تلح على تنفيذ شروط البلاغ الأخير بخصوص نفى عرابى من البلاد . ولكن الحكومتين الانجليزية والفرنسية مضطرتان الى تعضيد توفيق باعتباره حاكم مصر الاسمي . فعلى عرابى أن يحتفظ بمركزه بحيث يصير الحاكم الحقيقى للبلاد . والناس هنا ساخطون علىّ ولكنى لا أعبأ بذلك ما دامت مصر تنال حريتها » .

وهناك خطابا أرسله لى صابونجي من القاهرة يوم حدوث الاضطراب فى الاسكندرية ولكن قبل أن يعلم به :

القاهرة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

عند وصولى ذهبت الى عرابى ومحمود سامي وغيرهما من أعضاء الحزب . وقد قابلونى بحماسة وسألونى عنكم . وقال لي محمد عبده انه قد بلغه أن بعضهم قد نصح لك بأن لا تجيء الى مصر . وقد غمرني عرابى بالسرور والطرب عند ما رآني . وقبل وصولى بأسبوع خطب فى اجتماع وقرأ خطاباً مني أنصح له فيه بالاتحاد . . .

أما الحالة فهي كما يلى :

لقد أخبرتكم في تلغرافاتي عن جميع ما حدث من قبيل استكشاف المؤامرة الشركسية الى هذا اليوم . وقد أصدر الشيخ عليش شيخ الجامع الأزهر فتوى قال فيها بما ان الخديو قد حاول أن يبيع البلاد للأجانب وأطاع اشارات قناصل اوربا فانه لم يعد يصلح لان يكون واليا على المسلمين المصريين ويجب لذلك خلعه . وقد قبل جميع علماء الازهر هذه الفتوى وزكوها لأنها صادرة من رجل هو زعيمهم الروحاني . وقد ذهب الشيخ محمد خضير ومعه ٢٢ من الاعيان الى درويش باشا وقدموا له عريضة وقع عليها عشرة آلاف نفس طلبوا بها منه أن يرفض طلبات الدول ويخلع الخديو . وفي مصر ١٤ مديرية ومع ذلك فليس بها سوى ثلاثة مديرين يكرهون عرابي . أما الفلاحون أقباطاً ومسلمين فجميعهم في صف عرابي ينصرونه ويؤيدونه . أما الامبابي شيخ الاسلام فانه قد وقف على الحياد وذلك لخوفه من الخديو ومن الحزب الوطني ولا يتدخل في السياسة متعللا بسوء صحته . وقد أخبرني عرابي بأنه لن يخضع لاوربا أو لتركيا وقال لي : « فليرسلوا لنا جيوشاً اوروبية هندية أو تركية فاني ما دمت وبي رمق فاني سأدافع عن بلادي وعند ما أموت يمكنهم أن يتملكوا البلاد وهي خراب وحسبنا فخر الدفاع عن الوطن . وليس هذا فقط فان حرباً دينية ستنشب في آخر الحرب السياسية وتبعة ذلك تقع على الذين يثيرون الحرب الآن .

فهو مصمم على المقاومة ولن يذهب الى الاستانة وأكثرية الامة تؤيده . فليس بين الأعضاء من يعارضه سوي تسعة فقط . وقد تركه سلطان باشا وانضم الى الخديو لأنه خاف من ماليت ومن الاسطول . وجميع المصريين ينظرون اليه والى الخديو كأنهما خائنان . وجاء من المديريات مندوبون يطلبون خلع الخديو ولا يمكن أن يقال أن عرابي قد أجبرهم على ذلك . وقد وقع تسعون ألفاً العرائض يطلبون من درويش رفض طلبات أوربا وابقاء عرابي في منصبه .

وجميع علماء الازهر الا الامبابي (أمانة ؟) والعباسي والسادات يؤيدون عرابي وكذلك عبد الرحمن البحراوي وقد عقد اجتماع من عشرة آلاف نفس في الاسكندرية فخطبهم نديم وطلب رفض طلبات اوربا وعدم كفاية الخديو لتصـ

كى يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخيــة لكي يبرهن على صحة ما يقول ويقنع السامعين بصحة حججه . وخطب عرابى أيضاً خطبة حماسية ضد مظالم الأسرة المالكة من عهد محمد علي الى توفيق . وقد تكلمت مع عبده وبديم وآخرين عن وجوب كتابة خطابات ترسل لكم يوقعها الاعيان والعلماء والفلاحون والتجار لكي يثبتوا بذلك حقيقة وجود الحركة الوطنيــة . وقد اتفقوا معى على أن يعدوا هذه الوثائق في ظرف عشرة أيام وسأرسلها لكم .

وقد ظهر لى أننا كنا مخطئين فى تقدير محمود باشا سامي . فانى تحادثت معه كثيراً وسألت عنه حتى من أعدائه فعلمت أنه كان من مديرى الحركة الوطنية من عهد اسماعيل . وقد كابد كثيراً من المشاق لاجل آرائه ولكنه لم يتزعزع وكثيرون من الحزب الوطني مثل نديم وعبده بل عرابى نفسه يعترفون بأنهم مدينون له بمساعدته لهم وولائه . وقد أغراه اسماعيل على أن يترك الحزب وعرض عليه المال ولكنه رفض . وهو يصرف جميع ايراده الآن على الحزب ومنزله أشبه شيء بقافلة قد حطت رحالها فى الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف فلا يصرف على نفسه شيئاً وهو قانع راض بما يأتي له به الحظ . وهو ليس رجلا جاهلا فانه متضلع فى الآداب العربيــة ويعرفها أكثر من عرابي وكون الاتراك يكرهونه دليل على وطنيته . وسيكتب خطاباً الى اللورد جرانفيل لكي يثبت له فيه حقيقة وجود الشعور الوطني فى مصر ويصرح فيه بصداقة الوطنيين لانجلترا اذ هى نصيرة الحرية وكثيراً ما مدت يدها لاسعاف الامم الناهضة الطامحة الى الحرية . وقد اقترحت عليهم بأن يكتب عرابى والشيخ الامبابي خطابات أخرى مماثلة لمستر غلادستون واللورد جرانفيل وتطوعت بترجمتها وارسالها .

وعند ما أشيع بأن السلطان ينوى ارسال درويش لكي يحض عرابي على قبول بلاغ الدول الأخير سافر نديم الى الاسكندرية وخطب مدة ساعتين فى عشرة آلاف نفس منددا بالبلاغ وحث كل فرد من الموجودين على أن يحتج عليه . وقد قوبل مقترح نديم بالابتهاج . وعــند ما ذهب الناس الى منازلهم أخذوا فى تعليم زوجاتهم وأطفالهم هذا الاحتجاج وعند ما نزل درويش فى الاسكندرية كان الاولاد

يصيحون « اللائحه . اللائحه » فترد النساء قائلات : « مرفوضة . مرفوضة » وقد اعتبر درويش بهذه العبرة وتحول عن موقفه السابق .

أما الشيخ الامبابي فانه بعد أن تظاهر بالعداء للحزب الوطنى لأنه أعلن رضاء عن خلع الخديو عاد الآن وعقد الصلح بينه وبين الاعضاء . ولكن سلطان باشا قد خيب رجاء الجميع . فانه ينصر الخديو علي غير هدي وذلك لخوفه من التدخل الاجنبي ولأنه قد أكد له ماليت بأن عرابي لن يبقى فى منصبه . وهكذا وقع سلطان فى الشرك الذى نصب قبلا لشريف . وهو الآن غير محبوب ولم يعد انقلابه هذا أدنى فائدة .

وحدثت أمس حادثة غريبة فانه عند ما طلب درويش العلماء واستشارهم فى أحسن الوسائل للحصول علي صلح شريف وجد الجميع كانوا فى صف الحزب الوطني ولم يجد فى صف الخديو سوى اثنين .

فاغتاظ درويش من ذلك وفض الاجتماع وقلد بالاوسمة الاثنين المشفقين وهما البحراوى والابيارى . فلما علمت النتيجة وذكرتها الجرائد حدث في الازهر حركة شبيهة بالثورة . وقد حضرت عدة اجتماعات للعلماء ولغيرهم وكان الغضب في جميع شديداً . وكان المتكلمون يكثرون من ذكر القرآن والحديث ويثبتون منهما ان توفيقاً لا يصلح أن يكون والياً علي أمة اسلامية ولم يكتفوا بعقد الاجتماعات الخاصة بل قرروا أمامي أن يعقدوا اجتماعا عاماً فى الازهر احتجاجاً علي الاهانة التى لحقت بهم . وعقد الاجتماع بالفعل فى الازهر حيث تقام الصلاة وطلب من نديم أن يخطب الحاضرين وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس . وليس عندى من الوقت ما يسمح لى بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة نديم . فقد سمعت أنت نديماً وتعرف كيف يشتاق الناس الى سماعه والى أى حد يتأثرون من فصاحته

صابونجي

الفصل الرابع عشر

توسلاتى الى غلادستون

هكذا كان شعور الوطنيين فى دوائرهم الخاصة فى القاهرة عند ماحدث اصطراب الاسكندرية . وفى اليوم التالي قمت الى لندن وأنا مبتهج ومعى تلغراف صابونجى الذى أرسله فى العاشر من الشهر . وكنت أنوى أن أريه لهاملتون . وأنا في هذه الحال واذا بالجرائد تطالعنى باخبار الاضطراب .

وهاك المذكرات .

« ١٢ يونيو — رعب جديد . اضطراب فى الاسكندرية جرح فيه كوكسون وقتل ضابط البارجة سيوريب وخمسون أوستون أورين.وقدأحدث هذا الاصطراب هياجاً عظيما . ولست على يقين فيما اذا كان هذا الاضطراب فى مصلحة عرابي أملا . ويه سيثبت ان عرابى يملك ناصية الاحوال. هـذا اذا لم يكن دسيسة من درويش يقصد منها ان يسافر عرابى الى الاسكندرية فيقبض عليه هناك. ذهبت الى هاملتون وأخبرته بان تحت يدى مستندات تدل على ان عرابي يحكم البلاد وان توفيقاً معرض لخطر الخلع بالنسبة لشعور الجمهور نحوه وانهم اذا لم يكونوا ينوون ان يلجأوا الى العنف فى حل المسألة فعليهـم أن يسارعوا الى الاتفاق معه . فوعدنى بان يقول لغلادستون جميع ما أخبرته به . وظاهر لي الآن انهم مستعدون لان يقبلوا أى تسوية ما دام توفيق يبقى جالساً على العرش .

« ذهبت الى مجلس العموم . وذهب هاري براند الي أبيـه رئيس المجلس وقال له ان « الثائر بلنت » يطلب تذكرة لكي يدخل احدى شرف المجلس . فقال أبوه « انه لايستحق » ولكنه أعطاه واحدة . وكان ذلك بجيب عن أسئلة متنوعة عن مصر وهو يوهم ان درويشاً والخديو لايجدان الآن ما يعارضهما . وقد أزعجني هذا الكلام . وهناك اشاعة بان عرابى ودرويشاً قد سافرا الى الاسكندرية (وقد ظهر ان الاشاعة كاذبة) وأخشى الخيانة الآن . وقد أرسل لي صابونجي التلغراف التالي : « زرت عرابي وسلمته رسالتـك . والهدوء شامل . خطب عبد الله نديم فى

أربعة آلاف في الازهر تحمل على البعثة التركية والخديو . وقد سحبت البعثة مقترحات أوربا واني أؤمل قرب السلام الآن . وشراكسة يدسون الدسائس . وعاد شيخ الاسلام الى الحزب الوطني اما سلطان باشا فلم يفعل ذلك الى الآن . الاضطراب لا أهمية له » .

وقد وضعت رداً على هذا التلغراف وأنا بالقطار وأرسلته من ترى بردجس وهذا نصه « درويش يريد سوءاً . فهو يريد ان يرشى عرابي أو يقتاله . اعقدوا اجتماعاً كبيراً برئاسة نديم وعبده وعلماء الازهر يكون فيه نحو مائة ألف نفس واطلبوا خروج درويش من القطر فاذا لم يخضع لهذا فاقبضوا عليه بالبوليس وابعدوه . واتفقوا مع الخديو ولا تماسكوا المفاصل . وليكن نديم المتدئ بهذا العمل اما عرابي والجيش فيجب ان يبقيا على الحياد .

« قبل أن أبرح لندن التقيت بفردريك هاريسون وتحادثت معه عن مصر وكان قد كتب مقالاً آخر في البال مال عن هذا الموضوع . عرضت عليه خطاباتي لمستر غلادستون وستكون معونته لنا ذات قيمة . وبعد ما كنا على وشك مبارحة شارع فليت اندفعت الينا ليدى ماليت وأخذت تسألني عن حقيقة ما فعلت في مصر . فأخبرتها بكل شيء تقريباً . فقالت ان شرفي عرضة للخطر اذا لم أبرئ نفسي من تهمة الدس لوطني والكيد له . ثم توسلت الى ان أهدئ الحالة هناك وقد وعدتها بأني سأرسل لعرابي خطاباً أطلب فيه منه ان لا يمس شعرة من رأس ابنها . وسأكتب في البريد المسافر غداً اما اليوم فان التلغراف يغني . ولا اعتقد ان هناك أقل خطر على ابنها مسكينة ليدى ماليت اني لاشفق عليها . فقد أخبرتني ان الناس يقولون بأني أنا ومستر غلادستون نتآمر على احباط سياسة ابنها في مصر . فأكدت لها ان غلادستون غير مسئول عن تلغرافاتي وأنا وحدى متحمل هذه المسئولية . وقد جعلتني أعدها بان أزورها ولكنها تنظر الى كما تنظر الى القتلة » .

« ١٣ يونيو — كنت قلقاً طول الليل انتظر خبر القبض على عرابي أو قتله ولكن الصحف تقول ان كل شيء الآن في قبضة يده . والخديو يشكل الآن

وزارة سيكون فيها عرابي وزير حربية كما هو الآن . وليس عليهم إلا أن يبعدوا درويشاً وكل شيء عندئذ يسير سيراً حسناً » .

هذا ما كانت تقوله جرائد لندن ولم يكن يخالفها في ذلك سوى البال مال التي كانت تعتقد أن المسألة لم تسو بعد . وهي تكتب بإيعاز من وزارة الخارجية التي لا يرضي موظفوها بأي تسوية تترك مقاليد الامور في يد احزب الوطني . وهذا ما يقوله مورلي . « من الصعب أن يخطئ الانسان هذا الخطأ الذي وقع فيه محرر التيمس هذا الصباح عند ما يعتقد ان التسوية المؤقتة التي تمت بين الخديو ودرويش وعرابي والقناصل هي تسوية نهائية للمسألة المصرية . فان الهياج في مصر قد بلغ من الشدة درجة صار فيها لا يؤمن على حياة الاوروبيين وليس في البلاد قوة تستطيع ضبط الرعاع سوى الجيش . وهذا الجيش في يد عرابي ، فالحاجة تضطرنا الآن الى استخدام عرابي لمنع المذابح . ولكن كون درويش يلقي مسئولية النظام على رأس عرابي بهذا لا يمنعه من التصميم على اقرار الحال الراهنة كما ان اتفاق فرنسا وانجلترا مع عرابي انما كان اساسه احتجاجاً عليه بأن يستعمل جهوده في اخماد الاضطراب في الاسكندرية » .

ولكننا خدعنا نحن في انجلترا كما خدع عرابي في القاهرة بهذا الاتفاق الذي عقده ماليت وكولفن وكانت نتيجته الغدر والخيانة . فتعهد عرابي لتوفيق وأقسم له بشرفه أن يحميه كما يحمي نفسه مهما حدث . واستعمل الخديو هذا التعهد لمصلحته مع انه كان لا يضمر في قلبه سوى الغدر بعرابي .

وهاك ما أجده في مذكراتي عن ذلك اليوم : « أخبرني باتون امس ان روتشيلد قد عرض على عرابي ان يدفع له اربعة آلاف جنيه في العام اذا رضي بأن يخرج من القطر المصري (١) ... وعند ماذهبت الي لندن تسلمت هذا التلغراف :

---

(١) أخبرني عرابي بعد ذلك بعدة سنين انه لم يسمع بأن روتشيلد قد عرض معاشاً لكي يعطيه له اذا خرج من مصر . ولكنه قال لي انه بعد ارسال البلاغ الاخير زاره القنصل الفرنسي وسأله عن قيمة مرتبه الشهري ثم أخبره بأنه

« القاهرة فى ١٢ يونيو — كنت فى زيارة عرابى وهو يرسل تلك تسليماته ويظن ان مقترحات اوربا لم يعد لها أهمية وان الصلح قد تم . وقد سافر درويش . وبرح الخديو القاهرة الى الاسكندرية وكان عرابى يشيعه بذراعه . والحزب الوطني فى انتصار وقد اشتغلت بجد ولكني نجحت » وقد كادت دموعى تسقط من الفرح عند قراءة هذا التلغراف فأخذته وذهبت به توآ الي منزل رئيس الوزارة وأخبرت هاملتون وسيمور بما حدث . وتبين لى انهما يظنان ان غلادستون فى هذه الساعة الاخيرة سيري غلطته ويصالح عرابي . وماليت يظن ان هذا ممكن أيضاً . ولكن وزارة الخارجية ستتصلب تعشيت في المنزل ثم ذهبت الى حفلة ساهرة فى وزارة البحرية فوجدت هناك حربجورى وسير جولد سمث فتحادثت مع اللورد نورثبروك عن مصر . وقد صرحت له بكل شيء تقريبا . وقلت له : « ان كل شيء يتوقف عليك الآن . فأنت صاحب الامر والكلمة فيما اذا كانت ستسفك دماء في مصر ام لا ».

« ١٤ يونيو — لقد تعبت جدا . التقيت بمسز هوارد فى البستان فقالت لي انى قد تغيرت والحقيقة ان مصر تساورنى منذ الازمة سواء أكنت نائما أم مستيقظا قضيت الصباح وتناولت طعام الفطور مع جولد سمث الذى سيسافر هذه الليلة الى الاستانة فى مهمة خاصة وقد زودته بآرائي وعرضت عليه جميع مكاتباتى مع مستر غلادستون .

مستعد ان يدفع له ضعفي هذا المرتب أى خمسمائة جنيه في الشهر اذا خرج من مصر وأقام في باريس فتعامله الحكومة الفرنسية كما تعامل الامير عبد القادر . فأبى ورفض أن يتكلم في الموضوع قائلا ان الواجب يقضي عليه بأن يقاتل ويموت من أجل بلاده لا ان يتركها . وقد وجدت عندي هذه الحادثة ولكنها غير مؤرخة . وفى ١٨ مايو قالت جريدة البال مال :

« يقال ان عرابى يفكر فى زيارة اوربا لان صحته ليست على ما يجب . وهذا قصد حسن ولن يحدث ضرر ما اذا منح مبلغاً كبيراً لمصاريفه على شرط أن لا يعود لبلاده »

(ملاحظة — هذا الجنرال جولد سمد عين بعد ذلك رئيساً لمكتب الاخبار سرية في جيش واسلى . وهو رجل ناعم اللسان كنت عرفته منذ عام في القاهرة)

« تحدثت مع لاسل وهو حسب ما يظهر منه يوافقني على آرائي عن مصر »

(وقد فكر بعضهم في وزارة الخارجية في ارسال لاسل هذا الى القاهرة بدل ماليت لأنه كان قد سبق له معرفة مصر . ولو انه عهدت اليه مهمة الاتفاق والصلح لقام بها أحسن قيام . ولكن لسوء الحظ لم يقرر هذا التعيين)

« في الديلي تلغراف اليوم ما يثبت أقوال صابونجي أما الجرائد الأخرى فتعتبران سفر درويش والخديو الى الاسكندرية يقصد منه رد النظام الى نصابه . ويقال ان درويش جمع ١٢٠٠٠ جندي وسيزحف بهم على عرابي الذي ليس له نصير الآن في القاهرة . وأرسلت الى عرابي هذا التلغراف : « احمدوا الله على هذا النصر »

« وكان هذا آخر أدوار الكفاح الذي كنت أكافح فيه كولفن لكي تتجنب الحرب وكنت الى الآن منتصراً أما بعد هذا فلم أوفق لانتصار . وكان الذي حمل غلادستون ينتهي الى قرار وخطة معينة هو احتجاج بعض البلدان الصناعية في شمالي انجلترا على توانيه في معالجة المسألة المصرية وان هذا التواني عاد بالضرر على مصالح هذه البلدان التجارية وكان هذا الاحتجاج يستمله تشمبرلن للضغط والتأثير على غلادستون وكان ذلك يحرضه من وراء ذلك »

« ١٥ يونيو — أني قلق على الحالة في الاسكندرية ولكني أظن ان عرابي يثق برجاله هناك . فان الهجرة اليها متواصلة وكذلك الحال في القاهرة . ومما يريح بالي أن ماليت غادر القاهرة ودرويش لا يزال بالاسكندرية وهو والخديو يقيمان في قصر رأس التين تحت حماية مدافع الاسطول . وجاء تلغراف آخر من صابونجي يقول فيه : « كثرت الوساوس حول سفر الخديو . هياج . نشاط في الاستعدادات الحربية . ونديم وعرابي وعبده يتحدون الباب العالي علناً . وعرابي ساهر يقظ يتكلم باعتدال . حدثت مؤامرة لقتل نديم . وهناك خوف من حدوث اضطراب بين الاجانب . ودرويش لا يريد السفر حتى ينسحب الاسطول . نستحلفكم

بالله ان تستدعوا ماليت فالجميع يسخطون عليه وسيقتلونه اذا استمر » وقد ذهبت الى هاملتون ورجوته ان يطلب من ماليت أن يستقل احدى البوارج.فأجاب طلبي ثم أرسلت الى هاملتون خطاباً حذرت فيه الحكومة من الارتكان على الجيوش التركية.

ثم بعثت بهذا الرد الى صابونجي : « مندوب تركيا يطلب من الدولة ارسال جيوش للقطر المصري . وليس من المرجح ان ترسل . ولكن استعدوا . واحفظوا النظام مهما حدث . فان اضطراباً آخر سيقضي على كل شيء . وسيغادر ماليت مصر قريبا . فاصبروا قليلا» وبعد ذلك ذهبت الى لورد دلاور وتناولت العشاء هناك . وعند رجوعي الى البيت علمت ان مواصلة خط تلغراف القاهرة قطعت ومعنى ذلك فيما أظن هروب كتبة التلغراف وهذا يقلقني بعض القلق »

« ١٦ يونيو — ذهبت الى باتون فوجدته كله رجاء ولكن ايماني فى غلادستون قد زال وأظن ان الحكومة الانجليزية انطوت على الشر الآن . وقد أعطيت كيجان بول أمس مكاتباتي مع غلادستون لكي يطبعها حتى تكون مهيأة فى حالة حدوث أسوأ ما أنتظره . وقد وصل تلغرافي على الرغم من كل شيء »

وجاء هذا التلغراف أيضا من صابونجي : « وصل الى هنا مندوب جديد بتعليمات غير معروفة . والأمة والجيش يتشاوران كل يوم فى تدبير وسائل الدفاع ولا يثقان بالبعثة المزدوجة . أخبرني عن خطة مستر غلادستون ولورد جرانفيل . وعرابي ثابت. عطلت جميع الجرائد فلا يصدر سوى الوطن والجريدة الرسمية . الرعب مستحوذ على الاجانب وقد شكر الخديو عرابي لمحافظته على الأمن . الهدوء شامل . منع نديم من عقد الاجتماعات »

قابلت هاملتون أمس فأخبرني بأنه يحسن أن لا أزوره فى منزل رئيس الوزراء. لانه قد قدمت له ملاحظات عن ذلك واذا كان هناك ما يهم من الاخبار فيحسن ان أرسل له كتابا عنها . وقد كتبت اليه خطابا أسأله فيه بيان خطة غلادستون الحقيقية . فجاءني الرد وهو غير مرض . وفى سانت جمس غازت خبر بصدد الامر بارسال جنود لمصر . ذهبت الى كرابت وأنا فى توتر عصبي شديد . وقد انعقد مجلس الوزراء أمس فى غرفة مستر غلادستون الخاصة انعقاداً عاجلا . فهل كان

تقصد من اعتقاده ارسال الجنود لمصر ؟ اني لا أتمالك من الظن بأنهم يريدون تدخل السريع . ولكن يظهر ان الفرنسيين قد تصالحوا مع عرابي .

وأقول هنا أن جميع الدول وليس فرنسا فقط كن راضيات بالاتفاق مع عرابي و بصحبة توفيق حفظاً للنظام والامن . وهاك ما تقوله البال مال فى ١٦ يونيو : « المظنون أن دولتى الوسط ترغبان فى الاتفاق مع عرابي على أساس تنازل توفيق وتولية ابنه القاصر مع وجود وصي . وهناك فوائد لا تنكر لهذا الاتفاق وان كانت فرنسا وانجلترا مضطرتين الى مظاهرة توفيق الذى أطاع نصائحهما وبخاصة نصائح الممثل الانجليزى . ومن المعقول ان خيبة توفيق العملية وهى شخصية وسياسية معا قد أوحت الدول بضرورة استبدال آخر به » .

وهذه رسالة ماليت المؤرخة فى ١٤ يونيو : « ارسل وكيلا النمسا والمجر والمانيا الى حكومتيهما أن نتيجة التدخل الحربي الاجنبى مالم يكن مصحوبا بجيوش تركية سيجعل حياة الاوروبيين فى خطر . وهما يعتبران المسألة السياسية ثانوية بالنسبة الى حياة رعاياهما . وهما لذلك يؤيدان الرأى القائل بوجوب ترك المسألة فى يد الباب العالى وحده ويعتقدان ان أصلح الطرق لتجنب أهول المصائب أن أخرج أنا من البلاد وأن يبرحها كذلك الاسطول »

وقد سمعت أن ماليت كان يقول لاصدقائه أن حياته السياسية قد قضى عليها . فكان نجاحه هو وكولفن يتوقف على ايجاد الحرب .

« ١٧ يونيو — قضيت ليلة كلها قلق وأرق . ولكن ليس فى جرائد اليوم ما يثبت ارسال الجنود . والسماء صاحية ولذلك عاد الى انتعاشي . وظاهر أن السلطان لا يجرؤ على ارسال الجنود . وقد اتفق الفرنسيون مع عرابي وهناك ما يشاع الى أن النمسا والمانيا ستتفقان معه أيضاً . فلا أهمية لما تفعله انجلترا بعد ذلك .

كان عندنا في كرابيت ارنجتون . لمنجتون . فاركهار . هامتون . دالاس . كنجز كوت . بورك . ولتر سيمور . وقد كذب خبر ارسال الجنود . وكل شيء كما نهوى وقد اتفقنا على أن لا نقول شيئاً عن مصر ولكننا لا نستطيع ذلك » .

« ١٨ يونيو — الاحد وهو عيد واترلو . ولم تظهر انجلترا بمظهر السخف

والحدود كما تظهر اليوم . وفي وقت الافطار نسلمت تلغرافاً بأن واعاً وعرابي أما وزارة ترضي عنها الدولتان الجرمانيتان وتركيا فنحن الآن في طرب نشكر الله »

ويحسن بي هنا أن أثبت ثلاثة خطابات أرسلها الى صابوحي في تلك الايام الاخيرة وهي توضح حالة الوطنيين وما كان يجري في أذهانهم .

القاهرة في ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢

زرت اليوم عرابي باشا بعد وصول تلغرافك اليه بدقائق قليلة . ولقد تحادثنا نحو ساعة ونصف وسألته عن سبب هذا الرعب المنتشر في البلاد اذا كان قد اتفق مع الخديو فقال لي : « أما عني أنا فاني أعتقد ان الخديو مخلص مادام يكون بعيداً عن السير ماليت . فانه قد اقتنع الآن بأن ليس في الحكومة رجل يستطيع حفظ النظام سوى هذا الرجل الذي يحتقره رجال السياسة الاوربيون احمد عرابي . وقد تصالحت أنا والخديو وعهد إلي أمام ستة من ممثلي الدول الاوربية وأمام درويش باشا أن أحافظ على الأمن العام . وقد قبلت ذلك وأقسمت أن أحافظ على حياته وحياة جميع من يسكن مصر من أي ملة أو أي أمة . وسأفي بهذا العهد مادامت لي السلطة . ولكن اذا كان هذا الصلح مبنياً على الغش والخداع . فهذا من شؤون الخديو وحده . أما أنا فاني مخلص مع كل من يخلص لي . والذين يعاملونني بالمكر والغش أعاملهم بالمثل . فقد علمنا الدهر واسماعيل كيف نفهم مكر الاتراك ، وكما نستعمل مدافع الترك وأسلحتهم ودخائرهم كذلك نستعمل مكرهم عندما يضطروننا الى ذلك . فلن نعتدي على أحد ولكننا سنقاوم كل من يحاول الاعتداء علينا . فان أمتنا تعرف الاخلاص وتشكر لكل من يأخذ بيدها ويساعدها على اصلاح البلاد . فلسنا نرغب في شيء سوى الاصلاح (وهنا أكد هذه اللفظة) .

قال عرابي : « أما الذين يخدعوننا فانهم يجدوننا أشد خداعا منهم فأوروبا وخاصة انجلترا تنظر الينا كما تنظر الى متوحشين وهم يقولون أنهم يقدرون على سحقنا في أربع وعشرين ساعة فليجربوا ذلك اذا أرادوا ولكنهم سيفقدون دين الحكومة

أي ٨٠ مليون جنيه ودين الاهالي أي ٢٠ مليون جنيه . فان أول رصاصة تطلق ستحررنا من قيود هذين الدينين . والامة في هذه الحالة لا ترغب في شيء افضل من الحرب » .

وقد سمعت هذا الكلام من عدة أناس . والاستعدادات تجرى على ساق وقدم . وقد وجدت ذخائر كثيرة وبنادق عديدة كان قد خبأها اسماعيل عندما كان ينوى أن يستقل عن الباب العالي . وهم يقولون ان هذه الذخائر ستنفعهم في الحرب وقد أخبرتهم بأني أؤمل أن لا تحصل هذه الحرب وهم يقولون أنهم يستطيعون المقاومة سنوات لان الله قد بارك لهم في حاصلات هذا العام حتى بلغت ضعفي ما كانوا يجنونه في السنوات الاعتيادية .

وقد تحدث عود عرابي عن حليم فوجدته يفضل حليما على توفيق ولكنه يقول انه اذا كان توفيق لا يسير وراء ماليت ولا يصغى لاقواله ونصائحه فان الاحوال تستوى ولا يعود هناك مجال للشكاية منه . ورأيه أن كولفن أضل ماليت وأضر بلاده ضرراً بليغاً كما أضر مصر بنشره الاخبار الكاذبة عنها .

في ١٧ يوليو — ذهبت مساء أمس الى منزل شريف باشا حيث كان هناك عرابي ومحمود سامي وعبد العال وعلى فهمي ونديم وهجرسي وكانوا جلوساً يتناولون العشاء . فبعد العشاء أخذنا ندخن ونتحدث عن السياسة واذا بضابط قد دخل علينا ومعه خطاب من سيدة انجليزية تطلب حمايتها لان بعضهم نصح لها بمغادرة القاهرة . وقد صار عرابي في نظر السيدات الاوربيات بطلا وقد سمعتهن يمدحنه لحمايته لهن . وعندما يكون في مركبته تتسارع السيدات لرؤيته من النوافذ والشرف . وكلما قابلت أوربيا دعوته الى مناصرة عرابي .

في ١٨ يوليو — في ظهر أمس عندما أعلن بالتلغراف خبر تعيين راغب باشا رئيساً للوزارة ذهبت الى عرابي فقرأ لي تلغرافا بعث به اليه الخديو يطلب منه فيه ان يتعاون مع راغب باشا باعتباره (أي عرابي) وزيراً للحربية . وبعدما شربنا القهوة كتب رداً يشكر فيه الخديو . وكان الرد غاية في الادب من حيث العبارة . ثم قال لي بعد دقائق . « فلنركب عربة ولنسر في شوارع المدينة لكي نبعث الثقة في صدور الناس » فركب هو وعلى فهمي في عربة وركبت أنا ونديم في أخرى وسرنا في

العجالة تتقدمنا جنود ونزلنا عند منزل الشيخ الامبابي شيخ الاسلام . وقال لى عرابي « تعال معنا لاعرفك بطركنا » فنزلت معه وعند ما دخلنا وجدنا الشيخ جالساً على ديوان قصير فوقف وتقدم عدة خطوات فسلم عرابي عليه وقبل يده . أما أنا فحييته بهز يده فقط . ودعانا الى الجلوس فجلسنا . وكان معه كثير من علماء الازهر وكان ابن الشيخ العروسى أحدهم . وبدأوا بالكلام عن الوزارة الجديدة ثم أخذوا في الحديث عن علاقة الشيخ الامبابي بالخديوى فى الحوادث الاخيرة . وقد استطعت أن أعرف من هذا الحديث أن ما أشيع عن وجود فتور بين عرابى والامبابي لا أصل له . وعندما كنا نتناول القهوة قدمني عرابى اليه وبين له انى صديق المستر بلنت فأوضح لى الامبابي مسألة التلغراف فقال لى انه كتب الرد بيده وانه لم يعتذر للخديو عنه . وهو يعتقد ان ماليت سمع عنه من سلطان باشا أو من احد أنصار الخديو .

ثم عرض عرابى على الشيخ منشوراً بصدد حماية أرواح سكان مصر وأملاكهم مهما كانت دياناتهم أو قوميتهم ورجاه ان يكتب هو منشوراً مشابهاً له يقول فيه باعتباره شيخ الاسلام ان الاسلام لا يمنع المسلم من أذى اليهودى او النصراني فقط بل يفرض عليه حمايته لانه في ذمته . فوافق الشيخ الامبابي على ذلك ثم قام فى حضورى وحضور المشايخ الاربعة الآخرين وصلى لله كي يلهمه طريق الصواب فى اصلاح البلاد ووعد أيضاً بان يساعد عرابى لتقوية روح السلام بين المسلمين وغير المسلمين اذ هم فى الحقيقة اخوان وان اختلفوا فى الايمان

ومن هناك يممنا منزل أرتين بك فحيانا وبالغ فى التحية ثم سرنا فى شارع كلوت بك ثم الموسكي وسائر شوارع المدينة وكان الناس يقفون على الجانبين صائحين بقولهم : « الله ينصرك »

وفي نهاية هذه الجولة أخبرني عرابي بانه دعى الى منزل السيد حسن موسى العقاد لتناول العشاء فاخذني معه وكان بصحبته باشوات وضباط ومشايخ وعلماء . وكان منزل هذا السيد على سعته مكتظاً بالضيوف . فكان بينهم عرابي ومحمود سامي واحمد باشا وعبده ونديم وانا وكنا جميعا فى الغرفة الكبرى . وكنا ننشد الاشعار

نوع من الذبائح والاهاجي وكنا نسلى بجو راعب نشا . فطعم عرابي مقطعة وطعم محمد ثنتين أما نديم فطعم أربعا وا كتفى سامي باثنتين وبعد العشاء جلست الى جنب عرابي . وقدم لنا ثلاثون لونا تقريبا وهذا غير الفطائر والحلوى الاوربية والشرقية والفواكه .

وبعد العشاء أخذنا في الحديث عن السياسة وعن أنواع الحكومات وأساليبها . وكان النوع الجمهورى هو المفضل في الحديث . وأخذ محمود سامي وهو ذو ذكاء ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر . ومما قاله : « لقد كنا نرمي منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا وبينها الحجاز . ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » .

في ١٩ يونيو — كنا أنا وعبده ونديم وسامي نتكلم أمس عن الوسائل السلمية التي يمكن اتخاذها لكي تعبر بها مصر أزمتها الحاضرة . فقال عبده انه اجمع رأيه على أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التي لديه أو التي يستطيع حيازتها ويذهب بها الى انجلترا لكي يعرضها بنفسه على مستر غلادستون والبرلمان الانجليزى . وسيأخذ معه أحد وجهاء التجار وأحد الاحرار ممن ينوبون عن الفلاحين . فوافق محمود سامي على هذا الرأى وقال انه هو أيضاً يود أن يذهب الى اوربا لهذه الغاية . وعبده يستعد الآن للسفر . وكان نديم والسيد حسن موسى العقاد يريان ذلك أيضا . وهذا الاخير من أغنياء التجار في القاهرة وهو وطنى ذو ثروة عظيمة ونفوذ كبير .

وقد صار راغب رئيساً للوزارة ولكن بما أن خطته تركية فليس من يرضى عنه سوى الشراكسة والناس يتوجسون من نعيينه ويخشون أن تكون هناك دسيسة تركية . وأنا أحدثهم .

وقد كانت الحوادث الاخيرة باعثاً بين الوطنيين على كراهة الاتراك والشراكسة والسلطان نفسه . وقد سمعت سامي وعبده ونديما يلعنون السلاطين والامم التركية من عهد جنكيز خان وهو لاكو الى عبد الحميد . وقد الف حرب كبير يستعد لاعلان

الاستقلال عن تركيا اذا تدخل الاتراك في مصر تدخلا حربيا . ولكن التركي الماكر قد أدرك الخطر وامتنع عن التدخل . وقد قال نديم ونحن راجعون من شبرا انه سيهدم عرش السلطان قبل ان يموت .

ويجب أن أخبرك بأنى ألاقي الآن من الحفاوة والاحترام مالم أكن أحلم به . فجميع الباشوات والضباط والمشايخ والتجار يلاقونني بالبشاشة والود والشكر . وقد اتفقت مع نديم على ايلام وليمة اكراما لك وشكراً على ما أسديته من المعونة للوطنيين في هذا الكفاح .

القاهرة في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢

ذهبت الى منزل محمود سامي حيث قابلت جميع أصدقائنا واختلطت بالباشوات وسائر الزعماء . وكان حديثنا طول الليل عن السياسة وقد أخبرتهم بفحوى خطابك الذي وصل الى اليوم عن طريق برنديزي ولخصت لهم أيضا أقوال الجرائد التي ارسلتها أنت وليدى آن الى . وبعد ذلك قدمت لمحمود سامي عريضة وقعها الوطنيون يطلبون فيها من مستر غلادستون أن يرسل اليهم معتمداً يفهم أحوال بلادهم . وقد وافق سامي على العريضة وقال انهم سيوقعونها عند ما يجيء عرابي الى القاهرة وستقدم العريضة بواسطتك الى مستر غلادستون . وفى آخر الشهر قيل لى أن ماليت حرض توفيقا وطلب اليه أربع مرات أن يقبض على عبده ونديم ومحمود سامي وعليّ انا أيضاً .

في ٢٣ يونيو — عند ما صدق الخديو على تعيين راغب باشا استدعاني أنا ونديما الى الاسكندرية . وفي ليلة الاثنين جاءتني في الفندق عربة وفيها رجل يدعوني لزيارة حسن باشا الشريعي . فذهبت أنا ونديم لاني خشيت أن أذهب وحدى . وعند وصلنا قوبلنا بحفاوة ثم أخبرني أن راغب باشا عهد اليه بتبليغي رغبته في رؤيته في الديوان في الاسكندرية فقلت « لا بأس » وقال نديم انه سيذهب معي أيضاً . وخرجنا من المنزل وقد عقدنا بيننا على أن لا تكون لنا علاقة براغب

وهكذا تعرف انه فى الوقت الذى أرسلت اليك تلغرافا أدعوك فيه الى أن تستدعى ماليت لئلا يقتله المتعصبون كان هو يشير بالقبض علىّ . وقد كنت على الدوام عند مايتكلم شبان المصريين المتحمسين عن اغتيال ماليت آمر لهم حماقتهم وانه ليس هناك أقل منفعة للقضية الوطنية من هذا العمل

فى ٢٤ يونيو — كان محمود باشا الفلكي قد ترك الوطنيين لانه لم يتقلد وزارة فى عهد رياسة محمود سامى وقد ترضاه عرابى باعطائه منصب وزير الاشغال

(وأخذ صابونجي هنا في وصف الازمة التى سبقت استقالة وزارة محمود سامي وتوسلات عرابى الى السلطان وبعثة درويش ثم بعثة عثمان بك وكيف أن الوطنيين كانوا يتملقون السلطان باعلان الاخلاص والولاء له)

وهاك مايقوله صابونجي بعد ذلك :

أما عن عقيدتهم الحقيقية فهم لايعنون بعبد الحميد أكثر ما يعنون بسكان القرى فهم يستخدمونه لمصلحتهم ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائماً لاعلان الجمهورية المستقلة وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ولكنهم تبصروا فى العواقب فرأوا أن يسيروا سيراً وئيداً فى هذا الموضوع فنديم يوجه جهوده نحو هذه الغاية ببذر بذورها في أذهان الجيل الجديد ومنذ وصولي الى هنا وأنا ونديم لانفترق . والمشايخ والعلماء والاعيان والتجار والضباط يقابلوننا بأذرع مبسوطة ونحن نحدثهم عن مساعيك وعن الخدمات التى أديتها للقضية الوطنية وكلهم مشتاق الى رؤيتك يبدون لك تحياتهم وتسليماتهم . والحقيقة أن هؤلاء الناس الطيبين يستحقون كل عطف ومعونة

صابونجي

ولست أذكر بالدقة ذلك الوقت الذي قر فيه رأى غلادستون على أن يبث فتنة فى المصريين ويعول على التدخل الحربى بعد أن أغرى نفسه وأعوانه بأن هذا التدخل الحربى ليس فى الحقيقة حربا . ولكنى أظن ان قراره هذا قد انتهى اليه بين ٢٠ يونيو وآخر يونيو . وكانت الاعتبارات التي ألجأته اليه مبنية على الخطط البرلمانية ، فان الاحرار من حزبه كانوا على وشك الانتقاض عليه وكان تشمبرلن يقص عليه القصص عن القلق المنتشر فى انحاء البلاد وكانت هزيمة وزارة

الخارجية واضحة لا يمكن احتياطها فكان جرانفيل يلجأ الى خطته فى التأجيل ويقول ان التهديد بالحرب يساوى الحرب نفسها فاستعمل هاتين الخطتين وكانت النتيجة أن انجلترا صارت أضحوكة العالم فى معالجتها للمسألة المصرية . وكانت أحوال البورصة غير عادية والتجارة تعانى أزمة دامت زمنا طويلا . وقد استعملت وزارة الخارجية جميع « وسائل الحضارة » فى حل المشكلة وهى تتلخص فى الكذب والخيانة والغش فذهبت كلها هباء . أما عساد الوطنيين فقد أمرت انجلترا على جلالة قدرها وعظم نفوذها عرابي بأن يغادر البلاد فرفض أمرها ، بل حدث عكس ذلك اذ زادت قيمة عرابي فى عين العالم الاسلامى وكانت هذه الزيادة على حساب انجلترا ، فقد ظن كثيرون في ذلك الوقت أن دعاة الجامعة الاسلامية فى الهند سيقومون بفتنة ، وكانت انجلترا فى يوم عيد واترلو أسخف ما كانت في تاريخها كما سبق لى قول هذا ، فقد فزع أكثر الموظفين واستيقظت فى المحافظين عاطفة القتال التى أخمدت منذ هزيمة دزرائيلى في سنة ١٨٨٢ وهبت تدعو الى الدم ، فقسا مستر غلادستون وأخذ صبيره ولست أظن انه عمد الى أخذ المسألة فى يديه يأمر وينهي فيها وانما أظن انه اقتصر على السكوت وترك (الصالح) تعمل ماتراه واجبا ، ومعنى ذلك أن المسألة صارت في أيدى رجال وزارة الخارجية ووزارة البحرية وسيرسيمور وكولفن لان (ماليت كان قد سحب) لكي يحلوا المسألة بأنفسهم . فقد كسبنا نحن القضية من الوجهة السياسية وهزمنا وزارة الخارجية هزيمة تامة فكان لانجلترا أن تهزمنا من الوجهة الحربية

واليك المذكرات :

« ١٩ يونيو — فى بورصة لندن فزع سببه اشاعة استقالة برايط ونشمبرلن (وكان هذا الفزع يدل على جهل الجمهور بحقيقة تشمبرلن اذ قرنوا اسمه الى اسم برايط)

« ٢٠ يونيو — كتبت الديلى نيوز مقالا معقولا ، وينصح لى فريدريك هاريسون بان اكتب لمستر غلادستون خطابا مفتوحا وأطبعه ، وهو يضمن حسن تأثيره فى انحاء البلاد ، وقد بدأت في تحرير هذا الخطاب

« ٢١ يونيو – انتهيت من خطابي وذهبت الى هوارد لاستشارته فطلب ى أن أنقح بعض العبارات حتى لايقع غلادستون شخصياً تحت المسئولية . وكان لاسل هناك . ثم اتفقت مع باتو على نشره في الغد أو يوم الجمعة على الأكثر ثم أرسله الى غلادستون .

« ٢٢ يونيو — بكرت فى الصباح وذهبت الى باتون وكلانا يظن أن النية بمصر سيئة وقد كتب هارى براند يقول انه اذا وافقت فرنسا على المذكرة فإن الحكومة تعمد الى العمل فى مصر ولو رفضت المانيا الاشتراك . وأنا أشك في ما اذا كانت فرنسا مستعدة لذلك وسألحق خطابي لمستر غلادستون بخطابات أخرى اذا دعت الضرورة وأنا متأكد أنه اذا أنزلت انجلترا جيوشاً في أي مكان في مصر فان السلطان يعلن الجهاد وتحدث فتنة بين مسلمى الهند فنحن الآن فى مأزق عجيب .

وقد ظهر خطابي فى التيمس فى ٢٣ يونيو وهو اليوم الذى انعقد فيه مؤتمر الاستانة . وقد أحدث رجة فى الرأى العام وهذا نصه :

سيدى

ان خطورة الحال الحاضرة فى مصر ومصالح الامة الانجليزية وكرامتها المتعلقتين بهذه الحال الآن تدعوني الى مخاطبتكم عن الامور السياسية التى قادتنا الى المأزق الحاضر والى تدوين بعض الحقائق التى يجب ألا تخفي عن أعضاء المؤتمر القادم اذا كان ينوى أن يقرر خطة جديدة

فأنت تعرف أنني في الشتاء الماضي توسطت بين سير ادوارد ماليت وسير اوكلاند كولفن من جانب وبين زعماء الحزب الوطني المصرى من جانب آخر وقت مفاوضات بينهما هى ان تكن غير رسمية الا انها كانت ذات أهمية وكان شرفيها رعيناً بالولاء لوكيلي حكومة جلالة الملكة . ثم انى منذ مجيئي الى انجلترا وانا على اتصال دائم مع هؤلاء الزعماء . فلذلك أجدني الآن فى مركز يجيز لى الكلام عن مسلك هؤلاء الوطنيين وأغراضهم . وتعرف أيضاً أنني حذرت رجال حكومة جلالة الملكة عدة مرار من الخطر الذى كانوا يتعرضون للوقوع فيه لعدم ادراكهم الحقائق وانى

حثثهم على ان يسارعوا الى التفاهم مع اولئك الذين يقودون الحركة فى مصر وتعرف أيضاً انى مراعاة للحق والعدل نصحت المصريين فى الازمة الاخيرة بان ينسوا الخلاف الذى نشأ بينهم وبين الخديو وحثثهم على ذلك بكل ما فى جهدى وقد حصلت بالفعل هذه التسوية الآن . وقد تحملت فى عملى هذا مسئولية عظمى ولكنى أعتقد ان الحوادث بررت عملى .

واهم الحوادث الماضية التى أريد اثباتها هنا هى :

أولا — فى شهر ديسمبر الماضى عاونت رجال الحزب فى نشر برنامج يلخصون فيه آراءهم وكانت آراء عادلة صحية وقد راعوها مراعاة تامة . وفى ذلك الوقت ثم بعد ذلك الى ٨ يناير حين أرسلت المذكرة الثنائية لم يكن بين المصريين وبين انجلترا او الانجليز ما يدعو الى الخصام او الشجار . ولم يكن بينهم وبين الخديو أو المراقبة الثنائيـة اى خصام بل كانوا يثقون بهاتين الهيئتين ويعتمدون عليها لمعاونتهم فى السير نحو السبل البرلمانية والحكومة الذاتية الدستورية وكان غرضهم ولا يزال ان تعود مصر دولة تقتدى دينها وتصلح قضاءها . وكانوا كاهم الآن يثقون بالجيش لكي ينيلهم هذه الحقوق وبالبرلمان لـكي يصل بهم الى غايتهم . وكانوا مستعدين لان يتدرجوا فى تقدمهم لا يحيدون عن الاعتدال

ثانياً — ان المذكرة الثنائية التى أعدها مسيو غامبتا كانت غايته منها ان يورط انجلترا فى سياسته العدائية نحو الاسـلام وقد فهم المصريون انها أول خطوة خطتها انجلترا نحو السياسة التى تتبعها فرنسا فى تونس فصارت تفهم من ذلك الوقت فى انجلترا توجسا عميقاً . وبدلا من ان تخيفهم هذه المذكرة ألجأتهم الى السرعة فى عملهم . فهى التى جعلتهم يلحون فى طلب استقالة شريف باشـا ، الذي كانوا يتهمونه بالخيانة، ويطلبون من الخديو تأليف وزارة وطنية . وهذا الالحاح الذى تقول الصحف الانجليزية انه صدر من الجيش هو فى الواقع صادر من الأمة الممثلة فى نوابها . ويمكننى ان أقدم عدة شواهد على هذا .

ثالثا — ان سقوط مسيو غامبتا الذى لم يكن ينتظر منع تنفيذ الوعيد الذى جاء فى المذكرة الثنائية بالتدخل الحربى . ولـكن فكرة التدخل وان تكن غير

مباشرة قد بقيت . فان المراقبين الانجليزي والفرنسي احتجا على الدستور الذي منحه الخديو في ٦ فبراير وامتنعت الحكومتان الانجليزية والفرنسية عن اعلان رضاهما عنه واعتبرتا المادة التي تسمح للبرلمان بمناقشة نصف الميزانية الذي لم يكن مقيداً بالديون مخالفة للارتباطات الدولية ، وكان المصريون ينكرون حقهما التي أسساها على نص فرمانات الباب العالي وديكريتات الخديو .

رابعاً — ان الوكيلين الانجليزيين تبعاً لاوامر حكومتهما (كما هو المفروض) نصبا من نفسيهما في الثلاثة الاشهر الماضية خصمين يرغبان احداث ثورة تقلب النظام الذي أوجدته ارادة الأمة والحرية التي منحها اياها والي البلاد . ولم يتحرج المراقب العام الانجليزي ، مع انه موظف في الحكومة المصرية ، عن أن يشترك في هذا العمل . ولم يضن وكيل انجلترا بأي تعب في المداخلة بين الخديو ووزرائه توصلا لهذه الغاية . وامتنع المراقب من حضور جلسات مجلس الوزراء معتمداً على أن الوزارة الجديدة لعدم مرانها ستخطئ ويقف هو من بعيد يحصي عليها اخطاءها .

وكان مكاتبو الصحف الانجليز مقيدين قبلا في نشر آرائهم فما هو ان ظهرت الوزارة المصرية الجديدة حتى أذن لهم في نشر الاخبار التي تؤذيها مع علمهم بكذبها. واني أجرؤ على ذكر بعض الاخبار المزعجة التي نشرها هؤلاء المكاتبون ولم يكن لها أصل ، فمن ذلك خبر انتشار قطاع الطرق في الوجه البحري ، وخبر ثورة البدو ، وخبر ثورة السودان ، وخبر حرب الحبشة ، وخبر النفقات الحربية الهائلة ، وخبر امتناع الناس عن دفع الضرائب ، وخبر استقالة مديري المديريات ، وخبر اهمال أعمال الري ، وخبر الخطر الموشك ان يقع بقناة السويس ، والاخبار القائلة بان عرابي صار مأجوراً لاسماعيل ثم لحليم ثم للسلطان . نعم انه قد يكون هناك أساس واه لبعض هذه الاخبار ولكن ليس لاكثرها أصل البتة ،

وقد خاطبت في ٢٠ مارس لورد جرانفيل في هذا الموضوع بناء على طلب عرابي وأوضحت له الخطر الحائق بالسلام من مسلك وكلاء انجلترا وألححت في طلب ارسال بعثة لكي تبحث شكايات المصريين

وفي شهر ابريل كشفت مؤامرة لاغتيال الوزراء الوطنيين الذين عرفوا ان يد

اسماعيل هى التي حركت هؤلاء المتآمرين . فأخذ قنصلا انجلترا وفرنسا فى استغلال هذا الحادث لمصلحتهما وصارا يحرضان الخديو على مناوأة وزرائه . وكان المتهمون بهذه المؤامرة قد حكم عليهم بالنفى وكانوا من ذوي المقامات العالية يشتركون مع الخديو فى القومية والجنسية لانهم من الاتراك والشركس ولهذا السبب رفض الخديو التصديق على الحكم وقبل اشارة الذين أغروه بالامتناع عن التصديق وأدى هذا الى القطيعة ما بين الخديو ووزرائه . ثم أرسل محمود سامى باشا فى طلب النواب لكي يفصلوا فى الخلاف بين الوزارة وبينه . وجاء النواب ولكن سلطان باشا رفض أن يعقد اجتماعا رسمياً برياسته وذلك للحسد الذى كان غالباً على عواطفه .
وأخذ القنصلان فى استغلال هذا الحادث الثاني فصارا يحرضان جميع المعارضين للحزب الوطنى بالالتفاف حول الخديو . وخشي بعض سراة المصريين حدوث اضطرابات فانضموا الى الشراكسة . وانخدع القنصلان بهذه الحركة فأعدا نصيبهما لضربة نهائية وأرسلا البلاغ الاخير الذى طلبا فيه استقالة الوزارة وابعاد عرابى عن القطر المصرى . وتراءى الناس كأن البلاغ نجح لأن الوزارة استقالت بالفعل ولكن ظهر فى الحال ان القنصلين أساءا فهم الشعور الوطنى ورجع عرابى فى اليوم التالى الى منصبه بقوة ارادة الامة الواضحة

ولست أستطيع أن أفهم ان مسلك وكيلنا فى هذه المسألة يمكن تبريره اوالقول بانه موافق لمبادىء الاحرار وعلى كل حال انه لم يصب نجاحا

خامساً — عندما أرسل الاسطول الى الاسكندرية حاولت ان أحذر ولاة الامور وكان تحذيرى مبنياً على ماعرفته مدة اقامتي من شعور الوطنيين وقد قلت ان وجود الاسطول فى مياه الاسكندرية ونجاحه اذا نزل بعض البحارة الى المدينة قد يحدثان فى الاغلب اضطرابا واقترحت ان اذهب الى مصر لكي اعمل جهدى فى تخفيف بعض النتائج التى كنت اخشى وقوعها

سادساً — فى نفس هذا الوقت رضيت الحكومة الانجليزية بارسال مبعوث تركي الى مصر وكان المفروض ان نفوذ السلطان فى مصر عظيم لدرجة ان الاهلى سيخضعون لأى اشارة تصدر من مندوبه او ان المقاومة لما يشير به ستكون ضعيفة

لا يؤبه لها . ونصح الباب العالي بان يسلك المسلك الذي يرغبه فأرسل درويش باشا. ومما يؤسف له ان وزارة الخارجيــة كانت تعتمد في حل المسألة على ما كان يشاع عن هذا الرجل من انه كان حلواً من الصبر والقسوة في معاملته للثائرين . وعنـدي ما يدلني على ان ما كان ينتظر منه هو ان يدعو عرابي الى الاستانة فاذا لم ينجح في هذا فانه يلجأ الى الرشوة فاذا خاب هذا المسعى الثاني أيضا يقتله بنفسه باعتباره ثائراً على السلطان.ولست أناقش الآن فيما اذا كانت هذه تعليمات أمر بها درويش او هي من ابتكاراته . ويظهر لي ان الباب العالي مثـل حكومة جلالة الملكة لم يكن يقدر مبلغ الشعور الوطني وان اتحاد الأمة المصرية وشجاعتها هما اللذان أقنعا السلطان بأن الوسائل التي استعملت في البابا مع الثائرين لن تجدي شيئا في مصر . وعادت النصائح المعقولة الى مكان هذه الاقوال ونصح لكل من الخديو وشعبه بالصلح.

فهذا يا سيدي هو بالاختصار تاريخ سياسة انجلترا في مصر في السـتة الاشهر الماضية . وهو مما يؤسف له لصـدوره من وزارة خارجيتنا . ومع ذلك فان المستقبل لا يزال في يدنا وان كان المؤتمر عنـد ما ينعقد لن يحسب لانجلترا سوى صوت واحد . وليس لي الحق في ان اقترح ما يجب ان يقال في هذا المؤتمر ولكني اجرؤ على القول بأنه اذا كان وكيل حكومة جلالة الملكة يتقدم الى المؤتمر ويعترف باخطائه ويعلن عطف انجلترا على مصر فاننا عنـدئذ نكسب ما خسرناه . لانه على الرغم من غضب المصريين للحيل والألاعيب التي استعملتها معهـم وزارة خارجيتنا فانهم يعتقدون ان هناك عطفا عليهم من جانب الأمة الانجليزية نحو أعمال هذه الوزارة وان هذا العطف لا يسمح باستخدام لأوهام عن المصالح المالية وعن قناة السويس . وقد أكدوا لي المرة بعد المرة ان غايتهم هي السلام والاستقلال والاقتصاد وان قناة السويس تكون في أمن وحمى جميع الدول وان الجميل يرجع الى انجلترا اذا صارت مصر دولة عزيزة الجانب مثل سائر الدول . فحسبكم ان تمدوا الى المصريين يد الصداقة لتنالوا منهم الشكر والحمد

هذا واني خادمكم المطيع «ولفرد سكاون بلنت»

الفصل الخامس عشر

ضرب الاسكندرية

نأتي الآن على ذكر ضرب الاسكندرية وهو قتال دبره الاميرال سيمور بالاتفاق مع كولفن لان خروج ماليت آل الى وضع القوة السياسية كلها في يد كولفن ولم يأخذ لاسل كما كنت أؤمل مكان ماليت بل عين في مركزه كاتب صغير يدعي كارترت وكان لجهله وعجزه آلة في يد المراقب يفعل به كيفما شاء. وليس عندي ما أزيده على مذكراتي في وصف الاسابيع الثلاثة التي تلت ما تقدم في القاهرة والاسكندرية. وقد حلت على خطابي المفتوح الى مستر غلادستون عاصفة من السباب من أصدقاء ماليت وكولفن ومن الراغبين في الحرب ومن العناصر المالية في الصحافة والبرلمان

واليك المذكرات :

« ٢٤ يونيو — في جريدة التيمس اليوم خطاب شديد من هنري ماليت (شقيق ادوارد ماليت الاكبر). وقد أعلن لورد لامنجتون انه سيسأل الحكومة يوم الاثنين عن « معاوضاتي غير الرسمية ». كلما كثرت المناقشة كان هذا في مصلحتنا. كان عندنا يوم الاحد في كرابت جماعة كبيرة من الزوار بينهم لاسل

« ٢٥ يونيو — كتبت رداً للتيمس على خطاب هنري ماليت وأرسلته. وقد لطفت لهجته تهدئة للخواطر. لم تكن لي رغبة في الشجار مع أصدقائي وكنت قد قررت أن لا أضرب الا عند الاضطرار

« ٢٦ يونيو — ورد خطاب طويل من صابونجي (هو الذي دونته في الفصل السابق) فهم في القاهرة يولمون وليمة رسمية اكراما لي. التقيت بلورد دولاوار ولورد لامنجتون (وكانا متصاهرين) في مجلس اللوردات وقد جعلت اولهما يسأل عن رسالة ماليت التي ارسلها في ٢٦ من شهر دسمبر (وكان ماليت قد قال اماغفاها) وكان لورد لامنجتون ينوى ان يبنى خطبته على رسالة ماليت ولكني اوضحت له

ـحة هذا العمل . ومع كل قد القى خطبة شديدة على وكانت لهجته عالية في الحدة
مصـ ـمهت وجه لورد جرانفل وبان عليه القلق ولكنه صرح بأني قد حاولت
ـنة الجيش في احدي المرات وهذا تصريح بعيد ... وقد انكر هنري ماليت
مـ ـ ثم قال انه لا يتذكر رسالة ٢٦ يونيو ولـكنه سيبحث عنها »

(ان سبب قلق الحكومة وارتباكها عند ما سئلت الوزارة عن « مفاوضاتي مع الزعمية » هو أنها كانت قد تورطت منذ عام في مفاوضات غير رسمية مع البابا
على يد مستر اريختون بصدد موقف الكهنة الارلنديين)

« تناولت العشاء مع هنري مدلتون في النادي وذهبت معه الى اجتماع عقدته جمعية عدم التدخل في شارع هارنجتون . وكان سير ولفرد لوسون رئيساً للاجتماع وقد تكلم فأحسن وهو ألذ من سمعت وقرأ فريدريك هاريسون خطبة لخص فيها المسألة المصرية تلخيصاً معتدلا » لاحظ هنا أن هنري مدلتون كان يعرف مصر وقد أقام فيها مدة طويلة وكان يعرف الطوائف القبطية . وقد كتب اليه بطريرك الاقباط خطاباً مدة الحرب وقد نشر هذا الخطاب . وهذا الخطاب ذو أهمية من حيث انه يظهر كيف أن الاقباط كانوا جميعاً مع عرابي في ذلك الوقت .

« ٢٧ يونيو — تناولت العشاء عند بمبروك . وكان جميع أعضاء نادي هويلتون هناك وهم يقربون من الاربعين وبعد العشاء تساقينا بعضنا نخب بعض . ودعيت الي الخطابة . وشعرت اني في وسط لاينظر الى بعين الرضا لأن اكثر المجتمعين كانوا من الراغبين في الحرب . ولكن هاملتون وقف وشرب نخبي منوها بخدماتي العمومية . فلما وقفت للرد قلت ان بعض الناس يخدمون بلادهم بطريقة معينة وبعضهم يخدمها بطريقة أخرى ولكن ما دام الانسان يخدم ويؤدي واجبه فلا أهمية للطريقة التي يتبعها » .

(وهذه الخطب لم تكن بالطبع خطيرة الشأن لأن الاجتماع كان مقصوداً به اللهو وكان الحاضرون من اصدقاء لورد بمبروك الخواص وكانوا يأتون لزيارته مرتين أو ثلاثة في العام لهذا الغرض)

« ٢٨ يونيو — ذهبت الي جورج هوارد وعرضت عليه خطاب صابوجي

ومكاتباتي مع غلادستون . وصابونجي يقول ان الزعماء الوطنيين في مصر يفكرون في المجيء الى انجلترا لكي يعرضوا قضيتهم على مستر غلادستون — وقد سألت هوارد أن يتوسط لي في مقابلة رابط فاني اعتقد أن رابط ينقاد الى الحق اكثر من سواه وربما كان في معرفته فائدة . وليس هناك شك في أن الاستعدادات الحربية قائمة على ساق وقدم لفرص ما . ولست أعتقد الا أن القصد من هذه الاستعدادات هو تقوية يد دوفرين في المؤتمر ليس غير . وقد أرسلت تلغرافا الى صابونجي أخبره فيه بانه لم يتقرر بعد شيء بصدد ارسال الجنود وأسأله أيضاً أن ينصح بالصبر .

« ٢٩ يونيو — زرت رابط في منزله في بيكاديلي . وكان يتكلم بلهجة الصداقة ولكن عطفه ومعرفته كانا أقل مما رأيته من مستر غلادستون . ولكن النتيجة كانت مع ذلك مرضيه . فهو يؤكد لي أنه لم تتخذ الى الآن اجراءات حربية وهو لا يظن أنها ستتخذ وهو يعتبر قناة السويس قليلة الفائدة الحربية لنا من حيث تدبير الخطط . وهو يوافق غلادستون على تفضيل طريق الكاب للمواصلة مع الهند . وقد أوضحت له رأيي عن الاصلاح الاسلامي وبينت له الاختلاف بين الحركة الموجودة بمصر وبين افكار السلطان النازعة نحو التعصب . وأظن أن زيارتي هذه ستقوى حزب السلام في الوزارة »

(ألاحظ هنا أن رابط قد استهجن مسألة التدخل واحتمال نشوب القتال في الاسكندرية اكثر مما توهم القارىء هذه المذكرة وقد أشار علي بأن اطمئن من هذه الوجهة . وأنا علي يقين بانه كان يقول ما أعتقد . ولكن هذا المسكين الذى كانت مبادئه تنافي الحرب والقتال كان يجهل ماكان يجرى في وزارة البحرية ووزارة الحربية وقد أخبرني بعد ذلك أنه قيل له أنه في حالة التهديد بضرب الاسكندرية سيبقى هذا التهديد حبراً على ورق . وكانت النظرية التى وضعتها وزارة الحربية أمام مجلس الوزراء أن الامة باجمعها في صف الخديو وليست مع عرابي وانه عند اطلاق أول قنبلة من الاسطول يتسارع الناس ويقبضون على عرابي الذى سيفرد وحده بالمقاومة فيضعونه عند اقدام مولاه الخديو ولما عرف برابط كيف أنه قد أحتيل عليه حتى رضي بضرب الاسكندرية الذي انتهى باحراقها وجعل الحرب

: ماص منها اغتاظ أشد الغيظ واستقال من الحكومة ولم تغفر لغلادستون اشتراكه
و المكر به أو تخليه عن مبادئه) .

« زرت ليدى جريجورى التي كتبت مقالا عن مراقبة مصر وهو مقال
على القارىء بعض التسلية وتناولت العشاء عند هوارد وكانت زوجته متحمسة
شأن ترسيانى »

« ٣٠ يوليو — يكذب كولفن بواسطة مكاتبة التيمس انه هو أو ماليت قد
وسطانى فى أي عمل أو استخدمانى لأي شيء . وهذا التكذيب سيلكنى
اميته بعد التصريح الذى ألقاه اللورد جرانفيل بهذا الصدد يوم الاثنين الماضى .
ان هذا التكذيب الصريح لأشياء ليس من المعقول أن يكون كولفن قد نسيها
لايحتاج الى وصف منى . ولم يقلل من مسئوليته ما كتبه لى فى خطاب خاص فى ٦
يوليو يجحد فيه ما قيل فى تلغراف مكاتب التيمس . وقد قبلت بيانه فى ذلك الوقت
واعتبرته مخلصاً فيه ولكنى عندما طلبت منه أن يجحد ما قيل في التلغراف علناً
رفض اجابة طلبي وكان رفضه بمثابة الاصرار على الكذب .
تناولت الفطور مع دلاوار لكي أقابل برودلى مكاتب التيمس في تونس

(برودلى هذا هو نفسه الذى عهدت اليه بعد ذلك الدفاع عن عرابى وذلك
بناء على نصيحة دلاوار . فانه كان محامياً يمارس صناعة المحاماة فى المحاكم القنصلية
في تونس وكان يكاتب التيمس أيضاً . وكان رجلا ذا كفايات وقد خدم دلاوار
فى عدة مهام فكان يقدم له المعلومات التي يحتاج اليها عن المسائل الشرقية التي يشغف
دلاوار بالبحث فيها . وكان يحضر له خطبه التى يلقيها فى مجلس اللوردة وذلك عند
ما يكون مقيما فى انجلترا . وعند ماغزت فرنسا تونس أخذ هو يدافع عن التونسيين
فى التيمس ويبرر ثورتهم والف بعد ذلك كتابا في هذا الموضوع سماه : « الحرب
القرطاجينية الاخيرة »

« وهو يقول انهم في تونس وطرابلس ينتظرون مجيء السلطان . والا فان
السنوسى يقود المسلمين الى مهمة جديدة ... كتبت خطاباً للتيمس رداً على كولفن
وفيه ما يكفي لسحقه . تغديت عند جريجورى .

« كتب إلى هاملتون يقول ان غلادستون لن يرجع عن خطة العطف التى انتواها نحو مصر واستقلالها اذا كان ما أخبرته به صحيحاً . وأظن ان الذى جعل غلادستون يقول هذا هو رايط » .

هذا الخطاب المشار اليه هنا هو ذو أهمية بالنسبة الى التسوية التي جرت بعد ذلك بصدد مركز مصر . ثم أيضاً وعد لورد دفرين الذى تعهد فيه بالمحافظة على استقلال مصر ومعاهدها الحرية . وكان هذا الوعد موعزاً اليه به من غلادستون . ولولا اني كنت قابضاً على غلادستون من هذه الوجهة لما كان عندى شك فى ان مصر بعد معركة التل الكبير كانت تضم الى الامبراطورية البريطانية . فان جميع الاحرار فى الوزارة كانوا يقصدون الى ذلك »

« ٢ يوليو كنت فى بروكث وهي ضيعة ريفيه لم أر مثلها قط سوى ويلتون . فجميع ما فيها لم يتغير بل هو باق كما كان منذ خمسين أو ستين عاماً في عهد كارولين لام اولون ملبورن وقد مات هنا لورد بالمرستون وهي الآن من املاك هنرى كوبر وهو يعطف علي كثيراً . وكنا جماعة مؤلفة من هنرى براند وزوجته والسفير الاميركي ولورد هاتون ولمنجتون واميسون حاور شقيق لورد جرانفيل وسكرتيره وقد تناقشنا كثيراً عن مصر وكانت اللهجة حية حتى لميسون نفسه لم يغضب اما السفير ففي صمت . وبعد ان لعبنا التنس أنا وميسون تحادثنا . وكان يتكلم بلهجة القانط من مستقبل الامبراطورية وقال ان انجلترا يمكنها ان تعيش اذا لم تحدث فيها ثورة . ومثل هذا الكلام فى بروكث يثير الاشجان . . . فى الازور حملة هوجاء أخرى علي .

« ٣ يونيو — كنت فى بروكث . أظن انه اذا قر القرار على التدخل فستكون ايطاليا هي الدولة التى ستفعل ذلك بعد إشارة المؤتمر . وليس هذا مما يرغب فيه فان الايطاليين يعطفون الآن على المصريين ولكنهم اذا القوا بانفسهم وغامروا بالفتح فانهم سيلجأون الى طرق التوحش . ثم ان الايطاليين لا يمكن نقدم فى مجالسهم النيابية كما هو الحال هنا وفى فرنسا » .

(ألاحظ هنا ان الحكومة الايطالية سئلت لكي تشترك معنا فى التدخل فرفضت

.. وصلت لوجدت سخطاً من الاحرار حيث كان غريباً الذى أحد زعمائهم الشهيرين ... نجدة لمعونة عرابي ».

« ذهبت الى كيبورث وتغديت هناك . وقد خطط لينون طريقاً الى المنزل هناك . وتكلمنا معاً عن الامبراطورية البريطانيــة وكان يجادلني فى قوله . وبظن ... النجاح كان مقدراً لمساعى فى مصر أو لمساعى أى واحد غيرى ما دمنا لا نرتكب ... الصدفة . وهو يتنبأ بوقوع ثورة فى الهند بين المسلمين مهما كانت الحوادث . . .
وفى الليل ذهبت الى براند.

« ٤ يوليو — فى لندن . وجدت تلغرافا يقول ان عرابى لن يذهب الى الاستانة وخطابا من صابونجي مزعجاً . إذ يظهر انه فتح فى إدارة البريد وما فيــه ... أذيع يؤدي الوطنيين في الاســتانة . وفى الصحف تلغرافات عن تجدد الشجار ... شأن استحكامات الاسكندرية ما وقد سمعت ليدى جرجورى من سير ارسكين ماى ان سير سيمور قد امر بضرب الاسكندرية فى الغد .

(سير ارسكين ماى هذا كان على ما أعتقد كبير الموظفين الدائمين فى وزارة البحرية.وأول إشارة الى ضرب الاسكندرية فى الكتب الزرق مؤرخة فى ٢٦ يونيو حيث أرسلت وزارة البحرية الى سير سيمور التلغراف التالي : « اذا كانت الجيوش المصرية تستعد للهاجمة جابر أمير البحر الفرنسي واستعد للقتال » وهذا التلغراف يظهر التعلل الذى كنا نتعلل به لكي نهاجم المصريين.وهو أشبه شيء بقصة الذئب والحمل . ونحن نعرف من جريدة بالمر التى سنشير اليها بعد ان سيمور قد عقد نية على ضرب الاسكندرية منذ ٤ يوليو . ومما جعل الوزارة وغلادستون يقرر ان القرار النهائي ما أذيع من فرية مذبحة بنها التي لم يكن لها أصل مطلقاً وكان الغرض منها تهييج الرأي العام الانجليزى على عرابي »

وتقول ليدى جريجورى أيضاً انها سمعت ان كولفن قد استقال وان استقالته قد قبلت .

ولست أعرف اذا كان هناك أصل لهذه الاشاعة ولكن استقالته فى هذه الساعة جاءت متأخرة فلا تأثير له الآن على سير الحوادث والارجح ان الاشاعة كانت كاذبة.

ابي وأشد القلق بخصوص التهديد بضرب الاسكندرية وفي الساعة الثانية عشرة ذهبت الي مجلس العموم وسمعت ذلك يقول ان « الاسطول قد أمر بان يسلك مسلكا معيناً اذا حدثت ظروف معينة ».

وقد تغديت مع سير ولفرد لوسون وهو رجل لطيف وقد قرأت له خطابات صابونجي بشأن مقابلاته للوطنيين . وقال لى انه هو وآخرون سيفعلون جهدهم ولكن ليس هناك ما يمكن عمله الآن . وقد طبعت خطاباتي التي كنت أرسلتها الي غلادستون ولكني لن أنشرها حتى أعرف خطة الباب العالى . . تعشيت عند ليدى دورا مونت كرستي وكان بولز هناك وقد قال ان ضرب الاسكندرية سيشرع فيه في الغد وموست في صبي . واني أخشى الآن أن يخاطر الوطنيون بما عدم على مبارلة الاسطول لأنهم حتما سينهزمون فتؤدى هزيمتهم الى تثبيط عزائمهم وأظن أنه يلزمهم أن يتركوا الاسكندرية ثم يحفروا الخنادق ويعسكروا بعيداً عن مدى اطلاق المدافع من الأسطول . ولكني لا أجسر الآن على أن أنصح لهم بشيء ما » .

(قال لي ناتون حوالى هذا الوقت أن الخطة التي ستتبعها وزارة البحرية هي ازال الجنود وقت ضرب الاسكندرية والغاية من ذلك قطع الطريق على عرابي اذا أراد أن يتقهقر وكان لهذا الخبر تأثير على تلغرافي في اليوم التالى وخطابي الذى أرسلته في السابع من الشهر) .

٥ يوليو – أرسل أمير البحر سيمور بلاغاً أخيراً . وقد أرسلت الى صابونجي التلغراف التالى : « يجب ألا تعاكسوا الأسطول . ارسلوا عبده الى غلادستون . » ولا أعرف اذا كنت قد ألهمت السداد في هذا العمل ولكن التصميم ليس في كل الأحوال ثم أن عرابي سيظفر في الحالة دون النظر الى رأيي وهو لم يخطيء للآن . وقد أرسلت نسخاً من مكاتباتي الى الكاردينال ماننج والى نولس والى لورد دفرين . وبعد الغداء ذهبت الي هل رئيس تحرير جريدة الديلي نيوز . وهو الآن بعد فوات الفرصة قد انضم الى حماسنا . وقد وعدنا بأن يكتب ما يمكنه . . في المساء تسلمت خطاباً من صابونجي يقول فيه ان الهدوء شامل فظني أن الصعوبة

قد ارجئت ... كتبت اليوم الى هاملتون أعده بعرض خطابات صابوبحي عليه (وهي التي نشرتها) وهذا علاج المتيئس ولكن هذا هو حكم الظروف .

« ٧ يوليو — ذهبت لزيارة ستانلي والدرلى وحضضته على زيارة موسورس لكي يمنع حدوث أى شقاق بين عرابي وبين السلطان . وقد عرضت عليه حقائق الحالة على وجه التقريب ولكني فهمته ان الوقت الحاضر ليس من الاوقات المناسبة لوجود شقاق بين المسلمين . ويمكن الأتراك والمصريين تسوية ما بينهما من الخلافات فى المستقبل . ويظهر لى أنه يوافقنى ... ثم كتبت خطابا الى صابوبحي أسأله فيه أن ينصح بعدم الشجار مع الاسطول وانما عليهم أن يعسكروا فى خنادق بعيدة عن مدى اطلاق مدافع الاسطول . ولا زلت أعتقد انه لن ترسل حملة انجليزية الى مصر وان المصريين سيضطرون الى مقاتلة الايطاليين أو الاتراك ... والصحف تشير الى تسوية سلمية بين الاسطول وعرابى . فاذا كانت هـذه التسوية قد تمت فهى هذا ما يرضي .

« ٨ يوليو — في كرابت . وفى البريد الثاني وجدت خطابا من هاملتون يفهم منه ان غلادستون لا يزال قابلا للمناقشة والاقناع وهذا أكثر مما كنت أنتظر » .

(ان ما كتبه هاملتون فى خطابه هو : « اظن أنه من المسلم به ان رغبة الحكومة هى الوصول الى الحقيقة ولكن يظهر ان هذا ليس سهلا »

« وبناء على هـذا أخذت أكتب ملخصا لخطابات صابوبحي . وفي المساء حضر لاسل وآخرون .

٩ يوليو — الاحد . استشرت لاسل فى مسألة ارسال خطابات صابوبحي الى غلادستون فقال لى انه يظن أن الوقت قد فات . اذ أن هارنجتون أخبره أنهم يريدون احتلال مصر ووضعها جريًا على مبدأ مكماهون القائل : « انى هنا ولن أخرج » وقد قال تشامبرلن : « لقد أحرجنا مركز الرجل (غلادستون) فليس له مناص الآن من الحرب » ولذلك سأنتظر الحوادث . وجريدة الابزرفر تتوقع تهديداً آخر أو نزاعا أخيراً . وعناية الله الآن هي الموكلة على ما يحدث » .

(ان ما ذكرته هنا عما أخبرني به لاسل ذو اهمية تاريخية . فقد كان فى مركز

كما قاوم جيوش ولسلي . ولم تكن كل هذه الاقوال سوى تتمة الاكاذيب الرسمية التي الفتها وزارة الخارجية لكي تعتذر بها عن تصميمها على التدخل لمصلحة الماليين ويمكن أن يراها الانسان في خطبة لورد دوفرين فيافتتاحه مؤتمر الاستانة وهي بليغة في الاكاذيب الصحة . فان السفير الانجليزي يقول قبل ضرب الاسكندرية ان حالة مصر حالة الفوضى حيث لا تؤمن الارواح أو الاموال وحيث تعم المذابح بواسطة عرابي وجيشه وضباطه الآخرين المتمردين . وكان كل ذلك يمنع الحكومة من ان تعمل لاستتباب الامن أو بلوغ حالة الثبات المالي . وقد أوضحت فيما سبق مبلغ المبالغة في وصف حالة مصر بهذه الاقوال ومبلغ المفتريات والاكاذيب التي فيها . وما نحتاج اليه الآن هو تقرير المسئولية التي تقع على عاتق عرابي في ضرب الاسكندرية (١)

فليس هناك ريب في أن عرابي كان يقول بالاستعداد الحربي بعد ارسال

---

(١) قال لورد دوفرين : « ليس من المبالغة ان نقول انه منذ بضعة أشهر قليلة كانت الفوضى التامة منتشرة في مصر . فقد رأينا عصابة حربية ترتكب الجرائم دون ان تتستر بشيء ما كما هو دأب العصابات التي من هذا النوع حتى صار العصيان تمرداً والتمرد ثورة والثورة استلاباً للسلطة العليا . وكانت النتيجة أن ادارة البلاد وقعت في الارتباك .

« وقفت حركة التجارة ولم يعد الفلاحون قادرين على دفع الضرائب لأنه ليس هناك من يشتري غلاتهم . ونزلت ايرادات الحكومة لهذا السبب . وقد أدت هذه الحال الى الاضرار بمصالح التجارة التي يشتغل فيها رعايا الدول العظمى . وليس هذا فقط بل أن الارتباطات التي ارتبطت بها مصر لفرنسا وانجلترا قد جحدتها وقد فصل الموظفون الذين عينوا لكي يراقبوا تنفيذ شروط هذه الارتباطات من وظائفهم وهدم النظام الذي ابتدأ أن يظهر أثره في منفعة الفلاحين . ولم يخسر الدائنون خسائر جمة فقط بل أن حياة الاوربيين لم تعد في أمن كما تدل على ذلك مذبحة الاسكندرية التي قتل فيها الرعاع عدداً كبيراً من أبرياء الاوربيين »

المذكرة المشتركة فى ٦ يناير ولكنه كان طول هذا الوقت يطلب السلام لا الحرب فقال بالمقاومة لا بالحرب ولم يكن منفرداً بهذا الرأى ثم ان وصول الاسطول لمياه الاسكندرية قوى مركزه وضم الى رأيه رأى الجهور . ذلك انه كان أمام الجمهور مثال تونس فكان من المحال أن لا يرى المصريون ماذا كان يهيأ لهم على أيدى الدول الاوربية . فانهم كانوا يفهمون معنى ايجاد حالة كاذبة من الفوضى والفتنة تبرر بها الدول التدخل لحماية أرواح الاوربيين وأملاكهم ثم القبض عنوة أو اعراء على حاكم البلاد بدعوى حمايته هو أيضاً من رعاياه الثائرين ثم اجباره على قبول الحماية الحربية . فقد فعل الفرنسيون ذلك فى تونس ونجحوا فكانت النية اعادة هذا العمل فى مصر على يد الانجليز . فلم يكن من الصعب أن يفهم الوطنيون وهم يرون هذه النتيجة المتوقعة ان المقاومة أشرف من التسليم .

وكان صوت عرابي ذا أهمية كبرى في رفض طلبات أمير البحر سيمور فى ١٠ يوليو ولكنه لم يكن فى حاجة الى الالحاح فى هذا الطلب أو التهديد لتنفيذه . فان المجلس العام الذي عقد للقرار على الرد لم يتردد فى الحكم بأنه ليس من حق الخديو أن يتنزل عن شيء من أرض مصر طاعة لاوامر دولة أجنبية دون أن يحصل على رضى من السلطان بهذا العمل . ولم يكن الخديو نفسه مخالفاً لهذا الرأى . وكان في هذا المجلس عدد من الممثلين من غير اعضاء الحكومة وكانوا جميعاً يلحون في الدفاع عن الحصون وكان الخديو يشاركهم فى هذه اللهجة الوطنية يعاونه فى ذلك ممثل السلطان درويش باشا . ولم يجرؤ أحد من المسلمين الحاضرين فى هذا المجلس حتى سلطان باشا الذي انضم نهائيا الى الانجليز أن يعلن بأنه يمكن قبول طلبات سيمور.

وكانت النتيجة أنهم قرروا بالاجماع تعيين عرابي وزيراً للحربية والبحرية وان يستعد للدفاع عن الحصون وان يقاتل الانجليز اذا أطلقوا النار على الحصون ووافق الخديو على كل هذا . وأرسلت أوامر مستعجلة لوكيل الحربية فى العاشر من الشهر بأن يعلن في أنحاء القطر بأن الحكومة قد عقدت نيتها على الحرب وانها تدعو الرديف وتنوى تأليف فرق جديدة من المجندين . وقد يقال ان الخديوى لم يكن مخلصاً فى موقفه عند ما وافق المجلس على الحرب . وليس من يشك فى ذلك . فان

جميع أعمال توفيق العمومية كانت على الدوام تدل على عدم اخلاصه . والارجح انه هو وسلطان باشا قد اتفقا قبلا على أن يتظاهرا بالوطنية حتى يحتميا بالرأى العام فى حالة ما اذا ثبتت الحصون ولم تنهزم امام الاسطول الانجليزى . ثم يجب ألا ننسى ان معوش السلطان كانا حاضرين فى المجلس وكانت خطة الحكومة الانجليزية فى ذلك الوقت وهي الخطة التى كانت تعلنها على الملأ انها لا ترغب سوى أن يتدخل السلطان فى النزاع وكان توفيق كعادته يلعب دوراً مردوجا وغايته أن ينضم الى الفريق المنتصر .

وفى الكتب الزرق رسالة عربية تظهر للقارئ ماقاله الخديوي لمستشاريه الانجليز . فقد أبلغ فى السادس من الشهر عن عزم سيمور على ضرب الاسكندرية وطلب منه كما يظهر ان يذهب الى احدى البوارج الانجليزية لكي يكون بعيداً عن الاذى ولكن هذا الاقتراح لم يتفق ومخاوفه التى كان يحسب حسابها فى المستقبل . فأرسل الى كولفن يخبره عن خطته في المحافظة على نفسه وقت إطلاق النار على المدينة . وهو يقول في رسالته هذه انه ليس له مناص من البقاء فى مصر . فانه لا يستطيع أن يتخلى عن أولئك الذين وقفوا في صفه مدة هذه الازمة وانه لا يستطيع ترك مصر عند هجوم دولة أجنبية لانه يقال عندئذ انه لم يراع سوى سلامته الشخصية . فهو لذلك سيذهب الى قصره على ترعة المحمودية ويبقى هناك مع درويش باشا . وقد لاحظ أيضا فى رسالته هذه انه اذا انتهت هذه المسألة بسرعة كان ذلك أسلم عاقبة له . وكان هذا هو البرنامج الذى اتبعه ولكنه بدلا من أن ينزل في قصر المحمودية نزل في قصره بالرمل وهو يبعد نحو ثمانية أميال عن الاسكندرية وكان آمن من قصره السابق الذكر لبعده عن مدافع سيمور .

وبعد الحرب بمدة قصيرة قابلت سير تشارلس بريسفورد . وكان مدة الضرب يقود البارجة كوندور وعين بعد ذلك أميناً على الاسرى فى الاسكندرية فقال لى أقوالا تدل على تردد توفيق باشا اذ صرح له أحد الايام بالسبب الذى دعاه الى البقاء فى الاسكندرية مدة الحرب وهو عدم تيقنه من معرفة الفريق الغالب . فقد كان المعتقد في مصر ان البوارج سيغرقن وقد قضي يوما كاملا في قصره بالرمل

وهو في أشد القلق والارتياب فكان يصعد من وقت الى آخر الى سطح القصر وينظر الى الاسطول لكي يطمئن على سلامته ولم يقر رأيه على أن ينضم نهائيا الى سيمور الا عند ما جاء المساء ورأى البوارج كاملة لم تنقص بينما الحصون قد أسكتت وارى هنا من اللازم ان أوضح القارئ ان اقامة بوشفورد القصيرة في الاسكندرية قد جعلته يحتقر توفيقا أشد الاحتقار كما جعلته يعطف بعض العطف على عرابي والملاحين الذين حاربوا على الرغم من تخلف أميرهم وعدم قيامه بواجبه.

ولكن سواء أصح هذا الذي ذكرناه أم لم يصح فان رضى توفيق باعطاء اسمه لقرار المجلس بصدد الدفاع عن البلاد الى النهاية قد صبغ الحرب صبغة شرعية بحيث لم تعد لاوامر الخديو التي أصدرها بعد ذلك مخالفة لهذا القرار — وذلك عند ما انضم الى جانب الاعداء ضد بلاده — قيمة شرعية. وعلينا نحن ان نذكر ذلك اذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين وقت المحاكمة وموقفهم بعد ذلك عند ما تجلى لهم غدر الخديو. فان الرأى الاسلامي عن الحرب سهل واضح. فهو يقول بانه متى نشبت الحرب فعلى الوالى والامة ان يستمرا فيها حتى يحققا النصر أو تنزل بهما الهزيمة. واذا أمر الوالي فليس له حق اعطاء الاوامر. وليس للوالى الخائن من باب أولى هذا الحق أيضا. وكان المصريون ينظرون الى توفيق بهذا الروح حتى رده الانجليز الى مركزه وقلوب الامة نابية عنه وليس في التواريخ الانجليزية شيء مما ذكرناه هنا بل نرى بعكس ذلك مديحا لتوفيق لولائه لانجلترا وكيفية ثباته على خدمتها دون خجل الى النهاية. وسأعود الى هذا الموضوع.

وهناك نقطة أخرى وهي تحديد المسئولية بصدد حفظ النظام وتنفيذ القانون وقت الحرب وتدبير الخطط في هذه الحرب ومبلغ اشتراك عرابي وسائر الوطنيين فيها مدة هذين الشهرين الحافلين بالحوادث. فهذه هي الحقائق التي استطعت أن أتحقق منها.

لما تبين انه لا يمكن الامة أن تنظر الى الخديو باعتباره رئيسا للحكومة بزوال حقه في إصدار الاوامر ألف مجلس عمومي ودعى أعضاؤه للنظر فيما يجب عمله. وكان الداعون الى تأليف هذا المجلس من رجال الدين وسائر طبقات الامة أكثر

كثيراً من الداعين اليه من رجال الجيش . ولم يحضر عرابي اجتماع المجلس العمومي لانه كان غائباً مع جيشه في كفر الدوار ولم يزر القاهرة مدة الحرب أو يتدخل في إدارة الشؤون هناك . وكان المجلس حاويا لعدد كبير من الاعضاء . وكان فيه العلماء ورئيس القضاة التركي والمفتي وشيخ الاسلام ورؤساء المذاهب الأربعة وكان كبراء نواب المسلمين هناك وبينهم أربعة من أسرة الخديو آخذون بمذهب الوطنيين . ودعى اليه أيضا عدد كبير من مديري الاقاليم وعدد كبير آخر من الاعيان وكان هناك أيضا من غير المسلمين بطريرك الاقباط وحاخام اليهود .

فكانت قرارات هذا المجلس صحيحة من حيث أنه كان مؤلفا من أعضاء ينوبون عن جميع الطبقات والطوائف . وكان أكبر الزعماء فيه ينتمون الى أصل شركسي ولكنهم كانوا باعتبارهم مسلمين مخلصين يرون ان المسألة قد انتهت الى مأزق يضطر الأمة الى مقاتلة دولة أوربية عادية وان هذه الحالة تقتضي أن لا يضن بمجهودات أية كانت في سبيل الذود عن البلاد بصرف النظر عن الخلافات الحزبية .

وقد قرر هذا المجلس بالاجماع ان الخديو لم يعد في مركز يسمح له بقيادة الامة وان أوامره ما دام في أيدي الانجليز لا قيمة شرعية لها . وكان أول ما عمله توفيق في موقفه الجديد انه فصل عرابي من وظيفته وهي وزير وزارة الحربية . فقرر المجلس إبقاء عرابي في وظيفته وأمره بأن يستمر في الدفاع عن البلاد . وتألف مجلس دائم لكي يعاونه في اتخاذ سبل الدفاع وكان هذا المجلس برئاسة يعقوب باشا سامي وهو رجل قدير فكان وكيلا لوزارة الحربية . وأخذ في تهيئة أسباب التجنيد مدة الحرب ومد الجيش بالمؤن والذخائر . أما من جهة إدارة البلاد فانه بالنسبة لغياب راغب باشا في الاسكندرية ومعه سائر الوزراء الذين حجزهم الخديو وحرسه الانجليزى تقرر أن تسير الوزارات على ما ألفته من الاعمال . وسار العمل على هذه الطريقة دون أن يحدث أقل اهمال لأن وزارة راغب كانت في الحقيقة وزارة اسمية فلم يؤثر غياب الوزراء في سير الاعمال أقل تأثير . والحقيقة ان صلاحية الحكومة في ذلك الوقت لأداء واجباتها كان ظاهراً كل الظهور حتى ليصح أن نقول ان مصر لم تر حكومة أصلح من الحكومة التي أدارت شؤونها وقت الحرب . فكانت وزارة

الداخلية يديرها ابراهيم بك فوزى الوكيل وكان يدير البوليس اسماعيل افندي جودت وكلا الرجلين من أهل الكفاية والدراية وقد حفظا الامن فى ذلك الوقت المضطرب في جميع أنحاء البلاد . وقد حاول اثنان أو ثلاثة من المديرين الشراكسة أن يقلدوا عمر لطفي محافظ الاسكندرية فى احداث القلاقل فى المديريات خدمة لتوفيق فقبض عليهم واعتقلوا الى نهاية الحرب . ولم يحدث بعد هـذا أى اضطراب . وقد حوفظ على الاوروبيـين الذين ظلوا فى القاهرة بعناية تامة وكان أولئك الذين يرغبون فى مغادرة البلاد يخفرون الى بورسعيد .

وليس هناك أكذب من قول لورد دوفرين في مؤتمر الاستانة ان المسيحيين يذبحون كل يوم في مصر . وهكذا كانت الحال أيضاً في سائر المصالح والادارات . فلم يتعطل جبي الضرائب ولم يتعطل الصرف على المرافق العامة . ولما انتهت الحرب كانت خزانة الحكومة في حالة التوازن الواضح فلم يظهر أى عجز عند ما سلمت الى موظفي الخديو بعـد معركة التل الكبير ولم يسرق منها أى شيء ولم يظهر في دفاترها أى تلاعب وكانت المحاكم تسير سيرها الطبيعي ولم تكن هناك أى علامة تدل على ان البلاد تعيش فى أوقات شاذة . وعند ما انتهت الحرب كان في مخازن الحربية من المؤن ما يكفي الجيش أربعة أشهر استولى عليها جميعها الجنرال ولسلي .

وبقى مركز عرابي ذا صبغة سياسية فقط فكان يدير شؤون وزارة الحربية ويدير شؤون القوات الى أن وصل ولسلي الى التل الكبير فاضطر عندئذ أن يأخذ القيادة على عاتقه . وكان مقامه بين العلماء والفلاحين في الوجه البحرى من أكبر البواعث على بث الحماسة في صدور الاهالى وكانت الامدادات تتدفق لهذا السبب على وزارة الحربية مجاناً . وكان المتطوعون يتوافدون لهذا السبب أيضاً . وكان عرابى بهـذه المثابة ذا فائدة كبرى للأمة وقد أحسن صنعاً فى عدم أخذه القيادة على عاتقه فى ميادين القتال . وقد عزا أعداؤه ذلك الى جبنه ومن الصعب أن يكذب الانسان هذه الدعوى أو ينفي هذه التهمة . فان عرابي كان فلاحاً لا شائبة فيه فلم تكن فيه تلك الغرائز الحربية التى توجد عند بعض الشعوب ولكنها غير موجودة عند الفلاحين فقـد كانت شجاعته من نوع آخر ولم تكن من النوع العسكرى ثم هو لم يشاهد

معركة حربية قبلا . والارجح انه كان يعرف هذا النقص في نفسه كما كان يعرف أيضاً جهله بالمعارف العلمية التي كانت تتطلبها الحروب . فهو لم يحظ بتربية حربية حديثة ولم يكن له من التجارب سوى ماعرفه من التمارين العسكرية التي تدرب عليها في الثكنات وأظن انه لو دعى الى عمل مناورة بقصد العرض لما استطاع ذلك

ولكني أظن مع ذلك أن السبب الحقيقي في عدم حمله عبء القيادة في ميادين القتال انه كان في ذلك الوقت رئيساً للحكومة وانه بهذه المثابة لم يكن ينتظر منه أن يقود الجيوش بنفسه . ومع ذلك فهذا لا يبرئه في نظري براءة تامة ولم يبرئه بنو وطنه كذلك فهم يلومونه بحق لأن سيفه لم يصطفق بسيف العدو ولا في أواخر أيام القتال .

ولست أدعى معرفة تفاصيل سير القتال مدة الحرب ومع ذلك سأحاول أن أدونها هنا حسب ماعلمته من المصريين لا من الانجليز . ولسوء الحظ هرب صابونجي قبل ضرب الاسكندرية مع سائر المارين . وبقيت بلا أخبار حتى نهاية الحرب . وليس في أوراق التحقيق في محاكمة عرابي مايثير القارىء في هذا الموضوع . وجميع ما جمعته من هذه التفاصيل أخذته من الافواه بعد الحرب من أناس شاهدوها أو اشتركوا فيها ومثل هذه المعلومات تكون بالطبع غير دقيقة من حيث ضبط التواريخ والأرقام .

وكان الاوربي الوحيد الذى اشترك مع الجيش المصرى في الحرب هو الرجل السويسرى صديق الوطنية المصرية جون نينيه

وكان جون هذا في مركز يسمح له بأن يعرف شيئاً كثيراً مما كان يجرى لأنه قضى الشهر الأول من الحرب في كفر الدوار مع عرابي وكان يعاونه في مكاتباته مع الاجانب وقد تحدثت عدة أحاديث الى نينيه هذا . ولكن مما يخل روايته أنه شديد التحمس للعرابيين وقد وضع كتابا في سنة ١٨٨٤ وهو ظاهر الاهمال كثير الاستسلام للجدليات بحيث أنه لا يمكن القارىء أن يثق به كل الثقة . زد على ذلك أن نينيه لم يكن مع الجيش عند ما شرع الانجليز في حملتهم الحقيقة فانه بقي في كفر

الدوار حين كان الجيش في التل الكبير . وما عمله عن الحرب يمكنني أن أقوله هنا باختصار .

لما ضربت الاسكندرية ثبتت المدفعية المصرية للاسطول عدة ساعات أكثر مما كان ينتظره سير سيمور أو أحد من ضباطه . وكان المصريون يعانون شدة عظيمة لقدم القلاع التي كانوا يدافعون عنها . وكانت هذه الحصون من عهد محمد علي وكانت واجهاتها مبنية من الاحجار كما كانت العادة وقتئذ . ولكن الاحجار تعود بالضرر على المدافعين لانها تتفتت شظايا وتزيد قوة انفجار القنابل المعادية . ولم يدرك هذا النقص أحد حتى محمود فهمي نفسه وهو مهندس كبير في الجيش فكثرت الاصابات بين المدافعين . وتقول الكتب الزرق أن حامية الاسكندرية كانت بين ٨٥٠٠ و ٩٥٠٠ جندي وهذا العدد يوافق على وجه التقريب ما ذكره الوطنيون . وبلغت الاصابات نحو الف بين قتيل وجريح . فاذا كانت هذه الارقام صحيحة فالنسبة في الاصابات عظيمة . وعلى كل حال فان شرف الحامية موفور وكان ثباتهم أول مادعا الى رد الفعل في الرأي العام في انجلترا وقد ظهرت هذه الحالة بوضوح في الاسابيع التالية . وكان عمل عرابي في الدفاع عن الاسكندرية كسائر عمله في الحوادث التالية غير مهم . فقد بقي مدة الضرب في دار البحرية وهي ليست بعيدة عن رأس التين فلم يكن بعيداً عن قنابل الاسطول ولكنه لم يذهب للتفتيش على الحصون الا بعد ما كف الاسطول عن الضرب . وكان قد اكتفى بأن يصدر الاوامر ويتلقى الاخبار . وفي المساء ذهب الى الرمل لكي يخبر الخديو بالنتيجة وكان توفيق هناك في قصره فاخترع لكي يخفي سروره مشاجرة سخيفة لان عرابي لم يكتب له تقريراً عن حوادث اليوم .

ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف أن عرابي لم يدرك الجهة التي كان يتجه اليها ميل الخديو والارجح انه كان يعرف ذلك فانه في صبيحة اليوم التالي أرسل للخديو حرساً قوياً لحمايته في الظاهر والحقيقة أنه كان يريد مراقبته وأرسل اليه أيضاً رسالة يقول له فيها أنه بما أن سيمور يهدد بتجديد الضرب فانه يدعوه الى أن يتراجع الى حيث لا تصل اليه مدافع الاسطول وأشار عليه بالفرار الى القاهرة . وكان يجب على عرابي

أن يذهب بنفسه الى توفيق ويجبره على قبول دعوته ويرفض جميع تعللاته ويحمله معه سجيناً لان مثل باى تونس كان أمامه ثم هو لم يكن يجهل مكر الخديو وانه لا يمكن الثقة بشرفه . وكان خطأ عرابي هنا قاضياً عليه والظاهر أنه كان مشغولا ذلك اليوم بمسألة جلاء الجنود عن الحصون فلم يكن عنده من الوقت متسع لزيارة الخديو مرة أخرى . وفى أصيل ذلك اليوم تمكن الخديو باشا العال من السفر الى الاسكندرية فى القطار الذى كان قد أعد لنقله الى القاهرة فصار بذلك فى حماية سيمور الظاهرة . وقد حمل معه على القطار أعضاء وزارته ودرويش باشا فكان هؤلاء بذلك شركاء في الخيانة . فلما صار الجميع فى رأس التين تحرسهم قوة من البحارة الانجليز تبلغ سبعين رجلا صار الجميع فى الواقع أسرى حرب . وتمكن درويش الذي كان له بحث خاص وكان قد جاءته أوامر مستعجلة من الاستانة بالسفر اليها من أن يخرج من هذا الاسر المهين وسافر على الرغم من الاسطول الذى حاول رجاله أن يمنعوه من السفر . أما راغب وزملاؤه الوزراء فانهم بعد أن وقعوا فى الشباك رضوا بالحالة وبقوا في رأس التين خدماً للخديو الى أن أنشئت شبه حكومة شرعية تولوا ادارتها الى حين جاءتهم الوزارة الانجليزية المحضة فقضت على سلطتهم . وكان عرابي يجهل طول هذا الوقت أنه خدع وكان أيضاً مشغول البال بنقل القوات الى خط الدفاع الآخر فى كفر الدوار .

وأظن أن اختيار هذا الموقع الحسن يعزى الى فطنة محمود فهمي المهندس فان كفر الدوار على محطة السكة الحديدية الموصلة الى القاهرة وعلى جانبيه أراض مستنقعة . ولم يكن هناك أنفع من هذه البقعة لكي تكون معسكراً حديداً للجنود فقد كانت بعيدة عن مدافع سيمور ولم يكن في وسع جيش معاد أن يقترب منها الا على طريق السكة الحديدية الضيق فكانت بذلك حصينة من جهة الاسكندرية بينا هي مفتوحة السبل من جهة الدلتا وما فيها من كنوز الذخائر والامداد . وكانت الطريق بينها وبين القاهرة واصلة . وتمكن الجيش المصرى هنا من مقاومة الانجليز خمسة أسابيع يرد هجومهم ويطاردهم الى أبواب الاسكندرية تقريباً . ولو لم يكن هناك باب آخر للدخول الى مصر لنجح الوطنيون وكسبوا الحرب

أما عن احراق الاسكندرية فانى لم أستقر على رأى فى مقدار نصيب الجيش المصرى فيه . فقد أنكر عرابى كل الانكار أنه أمر بهذا الاحراق . واعتقادى أن مثل هذا العمل يحتاج من النشاط العظيم أكثر مما يأتلف ما درج عليه عرابى من التهاون واللين بحيث أرى من الانصاف أن نرفض هذا الرأى . ومن الواضح أنه قد اعتبر هذا الحريق ظرفا ملائما لانه لولاه لكان هناك شك كبير فى استطاعته الجلاء بجنوده الى كفر الدوار لان جيشه كان مهزوما . نعم لم تكن قوته المعنوية قد ذهبت تماما ولكنها كانت قد تذهب لو نزل الجنود الانجليز ووقفوا على السكة الحديدية لمنع التقهقر . فقد كان الانجليز يدبرون الوسائل لايقاع عرابى وجيشه فى الشرك فى الاسكندرية وربما كان سبب امتناع سيمور عن انزال الجنود للبر هو مكيدة رفع الراية البيضاء وشجاعة الجنود التى لم تكن منتظرة . وقد مكن حريق الاسكندرية عرابى من التقهقر الى كفر الدوار وأعطاه من الوقت ما استطاع به أن يرد الى جيشه قوته المعنوية .

وقد كان تينيه بالاسكندرية مدة ضربها وهو يعزو الحريق إلى قنابل الاسطول والارجح أن هذه هى الحقيقة . لانه لو لم يكن الاسطول سبب ذلك لما ذعر الناس وتركوا منازلهم فى اليوم الثانى عشر من الشهر . ثم لو كان الضرب مقصوراً على القلاع كما كان يدعى البحارة لما هجر الناس منازلهم اذ لم يكن ثمما يدعوهم الى ذلك . وسواء أكان الضرب حدث قصداً أم اتفاقا فان تينيه يعزو الحريق اليه . ومن المحقق أيضاً أن الحريق قد مد عمداً إلى الحي الاوربى وأن مؤخرة الجيش هي التى فعلت ذلك وكانت قد هجرت الاسكندرية فى حال غير منتظمة فأخذت فى النهب الذي كان قد شرع فيه بدو المدينة قبل هذا الوقت .

من المؤكد أيضاً أن عرابى لم يسأل سليمان باشا قائد المؤخرة ولم يحقق معه عن هذا النهب . ولست أعتبر هذه المسألة ذات قيمة أدبية لان مثل هذا العمل يعد من الاحتياطات التى يجوز لأى قائد أن يتخذها لكي يؤمن طريق تقهقره ويمنع العدو من انزال الجنود الى البر . ولكنه مهم من الوجهة التاريخية لذلك أقول أن عند وزن البيانات أجد الجيش قد اشترك فى تقهقره فى الاحراق . ولم يكن اشتراكه نتيجة

الفوضى والارتباك الناشئين عن التقهقر . ولما كانت الريح تهب بشدة في ذلك الوقت امتدت النار وما جاء نصف الليل حتى كانت المدينة لهيبا يحتدم .

ولكن كل ذلك لا يقلل مبلغ التبعة الملقاة على حكومتنا في تدمير المدينة لانه لولا سوء نظر وكلائنا في تقدير العواقب لكان يمكن التنبؤ بكل ما وقع والاحتراز منه

ولما أرسخ الجيش أقدامه في كفر الدوار في ١٣ منه وقف ينتظر الحوادث . فاتخذ عرابي مركزا له إلى شرق الجيش من ناحية القاهرة ورسم محمود فهمي خطوط الدفاع وعادت بذلك الطمأنينة والثقة إلى القلوب .

أما الفارون من الاسكندرية فقد أرسلوا بالتدريج إلى داخل البلاد فاحدثوا قلاقل عديدة لأنهم كانوا في حال شديدة من التعصب فكانوا على الدوام يرغبون في الثأر عما لحقهم ممن يقاتلونهم من الاوربيين أو المسيحيين الوطنيين . وكان في طنطا مدير شركسي يدعى ابراهيم أدهم وكان يعرف أن الخديو وبلاطه ينظران بعين الرضى الى ما يحدث من القلاقل بين المسيحيين والمسلمين فعمل على إحداث ما أشبه أن يكون مذبحة . ولولا تداخل أحد الوطنيين ، وهو أيضاً صديق عرابي أعني به أحمد منشاوي بك الذي أخمد هذه الفتنة باتباعه من الفلاحين على الرغم من المدير لامتدت هذه المذابح إلى البلاد الاخرى . ثم قبض على المدير وأرسل إلى القاهرة فاعتقل هو واثنان آخران لم يكن يوثق بهما إلى نهاية الحرب . ثم لم تحدث قلاقل بعد ذلك .

وفي مساء ١٤ منه وصلت الى عرابي رسالة من الخديو ذكرها تينيه ولكنها لم تذكر في الكتب الزرق . وهي وثيقة خطيرة لانه يظهر ان الذي أملاها على الخديو هو كولفن أو أحد مستشاريه الانجليز لأنها تدل على وجه النظر الانجليزية في ذلك الوقت . فهي تبتدىء بذكر سبب القتال وانه انما نتج عن عدم موافقة عرابي على طلب الاسطول الانجليزي بخصوص تجريد الحصون من السلاح وان أمير الاسطول لم يكن يرغب في الحرب مع مصر وانه يرغب الآن في إعادة العلاقات الودية مع البلاد المصرية . وأنه مستعد لان يسلم المدينة لجيش نظامي مطيع وفي حالة عدم مجيء هذا الجيش فانه يسلمها للجيش العثماني . ولكي تنقل ادارة المدينة من هذه

حال الى الحال الجديدة فان الخديو يدعو وزير الحربية لأن يحضر اليه فى رأس التين كي يتفاوض مع راغب باشا وسائر الوزراء فى هذا الشأن . ثم تقف الاعمال الحربية اذ لم تعد منها فائدة .

ونحن نعرف من الكتب الزرق أن هذه الدعوة انما كانت شركا يراد إيقاع عرابى فيه لكي يصير فى أسر الانجليز . وذلك لاننا نرى فى رسالة تلغرافية من كلوزيت الى لورد جرانفيل ارسلت اليه فى ١٥ منه ما يأتي : « طلب الخديو من عرابي أن يحضر الى هنا فاذا أتى سيقبض عليه واذا لم يأت يعتبر عاصياً خارجا على القانون »

وهذه الحادثة تدل القارىء على مبلغ استسلام توفيق للانجليز حتى صار اللسان الناطق عن خطتهم وكيف ان الحكومة الانجليزية اتبعت طرق الحكومة العثمانية فى الغدر بالخارجين عليها . وكان جواب عرابي للخديو ان سموه هو ودرويش باشا هما اللذان حضاه على رفض طلبات سيمور وطلبا منه أن ينازله القتال اذا هو اتبع تهديداته بالعمل الحربى . وأن الواقع الراهن ان الحرب موجودة وانه لا يمكن الجيش أن يرجع الى الاسكندرية الا اذا خرج الاسطول من المياه . وأعقب ذلك أن الخديو نشر منشورات مطبوعة لكي ترسل الى المديرين وانحاء البلاد يقول فيها : بما أن عرابي قد رفض أن يسافر الى الاسكندرية لكي يتفاوض مع الوزراء فقد فصله الخديو من وزارة الحربية . وكان طبع هذه المنشورات هو الذى دعا الى عقد مجلس عمومي بالقاهرة أقر عرابي على البقاء فى مركزه كما ذكرنا آنفا .

كان الشهر الذى تلا هذه الحوادث حافلا بالآمال فى نظر جميع المصريين ولما تخلص الأهالى من ربقة ولاثهم للخديو بانضمامه الى الانجليز أخذوا يظهرون وطنيتهم دون أن يستروها وقد تيقنوا فى ذلك الوقت أنهم يحاربون من أجل حريتهم وكان الفلاحون قد استغرقتهم الديون التى للدائنين اليونانيين عليهم فكان هذا من أسباب حماستهم لانهم توهموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال وظهر بعد ذلك بايام أن اتخاذ كفر الدوار مركزاً للجيش جاء موفقاً للوطنيين لان الجنرال اليسون حاول أن يهاجم الجيش

عدة آلاف أنزلها الى البر فارتد مهزوماً وهكذا تعلقت الآمال باطالة الحرب مدة طويلة بهذه الطريقة وكان عرابى لايزال وزيراً للحربية ولكنه كان أهم عضو فى الحكومة وكان يتوافد اليه أعيان البلاد والعلماء والتجار وكان يقيم فى سرادق عظيم كان يملكه سعيد باشا أهدته زوجته الى عرابي عندما كان ياور زوجها وكانت نازلي هانم وبعض الامراء يظهرون اعجابهم ببطولة عرابي بهدايا عديدة يهدونها اليه .

وقد وجدت ما يلي في مذكراتي عن سنة ١٨٨٧

« زرت اليوم الأميرة نازلي وهي ماهرة بمقدار ما هى جميلة وحديثها بارع ولو وجدت في أي وسط لزانته وقد أخبرتنا عن أشياء كثيرة خاصة بعرابي وهى تعجب به وتأسف لهزيمته ولا تمل من الكلام عن نزاهة أغراضه ومما قالته أنه لم يكن جنديا حسناً لان قلبه كان أطيب من أن يساعده على ذلك . ولو كان رجلا يسطو ويعسف مثل محمد على لأخذ توفيقا مع جميع الامراء الى القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميراً على البلاد ولو استطاع أن يجعل الخديو يسلك معه مسلك الشرف لجعله ملكاً على البلاد . وكان عرابي فى رأيها أول وزير وطني جعل الأوربيين يحترمونه ويخضعون له . وكان المسلمون فى وقته يرفعون رؤوسهم ولا يمكنوا الاوربيين أن يخالفوا القوانين . قالت وقد أخبرت توفيقاً بكل هذا فان المصريين الآن يخضعون للقوانين بينما الأوربيون لا يكترثون لها . »

ولا انكر أن التملق قد أضر عرابى وأنه أثار الحسد الذي كان سيء العاقبة عند ماجاءت الازمة فان المفروض وقتئذ كان انه اذا نجح عرابي فى صد الانجليز فانه سيكون رئيس البلاد وشعر الضباط الذين كانوا حاصلين على تربية أعلى من تربيته والذين كانوا يعرفون انه فلاح ساذج وأنه سيتفوق عليهم فأغضبهم هذا الخاطر . وكان عرابى يستشعر هذا الشعور فمضى في أحلامه يتخيل ان الاقدار قد حابته وهيأت له مستقبلا عظيما وجعلته فى مركز المخلص لامته . وكان يحيط نفسه برجال الدين لانه كان مسلماً ورعاً وكانت الاوقات التى يجب عليه أن يقضيها فى تنظيم وسائل الدفاع يصرفها فى الأدعية والصلوات ويظهر انه لم ينقطع عن هذه الاعمال الى النهاية . ومن الصعب أن يعرف الانسان ما كان هيأه من التدابير الحربية . ويقول نينيه انه كان

يعتقد انه اذا طالت الحرب فان اوروبا ستضطر الى الاتفاق معه . وكان المؤتمر منعقدا في الاستانة وكان اعضاؤه يحضون السلطان على التدخل وكان أكبر مايخشاه السلطان من دخول الجنود التركية ان تتآخى مع الجنود المصرية عند التقاء الجيشين . وكان عرابي يعرف أن مسلمي العالم ينظرون اليه باعتباره زعيم الاسلام ونصيره وذلك لأن حجاج الذين عادوا من الحجاز أخبروه بذلك فكان يرى انه من الصعب على السلطان أن ينضم الى انجلترا ويحاربه . ثم كان أيضاً لا تزال عنده بقية من الثقة في غلادستون وكان يعتقد ان الانجليز يحبون الحرية وأنهم سينصرونها اذا عرفوا الحقيقة وادركوا ان المصريين ثابتون على وطنيتهم وقد كانت كل هذه أحلاماً يعذر عليها لأن غيره كان يعتقد صحتها ولنجاحه بعد حوادث الستة الاشهر السابقة .

ولما أنزل ولسلي بعض جنوده للبر ووجد خطوط كفر الدوار حصينة وعاد عنها وجد الوطنيون في القاهرة انهم يجب عليهم تحصين مصر الشرقية من ناحية قنال سويس . فعبأ علي فهمي جيشاً في القاهرة وسار به حتى احتل القناة ورسمت خطوط الدفاع في التل الكبير

ولم تكن الى ذلك الوقت قد عمل منها شيء على الرغم من التحذير الذي سبق ان أرسلته لمحمد عبده . ثم ظهر أيضاً وجوب سد القناة من الجهة الشمالية خوفاً من أن يسارع الانجليز إلى احتلالها ببوارجهم فينزلوا جنودهم في الاسماعيلية . وكان الرأي المتفق عليه بالاجماع بين الضباط وجوب هذا العمل ولو كان بالرغم مع شركة القناة . ولكن عرابي — وهذه هي غلطته الثانية — بقي متردداً في هذا الشأن . وكان تردده ناشئاً عن التأثير الفرنسي فان مسيو دلسبس كان قد وصل الى الاسكندرية في أواخر يوليو ولما علم بنية الانجليز في استعمال القناة خاف وفزع من ذلك وسافر الى بور سعيد وجعل يناشد عرابي بشرفه أن يمنع وصول الحرب الى القناة . وكان دلسبس رجلا كثير الثقة بنفسه وكان يعتقد أن وجوده وحده يكفي لتخويف حكومتنا وكان يقول أن القناة أرض محايدة يجب ألا يقربها أحد المتحاربين . وبعد الحرب عند ما كنت مشتغلا بالدفاع عن عرابي كتبت اليه أسأله أن يرسل الي ما يمكنه أن يكون في مصلحة عرابي مما يشهد هو به قياما بواجبه للتقدم والانسانية ، فارسل الي

صوراً من خطابات أرسلها اليه عرابي في ذلك الحين ولكنه لم يرسل الى النسخ الاصلية (وقد نشرناها في ملحق الكتاب) ومن هذه الخطابات يتبين للقارىء أن عرابي قد ضلل به .

وبعد مكاتبات أولية نجد عرابي يوضح رأيه في هذا الشأن. فقد كان في القناة عدة بوارج بين الاسماعيلية والسويس بقيادة الاميرال هيوث وكتب دلسبس يشكو من أنهم يشرون منشورات بين سكان شاطيء القناة .

وقد رد عرابي على دلسبس في هذا الشأن فأنكر حق الاميرال هيوث في اذاعة هذه المنشورات وقال انه أرسل هذا الرد بناء على اشارة المجلس وأنه موافق على رغبة دلسبس في حيدة القناة « وخاصة لأنها من الاعمال العظمى التي سيعيش اسم سعادتكم في التاريخ لانكم قتم باتمامها . ولي الشرف أن أخبركم بأن الحكومة المصرية لن تنتهك حرمة هذه الحيدة الا في الحالة القصوى وفي حالة ارتكاب الانجليز أعمالا عدائية في الاسماعيلية أو بور سعيد أو أي نقطة أخرى من القناة . »

والمبدأ هنا واضح ولكن نقطة الضعف تنحصر في انتظار عرابي لان يبتديء الاعداء بارتكاب الاعتداء بدلا من ان يتقدمهم هو ويقطع عليهم طريق الاعتداء .

ومع كل ذلك فان تينيه يؤكد ان الاستعدادات كانت قد تمت سراً لسد القناة في نقطة معينة بين الاسماعيلية وبورسعيد . وقد أثبت لي هذا الخبر آخرون . ولم تذهب هذه الفرصة سدى ويفشل المشروع الا لان عرابي كان يكره جداً ان يمضي على هذا الامر مع رغبة جميع اعضاء المجلس فيه. وعند ماوصل الاسطول الانجليزي الى بورسعيد يحمل ولسلي وجيشه أرسل دلسبس الى عرابي خطاباً كله ادعاء وقد ذكر تينيه نصه كما يلي :

« لا تحاول أي محاولة في سد قناتي . فاني هنا . فلا تخش شيئاً من هذه الناحية . فانهم لن يستطيعوا انزال جندي انجليزي حتى يكون الى جانبه جندي فرنسي آخر . وانا مسئول عن كل شيء »

وكان هذا الخطاب سبباً في عقد مجلس آخر في كفر الدوار اجمع جميع الاعضاء فيه سوى عرابي وحده على عدم اعتبار رسالة دلسبس ووجوب سد القناة

ولكن عرابي كان الى هذا الوقت منخدعا بكلام دلسبس عن ارسال جنود فرنسية. ومع انه أعطيت أوامر فى مساء تلك الليلة بتخريب القناة تخريباً « مؤقتاً » فان الوقت الذى صرف فى المناقشة عن هذا الموضوع كان قد أضاع الفرصة وتمكن ولسلى من الدخول الى القناة ببوارجه . وضعف عرابي فى هذه المسألة هو أكبر لطخة على شهرته الحربية كما انه أيضاً يسمه بطابع العجز السياسى . وقد قال ولسلى بعد ذلك عند ما كان البرلمان يناقش في مسألة حفر قناة بين انجلترا وفرنسا : « لو ان عرابي سد القناة كما كان ينوى ذلك لكنا الآن لا نزال فى البحر نحاصر مصر . فان تأخر عرابي ٢٤ ساعة نجانا »

وكان احتلال ولسلي للاسماعيلية فى ٢١ اغسطس ومن هذا الوقت صار الدفاع عن مصر أمراً ميئوساً منه من الوجهة العملية ولو ان القتال لم يكن نزهة للانجليز كما ادعى بعضهم ذلك . وكان الجيش الانجليزى يربى على ثلاثين ألف جندى ربما لم يكونوا ذوى قيمة كبرى اذا أتيح لهم أن يقفوا فى وجه جيش أوروبى منظم ولكنهم كانوا يكفون لهزيمة جيوش عرابي القليلة فان كافة الجنود فى كفر الدوار لم يكونوا يزيدون على ثمانية آلاف جندي نظامي ولم تكن مدافعهم تزيد على ثمانين مدفعاً من مدافع كروب . ولم يكن الجيش المصرى بأجمعه يزيد عن ١٣٠٠٠ رجل أما المجاهدون الجدد فلم يكونوا لائقين للخدمة العسكرية فلم ينتفع بهم الجيش الا فى الاعمال اليدوية فى الخنادق . فلم يجد ولسلي عناء كبيراً أمامه عند ما أنزل جنوده الى البر وليس بينه وبين القاهرة سوى خطوط التل الكبير التى لم تكن قد تمت بعد. ولكن المكتب السرى الجيش الانجليزي أراد ان يزيد تأكده وطمأنينته فاتخذ الاحتياطات السرية التى ألفت استعمالها الجيوش المتحاربة في الحروب الحديثة وان كانت تنكرها على الدوام . ومن العدل ان أدون ما فعله الجيش الانجليزى فقد وقعت فى يدى تفصيلات أهم حادثة من هذا النوع . أنكر كتاب الانجليز ان تقدم ولسلي كان يجرى الى حد كبير لمثل هذه الشؤون فهاك الآن ما يثبته .

كانت وزارة الحربية ووزارة البحرية في انجلترا قد عقدتا النية منذ أوائل السنة أن يكون الهجوم على مصر من ناحية قناة السويس وتقرر في أواسط يونيو

أن تمهد السبل لذلك بالرشوة بين بدو الشرق . وكان الفضل فى اقتراح هذه الخطة يعود الى لورد نورثبروك الذى كان يفتخر بنجاحه فى هذا الصدد وقد كان من اكبر أسباب افتخاره أنه بنى خطته على ملحوظة فلتت منى ولم اكن أدرى وقتئذ ان أحداً سيستغل حديثى لمحاربة أصدقائى . فقد كنت فى ربيع سنة ١٨٨١ فى الصحراء الشرقية للقناة وكنت قد تعرفت ببعض مشايخ الطياحة والترابين وكانوا يقاسون ذل الاسر فى بيت المقدس ولكي أغرى سفارتنا في الاستانة بالسعي فى فك أسرهم قلت ان هؤلاء المشايخ قد يؤدون لنا بعض الخدمات اذا كانوا على صفاء مع انجلترا . وعرف لورد نورثبروك بهذه القصة فتذكرها فى هذه الازمة المصرية واستغل اسمى بعد أن أضاف اليه الذهب فى استخدام هؤلاء البدو ضد عرابي

ولم يكن فى انجلترا في ذلك الوقت من يعرف العربية وكان من الصعب وجود من يمكن ارساله للقيام بهذه المهمة . فاستدعى لورد نورثبروك أستاذ اللغات الشرقية في كامبردج وهو ادوارد بالمر وكان عارفاً للغة العربية ممتازاً فيها وكان يعرف أيضاً البقعة التي يعيش فيها أولئك البدو لانه كان فيما سبق عضوا فى بعثة استكشاف فلسطين . وكان فى ذلك الوقت يعيش فى لندن فى حالة املاق يستعين بالصحافة على شؤون العيش وقد زاد عسره زواجه الحديث . فلما كان يوم ٢٤ يونيو جاءته دعوى الى المكتب السرى لكي يزور لورد نورثبروك ويتناول معه طعام الفطور وهناك عرض عليه أن يقوم برشو هؤلاء البدو فلم يتمالك من القبول فورا اذ عرض عليه ٥٠٠ جنيه للمصاريف الابتدائية ووعده بالمكافأة فى حالة النجاح . وقبل سفره أى فى ٢٦ منه جاء وزارني وقال لى أنه مسافر الى الاسكندرية لكي يكون مكاتباً لصحيفة ذي ستاندارد وطلب مني أن اكتب له خطابات التقدمة اليهم لكي يتعرف بهم وانه يعطف على الحركة وسينصرها فى رسائله على الدوام.

وكان قوله هذا بمثابة الغطاء يخفى به عمله الحقيقي الذي كان مسافراً لأجله فاجبت طلبه وأنا متوجس منه لأني شعرت بان لهجته لم تكن صادقة فكتبت له بعض خطابات تقدمة لصابونجى وغيره ولكننى أعتقد انى لم اعطه خطابا لعرابى

وكان البرنامج الذى وضعته وزارة البحرية لبالمر هو ان يذهب أولا الى

لاسكندرية لكي يتفاوض مع الاميرال سيمور ثم يذهب من هناك توا الى يافا
ـمد المدس الشرقي ويذهب الى الصحراء الواقعة فى الجنوب العربي من غزة ثم
ـدى قبيلتي الطياحة والترابين اللتين كنت أدافع عنهما منـذ ١٨ شهراً وأنا
ـسجين . وقد كتب هو مذكراته وطبع بعضها وهي كبيرة الفائدة لنا من حيث
ـ تحدثنا عن الوسائل التى توسل بها للوصول الى غرضـه . فهو يشير فيها الى
تفصيلات الخاصة بالاتفاق بينـه وبين لورد نورثبروك . ثم يصف بعد ذلك نزوله
ـي بحث الاميرال سيمور فى الاسكندرية حيث أمر هناك بأن يسافر فى الحال الى
صحراء لكي يشرع فى عمله . وقد أعطاه الاميرال « مسدساً وبندقيـة وعدة
خرطوشات » ويرى ان الاميرال هناك « ينتظر الحرب فى أقرب فرصة وقد تقع
غداً» ثم يقول :

« اني مسرور لأن الحرب ستقع . فانى وان كنت سأبقى مدة بعيداً عن
بلادي سأستفيد منها فائدة كبيرة وسأكون عاملا من عوامل الانتصار لبلادى..
وقد قال لي أمير البحر انه يهنئ الوطن لأنه اهتدى الى رجل قادر مثلى لكي يقوم
بهذه المهمة الشاقة »

ويقول بالمر انه رأى سير اوكلاند الوكيل السياسى ثم يقول بعد ذلك فى
مذكراته ان أمير البحر أخبره بأنه سيضرب الاسكندرية قريباً . ثم يذهب بعدذلك
وهو فى أشد الطرب والزهو الى يافا على احدى سفن أمير البحر يخفق فوق رأسه
العلم البريطاني ومعه بحاران « لكي يحملا البندقية والمسدس »

فاذا وصل الى يافا نزل عنـد القنصل البريطانى شابيرا اليهودى . والقنصـل
يرسل ابنه معه الى غزة لكي يهيىء له رحلته في الصحراء . ويجد هنا بدويا يسافر معه.
ويشترى عندئذ لباساً عربيا وسائر ما يحتاج اليه . ثم يشكو من الحر ومشاق الرحلة
ولكنه يعزى نفسه ويمنيها بالمكافأة الجسيمة في المستقبل . وفي الخامس عشر قبيل
قيامه بالرحلة يسمع سراً عن ضرب الاسكندرية . فيقرر الذهاب الى السويس
ويكتب في طلب زورق لكي يأخذه الى مكان مأمون .

وفى السادس عشر يلتقى ببعض افراد من قبيلة الترابين وهناك مايقول : « كانوا

يظهرون فضولا كبيراً يريدون معرفتي ومقاصدي . فقال لهم البدوي الذي معي إني ضابط سوري مسافر الى مصر . وكنت بالطبع مرتديا ملابس العرب المتحضرين وقد علمت عنهم أكثر مما عرفوا عني . واما الآن أعرف مشايخ الصحراء واما كنهم وقد اتفقت مع الطياحة وهم أكثر البدو شجاعة وأقوام على ان يؤدوا الى كل ما أطلبه منهم . وعند ما أعود سيكون في استطاعتي ان أضم الى منهم أربعين ألف رجل . وقد كان من حسن حظي اني عرفت هذه القبيلة . وبهمني الآن تسير سيراً حسناً وأنا في أشد الاشتياق لتسلم الاوامر من السويس ولمعرفة ما اذا كانت جنودنا قد نزلت الى البر . ولم أكن أنتظر كل ما وجدته هنا . وأظن اننا قد أصابنا الحظ وبلنا الثروة » ثم يقول في الثامن عشر :

« كابدت اليوم أمراً عظيما . فقد التقيت بكبير شيوخ العرب . ولكني جعلته يقبل آرائي »

ثم يقول في ١٩ يوليو : « إني أتعجب من نجاحي . فقد ضممت الي رجالا حاول عرابي عبثاً ان يستميلهم الى صفه . وعند ما تتطلب الحاجة سينضم الى لوائي جميع البدو من غزة الى السويس ... ولست أعرف بالطبع ما حدث فى مصر منذ مغادرتي لها سوى ان الاسكندرية قد ضربت كما أخبرني أمير البحر بأن هذا الامر سيقع حالا . ولكن العرب يقولون لى ان الحزب العسكرى لا يزال مسلحاً . وعلى هذا أظن ان جنودنا قد نزلت الى البر »

ويقول فى العشرين : « هذا الشيخ هو شقيق سليمان وهو الذي يضمن عدم اعتداء العرب على ركب الحج الذى يسافر من مصر الى مكة . فهو اذن خير من اعتمد عليه . فقد أقسم لى قسما عربيا رهيباً أنه يستطيع اذا أردت أن يضمن سلامة القناة ضد عرابي نفسه وهو يقول لى إنى اذا قدرت على تخليص ثلاثة من المشايخ من السجن فهو يضمن انضمام جميع العرب لنا . وأنا أؤمل ان أخلص هؤلاء الثلاثة بواسطة سفيرنا في الاستانة »

ويقول فى ٢١ منه : « أنا فى اشتياق للذهاب الى السويس لأني قد انتهيت من الاعمال الابتدائية . فاذا تسلمت الاوامر فاني أتفق مع العرب فى أسبوعين أو

نه وأنتهي من كل شيء . أما البدو الآن فسيبقون في سكينة ولن ينضموا الى
ني ولكنهم سينتظرون كلمتي لكي يعملوا ما أشير عليهم به . وهم يعتبرون
عبد الله افندي (كما يسمونني) رجلا عظيما »

وفي ٢٢ يقول : قال لي بدوي جاء حديثاً من مصر ان عرابي قد أحضر الى
قناة ٢٠٠٠ خيال من بدو النيل . ولكنهم سيرجعون عند ما يصلون الى السويس
. دا لم تجد الوسائل السلمية فاني سأرسل لهم عشرة آلاف من الطياحة والترابين لكي
طردوهم . وقد انضم الى بدوي آخر وهو الذي يعد ركب الحج بالجمال ووعدت
كبير المشايخ بخمسمائة جنيه فهو لذلك لا يحجم عن عمل اي شيء آخر لاجلي . أنا في
شد السرور لان الحرب قد وقعت بالفعل . وصار على الآن أن أقوم بواجبي
عظيم وأنا متأكد من النجاح . وسأعرف قريباً ما يجب أن أعمله . وقد قال لي
ورد نورثبروك أن يعطيني ٥٠٠ جنيها عند السفر وأما عن المفاوضات فسيتفقون معي
تفاقا آخر . وسأقتصد هذا الشهر على الأقل ٢٨٠ جنيهاً وهو ربح لا بأس به من
عمل شهر واحد . ولا أظنهم يعطونني أقل من ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه للقيام
بالمهمة بأكملها . . . »

ثم يقول في ٢٦ منه : « وجدت انه من الممكن أن نحصل على السفن من السويس
وسأسافر غداً وأرجو أن أكون على ظهر سفينة بعد أربعة أو خمسة أيام . لقد
نجحت نجاحاً يبرر لي ان أطلب من الحكومة مبلغاً آخر وسأقول اني صرفت كل
مامعي في الهدايا . وبضعة مئات من الجنيهات ليست شيئاً يذكر في نظر الحكومة
ولكنها ذات قيمة كبرى لمثلي . وسأرسل الى زوجتي نحو مائة جنيه عند اول
وصولي للسويس . لقد دفعت كثيراً ولكن لا يزال معي ٣٠٠ جنيه بعد
نفقات سفري الى السويس . وهذا أفضل من الشغل في الصحافة بمرتب ٣٠٠
جنيه في الشهر . . . . أكلت اليوم الخبز والملح مع العرب الى حماية كل منا
الآخر الى الموت »

وفي ٢٨ منه يقول: « انضم الى مشايخ الحويطات . وقد نجحت نجاحاً باهراً
وقد قعدت في القمر أنشد الشعر العربي لهؤلاء البدو حتى تعلقوا بي »

وفى اول اغسطس يصل بالمر الى السويس فيقول : «أنا الآن على ظهر احدى سفن شركات الملاحة الانجليزية . وقد تسلمت خطابك (من زوجته) . أما كيفية وصولي الى السفينة فاني سرت بعيداً عن السويس فى الليل ثم نزلت الى السفينة فى نصف الليل . وقد كلفنى هذا العمل عشرة جنيهات ولكني نجوت من الحرس المصرى . وستأتى الجيوش يوم الخميس أى بعد غد . . . كنت عند أمير البحر منذ وقت قصير . وقد سر بنتيجة عملى وارسل تلغرافا الى لورد نوثبروك . وكان قد أمر بأن تخصص ثلاث سفن لمراقبة الشاطئ من أجلي . ولكنى وصلت الى السفينة وحدى »

وفي ٢ اغسطس يقول : « ذهبت الى الصحراء ثانياً وسأبقى فيها يومين اذ كلفت بأن أقلع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تنقطع المواصلات بين عرابي وتركيا . وصل الكابتن جل امس الى بورسعيد وسيصل الينا هذا الصباح . كان امس يوما مشهوداً . زرت جميع ربابنة البوارج وكانوا يرحبون بي ويستقبلونني أحسن استقبال وكانوا يلحون على فى أن أشرب معهم الشمبانيا المثلجة وفى المساء أولم أمير البحر وليمة تكريماً لى ! وكانت الوليمة فخمة ولم أعد الى سفينتى الا فى الساعة الاولى صباحا »

وفى ٤ اغسطس يقول «أمرت يوم الاثنين بأن أرافق ضابط القوة للاستيلاء على السويس فنزلنا ومعنا خمسمائة رجل وثلاثة مدافع . وفرت الجنود المصرية ولم تقاتل . وكنت فى أول الزوارق التى وصلت الى الشاطئ، ثم أمرنا المحافظ بأن يسلمنا المدينة وخمسين الف جنيه كانت لديه ففعل . . . أمس الأول ارسل لورد نورثبروك رسالة لامير البحر يهنئنى فيها بسلامة وصولى ويقول انى قد عينت رئيساً للتراجمة فى جيوش جلالة الملك فى مصر . وصرت بذلك فى هيئة أركان الحرب التى يرأسها أمير البحر . وانا هنا (فى السويس) فى الفندق أعيش على حساب الحكومة معيشة فخمة ولا أتناول الطعام الا مع أميرالبحر . وبعد غد سأذهب الى الاسماعيلية فى زورق مجهز بالمدافع وقد قال لى أمير البحر فى السويس « لا تدع الاميرال هناك يحجزك عنده لانك انت هنا مقيد اسمك بين رجال بارجتي . ويشتمل الآن تحت يدى

نحو اربعين شخصا . وقال لى امير البحر منذ ايام انه متأكد من أنى سأمنح وسام الشجاعة ونجم الهند . وهم لا يرغبون فى ذهابي الى الصحراء الآن لانهم يرغبون ان ابقى معهم . . . وانا الآن احد ضباط الحملة ولذلك أرانى مزهواً زهواً كبيراً وسيصل غداً الألاي ٧٢ وسأبحث لرجاله عن جمال . أما الأجرة فستكون حسب قرارى ولكني لم أقررها للآن »

ثم بعد ذلك نرى هذه الجملة العجيبة وهي لب هذه المذكرات : « وضع الكابتن جل فى يدى عشرين الف جنيه لاوزعها بين العرب »

واما ما بقي من هذه المذكرات فاحلام وأمان ففي ٦ اغسطس يقول : « فى السويس ... سأقوم غداً الى الصحراء لمشترى الجمال . وسيذهب معى الكابتن جل وملازم أمير البحر ولن نخشى أى خطر . . كأني الآن فى حلم . وقال لى أمير البحر بما انى أفضل أن تقرر الحكومة مرتبى فيمكنني قبل قرارها هذا أن أسحب ما أريد من الأموال لنفقاتى الشخصية وعلى هذا سأرسل اليك (لزوجته) خمسمائة جنيه عند رجوعى . ويمكننى أن أفعل ذلك الآن ولكني لا أريد أن يظهر على الحصر . فقد بقي لى بعد جميع نفقاتي ٢٦٠ جنيها واليوم دفع لى عشرون الف جنيه ولى أن أتصرف بهذا المبلغ كيفما شئت . وأنا الذى أعطي الجوازات للحرس. واذا رأيت اثنى عشر فرساً فاني اشتريها دون مساومة . وأمس رأيت ثلاثين جملا فاعطي صاحبها ٣٦٠ جنيه ثمنا لها بمجرد ان كتبت هذا المبلغ على قطعة ورق . والليلة أترجم أقوال المحافظ الذى كان يتناول العشاء مع أمير البحر . وعندى الآن خدم وكتبة ومترجمون يطيعون أوامرى والخلاصة أنى في مركز لم اكن أحلم به . ونحن هنا آمنون فى خنادقنا والعدو على بعد ثمانين ميلا منا وغدا ستأتينا الجيوش الهندية . وبديهي أننا فى حرب ولكنى بما أني فى هيئة أركان الحرب فاني لست أخشى أى خطر . وأمير البحر رجل ظريف وقد قيل لى أنه لا ينسى ضباطه ويحب على الدوام أن يرقيهم وقد قال لى اني استحق وسام نجم الهند »

وهذا آخر ما كتبه بالمر فى هذه المذكرات التى تثير الاحساس . فقد خرج فى اليوم التالي بصحبة جل وتشارنجتون الى النخل فى الصحراء الشرقية وكان الغرض

من خروجهم قطع التلغراف الواصل بين مصر وسوريا وقد أخذ معهم لهذا الغرض صندوقاً مملوءاً بالديناميت وكانت مهمة بالمر الظاهرة شراء الجمال وكان الجميع مرتدين ملابس عربية . ولكن كانت مع كل منهم كسوة حربية لكي يلبسوها عندما يكونون بين القبائل الموالية لهم تكبيراً لشأنهم . وكان المبلغ الذى أخذوه معهم من العشرين الألف جنيه التى أعطيت لبالمر يتراوح تقديره بين ٣٠٠٠ و ٨٠٠٠ جنيه وكان جل قد صرح بعدم موافقته على خروجهم فى هذه المهمة فانه طلب أن يأخذ المبلغ كله ليوزعه بين العرب كما كان الاتفاق بينهم وبين بالمر ولكن أمير البحر عارض فى ذلك .

وكان الفشل مقدراً لهم . فان الحرس المؤلف من البدو الذين ساروا معهم عرفوا وجود المال معهم . وكان هؤلاء العرب من قبيلتى الحوايات والحويطات وكان المال مخصصاً للطياحة . فرغب الحرس فى المال ويظهر أنهم كانوا متواطئين مع حاكم النخل (وهى بلدة واقعة بين السويس والعقبة) على أخذ المال وقتلهم

فما هو أن ساروا بضعة أميال حتى هوجموا وأوثقوا وسلبوا ما معهم ثم ضربوا بالرصاص على حافة وهدة فى وادي صدر . وهكذا انتهت آمال بالمر المسكين .

وكانت الكارثة من الفداحة بحيث سئلت عنها أسئلة فى البرلمان ووقف ذلك الرجل سير هنرى كامبل بانرمان وكان وقتئذ وكيل وزارة فكان يجيب على الاسئلة وينكر المهمة السرية التى كانت موكولة الى بالمر ورفقائه ويقول أنهم لم يخرجوا الا بغية شراء الجمال .

وليست مذكرات بالمر بالبينة الوحيدة . فان الكابتن جل قد ترك أيضا مذكراته وهي تثبت هذه الحقائق . فان مهمته فى غربي القناة كانت لا تختلف عن مهمة بالمر فى شرقيها . وتبتدىء هذه المذكرات فى الاسكندرية وهو يقول فيها أنه ذهب لمقابلة سير فريدريك جولسيد وأنه يأمل أن يكون بين البدو فى غرب القناة بعد قليل من الوقت . ثم يقول أنه أخذ من الخديو قائمة مكتوبة بخط يده عن أشهر المشايخ بين القناة والارض المزروعة ويذكر منهم اثنين وهما مسعود الطحاوى فى الصالحية ومحمد البقلى (البقلى ؟) فى وادي طوميلات . وكان يعتقد أن البدو ينظرون للانضمام الى الجانب الذى يوافق مصالحهم . وفى بورسعيد يقابل المحافظ المعزول

يجيره هذا بانه يمكن شراء البدو بجنيهين أو بثلاثة جنيهات الواحد . وفى ٤ منه يقول انه قرأ تقرير بالمر لسير سيمور ثم يقول : « لو انى كنت عرفت أن التقرير سيرسل رأساً الى سير سيمور لكنت سألت هو سكفر عما اذا كانت لديه النقود اللازمة لبالمر » ثم يقول :

« يقول بالمر انه يستطيع أن يشتري خمسين الف بدو بخمسة وعشرين الف جنيه وسألح في اعطائه هذا المبلغ »

ثم يذكر تقريراً له يقول فيه أنه لا يمكن سد القناة الا من نقطة معينة يذكرها وذلك لقلة وجود الاحجار فى الاماكن الأخرى وصعوبة اغراق السفن بدونها ثم يذكر دلسبس فيقول انه يستطيع الحاق الاذى بالقناة لأن جميع الكراكات والزوارق التي تحت تصرف الشركة هي في الحقيقة تحت تصرفه . وفى ٥ أغسطس يذهب جل الى القناة ويصل الى السويس ومعه ضابط آخر ومعهما عشرون الف جنيه دهباً لكى يعطياها لبالمر . وعندما يكون فى الاسماعيلية يقابل مستر بيكلرد فيناقشه في أحسن الوسائل لتدمير التلغرافات . ثم يذكر ان أحسن الطرق ثلاث . وهي : (١) تدميرها قريباً من الشاطيء في العريش وكلاهما يعتقد أن هذه طريقة خطرة . و (٢) تدميرها عند جسر القنطرة ولكن يعترض على هذا العمل بانه يخالف حيدة القناة . و (٣) من السويس وهذه ميسورة . ويظهر أنه لا يثق ببيكلرد فيقرر أنه يذهب الى السويس ليقطع خطوط التلغراف بنفسه .

وفى ٦ أغسطس يذكر سروره لأنه تخلص من مبلغ العشرين ألف جنيه اذ سلمها لبالمر . ثم يذكر أنه سيذهب مع بالمر لمقابلة المشايخ في النحل ثم يقول انه بعد أن يذهب معه سيرى مبلغ آمال بالمر التى عقدها على هؤلاء البدو وهل حالة البدو تبرر هذه الآمال .

فهاتان الوثيقتان أى مذكرات جل ومذكرات بالمر تثبتان كل الاثبات استعمال الرشوة قبيل معركة التل الكبير .

وقد كنت متصلا بهذه المسائل بعيد حدوثها . وذلك لأن عائلتى بالمر وجل طلبتا الى أن أطالب الحكومة بالاعتراف بخدمتهما القتلى ومكافأة عائلتيهما . وبعد

أن أنكرت الحكومة البواعث التي أدت الى قتلهما جعلت صهرى لورد ونتورث يطالب الحكومة بايضاح هذه المسألة . وكانت مطالبته هذه سبباً في تغيظ اللوردة من حرب الحكومة ووقف لورد جرانفيل ولورد نورثبروك ينكران أشد الانكار أن الحكومة حاولت أن ترشو البدو . ومن العجب أني ذهبت الى لورد سالزبرى وطلبت اليه أن يساعدني في الاعتراف بخدمة هؤلاء القتلى ومكافأة عائلاتهم فقال لى أنه يوافق على أن ينكر الوزراء جميع ما عمل في المصالح السرية . ولكنه مع ذلك أمكن لورد ونتورث من شرح المسألة بينما غيره كان يعارض في ذلك .

ولكن مع كل ذلك لم تكن أعمال بالمر وجل ذات قيمة كبرى لولسلى فانما المساعدة الحقيقية للجيش الانجليزى جاءت على يد الخديو . فانه أغرى سعودا الطحاوى من مشايخ العربان بخيانة عرابى وكان هو الوحيد الذى نجح في خيانته أو ثبت على الخيانة . وكان سعود قد أخذ مكافأة على هذه الخيانة مبلغ خمسة آلاف كرون سنوي . وكان دائباً على الخيانة منذ انتقال الجيش من كفر الدوار الى التل الكبير . وكان سعود من سادة العرب وكان على شئ من الذكاء ولكن اختلاطه بدلسبس والفرنسيين الذين كانوا في القناة على بعد يوم من خيامه أتلفه كما هو المعتاد اذا اختلط العربى بالافرنجى وحاول أن يمثل دور الجنتلمان . فكان يخالطهم ويصيد الغزلان معهم . وعندى ما يشبه أن يكون اقرارا منه بانه كان جاسوساً للانجليز في جيش عرابي فاني مررت بالصالحية في سنة ١٨٨٧ فنزلت في خيمه . فلما عرف أني انجليزى وكان بالطبع يجهل ميولى السياسية أخذ يتكلم عن اعماله في الحرب فلم يترك عندى مجالا للشك . فقد كان يشتغل عند عرابى ويقوم لجيشه بالاستطلاع فكان رجاله يروحون ويغدون من مخيم الى آخر . ولم يكن في عمله ما يتغير منه لأن البدوي ينظر الى المصرى والتركي والافرنجي باعتبارهم جميعاً أجانب ليس لأحدهم عليه ولاء . وانما هو يخدم الجميع بمقدار ما يستفيد منهم . وليس للبدو النازلين في شرقي النيل الا القليل من الاحساس الديني بحيث لا يشعرون لذلك من خدمة الكفار اذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم . زد على ذلك أنه لم يكن قط حب بين الفلاحين والبدو .

ولكن أكبر ما عاد بالاذى على عرابي وعجل انتصار ولسلي هو ما فعله بعض العوشين المستخفين في القاهرة والتل الكبير من ارشاء ضباطه بالمال والوعود بالترقية حيث خلع هؤلاء الضباط ولاءهم له .

ولم يفعل ذلك ولسلي أو أحد من رجال المصلحة السرية الانجليزية وانما الذى فعل ذلك هو الخديو لانه كان يعرف من يمكنه أن يعول عليهم أكثر من الانجليز جميعا كان الانجليز هم الذين قدموا الخديو المال اللازم . وكان أنشط وأذكى الذين وكل اليهم هذا العمل باوره عثمان بك رفعت الذى كان يعرف عوامل الغيرة بين الضباط وميول كل منهم . وكان يوضح للضباط الذين هم من أصل شركسى عدم حكمة انضمامهم للعرابيين وعدم فائدة المقاومة لان الخديو سيفوز في النهاية ويكافىء من ينضم اليه من الآن ويعاقب من يعمل خلاف ذلك

وكان الانجليز وولسلي يخدمون الخديو وكان السلطان الذى أعلن ان عرابى ثائر وكان على وشك ارسال الجنود يفعل فعلهم . وكانت أقوال عثمان رفعت ذات وزن واعتبار فى نظر الضباط الشراكسة أما السفلة من الضباط المصريين فان الاموال أغوتهم . وكان عرابى على الرغم من ان الجنود والضباط كانوا يحبونه قد ألقى الغيرة والحسد في قلوب بعض كبار الضباط الذين كانوا يرون أنهم يفضلونه في قيادة الجيش ومما زاد استياءهم تلكؤه فى مسألة سد القناة . فان ثقتهم فيه زالت من وقت أن نزل الانجليز من القناة ولم يردهم الفرنسيون الذين كان عرابي يعتمد على وعودهم فى ردهم فلم يعد العدة لملاقاتهم عند شاطىء القناة . اما مع زعماء الوطنيين من غير الجنود فقد كان للخديو وكيل آخر هو سلطان باشا الذى كان زعيم الفلاحين قبلا ثم انقلب عليهم وانضم الى الانجليز ولم يعد يخجل من بذر بذور الشقاق بين الوطنيين الذين كانوا لا يزالون متعلقين بوطنهم وقد يعجب الجيل الجديد من المصريين ويتساءل عن السبب الذى جعل رجلا شريفا يبتدىء الحياة بالوطنية الحارة ثم ينتهي بالهبوط الى ذلك الدرك . وتفسير ذلك هو ما يلي :

كان سلطان باشا رجلا ذا كبرياء له ثروة واسعة وجاه عريض وكان له

صدر المكان في أى اجتماع يعقد وكان يسمى ملك الوجه القبلى بين كبار الملاك وكان يرى أن من حقه لهذا السبب زعامة الفلاحين .

وكان ينظر الى عرابي نظرة الرعاية التى يتعطف بها الكبير على الصغير وكان يرى فيه أداة لتحقيق أغراضه ولكنه لم يكن يتوقع ان عرابي سيأخذ مكانه بين الجمهور . ولما ألفت وزارة سنة ١٨٨١ ولم يكن وزيراً بها اغتاظ من ذلك ولكن كانت له بعض التعزية اذ عين رئيساً للبرلمان الجديد . واغتاظ أيضاً عند ما ألفت الوزارة الثانية في سنة ١٨٨٢ ولم يكن عضواً فيها فشعر ان الوطنيين لا يعطونه حقه من الاحترام فانحدر الى الجانب الآخر . ثم جاء الاسطول الى الاسكندرية فأخذ مالت فى إغرائه ثم فى تخويفه حتى صرح بأنه يرضى باجابة مطالب الانجليز ثم انضم نهائياً الى حزب الخديو فليس فى انحدار سلطان كما انه ليس فى انحدار الخديو شىء يستعصى على الفهم فقد صارت المسألة فى نظره عناداً بعد ان كانت طموحا الى منصب ثم مما خفف عن نفسه خزى المصير ما وعد به من أن تدخل الانجليز لا يقصد به سوى إعادة الحالة على ما كانت عليه قبل وزارة محمود سامي وأن مصر ستبقى دستورية كما هى . وبناء على ذلك أرسل لجميع أصدقائه العديدين خطابات يقول لهم فيها ان التحالف الموجود بين الخديو والانجليز هو تحالف مؤقت وستخرج الانجليز من مصر عند ما ترجع للخديو سلطته وان عرابي قد فقد ثقة السلطان وان الاستمرار على المقاومة فى القاهرة لم يعد مجديا والمسلمون يستنكرونه . وقد كان لهذه الخطابات التى وزعت بعناية أثر كبير وكان للاموال ايضاً أثر آخر . ويظهر ان سلطان وكان يقدم هذه الاموال من جيبه الخاص لا من اموال الحكومة المصرية التى قررت بعد الحرب منح سلطان مبلغ عشرة آلاف جنيه بحجة أنها تعويضات لما ناله من الخسائر مدة الحرب ومنح أيضاً لقب سير من الحكومة الانجليزية . والاغلب على الظن ان ما صرفه سلطان لهذه الاغراض لم يكن كبيراً لانه كان يعد الوعود لبعض الضباط « ولم يف بها بعد ذلك » فلهذا كان هذا المبلغ اكبر مما صرفه ومهما كان كل ذلك فاننا يمكننا ان نقول ان الخديو قد مهد طريق النصر لولسلى (١)

---

(١) أجد هذا في مذكراتي عن سنة ١٨٨٧ « ١٣ فبراير — زارني عبدالسلام

وكان الجيش يستطيع على الرغم من هذه الدسائس أن يطيل مدة الدفاع لولا سوء الحظ الذي لازمه مدة الحرب . فانه عند ما عرف ان الانجليز سيهجمون من شرق ذهب محمود فهمي المهندس القـدير وكان من أكبر أعوان عرابي الى التل الكبير وأخذ يرسم خطوط الدفاع التي لم يكن له من الوقت مايكفي لاتمامها . وذلك انه عند ما كان يشتغل في تخطيطها وقع في أسر الانجليز في يد جماعة من حرس الجيش الانجليزى . وكيفية ذلك ان محمود فهمي كان قد خرج عند المساء ومعه ياوره فقط وكان قد خلع ملابسه الحربيـة لحر الشديد وصعد على ربوة لـكي يستطلع الصحراء الواقعة بينه وبين الاسماعيلية . فانقضت عليه جماعة الحرس الانجليزى هذا وأسرته في الجانب الآخر من وادى الطميلات . ولمـا لم يكن في ملابسه الحربيـة احتار الملازم تاليوت في كيفية معاملته وكاد يقبل أقواله من انه افندى يملك بعض الارض في تلك الجهـة وكاد يطلق سبيله لهذا السـبب ولكنه أمسكه وأخذه الى مضارب الجيش الانجليزى حيث عرفت أهميته . والواقع ان أسره هذا كان ذا أهميـة عظمى وكان نكبة لا يمكن تقديرها على الجيش المصرى في التل الكبير (١)

وكانت النكبة الاخرى ما أصاب قائدين من أحسن قواد عرابي في القصاصين

المويلحي فقال انه كان صديقاً حميا لسلطان وانه كان من حزبه وقد تشاجر مع عرابى ولكنهم أسفون على انشقاقهم عنه الآن وقال انه لم يوافق على سلوك سلطان مدة الحرب . وان سلطاناً قد خدعه ماليت ووعده ببقاء البرلمـان بعد الحرب . وأراد سلطان ان يحصـل على وعد كتابي من ماليت بذلك ولكن الخديو طلب اليـه ان يكتفي بالوعد الشفهي ولما عرف سلطان هذه الخديعة بعد الحرب أسف كل الاسف ومات وهو يتحسر ويطلب ان يغفر له عرابي فعلته والا يذكره الناس بخيانة الوطن. وكان سبب مشاجرته مع عرابى حسده له لانه صار وزيراً دونه »

(١) ان ماحكيته هنا عن محمود فهمى قد قاله هو في بنفسه . وقد روى غـيري روايات أخرى عن كيفية أسره وقال بعضهم انه انضم الى الجيش الانجليزي ولكن من يعرف محمود فهمي لا يصدق هذا

وهما على فهمي صديق عرابي المجرب وراشد باشا وكان كلاهما جنديا مجربا وكانا من الشجعان الذين قد جربا الحرب قبلا . وهما أول من قام بالهجوم على جيش ولسلي في القصاصين . وكان ما أصابهما شر ما نزل بالجيش المصرى في جهوده وفي صد الانجليز .

ويقول الرواة المصريون ان العدو كان قد فوجئ وبقيت الحرب سجالا بين الفريقين وكاد الدوق كنوت أن يقع أسيراً . ولو كان هذا الدوق أسر وصمد الجيش المصرى لاعدائه لكان الأرجح ان المصريين حصلوا على الصلح واعترفت انجلترا بالحالة الجديدة لان الرأي العام كان في ذلك الوقت قد تحول وصار الناس يخجلون من محاربة فلاحين يقاتلون من أجل حريتهم ورد المظالم عن أنفسهم .

ولكن كان يتخلل تدبيراتهما أي على فهمي وراشد باشا) نقصان . فان هذه التدبيرات كانت تقضي بان يزحف محمود باشا سامي بالفي جندى في الصباح ويهاجم الانجليز من الميمنة . فتاه في الليل رجال سعود وأضلوه عن الطريق فلم يصل في الميعاد . ثم أن عرابى لو كان جنديا له سليقة الحرب لانضم اليهما ووقف الى صفهما ولو في مؤخرة الجيش مع الاحتياطي ان لم يقف في المقدمة . ولكنه لعدم فعله ذلك لم تظهر في الميدان جميع قوة الجيش التى كان يجب استخدامها . وأصيب هذان القائدان بجروح منعتهما من مباشرة الحرب . ثم من المؤكد أيضاً أن أحد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان الجيش .

فكان الجيش المصرى لهذه العوامل في ارتباك هائل في التل الكبير وقدمت بوادر الخاتمة المحزنة . فان عرابى فقد أحسن قواده ولم يعرف أحداً يقوم مقامهم . وكان الذين يثق بهم قليلين ولم يكونوا من أهل الكفاية . وكان هناك رجل ربما كان يمكنه أن يسير بالدفاع على نحوما وهو عبد العال حلمى ولكنه لعلة غير واضحة بقى بعيدا عن الميدان .

وكان عبد العال هذا أحد « الضباط الثلاثة » وكان من أشجع ضباط الجيش وكان قبلا معيناً في الدفاع عن دمياط توقعاً لنزول الانجليز هناك وكان معه عدد كبير من أفضل الجنود وبخاصة تلك الفرقة السودانية التي كانت فرقته الأصلية .

ولو أن هؤلاء الجنود أحضروا الى التل الكبير مع قائدهم لكانوا على الاقل نجوا الجيش من وصمة العار لأنهم كانوا فى حماسة حارة ولم تكسر قلوبهم هزيمة سابقة ولكن يظهر أن اللجنة أبقته فى دمياط اعتقاداً بان هذه البلدة لا تزال تحتاج حامية اذ لم تقرر تعيين عبد العال خلفاً لعلى فهمي .

وقد جال بخاطري بعض الاحيان أن يعقوب سامي رئيس لجنة الحرب مع ماسبق له من الخدمات فى تهيئة أمر الدفاع قد أغراه بعد ذلك وكلاء الخديو . فانه كان مسلما من أصل يونانى ولذلك كان من حزب الحكام السادة وعندى وثائق تدل على أنه بينما كان يظهر كأنه ساعد عرابى الايمن اذا به رجل الخديوى الذي يعتمد عليه ويظهر أن الخديو كان ينظر اليه هذه النظرة ويعده من رجاله ولذلك عومل بشدة بعد الحرب . وكان أحد الباشوات السبعة الذين نفوا الى سيلان . وقد أظهر خصوعا وندماً فى المحاكمة وجعل يدافع عن ولائه للخديو . وهذه الوثائق تثبت حسده لعرابى وغيرته منه . فمن الممكن اذن أن يكون قد اجتهد بعد اصابة على فهمي فى عزل عرابي ابتغاء التعجيل فى هزيمته فى التل الكبير ولم يرسل اليه عبدالعال لهذا السبب . وقد أعطيت القيادة لرجل طيب لكنه غير قادر على القيام بأعبائها هو على باشا روبي أحد رفقاء عرابى القدماء ولكن لم يكن له صفة أخرى تجعله صالحا للقيادة .

اما عرابى فانه على الرغم من قرب هجوم الانجليز فقد بقى فى خيام يحوطها الاعيان ورجال الدين الذين كان يقضي وقته معهم في الصلاة والذكر . وكان يعتمد على سعود الطحاوى لكى ينبئه بتقدم ولسلى . وكان سعود يغشه ويطمنه وكان جيش التل الكبير فى غاية التفكك فان الجنود المنظمة لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف او سبعة آلاف وكان معهم نحو الف خيال ومثل هذا العدد من المدافع وكان رجال الطوبجية يعرفون حرفتهم . وهذا هو كل القوة التى كان يمكن الاعتماد عليها . أما ما عدا هؤلاء فكانوا جماعة من المجندين الجدد الذين لم يدربوا وأجسادهم تكاد تكون عارية وكانوا من الفلاحين السذج يشتغلون بجد فى حفر الخنادق ولكن لم تكن لهم قيمة حربية . وربما كان عددهم يبلغ عشرين الفاً ولكن ليس عندى احصاء صحيح عنهم . وكانوا يكدون ليل نهار فى اتمام حفر الخنادق ولكن كان هذا فقط

كل ما استطاعوا أن يعملوه . وقد قال ستون باشا الاميركي بعد الحرب انه يعتقد أنه لم يطلق واحد من جميع هؤلاء خرطوشة واحدة والارجح أنه مصيب فى اعتقاده.

وجاءت الخاتمة فجأة فى فجر يوم ١٣ ستمبر . فقد كتب الكتاب الحربيون الانجليز قصصاً خيالية عن تقدم الجيش الانجليزى سراً فى الليل تحت جنح الظلام يهتدي بالنجوم وبهداية ضابط من البحارة حتى خرج من المحسمة ووصل الى التل الكبير حتى لا يتوهم القاريء أنه كان يتحسس طريقه في الظلام لا يدرى الى أين يقاد . ولكن الواقع خلاف ذلك . كان جواسيس العرب والبدو الذين أشرت اليهم يدلونه على الطريق . وكان اثنان من صغار الضباط فى جيش عرابى قد ارتشيا من الخديو قبلا على يد وكلائه وكانا فى مركزين مهمين . واسم كل من هذين الضابطين يجب أن يدون تخليداً لعارهما وفضيحتهما . فأولهما هو عبد الرحمن بك حسن قائد الحرس الراكب وكان في مقدمة الجيش مع فرقته خارج الخطوط وكانت الصحراء من جهة الشرق مكشوفة أمامه . ففي تلك الليلة المعهودة نقل رجاله الى جهة بعيدة نحو يسار الجيش حتى يصير طريق الهجوم خالياً أمام الانجليز . وأما الثانى فهو الذى سبق أن ذكرته واسمه على بك يوسف الذى كان على قيادة خطوط الخنادق المتوسطة . وكانت هذه الخطوط لاتعوق سير المدفعية . وظهر من التحريات بعد ذلك ومن أقوال عرابى أن هذا المخلوق لم يكتف باخلاء مراكزه بل وضع المصابيح لكي يهتدى بها جيش الانجليز . وقد ذكرت لى أسماء أخرى لمن خانوا بلادهم ولكنى لعدم ثقتي بالرواة أوثر عدم ذكرهم . أما هذان الاثنان فان خيانتهم قد اشتهرت فى القاهرة مدة سنوات لانهما لم يخفيا فعلتهما وخاصة على بك يوسف الذى كان دائب الشكوى من قلة المكافأة التى كوفىء بها على خيانة وطنه

فقد دفع له الف جنيها قبل المعركة وكان قد وعد بعشرة آلاف جنيها بعد المعركة ولكن الحكومة لم تدفع له سوى معاش شهرى قدره ١٢ جنيها مدة حياته .

وكان عرابى وسائر الجيش قد باتوا تلك الليلة مطمئنين لان سعود الطحاوى كان قد غشهم وخدعهم . فبات هؤلاء المساكين فى خنادقهم ووراءهم عرابي على بعد ميل منهم واذا بجيوش العدو تنصب عليهم فاخترق الانجليز الخنادق من أماكنها

الضعيفة وفى مؤخرتهم المدافع تصب النار ففر جميع المجندين الجدد دون أن يطلقوا طلقة واحدة وكانوا في حالة تشبه العري وقد أشتام حمر الخنادق ورموا بنادقهم وهرعوا يعدون والمدافع تحصدهم وكانوا لجهلهم بكيفية التسليم يطعرون كأنهم لا يزالون يحاربون فكانت الحرب أشبه شيء بمجزرة وحدث كل هذا فى القلب وفى الميمنة . أما فى الميسرة فقد صمد محمد عبيد وكانت المدفعية المصرية تجيد الضرب هنا وهناك ولكن كل هذا لم يستغرق بالارجح أكثر من أربعين دقيقة . ووقع محمد عبيد فى هذا الدفاع الشريف ووقع معه اكثر رجال المدفعية الذين صمدوا للقتال ولكن لم تمض ساعة حتى انتهى القتال وصار الجيش الوطني خليطا مشتتاً .

أما عن الدور الذى مثله عرابي فى هـذا الصباح المشئوم فاني أرويه نقلا عن بيان خادمه محمد سيداحمد الذى كان خادمي منذ سنة ١٨٨٨ مدة سنتين وهذا فضلا عما رواه لى عرابي نفسه بعد ذلك .

فقد كان سيداحمد هذا يروي لى هذه الحوادث عدة مرات وكان يقول لى ان الجيش كان مستغرقا فى النوم تلك الليلة لان الطلائع كانت قد روت ان الانجليز لم يتحركوا . وكانت خيام عرابى تبعد عن الخطوط نحو ميل لكنها كانت تقريباً فى وسط خيام الجيش .

وكان عرابى مطمئناً كسائر الجنود قد خلع ملابسه وذهب الى فراشه ونام نوماً عميقا ولم يستيقظ أحد الا على زئير المدافع . فلبس عرابي في الحال كسوته الحربية وامتطى جواده وذهب الى خط النار وكان معه خادمه هذا وآخرون . ولم يذهبوا بعيداً حتى قابلهم جمهور من الفارين يقولون انهم قد خسروا المعركة وكان العرب البدو الذين ينتسبون الى الخائن سعود الطحاوى يركضون خيولهم هنا وهناك فيزيدون الارتباك . فجعل عرابى يحض الجنود على الثبات وصار يتقدم بهم الى الامام فى ناحية محمد عبيد الذى كان لايزال صامداً للانجليز ولكن أمواج الفارين ردته الى الوراء وحمل خادمه سيداحمد هذا يرجوه ان يفر وينجو . فامتثل عرابي أخيراً الى هذه النصيحة . ولم يكن الخادم يعرف ان واجب مولاه ان يصمد ويموت في مكانه فى ميدان القتال وكان يفتخر بأنه استطاع ان يجعل مولاه يسمع نصيحته .

وكان كلاهما ممتطياً جواداً كريماً قد أهديا اليهما من بدو الفيوم القرية . فوصلا الى محطة التل الكبير قبل وصول الانجليز بدقائق ولم يتمكنا من أخذ القطار . ولكنهما عبرا الجسر المقام على القناة قبل أن يقفل ولما صارا على الضفة الاخرى وجد نفسيهما فى وادي الطميلات فسارا الى بلبيس ركضاً . ولم يكن معهما أحد لان الارتباك الذى نال الجيش فصل عرابي من أركان حربه . وكان كل هم عرابي أن يصل الي القاهرة قبل وصول خبر الهزيمة حتى يهيئ وسائل الدفاع عن عاصمة البلاد . فأخذ القطار فى بلبيس ووصلا الى القاهرة بعيد الظهر .

(وقد سمعت مثل هذه الرواية من مصطفى بك طبيب الجيش رواها لما فى سنة ١٨٨٤ وكان ليلة معركة التل الكبير نائماً فى خيمة قريبة من خيمة عرابي وفي ملحق هذا الكتاب رواية عرابي نفسه)

ويظهر أنه عند وصول عرابى الى القاهرة كانت لا تزال برأسه آمال عن الاستمرار فى الدفاع عن المدينة . فذهب تواً الى قصر النيل وانضم الى لجنة الحرب التي عقدت اجتماعا وكان القرار الذى انتهت اليه اللجنة عبارة عن تسوية تقتضى الخضوع للخديو من جهة والدفاع عن القاهرة أيضاً من جهة أخرى . ولم يفعلوا أكثر من ذلك الى اليوم التالى عند ما وصلت الجنود الهندية بقيادة دروري لو الى العباسية والحقيقة أن وكلاء الخديو كانوا قد كسروا قلوب الوطنيين بدسائسهم كما أن اعلان السلطان بان عرابي ثائر كان قد فت فى عضد الوطنيين . ولم يكن يقول بالدفاع في هذا الوقت سوى رعاع الشوارع وكانوا يجهلون كل شئ . وكان فى المدينة حامية من المجندين الجدد وكان فى مقدورهم أن يثبتوا فى القلعة ويحموها ولكنهم لو فعلوا ذلك لدمر الانجليز المدينة . ولم يكن أحد مستعداً لذلك ولذلك قررت لجنة الحرب أن تسلمه فى الحال مفاتيح القلعة التي طلبها . وكان عرابي قد قضى الليلة السابقة مع جون نينيه وهما فى قلق ومناقشة فنصح له نينيه بالتسليم فذهب الى القائد الانجليزى في الصباح وسلم سيفه واستأسر

(هذا وانى أحد فى مذكراتي فى سنة ١٨٨٤ انه فى ٢٩ اكتوبر جاءنى الاميران المصريان عثمان وكامل وكانا يتكلمان بحماسة وطنية عن الحرب وقالا لي أشياء كثيرة

فما قاله عثمان أنه لم يكن هناك وقت الحرب لأنه كان سمينا ولكنه كان يعطف على القضية الوطنية وقد سلك سلوكا شريفاً بعد الانتهاء . وكان كامل عضواً فى الحكومة المؤقتة وكان يرى عرابى كثيراً وشهد بوطنيته ولكنه لامه على تهاونه . فقال انه كان يجب عليه أن يضرب على يوسف بالرصاص بعد القصاصين لانه قد عرف تماما أنه خائن وقد أخذ قبل المعركة خمسة آلاف جنيه . وحدث أنه كان يوجد ١٨ الف جندى مصرى ليس أمامهم سوى ٢٥٠٠ جندي انجليزى بقيادة الدوق كونوت نعم ان على يوسف الذى كان فى القلب حمل على الانجليز ولكنه ترك ميدان القتال فاختل نظام الجيش . وكان معظم هذه الرشوة التى رشاه بها الانجليز زائفة بها كمية كبيرة من الرصاص وبعد المعركة امتلأت القاهرة بهذه النقود الزائفة فاشترتها الحكومة بسعر القطعة عشرة أو خمسة فرنكات .

وكانت الحوالات البريدية أيضاً مزورة ولكن على يوسف ألح في أن تكون حوالته موقعاً عليها من شخص يعرفه . وكانت النقود التى ارتشى بها عبد الغفار انجليزية زائفة فأخذت زوجته بعضها وذهبت به الى زوجة اسماعيل جودت لكى تستبدل بها نقوداً أخرى . وكسر الامير كامل بعض هذه النقود فوجد فى داخلها رصاصاً . اما البدو فلم ينخدعوا فان الخائن سعود الطحاوى لم يقبل سوى الريالات الفضية تسلمها من أحد قواد الانجليز كما أخبر الامير كامل بذلك بعد الحرب . فكانت المسألة فضيحة من جميع النواحي وكان كامل قد أمر بأن يذهب الى التل الكبير للقبض على علي يوسف ولكن الحريق فى التل الكبير حالت دون ذلك . فيظهر من ذلك ان جميع من كان حول عرابى قد خانوه بعضهم حباً في المال وبعضهم حسداً . وكان محمود سامى يحسد عرابى وقد أضاع الفرصة فى القصاصين لانه لم يكن قائد الجيش بدلا من عرابى .

فقد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ويحافظ على ميعاده مع على فهمي الذى كان جنديا شريفاً قادراً بينما كان غيره لا قيمة لهم . وكان عرابي يمنع الاتراك من القيادة وفى الوقت نفسه لم يكن يجد من الفلاحين سوى غير الا كفاء . وكان محمود سامي هو التركي الوحيد الامين ولكنه آثر شخصه على مصلحة البلاد . وكان الامير كامل

حاضراً في مجلس الحرب في قصر النيل عندما وصل عرابي وأخبر الاعضاء بهزيمة الجيش وهو يبكي أحر بكاء. وقد قال انه حارب حتى لم يبق سواه. وليس هذا صحيحاً. ووبخه الامير كامل وقال له «ان من يغامر بعمل عظيم يجب عليه أن يحسب حساب الخسارة»

(وقد قال لي الامير كامل ان عرابي لم يكن جديراً بأن يتولى القيادة العامة. فلو انه ضرب بالرصاص أو شنق ستة أشخاص في أدوار الحرب الاولى لسار كل شيء سيراً حسناً. ومما قاله أيضاً ان ما يقال من ان الجيش الانجليزي كان في هذه الحرب يسير سير المتنزه عار عن الصحة.

(وقال لي محمد سيد احمد انه كان حول عرابي نحو ألف جندي ذبحوا جميعاً قبلما يترك ميدان القتال. ولكني لا أعلق أهمية على صحة هذه الرواية أو كذبها وبخاصة من حيث العدد. والمظنون ان القتلى والجرحى من المصريين قد بلغوا نحو عشرة آلاف. وأكثرهم كانوا قتلى لان الانجليز لم يستعملوا أقل هوادة. ولكني مع كل ما ذكرته لا أضمن صحة هذه الارقام. وعلى كل حال في التل الكبير أكوام من عظام القتلى وهم شهادة ناطقة على ماجرى في المعركة)

الفصل السابع عشر

محاكمة عرابي

لما كانت هذه الحوادث تجري في مصر كنت أنا أقضي الصيف في كرابت والحزن يقطع نياط قلبي. وكانت كل عواطفي بالطبع مع المصريين ولو ان جميع أسباب المكاتبات بيني وبينهم قد قطعت. وكانت حمى الحرب في الاسابيع الاولى من القتال عظيمة بدرجة لاتدع أية منفعة من كلامي. فصمت امام الجمهور واستعددت لان أقدم دفاعي عن موقفي ازاء المسألة المصرية. ومما كان يذكر ضدي ما ذكرته شركة روتر من ان عرابي قد فتح داري القريبة من القاهرة ووجد فيها سبعة عشر صندوقا مملوءة بالبنادق ووجد أيضاً مدفعاً نحاسياً من النوع الذي يحمل على ظهر

اليخوت والحقيقة في ذلك هي انه لم تكن ثمة الا سبع عشرة بندقية وهذا المدفع وكنت قد اعددت ذلك لاهديه الى ابن رشيد في حائل . وكانت هذه الاشياء في منزلي فسمع بها بعض ولاة الامور فنقلوها الى القلعة . ولم أحصل على معلومات عن هذه الاشياء للارتباك الذي أعقب الحرب الا ما أشيع في لندن من ان مدفعي النحاس قد عد من غنائم الحرب وانه حمل الى الوزارة البحرية لكي يعرض على انظار الجمهور .
وبعد الحرب بعشر سنوات كنت أتناول الغداء مع ابن عمي لورد ونيدهام في القلعة في القاهرة . وبعد الغداء أخذني لكي يريني أسلحة دار الصنعة فرأيت هناك مدفعي وسائر أسلحتي . ولما كان الصندوق الذي يحوي البنادق لا يزال اسمي عليه فاني استطعت ان أسترد جميع هذه الاسلحة .

وكنت مدة الحرب مكروهاً في دوائر الحكومة ولكن علاقتي كانت لا تزال متصلة بدار رئيس الوزارة . وكنت أقابل هاملتون وقد عرضت عليه دفاعي الذي نشرته في مجلة القرن التاسع عشر في وقت كانت أوشكت ان تذهب فيه حماسة الحرب وتنطفئ حدتها وكان المفكرون من الامة أخذوا يتساءلون عن السبب والغاية من الحرب . وكانت مقالتي تستند في الدفاع الى العاطفة أكثر من العقل . وكانت نتيجتها أكبر مما انتظرت فان سيرلوسون ومستر سيموركي وغيرهما من الاحرار أخذوا يطوفون البلاد يدعون الى وقف الحرب وصار في البلاد شبه رأي عام يقاوم الحكومة في هذه الحرب . فتشجعت من ذلك . وحوالى ذلك الوقت أيضاً تسلمت خطاباً من الجنرال غوردون مؤرخاً بتاريخ ٣ أغسطس وكان وقتئذ في مدينة الكاب وقد صرح لي فيه بعطفه على القضية التي كنت أدافع عنها وهذا نصه :

مدينة الكاب في ٣ أغسطس سنة ١٨٨٢

عزيزي مستر بلنت

انك تقول في التيمس إنك ستنشر بياناً عن المكاتبات التي دارت بينك وبين الحكومة فأرجو أن ترسل لي نسخة من هذه المكاتبات . فقد كتبت أنا مسودة كتاب عن الحوادث التي جرت بين بعثة كيف وبين ارتقاء شريف منصب الوزارة وسأسميه « اسرائيل في مصر » وسأتبعه بآخر اسميه « سفر الخروج » ولا أعرف

اذا كنت سأطبع هذا الكتاب لانه ليس من الصواب ان يشمت الانسان بأعدائه. أعني بذلك الاعداء الرسميين .

ما أبلغ الدمار والخراب اللذين جرهما ماليت وكولفن بل ما أوخم عواقب سياسة التكتم التي جرى عليها ذلك وكولفن وماليت . فقد فر ذلك من إجابة الاسئلة التى ألقيت عليه فى البرلمان بدعوى المصالح الانجليزية . فياله من شقي انني اعتقد تمام الاعتقاد انه لايدري عن خطته أكثر مما يدري بواب وزارة الخارجية. وهل كان يمكن أن تكون خواتيم الامور أسوأ مما هي الآن لو انه صرح بكل شيء؟ كلا . إذ ما هي النتيجة الراهنة ؟ زوال المراقبة وزوال الموظفين الذين يتناولون في العام ٣٧٣ ألف جنيه وزوال نفوذ القناصل وزوال توفيق وزوال الربا وخراب مدينة الاسكندرية وفوق ذلك أمة تكرهنا . وسيذهب كولفن الى الهند وماليت الى الصين ولن نسمع عنها شيئاً . وكل هذا لأن القناصل والمراقبين لا يرغبون في ان يناقش أعيان البلاد الحكومة عن الميزانية فى وزارة شريف . وأما عن عرابي فمهما حدث لشخصه فانه سيعيش فى قلب الامة الى الابد : ولن تكون هذه الامة « خادمتكم المطيعة » مرة أخرى .

واقبل تحيات المخلص لك (ك. ج. غوردون)

وقد رأيت فى الحال أهمية هذا الخطاب لأني وان كنت فى ذلك الوقت مكروها فى الدوائر الحكومية الا ان اسم غردون كان ذا قيمة كبرى عند الجمهور وبخاصة عند ذلك الجمهور الذى بدأ يعضدني فاعتمدت على هذا الخطاب لكي أشرع في مكاتبات جديدة مع هاملتون . وكان مستر غلادستون قد قال فى البرلمان عنى أني « من الشاذين السيئين » الذين لايعرفون مصر فارسلت اليه عن سبيل هاملتون نسخة من خطاب غردون لى ثم لفت نظره الى ما ذكرته الجرائد من روايات الفظائع التى كان يرتكبها توفيق هو ووزراؤه الشركس مع المعتقلين الوطنيين . فقد روى أن محمود فهمي القائد المهندس قد عذب وان السياط وسائر آلات التعذيب قد استعملت بلا رحمة . فسألت أنا مستر غلادستون عما اذا كانت الجيوش الانجليزية قد ارسلت لمصر لهذا الغرض . وجاءني رد سريع وقد أفادني بعد ذلك عندما طلبت

لا يترك عرابي تحت رحمة الخديو حتى يقضي عليه بالهلاك بلا محاكمة .

وهاك نص هذا الخطاب :

« ١٠ شارع دونتج ستريت — هويتول »

٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لا أظن أني في حاجة لان أخبرك أن القلق قد ساور مستر غلادستون بصدد ما أشيع من ارتكاب الفظائع مع الوطنيين في مصر . وقد أرسلت في الحال تعليمات لبحث عن حقيقة هذه الفظائع ومع الاشارة بالاحتجاج على ولاة الامور اذا كانت قد وقعت فعلا . وانه ليسرني أن أخبرك بأن ما لدينا من الحقائق ينفي وقوع هذه الفظائع المزعومة وقد أعطيت أوامر شديدة بأن يعامل الوطنيون معاملة المروءة والانسانية .

ويظهر أن هناك بعض الريبة في ارتكاب التعذيب مع أحد الجواسيس ولكن التحقيقات تجرى الآن والضمانات توجد لمنع تكرار التعذيب . وكن على يقين بان مستر غلادستون سيستنكر « الفظائع المصرية » ويندد بها كما ندد بالفظائع البلغارية

« ولست أخالك من أن أذكرك بأن رأيك أو رأي غوردون الصيني عن عرابي سيتغير عند ما تقرأ الوثائق التي قرأتها » .

« فمنذ أشهر قليلة (وهذا خبر لا يجب أن يفشى) قمنا ببعض التحريات عن غوردون فانه قد عرض علينا بعض مقترحات بارلندا وكانت نتيجة هذه التحريات أنه ظهر لنا ان عقله لم يكن سليما »

وكانت هذه الجملة الأخيرة غريبة فان السبب الذي جعل حكومة مستر غلادستون تعتبر أن عقل غوردون لم يكن سليما هو أن غوردون كان قد ساح في غربي ارلندا وأرسل وقت سياحته الى أحد أعضاء الحكومة وهو لورد نورثبروك يقدم له مقترحات عن رد الاراضي للارلنديين بالثمن وأيضاً يقترح الحكومة الذاتية لهم .

وكان هذا الخطاب فاتحة علاقات حسنة بيني وبين دار رئيس الوزراء وصار لي بعض النفوذ عقب انتصار الجنود الانجليزية في التل الكبير وأسر عرابي وكانت نتيجة انتصار الجنود تغييراً هائلا وتحولا في رأي الجمهور . فكان من حسن الحظ

أن استطعت أن أقول كلمة منذ أسبوعين لأني لو لم أقل هـذه الكلمة في ذلك الوقت لما سمع بعد ذلك أحد صوتي في جلبة النصر . وكانت نتيجة هـذا الفوز أيضاً أن بررت الحكومة جميع أعمالها السابقة وقسي مستر غلادستون من ناحية الوطنيين . وكان هنالك خطر من أن يلجأ غلادستون لتبرير ذبح الفلاحين أمام ضميره الى تضحية عرابي نفسه . وكان عذره الوحيد فيما ارتكب من الفظائع الحربية ماسبق ان أغرى به نفسه من أنه يعامل في شخص عرابي رجلا مجرماً مقتحماً غير جدير بالاحترام الذي هو من حق الوطنيين كما لا يمكن اعتباره قائد جيش متمدين .

ولدى ما يحملني اعتقد أنه لو كان عرابي قد وقع أسيراً في يد ولسلي في التل الكبير لأعدمه في الحال ولولا تدخل سير جون أدي وهو قائد اكبر سناً من ولسلي واكثر تجارب لضربه بالرصاص أيضاً في القاهرة عند القبض عليه ولكن سير جون أدي أظهر لولسلي العار العظيم الذي يلحق بالجيش الانجليزي اذا كان قائد قوة منظمة قد احتاجت الحكومة الانجليزية الى تعبئة ثلاثين الف جندي لقهره لا يعامل المعاملة الشريفة التي هي من حق أسير الحرب . ثم أن برايت قد صرح لمستر غلادستون برأيه وهو في أشد الغيظ عن هذا الموضوع وطلب معاملة عرابي معاملة حسنة . ويجب أن نعتقد أن قوة الرأي العام وحدها هي التي حملت الحكومة تحجم عن تضحية عرابي كفارة عن اغلاطها وكان مستر غلادستون ولورد غرانفيل وسائر اللوردة الاحرار في الوزارة مصممين على ذلك . ولكي أبين الاسباب التي جعلتهم يعمدون الى الوسائل الانسانية في معاملة الوطنيين يجب أن أذكر التفصيلات الآتية :

فقد أعلن تسليم القاهرة وأسر عرابي في جريدة التيمس في يوم ١٦ منه وفي هذا اليوم أيضاً أرسل موبرلي بل مكاتب التيمس في الاسكندرية تلغرافاً لجريدته يطلب فيه التنكيل بعرابي وعشرة آخرين من زعماء الوطنيين . وأدركت من هذا ان النية سيئة بل في غاية السوء . وأرسلت في الحال تلغرافا الى ماتون أسأله عن رأي الدوائر الرسمية . وكان جوابه الاول مطمئنا يقول فيه :

« ليس هنالك في ظني أقل خوف من أن يضرب أحد بالرصاص . ولكن يجب عليك مع ذلك ان تطلب معاملتهم بالرأفة »

ولكن بعد ذلك بساعتين أرسل لي التلغراف التالي :

« ان لهجة الدوائر الرسمية بصدد أصدقائك لا تطمئن فاكتب لي خطاباً استطيع أن أريه لرئيسي »

وكان يقصد بهذا الرئيس تشترى رئيس تحرير جريدة التيمس وكانت علاقته به حسنة جداً . فكتبت في الحال الى هاملتون اقول :

« لا أظن أن هناك أي خطر من وجهة اعدام أحد من الوطنيين في القاهرة ولكن اذا كان يوجد هذا الخطر فانا آمل أن تخبرني في الوقت الملائم لأن لي بعض مقترحات بخصوص محاكمتهم محاكمة عادلة وبخصوص مسائل أخرى »

ومما هو ذو دلالة انى لم أتسلم رداً على هذه الرسالة مدة يومين وبعد ذلك جاءني رد يقول ان هاملتون على وشك أن يسافر الى الارياف وعلى ذلك فلا يمكنني أن أعتمد عليه .

ولكني لم يسقط في يدي لهذا السبب فاني كتبت رأساً الى مستر غلادستون وقد فعلت هذا بعد أن استشرت نابون وبرودلي وهذا الاخير قابلته في منزله بعد ظهر يوم ١٩ منه وقررنا أن يكون برودلي المحامي عن عرابي وسائر المعتقلين السياسيين وكان نابون الذي يعرف دخائل المسائل يرى أن الوقت لا يتسع للارجاء والتسويف واتفقنا مع برودلي على الدفاع بمبلغ ٣٠٠ جنيه ثم زاد هذا المبلغ الى ثمانمائة جنيه وهذا غير ما كان يدفع له في تأجيل القضايا . وفي أثناء ذلك خدمنا نابون خدمة كبيرة بأن تمكن من أن يجعل جريدة التيمس تعلن بأن عرابي ورفاقه لن يعدموا الا برضى الحكومة الانجليزية وانه سيدافع عنهم محامون قادرون . ولم يكن عندنا ما يدعم هذا الخبر ولكن بما أن التيمس قد أعلنته فان الحكومة وجدت من الصعب أن ترجع عن خطة الانسانية التي أذعناها عنها ونسبناها اليها .

وهاك خطابي الى مستر غلادستون

١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

سيدي العزيز

أما وقد انتهى المصريون من مقاومتهم الحربية وعلمنا أن عرابي وسائر الزعماء

قد سلموا أنفسهم لقوات جلالة الملكة فاني أتجرأ على مخاطبتكم لمصلحة العدالة ولمصلحة أولئك الذين ألقت بهم مقادير الحرب في أيديكم .

والظاهر أن النية معقودة على تأليف محكمة عسكرية لمحاكمة الزعماء العسكريين للثورة للبحث عن علاقتهم ببعض الاعمال العنيفة التي ارتكبوها . وستساعد المحكمة العسكرية محكمة مدنيـة في هذه التحقيقات . فاذا كانت هذه هي النية المعقودة فاني أرجوكم أن تعتبروا الظروف التالية لانها جديرة بنظركم وعنايتكم .

١ — اذا كان أعضاء المحكمة العسكرية المقترح تأليفها مصريين يعينهم الخديو فانهم لن يكونوا أحراراً في حكمهم وسيتحدون من الضباط الذين كانوا من حزب الخديو فيكونون لذلك مغرضين .

٢ — واذا لم يحصل ذلك فيجب أن تذكروا أن شهود الزور كثيرون في مصر وتزوير الوثائق العربية سهل فلذلك لايمكن الاعتماد على مثل هذه الشهادات. فيجب اذن وجود خبراء لفحص هذه الشهادات قبل قبولها .

٣ — واذا كانت البينات مما يساعد المتقلين فلايمكن مثبتها أن يقولها الا وهو خائف . فنفسه تغريه بالا يقدم مثل هذه البينات بينما يغري البلاط الشهود بان يقدموا بينات تضر بالمتقلين . واذا كان الخبراء وطنيين فسيكونون معرضين لجميع هذه الظروف .

٤ — وشهادة الاوربيين المقيمين في مصر ستكون مصوغة بصبغة تنافي مصلحة المتقلين فهم ذو مصلحة في القضية . فقد خسر بعضهم بعض أملاكه وتعطلت تجارة البعض الآخر وأصيب بعضهم بما مس كرامته فهو لذلك يرغب في الانتقام . ولهجة الانتقام بادية منذ الآن فيما يكتبه الانجليز المقيمون في مصر وفي الصحف الانجليزية .

٥ — ولا يكفي اذا أردت محاكمة المتقلين بالعدل أن يوجد ممثل لحكومة جلالة الملك في شخص أحد التراجمة أو نحو ذلك وقت التحقيقات . لأن الشعور السياسي قد طما بحيث لا يمكن لاحد في القاهرة أن يحكم حكماً نزيهاً بعد حوادث الستة الاشهر الماضية .

٦ — اذا كانت النية معقودة على أن يضم ضباط الجيش الى الاعضاء الوطنيين فى المحكمة العسكرية كما هو الرجاء فانهم سيجهلون لغة المتقلين ولن يستطيعوا فحص البينات أو استجواب الشهود فيكونون لهذا السبب فى أيدى المترجمين الذين ربما يغيرون الاقوال للاضرار بالمتقلين. وأكثر تراجمة القنصليات سوريون مسيحيون يكرهون المسلمين كراهة شديدة. وليس في مصر انجليزى يوثق به للقيام بهذه المهمة. فوظفونا لا يعرفون العربية أو يعرفونها معرفة قليلة ثم أن علاقتهم بالقلاقل ستفسد بالطبع رأيهم السياسى .

فلذلك يظهر أنه اذا لم تتخذ احتياطات خاصة فان الخطر من عدم تحقيق العدل عظيم .

وتلافياً لذلك بقدر الامكان قد عولت على ان أعين محامياً على نفقتي أنا وبعض أصحابي للدفاع عن أهم المتقلين وسأذهب به الى القاهرة لكي نجمع البينات للدفاع عنه : وسيكون مع القسيس صابونجي كترجمان . ولما كانت معرفتي بالعربية ناقصة قلت لذلك أستطيع ان اشتغل وحدى وصابونجي هو أحد أصدقاء المتقلين وهو قادر على أن يتكلم عنهم. ثم هو يجيد معرفة الانجليزية والفرنسية والايطالية والتركية وربما كان خير من يعرف العربية . والمتقلون يثقون به واعتقادي انهم يثقون بي أيضاً .

وبهذه الطريقة فقط يمكنهم أن يحصلوا على ما هو من حقهم أى تحقيق كامل خلو من الغرض.

وفى الختام أرى انه ليس من الضرورى ان أعد باني وقت اشتغالى أنا ومن يقومون معي بالدفاع عن المتقلين لن نتدخل مطلقاً فى السياسة . وأكون شاكراً لكم إذا تكرمتم باخبارى فى أقرب وقت عن نوع المحاكمة وباهم التهم التى ستوجه الى المتقلين . وأرجو أن أجد أنا ومن معي التسهيلات التى تسهل علينا القيام بعملنا في مصر ولن أشك فى انكم لما جبلتم عليه من حب العدل والحق ستمكنوني من القيام بهذا العمل هذا واني الخ .

ولفرد سكاون بلنت

وهذا الخطاب الذى كنت أعرف ان من الصعب على مستر غلادستون بعد أن ذكر « المطامع المصرية » الى جانب المطامع البلفارية ان يرد عليه بالرفض ، بعثته اليه بعد أن زرت هاملتون وأخبرته بنيتى . ولكن هاملتون لم يشجعني كثيراً كما ثبت ذلك لى أيضاً من رقعته التى أرسلها لى فى الصباح التالى رداً على خطاب مني له . فقد قلت له فى هذا الخطاب انى سأكتب الى عرابى واسأله عن كيفية إرسال خطاب اليه (الى عرابى) وقد رجوت ان أحصل على رد من رئيسه مستر غلادستون قبل يوم الجمعة . فكان ردها ملتون كما يلى :

« انى آسف لان أخبرك بأن خطابك قد تأخر بنحو ثلاث دقائق . ولكن على كل حال يجب الا تعتمد على جواب سريع . فان مستر غلادستون سينتقل كثيراً ثم هو ان يكتب الرد حتى يستشير آخرين . وأنا نفسى أجهل المسائل التى ربما تؤدى اليها مقترحاتك ولذلك لن أتطوع برأى .

ولكن أليس من المشكوك فيه انه يمكن الدفاع عن انسان بواسطة محامين جانب وان هذا يخالف القوانين الدولية والعرف ؟ وانى أجهل أيضاً كيفية ارسال الرسائل الى أسرى الحرب ولكنى أظن انه لايتسنى ارسال أية رسالة لعرابى الا اذا رضى الخديو وقائد الجيش الانجليزى . وعلى كل حال فواسطة المفاوضات سيكون ماليت فى الارجح »

وبناء على هذا الاقتراح كتبت خطابا الى عرابى أخبره فيه عن الطريقة التى سنتبعها في الدفاع عنه وألحقت هذا الخطاب بصورة منه لكي يطلع عليها ماليت ولزيادة الاحتياط ذهبت بنفسى الى وزارة الخارجية وسلمت الخطابين لكي يرسلا الى لورد تنتردن حتي يكتب عليهما ما يفيد العناية بهما . ولكن سوء الحظ أبى الا أن يموت اللورد فى ذلك الصباح وكان البريد على وشك السفر فاضطررت الى ارساله على يد خادم باتون . وكان الخطاب موجهاً الى القاهرة ولكن ماليت أبي أن يسلم

لخطاب ورد الي رسالتي . وهـذا يدل على مبلغ مماكسة الحكومة لى في تعيين محامين للمتهمين وهاك كتابه لى :

القاهرة فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٨٢

سيدى :

بناء على التعليمات الواردة الى رئيس حكومة جلالة الملكة ها أنا ذا أرد اليك كتابك المرسل الى عرابي طي كتابك المرسل الى بتاريخ ٢٢ من الشهر السابق.

ادوارد ماليت

اما كتابي الى عرابي فكان كما يلي :

الى صديق الشريف أحمد عرابى باشا

انك كجندى ووطنى تدرك الاسباب التي منعتني من ان اكتب اليك أو أراسلك مدة هـذه الحرب المشئومة . اما الآن وقد انتهت الحرب فانى ارغب ان أريك ان صداقتنا لم تكن مقصورة على الالفاظ فمن الارجح انك ستحاكم وستكون تهمتك الثورة أو غير ذلك من التهم التى لا أستطيع معرفتها الآن ، فاذا لم يقدم عنك دفاع قوى بارع فانك تكون معرضاً لان يحكم عليك حكماً سريعاً . ولذلك عزمت بعد موافقتك على ان أسافر الى مصر لكي أقدم البينات التى تفيدك في المحاكمة وسيكون معى محام انجليزى شريف قادر على الدفاع عنك وقد أخبرت الحكومة الانجليزية عن نيتى هذه فارجوك أن توكلنى فى القيام بهذا العمل فى أقرب وقت لان رضاك ضرورى . ويحسن بك ان ترسل لى تلغرافا بالقبول وكتابا آخر توافق فيه على ان أقوم بمهمة الدفاع عنك . ويمكنك ان تعتمد على طول مدة اعتقالك فى ان عائلتك لن تحتاج الي شيء ما . والله يقوى قلبك ويمنحك القدرة على تحمل السراء والضراء .

ولفرد سكاون بلانت

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كرابت — سسكس — انجلترا

وكان جواب غلادستون قد جاء الى قبلما كنت انتظره ويظهر منه انه كان قليل

الميل الى محاكمة نزيهة وكان رأيه فى ذلك هو رأى وزارة الخارجية . وكان الجواب مرسلا عن واسطة هاملتون وهو :

١٠ شارع دوننج .

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لقد قرأ مستر غلادستون الكتاب الذى بعثه اليه بخصوص محاكمة عرابي واقتراحك تعيين محام انجليزى للدفاع عنه . وكل ما يستطيع أن يقوله لك الآن انه سيعرض طلبك على لورد جرانفيل الذى سيستشيره في هذا الموضوع ولكنه لا يمكن أن يؤكد لك منذ الآن بأن طلبك سيجاب »

ولم يكن هذا الكتاب رفضاً باتاً ولكن التثبيط ظاهر فيه . وقد أضاف هاملتون بعض عبارات تزيد قوة هذا التثبيط إذ قال في خطاب له : « اعترف بأني كلما فكرت فى المصاعب التي تخطر ببالي أجدها تزداد عدداً باقتراحك هذا . وستعرف عن هذا الموضوع بعد يوم أو يومين أشياء كثيرة . ولكنك لن تسمعها لأني كلما سبق ان أخبرتك عازم على السفر »

فبقيت فى شكوك بينما كانت الحالة تزداد حرجا كل يوم . ولم أكن أحسر على السفر الى مصر قبل ان احصل على جواب فاصل لأن وجودى فى القاهرة لن يكون منه أقل فائدة مالم أكن حاصلا على سلطة من الحكومة . وربما كان لا يسمح لى بان أقابل المتهمين . وكان برودلى قد سئم الانتظار وسافر الى تونس . وكان فصل البرلمان قد انتهى وأكثر الناس كانوا يغادرون لندن وكان الوزراء يوكلون وكلاءهم فى القيام بأعمالهم وركدت حالة الاشغال

وكانت الصحف فى أثناء ذلك تتناقش في مسألة اعدام عرابي وكانت صحف النزعة الحربية يصرخن مطالبات باعدامه ولم يكن يسمع الاحتجاج على هذه الاقوال الا من النواحي الضعيفة . وكانت اللجنة المصرية التى الفهاسير ولفرد لوسون فيالصيف وقد أدت إذ ذاك بعض الاعمال الطيبة قد سكتت وأرسل لى لوسون نفسه كتاباً مملوءاً باليأس قال فيه :

« أني اشك كثيراً فيما اذا كانوا سيسمحون لعرابي بأن يحاكم محاكمة نزيهة :

لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم اذا فعلوا ذلك سيحكمون على انفسهم. والسياسيون احذق من أن يقعوا فى هذا الفخ . وعلى كل حال أنت مصيب فيما تحاوله من انالتهم شيئاً من الانصاف »

وكان كل مايمكنني ان أعمله هو أن أبقى في لندن الح على رئيس الوزراء باجابة طلباتي وأوعز الى التيمس بكتابة ماأريد . وبعد ان انتظرت اربعة ايام كتبت الى غلادستون الكتاب الآتي أطلب منه جواباً قاطعاً وذلك لأن الحالة فى القاهرة كانت قد بلغت درجة خطرة

«٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كتبت اليكم منذ عشرة ايام بصدد إرسال محام للدفاع عن عرابى باشا وسائر المعتقلين من الزعماء الوطنيين فى حالة محاكمتهم وكذلك اخبرتكم عما نويته من السفر الى القاهرة لكي اتولى تقديم البينات التى تفيدهم ولكي ارقب الاجراءات . وقد رجوتكم بأن تبلغوني في أقرب وقت قراركم بهذا الصدد

وقد كان جوابكم الذى ارسلتموه بواسطة هاملتون جملي اعتقد أن اقتراحى سينظر فيه وأن كنتم لاتؤكدون باجابة طلبي

وبناء على ذلك قد اتفقت مع أحد المحامين المشهورين على أن يدافع عن المعتقلين فى حالة رضى الحكومة بان يدافع عنهم ولكي احصل على موافقة هؤلاء المعتقلين بان يدافع عنهم محام كتبت الى عرابي باشا عن سبيل سير ادوارد ماليت أرجوه بان يوافق على أن أرتب الدفاع عنه ولم يصل الى الرد للآن . وكذلك لم يصلنى منكم أو من لورد جرانفيل كتاب للان .

وقد قرأت فى التيمس رسالة من مكاتبها فى القاهرة يقول فيها انه قد تقرر أن يحاكم المتهمون امام محكمة عسكرية سيذكر أعضاؤها . وهذا هو نص الرسالة : « ستعين المحكمة العسكرية لمحاكمة جميع المتهمين غداً . والخديو وشريف ورياض يلحون الحاحاً كبيراً فى ضرورة اعدام الزعماء وهذا رأى يكاد يجمع عليه الجميع الا القليلين »

وقد قال لى شريف وهو رجل معروف بأنه مفطور على اللطف والرأفة : انى

لا أطلب موت المتهمين لأني أحقد على أحد منهم ولكن لأن موتهم ضروري للامن العام في هذه البلاد وليس من ينكر فائدة الحملة الانجليزية ولكننا لا نريد أن تأتينا الجيوش كل اثنى عشر شهراً »

فاذا كانت هذه الرواية صحيحة فانها تؤيد ما كنت أتوجس منه من ان مستشاري الخديو ينوون قتل هؤلاء المعتقلين وهي أيضاً تبرر ما سبق ان قلته من ان المحاكمة لن تكون نزيهة فلذلك أعود الآن وألح في وجوب منح المتهمين حق الدفاع الشرعي عن أنفسهم . وأرجوك لكي تخفف آلام الشكوك والمسئوليات فتخبرني صراحة هل تنوي الحكومة أن تسمح لمحامين انجليز بالدفاع عن المتهمين أم لا . وهل تعطي لي التسهيلات التي وعدت بها في مكاتبة المتهمين والحصول على مترجمين قادرين لترجمة أقوالهم .

وليس يمكنني في حالة الشعور الراهن بين الموظفين ان أعمل أنا أو سواي شيئاً لمصلحة المتهمين ما لم تحصل على الحماية والمساعدة السياسية .

وصيرورة الحالة وحراجتها هما عذري في رجائي لكم بسرعة الرد

ولكن هذا الكتاب لم يصل الى مستر غلادستون لانه كان قد برح لندن وكان سكرتيره الذي يتسلم ما يرد اليه من المكاتبات هو هورس سيمور فأخذ كتابي هذا وأرسله الى وزارة الخارجية . وكتب الى يقول .

« بالنسبة لغياب مستر غلادستون وقت وصول كتابك أرسلت مضمون طلباتك اليه الى وزارة الخارجية . وقد فعلت ذلك لانه كان قد سلم كتابك السابق اليه الى لورد جرانفيل كما أخبرك بذلك هاملتون ولأني فهمت من رقعتك أنك توافق على هذا العمل وفيها أيضاً توفير للوقت. وقد علمت ان لورد جرانفيل سيرسل اليك رداً رسمياً يوضح فيه رأي الحكومة عن المسائل التي عرضتها »

وعلى هذا فهمت ان مستر غلادستون قد رفع عن نفسه مسئولية قول « نعم » أو « لا » وألقاها على عاتق لورد جرانفيل . ولما لم يكن جرانفيل أيضاً بلندن فانه لم يبق سوى كتبة وزارة الخارجية الفصل في المسائل التي عرضتها على مستر غلادستون وعلى الرغم مما قاله سيمور من أن الحكومة سترسل لي رأيها فاني لم اتسلم سوى

رسالة موقعة بامضاء جوليان بنسفوت يقول فيها ان مستر غلادستون قد احال رسالتي الاثنتين على لورد جرانفيل وان لورد جرانفيل يأسف لانه يشعر أن ليس له الحق في مكاتبتي عن هذا الموضوع . وهكذا تخلى مستر غلادستون عن المسؤلية التي حاولت أن اربطه بها وكان قد عقد نيته على ان يقتل عرابي وكانت هذه أيضاً نية رجال وزارة الخارجية . وقد شرحت تفاصيل هذه المسألة لاهميتها التاريخية ولكي اري القارىء ذلك المكر الذي كانت تلجأ اليه الحكومة .

وقد قر رأيي بعد ذلك على ان لانضيع منى فرصة اخري فتشاورت مع باتون ولورد دلاوار الذي كان قد أتي الى لندن وعرض ان يدفع نصف نفقات الدفاع عن عرابي (ولكني الاحظ هنا انه لم يف بوعده) وقر رأينا على ان نرسل الى مصر اول محام نجده يكون خاليا من الاشغال لكي يكون مساعدا لبرودلي الذي كان في ذلك الوقت في تونس . فيعمل مايمكنه عمله في القاهرة حتى يصل اليه برودلي . ولم يكن لورد جرانفيل موافقاً علي وجود محامين للمتهمين . ولكن التيمس كماسبق أن ذكرنا كانت قدقالت عن الحكومة انها لن تسمح بقتل عرابي الابعد موافقتها وانه سيدافع عنهم محامون مهرة : ولم يكن لرجال الحكومة قوة علي تكذيب مانسبته اليهم التيمس علنا . وكان نفوذ باتون عند رئيس تحرير التيمس كبيراً لدرجه انه صار واثقاً من انه يستطيع ان يجعل لورد جرانفيل يقبل وجود محام انجليزى بالالحاح على هذا الطلب في جريدة التيمس

وعلى هذا ذهبنا في ذلك اليوم الى مكاتب المحامين للبحث عن محام ولكننا وجدناها خالية لاننا كنا في اوقات العطلة ولكننا وجدنا في الساعة الاخيرة الرجل الذي كنا ننشده وكان هذا الرجل مارك نبيار ولم يكن يفضله أحد في سعة الحيلة ومعرفة القانون وقوة المعارضة . وكان يمتاز أيضاً بانه ابن سفير فكان يعرف الاساليب السياسية ويجيد معرفة الفرنسية وهي ذات قيمة كبرى في القاهرة . فلما رضي بالذهاب واعطيناه ماسمح به الوقت من المعلومات اخبرناه بان يذهب رأسا الى مالت ويخبره بانه قد حضر لكي يدافع عن عرابي ويلح في مقابلة موكله . وهذا كان كل مايستطيع ان يعمله وهو اذا قدر علي ذلك فقد أدي عملا عظيما . فاذا رفض مالت

طله فعليه ان يحتج وان يستفيد من كل حادثة لمصلحة المتهمين . ثم عليه ان لا ينقطع عن اخبارنا عما يحدث كل يوم بالتلغراف ونحن هنا لن نسكت عن المطالبة في الصحف وفى وزارة الخارجية حتى يجاب الى ما نطلبه . ولم يكن مارك نيبار ممن يتحدثون بوقار السياسة وحرمتها لانه كما قلت كان ابن سفير وكان يعرف دخائل السياسة . وسافر تلك الليلة عن طريق برنديزي ومعه بعض كتب التقدمة وجدول ارقام للاستعمال في ارسال التلغرافات . ولم يكن معه من الامتعة سوى حقيبة يد

أما انا فقد الح على دلاوار فى ان لا اذهب الي القاهرة لانه كان يعرف حنق وزارة الخارجية علي .

وذلك لانى لو كنت بالقاهرة لوضعت تحت مراقبة الجواسيس أو ربما كانوا قبضوا على ورودي الى انجلترا في حين انى بيقائي هنا في انجلترا يمكنني ان أولى الحملات من الصحف اللاتي كان فى مقدورهن وحدهن ان يكسبن القضية لمصلحتنا . وقد تمكن باتون فى تلك الليلة من عمل مهم فى التيمس وذلك ان دلاوار كان قد حصل على تأكيد من جرانفيل بان الخديو سيمنح المتهمين جميع الفرص التي تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم . وكان هذا التأكيد لا قيمة له من حيث الحصول على محاكمة نزيهة لان جميع المحامين الذين كان يمكن المتهمين ان يستخدموهم كانوا من رجال سواحل البحر المتوسط الشرقية ولم يكونوا يفضلون المحامين الوطنيين بشيء . ولكن استخدام حكومتنا لمثل هؤلاء المحامين كان يرفع عنها عبء انتقاد الجمهور وكانت في الوقت نفسه تستطيع ان تنفذ أغراضها وتعدم المتهمين .

وكانت النية أن تنتهى محاكمة المتهمين فى المحكمة المصرية في يومين فاذا ما ثبتت عليهم ادلة الثورة عوقبوا فى الحال بالاعدام وفى هذه الحالة يرفض قبول المحامي الانجليزى باعتباره أجنبياً ليس له حق التدخل

وكانت العبارة التى فاهها جرانفيل أمام دلاوار لا تزيد عما يأتي: « ليس عندى ما يجعلنى أشك في ان الخديو وهو صاحب السلطة الشرعية سيمنح المتهمين جميع الفرص المعقولة للدفاع عن انفسهم مادام لا يؤدى هذا العمل الي تأخير غير ضروري أو غير عادى وعلى المتهمين أو اصدقائهم ان يتخذوا ما يناسبهم من الاحتياطات تحت مسؤليتهم

فأخذ بانون هذا التصريح وكتبه فى التيمس بالشكل الآتى :

« كتب لورد جرانفيل يقول ان جميع التسهيلات المعقولة ستمنح للمعتقلين فى مصر هم واصحابهم لكي يعينوا لهم المحامين عنهم وبناء على هذا قد أرسلت تلغرافات الى مستر برودلى بأن يقوم فى الحال ويسافر الى مصر »

وظاهر من المناقشة الشديدة التى جرت بين لورد جرانفيل ولورد ديلاوار كيف تخلص جرانفيل من تفسير كلامه على هذه الصورة (انظر الكتب الزرق) ولكن نشر هذا الخبر في التيمس بهذه الصورة وضع لورد جرانفيل في مركز لا يستطيع أن يرتد عنه وهكذا أمكننا بهذه الحيلة ان نقمس يديه على الرغم منه مرة أخرى فى المسألة (١)

ومع كل ذلك كدنا نفقد كل شيء . وذلك لعودة كوامن الصحائية الى القاهرة مرة أخرى . وهو ثانى اثنين (هو والخديوى) يخشيان علنية التحقيق . وكان عرض وزارة الخارجية فى ذلك الوقت تعجيل المحاكمة والانتهاء منها قبل وصول برودلى من تونس . وذلك لان تونس كانت ولا تزال غير متصلة مباشرة بمصر وكان المرجح ان تنتهي عشرة أيام قبل وصول برودلى الى مصر . ولم يكن عندهم علم بانا أرسلنا نبيار . فاعطيت لذلك الاوامر فى الحال بنقل عرابى من اعتقال الانجليز وإرساله الى سجن الخديو حيث لا يمكن أحداً ان يزوره وفي الوقت نفسه ترفع المسئولية عن عاتق الحكومة الانجليزية . وقد عمل هذا العمل يوم ٤ اكتوبر أى قبل وصول نبيار بيومين فقط . وحدد يوم ١٤ اكتوبر للمحاكمة بيما لم يتمكن

(١) لقد قيل لى حديثاً بان تأييد التيمس لنا فى وجوب محاكمة عرابى محاكمة نزيهة كان الغرض منه خبيثاً وذلك لانها كانت ترغب ان تتحمل الحكومة المسئولية حتى ينتهي ذلك بالسيطرة على مصر ولكن لم أسمع ما يشير الى هذه النية فى ذلك الوقت ولا زلت أحب ان اعتقد ان الباعث على تأييدنا هو العواطف الشريفة التى هي من أفضل تقاليد جريدة التيمس وأيضا ما عرف به شمرى رئيس التحرير من طيبة القلب .

برودل، من الوصول الى مصر قبل يوم ١٨ منه . ولم يعد هذه التدبيرات سوى ظهور نبيار الفجائي فى القاهرة .

ولكي يجعلوا الدفاع شاقا ويعجلوا المحاكمة جعلوا القانون الفرنسي هو المعمول به في المحكمة العسكرية . وهـذا القانون في حكومة لاترعى الذمة آلة قوية للاتهام . فبناء على هذا القانون يجوز استجواب المتهمين والشهود قبل أن يروا محاميهم ويستشيروهم وبهذه الطريقة لايستطيعون ان يقولوا شيئا خشية ان يواجهوا بماسبق ان قالوا فى استجوابهم الاول . ثم ان خصيان الخديو الزنوج كانوا يزورون المتهمين فى الفترات التى يكونون فيها في السجن فيضربونهم ضربا مبرحا لـكي يلقوا الرعب فى قلوبهم ويكسروا انفسهم وعزة نفوسهم . وبعد كل هذا اعلنت الحكومة المصرية ان الدفاع عن المتهمين لا يكون ألا باللغة العربية وعلى هذا صار لا يمكن ان يدافع محامونا عنهم . وقد ارسل لى نبيار هذه الاخبار بالتلغراف

وكان كل ما فعلته الحكومة الانجليزية لمنع الخديو من التمادي فيما كان يرتكبه من المظالم وضروب العسف السافل فى اشخاص هؤلاء المتهمين انها عينت اثنين م الانجليز لـكي يشرفا على التحقيقات . وكان هذان الاثنان رجلين شريفين ذوى مروءة . فكان أولهما سير تشارلس ولسون الذى رافقني فى سياحتى من حلب الى أزمير ومستر اردرن بيمان الذى كنت أعرفه فى دمشق وكان فى هذا الوقت المترجم الرسمى عند مالت فى الوكالة . وكان كلاهما يعرف العربية وقد تأثر كلاهما من وقار عرابي وقت المحاكمة والاعتقال وكانا يعطيان نبيار مايحتاج اليه من المساعدة

وقد نجح نبيار فى ان يجعل مالت يعترف بمركزه كوكيل لعرابى ورفقائه كما اعترف أيضاً بمركز ايف كمحضر للدعوى . ولـكن نبيار لم ينجح فى ان يحصل منه على وعد بأن يكون المحامي عن عرابى انجليزياً . وكان مالت يسوف في اجابة طلب نبيار فى رؤيته موكله أى عرابي بان يحيله على الدوام على رياض باشا وزير الداخلية فى وزارة الخديو وكان هذا يرفض طلبه على الدوام . وطول هذا الوقت كانت التحقيقات تجرى بسرعة فتبين لنبيار انهم يخدعونه وان ستنتهي التحقيقات والمحاكمة قبلما يؤذن له بالدفاع عن المتهمين

وبينا كانت الاحوال فى هذا المأزق إذا برسالة جاءتني من دلاوار فى ١٢ اكتوبر يقول فيها « اذا لم تتخذ اجراءات شديدة فان حياة عرابي فى خطر . ولا بد انك قد تسلمت معلومات عن ذلك من بيبار »

وعلى أثر هذا الخبر السيء خرجت فى الحال وذهبت الى باتون فوجدته لحسن حظي فى مكتبه وكان معلوماته توافق معلوماتي فقر رأينا على أن نلجأ الى الجمهور ونناشده بخصوص محاكمة المتهمين وان نحمل على وزارة الخارجية ونجبر مستر غلادستون علي اعلان خطته . فجلست وكتبت كتابا نهائيا الى مستر غلادستون عبرت فيه عن غيظي من جرانفيل وعددت جميع التهم التى اتهمه بها ولم انس ان اتهمه علاقته بجميع تفاصيل المسألة وعطفه القديم على الزعماء الوطنيين ولم ننتظر جوابا لان باتون وضع هذا الكتاب فى مكان ظاهر فى التيمس التى كتبت مقالا افتتاحيا تعليقا عليه وذلك كله انما كان بمساعدة شيري رئيس التحرير وعطفه على مساعينا . وكان باتون قد عرف ان المحاكمة ستبتدىء يوم الاحد وان الحكم سينطق به يوم الاثنين ويتبع ذلك اعدام عرابي مباشرة . وكان اليوم وقتئذ الجمعة فكان لا يزال امامنا ثلاثة أيام (وكان احدها الاحد ولا تصدر فيه الصحف) لايقاظ الرأي العام . وكانت هذه الايام القليلة كافية لحسن حظنا لذلك

واظن ان هذا الوقت هو الفرصة التي انتهزها برايط وذلك عندما قرأ كتابي الى التيمس فذهب الى غلادستون واخبره بأنه سيعد في التاريخ جاحداً المبادىء الانسانية اذا هو سمح بارتكاب هذه الجناية العظيمة . وسواء أصح هذا ام لم يصح فان وزارة الخارجية سلمت به واقرت بضرورة المحاكمة العربية وكتبت الى ماليت بان لا يعترض علي وجود المحامين عن عرابي . والتلغراف التالي الذى ارسله لي بيبار يدل على نجاحنا

« أرسل جرانفيل الى ماليت يشير عليه بان يدافع عن عرابي محام انجليزي . والمنتظر أن الاجراءات ستطول »

وقد رأيت أنه من الضروري أن أذكر تفاصيل المصاعب الاولى التى اعترضتنا فى سبيل محاكمة عرابي لأني لا يمكنني بدون ذلك أن أمحو أثر تلك الاسطورة التي راجت فى مصر وخلاصتها أنه كان هناك اتفاق سري بين عرابي

وغلادستون بانه لن يعدم . في استطاعتي ان اثبت بالوثائق التى تحت يدى ان غلادستون لم يكن ينظر الى المتهمين بروح الرأفة — دع عنك الاتفاق معهم - بل بالعكس كان يجارى حراميل فى السعى فى اعدام عرابي بواسطة الخديو وذلك بايجاد محكمة تحاكمه محاكمة صورية لكى يبرروا غلطاتهم وتورطاتهم في الستة الاشهر الماضية في مصر . ولم يكن وخز الضمير هو الذى منع غلادستون من السير فى خطته الى النهاية بل أن صوت الجمهور الانجليزى هو الذى أخافه وأنذره بالخطر الذى يهدد شهرته اذا هو مضي فى طريقه الى آخرها . وهذه هي الحقيقة التي أراد أصدقاء غلادستون أن يستروها حفظاً لسمعته - ولا عبرة أيضاً بما تقوله الكتاب الفرنسيون من التجاء غلادستون الى الرفق بعد العنف من جراء ماظنوه من وجود علاقة خفية بين غلادستون وعرابي .

ولما انتهى دور الخطر هذا لم يكن من الصعب أن يتنبأ الانسان بأن نتيجة المحاكمة ستكون سلبيه . فان المحاكمة الصريحة فى محكمة علنية ووجود محام انجليزى ينبش بمعرفته أقذار الخديو ويكشف عن الجرائم المخبوءة — كل هذا لم يكن مما يفكر فيه الخديو الا وهو يرتجف خوفا . ثم أن التحقيق العلني هذا كان من شأنه أن يفسد على الحكومة الانجليزية تدابيرها ويهدم نظريتها عن الحوادث الماضية التى بنت عليها معاذيرها لاتخاذ خطة العنف . ثم أن السلطان كان في حاجة الى عدم افشاء أسراره . ولم يكن الخوف على حياة المتهمين قد زال ولكن الامل كان كبيرا في الوصول الى تسوية اذا لم يمكن الحصول على البراءة . وقد ظهر التغيير في الحالة فى القاهرة منذ ١٦ الجارى كما تدل على ذلك التلغرافات التالية . وسأقص بقية قصة المحاكمة كما وصلتنى فى التلغرافات والكتب :

من نيبيار الى بلنت فى ٢٠ اكتوبر

« يظن ان الحكومة المصرية ستجتهد في الغاء المحاكمة وان الرؤساء والزعماء من المتهمين سيطلب اليهم مبارحة البلاد فقط . وليس عندي من المعلومات مايمكنني من الحكم فى قيمة هذا الخبر ولكنى أظن انه غير مرجح »

وهناك تلغرافا آخر ارسله الى برودلى وكان قد وصل في يوم ٢٠ اكتوبر الى القاهرة

« اعلن بوريلي بك النائب العمومي في الحكومة المصرية انه ليس للحكومة قانون أو اجراءات تتبعها ولكنه اقترح علينا ان نتفق على الاجراءات . وصرح لنا أيضاً بان أعضاء المحكمة اعقال لايفهمون . وهو يرجو ان لا أمس السلطان والخديو الا بكل مايمكن من اللطف والرفق »

من نيبيار الى بلانت فى ٢٠ اكتوبر

« أظن انه يمكننا الآن ان نتقدم للدفاع دون ان نخشي شيئا . ان الاذن بالمحاكمة لا يقل قيمة عن عرش الخديو نفسه »

وكان الخطر الذي يواجهنا هورغبة وزارة الخارجية فى ان تتوسل بجميع الوسائل لاتهام عرابي بتهمه ماتقتضي اعدامه . فقد كتب الىشيفرى يوم ٢٠ اكتوبر يقول : « بين العظماء هنا شعور شديد ضدعرابي وذلك لما يزعمونه من أنه كان له يد في مذبحة الاسكندرية او انه اغضي عن المجرمين فيها »

ولكن هذا الخطر لم يظهر شديداً فى القاهرة وكان فى الحقيقة ابعدمايمكن ان يوجه الاتهام نحو عرابي . لان الجاني الحقيقي فى مذبحة الاسكندرية هو الخديو وليس في التحقيقات ما هوجدير بلفت النظر أكثر من غموض الاتهام وتجنبه السؤال عن هذا الموضوع ثم عدم ظهور أى بينة تثبت تهمة احداث المذبحة على أى شخص ومع ذلك كانت هذهالمسألة ذات اهمية كبرى فى اعتبار حكومتنا من حيث وجوب القاء التبعة على عرابى نفسه . لان هذه المذبحة هي الاساس الذى بنت عليه حكومتنا خطة التدخل عنوة والقتال وبدون هذا الاساس تسقط الحجة الادبية للتدخل

ويمكن ان يقال هذا أيضاعن سوء استعمال الراية البيضاء وقت اخلاء حصون الاسكندرية . وهذه مسألة كان غلادستون نفسه لايفتأ يكررها مع ان رفع الراية البيضاء من الامور المسموح بها فى الحروب . فهاتان التهمتان أى مذبحة الاسكندرية ورفع الراية البيضاء وقت التقهقر كانتا من اهم مايمكن اتهام عرابي به تذرعا الى الحكم عليه بالاعدام لان الجمهور الانجليزى لم يكن يعبأبالتهم السياسية ولايرضي بان تكون سبباً للحكم بالاعدام

وفى أثناءذلك كانت الاحوال تجرى على مايرام في القاهرة؛ ففي ٢٢ منه اذن لبرودى

ونبيار ان يدخلا الى غرفة عرابي وعرفاهما الخبر ثم به كيفية تهيئة دفاع قوى عنه. وكان موقف عرابي وهو فى الحبس علوءاً بالوقار لانه مهما قيل عن شجاعته المادية كان على مبلغ كبير من الشجاعة الادبية . وكانت هيئته وسلوكه لذلك عند مقابلتهما بسلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر . فقد كتب دون ان يتردد تاريخ المسائل السياسية التى اشترك فيها باجمعها وكانت روايته صريحة مقنعة . ولم تكن صراحته دون ذلك أيضاً عند ماروى ضروب الاساءات التى عامله بها اولئك الاوغاد السفلة خصيان الخديو توفيق عندما نقلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقائه فى هذا السجن

فقد كان مولاهم الخديو يرسلهم فى الليل فيضربونه ويشتمونه هو ورفقاءه ولكن رفقاءه لم يصرحوا لما فيهم من نقص الشجاعة الادبية بما نالهم من الجرائم التى انغمست فيها يد ذلك الظالم الجبان الذى صار رئيسهم الآن . فليس هناك اسوأ ولا ادعى الى الاسف من موقف الجبن والنذالة الذى وقفه المهمون ازاء الخديو الذى كانوا يكرهونه ويحتقرونه منذ شهر فقط . وكان من الحوادث المهمة استخراج اوراق عرابى التى كان محبوءة فى بيته والتى اخبرهو برودلى بها لاحضارها . وقد كان من الصعب جداً اقناع زوجته وابنها وهما مروعان بضرورة البحث عن هذه الاوراق وتسليمها للمحامين عنه وسبب ذلك ان خدم الخديو كانوا قد زاوروهما أيضاً . وأخيراً احضر محمد سيد احمد خادم عرابي هذه الاوراق وسلمها الى برودلى . وكان لهذه الاوراق أهمية كبرى لانه وجد بينها كتباً من السلطان ومن غيره لعرابي . وقد أدى خبر وجود هذه الاوراق الى القاء الرعب والفزع بين أهل السراى وصار احتمال ترك المحاكمة أمراً مرجحاً

فقد كتب الى نبيار فى ٣٠ اكتوبر يقول : «اعتقد اننا قد ملكنا ناصية الحال الآن وان الخديو وعصبته يودون لو يستطيعون الخروج من المأزق الآن بترك المحاكمة فى اقرب وقت . وقد تمكنا بواسطة امانة خادم عرابى وولاء زوجته من الحصول على جميع اوراقه ماعدا واحدة فقط . والاوراق محفوظة الان فى خزانة حديدية فى غرفة بيان فى القنصلية ... ولن تستطيع الحكومة مواجهه دفاعنا وسيقترحون علينا

من تسوية كالتى مع عدم مصادرة الاملاك . وماذا عكننا ان نعمل اكثر من ذلك فاظن ان هذه مسألة سندرسها قريباً »

ويجب ان نلاحظ هنا ان التغير الذى أصاب الحالة السياسية فى القاهرة قد وجد له صدى في لندن بين الصحف . فقد كانت القاهرة حافلة بمكاتبي الصحف وكان برودلى من مهرة الفن الصحافى فلم يمض عليه قليل زمن حتى جعلهم فى صفه . وكان كرمه (على حسابي) كرم اسراف وبذخ فلم يكن يضن بالدجاج والشمبانيا . اما مالت وكولفن اللذان كانا يتفوقان فى الزمن السابق فانهما لم يقدرا على صد التيار الآن وصارت الاسرار تفشى وتهدم النظرية التى سوها التدخل بان عرابي وحيشه هما وحدهما فقط اللذان كانا يعارضان فى المطالب الانجليزية وان الحركة الوطنية لم تكن عامة . وكان مقام كولفن قد تزعزع فى وزارة الخارجية وصار يعتبر كأنه مضلل اما مالت فقد ثبت عدم كفايته تمام الثبوت : وهاج محاجنا هذا لورد جرانفيل ولما رأى أن الحالة في مصر تسير الى ارتباك لا يرجى له نظام احال المسألة جميعها الى لورد دوفرين لكي يصل الى تسوية ما وكان هذا العمل افضل ما عمل . وقد أخبرنى ماتون عن هذه الحركة الجديدة وان أول اعمال دوفرين عند وصوله الى القاهرة سيكون ايجاد تسوية في المحاكمة . وقد ارسلت فى ذلك الوقت كتابا إلى برودلي بالنسبة إلى هذا الموقف الجديد وهو جدير باثباته هنا :

من بلنت إلي برودلى فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

ارغب فى أن ابين لك مرة اخرى افكارى وآمالى فى قيامي بامر الدفاع عن عرابى وعن رفقائه لانه اذا تحققت هذه الامال فاني اجد فيها مايعيضنى عما انفقته من الاموال بل اجد فيها اكثر من ذلك . فعندي ان الغرض الاصلى من الدفاع كان تخليص حياة المتهمين واظن انا قد حصلنا على هذه النتيجة وذلك لان حالة الرأى العام الانجليزى وعدم نجاحهم في الصاق تهمة فتنة يونيو وحريق الاسكندرية على عرابي يرجحان ذلك

وليس باقياً فى البينات ما يمكن ان يضع حياة المتهمين فى خطر . ومنذ وصولك الى القاهرة وبما اظهرته من البراعة وما اصبت من التوفيق قد صرنا نعد انفسنا الآن

سعداء. فأوراق عرابى بدلا من ان تكون فى وزارة الخارجية قد صارت الان فى يده وانت الآن تخبرنى بأن دفاعنا سيكون وجيها اذ قد حصلنا على مركز نستطيع منه ان نملى شروطنا على الخصم وعلى هذا لن نقنع باقل من البراءة الشريفة او ترك المحاكمة وترك المحاكمة هو المرجح الآن فقد أمر لورد دوفرين بالسفر الى مصر وأخذ رئيس الوزارة امس فى فحص الحالة وهل يمكن عمل تسوية . واسمع انه سيقدم مقترحا بشأن الوصول الى اتفاق مانجنا الفضائح التى تنتج عن افشاء الاسرار

فليس يتوقف علينا تخليص حياة عرابى فقط بل شرفه وحريته وأيضاً حرية المساجين السياسيين المتهمين معه

« واعتقد ان لورد دوفرين سيجتهد غاية جهده فى ان يجعل عرابى يرضى بالنفى فى جزائر اندمان او فى مكان آخر فى الامبراطورية الانجليزية حيث يبقى سجيناً يعامل بالرفق ولكن لا يؤذن له فى التجول . وأظن أيضاً انه سيحاول الحصول على أوراقه . ولكن يجب الا ينجح لورد دوفرين فى هذين المسعيين ويجب ان تردوا عليه كل مقترحاته التى من هذا النوع وتقابلوها بالرفض . فليس من واجبنا ان ننخر للخديو او للسلطان شرفه او ان نخلص لورد دوفرين من المآزق التى يجوزها . وأنى سأعتبر فشلنا عظيما جداً اذا لم نحصل على اكثر من ذلك . ثم اظن انه يجب على عرابى ان يطلب اولا ان يحاكم محاكمة نزيهة لكى لا يجرح شرفه ولكى يثبت أيضاً براءة جميع الذين اشتغلوا بصفة مدة الحرب وهم جميع افراد الامة . والا فاذا لم تكن النية محاكمته فيجب سحب جميع التهم التى اتهم بها . ويجب ان يصدر عفو عام وان وان لا تأخذ منه اوراقه وان كان يمكن الاتفاق معه على عدم نشرها مدة معينة من السنين . ولا يمكننا فى الظروف الحاضرة ان نعارض كل المعارضة فى النفى لانه لا يمكن ان يقال عندئذ ان فى قدرة الخديو نفيه بواسطة قرار . وهذا العمل من مصلحتنا لان دستور سنة ١٨٨٢ يمنع الخديو من استعمال هذا الحق . ويجب هنا ان نعتبر هذا الدستور وثيقة كبيرة الاهمية لان السلطان قد اقره بعد ان منحه الخديو . ومع ذلك يجب ان نرفض السجن فقد يستطيع السلطان نفيه من السلطنة العثمانية ولكن ليس لاحدهم الحق فى تعيين المكان الذي ينفى اليه

ثم لا يمكن الحكومة الانجليزية بعد ان سلمت عرابي الخديوي لكي يحاكمه تأخذه ثانياً وتعامله معاملة المجرم وهو لم يحاكم بعد . وقد ادركت الحكومة الانجليزية صعوبات ان تأخذ عرابي ثانياً . فبديهي اذن انه اذا لم يحاكم ويحكم عليه بجريمته يجب ان يخرج من مصر وهو حر . ثم لا يمكن شرعا ان يحرم من رتبته ومن ته . ولكني اعتقد انه سيرضي بان يبرح البلاد برتبته الحربية وبشيء من المال سوم بنفقته ويرد عنه الفاقة حتي لا يحتاج الى ان يكدح بيديه لكي يعيش . وهذه شروط تحفظ كرامة عرابي فيمكننا ان نلح في الحصول عليها والا فعلينا ان ندخل ن معمعة الدفاع ونجاهد بكل قوانا وأعتقد انك لن تصغي الى أي مقترح بخصوص محاكمة صورية لا يلمس فيها الخديو الا بكل لطف ورفق كما قال بوريلي . فأما أن ننشر جميع الحقائق الصحيحة واما ان تسحب جميع التهم . واني أثق بانك ستعاوننا في الحصول على هذه النتيجة دون ان تعتبر ما يمس احساسات القناصل والسفراء والولاة . فهؤلاء جميعهم لا قيمة لهم عندنا وانما يهمنا جداً لاهمية شرف عرابي . ولست أشك في أن مهارتك السياسية لا تقل عن مهارة دوفرين وقد استطعت ان تجعل مالت يفعل ماشئت وستجعل دوفرين أيضا يفعل ما ترغب . فاذا نجحت في ذلك فاننا لن نتناقش عن « اتعاب » الدعوى وطي هذا كتاب تقدمة الى لورد « دوفرين »

أما الكتاب التالى فهو من مستر بيان مترجم مالت الرسمي وهو شاهد لا يمكن انتقاص شهادته أو تجريحها ولذلك هي ذات قيمة تاريخية كبرى . وقد كان بيان يدير الوكالة البريطانية في القاهرة في بضعة الاسابيع التي سبقت ضرب الاسكندرية ولما كان يجيد معرفة اللغة العربية كان لذلك واقفاً على حالة البلاد الحقيقية أكثر من أى أحد آخر . وقبل أن يرسل لي هذا الكتاب كان قد عين لان يراقب التحقيق بالنيابة عن مالت وهذا هو الكتاب :

من بيان الى بلنت في ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٢

« . . اليوم آخر الايام قبل التأجيل . ورجال قصر الخديو هنا في تهيج وارتباك بشأن مجيء دوفرين . وهو سيصل هنا غدا . وقد كان قدوم برودلي شديد

الالم عليهم اما قدوم لورد دوفرين فهو الطامة الكبرى . واني أعتقد ان دوفرين سيعرف في الحال حقيقة صاحبنا توفيق والقول انه سيصغي الى كل من يتقدم اليه بقول ما . وعلى ذلك ستكون سفارته المؤقتة على معرفة بالحقائق أكثر من الوكالة الدائمة . وقد كنت أختلط بالاهالي قبل ضرب الاسكندرية ولذلك عرفت وجهة النظر الانجليزية والتركية والعرابية والتوفيقية . وجميعها يختلف بعضها عن البعض الآخر . ولما لم يكن أحد يثق بما أقول احتفظت بمعلوماتي لنفسي ولكني قدمت بعض الملحوظات المفيدة لسير تشارلس ولسون وهو الآن أكبر من يهم الموقف المصري من الرجال الرسميين وهو رجل شديد الحذر له نصيب كبير من المهارة وصحة الحكم وبواسطته تمكنت من ايصال بعض الحقائق الى مالت ولولاه لأخبرت مالت بنفسي عن هذه الحقائق . وأظن الآن ان مالت لم يعد يحترم الخديو أو يرى له أقل كرامة . وطول مدة الاجراءات كان يسلك معنا سلوك النزاهة الا فيما يمس مصلحته . . وانت تعرف مقدار ارتباطه بالخديو فهو الآن يذوق الكأس المرة ويرى الصنم الذى كان يعبده يتهدم امامه كأنه بيت من ورق . .

وأظن أن أعمال ابراهيم اغا وحده تدل على طبيعة الخديو . فقد سمعت الحكاية رأساً من القصر وكيف ان التيتونجي (أو حامل عليون الخديو) قد قبل يد الخديو وطلب أن يأذن له أن يبصق في وجوه المساجين وقد بحث سير تشارلس ولسون عن هذه القصة فوجدها صحيحة بأكملها . ومع ذلك ولكون هذه القصة تمس الخديو وتظهر للملأ قذارته قد اتفقوا على ان يتركوها وقد اقترحت عند ماحلف الشهود زورا أن يطلب منهم القسم بالطلاق ثلاثا وكاد سير تشارلس ولسون يوافقني على مقترحي ولكن انتهت المسألة بالاهمال والترك

« وامرة محوه لا تنكر الان هذه الاعمال . فهذا اذن هو الرجل الذى جئت الى مصر لحمايته (١)

---

(١) لقد شهد الشيخ محمد عبده بان حصبان الخديوى قد دعوا الى رجم الوطنيين في السجن وصر بوهم واهانوهم . وكان الشيخ محمد عبده نفسه أحد هؤلاء المساجين وقد وقعت به الاهانة مثل غيره .

« واذا لم يكن مركزى يمنعنى من ان ابوح للورد دوفرين بما أعرفه عن الخديوى اذن لاخبرته باشياء لو قيلت فى التحقيق لكان فيها طرد الخديوى من القطر ومع ذلك فاني ارجو ان تفشى هذه الاسرار . واول رجل يجب التخلص منه هو رياض فانه يمثل فى مصر دور ابليس . وقد قال منذ ايام : « ان المصريين ثعابين والطريقة الوحيدة لمنع تفشي الثعابين هو سحقها بالاقدام . وسأسحق انا المصريين وهو يسحقهم بالفعل الان »

وهذا الخطاب يصف حالة القاهرة فى الاسبوع الاول من شهر نوفمبر أى وقت وصول بعثة دوفرين . وكان من حظنا الحسن فى ذلك الوقت ان البرلمان كان منعقدا . فقد انضم الينا من اعضاء البرلمان عدد من ذوى القدرة على الكفاح مثل تشرشل وولف وغورست ولوسون ولابوشير وروبرت بورلا ولورد ماترز وايطن ولورد ويمس وعضوان أو ثلاثة من الارلنديين وكان مستر ويندهام هو العضو المحافظ الوحيد الذى انضم الى الاقلية التى كانت مؤلفة من ٢١ عضواً لمقاومة الحرب

الفصل الثامن عشر

بعثة دوفرين

لما وصل لورد دوفرين الى القاهرة فى ٦ نوفمبر اتخذت الاحوال شكلا جديداً . فقد كان رياض باشا وسائر وزراء الخديو يفعلون ما يشاءون ولم يكن عليهم من الرقابة سوى رقابة مالت الضعيفة . اما دوفرين فكان من عنصر آخر ولم يمض عليه طويل وقت حتى اظهر للخديو ان مركزه بالنسبة اليه ليس مركز مستشار بل مركز سيد يطاع . ولم يعر اقوال الخديو التفاتاً كبيراً وكذلك لم يلتفت الى روايات مالت بل فتح ابواب السفارة لكل واحد يستطيع ان يزوده بمعلومات عن الحالة . وقد تمكن ماكنزي وولاس فى بضعة ايام من الوقوف على حوادث مصر مدة السنتين الماضيتين ووضع كتابا عن هذه الحوادث هو اصدق ما رأيته من حيث صحة الروايات . وكان ماكنزي وولاس هذا معاون لورد دوفرين وكان لورد دوفرين على الرغم من كسله ينشط عند اللزوم ويعرف كيف يتوصل الى معرفة ما يحتاج اليه

قد مضى اسبوعان بعد وصول دوفرين ومحاكمة عرابي مستمرة وكانت تسيطر على هذه المحاكمة رغبة الخديو في اخماد الحقائق وشغفه بأن لا تفلت الفريسة من يده. وخير ما يدل القارئ على الحالة هو تلك الخطابات والتلغرافات التي كان يرسلها الى كل يوم كل من برودلي ونبيار ويتبين القارئ منها كيفية التدرج الى التسوية النهائية

من برودلي الى بلنت في ٦ نوفمبر

« اوافقك على جميع ما قاله وسأشتغل بكل تبصر . وانا الان هيء أركان الدفاع وهي تنحصر فيما يأتي :

« ١ ـ طهارة اغراض عرابي وشرفها

« ٢ ـ اتفاقه التام مع توفيق لغاية ١٢ يوليو

« ٣ ـ اتفاقه مع السلطان في جميع الاوقات

« ٤ ـ كون الحركة الوطنية كانت عمومية

« ٥ ـ كون تأليف المحكمة العسكرية غير شرعي

« ٦ ـ سخافة دعوى رفع الراية البيضاء

« ٧ ـ مروءة عرابي وتطرفه في انسانيته

« ٨ ـ الظلم الفاضح في جميع ما عمل قبل وصولنا

« ٩ ـ تعذيب المسجونين

« ١٠ ـ الخطابات التي ارسلها توفيق ضد انجلترا

« ١١ ـ اكاذيب صحيفة المونيتور

« وسأطلب اخلاء سبيل جميع المسجونين . ولا تذع مضمون هذا الخطاب . وكل ما أخشاه هو عظم النفقة التي تحتاج اليها مدة دفاعا فقد تستغرق ثمانية او تسعة اشهر . فضد عرابي وحده ٤٠٠ شاهد . . . وانا اصرف هنا بسخاء . فاني أولم الولائم لمكاتبي الصحف وتمكنت من جعل الاجشيان غازيت لسان حالنا وجعلت الرأى العام هنا يميل الى عرابي . وعندنا الان نحو ١٢ مترجماً تتراوح مرتباتهم من جنيه الى جنيهين ونصف جنيه في الاسبوع . . . وغيابي عن تونس هو بمثابة فقدان كل شيء هناك . فقد تركت جميع القضايا التي كانت بمكتبي وكان بعضها

فى غاية الاهمية . ويمكن بورك أن يخبرك بان عندى موظفين احدهما يتناول ٢٥٠ جنيهاً والآخر يتناول مائة جنيه فى العام .. فأرجوك ان تعتبر كل هذا . . . وكل ما اقوله الآن ان نجاح عملنا هنا يتوقف على الانفاق بسخاء ان لم يكن بتبذير . ثم اذكر ان كل انسان هنا ضدنا والناس هنا لا يشتغلون الا بأجر . . . فاجمعوا تبرعات باسم عرابى .. ولا تنس محاكمة تشبورن التى دامت ثلاثة اشهر . فقد تكون الحال هنا كذلك .. واعود فأقول ان كل شيء يتوقف على ما ننفقه . فلا تفكر بشأني وانما أذكر النفقات . . وانا اشتغل ١٦ ساعة في اليوم . . . ولا يمكن بتدبير خدمة نبيار »

من نبيار الى بلنت فى ٦ نوفمبر

« يظهر انك مرتاب فى جدول التهم التى اتهم بها عرابى . فهو للآن لم يرسل الينا بطريقة رسمية ولم يقدم الينا حتي تتم شهادة الشهود ولكن خلاصة التهم هي كما ذكرتها التيمس في احدى تلغرافاتها :

« ١ سوء استعمال الراية البيضاء

« ٢ — الاشتراك فى مذابح الاسكندرية ونهبها فى ١٩ يونيو

« ٣ — الاشتراك فى إحراق المدينة بالنار

« ٤ — اثارة الحرب فى ارض السلطان

« ٥ — التمرد على الخديو وعلى السلطان »

من برودلى الى بلنت فى ٧ نوفمبر

« اذا لم تكن تخشى النفقات فالنجاح مؤكد . . . أنظر خطابى المرسل اليك امس .

« والمسألة الوحيدة هي هل يفرج عن المعتقلين بدون محاكمة أو هل يتاح لهم ذلك بالدفاع عن أنفسهم . وانا مقتنع بأن الحكومة هنا تسعى لوقف التحقيق لان الحقائق التى ستظهر عند الاستجواب ستوقع جميع الموظفين الكبراء الموجودين الآن فى الحكومة فى خطر وتفشى أيضا أسرارا تشين الخديو . وقد ترضى حكومتنا الاتفاق مع عرابى لهذا السبب الاخير لانها تخشى ان تظهر المحاكمة اننا قد عبأنا الجيوش

وأحضرناها الى مصر وغزونا البلاد وقاتلنا الوطنيين دفاعا عن أسفل انسان فيها .
وانا شخصياً ليس عندي شك في ان الخديو وعمر لطفي هما اللذان دبرا مذبحة
الاسكندرية وذلك لكي يقضيا على نفوذ عرابي ومكانته اذ كان قد تحمل مسئولية
الامن العام . ولي يدي وثائق تؤدي الى نصف الطريق في اثبات ذلك ولكن لم
يأت الوقت بعد لاعلانها »

من برودلي الى بلنت في ١٨ منه (بالتلغراف)

« أعتقد اننا سنحصل على احسن تسوية . ولا تحمل على وزارة الخارجية .
اكتم هذا السر »

من برودلي الى بلنت في ٢٠ نوفمبر (بالتلغراف)

« لندن تفاوض دوفرين . رغبة الحكومة المصرية في التسوية قد قلت بالنسبة
لما تعتقده من تغير الرأي العام نحو عرابي بعد شهادة سليمان سامي بأنه أحرق
الاسكندرية . وهي شهادة مزورة »

من برودلي الى بلنت في ٢١ نوفمبر

« ستحدث قريباً أزمة شديدة . وأصدقاء الحكومة المصرية يؤكدون النية على
شنق عرابي . ابق في لندن »

من برودلي الى بلنت في ٢٩ نوفمبر

« لست أستطيع أن أصف لك مبلغ السفالة في مسلك الحكومة المصرية .
فهي لا تعتبر قواعد اجراءات المحكمة ورجالها يقولون انهم لا يبالون شيء لانهم
يتقاضون بالطرق السياسية لشنق عرابي »

من نيبيار الى بلنت في ٢٩ نوفمبر

« نحن نكافح جميع قوات الحكومة المصرية وليس من يساعدنا . ولكني
اعتقد أن لورد دوفرين سيأتي ويخلصنا في النهاية . ان الحكومة تنوي ان تقتل
هؤلاء المعتقلين ظلماً وعدواناً ونحن نجد ليل نهار لكي نحبط مساعيهم . وولسون
ودفرين يساعداننا ولكن الحكومة المصرية سريعة يقظة ولا ذمة لرجالها . أمامي
فبالضرورة نسير ببطء وحذر »

من برودلى الى بلنت فى ٢٦ نوفمبر

« تقترح الحكومة المصرية محاكمة عرابى على حدة . أرسل لنا رأيك بالتلغراف »

من برودلى الى بلنت فى ٢٧ نوفمبر (بالتلغراف)

« ارسلنا لك خطابات لبيان الحالة . عندى ما يجعلني أعتقد ان الحكومة ترضي بنفى عرابي ومحمود سامى وطلبة الى مدينة الـكاب أو أى مكان آخر اذا اعترفوا بتهمة الثورة وبالاستمرار على الحرب ضد أوامر الخديو وتحـكم على الباقين بالنفى البسيط أو العفو . أرجوك أن لا تبوح بشيء من هذا . وأنا ونبيار موافقان على هذه التسوية وذلك للصعوبة القائمة فى سبيلنا في نفي تهمة الاحراق الخ »

من بلنت الى برودلى فى ٢٨ منه

« لا أوافق على الشروط التي ذكرتموها . لا أوافق مطلقا على النفى في الكاب . سأستشير بعض أصـدقائى عن المال . ومركزنا السياسى قوي جدا . وسأرسل الرد النهائي بعد »

من برودلي الى بلنت . خطاب مؤرخ في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٨٢

(خصوصى ويجب عليه الرد بسرعة)

عزيزى بلنت

« أرجو منك ان تستعمل تبصرك وهدوء فكرك وحكمتك فى موضوع هذا الخطاب. لقد تحادثت اليوم مع دوفرين حديثاً طويلا وهو يتكلم معنا بلهجة الصداقة وأمامنا الآن ملف القضية . وليس يواجهنا من الصعوبات سوى مسألة احراق الاسكندرية . وليس هناك ما يبرهن على ان عرابي قد أمر بالاحراق . ولكن يبقى بعد ذلك حقائق كريهة . مثال ذلك انه لم يأمر باطفاء النار ووقف النهب ثم صداقته الحميمة مع سليمان سامي بعد ذلك ثم عدم معاقبته المجرمين ثم شرائه البترول بكميات كبيرة ثم الـكيفية المنظمة التى اتبعها الجنود فى احراق المدينة

« هذه هي الصعوبة . فهل لم يكن فى وسع عرابى وقف الحريق ؟ ثم ان خطبه السابقة فيها لهجة النار وتكاد توهم بالدعوة الى الاحراق

« واذا أقرعرابي ببعض التهم الرسمية كأن يعترف مثلا بعصيانه أوامر الخديو عند ما أشار عليه بالكف عن الحرب فانه عندئذ ينفى

« وعندئذ يكون المنفى مدينة الكاب مع الشاطىء الكاف . وأظن أنى أقدر ان أحصل له هو وسامي وطلبة على هذه الشروط

أما الآخرون فالنفى البسيط أو العفو . وأظن اني اقدر على أن أحصل له على مرتب بعد استصفاء امواله مع عدم تجريده من رتبته » واذا لم نرض نحن بهذا فان المحاكمة ستطول وقد يتغير الرأى العام . فتزيد علينا النفقات ولا تنس مع كل ذلك تهمة احراق الاسكندرية

« واذا افشيت شيئاً من هذه الاسرار فانك تؤذينا أكبر اذى . فتأمل فى كل هذه المسائل واذكر مسئوليتنا العظمى الخطيرة . ودوفرين يتودد الينا . ارجوك اذا وافقت على مقترحاتي ان ترسل لى بالتلغراف كلمة « سلام » واذا لم توافق وكنت ترغب ان نستمر في الدفاع فارسل لى كلمة « حرب » وانا مستعد ان اكافح كفاح الرجال الى النهاية المرة . ولكنى اعرض عليك كل شىء فتأمل وتدبر واذكر الطوارىء

صديقك المخلص

بردولى

من نبيار الى بلنت في ٢٧ نوفبر

عزيزى بلنت

ان مما يؤسف له جد الاسف ان مصلحة البريد قد وقفت على مكاتباتنا فقد فتحوا خطابك الاخير المسجل الذى ارسلته الى وتسلمته انا يوم الجمعة الماضي . وكان بالخطاب جدول التهم التى قدمها لنابوريلى وملحوظة صغيرة منك . ولا اظن انه سرق من الخطاب شىء . وسأرسل هذا الخطاب الى م . هاسكويث فى قاعة المحامين «تمبل بار» في لندن وذلك حتى لا يتنبهوا اليه ويفتحوه - وقد احتججت في الحال ولكنى لا اعتقد أنهم سيكفون عن التجسس. ثم اني آسف ايضاً لانى لا احتفظ بنسخ من الخطابات التى ارسلها لك لكي اراجعها . فلا تدهش اذن اذا وجدت تكراراً في اقوالى . ولست اقدر على اخبارك بجميع المكايد التى يصبونها لنا لا لانها

علا الجهات . ويظهر لي ان الخطاب قد فتح من فوق الختم ثم الصق بالصمغ ثانياً وكان هذا العمل متقناً ولولا ان الصمغ لم يكن قد جف تماماً لما كشفت هذه الفعلة فما فتحته انفتح من مكان الصمغ وسأرسل لك رقعة عن البريد الرأسي فلا تدهش لتأخر هذا الخطاب

« وقد اشتغلنا بجد منذ ارسال البريد ولكن لم يجد شيء منذ ذلك الوقت سوى انه قد أذن لنا بالدفاع عن محمود سامي وقد جلسنا معه عدة جلسات . أما « طلبه » فمريض ومرضه ناشيء في الاغلب من التهيج العصبي وهو يشكو من علة الزور ولا أعرف هل يموت ام لا ولكني على أي حال قد اجتهدت لاحصل له على المعونة الطبية وجعلته ينقل من غرفته وأحضرت له خادما وسريرا

« ان البينات عن حريق الاسكندرية لم ترسل الينا وانما علمنا بها من الاجشيان جازيت وهذه البينات قد تكون صحيحة وقد لا تكون . وهي ليست قوية ولكن فيها ما يكفي لان يصبغ التهمة بصبغة الحقيقة . فمن المهم جداً أن نبحث عن طريق أخرى للخروج من هذه الصعوبة وايجاد حل آخر غير الحل الذى ننتظره من المحكمة العسكرية . ولست أشك في قدرتنا على تفنيد هذه البيانات بل سحقها سحقاً وقت الاستجواب في المحكمة . ويمكننا أيضاً أن نوجه الاتهام عن مذبحة ١١ يونيو ولكن المراجع العليا تعتقد انه ان ثبتت احدى هاتين التهمتين على عرابى فسيحكم عليه بالشنق. فلنفرض ان المحكمة حكمت على عرابى بالاعدام فليس هناك سوى الحكومة الانجليزية لالغاء هذا الحكم . وانى أعتقد ان من الخطر ان تترك للحكومة الانجليزية فحص البينات ومعرفة الطرق التى حصلوا بها عليها . اذ من المحتمل ان وزارة الخارجية تنظر نظرة عاجلة وقد تترك عرابى فى يد المحكمة وتصرح بأنه قد عمل كل شيء لضمان نزاهة المحاكمة وانها لا يمكنها التدخل لقلب الحكم بعد اذ منح الدفاع جميع الفرص اللازمة ليشرح موقفه . ثم ان من المرجح انهم سيحكمون بحكم ما على عرابى وأى حكم تنطق به المحكمة هنا يكون كبير الخطر عليه وعلى سائر المعتقلين .

« والآن أرى بعد التأمل والاعتبار انه يجب على المعتقلين الا يأمنوا جانب المحكمة اذا وجدوا للخلاص طريقة أخرى. فاذا عرضوا علينا شروطا مقبولة للنفى مع

صيان المعيشة فيجب الا نرفضها . والخلاصة انه اذا قرر قرار المحكمة على ان عرابى مجرم فمن المؤكد الحكم عليه بالاعدام . واذا برىء فسينفى بدون ما يضمن له معاشه فى منفاه . وعندى ما يمشى على اعتقاد ان هذه التسوية مقبولة عند الجميع ماعدا رياض اما دوفرين فوافق عليها

« منتظر ردك لكى أقف على رأيك واقبل تحيات المخلص لك

« نبيار »

« حاشية — من جهة القضية كل شىء يسير على ما يرام . فقد عالجناها من الجهة القانونية ومن جهة الحقائق ومن جهة سفالة الاجراءات . ولكن هناك الاخطار والاعتبارات التى أشرت اليها . وقد ناقش برودلى جميع الادعاءات فى المحكمة ولدى دوفرين بكل قدرة وهمة وحكمة . والعدل في صفنا ولكن الحكم لن يصدر من المحكمة وانما سيصدر من مجلس الوزراء . ومن المحال ان تنكر قيمة الاشاعات وليس لدينا من الوسائل مايمكننا من تمحيصها »

من برودلى ونبيار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر (بالتلغراف)

« تحادثنا طويلا مع دوفرين . فنرجوك أن تأذن لنا بالاتفاق على امثل الشروط والتأخير يقضي على كل شيء ولا يمكن الثقة بمعونة وزارة الخارجية . ودوفرين يميل الى الخروج تعليماته لكي يساعدنا وهو الآن مسيطر على الحكومة المصرية . ودفاعنا عن تهمة حريق الاسكندرية غير مقنع ومن هنا القلق فانتهز الفرصة الراهنة . ومساعدة دوفرين ضرورية جداً . ارسل لنا بالتلغراف الاذن بالاتفاق . سنتحادث مع دوفرين غداً فى الساعة الحادية عشرة

« برودلى ونبيار »

من نبيار الى بلنت فى ٢٨ نوفمبر

« اقسم لك بشرفى اني لا أرى اننا يمكننا الحصول على افضل مما ذكرناه و تلغرافنا السابق . فوافق ولاحظ ان مصلحتنا الشخصية لا تتفق مع هذا الطلب »

« نبيار »

من بلنت الى برودلى ٢٨ منه (نصف الليل)

« لا أوافق على شروط النفي الا اذ كان نفياً شريفاً بدون اعتقال مثل عـدن أو مالطة أو القصير . فاتفقوا في حدود ذلك »

من برودلى الى بلنت (بالتلغراف ٢٩ نوفمبر)

« اعطانا عرابي وثيقة مكتوبة يقرر فيها السلطة التامة لنا لكي نتفق بشأنه مع دوفرين . ودوفرين يقترح أن عرابي مذنب من حيث الثورة فقط والنزول عما عدا ذلك من التهم . أما الحـكم فسيخفف الى النفي في مكان طيب تتفق عليه أنت مع وزارة الخارجيةمثل جزرالازوريس وسيعطي مرتباً مناسباً ويعوض عن استصفاء امواله

« وأكبر ظني أنك لاتدرى الصعوبة التي نكابدها في دفع تهمـة حريق الاسكندرية والحصول على شهود الدفاع . ووزارة الخارجية لن تتداخل في الحكم اذا كان أقل من الاعدام فاذا كان الحـكم بالسجن مدة طويلة في مصر فهي لن تتدخل وانا مقتنع بان النتيجة ستكون أسوأ من هذا وانى أخشى هـذه المسئولية وذلك لوقوفي على الحالة هنا . فارجو أن تكتب لنا بالموافقة على ما نعمل لكي تتجنب وقوع كارثة »

من بلنت الى برودلى في ٢٩ نوفمبر الساعة الثالثة بعد الظهر .

« استشرت دلاوار وأنا موافق على التسوية على أسـاس التلغراف الذي ارسلتموه الىّ »

من برودلى الى بلنت في ٣٠ نوفمبر .

« كل شي يسير على ما يرام : اجتهد مع دلاوار في البحث عن مكان النفي . وهنا يقترحون فيجي . واشكرك على ثقتك »

من بلنت الى برودلى في ٣٠ نوفمبر .

« لا تقبل أن يكون المنفي فيجي أو ازورس . يجب أن تلح في ان يكون المنفى في وسط بلاد اسلامية لكي يؤدى عرابي فرائض دينه . وهم لايقدرون على الرفض . سأستشير . دى لاوار ليس هنا »

من برودلى الى بلنت في أول ديسمبر .

« سلوك دوفرين جميل جداً . وهو يقترح أن يفاوض دلاوار وزارة الخارجية

عن المنفى . والمعتقلون كلهم راضون »

من برودلي الى بلنت في ٣ ديسمبر .

« انتهت محاكمة عرابي . والاخبار الصحيحة عنها في جريدة ستاندارد . قامت الحكومة المصرية بجميع عهودها »

من برودلي الى بلنت في ٤ ديسمبر .

« لقد سر عرابي من النتيجة . وهو يشكرك ويميل الى أن يكون المنفى في الكاب. دوفرين جدير بكل ثناء »

من برودلي الى بلنت في ٤ ديسمبر .

« مدهش لعدم كتاباتك . نجاحنا تام . الانجليز هنا في حنق »

من بلنت الى برودلي .

« أهنيء الجميع . يقول دلاوار أن دوفرين حر في اختيار مكان النفي . ولا أظن الكاب يوافق فما رأيك في جبل طارق أو جرزي ؟ استشر عرابي »

من برودلي الى بلنت .

« اشكرك على تلغرافك »

يدرك القارئ، من هذه التلغرافات أني لم أرض بالتسوية التي عرضها دوفرين الا كرهاً . فقد كان الرأي العام معنا في ذلك وكنت أعرف أنه ليس في وسع وزارة الخارجية الا أن تقبل ماتريدها عليه ولم تكن لي رغبة في أن تلصق بنا تهم الثورة ولكن في الوقت نفسه لم يكن يسعني بازاء تلغرافات برودلي وخاصة تلغرافات نبيار أن أرفض التسوية . فان المسؤولية كانت كبيرة .

وكان علي أيضا أن اعتبر مسألة النفقات . صحيح انه قد فتح باب التبرعات ودخل فيه عدد من ذوي الجدارة . ولكن مبلغ هذه التبرعات لم يزد على مائتي جنيه وذلك في حين أن نفقات برودلي كانت قد بلغت في ذلك الوقت نحو ثلاثة آلاف جنيه. ولو استمرت المحاكمة شهراً آخر لبلغت النفقات اكثر مما كنت استطيع حمله ، وذلك في قضية لم تكن قضيتي بالذات . فلذلك استشرت ديلاوار وروبرت بورك فحذرني هذا الاخير من الاعتماد على الرأي العام ونصح لي بالرضا . واتذكر الآن

حديثي معه ونحن نروح ونغدو في ميدان مونتاجو حيث كان يسكن وبقيت متردداً نحو ساعة انتهيت في آخرها بالرضا وكانت النتيجة اني أرسلت تلغراف الموافقة وبعد ذلك وبعد مجادلات طويلة رضينا ان يكون المنفى جزيرة سيلان وهي المكان الذي يؤثر عنه انه نفي اليه ابونا آدم عند ما طرد من الفردوس . ولم يكن من المستطاع وجود مكان أشرف منه

ولم يكتب دوفرين شروط الاتفاق وكان برودلي قد سها ان يطالبه بذلك لانه كان يجب عليه أن يلح في كتابة شروط ولو فعل ذلك لوفر علينا عناء كبيرا . وكان هذا الاهمال سبباً في تجريد عرابي وسائر المساجين من رتبهم العسكرية ولم يكن برودلي ينتظر أن يرضى دوفرين بهذا العمل ولو انه كان منتظراً مشكلاً بعد الحكم بالاعدام . ثم نشأ النزاع أيضا عن قيمة المرتب الذي سيسمح به لعرابي بدلا من أملاكه التي استصفيت . والظاهر ان برودلي كان قد بالغ للمساجين في أمر هذا المرتب . أما انا فأعتقد انهم عوملوا بسخاء لان أملاك اكثرهم كانت قليلة القيمة ثم ان أملاك زوجاتهم لم تستصف . وكانت أكبرهم خسارة محمود سامي لانه كان يملك أملاكا واسعة استصفتها الحكومة . أما عرابي فان ما أخذته الحكومة لم يكن سوى ثمانية فدادين ورثها عن أبيه وأثاث بيته المستأجر في القاهرة وخيوله ونحو سمائة فدان من الارض البور اشتراها في ايام عزه . وكانت كل هذه الممتلكات وقت الاستصفاء لا يزيد ثمنها على ألفي جنيه أو ثلاثة آلاف لان الفدان من الارض البور في ذلك الوقت لم يكن يزيد ثمنه على بضعة ريالات . ولم يكن عنده من الوقت ما يساعده على اصلاحها (١)

(١) منذ مدة قريبة أرسل عرابي الى الملك ادوارد عريضة طلب منه فيها تعويضا عن هذه الارض وهذا الطلب من اوهام عرابي وهو يدل على ما يعرفه عنه المحتكون به وهو انه قد دخل في سن الهرم فهو في خرف الشيخوخة

وقد كان أسوء شر وقعنا فيه انا لم نطلب تحديد معنى العفو العام ومن هنا نشأت اتهامات جديدة

وهناك مسألة أخرى كثر فيها النزاع في ذلك الوقت ولكن لم يعد لها اهمية الآن وهي هل اقرار المساجين كان اقراراً للحكومة الانجليزية المصرية ؟ ولكني لا أحتاج الى عناء البحث الآن في هذا الموضوع وانما أقول ان الحكومة الانجليزية قد حققت غايتها فجعلتنا نقر بالثورة ثم استندت الى هذا الاقرار لكي تجعل تدخلها في مصر ذا وجه شرعي. فلما حصلت على هذا لم تعن أقل عناية بسائر المساجين الذين لم يشملهم العفو فبطش بهم الخديو توفيق . ولكن ما حصل لهؤلاء حصل لهم في عهد الاحتلال وانا لا اكتب عنه الآن والمذكرات لاتسع هذه التفصيلات . واظن اني قد اوضحت جميع الاعمال التي قمت بها في الثورة المصرية في هذه المذكرات

والآن وأنا أعيد النظر الى اعمالي الماضية واتذكر كيف ابتدأنا بالنجاح وانتهينا بالفشل في محاولة الحصول للوطنيين من الحكومة الانجليزية على حقهم في معاملة حسنة — اقول اني وأنا التي نظرة الى الوراء عن اعمالي الماضية لا ارى اني عملت ما آسف عليه . وقد أخطأت بالطبع عدة اخطاء واشعر اني مسئول الى حد كبير عن تصميم الوطنيين الذي أدى الى الحرب . ولكني لا أزال اعتقد أن حظهم كان يكون أسوأ لو أنهم لم يقاتلوا الانجليز وسلموا بمطالب القناصل الاوروبيين . فأقل مافي عملهم انهم استفادوا من سماع العالم لقصتهم واذا كان الفلاح قد انتصف بعض الانتصاف من ظالميه فذلك لا يعزى الا الى جهود عرابي التي كنت اشجعه فيها حتى الى وقت اعلان الحرب اذ كانت هذه الجهود نتيجة مبادىء الوطنية السياسية . وقد كانت هذه الثورة سببا في أن تصغي انجلترا الى شكاوى الفلاحين بعد ذلك وهي وان كانت قد حرمتهم حق الحرية السياسية فقد عالجت معظم شكاواهم

ولست أدرى ماذا يأتي به المستقبل لمصر . فقد زادت ثروة مصر مدة الاحتلال الانجليزى ومع اني لا اعتبر ان ثروة البلاد وغناها يدلان على حسن حالها قد كان لها مع ذلك قيمة من حيث انهما جعلا الفلاح يثبت في ارضه ويحتفظ بها لنفسه دون الاجانب وما دامت الحال كذلك فستبقى الامة حية وربما يأتي اليوم الذي يعاد فيه الى الفلاح دستوره وعندئذ يدرك الفلاحون حقيقة ثورة سنة ١٨٨٢ ويعرفون انها كانت بدء حياتهم الوطنية وهي لذلك من محاسن تاريخهم ومفاخره

تاريخ احمد عرابي بقلمه

﴿ الذيل الاول لكتاب التاريخ السري للاحتلال البريطاني ﴾

هذا هو تاريخ حياة عرابي وحوادث سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ كما كتبه لي
أنا ولفردسكاون بلنت أمس في ١٦ مارس سنة ١٩٠٣ في الشيخ عبيد

كان مولدي في سنة ١٨٤٠ في بلدة هرية قريبا من الزقازيق في الشرقية. وكان أبي شيخ القرية وكان يملك ثمانية فدادين ونصف فدان ورثتها عنه وأضفت اليها ما اشتريته مما كنت أدخره من مرتبي الذي بلغ أحيانا ٢٥٠ جنيه في الشهر فبلغت أملاكي ٥٧٠ فدان وهذا هو المقدار الذي استصفته الحكومة وقت محاكمتي. وكانت هذه الارض وقت اشتريتها رخيصة لا يزيد ثمن الفدان عن بضعة جنيهات في حين انه يساوي مبلغاً كبيراً الآن ، لأنها كانت في ذلك الوقت رديئة أما الآن فهي جيدة ولكن لم يكن فيها شيء وكان كل ما أدخره اشتري به أرضاً ولم يكن لي أملاك أخرى أو منقولات الا اثاث البيت والخيول وكلها لم يكن يتجاوز ثمنها الف جنيه.

ولما كنت صبياً دخلت الازهر ودرست فيه سنتين ولكني جندت وعمري ١٤ سنة لأني كنت مديد القامة وكان سعيد يحب تجنيد أولاد المشايخ لكي يصيروا ضباطا. فامتحنت فافادني في الامتحان ما كنت قد تعلمته في الأزهر فعينت كاتباً بدرجة «بلوك أمين» ولم أنتظم في صف الجنود وأعطيت مرتباً مقداره ستون قرشاً في الشهر. ولكني لم أحب هذا المركز لأني خشيت الا أرقي وكنت أطمح الى منصب عال يماثل منصب مدير مديريتنا. فقدمت عريضة الى رئيسي ابراهيم بك لكي يردني الى الصف. فاخبرني ابراهيم بك باني أخسر في هذا العمل لان مرتبي ينزل عندئذ الى خمسين قرشاً ولكني ألححت عليه فقبل. ثم لم يمض قليل حتى امتحنت مرة أخرى ففزت وكنت الاول فيه فجعلوني «جاويشاً» ثم امتحنت

مرة ثالثة فعينت ملازماً وكان عمرى وقتئذ ١٧ سنة . وكان سليمان باشا الفرنساوى يحبني فألح على سعيد باشا لكي يرقيني فصرت قائمقاما وكان سني عشرين سنة . ثم تنفقني سعيد باشا معه كياوره عند ما زار المدينة قبيل وفاته بعام وكان هذا فى سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢م)

وكانت وفاة سعيد باشا من الكوارث التى نزلت بى لانه كان يحب أبناء البلاد، فأما اسماعيل فلم يكن كذلك ، ففى زمنه أعيد كل شيء الى أيدى الأتراك والشراكس وصار المصرى في الجيش مجرداً من الحماية ومن الترقية،فبقيت قائمقاما مدى ١٢ عاماً ولم يحدث فيها شيء حتى جاءت حرب الحبشة ، ولم أكن قد أرسلت الى الحرب الروسية ولكن لما نشبت حرب الحبش طلب جميع الجنود وسحبت الحاميات من طريق الحج وكلفت أنا بالذهاب للقيام بسحب هذه الحاميات ، وذهبت وحدى فلم يكن معى جندي واحد ولم أزود بقرش واحد وكان عليّ أن أصل الى مكان هؤلاء الجنود على الحال بقدر المستطاع ، فذهبت الى الدخل والعقبة والوجه وصرت أجمع الحاميات وأضع مكانها العرب كخفراء الحصون . ثم عبرنا البحر الى القصير وذهبنا الى قنا ومن هناك الى القاهرة . ولم يدفع لى قرش واحد على قيامى بهذه المهمة بل قمت أنا نفسي بنفقات سفري . وكانت البلاد فى حالة مروعة من الظلم ومن ذلك الوقت بدأت أهتم بالسياسة رجاء أن أخلص البلاد من الخراب . ثم ذهبت الى مصوع واشتركت فى الحملة التى كانت بقيادة راتب باشا وكان لورنج باشا الامريكي رئيس أركان الحرب . ولم أشهد معركة لانى كنت قائماً في ذلك الوقت بمسألة النقل بين مصوع والجيش . وكانت المعركة من النكبات التى نزلت بالجيش اذ قتلت جنود سبع كتائب . وكان الخطأ يعزى الى لورنج باشا . وكان ابن الخديو حسن هناك وكان فتى صغيراً يتعلم الجندية ولم يكن يقود الجيش ولم يؤخذ أسيراً عند الاحباش.

وبعد ذلك أخذت أفكر فى الشؤون السياسية. وأتذكر انى رأيت الشيخ جمال الدين ولكنى لم أكلمه وقد أفادتني علاقتى القديمة بالازهر معرفة عدد من الطلبة . وكان من أفضل من عرفتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل . وكان أول كتاب أدركت منه بعض الآراء عن المسائل السياسية كتاباً مترجماً الى العربية عن

« حياة بونابرت » تأليف الملازم لويس. وكان سعيد باشا قد أخذ هذا الكتاب معه في زيارته المدينة وكان ماذكر فيه من أن ثلاثين ألف جندى فرنسى قد فتحوا بلادنا قد هاج غضب سعيد باشا فرمى بالكتاب الى الارض وقال لي : « انظر كيف قهر مواطنوك » فأخذت الكتاب وقرأته طول الليل فلم أنم حتى الصباح . ثم ذهبت الى سعيد باشا وأخبرته باني قد قرأت الكتاب وان السبب الذى جعل الفرنسيين ينتصرون هو ان جيشهم كان منظما واننا نستطيع أن نعمل ذلك بمصر لواردنا .

والآن تسألني عن الشغب الذى حصل في وقت اسمعيل ضد نوبار وهل لى يد فيه . فأقول انه لم يكن لي يد فيه لاني كنت في وقت ذلك الشغب في رشيد مع الآلاى . ولكن في اليوم الذى سبق يوم الشغب أرسلت الى الحربية أنا والقائمقام الآخر محمد بك نادى تلغرافًا لكي ننظر في أمر الذين فصلوا من الجيش ولم يدفع لهم متأخر مرتباتهم بل لم يكن لديهم ما يقتاتون به . وكانوا وقتئذ في السياسية . ولكني لم أعرف ماذا كان يدبر ضد نوبار باشا . والحقيقة ان اسمعيل باشا هو الذى دبر هذا الشغب بواسطة أحد خدمة شاهين باشا وصهره لطيف افندى سليم ناظر المدرسة الحربية . وانضم اليهم بعض الجنود المعزولين ولم يكونوا كثيرين . ووجدوا نوبار على أبواب الوزارة على وشك أن يركب مركبته . فهاجموه ولكموه وشدوا شاربيه . وذهب الخبر الى اسمعيل باشا لكي يهدىء الشغب فذهب ومعه عبد القادر باشا وعلى فهمي تلك الملازم في حرسه فأمره بأن يطلق النار على الطلبة ولكن على فهمي أمر باطلاق النار في الهواء فلم يجرح احد . ولم يكن على فهمي معنا في ذلك الوقت فقد كان امينا لاسمعيل وكان قد تزوج احدى سيدات السراي ولكنه لم يحب أن تهرق دماء هؤلاء الشباب

ولكي يخفى اسمعيل اشتراكه في ايجاد هذا الشغب اتهمني أنا ونادي بك وعلى بك الروبي بأننا زعماء المشاغبين وقدمنا للمجلس المؤلف من ستون باشا وحسن باشا أفلاطون وعثمان رفقى الذى صار بعد ذلك وكيل وزارة الحربيـة وآخرين . فقررت في ذلك المجلس . اننا لا يد لنا في هـذا الشغب اذ كنا في رشـيد ولم نصل الى القاهرة الا في الليل ومع ذلك قد وبخنا وفصل كل منا عن آلايه . فأرسل نادى الى

المنصورة وأرسل الروبي الى الفيوم . وأرسلت أنا الى الاسكندرية كوكيل لمشايخ الصعيد الذين كانوا يرسلون المتأخر عليهم من الضرائب عيناً كالفول وغيره من الغلات الى الاسكندرية فكان يتسلمها بعض يهود فى الاسكندرية ويرتهنونها جراء ما يقترضه منهم اسماعيل من الاموال

ولكن قبل أن نفترق اجتمعنافاقترحت عليهم أن نكون عصبة لخلع اسماعيل ولو فعلنا ذلك لحللنا المسألة من وقتها لان القناصل كانوا يرغبون في التخلص منه بأية طريقة وكنا قد وفرنا على أنفسنا جميع المشاكل التالية وكنا وفرنا أيضا ١٥ مليون جنيه أخذها اسماعيل وقت خلعه . ولكن لم يكن قد ظهر بعد من يقود هذه الحركة فوافق الموحودون على رأيي ولكنا لم نقدر على تنفيذه . ثم خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من عائلة محمدعلى بأجمعها ولم يكن فيها أحد جديرا بالحكم سوى سعيد وكنا عندئذ أعلنا جمهورية. وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمدعبده أن يقتل اسماعيل على جسر قصر النيل فوافق محمد عبده على الاقتراح . وكان اسماعيل قد جمع أموال المديريات قبل خلعه بستة أشهر وقد اعترف لطيف بعد ذلك باشتراكه فى هذه الاعمال . وقد اودع لطيف السجن ولكن جماعة الماسون طلبوا من نوبار الافراج عنه فخلى سبيله

ولما خلف توفيق اسماعيل أعلن في أول أعماله انه ينوى منح البلاد دستوراً . والآن تسألني هل كان مخلصاً فى هذه النية ؟ فأقول أنه لم يكن مخلصاً ولكنه كان ضعيفاً الى درجة لاتصدق ولم يكن يقدرعلى أن يقول « لا » وكان يتأثر بمايشير عليه به وزيره شريف باشا الذى كان يحب النظم الدستورية فى الحكومات . وكان فى عهد والده يجمع الاموال وكان هذا اهم مايهتم له . فكان يأخذ الهدايا من جميع المتقدمين بالعرائض لابيه وكانوا يعتقدون أنهم بارشاد توفيق يستطيعون تحقيق أغراضهم عند والده اسماعيل فلم يكن توفيق يرغب في وجود دستور ولكنه شق عليه أن يقول : « لا » عندما عرض عليه شريف هذا الرأي فوعده به ولكن لم يمض شهران حتى وقع تحت نفوذ القناصل الذين منعوه من اصدار قرار الدستور فجمع عندئذ شريف ووزراءه وقرروا معه انه اذا استقال هم أيضاً يستقيلون وأقسموا له بشرفهم ولكن

على الرغم من القسم انضم بعضهم الى وزارة رياض باشا الذى صار رئيساً للوزراء مكان شريف . ولكي يرغبهم رياض بوزارته تعهد لهم بأن كل وزير سيكون مستقلا فى وزارته وأن توفيق لن يتدخل فى ادارة أعمالهم . فصار محمود سامي وزير الاوقاف وعلى مبارك وزير المعارف وعثمان باشا رفقى وهو تركي كان يكره الفلاحين صار وزير حربية وكانت الحكومة الجديدة حكومة جائرة . فقد كتب حسن موسى العقاد عريضة بشأن نظام المقابلة (الضرائب) فكان جزاؤه لتقديم هذه العريضة النفى الى البحر الابيض ، وعزل احمد فهمى لعريضة أخرى . وعزل آخرون لان الوزارة لا تنظر لهم بعين الرضا وكان أسوأ هؤلاء الوزراء جميعهم عثمان رفقى

وكنا نحن الضباط كل منا مع الآيه وكنا نقاسي صنوف الظلم لاننا مصريون : وكان الضابط المصري يقبض عليه لاى علة ويوضع مكانه رجل شركسي ، وكانت النية أن يعزل جميع الضباط المصريين . وكنت أنا من المغضوب عليهم لأني رفضت أن تؤخذ جنودى لحفر قناة التوفيقية وكانت العادة أن يسخروا في مثل هذه الاعمال دون أجر . ودبرت التدابير لكي اشتبك فى مشاجرة فى بعض الشوارع فأقتل ولكن حب جنودى لى كان يحميني على الدوام من هذه المشاكل . وبات جميع الضباط الذين لم يكونوا شراكسة في خطر وفزع لا يبرحانهم وكان هذا هو السبب في أن على فهمي الذي كان متصلا بالبلاط الخديو لزواجه احدى جواريه انضم الينا لانه كان يخشى أن يعزل ويوضع مكانه شركسى او تركي . وكان ضابطا في الآلاي الاول من الحرس وكان مركزه عابدين وكنت أنا فى العباسية مع الآلاى الثالث . وكان عبدالعال حلمي فى طره وكان على روبي يقود الخيالة .

ثم حدثت أزمة في يناير سنة ١٨٨١ . فقد كنت ذهبت الى دار نجم الدين باشا في المساء . وكان هناك بعض الباشوات فأخذوا يتسامرون عن التغييرات التى ينوى عثمان رفقى أن يقوم بها فعلمت من كلامهم أنه قد تقرر أن أعزل أنا وعبدالعال من قيادتنا ويعين في مراكزنا ضباط شركس . وفى الوقت نفسه جاءني رسول يقول لى ان على فهمي وعبد العال فى بيتي ينتظراننى فذهبت الى البيت ووجدتهما وسمعت منهما هذا الخبر السيء نفسه . فجلسنا نتشاور فيما يجب أن نفعله فاقترح علينا

عبد العال أن نصطحب قوة ونذهب الى منزل عثمان رفقى ونقبض عليه أو نقتله . ولكنى قلت له : « كلا يجب أن نقدم عريضة أولا لرئيس الوزراء . فاذا لم يقبل نقدم عريضة أخرى للخديوي »

فكلفاني بأن اكتب العريضة. فكتبت العريضة وأوضحت الحالة وطلبت عزل عثمان رفقى وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى واعلان الدستور الموعود .

« ملحوظة من بلنت : أظن أن عرابي قد أخطأ هنا اذ خلط بين هذين الطلبين الاخيرين وبين الطلب الاول الذى قدم فى ٩ سبتمبر ولكنه ألح بانه قد أثبت هذه الثلاثة الطلبات في فبراير »

ثم وقعنا نحن الثلاثة هذه العريضة مع علمنا بأن حياتنا قد صارت فى خطر.

وفى اليوم التالى ذهبنا بعريضتنا لرياض في وزارة الداخلية فقرأها فى غرفة داخلية ثم خرج الينا وقال لنا: « هذه عريضة مهلكة . ماذا تطلبون ؟ تغيير الوزارة ؟ ومن يأخذ مكانها ؟ ومن تقترحونه لكي يقوم باعمال الحكومة ؟ »

وكنت أقصده هو ووزراءه السيئة بذلك . فغضب مني ولكنه قال أخيراً أنه سينظر فى طلباتنا وتركناه . وفى الحال التأم مجلس الخديوى وجميع رجال بلاطه وأيضا ستون وبلنز . واقترح الخديو أن يقبض علينا وان نحاكم ولكن الآخرين قالوا : « اذا حاكمت هؤلاء فيجب أن يحاكم عثمان باشا أيضا » وعلى هذا تركت المسألة لعثمان ليعالجها كما يرى وانت تعرف الباقي .

أما عن سؤالك هل كان يعرف الخديو فى ذلك الوقت عزمنا على كتابة العريضة فأقول انه لم يكن يعرف ذلك ولم يعرف أيضا أن على فهمي قد انضم الينا .

أما عن سؤالك هل كنت أعرف البارون دعيرنج فاقول اني لم أكن أعرفه ولم أكن أعرف أحد من القناصل . ولكنى سمعت ان أكبر القناصل نفوذاً هو القنصل الفرنسي فكتبت اليه أخبره عن موقفنا ورجوته أن يخبر سائر قناصل الدول بأنه ليس هنالك أقل خطر على رعاياهم .

أما محمود سامى فلم أكن قد عرفته بعد ولكنه كان صديقاً لصديق على روبى وسمعت انه من المتعلقين بالجرية .

وكان من أصل شركسي ولكن عائلته عاشت فى مصر نحو ستمائة سنة .

أما في المظاهرة الثانية التى حدثت فى ٩ سبتمبر فقد كنا نعرف أن الخديو كان فى صفنا وانه أراد أن يتخلص من رياض الذى كان لا يكترث لأوامره وقد رأيته وتكلمت معه مرتين في ذلك الصيف ولكنا لم نتكلم فى السياسة . وكانت رسالته لى على لسان على فهمي مقصورة على هذه الكلمات

« أنتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم »

والآن تسألنى عن اخلاصه فأقول أنه لم يكن قط مخلصاً وانما أراد أن يتخلص من رياض . فى هــذه المظاهرة طلبنا عزل رياض مع سائر الوزراء ونحن نعلم انه سيفرح لهذا الطلب . فى صباح يوم ٩ سبتمبر أرسلنا كلمة الى الخديو نقول اننا سنذهب الى قصر عابدين لكى نطالبه بأداء وعوده السابقة . فجاء وكان معه كوكسون وكان حديثى أنا مع كوكسون هذا فسألنى كوكسون هل ترضي بحيدر باشا فاجبته بأننا لا نرضى برجل يمت الى الخديو بقرابة ، ولم يكن لنا فى هذه المرة الثانية طلبات مكتوبة وانما جددنا طلباتنا التى قدمناها فى أول فبراير وهي : مجلس النواب وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى كما تنص على ذلك الفرمانات وعزل رياض ، فوافقونا على كل ذلك ، وفرح الخديو بذلك ، ولست أعرف هل كان كولفن هناك وهل نصح الخديو بشيء ما ، وانما رأيت هناك كوكسون وجولدسمث وكنت أخاطب كوكسون ولو حاول الخديو قتلى لاطلقت النار عليه ، والحقيقة أنه كان فى أشد الجذل والحبور لهذه المظاهرة .

تسألني الآن عن أبي سلطان (سلطان باشا) فأقول انه كان مغتاظاً لأنه عند ما ألفت وزارة شريف لم يعين في احدى الوزارات . وكان الظن ان منصب رئيس مجلس النواب أشرف وأهم . ولكنه هو لم ير هــذا الرأى فساءه انه ليس عضواً في الوزارة . وهذا أول ما جعله ينقلب علينا . أما عن سؤالك هل أسيئت معاملة الشراكسة الذين قبض عليهم وأودعوا السجن للمؤامرة عند ما كنت وزيراً للحربية فأقول أني لم أدخل السجن الذى كانوا فيه ولم أرهم يعذبون بل لم اقترب من السجن مطلقاً

أما عن مسألة هياج الاسكندرية فليس هناك شك فى أن الذى دبر هذا الهياج هو الخديو وعمر باشا لطفي المحافظ ومستر كوكسون . وقد دبر هـذا الهياج قبل وقوعه بمدة أيام وكان الغرض منه ازالة الثقة فى لانى كنت قد تعهدت بحفظ النظام. فان الخديو أرسل تلغرافاً بالارقام الى عمر لطفى كما تعرف . واتفق عمر لطفى مع السيد قنديل رئيس المستحفظين على ايجاد هياج . وأخفى السيد قنديل هذه المسألة عنا ونحن فى القاهرة . أما اشتراك المستر كوكسون فينحصر فى أن عدداً من الصناديق التى تحتوى على الاسلحة النارية أنزلت الى الاسكندرية وأرسلت الى دار القنصلية حيث مستر كوكسون وبديهي انه كان يقصد بانزال هذه الاسلحة للمدينة تسليح بعض الناس وعندما سمعت بالحادث أرسلت فى الحال يعقوب سامي الى الاسكندرية وأمرته بأن يبحث بحثاً وافياً فانتهى من البحث باثبات جميع هـذه الحقائق التى ذكرتها . وقد قيلت أشياء كثيرة غير صحيحة . فليس صحيحاً انه وجدت أجسام من القتلى النصارى فى لباس اسلامي . وابتدأ الهياج بين مالطى وحمار . ولكن هذه المشاجرة كانت عذراً ليس غير . وكان عمر لطفى كما تقول من شيعة اسماعيل . وتسألني لماذا ترك مثل هذا الرجل الخطر فى مثل هذا المنصب الذى كان يساعده على احداث اكبر الاضرار وكل ما أقوله انه لم يكن تابعاً لوزارة الحربية بل كان يتسلم أوامره من وزارة الداخلية . وكان من سوء حظنا اننا تركناه فى مركزه . ولم يذهب نديم ولا حسن موسى العقاد الى الاسكندرية فى هذا الشأن وانما ذهب حسن موسى العقاد فى مسألة مالية .

وما تسألني عنه بصدد اسماعيل باشا صحيح . فقد عرض علينا اسماعيل أموالا . وظروف المسألة هي هذه : كنا طالبنا بعض المدافع من المانيا ولكنهم رفضوا أن يسلموها لنا ما لم ندفع الثمن . ولم يكن عندنا مال. فعرض علينا اسماعيل ٣٠٠٠٠ جنيه على شرط أن نقول اننا نشتغل في مصلحته . وكان الذى عرض علينا هـذا المبلغ هو مسيو منجس (ماكس لافيسون) وكيل اسماعيل الروسي وكان لحسن موسى العقاد يدفى هذه المسألة . ولكن الاموال لم تظهر واذا كان اسماعيل قد أرسل المبلغ حقاً الى الاسكندرية فقد بقي في ايديهم فاننا لم نلمسه

لا أتذكر أني سمعت شيئاً عما تذكره من أن روتشيلد قد عرض عليّ معاشاً سنويا قدره أربعة آلاف جنيه بشرط أن أعيش خارج مصر . وانما أتذكر أن قنصل فرنسا زارني بعد أن أرسل القناصل مذكرتهم في طلب عزل الوزارة المصرية وقال لي انه يدفع لي ضعف مرتبي وقتئذ أي ٥٠٠ جنيه في الشهر اذا كنت أذهب الى باريس وأعيش هناك كما كان يعيش الامير عبد القادر . فرفضت وقلت له ان واجبي يقضي عليّ بأن أدافع عن بلادي وأموت في الدفاع عنها لا أن أهجرها . ولم أسمع من روتشيلد بخصوص هذه المسألة .

والآن سأخبرك كيف خسرنا معركة التل الكبير فانه لما كان الانجليز يتقدمون دبرنا هجوماً نقوم به في القصاصين . وكان هذا التدبير يقتضي أن يتقدم محمود سامي الى ميمنتهم من الصالحية ونتقدم نحن الى الامام وفي الوقت نفسه تكون قد دارت قوة من جنوبي الوادي لكي تضربهم من المؤخرة . وجربنا الحلة وبدأنا بتنفيذها ولكننا فشلنا لان علي بك يوسف خنفس خاننا وأفشى هذا التدبير وأرسل الى لورد ولسلي الرسم الكروكي الذي كنت رسمته أنا وأرسلته اليه، وكان أبو سلطان (سلطان باشا) بالنيابة عن الخديو قد أفسد علي يوسف وضباطاً آخرين في الجيش بالرشوة . ولما كنت في السجن في القاهرة جاءني سير تشارلس ولسون ومعه رسمي الكروكي وسألني هل هـذا من رسم يدي فقلت « نعم » فاخبرني كيف وقع في يده وقال : « انه تدبير محكم وربما كنتم هزمتمونا لو سرتم عليه »

فكانت هذه أولى نكباتنا . وفي التل الكبير فوجئنا وكانت الخيانة هي السبب أيضاً في هذه المفاجأة . فان قواد الخيالة كان قد أغراهم أبو سلطان (سلطان باشا) وأملهم آمالا كبيرة . فكان مكان الخيالة في مقدمة الجيش وكان عليهم أن ينذرونا عن تقدم الانجليز . ولكنهم تنحوا الى الجانب ولم ينذرونا . وكان الخائن علي بك يوسف خنفس في الخنادق فوضع مصابيح لكي يهتدى بها الانجليز ثم انسحب برجاله فترك ممراً عريضاً لمرور الانجليز

انظر الآن الى هذه العلامات في هذه السجادة فهي بمثابة الخنادق . هنا كان علي يوسف وكان محمد عبيد هناك . وكنت أنا في مؤخرة الجيش على بعد ميل ونصف .

ولم نكن ننتظر هجوماً لاننا لم نكن نسمع إطلاق المدافع . وكنت أنا نائماً واذا بي استيقظت على هدير المدافع قريباً منا . وكان على روبي في المقدمة فأرسل الي يقول يجب أن أغير مركزى لان العدو يضربنا من الجنب . فقمت وركبت جوادي وذهبت الى حيث كان لنا قوة من المتطوعين وأمرتهم بان يتبعوني لكي نذهب الى الخطوط الاولى ونعاون المقاتلين . ولكنهم كانوا فلاحين ولم يكونوا جنوداً وكانت القنابل تسقط حوالبهم فلاذوا بالفرار فذهبت الى الامام وحدى وورائي خادمي محمد . فلما رآني وحدى وانني أتقدم الى الموت الا كيد أخذ بزمام جوادى وأقسم عليّ أعود . فلما بانت لى الهزيمة ورأيت الجيش يفرون عدت : ورافقني محمد حتى عبرنا وادى التل الكبير ثم حاذينا قناة الاسماعلية حتى وصلنا الى بلبيس وهناك وجدنا معسكراً آخر وقد وجدت ان على روبى كان سبقني هناك فعزمنا على ان نقاوم . ولكن ما هو ان وصلت خيالة درورى لين حتى فر الجيش فتركنا كل شيء واتجهنا نحو الجهة الشمالية ولكنه لم يكن خائناً . أما الخونة فهم عبد الغفار على ما أظن ومن يليه فى القيادة عبد الرحمن بك حسن وعلى يوسف خنفس . أنت تقول سعود الطحاوى ؟ ربما كان ذلك فهؤلاء البدو لا يوثق بهم وكان جده مع بونابارت لما جاء مصر منذ مائة سنة .

والآن قد رجعت الى بلادى بعد عشرين سنة من النفى والأسى وبنو وطنى صاروا يعتقدون أني قد بعت بلادى للانجليز وذلك لان بعض الصحف الفرنسية تقول ذلك .

رأي الشيخ محمد عبده

فى تاريخ عرابى

(فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٣ عرضت على الشيخ محمد عبده فى منزله فى عين شمس تاريخ عرابى كما كتبه لى . فوافق على أكثره ثم قدم لى الملحوظات التالية عنه — ولفرد سكاون بلنت)

أولا — بخصوص الشغب على نوبار أقول ان رواية عرابى صادقة ما عدا قوله عن على فهمي . فان الامر الذى أعطي له باطلاق النار على الطلبة لم يكن يقصد منه التنفيذ . فكان على فهمي اطاعة للاوامر يطلق النار فى الهواء . وقد أمر نوبار بالقبض على لطيف بك بعد انتهاء الشغب ولكنه أفرج عنه بعد ذلك لان الماسونيين طلبوا ذلك وكان لطيف عضواً فى الجمعيات الماسونية . وكان يصرح بما قام به فى هذه المسألة . أما ما قاله عرابى بصدد خلع اسماعيل وانه اقترح ذلك فأقول انه من المؤكد اننا كنا نتكلم سراً فى هذا الشأن وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع واقترح علىَّ أنا أن أقتل اسماعيل وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما نتهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة . ولو اننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت فربما كان فى إمكاننا ان ننظم الحركة معه لان قتل اسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله وكان يمنع تدخل أوروبا . ولكن لم يكن من المستطاع فى ذلك الوقت تأسيس جمهورية اذا نظرنا الى حالة الجهل الذى كان سائداً على العقول . أما عن قول عرابى ان اسماعيل أخذ معه الى نابولى ١٥ مليون جنيه فليس هناك من يعرف الحقيقة . وانما المعروف ان المبلغ الذى أخذه معه كان كبيراً جداً . وكان اسماعيل يدخر المال فى الاشهر القليلة التى سبقت خلعه . فكانت الاموال التى تجيء من المديريات لكي ترسلها لى وزارة المالية يأخذها هو لنفسه .

ثانياً — أما عن قول عرابي أن توفيقا كان يأخذ الهدايا والرشى من مقدمي العرائض لوالده أيام كان اسماعيل خديويا فقد يمكن أن يكون صحيحاً . ولكن لم اسمع هذه الاشاعات وهذا العمل لا يتفق مع سلوك توفيق لما صار حاكما . فلذلك لست أصدق هذا القول .

ثالثاً — أما عن ظلم رياض فاقول أن رياضا كان ظالما ولكن ظلمه لم يكن يبلغ سفك الدماء . فانه كان على الدوام يكره ذلك . فلم أسمع انه كان يأمر بالفتك بالناس سراً . ولم يكن هناك على أى حال خوف من أن يفعل ذلك باحد قبل حادثة قصر النيل . ولكنا سمعنا أقوالا وروايات عن محاولة قتل عرابى وغيره من الضباط فى صيف سنة ١٨٨١

رابعا ـ اما عن حادثة اول فبراير سنة ١٨٨١ فى قصر النيل فأرى ان رواية عرابي مرتبكة وغير صحيحة . فان العريضة الاولى التى قدمها عرابي وسائر الضباط كانت تتضمن الشكوى من الحيف الذى يقع بهم من عثمان رفقي . وكان هذا العمل سببا في غضب وزير الحربية ففقد نيته على ان يتخلص منهم وكان هذا اول ما لمت طر القناصل الى عرابي .

وكان البارون دى رنج فى خصام مع رياض فاهتم لذلك بمسألة الضباط . اما العريضة التى يقول عرابي انه قدمها بنفسه الى رياض فى يناير فلم تبين فيها أى اشارة الى الدستور او الى زيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى . فان هذه الطلبات لم تقدم الا فى سبتمبر بعد المظاهرات . وكانت عريضة قصر النيل لا تزيد عن ان تكون شكوى من مساوىء عثمان رفقي وطلب عزله من الوزارة . وكان رياض في المجلس الذى عقد عقب المظاهرات موافقا على عمل تحقيق عن هذه العريضة ـ وكان هـذا التحقيق يتطلب محاكمة الضباط وايضا عثمان رفقى امام المحكمة العسكرية ـ وكان رياض يكره العنف . ولـكنه لما اوضح له انه اذا لم يستعمل العنف سيعد سكوته دليلا على تشيعه مع الضباط ضد الخديو اضطر فى النهاية ان يترك المسألة لعثمان رفقي يتصرف فيها كيفما شاء

خامساً — أما عن مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فانى أقول أن

السبعة الاشهر التى كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت مفعمة بالنشاط السياسي الذي شمل جميع الطبقات . فقد صار عرابي محبوباً عند الأمة واتصل بالحزب الوطنى وعرف سلطان باشا وسليمان أباظه وحسن الشريعى وعرفنى أنا أيضاً وكنا نحن الذين طلبوا الدستور . وقد اهتم هو بالدستور لانه رأي فيه ضماناً من من انتقام الخديو أو وزرائه منه كما كانوا ينتقمون أيضاً من سائر الضباط .

وقد قال لى هو ذلك جملة مرات وبناء على ذلك قدمنا العرائض بطلب الدستور وحملنا فى الصحف حملات عديدة فى هذا الصدد . وكان عرابى يزور سلطان باشا كثيراً في ذلك الصيف — وكان سلطان مثرياً فكان يرسل اليه الهدايا من الغلات والخيول وغير ذلك لكي يعتمد على قوة عرابي وتعضيده لهذه الحركة الدستورية . وحدثت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان وقد أصاب عرابي فى قوله أن سلطان كان يطمع في أن يكون وزيراً بعد سقوط وزارة رياض .

ولكن شريف باشا الذى صار رئيساً للوزارة لم يفكر فى تعيين سلطان . وبعد ذلك امكن مصالحة سلطان باعطائه رئاسة مجلس النواب . ولم يتشاجر مع عرابى الا بعد اللائحة أى البلاغ الاخير الذى ارسله القناصل الى الحكومة فان عرابى جرد سيفه هنا فى وجه سلطان ووجه اعضاء المجلس عندما رأى منهم تردداً فى رفض اللائحة وكانا الى هذا الوقت يسيران يداً بيد

ورواية عرابى عن توفيق من انه ارسل يقول له : (انتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم) صحيحه وهى تظهر مركز الخديو أمام الضباط . وكان كولفن مع الخديو فى عابدين ولكنه لما كان لا يعرف العربية لم يلتفت عرابى اليه . وكان الكلام مع كوكسون وكان البارون دى رنج قد استدعته حكومته بناء على طلب رياض الذي شكا تشجيعه الضباط

سادساً — أما عن الشغب في الاسكندرية فان عرابى صادق فى روايته عن عمر لطفى والخديو فهما اللذان دبرا الشغب قبل حدوثه ببضعة أسابيع . ولكن روايته عن سيد قنديل غير صحيحة فانه كان ضعيفاً فلم يقو على اخماد الشغب وهو أيضاً مخطيء فيما ذكره عن كوكسون . فان الاسلحة التى وردت الى القنصلية انما جيء بها لحماية المالطيين وسائر الرعايا الانجليز . وقد حكم بالنفي على سيد قنديل عشرين

عاما ولكن عفي عنه بعد ذلك فرجع وهو الآن في داره في الريف في مصر — وكثيراً ما تحادثت معه في هذا الموضوع . وعرابي صادق في قوله أن حسن موسى العقاد وعبدالله نديم لم يشتركا في احداث الشغب . فانه قد ذهب الى الاسكندرية لالقاء خطبه أما العقاد فقد ذهب في مسألة مالية .

رأي الشيخ محمد عبده

في الثورة العرابية

(في ٢٠ مارس سنة ١٩٠٣ قدم لي المفتي الملحوظات التالية عن الثورة العرابية . ولفرد سطاون بلنت)

في أواخر أيام اسماعيل حاول البعض ادخال الماسونية الى مصر . وكانت جميع المحافل المصرية متصلة بالمحافل الاوروبية وقد انضم الشيخ جمال الدين الى أحد هذه المحافل ولكنه لم يجد لها قيمة فخرج منها ، وكان اسماعيل باشا قد أخذ يشجع الحركة بنية الاستفادة منها وذلك عند ما وقع في ازماته . ولكن الماسونية لم تبلغ يوماً ما مركزاً قوياً في مصر

ومن المؤكد أن الشيخ عبيد قتل في التل الكبير ، فقد سمعنا اشاعات تقول انه حي يرزق في سوريا . ولما كنا في المنفى في بيروت كنا نرسل الى داخل البلاد للسؤال عنه ولكنهم كانوا يرجعون ويقولون ان رواية وجوه كاذبة

وكان محمود سامي دستورياً من عهد اسماعيل . وكان صديق شريف وكان كلاهما ينشد آمالا سياسية واحدة ومن الارجح انه انذر عرابي بازماع القبض عليه لانه كان في ذلك الوقت عضواً بمجلس الوزراء ولابد أنه كان يعرف هذه النية أما بعد مسألة قصر النيل فانه كان مع عرابي والضباط قلباً وقالباً وكان هذا هو السبب في أن رياضا تخلص منه وعين داود باشا مكانه

وكان رياض لايقدر اهمية عمل عرابي ولكنه بعد ذلك صار يخشاه . فابتدأ باحتقار الحركة والتقليل من شأنها لان هذه كانت عادته إذ كان لا يعتقد أن للفلاحين شأنا يذكر في السياسة

واستقال شريف باشا فى فبراير سنة ١٩٨٢ لا لأنه تشاجر مع عرابى بل لانه كان يخشى تدخل أوربا . وكان يعارض مجلس النواب فى طلبه مناقشة الميزانية واستقال لهذا السبب وكان راغب باشا من أصل يوناني ولكنه كان مسلماً . وكان رئيساً للوزارة فى عهد اسماعيل ولكنه كان دستورياً وقد عين بعد اللائحة (البلاغ الاخير الذى ارسله القناصل للحكومة) رئيساً للوزراء وكان عرابى وزيراً للحربية فى هذه الوزارة . وكانت علاقته بعرابي شريفة وقد بقى مع الحزب الوطني مدة الحرب

ويقول بتلران اول عريضة قدمت كان تاريخها ٢٠ مايوسنة ١٨٨٠ والراجح ان هذا التاريخ صحيح

وكان ابراهيم الاغانى من أقدر تلاميذ جمال الدين وأفضلهم فى الازهر وهو لا يزال الآن حياً وهو موظف فى المحكمة ؟

لما انعقد مجلس النظار لكي ينظر فى عريضة عرابى التى طلب فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى ارتأى الخديو هو وعثمان رفقى أن يقبض على عرابي وينفى الي البحر الابيض ولكن رياضاً طلب القيام بتحقيق أولا . وبعد ارفضاض المجلس قابل طه باشا رياضا وأخبره بأنه اذا اصطنع الرفق مع عرابى فان الخديو يظن أنه (أى رياض) قد انضم الى الجنود ضد الخديو طمعاً فى الخديوية لنفسه فلما سمع رياض ذلك سكت عن المعارضة . وقد أخبرنى بهذا بعد ذلك محمود سامي وكان وزيراً في وزارة رياض وكان ابراهيم افندى الوكيل وحسن الشريعى واحمدمحمود زعماء الاحرار في مجلس النواب .

آراء أخرى

للشيخ محمد عبده عن الثورة العرابية

(في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٣ قدم لي الشيخ محمد عبده الملحوظات التالية) :

لما نفي الشيخ جمال الدين بعد عزل شريف ببضعة أيام سنة ١٨٧٩ أمرت بأن أبرح القاهرة وكنت استاذاً في مدرسة المعلمين وطلب الى أن أذهب الى قريتي . وكان خلفي في المدرسة الشيخ حسن وكان أعمى . فسئمت وجودي في قريتي واردت الذهاب الى الاسكندرية وكان البوليس يراقبني . فذهبت خفية الى طنطا وأخذت أجول فيها مدة طويلة . ثم رجعت الى القاهرة أملا في أن أقابل محمود سامي وكان صديقي وكان في ذلك الوقت وزيراً للاوقاف . ولكنه كان غائباً . فذهبت الى علي باشا مبارك وكان صديقي ايضاً وكان وزيراً للاشغال ولكنه قابلني أسوأ مقابلة ونصح لي في ذلك الوقت بأن لا أمكث في القاهرة لئلا يساء الظن بي واتهم بالاشتراك مع العصبة التي تألفت من شاهين باشا وعمر لطفي وغيرهما من حزب اسماعيل ضد رياض فذهبت ثانياً الى قريتي .

ولكني تولاني السأم ثانية لان القرويين كانوا لا ينفكون يتشاجرون فعزمت على أن أرجع الى الازهر لكي أدرس فيه . وكان رياض لا يجد أحداً يجيد الكتابة بالعربية لتحرير الجريدة الرسمية فاستشار محمود سامي فأخبره بأنه لو كان في مصر ثلاثة مثلي لنجت البلاد وكذلك قال بهذا الرأي الشيخ حسن الذي عين خلفاً لي بمدرسة المعلمين .

وعلى ذلك عينت في آخر رمضان (اكتوبر سنة ١٨٨٠) محرراً ثالثاً للجريدة الرسمية ولكن المحررين الذين كانا هناك أحسا الغيرة مني فلم يتركا لي شيئا أكتبه وعلى هذا لم يتحسن تحرير الجريدة . فاستاء رياض من ذلك وأجرى تحقيقا كانت نتيجته اني عينت رئيس التحرير ثم رقيت بعد ذلك الى رئيس المطبوعات . وكان هذا قبل نهاية سنة ١٨٨٠

وكانت أول مرة لقيتك فيها عندما زرتك مع روجر فى فندق النيل وقد أرسلت لك محمد خليل . وهو الذي جاء بك بعد ذلك لزيارتى في منزلى . وكنت أنتقد الحكومة بشدة فى الجريدة الرسمية وكنت لا أضيق على الجرائد باعتباري رئيس قلم المطبوعات . ولكن لم تكن الثورة من رأيي وكنت قانعاً بالحصول على الدستور فى ظرف خمس سنوات فلم أوافق على عزل رياض فى سبتمبر سنة ١٨٨١ . وقبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام التقيت بعرابى فى دار طلبه عصمت . وكان قد جاء مع عرابي لطيف بك سليم وكان هناك عدد كبير من الزائرين . فنصحت لعرابى بالاعتدال وقلت له : « انى أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا وان لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب فى ذلك » فأجابنى عرابي أنه يرجو أن لا تقع هذه اللعنة عليه وأن سلطان باشا وعده بأنه سيحصر له عرائض لطلب الدستور ممضاة من جميع الاعيان . وكان هذا صحيحاً . فان جميع العمد كانوا مستائين من رياض لانه منعهم من تسخير العمال وقطع هذه العادة . ولم ينضم سليمان أباظه الى الثورة لانه كان يعتقد أنه لم يئن أو انها بعد وكان الشريعي باشا ضد الثورة أيضاً .

ولكن لما منح الدستور انضممنا جميعاً الى الثورة لكي نحمى الدستور . ولكن عرابى لم يتمكن من ضبط الجيش وكانت عند الضباط مطامع عديدة .

ولم أكن أعلم شيئاً عن مظاهرة عابدين ولم أخبر عنها قبلا لاعتقاد أنى من حزب رياض . ولكن المظاهرة دبرت برأى سلطان باشا وشريف باشا وكانت آراء الخديو كثيرة التقلب من جهة عرابى . وقد انضم الى رياض والى داود باشا فى محاولتهما سحق عرابي . ولكن المتظاهرين أخبروا الخديو عن المظاهرة قبل حدوثها بيوم وافق عليها لانه كان يرغب فى عزل رياض .

حديث مع عرابي

فى الشيخ عبيد فى ٢ يناير سنة ١٩٠٤

تسألنى عن تاريخ أول اتصال الخديو توفيق بنا نحن الجنود . فأقول أنه قبل حادثة قصر النيل أرسل الينا الخديو على فهمي لتخبره بما نفعل ولكن على فهمي كان صديقنا وانضم الينا في العريضة التى رفعناها الى رياض باشا وقبض عليه أيضاً معنا ولما رأى الخديو مكانتنا فى عين الجمهور بعد حادثة قصر النيل أراد أن يستفيد بنفوذنا في مناوأة رياض فارسل الينا على فهمي بهذه الرسالة : « أنتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم » وكان هذا بعد شهر من حادثة قصر النيـل . وقد علمنا أيضاً من محمود سامي الذى كان وزيراً أننا ملنا حظوة الخـديو . وقال لنا محمود سـامي في ذلك الوقت : « اذا رأيتمـوني عزلت من الوزارة فاعلموا أن الخـديو قد تغير نحوكم وانه يريد بكم شراً »

وكنا في سـنة ١٨٨١ عند بدء القلاقل فى الصيف نثق بمحمود سـامي وكان رياض باشا وزيراً للداخلية يبث علينا العيون ويجعل البوليس يراقبنا .

وكان الاستياء مني عظيما لأني رفضت ان اسمح بسفر جنودى لـكي يحفروا قناة التوفيقية بأمر علي باشا مبارك وزير الاشغال. فتغير الخديو لهذا السبب ولاسباب أخرى علينا وعزم مع رياض على ان يعملا لشق الاتحاد الموجود فى الجيش وذلك بتشتيت الفرق فى أماكن بعيدة يحول بعدها دون اتصال الضباط فطلب الخديو وكان في ذلك الوقت فى الاسكندرية من محمود سامى وزير الحربية أن ينفذ هذه الخطة فلما رفض محمود سامى تنفيذ هذه الخطة كتب اليه رياض يقول . « قد قبل الخديو استقالتكم » ثم أشار كلاهما أى الخديو ورياض على محمود سامي أن يبرح القاهرة ويسافر الى قريته قريبا من طنطا وان يلزمها ولا يعود الى القاهـرة او يكاتب الضـباط . ولكنه حضر الى القاهرة ونزل فى منزله فذهبنا لزيارته فرفض ان يقابلنا . فعلمنا انه يراد بنا شر . وعين الخديو بدلا عنه داود باشا يكن فاشتد غيظنا من ذلك وايقنا انهم سيحاولون اهلاكنا

وفي اوائل سبتمبر عاد الخديو ووزراؤه الى القاهرة وعقدوا نيتهم على أن ينفوا منا فاستشرت عبد العال وعبد الغفار قائد الخيالة فى الجزيرة وفوده بك حسن القائمقام فى القلعة وكان الميرالاى فى القلعة قد عزله محمود سامى قبل استقالته ولم يعين مكانه أحد . وكان الاميرالاى من جنسنا ولكنه كان خائناً فاتفقنا على ان نقوم بمظاهرة نطلب فيها عزل الوزارة وتعيين وزارة وطنية وعقد مجلس النواب وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ رجل ولكننا لم نخبر على فهمي عن اتفاقنا هذا لاننا لم نكن نثق به فى ذلك الوقت كل الثقة . وفى صبيحة اليوم التالى كتبت طلباتنا وبعثتها الى الخديو فى قصر الاسماعيلية واخبرته باننا سنسير الى ميدان عابدين في العصر لكي نتسلم جوابه . وسبب ذهابنا الى عابدين بدلا من قصر الاسماعيلية هو ان قصر عابدين هو مقامه الرسمي ولم تكن لنا ايضاً رغبة فى ازعاج سيدات القصر ، ولكنه لو لم يحضر الى عابدين لكنا ذهبنا اليه فى قصر الاسماعيلية .

فلما تسلم الخديو عريضتنا أرسل الى رياض وخيرى باشا وستون باشا فذهبوا الى ثكنة عابدين فخاطب رياض والخديو الجنود وأمرا على فهمى بأن يحتل هو وجنوده قصر عابدين. فأطاع على فهمي ووضع جنوده فى الغرف العليا حتى يستطيعوا أن يضربونا بالنار من النوافذ ، ولكني لا أدري هل كانوا قد اعطوا خراطيش أم لا ؟ . ثم ذهب الخديو ووزراؤه الى القلعة وخاطبوا الجنود بمثل ما خاطبوا به في عابدين وطلب الخديو من فوده بك أن يقبض علينا ووبخه قائلا له : « سألقيك فى السجن » . ولكن الجنود تكأكأوا حول مركبته فخاف الخديو وأمر السائق أن يسير به الى العباسية وذلك باشارة رياض لكي يخاطبنى أنا أيضاً . ولكنى كنت حينئذ أخذت جنودى وذهبت الى عابدين عن طريق الحسينية . فسألوا عن المدافع فقيل لهم أننا أخذناها الى عابدين . فلما وصل الخديو وجدنا قد احتللنا الميدان ووجد الخيالة والمدافع تواجه الباب الغربى

وكنت عند وصولى الى ميدان عابدين قد علمت بوجود على فهمي فى القصر فبعثت اليه بكلمة فترك القصر وجاء الى الميدان وانضم الينا ودخل الخديو الى القصر من الباب الشرقي ولكنه لم يلبث طويلا فانه جاء الينا ومعه حرسه وقواده ولكني

ـا أو كوافن بينهم وربما كان مع ذلك هناك، فطلب مني الخديو أن أنزل عن جوادي فنزلت . فطلب مني ايضاً أن أغمد سيفي . فأغمدته . وهنا اقترب مني الضباط لانهم كانوا يخشون الخيانة والغدر . ووقف بعضهم أي نحو خمسين منهم بين الخديو وبين القصر . أما رياض فانه لم يخرج من القصر الى الميدان بل بقي فيه

فلما أفضيت الى الخديو بجملة مطالبنا الثلاثة قال لي

« أنا خديو البلاد وأعمل زي ما أنا عاوز »

فأجبته « ونحن لسنا عبيداً ولن نورث بعد اليوم » فلم يقل شيئاً آخر ولكنه رجع الى القصر . ثم ارسلوا في الحال كوكسون مع مترجمه فسألني لماذا الطلب وجود برلمان مع أني جندي فقلت له اننا نطلب ذلك لكي نقضي على الاستبداد وأشرت الى سائر الوطنيين الواقفين وراء الجنود . فأخذ يهددني وقال لي : سنطلب هنا جيشاً انجليزياً » وطال الجدال بيننا وكان يروح ويغدو بيننا وبين القصر وفعل ذلك نحو أربع مرات ثم اخبرني في النهاية بأن الخديو قبل كل شيء . وقال ان الخديو يرغب في تعيين حيدر باشا بدلا من رياض . فلم أوافق على ذلك . فلما طلب إلى أن أذكر اسم رئيس الوزراء الذي أرغب في تعيينه ذكرت شريف باشا وذلك لانه كان لا يعارض في وجود مجلس نواب وكنت أعرفه قبل ذلك معرفة قليلة في زمن سعيد باشا عندما كان في الجيش. وفي المساء أرسل لي الخديو فذهبت اليه في قصر الاسماعيلية . وشكرت لموافقته على مطالبنا فقال :

« كفي . كفي . أذهب الآن تواجل عن عابدين ولكن بدون موسيقى في الشوارع » وذلك حتى لا يظن أحد اننا نفعل هذا لسرورنا

ولما حضر الى القاهرة علي باشا نظامي واحمد باشا راتب من قبل السلطان خاف الخديو لئلا يفتح تحقيق . وكان محمود سامي وزيراً الحربية فأمرنا بأن نبرح القاهرة فذهبت أنا الى رأس الوادي وذهب عبد العال الى دمياط وبقي علي فهمي في القاهرة . فلم أر علي نظامي . ولكني كنت قد ذهبت الى الزقازيق لزيارة صديقي احمد افندي الشمسي وسليمان باشا أباظه . ثم بعد انتهاء الزيارة أقلني القطار الى رأس الوادي . وكان احمد باشا راتب في نفس القطار وكان مسافراً

الى السويس . فوجدت نفسي في مركبة واحدة معه فتبادلنا التحيات وتعرف كل منا بالآخر فاخبرني أنه يريد الحج وأشياء أخرى ولـكنه لم يخبرني عن المهمة التى جاء الى الخديو من أجلها وأنا أيضاً لم أسأله . ولـكني أخبرته بأني على ولاء السلطان وقصصت عليه جميع ما حدث . فقال لى . « لقد احسنتم »

وتركته فى رأس الوادى . وبعد ذلك أرسل لى نسخه من المصحف الشريف من جدة وبعد ذلك لما عاد الى الاستانة تسلمت خطابا أملاه السلطان على الشيخ محمد ظافر يخبرنى فيه السلطان باشياء أعرفها

أما يعقوب سامي فهو من أصل أغريقي من الاستانة . وقد ذهب بأمرى الى الاسكندرية لفتح تحقيق عن مسألة الهياج ولـكنهم لم يسمحوا له بعمل التحقيق . وكان يعقوب سامي هـذا هو راغب باشا صاحب الاقتراح بقطع رأس الخديو . وأنت تقول الآن انه كان يحسن بنا أن نفعل ذلك . ولكني كنت أرغب فى أن تتم ثورتنا دون أن تراق فيها نقطة دم واحدة .

اضطرابات الاسكندرية

هذه مذكرة تاريخية وضعت فى سنة ١٨٨٣ عن اضطرابات الاسكندرية التى حدثت في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ . وهي موضوعة على أساس الادلة التى قدمت عن أسباب الاضطرابات :—

« هذه هي الحقائق التي أسفر عنها البحث فى مسألة الاضطرابات :—

١ — علي أثر الخلاف الذى شجر بين الخديو ووزراء وأعضاء الحزب الوطني في مسألة المؤامرة الشركسية (مايو سنه ١٨٨٢) اجتهد الخديو ان يجد قوة يعتمد عليها بدلا من الجيش الذى كان يؤيد الوزراء فعمل لشراء مساعدة البدو الذين يقطنون اقليم البحيرة بين القاهرة والاسكندرية بواسطة رجل يدعى ابراهيم بك توفيق . وقد انفق في هذا السبيل عشرين الف جنيه حصلت قبيلة أولاد علي علي أكثرها . وقد جاء مشايخ هؤلاء العربان الى مصر فاستقبلهم الخديو استقبالا فخما واتفق معهم علي ان يدخلوا جماعات غفيرة من رجالهم الى القاهرة بطريق الجيزة على نية أن يحدثوا هياجا فى المدينة . وذلك أن حزب السراي كان جادا فى ذلك الحين في اثبات أن الفوضي ضاربة أطنابها فى مصر وكان غرضه من ذلك ان يقيم الحجة على عدم كفاءة الوزارة الوطنية . وقد فشل هذا المشروع بسبب ضعف البدو الذين خافوا دخول المدينة التى يفصلها النيل عن صحرائهم والتى يكثر فيها الجنود . ولكن عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية الشركسي استطاع بعد ذلك أن يقنع جماعة من قبيلة أولاد على بدخول الاسكندرية ، وهى فى منطقتهم ، غير مسلحين لعب دور فى الاضطرابات أما أسلحتهم فقد حفظها لهم رجال البوليس وسلموها لهم يوم الاضطراب

٢ — كان عمر لطفى ، رغم شركسيته ، يتظاهر حتى أواسط مايو بانه كأكثر الموظفين موال للحركة الوطنية مؤيد للقائمين بها ولكن ما عتم الخديو أن استقدم اليه عمر لطفى هذا بعد الانذار القنصلى النهائي الذى قدم فى ٢٤ مايو سنة ١٨٨٢ والذى استقالت الوزارة الوطنيـة أثر تقديمه . فلما وصل إلى القاهرة عرض عليه الخديو يوم ٢٦ مايو منصبا فى الوزارة التى كان يسعى الى تشكيلها . ولا شك في أن

عمر لطفي كان يفوز بهذا المنصب لو لا عودة عرابي الى السلطة (وهذه نقطة مهمة لأنها تكشف عن سبب اهتمام عمر لطفي بعد ذلك باسقاط عرابي)

٣ — لمارجع عرابي إلى السلطة باعتباره الرجل الوحيد القادر على حفظ الامن والنظام وبعد ضمان الامن الذى أعطاه للقناصل عاد الخديو الى مشروعه الاول ، مشروع خلق الفوضى واختلال النظام ولكن فى ميدان جديد غير ميدان القاهرة . وكانوا ينتظرون أن يصل درويش باشا بسرعة ليحكم بين الخديو ووزرائه فكان ضروريا أن يجد الخديو معلما يتذرع به الى التشهير بالوزراء ومن ثم أرسل يوم ٣ يونيو الى عمر لطفي تلغرافاً بالشفرة هذا نصه : —

« ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك فى الصحف وحمل نفسه مسئولا امام القناصل . فاذا نجح فى حفظ الامن فلا بد من أن تثق به الدول وان يصبح ما بقي لنا من اعتبار . أضف الى ذلك ان أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية والخواطر متهيجة عليك الآن أن تختار لنفسك : فاما ان تخدم عرابي فى ضمانه للامن أو أن تخدمنا »

٤ — أرسل الخديو صهره حيدر باشا مرتين خلال الاسبوع التالى الى الاسكندرية وكان يقابله مقابلة سرية قبل ذهابه وبعد ايابه . وكان حيدر باشا في الاسكندرية يوم وقع الاضطراب.فلما انتهى الاضطراب عاد الى الخديو فى الحال.

٥ — نشرت جريدة المحروسة (لسان حال شريف باشا التى كان يحررها سليم نقاش السورى المارونى) فى الاسبوع الذى سبق الاضطرابات بيانا مكذوبا عن اضطرابات حدثت في القاهرة . وكان الغرض من ذلك اعداد الاذهان لقبول انباء اضطرابات الاسكندرية وقد وزع هذا البيان فى دوائر الاسكندرية الرسمية دوصل التحقيق الي مصدرالتوزيع .

٦ — احتشد البدو الذين تقدم ذكرهم خلال هذا الاسبوع فى ضواحي الاسكندرية وقد لفت نظر المحافظ عمر لطفى الى اجتماعهم بلا نتيجة وكذلك لفت نظره بلا نتيجة الى احتشاد الرعاع فى الاحياء الافرنجية بلا مبرر وخلافاً للعادة .

٧ — حدث يوم ٩ يونيو (أى قبل الاضطرابات بيومين) انه بعد ان تخابر

الخديو مع درويش باشا مندوب السلطان ان استقدم الخديو عمر لطفي الى القاهرة على قطار خاص وبعد ان فاوضه طويلا مفاوضة سرية عاد عمر لطفي الى الاسكندرية في القطار الخاص . وهناك أدلة غير مباشرة على ان درويش باشا والشيخ أسعد حين وصلا الى الاسكندرية تسلم كل منهما هدية من الخديو فأخذ درويش ثلاثين الف جنيه وأخذ أسعد تسعة آلاف جنيه وهذان المبلغان حصل عليهما الخديو من طريق رهن ممتلكات زوجته الخصوصية .

٨ — في يوم ١٠ يونيو أى في اليوم السابق ليوم الاضطراب حدث اجتماع في منزل درويش باشا بين درويش والشيخ أسعد احد رسولي السلطان من ناحية وعرابي ومحمود سامي من ناحية أخرى وكان هذا أول اجتماع بين درويش وعرابي. وكانت مقابلة درويش ودية جداً وقد طلب من عرابي أن يتخلى له عن قيادة الجيش باسم المصلحة العامة وأن يوافق على الذهاب الى الاستانة . وقد وافق عرابي على هذين الطلبين بشروط أهمها ان يعطيه درويش باشا كتابة من عهد المحافظة على الامن وما تبعه من المسئوليات . وقد وعد درويش باشا باجابة هذا الطلب على أن يسلم لعرابي الوثيقة المطلوبة يوم الاثنين ١٢ يونيو بدعوى انه سيعقد اجتماع بين الخديو والقناصل في ذلك اليوم وهكذا تركت مسألة التخلي لدرويش عن قيادة الجيش الى يوم الاثنين أيضاً .

٩ — حدث في اليوم نفسه وهو اليوم التالي ليوم عودة عمر لطفي الى الاسكندرية أن استدعى هذا قنديل رئيس البوليس ليتفق معه على تدبير اضطراب سبق ساعتين وقد كان قنديل مريضاً أو متمارضاً ولكنه أبى عبير انه لم يشأ ان يورط نفسه في المسألة فعاد الى منزله ولزم فراشه تاركا قيادة البوليس لحسن بك صادق . وليس ثمة أدلة على انه كان في النية عمل شيء غير اضطراب ساعتين اثنتين . والراجح انه لو سلم عرابي بمطالب درويش بلا شرط لكان التدبير قد الغى أو لكان الاضطراب قد قمع في أول لحظة بواسطة الجند النظامي الذى كان يستخدم حينئذ باسم السلطان وهنا يجب الا ننسى ان البوليس والمستحفظين كانوا تحت قيادة عمر لطفي وهو الذى كان يتقدم مرتباتهم وانه مادامت لم تكن قد أعلنت حالة حصار فلم يكن في الطاقة

أن يتدخل جنود الجيش فى المدينة الا بناء على أمر مكتوب موقع عليه من المحافظ أما المحافظ فلم يكن مسئولا مسئولية قانونية الا امام الخديو لأنه منذ استقال محمود سامي لم يعين وزير للداخلية .

١٠ — حدث يوم ١١ يونيو يوم الاضطراب بالذات ، ان استأجر مالطى حماراً (وقيل مركبة فى بعض الروايات) وبعد ان طاف على محال الشراب فى الاحياء الاوروبية وقف عند مشرب « القرار » ثم أخذ يتشاجر مع المكارى أوالسائق وهو مصري مسلم يدعى سيد العجان على الاجرة فلما تبعه هذا الى المشرب طعنه المالطى بسكين فافضى هذا الى تعميم المشاجرة واتساعها ولما طلب الى البوليس ثم الى المستحفظين بعدذلك ان يتدخلوا أبوا أو انهم تدخلوا ليضيفوا ضيغثا على ابالة ثم أطلقت النار من منزل يسكنه مالطيون على الجمهور في الشارع ثم جاء جماعة من المسلمين اكثرهم برابرة مسلحين بالعصي من الحي الوطنى فى المدينة ودخل البدو الذين تقدم ذكرهم فى المدينة أيضاً واشتركوا فى الشجار وهكذا تحولت الحادثة الى معركة عمومية وقد اهين القنصل الانجليزى الذى وصلت اليه رسالة من لطفي عمر وضرب . ولم يحضر عمر لطفي في اول الامر الى محل الحادث فلما جاء فى نيابة المدينة ولم يفعل قط شيئا من شأنه ان يقف الهياج لا بل انه قد سمع بحض بعض البدو على الضرب ولم يخطر عمر لطفى حتي العصر السلطات العسكرية ولا هو أرسل الانباء الي عرابى فى مصر ولكن تبادلت تلغرافات كثيرة بينه وبين الخديو . وقد أمره الخديو فى تلغراف من هذه بألا يستخدم الجند النظامي . ولكن اقترح عليه ان يقف الاضطراب الذى كان قد تحول الى مذبحه مستعيناً باهم آلات الاساطيل الاجنبية الراسية فى مياه الاسكندرية . وهكذا لم ترسل رسالة الى سليمان سامي قائد الجنود الا بعد الساعة الرابعة ولم تكن الرسالة التى أرسلت بعد ذلك مكتوبة ، الامر الذى أدى الى تأجيل التداخل العسكرى وقتا آخر . على ان أغرب من هذا كله ان طلب تداخل الجنود على الا يكونوا مسلحين ! وأخيراً أرسل سليمان سامي الجنود مسلحين على مسئوليته فى الساعة الخامسة وقمع الاضطراب .

١١ — حدث بعد ظهر يوم الاضطراب ان أقيمت الافراح فى قصر الخديو

وفي الديوان نفسه وصرح علناً فيها أن عرابي قد هدم . وهنالك أدلة جمة على هذه الافراح التي أقيمت فى السراى وعلى ما وقع فيه الوطنيون من الاضطراب والحيرة ولم يدع عرابي الى التدخل فى الامر الا حوالي الساعة الخامسة تقريباً

١٢ — لم تحدث بعد يوم ١١ يونيو تحقيقات جدية عن أسباب الهياج رغم الحاح عرابي المتتابع فى شأنها . وثبت ان الخديوى كان يستعين ببعض القناصل كما انه من المعروف ان بعض الاوروبيين لعب دوراً في المراحل الاولى من الهياج، وانه حينما تولى راغب رئاسة مجلس النظار وبعد التئام الظاهري بين الخديوى والحزب الوطني سمح بأجراء تحقيقات ولو أن المسألة كانت قد عرفت تماماً .

١٣ — لم يحدث تحقيق علنى ولا محاكمة مع كل من عمر لطفى وحسين بك صادق (الذى كان يتولى قيادة البوليس بالنيابة فى يوم الهياج) بل على العكس من ذلك أعطيت أجازة لعمر لطفي من الخديوى عقب الحادث بقليل وكان على وشك مغادرة القطر المصرى حينما أطلقت النيران على الاسكندرية . وانه كان بعد ذلك يقابل بالترحاب فى السراى ثم منح المنصب الذى كان وعد به فى حالة سقوط عرابى وهو مركز نظارة الحربية الذى يتربع فيه الآن ويتمتع بكل ما يحوطه من الأبهة والشرف .

تقرير احمد بك رفعت

الذى كتبه سنة ١٨٨٢ وهو فى السجن

عرفت أسباب حادث ١١ يونيو وعرفت المساعى الاخرى التى بذلت لاحداث مثله بغرض اسقاط هيبة مجلس النظار الوطنى وضباطه والحزب نفسه الذى كان يدير دفة السياسة فى ذلك الوقت فى أعين الدول الاوروبية .

وحينما نشأ الخلاف بين الخديوي ووزارة محمود سامي (وذلك قبل الانذار) جرت فى القاهرة اشاعة فحواها ان الخديوى سيعمل بواسطة بعض أتباعه على اثارة مذبحة فى القاهرة — حتى ان محمود سامي (وزير الداخلية حينئذ) وهو بمنزل عمر

بك رحمي في ليلة من الليالي وصلت الى مسامعه هذه الاشاعة فدعي اليه حكدار البوليس فى الحال وأمره أن يذهب على فوره ويزيد قوة الخفر الليلية وأن يعمل كل ما فى جهده لحفظ النظام وخرج الحكدار فى الحال ونفذ الاوامر . واستمرت الوزارة طول مدة بقائها فى الحكم ساهرة على منع تحقق هذه الاشاعة على وجه خاص

وحينما رأى الخديوى أن خطته فى هذا السبيل غير مكللة بالنجاح دعى اليه ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب منه أن يجمع مشايخ البدو ورؤساء القبائل وأن يحضرهم اليه . وحدث ذلك فعلا . وحينما مثل الاعراب بين يديه قابلهم بترحاب عظيم ووعدهم بوعود جمة وأفهم المدير أن يأمرهم بجمع ثلاثة آلاف رجل من الاعراب وأن يحضروهم الى العاصمة عن طريق الجيزة — وأمله من ذلك أن الاعراب قوم لا نظام عندهم ولذلك فالاضطرابات تنشأ فى المدينة بوصولهم ويعكر صفو السلام وينسب كل ذلك الى الجيش . وكان الرأى ان الاعراب تدخل كحراس للخديوى . ومضى شهر ومشايخ الأعراب يروحون ويجيئون دون أن يتمكنوا من جمع هذا العدد الكبير واحضاره الى القاهرة وسبب ذلك خوف هذه القبائل من جنود الجيش

وحينما فشل الخديوى أيضا فى هذه الخطة كتب تلغرافات بالشفرة الى عمر لطفى وكان حينئذ حاكما لمدينة الاسكندرية وأخبره بما يأتي « ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل . فاذا نجح في حفظ الامن فلا بد من أن تضع فيه الدول ثقتها وعندها يضيع مالنا من اعتبار . أضف الى ذلك ان أساطيل الدول في مياه الاسكندرية والخواطر متهيجة وعليك الآن أن تختار لنفسك : أما ان تخدم عرابي في ضمانته للامن وأما أن تخدمنا »

وسرعان ماذاعت أخبار هذا التلغراف على الالسن وقيل حينئذ أنه من أحد موظفى مكتب التلغراف بالسراى .

وفى يوم الحادث (١١ يونيو) ذهبت الى ديوان السراى أو المعية (كما نسميه نحن مكتب مدير البلاط) ووجدت موظفى السراي فى سرور وفرح عظيم لما قد حدث . وكانوا يتحدثون عنه ويبالغون في أخباره ويهزأون بعرابى وبضمانه في حفظ الامن .

وكانت العادة المتبعة منذ الخديوى السابق أن موظفي السراى لا ينطقون الا ما يرضي مولاهم . وفى كل يوم يتحدثون بما يصل اليهم من الاخبار وكانوا يهشون ويفرحون ان كانت موافقة لهوى الخديوى ويتظاهرون بكل مايملكون من مظاهر الحزن ان كانت غير ذلك .

وفى اليوم التالى للحادث انتشرت الاخبار فى القاهرة ان الخديوى أرسل تلغرافا الى عمر لطفى يأمره فيه بما يأتى : « اطلب المعونة العسكرية من الاميرال ولا تطلب جنودا مصرية . » وأن عمر لطفي أجاب على ذلك بقوله « أن الاميرال غير موافق خشية أن يحدث شيء آخر من الجنود فى المدينة مما يكون من الصعب تلافيه » .

وحينما كنت فى الاسكندرية بعد الحادث باثنى عشر يوما سمعت جميع الاهالى يقولون بلسان واحد ان المحافظ (عمر لطفى) هو الذى ترك الحادث يصل الى هذا الحد لانه كان هناك ولم يصدر أى أوامر عنها كما انه لم يتوجه الى مكان الحادث الا بعد مرور بضع ساعات . وانه لم يستدع الجنود النظاميين مع انهم كانوا على مقربة من المكان وقالوا أيضا ان هذا التصرف كان بتحريض الخديوى . وسمعت منهم أيضا انه عند انتهاء المذبحة كان المحافظ (عمر لطفى) ينتقل من مكان الى آخر وان احد الاوروبيين كان مطلا من نافذة وبيده مسدس فقال احد البدو للمحافظ « هل اطلق النار على هذا الرجل يا باشا » . فأجابه « نعم اضربه » . فاطلق الاعرابى عليه رصاصة وقتله . وقالوا ان كثيرا من الاموال المسلوبة في هذا اليوم الاسود دخلت بيته وبيت أقاربه .

وسمعت من الاهالي في الاسكندرية أيضا ان (عمر لطفى) كان يحرض بعض الناس أثناء المذبحة بكلمات تشجيع وانه كان يعمل اشارات لرجال البوليس مغزاها ان لايهتموا بشيء ويقول « سيبوهم يموتوا ولاد الكلب » . وقبل الحادث ذهب حيدر باشا مرتين الى الاسكندرية وكان يعود فى كل مرة الى القاهرة وانه فى يوم الهياج كان موجودا بالاسكندرية وحينما انتهى عاد الى مصر . ورحل بعد ذلك مع الخديوى فى زيارته للاسكندرية .

وحينما الفت اللجنة للبحث فى أسباب الهياج لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي .

بل على العكس من ذلك أوعز اليه أن يستقيل بحجة المرض وان يقول انه يريد الذهاب الى أوروبا للاستشفاء، وبعد تنفيذ ذلك استمر متنقلا مابين مصر والاسكندرية الى أن أعلنت الحرب وعندها استقر بالاسكندرية وأصبح (أو عين) ناظراً للحربية.

وكان عرابي في أثناء ذلك كله عاملا جهده للمحافظة على تحقيق ضمانته للأمن دائم المرور في طرقات القاهرة أثناء الليل ليتفقد بنفسه البوليس وأرسل أوامره لجميع الأنحاء ان يسهروا على حفظ الامن.

كان عمر باشا لطفي حاكما لمدينة الاسكندرية اثناء الهياج وكان هو الشخص المسئول قانونا عن الامن ولكنه أهمله اهمالا تاما ان لم نقل انه عمل على زيادة الاضطراب فاذا كان ذلك الاهمال بناء على أوامر عرابي — كما يدعي عمر لطفي مع ان صلته في مركزه كانت مباشرة مع الخديوى من يوم ان أصدر الخديوى مرسوما يقول انه بعد استقالة سامي من وزارة الداخلية يكون مرجع جميع شئونها الى السراى — فكيف عين ناظراً للحربية ام هل كان ذلك مكافأة له على اطاعته لاوامر عرابي ومخالفته لاوامر سيده الخديوي؟ واذا كان الاهمال من عند نفسه وبدون ايعاز فكيف انه مع هذا الاهمال والعجز يعين ناظراً للحربية؟ وكيف أنه لم يوجه اليه سؤال واحد مع انه اول شخص يجب ان توجه اليه الاسئلة؟ والحق ان مجرى الحوادث ينبئ في بيان واضح على ان الخديوى بالانضمام الى عمر لطفي هما سبب هذا الهياج؟

وقد لعب الخديوى دور الدسائس نفسه في السودان واعتاد ان يكتب الى الحاكم هنالك ان لايأبه بتقدم المهدى رغبة منه في زيادة الاضطراب. وكانت التلغرافات التي ترسل الى السراى من حاكم السودان غير هذه التي ترسل الى ديوان الحكومة. وفي اليوم الذى أرسلت فيه الاخبار الى ديوان الحكومة بان المهدى قتل اجتهدت السراى ان تنفى هذا الخبر وكان الخديوي يتضجر من أى انسان يجنح في حديثه الى الهدوء ونشر السلام

وحينما كان الخديوى في سراى الرمل بالاسكندرية اثناء الحرب كان الاعراب الذين قدموا أنفسهم اليه لاثارة القلاقل متجمعين حول القصر. وهم الذين نهبوا وحرقوا الاسكندرية وارجعوا المهاجرين من أهالى البحيرة وسلبوا أمتعتهم واستمروا

على هــذه الحال الى ان عزل المدير الذي كان يشجعهم وعوقب كثير منهم حتى امتنعوا خوفا من الجنود الذين وصلوا الى المدينة واحتلوها

هذا ما أعرفه عن الحادث ولو كنت خارج السجن لاثبته بشهود لا يمكن دحضهم بحال من الاحوال .

تقرير الشيخ محمد عبده

الذى كتبه وهو فى منفاه سوريا عام ١٨٨٣

قبل حادث ١١ يونيو بايام قلائل أعلنت جريدة المحروسة (وهى جريدة تعبر عن رأي عمر لطفى) ان الاوروبيين فى الاسكندرية يعملون استعدادات حربية . ولم تعلن ذلك لاهالى الاسكندرية فحسب بل للقطر المصرى بأجمعه وعينت فى الوقت نفسه عدد الذين يسلحون أنفسهم .

وقد دفعت غرابة الخبر - اذ لم يكن هناك أى داع لهذه الاستعدادات — بعض الاعيان الى سؤال أحد محررى الجريدة عن الامر . فقال انه أمر بنشره ولكنه لم يبح باسم الشخص الذى أوصله اليه .

وقد ذهب يعقوب سامي (وكيل نظارة الحربية) الى الاسكندرية قبـل الهياج بمدة خمسة أيام ليستقبل درويش باشا . وحينما وصل الى هناك سمع ان تلغرافا من القاهرة يقول ان الخديوى ذبح وحينما بادر الى السؤال بالتلغراف من القاهرة عن حقيقة الامر أبلغوه ان الخديوى قتل حقيقة وان العاصمة فى هياج والمذابح قائمة ضد الاوروبيين . فأرسل تلغرافا ثانيا وهو فى حالة شديدة من اليأس والذهول الى مكتب قصر النيل فاستلم رداً مناقضاً للاخبار التي سبق له سماعها وتبين فيما بعد ان هذا الخبر المكذوب أرسل من مكتب الازبكية بالقاهرة وقصد به اثارة الخواطر بالاسكندرية ولكن وجود يعقوب سامى هناك حينئذ أخر الهياج الى زمن آخر .

وقبل الاضطراب الحقيقي ببضعة أيام شوهدت حركة غير معتادة بين الاوروبيين فى الحى المجاور للميدان الاكبر (ميدان القناصل) وقد وجه أحمد افندى نبيه رئيس

بوليس الناحية انظار الضبطية والمحافظ اليها بدون أى جدوى . وكذلك قدم طاهر افندى الكردلي من ضباط البوليس تقريراً عن معلوماته الخاصة عن هذه الحركة ولكن عمر لطفي لم يتخذ أي احتياطات .

بل ان عمر لطفي نفسه كان من أهم الشخصيات الظاهرة التي اعتادت حينئذ على عمل الولائم لرجال الحربية حيث كان يدعى الخطباء الى منزله وهناك كانوا يحضون على اعتناق مبادئ رجال الجيش . فهو الذى سن لغيره الخطة وتبعه كثيرون من ذوي الجاه والنفوذ فى عقد مثل هذه المجتمعات وكان هو أهم من يدعي اليها . وكانت هذه المجتمعات تطرق بالخطباء والصحفيين والاجانب وغيرهم . وكانت تلقى الخطب على مسمع منه دون ان يظهر أقل اشارة تدل على رغبته فى منعها . وأول شيء تم منه في سبيل هذا المنع كان تصريحه الذى نشر بعد ذلك .

ولكن سعادة المحافظ عاد أخيراً وادعى ان الهياج تسبب عن خطابات نديم مع ان خطابات نديم في ذلك الوقت كانت تعتبر من المسكنات لانها كانت تدعو الناس الى عدم الاشتباك فى مشاجرة حتى ولو أسيئت معاملتهم أو ضربوا بواسطة أوباش الاوروبيين منبهاً اياهم ان تلك هي الغاية التى كان يرمي اليها الخصوم لاعطاء الانجليز حجة يتمكنون بواسطتها من اطلاق النار على الاسكندرية . وهناك كثير من الاعيان يشهدون بذلك والحقيقة أيضاً ان نديم لم يكن في الاسكندرية عند حدوث الهياج بل كان فى القاهرة .

بدأ الهياج عند الساعة الواحدة بعد الظهر فى شارع ابراهيم على مقربة من مركز البوليس بين وطنى اسمه العجان وآخر من الجنسية المالطية ضرب الاول والقاه الى الارض مدرجا فى دمائه . وحينما أراد شقيقه ان يستعين ببوليس ايطالى القبض على المعتدى لم يكن من هذا أيضاً الا ان ضربه واساء اليه وعندها قابل هذا الشقيق أعمال البوليس الايطالى بالمثل . وتجمع الناس وأصيب أحد رجال البوليس بضربة من شقيق المعتدى عليه . وكان رجال البوليس من القلة بحيث لم يتمكنوا من تفريق المتجمهرين ولكن لم تكن الى هذا الوقت قد وجدت مشاغبات بمعنى الكلمة الى أن أطلقت أعيرة نارية من النوافذ بواسطة فريق من الاوروبيين .

وقد هاجم نفر من الاوروبيين المسلحين بعض أوباش الاسكندرية الذين قابلوا ذلك بجمع كل ما وقعت عليه أيديهم من عصى ومظلات وكراس من الحوانيت وقوائم الطاولات وغير ذلك ولكن سعادة المحافظ لم يخف الى مكان الحادث الا بعد ساعتين ونصف من ابتدائه . وعندما أرسل القنصل الانكليزى المستر ككسون لكى يلحقه الى هنالك بدون داع نعرفه لهذه الدعوة . وما كان من القنصل الا أن حضر وأخذ يشق صفوف الجماهير المحتشدة معرضا حياته للخطر .

ولم يبادر عمر لطفى حينئذ الى دعوة هذا الفريق من البوليس الذى كان تابعاً للضبطية وخاضعا لاوامره الخاصة . ولم يكن له علاقة ما بنظارة الحربية اذ كانت مرتباته وأنظمته كلها فى أيدى الادارة دون سواها . وحينما اضطر أخيراً الى دعوته (البوليس) طلب اليهم ان يحضروا غير مسلحين مما أدى الى اقتناعهم ان المحافظ يرغب فى زيادة الاضطراب . ولذلك حضروا الى مكان الحادث بهذه الروح وعلى هذه العقيدة واشتركوا مع الرعاع فى القتل والنهب وكانوا يرسلون ما تظفر به أيديهم الى بيت سعادة المحافظ .

وحينما رأى المحافظ ان الحالة أصبحت من الخطورة بحيث أن مسئوليته الجنائية محققة أرسل فى طلب الاسلحة وأمر أن ترسل فى عربة من عربات الحكومة . ولكنها لم توزع على البوليس الذى كان قد تشتت حين وصولها .

ولقد كان معسكر الجنود النظامية على مقربة من الحادث ولكنه ترك أربع ساعات طوال تمر دون أن يهم بدعوتها وحينما أرسل في دعوتها كانت رسالته شفوية غير قانونية فخاف رئيس الفرقة مصطفى عبد الرحيم من المسئولية وأرسل يطلب ان يكتب اليه الطلب بالطريق الرسمي المعتاد . وحينما أرسل هذا الطلب خرجت الجند وفرقت الجماهير وأعادت الامن بشهادة جميع قناصل الدول الاجنبية أنفسهم .

وكان يقصد المحافظ من اهمال الانظمة والاصول العسكرية ان يطول الجدل بينه وبين قائد الفرقة وبذلك يساعد نيران الاضطراب ان تمتد وتنتشر . وقد قيل ان سعادته كان يحرض الناس على النهب وحين سئل عن ذلك بواسطة أحد من

وصلتهم الاشاعة قال « نعم فعلت ذلك لكي أحول أنظار الجماهير عن القتل » يا اله السموات أنها سياسة رشيدة حقا !

وفي أثناء الهياج طاف احد خدم المستر ككسون القنصل الانجليزى على الاوروبيين وحرضهم على التقدم وان يثابروا على النضال .

وحينما كان المحافظ وقائد القوات العسكرية ووكيل الضبطية جلوسا في ديوان المحاكم المختلطة بعد المغرب بساعة واحدة وصل اليهم خبر فحواه أن عربة مملوءة بالاسلحة كانت متجهة الى دار القنصل الانجليزي . وبينما قابل المحافظ هذا الخبر بدون أى اهتمام قام قائد القوات العسكرية وأوقف العربة وأفرغ ما بها فى ديوان الضبطية .

وحينما تبين لقائد القوات العسكرية الموجودة فى « باب شرقي » ان عمر لطفى نفسه يحرض على الاضطراب هم بالقبض عليه . ولكنه لم يتمكن من ذلك بما أن القطر لم يكن تحت الاحكام العرفية حينئذ ولذلك انتظر حضور وكيل نظارة الحربية يعقوب سامي لكي يفضي اليه بحقيقة المسألة . ولكن فكرة القبض قد تلاشت حين وصوله الى الاسكندرية

وحوالى الساعة السابعة مساءاً وصلت أخبار الى الاميرالاي مصطفى عبدالرحيم أن قواربا تسرع الى الشاطيء وعليها جنود بريطانية بقصد ايصالهم الى البلدة . وفي الحال أخطر المحافظ الذى استبعد ذلك كل البعد ولكنه لم يقتنع وتوجه الى القنصل الفرنسى الذى رافقه مع فريق من الضباط وشرذمة من الجند الى شاطيء البحر . وهناك تأكدوا من صحة الخبر وتوجهوا توا الى القنصل الانجليزي وبعد شيء من الجدل صدرت الاوامر الى القوارب بالرجوع ثانية بمن عليها .

ولقد احتج أغلب من قبض عليهم من المتهمين فى اليوم التالى للقبض مباشرة بأن الذنب ليس ذنبهم فقط بما أن سعادة المحافظ نفسه أمرهم بالنهب والاعتداء ولو أنه حصل تحقيق فى هذه الايام القلائل الاولى لانحصرت الشبهة بناء على أقوال الاغلبية الساحقة من المتهمين فى شخص المحافظ . ولكن الاميرال سيمور ؛

يسمح بمثل هذا التحقيق لئلا يتلاشي السبب الذى اعتمد عليه فى اطلاق النيران على الاسكندرية .

ولقد كان عند السيد قنديل أوراق تبين كيف ان الامر نظم بواسطة المحافظ والخديوى ودبر بالاتفاق فيما بينهما ، وحينما قبض عليه أجبر على تسليم هذه الاوراق ومع ذلك لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي بل على النقيض من ذلك رقي الى أعلى مراتب الدولة .

وحينما قامت المذبحة فى طنطا ذهب ابراهيم باشا أدهم مدير الغربية الى بناء الحكومة وجمع بقية الموظفين والكتاب والسكرتيرين وأغلق عليه وعليهم الابواب تاركا الاهلين وما يفعلون وبذلك انتشر الاضطراب وكان لابد أن ينتشر أكثر من ذلك لولا ان أحمد بك المنشاوى وأخاه — ولم يكونا من موظفي الحكومة — أخمدا الاضطرابات وأنقذا أرواح اليهود والمسيحيين والاغنياء من الرعاع ومهاجري الاسكندرية . ومع ذلك لم يسأل هذا المدير أيضاً عن شيء وأعيد الى وظيفته بعد الحرب ... ألا فليسجل الله عنده فى أم الكتاب وزر من كانوا سبباً فى اراقة هذه الدماء !

وفضلا عن ذلك فان من بين الاحكام التي أصدرت فى هذه الايام حكم صدر من محكمة الاسكندرية العسكرية ضد عبد الرزاق علوان وكيل مديرية البحيرة أثناء الحرب قاضيا بنفيه خمسة عشر عاما الى « مصوع » وذلك لمقاومته وتحريضه الثوار فى دمنهور ويعلم الله وكل انسان يعرف كيف أنه عرض حياته للخطر فى سبيل خدمة الناس والمحافظة على أموالهم . والسبب الحقيقي فى هياج دمنهور هو ابراهيم بك توفيق المدير — الذى رغم فصله من وظيفته فى اليوم السابق على الهياج ، عمل على تنفيذ خطته قبل ان يتسلم المدير الذى عين بدله أعماله — ومع ذلك أعيد الى منصبه فى مديرية البحيرة عقب انتهاء الحرب . وقد أخذ هذا الرجل أيضا ما يقرب من الاثنى عشر ألفا من الجنيهات رشوة من الاهالى . وعلى العموم فما عمله من سيئات كان يستلزم زمنا طويلا لاصلاحه

وانى أعتقد ان الحكومة الانجليزية كانت مستعدة أن تعفو عن أى جريمة ارضاء

للمحتمي بها ء الجناب العالى الخديوى . ويظهر ان مهمة « اعادة النظام » التي تتقلدها الآن الحكومة الانجليزية تنحصر فى تجسيم مطامع سموه واثارة رغبته فى الانتقام من حوله . مضحية فى سبيل اهوائهم جمهور الاهلين البائس . وتعتقد انه من الممكن ايهامنا على لسان الصحف ان اعادة النظام ونشر لواء العدل كان بفضل الخديوى ونظاره والجيش الانجليزى .

وليست هناك أية حاجة لسؤال المصريين عن مبلغ آلامهم . اذ يكفي فى ذلك أن تنصت الى تأوهاتهم وأحزانهم .

تقرير عرابى

حقيقة حوادث ١١ يونيو عام ١٨٨٢ التى وقعت بالاسكندرية

ان حزب السراى المكون من الأتراك والشراكسة عدو للانسانية فهم يعتقدون ان الله القدير لم يخلق المصريين الا ليكونوا عبيداً لهم وخدامهم الذين يتخذونهم آلة لنشر سلطانهم المطلق تبعا لما توحيه اليهم أهواؤهم وهم فى كل ذلك يعاملونهم بقسوة واحتقار . وحينما رأوا (الاتراك والشراكسة من حزب السراى) ان مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمرها وان فريقا نابها من بين هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيدهم قد خطوا خطوات شاسعة الى الامام وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم المقدسة وان سواهم من ذوى المواهب قد ارتقوا الى مناصب رفيعة من مناصب الدولة وأن الامة بدأت تستشعر الحرية . وتخلع عن أيديها اغلال الاستعباد وان كل ذلك يحدث فى جو من الهدوء والسكينة — كبر ذلك جدا فى أعين خصوم المصريين وتبين لهم ان لاسبيل الى وضع العراقيل فى سبيل التقدم المصرى الا باثارة حملة وحشية دينية ضد أوروبا تحملها على اتخاذ تدابير فعالة لاطفاء جذوة المصريين المتعلمين واخراجهم من وطنهم — اذ انهم ببلوغهم هذه الغاية يخلو لهم الجو لاعادة عهد الاستعباد فى مصر — ولذلك اتفقوا فيما بينهم (حزب السراى) على تنفيذ هذه الخطة مستخدمين العصيان الذى كنت أعلنه

للاوروبيين عن سلامتهم وحفظ الامن فى جميع أنحاء القطر المصري (وهو الضمان الذى حلني الخديوي أعباءه فى حضرة درويش باشا مندوب السلطان وجميع قناصل الدول الاوروبية) واتخذوه وسيلة لتنفيذ مؤامرتهم — حتى يتمكنوا بذلك من تشويه حركتنا فى نظر الاوروبيين . وأدلة ذلك هي : ـ

أولا — أرسل الخديوى الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية أن يحضر اليه بقطار خاص فى ٩ يونيو عام ١٨٨٢ وحين وصوله دارت بينهما محادثات طويلة زوده فيها بمعلومات خاصة بتنظيم الاضطراب فى الاسكندرية وفي اليوم نفسه عاد عمر لطفى وبدأ فى تنفيذ الخطط المتفق عليها حتى انه فى ١١ يونيو (أى بعد أخذ المعلومات من الخديوى بيومين اثنين فقط) انفجر الاضطراب ـ ودليل ذلك هم جنود البوليس أنفسهم ـ الذين ارتكبوا أغلب جرائم القتل أمام باب رئيس البوليس وباب الضبطية. ولم يقم جنود البوليس بواجبهم على خلاف المعتاد ولم تحضر الجنود الى مكان الحادث الا بعد أن تفاقم الخطب وحينما حضروا كانوا كالنظارة ـ بدون سلاح ـ وذلك على خلاف مايقضي به واجبهم ـ وفي أثناء كل هذه الحوادث كان المحافظ وقائد الجندرمة اسماعيل كامل باشا الشركسي يراقبانها من أولها لآخرها ومع ذلك لم يتحركا الى استدعاء الفرق (الجنود النظامية) ـ لاطفاء الفتنة الا بعد ان وصلت الى ذروتها ونفذت أوامر الخديوى السرية ولو انه كان في استطاعتهما أن يستدعيا الفرق فى الحال اذا أرادا

ثانيا ـ لم يعطنى عمر لطفى أى معلومات عن هذا الحادث مع انه يعلم انني أخذت تحت مسئوليتي وبضمانى حفظ الامن والسلام في جميع انحاء القطر وأن بيانا بهذا الشأن أعلن بواسطة الخديوي ونشر فى جميع الجرائد العربية والافرنجية .

ثالثا — أن عمر لطفى بعد أن صنع كل ذلك — اذ هو المحافظ المسئول عن كل ماحدث في المدينة — عين رئيسا للجنة التحقيق فى الحادث المحزن ثم طلب الأذن بالسماح له بالسفر الى الخارج لتبديل الهواء ولم يتأخر الخديوى عن اجابته الى هذا الطلب . وبعد ذلك اعتزل العمل ولكنه بقى في القطر لاعمال خاصة به الى أن قامت الحرب وعندها ذهب الى الخديوي فى الاسكندرية عن طريق بور سعيد

وعين حينئذ ناظراً للحربية . وكذلك فعل زميله اسماعيل كامل باشا الذى عين فيما بعد وكيلا لنظارة الحربية — كل هذه أدلة بينة على أن الهياج دبر أو نفذ بواسطة الخديوى بالاشتراك مع عمر لطفي باشا واسماعيل كامل باشا وبقية خصوم المصريين وذلك رغبة منهم في إثارة الاوروبيين ضدهم .

تقرير أحمد بك رفعت

المقدم لمستر بلنت من تونس فى عام ١٨٨٣

لا يزال يوجد أناس عنـدهم الجرأة الكافية أن يقولوا ويكتبوا أن الحزب الوطني المصرى ورئيسه مسئولون عن حوادث ١١ يونيو المشئومة بل أن بعض الكتاب لا يتردد فى ذكر أسماء معينة ويزعم أن أصحابها هم المحرضون على ما حدث فى اليوم المشئوم وذلك رغم ما أظهرته التحقيقات الاخيرة . وذهب بعضهم وهو يحاول ان يشرح الحوادث ومجراها أن يعين الغرض الحقيقي من الهياج فكان فى شرحه متناقضا حيث يقول« رغبة فى القاء الوهم فى مخيلة الباشا التركي (درويش باشا) من ناحية ومن ناحية أخرى فى التعظيم من مركز عرابي الممتاز الذى اعتبره القناصل مسئولا عن الامن العام عند الثوار الى تدبير اضطراب بدون تحديد لطبيعته أو شكله يخمده عرابي بعد ذلك بمجرد رفع يده » .

ونصفتي سكرتيراً عاماً للحكومة المصرية في عهد عرابى ولالمامي بأحوال بلادى وأحوال رجالاتها أرانى مضطراً خدمة للحقيقـة والوطن أن أبسط هنا المعلومات والشواهد التى تدحض هذه الاباطيل دحضاً نهائياً . واني أعطيك هذه المعلومات التفصيلية بسرور عظيم لعلمي باهتمامك الدائم بمصير هؤلاء المصريين الذين كان ذنبهم أنهم أحبوا بلادهم ودافعوا عنها . كما أنى لم أخف أن أقدم هذه المعلومات ألم كنت سجيناً مع عرابى ورأيت بعيني رأسي رجالا يعـدونها مفخرة أن ينسبوا هذا الرجل الذى كان رمزاً لمستقبل بلاده والذى لا يزال فى صدقه وحرية ضميره كذلك الى الآن .

فى يوم الاحد ١١ يونيو كان القومسير العثمانى درويش باشا ممتطياً عربته فى الشارع المؤدى من سراي الجزيرة الى كوبرى قصر النيـل . وكان حينئذ قد عقد اجتماعا طويلا في قصره الخاص مع عرابى باشا وجميع النظار السابقين ومتوجهاً بعده الى سراى الاسماعيلية حيث يقيم الخديوى لكى يعرض على مسامعه تفاصيل ائتلاف اتفق عليه والذى الى حد قولهم كان يوفق بين الخديو الصغير الجامح وبين نظاره . وحينما وصل درويش باشا الى الكبرى قابله طلعت باشا سكرتير الخديوى الخاص الذى كان مرسلا اليه من قبل سيده ليخبره عن حدوث هياج فى الاسكندرية وانه لا يزال مستمراً منذ ثلاث ساعات وان الاوروبيين والمسيحيين يذبحون فى كل مكان . وكانت تلقى هذه الاخبار لدرويش باشا فى هيئة الانتصار اذ ان وجه طلعت باشا كان مشرقا يتألق . وكأنما أراد أن يقول بذلك ان عرابى الذي عمل من أجله كل ما عمل هو سبب هذا الهياج . والحقيقة ان عرابي كان قد تعهد فى محضر من جميع القناصل أن يحافظ على الامن العام وان بيده اذا ما اضطرب أقل اضطراب. والآن هاهي الحوادث تكذبه والذابح دائرة منذ ثلاث ساعات وهو عاجز عن ان يفعل شيئا لاعادة النظام . ولم يكن هنالك شيء أسعد ولا أسر لانصار الخديوى من ذلك وكان جل أملهم أن يسحق عرابي باشـا ولو سحق فى سبيله السلم العمومى نفسه . وما كان من درويش باشا حينئذ الا ان ارسل رئيس أركان حربه الذى كان معه في العربة الى عرابي . واذ كنت حاضرا فى هذه اللحظة فقد أفسحت مكانا لرسول درويش باشا فى عربتى وأخذته الى منزل محمود باشا سامى حيث كان يوجد عرابي حينئذ .

ولم تلبث الاخبار ان انتشرت في المدينة ففزع الناس وأسـقط فى يد عرابى وأصحابه . بينما كانت سراى الخديوى في افراح . وكان محافظ الاسكندرية يجيب رسل عرابى بان الجيش قبض على ناصية الموقف وأعاد الامن الى نصابه وفى الوقت نفسه كانت الاشاعات المدهشة تنتشر بين الناس فى الطرقات . . . فالبعض يقول وكأنما هو يسل فى ذلك بناء على تعليمات خاصة ان عرابى أصدر أوامره باقامة المذبحة دون ان يعطي ايضاحات أخرى . ويقول آخرون بلهجة الرجل الاكثر اطلاعا ان

الحركة دبرت بواسطة رئيس النظار السابق محمود باشا سامي الذي يتولى قيادتها ولكن المتنورين رأوا فى المسألة مؤامرة خطيرة ولو انهم لم يبدوا رأيا حاسما فى الموضوع،اذ انهم لم يعتقدوا ولم يتصوروا انعرابى له علاقة بهذا الحادث لا مباشرة ولا بالواسطة .

فى ٢٨ مايو اى قبل الحادث بأربعة عشر يوما أعلن عرابى للدول انه يتحمل تحت مسئوليته الشخصية استتباب الامن والنظام. وكذلك أدرك عرابي واعلن ذلك مراراً فى صراحة تامة ان سلامة مصر تتوقف علي استتباب النظام فيها . وكان يعارض دائماً فى انزال الخديوي من على العرش بحجة انه حامى الخديوى من مثل هذه الطوارىء . وقد أراد بهاتين الظاهرتين أن يطمئن القناصل على حياتهم وأنفسهم وأن يهدىء خواطر الجماهير . فكيف يتأتي لهذا الرجل نفسه فى لحظة هو أدرى الناس بخطورتها أن يسفه مبادئه ويعمل على نقض ما وعد به ويظهر عجزه بيديه ؟ ولو أن عرابي حقيقة كان يملك أن يوقف الهياج باشارة من يده كما يقول الكاتب سالف الذكر لكان لنا أن نقول كما يقول هذا الكاتب ان عرابي أراد ان يتظاهر بقوته ولكن ما الحكم اذا كان الخديوى لم يكلف نفسه حتى ابلاغ ناظر حربيته بما حدث ولم يعلم عرابي باشا عن الحادث الا من طريق درويش باشا وكان ذلك بعد ابتداء الهياج بثلاث ساعات . فمن الطبيعى اذاً انه لم يوقف ولم يتمكن أن يوقف الهياج باشارة من يده .

ولكن هناك حقيقة لاشك فيها وهي أن الحادث كانت له مقدمات تنبيء عنه وكان يدبر وينظم بمهارة تفوق الوصف . فقد ثبت أن بعض المندوبين السريين قاموا بتوزيع نبابيت على الرعاع قبل حادث ١١ يونيو ببضعة أيام فقط . وان هذه « النبابيت » ظهرت في أنحاء المدينة المختلفة دفعة واحدة وفى اللحظة التى قتل فيها المكارى بواسطة المالطي لسبب تافه . وثبت أيضا أن طائفة المكاريين — وكانت معروفة بالهدوء والسكينة وبحبها « البقشيش » — لعبت دوراً خطيراً فى هذا اليوم المشئوم تحت تأثير هذه الرشوة الصغيرة وأن بعض الاروام والبدو كانوا مسلحين بالمسدسات أثناء الهياج ومحتمين في مخابىء بمنازل معينة وغرضهم الوحيد

اشعال المذبحة باطلاق النيران خلسة على جماهير الاوروبيين والمصريين وثبت أن بعض المشايخ المتعصبين انطلقوا من مكان لا يعرفه أحد وأخذوا يحرضون الاهالى على ذبح جميع المسيحيين . وأن قوة البوليس التى أرسلها المحافظ فى الظاهر لتخمد الفتنة كانت تخز الناس بحرابها بدل أن تحميهم وأن بعض المهاجرين البؤساء كانوا يقتلون علناً بواسطة رجال الضبط أمام أعين رئاسة البوليس وسمعها . وثبت أن البدو الذين حضروا الى الاسكندرية من البقاع المجاورة لما كانوا على وشك أن يقوموا بدورهم في النهب لولا أن ظهرت قوى الجيش النظامية وأجبرتهم على التراجع ولو أن ظهورها كان بعد أربع ساعات من قيام الفتنة

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن أهم رسل هذه الفظائع والجرائم كانوا من الاروام والمالطيين الذين لا يمكن اتهامهم بحال من الاحوال بالتعصب للاسلام ضد الاوربيين وكذلك المكاريين الذين يتكلمون قليلا من اللغة الانجليزية والفرنسية ولا يظن أنهم يحملون بغضا او كراهية للاوروبيين وكذلك البدو الاعراب من أهالى البحيرة الذين نقلت عنهم شركة روتر التلغرافية قبل المذبحة بقليل أنهم قدموا اقرارهم بالولاء والطاعة لاعتاب الجناب الخديوى فى مظاهر فخمة خلابة

ومن جهة أخرى فان محافظ الاسكندرية يفسر تراخيه فى ارسال الجيش النظامى لاخماد الفتنة بخوفه من انضمام الجند الى الثوار . ولكن سعادته لم يفسر لنا ولم يسأل بتاتا كيف أن خوفه هذا الذى استشعره عند بدء الهياج قد تلاشى حينما اشتدت المذبحة ووصلت الى ذروتها .

ولكن الحقيقة فى كل ذلك والتى كان عمال التلغراف المتصلون بالسراى على استعداد الى بسطها هو أن مراسلات عدة كانت تتبادل بين محافظ الاسكندرية والخديوى عقب اندلاع الفتنة مباشرة وكانت كلها تدور حول ارسال فرق من الاسطول الانجليزى أو الفرنسى للتدخل فى الامر . ولقد كان الخديوى الصغير لمدة من الزمن ينتظر بفارغ الصبر نزول القوى الاجنبية الى أرضه التى كانت مرسلة لتثبيت سلطانه وأن يراها فى القاهرة نفسها وتقبض على عرابى وجميع الوطنيين ثم تعود ثانية الى بوارجها وهي تنشد نشيد المجد لجنابه العالى . ولقد كان حمد

باشا ابن عم الخديوي في الاسكندرية فى يوم الهياج وساعد كما قيل على ذبح المسيحيين البؤساء. وقد كان قبل ذلك يعقد اجتماعات طويلة لمدة أيام متتاليات مع الخديوى فى « الحرملك » وكانت دائما تعقد فى المساء . ولم يلجأ المحافظ الى الجيش المصري ليضع حدا المذبحة وذلك باتفاقه مع الخديوي الا بعد فشل مفاوضاته مع قواد البحر الاورويين لارسال قوى من قبلهم . وهذه معلومات لها قيمتها عند جميع هؤلاء الذين يسمح لهم مركزهم أو تسمح لهم معلوماتهم عن السياسيين المصريين أن يكونوا رأيا صائبا عن حوادث ١١ يونيو .

وهنالك مسألة باقية ليست حقيقتها معلومة للجميع . وهى أن محافظ الاسكندرية فى وقت الهياج هو عمر لطفى وعمر لطفى هذا هو الروح الثانيـة لابراهيم المفتش صاحب الموارد والايرادات الضخمة والمفتش السابق للوجه القبلي الذى اشتهر بأعمال « كرباجه » فى الاهالى . وكان تعيين عمر لطفى فى عهد وزارة محمود سامي بناء على إلحاح وتوصيات الخديوى الحارة . اما عرابي باشا فقد كان شعوره الشخصى وما هو مولع به من الاستقامة ضد هذا التعيين وكان يشعر دائما بقلق من جرائه . ولكن رئيس النظار حينئذ كان يثق في كفاءة عمر باشا لطفى الشخصية ويعتقد انه لا يجرؤ مطلقا على خيانة الحزب الوطنى ولو انه لا ينتمي اليه وفى الوقت نفسه كان يرى فى هذا التعيين ارضاء للخديوى (وذلك قبل وصول القوى الاجنبيـة) الذى كان دائم التضجر مستمر الالحاح فى هذا التعيين ويقول أن الاسكندرية فى حاجة قصوى الى محافظ نشط قادر يملك حفظ الامن بها — وقد نجح في الحصول على موافقة مجلس النظار على هذا التعيين . وفى اليوم الثاني للمذبحة حصل عمر لطفى على اجازة غير محدودة المدى من الخديوى وأعد معداته للابحار على أول باخرة تقوم من الميناء .

وقد كونت ثلاث لجان بالتتابع للبحث في أسباب الحادث وا كتشاف المجرمين الحقيقيين ولكن لم تنجح واحدة منها فى مهمتها ولم يصلوا الى نتيجة ما بل ان لجنة التحقيق بالاسكندرية حينا عاقبت أخيراً فريقاً من هؤلاء الذين قد صبغت أيديهم بدماء الحوادث كان ذلك لانهم آلات لم تؤت من الذكاء القدر الكافي الذي ينجيها من الاتهام . مع ان الاشخاص الذين دبروا كل شيء وساروا فى تنفيذه لم يرد لهم

ذكر مطلقا في التحقيقات — لماذا ؟ هذا هو بيت القصيد .

هذه يا سيدى هي الحقائق والمعلومات التي يمكنني ان أبسطها لكم ومهما كانت الاستنتاجات التي يمكن الحصول عليها مما ذكرته فاني أظن اني قد أثبت كذب الاتهامات التي تكال عن قصد أو عن جهالة ضد الحزب الوطنى المصري وضد رئيسه.

واني مستعد ان أقسم على صدق هذه البيانات امام أي محكمة بل ومستعد ان أذهب الى لندن نفسها لأمامها واعطاء جميع الايضاحات اللازمة .

ملحوظة — كل هذه البيانات التى أعطيت عن الحادث قدمت للورد راندلف تشرشل فى عام ١٨٨٣ وقدمت بواسطته على ما أظن الى ادارة الشئون الخارجية . وكذلك قدمت اثباتات اضافيــة أخرى كنت جمعتها بنفسى الى المستر جلادستون ليبحثها ولكنه أبى ان يقوم بهذه المهمة .

مذكرة مرفوعة للورد راندلف تشرشل

فى عام ١٨٨٣ عن رأي المستر بيان فى الحادث

لشهادة المستر بيان عن منشأ مذبحة ١١ يونيو أهمية كبرى نظراً للظروف التى أحاطت بمركزه فى مصر ولما هو عليه من الخلق العالي فى الوقت نفسه . فمن المعلوم انه كان مترجما فى دار المندوب البريطانى حين نشوب الفتنة وكان بهذه الصفة فى احتكاك مستمر بالسراى وبالوطنيين من قبل السير ماليت . وانه فى شهر يوليو فى زمن القلق العام الذى سبق الحادث تركه السير ماليت وفى عهدته السجلات الرسميــة وقد استمر في القاهرة الى ما قبــل اطلاق النيران على الاسكندرية بيومين اثنين فقط وكذلك كان المستر بيان من أول من نزل الى أرض الاسكندرية بعد الحادث واشتغل شهراً مع اللورد شارلز بيرزفورد فى البعثة البوليسية وهو صاحب الفكرة فى معاقبــة الذين ارتكبوا أعمال النهب والقتل والحريق . ثم التحق بعد ذلك بأركان حرب السير جارنت وازلى وحضر جميع وقائع الحرب وانه بعد عودة السير ماليت عين هو والسير شارلز ولسن لمراقبة الاجراءات المتخذة فى محاكمة عرابي من قبل

حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا. وانه استخدم فى ترجمة الاوراق العربية المتعلقة بهذه القضية ومن بينها أوراق عرابى الخصوصية . وانه وضع بالاشتراك مع الميجر شرميد تقريراً نشر فى الكتاب الاخضر عن حالة السجون المصرية وهو تقرير استحق عليه الشكر من اللورد جرانفيل وانه حين اعتزاله خدمة حكومة صاحب الجلالة الملك فى ديسمبر عام ١٨٨٢ قدم له الشكر على خدماته من كل من اللورد جرنفل واللورد دفرين . وانه من ذلك الوقت عاش فى مصر حيث تولى بعد ذلك الدفاع عن قنديل وسجناء آخرين متهمين بالاشتراك في المذبحة . ولذلك كانت شهادته ذات قيمة خاصة بل هي أفضل ما يقدم فى هذا السبيل . ويمكن استخلاصها من النبذ الآتية المنتقاة من خطاباته المختلفة .

في خطاب لمستر بلنت من لندن فى ٦ نوفبر عام ١٨٨٢ يقول « ان رجال السراى هنا فى ارتباك عظيم أمام وصول اللورد دفرين الى هنا باكر . ولقد كان وصول برودلى صدمة قوية لهم ولكن وصول اللورد دفرين هو الضربة الاخيرة . واني أعتقد فى اللورد دوفرين أنه رجل فطن سيتمكن من فهم صاحبنا توفيق بسرعة وعلى ماعلمت أنه سيفتح أذنيه لكل انسان وأن البعثة المؤقتة ستمد بمعلومات أدق بكثير مما كانت عليه الحال مع دار العميد فى جميع الأوقات . ولقد حادثت كثيرين من الوطنيين قبل ضرب الاسطول لميناء الاسكندرية وهم من جميع الطبقات والاحزاب ووقفت على حقيقة الدور من أبطاله الأربعة — انجلترا وتركيا وعرابي وتوفيق . وكان لون كل منهم واضحا تمام الوضوح » .

« . . . واني أظن أن مسألة ابراهيم أغا وحدها تكفى أن تدل على حقيقة اتجاه الخديوى . فقد سمعت القصة كلها من السراى مباشرة — وكيف أن توتنجى قبل يد الخديوي وطلب أن يسمح له بأن يبصق في وجه السجناء الخ . وهذه هي المسألة التى حقق فيها السير شارلز ولسن ووجد أنها صحيحة من أولها لآخرها ولكن بما أن الخديوى كان لابد أن تظهر له عورات فى هذه المسألة فقد تركت جانباً ولقد اقترحت حينما رأيت أن جميع الشهود حانثون في ايمانهم ان اليمين التى تطلب منهم هى يمين الطلاق (على الطلاق بالثلاثة) وكان السير شارلز ولسن لمن رأيى

أيضاً ولكن المسألة وقفت عند هذا الحد . وعائلة الخديوي نفسها لا تخفى حقيقتها الآن فيما بين أنفسهم ولا تحاول اخفاءها ومع ذلك فهذا هو الرجل الذى ذهبنا نحارب من أجله فى مصر » .

وفي السابع عشر من الشهر نفسه كتب يقول « المسألة تتوقف الآن على ما لو سمح للمسجونين وأعطيت لهم الفرصة فيان يسمع دفاعهم عن أنفسهم باخلاص. لأني مقتنع الآن أن الحكومة هنا تعمل كل ما فى وسعها لعرقلة اجراءات المحاكمة . وذلك لان الحقائق التى تسفر عنها مناقشة المتهمين تمس جميع الرجال الذين فى الحكم الآن وتظهر حقائق غير سارة عن الخديوى نفسه . ولهذا السبب الاخير اعتقد أنه من الممكن ان تتفاهم الحكومة الانجليزية مع عرابي على شروط معينة لانه من المؤلم جداً أن تظهر المحاكمة أن الرجل الذى أرسلنا جيشاً الى مصر للانتصار له هو أكبر رجل دجال فيها . وانا شخصياً لا يكاد يخامرنى شك في أن الخديوى وعمر لطفى دبرا مذبحة الاسكندرية لكي يطعنا عرابى بها بعد ان جعل نفسه مسئولا عن الأمن العام وأن عندى أدلة تكفي أن تجعل ظني أقرب للاعتقاد منه لأى شيء آخر ولكن لم يحن الوقت لاظهارها » .

وفى اجابة له على خطاب سئل فيه أن يعطي معلومات أوفى وايضاحات عن حادث ١١ يونيو قال :

١٧ فبراير سنة ١٨٨٣

«اني مسرور أن أسمع عن الحملة التي تعدها ولكنى أرى أنه من الصعب جداً أن تظهر مسئولية الحكومة التي تخلصت من شبائك الحادث بكل مهارة وخفة . أنت تسألني أن أعطيك براهيناً تؤيد نظريتك وأنا شخصياً ليس عندى شهادة معينة. حينما حضر اللورد دوفرين أخبرته ان المذبحة نشأت في الحزب الفرعونى (الحزب الخديوي) ولم تكن سياسة خاسرة فيما يتعلق بأنفسهم لأن غرضهم الواضح منها أن يشوهوا سمعة عرابي بعد أن أعلن ضمانه ومسئوليته عن الامن العام ولكي يدفعوا الاوروبيين الى العمل على اسقاطه. وكان الرأى القائل بالصاق الحادث به مضحكا حقيقة لانه كان انتحاراً له وقد أدركوا جميعاً ذلك حينئذ. وحينما طلب الى اللورد دوفرين

أن آتى له بإثباتات تؤكد اعتقادى ان كان عندى شيء منها ذهبت اليه في النهاية وأخبرته أنه لو أعطي ضماناً كتابياً للشهود أن لا يمسهم أذى لاحضرتهم اليه — بما أني لا يمكنني أن أحضرهم قبل ذلك — والشيخ عبده ورفضت يعرفان الحكاية من أولها لآخرها تماما — وهؤلاء الشهود يثبتون أن عمر لطفي أمر سليمان سامي أن يرسل اليه الفرقة بغير سلاح ولكن سليمان سامي أبى أن يستغفل هذا الاستغفال ويرسلها بهذا الشكل لادراكه مايترتب على ذلك من النتائج وفى الوقت نفسه كان يدرك ما يصح ان يقال لو بقي بجنوده بعيداً بينما المذبحة قائمة على قدم وساق ولذلك توجه بفرقته بعد تردد ساعة من الزمن وكانت مسلحة على نقيض أوامر عمر لطفي وأخمد الفتنة . وفى مكنتى أن أحضر الرجل الذى تلقى الامر من عمر لطفى واوصله الى سليمان سامي . ويمكننى أن احضر شخصا آخر سمع عمر لطفي يحرض أوباش المذبحة فى الطرقات على أن يخربوا منازل المسيحيين على من فيها وأن لا يتركوا منهم أحداً . وهنا صاح اللورد دوفرين وقال انه ليس من شأنه أن يحاكم عمر لطفي وكان ذلك قبل ظهور برودلى فى الميدان وبعد ذلك مضيت في مجهوداتي معتمدا على نفسي فيها ثم التجأت الي برودلى وتمكنا فى النهاية من الحصول على شهادة الذين أرسلوا الرسالة الشفرية من الخديوى الى عمر لطفي فى الليلة السابقة للمذبحة وفيها يأمره باقامة الاضطراب — وذلك يفسر الانشراح الجنوني الذى قوبلت به أخبار الفتنة في السراى — بقولهم « الآن قد فعلناها لهم » وكان جميع رجال التشريفات والخدم يرقصون من الفرح وغير ذلك من مظاهر الغبطة والسرور . ومما زاد هذه الادلة وضوحا تعيين عمر لطفي ناظرا للحربية (اعترافا بخدماته فى ذلك اليوم) بدون أى سبب خاص يدعو الى ذلك التعيين أو كفاءة شخصية له . واذا لم يكن مدانا حقيقة فلا يمكنه أن يهرب من تهمة الاهمال الشائن والعجز وعدم الكفاءة كمحافظ يتحتم عليه اخماد الفتنة التى تقع كل مسئوليتها عليه دون سواه ولكنه رغم كل ذلك عين ناظرا للحربية . وهذه هى الحقائق التى تغلب بها برودلى على الخصوم فى جميع مساعيهم . ولا بد انك لاحظت — كما لاحظ كل انسان هنا — كيف أن مسألة المذبحة التى كانت فى قلب

الامر قصب السبق المحرز ضد عرابي أخذت فجأة ثم توارت من الميدان بهذا الحكم المضحك »

وفي ٤ مارس كتب المستر بيمان ليخبر المستر بلنت أن قنديل وسليمان سامي وآخرين طلبوا اليه أن يدافع عنهم امام محكمة الاسكندرية العسكرية التي كانت تتجه نواياها الى اعدامهم ثم أضاف الى ذلك بقوله :

« ولقد كانت الورقة الرابحة في يدي في هذه القصة هي الشهود بطبيعة الحال الذين كنت اهدد باحضارهم لاتهام عمر لطفي مباشرة والرأس الكبيرة بطريق غير مباشر . وأظن ان الحكومة تفضل أن تطلق سراح المتهمين عن أن تعرض نفسها لمثل هذا التعريض الجارح » . وفي يوم ١٨ من الشهر قال « انى واثق من الافراج عن المتهمين وربما استبدل بهم في قفص الاتهام ناظر الحربية » . ولكن هذه الخطة أفسدت بالاجراءات الجهنمية التي اتخذت حينئذ ومنع أي استشارة أو تواصل مع المتهمين الى أن انتهت المحاكمة وأما فيما يتعلق بقضية سليمان سامي فقد حرم من وسائل الدفاع دفعة واحدة

وفي هذه الاثناء عاد المستر نابير الى انجلترا وهو الذي انضم الى مستر بيمان في مسعاه الى الدفاع عن المتهمين وبناء على نصيحة المستر بلنت قابل المستر راندلف تشرشل والسير ولفرد لوسن . وكان تقرير المستر نابير حينئذ هو السبب في تصريح المستر راندلف العلني الذي عمل في شهر مايو - وهو أول تصريح علني له عن علاقة الخديوى بالمذبحة والذي أدى بالمستر جلادستون الى الوعد بمحاكمة المتهمين محاكمة عادلة .

ومع كل ذلك فان المستر نابير لم يجد مايشجعه على العودة الى القطر المصرى ولذلك استمر المستر بيمان - ولو انه لم يكن محاميا - في الدفاع عن قنديل بطريقة عامة وكان المستر بلنت يمده بالمعونة المالية اللازمة للمصاريف الضرورية لانه لم يأخذ أجرا على دفاعه ولم يتمكن قنديل من رؤية مستشاره المستر بيمان الا بعد أن حوكم زميله سليمان سامي فكانت مهزلة أكثر منها محاكمة وبعد أن أجريت معه تحقيقات بمجموعة متضافرة من خصومه . وقد مضى تسعة أشهر في السجن وكان

يتبع في دفاعه طريقا منع عنه غوائل الهجوم . اذ أنه كان يطالب بالرحمة لابالعدل الذي لم يكن له موضع حينئذ .

وكتب المستر بيان في الثاني والعشرين من الشهر فقال : « وكان يحلف انه لا يعرف أي شيء يربط عمر لطفي بالمذبحة اللهم الا بعض شـواهد عارضة يشترك في معرفتها كل الناس . وان عمر لطفي لم يعرض عليه أي اقتراح وانه لا يظن ان المذبحة دبرت من قبل (هكذا) وكل ما هنالك ان عمر لطفي كان واقفا وقوفا تاما على شعور الاهالي ويعرف انه لابد ان ينفجر في يوم من الايام . وحينما حصل الانفجار قال فنديل انه كان طريح الفراش وأردف ذلك بقوله ان عمر لطفي أو أي انسان آخر كان يمكنه ان يخمد الفتنة عند منشئها . بل ان تلغرافا واحدا لعرابي كان يكفي للوصول الى هذه النتيجة . ونداءاً واحدا للجند كان يأتي على الفتنة في الحال ولكن عمر لطفي اكتفى بالطواف في المدينة وتبادل التلغرافات الشفرية مع الخديوي ومن المحال الوقوف على ما دار بين الاثنين حينئذ من المراسلات . اذ ان الكتاب كانوا ينقلون الارقام دون ان يفهموا لها معنى وقد صدرت الاوامر باعدام جميع التلغرافات الشفرية (والظاهر ان مثل هذه التلغرافات تعدم دائما) . ويقول رفعت ان التلغرافات كانت خاصة باستدعاء الجند الى ميناء الاسكندرية من البوارج. واذا كان الخديوي قد اعلم بهذه المذبحة عند الساعة الثانية او الثالثة فلماذا اذا لم يستدع السير مالت (القنصل الانجليزي) مباشرة ؟ فان السير مالت لم يعلم بها الا بواسطة تلغراف من كلير وهو في حجرة بليارد زيجادا حوالي الساعة السادسة مساء ! وهذا هو الدليل الوحيد القائم ضد الخديوي. أما الادلة ضد عمر لطفي فهي أقوى من ذلك ولكن للاسف لم أتمكن من الحصول على الشهود الذين عرضت ان احضرهم للورد دوفرين . لاني لم أعرف اسماءهم بنفسي ولكني كنت أخبرت بواسطة شخصين معينين انه اذا وقف اللورد دوفرين وقفة طيبة في هذه المسألة فانهما يعطياني الاسماء ويسلماني الاشخاص أنفسهم . ولكن اللورد دوفرين لم يقبل اعطاء الامان المطلوب ولا يمكنني ان أعطي تفصيلات اكثر من ذلك لاسباب أحب ان تصدقوني أنها أسباب قاسية لا يمكن التغلب عليها . ومع ذلك فان الشهود كان يمكن الحصول عليهم

وسائل أخرى ولكن ما كان يمكن الحصول عليهم بالطريقة التي سنحت لى اولا .
وفى دليل على حسن نيتى انى وعدت باحضار هؤلاء الشهود أيام كنت موظفا
حكومة وكان عجزى عن القيام بما اخذته على عاتقى فى هذا الشأن يكفى لسحق
سحقا تاما . ولكن العهد قد تطاول على هذه المسألة الآن ولا يمكنني ان أحضر
شهود بعد . او على الاقل ليس لدى الوسائل فى الوقت الحاضر التى تمكنني من
قيام بذلك ولو انني فيما بعد قد اتمكن من احضارهم . »

ثم قال أيضا في الخطاب نفسه « وانى اعتقد ان فكرة مجابهة المستر جلادستون
مذكرة تاريخية فكرة حسنة جداً . ولكن حذار ان تذهب في تأييد معتقداتك الى
حد غير ملائم اذ تقرر اكثر مما يمكننا ان نثبت . ومحمد عبده ورضت شاهدان
ضروريان لنا وسوف لا أمتنع عن الافضاء لك بما أعرف ولكنى سوف لا أخبرك
عن مصادرى » .

وقد أشار أيضا الى هجوم اللورد رودلف تشرشل الثانى الذى قام به بمناسبة
تنفيذ حكم الاعدام فى سليمان سامى مما أدى بالمستر بلنت الى اعتزام تسليم جميع
الاوراق التى فى حوزته ومن بينها النبذ القديمة التى ذكرت الآن للورد راندلف
باعتبارها « الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء وان لا يعاد هدرها بعد ذلك مرة ثانية » .
وأشار كذلك الى خطاب المستر ايف الذى ظهر فى الوقت نفسه بجريدة التيمس ثم
قال « اني آسف ان ايف نشر هذه النبذ من خطابي ... اذ اني لم اكتبها بالصاية
لتي تجعل ما فيها من حقائق معدة للنشر . فاولا ان عرضي الشهود لم يكن على اللورد
دوفرين شخصيا بل على نكلسن (سكرتير دفرين الخصوصي) الذي أعطاني على
كل حال جواب اللورد دوفرين . وأظن انى أشرت مرة الى المسألة امام اللورد
دوفرين الذى أجاب بشكل يدل على انه مطلع عليها ولكنى كنت فى ذلك
الوقت منهمكا فى قضية عرابي الى حد انني لا اتذكر جيدا مامر في هذه
اللحظة ... واني لا أعبأ بما تنشره عني ضد عمر لطفى ولكني أفضل أن لا توقعني
فى مشاكل مع الخديوى . وقد عدلت أفكارى فيما يتعلق بمسئوليته عن الحادث ولا
يهمني بعد أن اهاجمه . واذا ماحامت حوله الشبه فيما بعد عن طريق عمر لطفي كان

ذلك حسنا وخيرا لكم ولكني لا أريد أن يهاجم باسمي أنا شخصيا . وأنا الآن في حالة من التفاهم الحسن مع أغلب رجال الحكم وانى أستعين بهذا الشعور الحسن لتحقيق مصالح المتهمين علانى واذا ما قطع بيني وبين الخديوى على حين فجأة فانهم هم الذين يضارون ولست أنا » .

ملخص الشهادات والادلة

مجموعة من الكتب الخضراء في عام ١٨٨٣

يثبت تاريخ مذابح الاسكندرية كما هو موجود في الكتب الخضراء (الكتاب الازرق رقم ١٦-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ١٧-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ٤-١٨٨٣) ادانة السلطات المدنية والبوليس بشكل لا يحتاج الى الجدل وبراءة السلطات الحربية وفرق الجيش براءة تامة مع الاقرار بسلكها الامين المشرف . وتلك حقائق تؤكدها مجموعة من الشهادات عن هذه المذابح . فالبوليس والجندرمة كانتا تحت أشراف المحافظ عمر لطفي المطلق وكان عمر لطفي بدوره ليس مسئولا أمام وزير الحربية (عرابى) بل امام الخديوى مباشرة وذلك ما يجب أن يبقى عالقا أبدا بالاذهان بينما كانت فرق الجيش تحت أشراف عرابى باشا وزير الحربية وحده . وقد قرر المستر جروجان (الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٩) — الذى كان قد عين بواسطة السير أدوارد ماليت بناء على تعليمات اللورد جرنفل ليجمع من مدينة الاسكندرية أدلة يتمكنون بها من اثبات أن عرابى هو مدبر الحركة — أن البوليس قبل الحادث بأيام قلائل ابتاع كمية كبيرة من النبابيت والقفوف ووزعها على الطبقات الدنيا من الاعراب والبدو وأن هذه النبابيت كانت توزع من منزل قريب جدا من الضبطية الرئيسية . (راجع كذلك اقرار المستر أدوارد باربر « الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٧ ») . وقد أضاف المستر جروجان انه لم تتخذ أي اجراءات ضد الاشخاص الذين وزعوا النبابيت كما أن التقارير الطبية التى كتبها عشرة من الاطباء الاوروبيين الذين بحثوا جثث القتلى في المستشفيات تثبت جميعها أن القتل حدث بهذه

على طعنات من المدى وحراب البنادق . ولا يخفى أن المدى وحراب البنادق هي أسلحة البوليس الرئيسية والثابت أن البوليس في يوم المذابح كان نصير أسلحته النارية وكان متسلحا بالحراب فقط (الكتاب الازرق رقم ٤ صفحة ٧٥ المشمولة الثالثة تحت رقم ٩٢ من مستر بتروفتش الى المستر جروجان) وتقرير هذا الرجل له أهمية عظيمة اذ هو يثبت ان الطرقات كانت خالية من الفرق النظامية في يوم الحادث خلواً تاماً ومما تجدر ملاحظته أثناء قراءة الشهادات الخاصة بالمذابح في الكتب الزرقاء المشار اليها آنفاً أن كلمة « جنود » تشير فقط الى بالجندرمة وقلما تدل فى أى موقع منها على جنود الجيش النظامية .

ولنتكلم الآن على مسلك البوليس . يقول المستر بويس المهندس فى الاسطول الانجليزى (راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ صفحة ٢ : المشمولة الثانية تحت رقم ٢) أن الجندرمة التى كانت تحت اشراف رئيس البوليس مباشرة لعبت دوراً كبيراً فى الحادثة . فقتلوا المسيحيين حينما كان الرعاع يكفون عن ذلك . واذا انعكست الحال وأخذ الرعاع فى قتل المسيحيين كانوا يتركونهم وشأنهم ولا يبدون حراكا » . ويقول المستر هيوات وهو كاتب حسابات انجليزى كان يعيش فى الاسكندرية منذ سبعة عشر عاما (راجع الكتاب الازرق . رقم ١٦ المشمولة الرابعة تحت رقم ٢) أنه « اذا أردنا أن نعرف موقف السلطات المصرية والجيش أثناء الاضطرابات فيجب أن نقسمها الى قسمين هما (١) البوليس (٢) الجيش . فأما عن الاول فليس عندي أقل تردد في القول بأنهم بدل ان يخمدوا الفتنة قد بذلوا كل ما فى قواهم ليزيدوها استعاراً وكان مسلكهم في هذه الاثناء وحشياً قاسياً مبنياً على التعصب . وسوف يظهر على ما أعتقد من الكشف الطبي أن الجروح التى أصيب بها كثير من الاوروبيين كانت بيد رجال الجندرمة . ومما لا جدال فيه أيضاً أن كثيراً من البنابيت وزعت على الاهالي بيد هذا البوليس نفسه بدون مقابل بينما نزعوا من الاوروبيين جميع أسلحة الدفاع التى كانت في حوزتهم حتى العصي التي يتوكأون عليها . ولقد علمت من أوثق المصادر أن الاجانب الذين كانوا يعيشون فى الاحياء الوطنية والذين التجأوا بطبيعة الحال أثناء الاضطرابات الى الضبطية أو أحد معاقل البوليس الاخرى

ذبحوا شر ذبحة بمجرد دخولهم هذه الاماكن . ومن جهة أخرى فاني مقتنع ولست في حاجة الى شرح أسباب هذا الاقتناع أنه لولا استدعاء الجيش فى النهاية واخماده الفتنة لما كانت تنتهي الا عذبحــة مخيفة . واذا كان الاوروبيون مدينون لاحد بأرواحهم فهو الجيش » . ويقول المستر جورج بيلافاشق (راجع المشمولة الخامسة فى القسم الثانى ص ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦) « أن البوليس انتصر علناً للاعراب وكثير من الضحايا الذين كان يقودهم البوليس الى الاقسام انزلوا من العربات وقتلوا بستان الخراب » . والمستر ستيمن رالى يقول (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣) « لكي تتحقق من خيانة سلطات ماعليا الا أن تعرف ما يلي — بدأت الفتنة فى الطريق عند الساعة الثالثة واستمرت الى الساعة السابعة وكان معظم القتل بيد البوليس واستمر الحال على ذلك الى أن أرسلت فرقة من الجند لاخماد الفتنة وكان من الممكن اخمادها بهذه الطريقة في ربع ساعة لو انهم أرادوا ذلك . »

ملحوظة : بمناسبة هذه المسألة نشير الى ان سليمان سامي ميرالاى الفرق النظامية لم يستدع الا فى ساعة متأخرة بعد بدء الهياج .

ويقول المستر جروحان (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠) « أشار جميع الجرحى فى المستشفيات بان رجال الجندرمة كان لهم ضلع مع الغوغاء في الذبحة وكذلك كان بكثير منهم جروح من رماح البنادق » . ويقول هنيبال سكجناليلو الاسكندراني (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) أن الثلاثة رجال الذين قتلوا وهم الدكتور ريبتى والسنيور ليجرنى وفن رب والارمين قتيلا الآخرين من الاوروبيين كانوا قد التجأوا الى الضبطية ليكونوا تحت حراسة البوليس . وفى الليلة نفسها ذهبت الى المستشفى الاوروبى لابحث عن صديق السنيور مارب . وهناك سألني الحراس الذين كانوا فى الخدمة حينئذ عما اذا كنت أملك حقيقة كل صنف الجرأة التي تدفعني الى عمل كهذا . ولكني انطلقت الى الداخل وكانت ساعة متأخرة من الليل وسرعان ما رأيت امامي أكواماً من الجثث وعندها تراجعت وعدت في اليوم الثاني ووجدت مارب على السلم قتيلا كلهم عرايا وأجسامهم مشوهة

خروج من النبابيت ورماح البنادق . وكثيراً ما جرح البوليس الاجانب من الاوروبيين كما كان ينظر بعين الارتياح الى الاعراب وهم يفعلون ذلك أيضا (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) وقد أخبر كل من المستر روبرت جيليو من الرعايا الانجليز والمستر جوزيف ليفي من مصنع المسيو بيرو ليفي بمنشستر والمستر كماتي من مصنع فيفاتي وولده بمنشستر القنصل البريطاني في مدينة ليجهورن « ان السلطات المحلية اشتركت في المذبحة » وفي الصفحة نفسها توجد كلمة الكولونيل . . . وهو أحد الضباط الاوروبيين ذوي الاعتبار كتبها في تربستا في ٢٨ يونية وهي الآتية « ان أحد الوطنيين الافاضل واسمه وزير بك ويقطن الدور الاول من المنزل المواجه لرئاسة البوليس وقال امامي وامام محافظ المدينة وغيره من كبار موظفي الحكومة انه رأى النبابيت توزع على الجماهير من الشبابيك التي امامه . هذا في الحي الاوروبي بينما كان فريقا من الغوغاء يقتحم شارع دي سير وميدان دي لابي في حين آخرين مختلفين . وبعد ذلك بمدة رأى هو وزوجته وخدمه ثلاثة عشر أوربيا كانوا قد التجأوا الى رئاسة البوليس للحماية يسحبون خارجها عرايا الاجساد مشوهي الخلق الى البحر لكي يرموا فيه ويقول المستر ادون بارير في صفحة رقم ١٧ « وفي أثناء هذه الحادثة القصيرة حصر جمع كبير من الاعراب من جميع الجهات وجهزوا بنبابيت ألقيت اليهم من منزل وطني عال قريب من الضبطية « ثم يقول بعد ذلك » وبعد اغلاق الباب صعدت الى الدور الاعلى ومن هناك رأيت عددا كبيرا من الاوربين مقتولا في الطريق وكان البوليس يساعد القتلة . ولما لم يكن البوليس جيوب فقد كان يخبئ مغانمه وراء البراميل وأحيانا تحت أغطية البالوعات » . ويقول المستر جون ولس في صفحة ١٧ « وفي هذه اللحظة وصل رجال البوليس وعددهم ثلاثون أو أربعون وبدأوا يطلقون اعيرتهم بدون أي مبرر ظاهر لذلك . وكانوا يرون الاوربيين مدرجين بدمائهم تحت أقدامهم ولكنهم لم يفعلوا شيئا ليدافعوا عنهم » . وقال أيضا « ورأيت أيضا رجالا من الجندرمة يحملون بعض الامتعة المسروقة . ولكن حينما وصلت الفرق النظامية عاد الامن الى نصابه وكأنما لم يحدث شيء » . وفي اقرار السنيور فرتوني ما يأتي (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٩)

« وبعد قليل من الوقت رأيت عربات كثيرة مملوءة برجال الجندرمة (وهم جنود فى ملابس زرقاء) آتية من ناحية مركز البوليس الرئيسي وكل من فيها ينظر الى النوافذ حيث كانت تتجه بنادقهم أيضا ويصيحون للاعراب « تشجعوا . اضربوهم » . (راجع الكتاب الازرق رقم ٤ صفحة ١٠ المشمولة الرابعة من القسم الرابع) . ويقول المستر ستوتسون صراف الباخرة (اقتنسبل) « كان البوليس والموظفون المحليون أثناء الهجوم المشار اليه ينظرون للغوغاء نظرة عطف ولم يتخذوا أى اجراء لحماية المسيحيين وكبح جماح الغوغاء ولم يكن فى الطريق أى أثر للجنود النظاميين فى هذه الاثناء »

وقد كتب الاميرال السير بوشامب سيمون الى الاميرالية عن مسلك الفرق النظامية فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة١٠٨) استمرت الاضطرابات مدة ساعتين او ثلاثة قبل ان تدعي الحامية الى تقلد السلاح . ولكنها حينما حضرت طهرت الطرقات بسرعة محمودة وساد النظام فى الشطر الباقي من الليل » ويقول المستر كلفرت نائب القنصل الذى أسندت اليه أعمال القنصلية بعد ان جرح المستر كوكسون (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ٣٩ ورقم ٩٧) في ١٢ يونيو « لم يتدخل البوليس ليحمى الاوروبيين . الى ان حضرت الفرق النظامية وأعادت النظام» وكتب في اليوم نفسه (راجع الكتاب الازرق رقم١٧ صفحة ٢٤ المشمولة الثالثة تحت رقم ٢) « وقد كان مسلك الجنود النظامية حسناً جداً ولم تتحيز للغوغاء » وفى الرسالة نفسها ما يأتي : « نهب البوليس المنازل والدكاكين على حد سواء . وبعد رسالتي التلغرافية اليك تجددت معركة فى حي من أحياء المدينة الدنيا ولكن فريقاً من الفرسان فرق الثوار فى الحال . والمدينة الآن فى سكينة تامة » ويوجد فى البيان الذى أذيع على الاوروبيين ممهوراً بامضاء جميع القناصل بعد اجتماعهم فى منزل المحافظ في١٢ يونيو الفقرة الآتية « حدثت اضطرابات خطيرة في يوم الثلاثاء بالاسكندرية ولكن الجيش المصرى أعاد النظام وتعهد رئيسه بالمحافظة عليه . ونحن نثق في الجيش المصرى »

الظواهر السابقة على المذبحة—(راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٢ المشمولة

الثانية) بيان المستر حويس المهندس الانجليزى « لا جدال أن الحادث كان منظما من قبل بدليل بعض الظواهر الضئيلة التى ما كان يعبأ بها الانسان فى ذلك الوقت كالذى حدث لى فى صبيحة يوم السبت اذ كنت خارجا من منزلى فقابلنى بائع خضر فى الطريق وطلب الى أن اشترى وآكل لان النصارى سيذبحون باكر . وقيلت هذه الكلمات بعد ذلك لكثيرين غيرى ولم يعيروها ماتستحقه من الانتباه أو أى انتباه على وجه الاطلاق . (المشمولة الرابعة تحت رقم ٢) ويقول المستر هيوات « بناء على معلومات جمعت من مصادر مختلفة كثيرة أصبح عندى اعتقاد راسخ ان حادث ١١ يونو كان نتيجة خطة مدبرة . » (المشمولة الخامسة تحت رقم ٢) . ويقرر المستر الكسندر فيس « بناء على تعليمات تحصلت عليها فيما بعد أصبح عندى عقيدة أن هذه المسائل كانت مدبرة وبدأت فى وقت واحد تقريباً فى جميع أنحاء المدينة » (المشمولة الخامسة رقم ٢ صفحة ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦) ويقرر المستر جورج بلافاتشي « كانت مشاجرة يوم الاحد مع المالطي مدبرة تدبيراً محكما بواسطة البوليس حتى انه نشأ عنها هذه الحوادث الوحشية التى اشتملت على النهب والقتل وقد كنا رقباء كما كنا فى الوقت نفسه ضحاياه . وظهور الفتنة فى ثلاث جهات فى وقت واحد يدل على أن الامر كان مدبراً » . ويقرر فليبوليس « كنت فى السوق فى يوم ٢٨ يونيو حوالى الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر . وهنالك رأيت كثيراً من البدو يحملون بنادق ويتركونها فى بعض المخازن هنالك بحجة حفظها لهم . وفى اليوم التالى بينما كنت جالساً فى احدى القهاوى اقترب منى أحد أصدقائى من المصريين ونبهنى محذراً الى ان الاعراب سيقتلون المسيحيين فى يومهم أو فى اليوم الذى يليه » ويقول اللورد جرنفل (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣) « أخبرني المستر سينادينو وهو أحد مديرى بنك مالى يونانى بالاسكندرية أن عنده الادلة الكافية فى أن حادث الاسكندرية كان مدبراً . وكذلك أشار اللورد جرنفل فى الرسالة نفسها الى مبشر امريكي قال « اخبرنا كثير من الناس ان الاضطرابات بدأت فى أحياء مختلفة متباعدة من المدينة فى وقت واحد ولذلك فنحن نعتقد انها كانت مدبرة » . ويقرر الدكتور جويس (راجع

الكتاب الازرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ المشمولة الثالثـة تحت رقم ٤) « انى لا أعتقد أن الذبحة كانت مدبرة فقط بل هى أكثر من ذلك قد نفذت بمهارة ويظهر ان المشتركين فيها كانت غايتهـم السلب والنهب وعلى كل فقد جمعوا بين هذه وبين الثورة » . ويقول المستر ستونس (راجع المشمولة الرابعة في الكتاب الرابع) « حينما نزلت الى الاسكندرية وطفت فى شوارعها وجـدت الناس فى الشوارع والطرقات المؤدية الى الحديقة العامة سائرين فى هدوء تام وسكينة . وحينما وصلتنا أخبار الفتنة بعد ذلك بثـلاث ساعات فقط رأينا مئات من الاهالى مسلحين لجاة بالعصي والسكاكين ولذلك فاني أعتقد ان الفتنـة كانت مدبرة من قبل » . ولم يتمكن المستر جروجان من ايجاد رابطة بين عرابي وبين التدابير السابقة على الفتنة ولو انه كان مزوداً بمعلومات صريحة من اللورد جرنفل أن يجمع أدلة ضد عرابي تفيد اشتراكه فى تدبيرها (راجع الكتاب الازرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٣ وصفحة ٨٨) . وبمناسـبة قوله « ولقد تبينت أن سـفر حسين موسي العقاد من القاهرة الى الى الاسكندرية كان فى الساعة السادسـة بعد ظهر يوم ١١ يونيو : وسافر في عربة من عربات الدرجة الاولى ومعه جون نينه الجنوى ووصلا اليها فى المساء » أقول انه يمكن اثبات عدم صحة هذا الخبر على الاطلاق بواسطة جون نينه نفسـه وهذا أمر مهم جداً لان المستر جروجان يضيف الى ذلك (راجع المشمولة الاولى تحت رقم ٩٢ الكتاب الازرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٤) « وفى اعتقادى ان حلقة الاتصال بين سيد بك قنديل وعرابي هو حسين موسي العقاد » . (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ الرسالة رقم ٣ صفحة ٩) وقد أخبر الكونت دللاسالا رئيس اركان حرب الخديوى المفوضـية البريطانية فى برلين أن الكونت هاتزفلت أخبره أن ضرب الاسكندرية كان خطة مدبرة اشترك فيها رجال الخديوى

مسلك عمر لطفى المحافظ
في يوم الاضطراب

ان ما قيل عن مسلك هذا الرجل فى يوم الاضطراب فى الكتب الزرقاء قليل جداً لا يشفى غليلا ويعلل ذلك بمساعى الحكومة البريطانية بعد الحوادث واتجاهها فى اتهام عرابي وحينما لم نظفر بذلك لم تبذل أى مجهود فى اكتشاف المدبرين حقيقيين لها . ولكن في اقرارين كتابيين (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠) قدمهما اللورد جرنفل الى السير ادوارد ماليت (الرسالة رقم ٢) وهما لكل من لويجي انوفريو وباولو انوفريو من فاليتا بجزيرة مالطا وكانا سابقا بالاسكندرية ما يأتي « فى يوم الاحد الحادى عشر من شهر يونيو الماضي حينما كنت فى منزلى بالاسكندرية حوالى الساعة الثانية ونصف بعد الظهر سمعت صياحا عاليا في الطرقات فأطللت من النافذة وعندها رأيت المستر كوكسون القنصل الانجليزى وغيره من القناصل الذين كانوا معه يهاجمون بواسطة الرعاع . ورجال البوليس يعاونونهم فى هذا الهجوم ويضربون حضرات القناصل بمؤخر بنادقهم وكان عمر لطفى المحافظ حاضراً حينئذ ولكنه لم يبذل اى مجهود ليحمى هؤلاء الاوروبيين او لتشتيت الغوغاء . ورأيت أيضاً بعض الاعراب والجنود يضربون السنيور كاربي والسنيور مكفالى القنصل الايطالى والقنصل النمساوى . وقد جرحوا جميعاً جروحا خطيرة وخصوصاً السنيور كاربي» . والاقراران متشابهان في عباراتهما . وكتب المستر جروجان (راجع صفحة ٩ من الكتاب الازرق رقم ١٦) عن تكليفه من قبل اللورد جرنفل لجمع الادلة الكافية لاتهام عرابى باشا فقال « أظن أن لدى مجالا للتدليل ولكنى لم أصل اليها حينما كان الاتصال متعذرا . من الامور التى تثير كثيراً من الشكوك هو ما اذا كانت دعوة القناصل للذهاب الى قسم البوليس بعد ظهر يوم ١١ يونيو قد صدرت من المحافظ عمر لطفى أم لا . لان عقيدتي الحالية أن الدعوة التى وجهت اليهم شفويا كانت بقصد استدراجهم الى أيدى الجماهير » .

وقال بعد ذلك « وكان بين ابلاغ كل رسالة وأخري فترة من الزمن لا تستوجبها المسافة نفسها التي تفصل القناصل بعضهم عن بعض وكان ذلك مدبراً من قبل بقصد أن يصل القناصل متفرقين الى المكان الذى كانت تتجمع فيه الغوغاء . وبلغت الرسالة اولا القنصل الفرنسي ثم الايطالى ثم غالبا اليوناني والالماني واخيراً القنصل الانجليزى» وكتب المستر كوكسون في رسالته للسير ادوارد ماليت (المشمولة الاولى تحت رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧ لعام ٨٨٣) فقال « بعد نصف ساعة استدعيت بواسطة البوليس المحلى للتوجه الى مركز بوليس قسم اللبان حيث كان قد وقع شغب بين بعض الاعراب من الاهالى والمالطيين فى الناحية المجاورة . . . . وعدت للقنصلية حوالى الساعة الثالثة ونصف وخرجت مباشرة بناء على دعوة رسول كان فى انتظاري لحضور اجتماع مع بقية القناصل في قسم اللبان » .
ومن هنا يتبين أنه كانت هناك مؤامرة لاستدراج القناصل الى الجماهير . ويدل وجود عمر لطفى وهيئته ساعة هجوم الجماهير عليهم انه كان مشتركا فى هذه المؤامرة ومن الممكن اثبات ان عمر لطفى لم يستدع الجيش مطلقا الا بعد أن استمرت المذبحة زمنا طويلا وعندها أرسل الى سليمان سامي رسالة شفوية وليست كتابية يخبره فيها أن يحضر هو وفرقته الى المدينة بدون سلاح . وسوف تجد رأى سليمان سامي عن مسلك عمر لطفى فى بيان المستر جون نينه المطبوع ' وكل من سليمان سامي وأخيه — وكلاهما أمير ألاى في الجيش — يعلم أن عرابي باشا بصفته وزيراً للحربية ورئيسا للجيش المصرى قد أخذ على نفسه ضمانا بحفظ الامن والسلام وأن هذا الضمان تبين الآن أن لاقيمة له كما أن الثقة فى الجيش المصرى قد تلاشت بظهور هذه المذابح .
والعلم بهذا الضمان ثابت من رسالة المستر كوكسون الى السير أدوورد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١١ لعام ١٨٨٢ المشمولة الرابعة تحت رقم ١٢٦) والمؤرخة ٦ يونيو حيث يقول « الحاقا برسالتي في ٢ الجارى أتشرف بأن ابلغكم أن المدينة فى هدوء تام . وقد أفاد تصريح عرابي باشا الذى أبلغ الى فى ٢ الجارى والذي تعهد فيه بالمحافظة على السلم وأرواح الاوربيين كثيرا فى تطمين نفوسهم وتبديد مخاوفهم » .
ويبدو غضب كل من الاميرالايين سليمان سامى وأخيه من مسلك عمر لطفى فهاتت

· يونيو من رسالة المستر كوكسون الى السير ادوارد ماليت (راجع رقم ١٧ عام ١٨٨٠ المشمولة الاولى تحت رقم ٢٣ صفحة ٢٣) حيث يقول « علمت انه حدث شجار عنيف بين المحافظ والاميرآلايين وأن المحافظ أصبح حاقداً عليهما. بينما هما سبانه فى عبارات قاسية شديدة بخيانة دينه وأبيا أن يطيعا أوامره . » اذ أن ضابطين بعد أن فقد ضمان عرابي قيمته تبين لها أن الاوروبيين سوف يتدخلون لامحالة وحينئذ تطعن القضية الوطنية طعنة نجلاء .

ويتبين اهتمام عرابي بأنقاذ الجيش المصرى من أى شبهة أو اتهام بالاشتراك في مذابح من تعلياته التى أعطاها ليعقوب سامي وعلى الخصوص تعيينه ليكون فى لجنة تحقيق التى كونتها الحكومة المصرية عقب الحوادث مباشرة ويقول عرابي فى هذه تعليمات « انك لاتجهل اهمية الموقف الذى تقفه فى الحالة الراهنة من لجنة التحقيق ذ لايخفى عليك أن اعضاء هذه اللجنة ليسوا من هؤلاء الاشخاص الذين يهمهم شرف الجيش أو شرف الوطن . وهذا يتطلب منك أن تأخذ جميع الاحتياطات في مجرى التحقيق وأن تكشف لنا عن الدافع الاصلى لهذه الفتنة . » وكذلك يتبين اهتمام عرابي باشا بمنع أى أمر يخدش هيبة الجيش بعد ذلك أو يمس ضمانه من رسالة المستر هوردى المترجم فى القنصلية الانجليزية بالاسكندرية المؤرخة ١١ يونيو (راجع المشمولة الرابعة رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧) حيث يقول فيها « تعهد القناصل أن يبذلوا اقصي ما يمكنهم من الجهد لتحقيق هذا الغرض ووعدوا بأن يمنعوا رعاياهم من اطلاق النار على الاهالى أو الجنود كما أن ضباط الجيش أخذوا على أنفسهم ايضا أن يحافظوا على الامن والسلم العمومى وأعلنوا انهم مسئولون عن ارواح الاوروبيين وقد وجه صاحب السعادة يعقوب باشا وكيل نظارة الحربية الى الامير الايات العبارة الآتية «حافظوا على القناصل وعلى سلامة رعاياهم ما دام فيكم عرق ينبض» . وقد اجابه الضباط بالسمع والطاعة ... وكان أهم شيء عند القناصل هو مقدرة الجند على منع تجمهر الوطنيين فى الاحياء الاوروبية ولذلك تعهد ضباط الجيش العظام بتفريق أى اجتماع للوطنيين يحدث في تلك الاحياء . » ولا يخفى عن الفحص انه من تاريخ هذا

الاجتماع وبعد ان وضعت الاسكندرية رسميا تحت اشراف الجيش الى ان ضربها الاسطول لم تحدث اضرابات تذكر وكذلك لم تحدث أى مذبحة .

وبالنسبة لمسلك عمر لطفي باشا يجب أن لاننسى لاى اعتبار من الاعتبارات انه كحاكم مدني للمدينة وتحت تصرفه المطلق بوليس ورجال الجندرمة في المدينة يعتبر أول شخص مسئول عن الامن والنظام فيها . وانه فى ذلك الوقت كان مسئولا أمام الخديوى دون سواه وكان الخديوي يقوم بنفسه بأعمال ناظر الداخلية بناء على عدم تعيينه ناظرا جديدا لها واصداره تعليمات لمديري الوجه القبلى والبحرى بأن يرجعوا لمكتبه الخاص في كل مسألة ذات بال مما يعرض عادة على ناظر الداخلية (راجع الكتاب الازرق رقم ٨ صفحة ٤٠ الرسالة رقم ٩٠ من السير ماليت الى الارل جرانفل) . وقد لا يكون من الضرورى الآن ان نضيف ان عرابي باشا بصفته ناظراً للحربية والبحرية لم تكن له أى سلطة على عمر لطفى حاكم مدينة الاسكندرية المدني كما انه من الثابت من بيان المستر جون نينه المرفق بهذا ان عرابى باشا لم يحط علما بالحوادث الا في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١١ يونيو وان مكاتب التلغراف بمصر والاسكندرية حجزت فى ذلك اليوم خصيصا للمراسلات بين الخديوى وعمر لطفي ومع ذلك لم يحدث تحقيق على عن مسلك هذا الرجل «عمر لطفى» من يوم المذبحة الى الآن لا بواسطة الحكومة الانجليزية او المصرية ولم يحدث اكثر من ان الخديوى عينه ناظراً للحربية محل عرابي باشا فى السادس والعشرين من شهر يوليو التالى (انظر الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٢٣ الرسالة رقم ٦٤٤) .

وقد لازم سيد بك قنديل رئيس البوليس الذى بحاكم الآن منزله فى يوم الاضطرابات والايام التى تلته لمرضه بينما حسن بك صادق وكيله الذى حل محله فى ذلك اليوم والذى قال عنه المستر كارتريت (الكتاب الازرق رقم ١٧ الرسالة رقم ٣٦ صفحة ٣٥) انه ينتمى الى حزب الجيش وانتقد انه لم يوقف عن العمل لسلوكه يوم الحادث وعلاقته به قد عين بعد ذلك فى وظيفة مهمة بالجيش بالسودان جزاء له على مسلكه في يوم ١١ يونيو وتخلص بهذا التعيين من كل متاعب التحقيق

ويجب ان لا يغيب عن الذهن حين قراءة هذه المذكرة السابقة المقتبسة من

مكتب الزرقاء ان جميع الرسائل التى كتبت والشهادات التى جمعت فيها كانت مكتوبة ومجموعة تحت عقيدة ان المذابح من صنع عرابى والحزب الوطني وبقصد الحاق التهمة بهم

ولتوضيح ذلك يجب ان ننقل فقط كلمات اللورد جرنفل الموجودة فى رسالته الى السير ادوارد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١٥ ورقم ٣ صفحة ٧) وهى « أرى أن أكلفكم بعمل ما يلزم لاتمام هذه الشهادة وخصوصاً القسم الذى يتعلق بصلة الجرائم بعرابي » وهذه خطة شاذة تدل بشكل لا يقبل الجدل ان فكرة اكتشاف المدبرين الحقيقيين لحادث الاسكندرية كانت أقل رسوخا في نفس اللورد جرنفل من اتهام عرابي باشا نفسه بأي شكل من الاشكال

ونجاح هذا المسعى يمكن استنتاجه مما قاله السير شارلز ولسن (راجع الكتاب الازرق رقم ٣٠١ الرسالة رقم ٤٥ مشمولة صفحة ٢٨) — عن التهمة الرابعة فى ورقة الاتهام التى وجهت الى عرابي ومحمود سامى وطلبه ومحمود فهمي وعمر رحمي وسيد قنديل بأنهم « حرضوا الناس على حرب أهلية وبأنهم ارتكبوا أعمال التخريب والقتل والنهب على الاراضي المصرية » — فقد قال السير ولسن « لا بد لى من تصريح انى اعتقد انه بناء على الشهادة الموجودة بين أيدينا لا يمكن لأي محكمة عسكرية انجليزية ان تلصق بالمتهمين تهمة اكثر من الاشتراك فى ثورة عسكرية ناجحة ضد الخديوى اللهم الا طلبة والسيد قنديل مع شيء من الشك بالنسبة لهما أيضاً »

وكتب السير شارلز ولسن أيضا فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ٥ عام ١٨٨٣ الرسالة رقم ٤١ مشمولة صفحة ٦١) « بنيت المحاكمة على ما يظهر على فكرة ان هناك حوادث معينة مثل مذبحة ١١ يونيو لا يمكن حصولها الا بناء على أوامر عرابي . وذلك دليل كاف فى نفسه على ان عرابى أصدر أوامره بعمل المذبحة .... ومن جهة أخرى فقد كان من الممكن تكوين دفاع حسن عن المتهمين وذلك بمناسبة سماع شهود الاثبات دون شهود النفى ومن غير توجيه أسئلة اليهم من الدفاع »

ولقد تركت الحكومة الانجليزية فكرة ان المذبحة كانت مدبرة ومنظمة من قبل حينما استحال لها ان تثبت صلة عرابي بالحوادث . وفى الحكم الاخير معان جمة أحب

ان ألفت اليها الانظار» . وفى نهاية الرسالة نفسها كتب السير شارلز ولسن «لم يكن هنالك دليل على صلة عرابى بالمذبحة التى وقعت بالاسكندرية فى ١١ يونيو ومن المشكوك فيه ان المذبحة كانت أمراً مدبراً »

وعدم ظهور أى أثر للتلغرافات والرسائل التي تبودلت بين المحافظ عمر لطفى والخديو وبين الخديو والسير ماليت والقنصل الانجليزى والتى لاشك انها كانت مستمرة طول مدة الاضطرابات من المسائل التي تثير الشكوك وتحتاج الى الايضاح.

وكل انسان غيرمتحيز يمكنه أن يحكم من الشذرات السابقة المقتبسة من الكتب الزرقاء والتى لاجدال فى انه قد أبعد منها كل ما يشتم منـه رائحة اتهام الخديوى او عمر لطفي او السلطات المدنية (بقدر ما تسمح به الحال طبعاً) ان هنالك مسائل خطيرة ضد هؤلاء الناس قد سكتت عنها وانها في أشد الحاجة الى تحقيق نشط وبحث دقيق

بيان المستر جون نينه

عن حوادث يونيه سنة ١٨٨٢ التى وقعت بالاسكندرية

وقد أصدره بامضائه فى ٣٠ يناير سنة ١٨٨٣

كنت بالاسكندرية حين وصول درويش اليها فى يوم الاربعاء ٧ يونيه سـنة ١٨٨٢ ورأيته على الرصيف وهو فى طريقه الى سراى راس التين ومعه ذو الفقار باشا (مبعوث الخديوى وهو رومى مسلم وأحد مخلوقات سعيد باشا) ويعقوب باشا (مبعوث عرابى وهو شركسى الا انه عرف بالامانة) وكذلك الشيخ سيد وعمر لطفى (محافظ الاسكندرية)

وبعدالظهر توجه العلماء وبعض الاعيان والضباط لزيارة درويش ولكنه لم يستقبلهم بالحفاوة الكافية وكذلك زاره القناصل وكان المستر كوكسون والمسيو كليكوسكي فى ملابسهما العادية — وزاره كذلك كل من الاميرال الفرنسى والاميرال الانجليزى

ي ملابسها الرسمية . وكنت موجوداً حين استقبال المستر كوكسون الذي ذكر
رويش ان الاميرال سيمون هو نفس قائد القوات البحرية في دلسينيو ولكن درويش
يجب على ذلك بأكثر من الابتسام . وبعد ان خرج القناصل قدم الاعيان عريضة
يشون فيها شكوى الشعب المصري ويظهرون استياءهم من وجود الاسطول ورغبة
لأمة في الاستقلال وحادثهم درويش كثيراً عن هذه الموضوعات ووعدهم ان
لاسطول سيغادر المياه المصرية بعد زمن قصير. ولم أكن حاضراً هذه الواقعة ولكني
سمعت عنها من صديقين لي وهما الفرياني ونديم كانا حاضرين حينئذ . وكان
ديم في هذه الاثناء دائم التردد بين مصر والاسكندرية . ولم يكن العقاد في الاسكندرية
على ما أعلم الى ما بعد الحوادث

وفي صبيحة اليوم التالي وهو الثامن من الشهر توجه درويش الى القاهرة وتبعه
وهو في طريقه الى المحطة جمهور كبير وكان يصيح صيحات مختلفة حول السلطان
والاسطول وكان ذو الفقار وبقية ضباط الخديوي يتجادلون حول سفر يعقوب باشا
في عربة درويش ولكن درويش أمسك يعقوب من كتفه وجعله يدخل العربة
وبذلك أصبح فيها هؤلاء الاربعة : درويش وأسعد وذو الفقار ويعقوب . وعمل
ديم على أن يسافر في نفس القطار وفعلا اندس بين السكرتيرين والخدم . وحضرت
وفود في دمنهور وطنطا وكفر الزيات لاعلان ولائهم لعظمة السلطان وربما كانت
هذه الوفود خطة مدبرة .

والنقط الآتية سمعتها من عرابي ومن رسله واني أعتقد في صحتها : قوبل
درويش في المحطة بالجند والموظفين ولكن لم يقابله أحد من أعضاء الوزارة الوطنية
ولم يكن عند الجماهير حماس ظاهر وان درويش سار مباشرة الى سراي عابدين .
ولم يستقبل أحداً في ذلك اليوم ولم ير غير الخديوي وعائلته في قصر عابدين وقضى
ليله في قصر التوسة الذي كان معداً له وسمعت ان الخديوي أرسل في تلك الليلة
أو صباح اليوم التالي أحد الاغوات الى درويش واتفق معه بواسطة سكرتيره انه
لا بد أن يصله ٥٠،٠٠٠ جنيها بمجرد الحصول على النقود. وبذلك اكتسبه في صفه

مع ان التعليمات التى كانت صادرة لدرويش هي ان يعزل توفيق ويولي حليما بدله. ولم ير درويش يعقوب باشا بعد ذلك .

ومضى يوم الجمعة فى زيارة المساجد والصلاة وفى احدى هذه الزيارات قدم له عالم من العلماء عريضة اغتاظ لها درويش وحينما حضر اليه العلماء بعد الظهر ليقدموا له احترامانهم ويبثوه شكواهم قابلهم بخشونة وقال لهم لقـد حضرت لاتكلم أنا لا لاستمع لكلامكم . فسبب هذا الحادث حركة غير اعتيادية فى المدينة وفى المساء توجهت الرسل الى جميع جهات القطر وأنبأت الناس ان درويش لا يمكن الوثوق به.

وفى يوم السبت أرسل درويش باشا فى طلب عرابي ومحمود سـامي . وحينما حضرا قابلهما بكل ما يملك من مظاهر الاحترام . وأجلسهما بالقرب منه وتكلم معهما عن الحالة . وقد شرح عرابي لي هذا الحادث وقال لى عبارة درويش وهى « نحن هنا جميعاً اخوة وأبناء السلطان وان لحيتي البيضاء هذه تسمح لى ان اكون أباك أنت أيضا وغرضنا واحد وهو ان نصل الى تحويل الاسطول عن ميناء الاسكندرية الامر الذى يعتبر مسبة للسلطان وتهديداً لمصر . — وطلب اليهما ان يتفقوا جميعاً على ان يعملوا لهذه الغاية وعلى الخصوص عرابى ومجلس نظاره لكي يظهروا ولاءهم لسيدهم السلطان . ويكون ذلك بتخليهم عن سيادتهم الحربية ولو فى الظاهر فقط . ولكي يدخل عرابى السرور على السلطان أيضا فطلبه أن يتوجه الى القسطنطينية ولو لمدة وجيزة فقط . وأجاب عرابى على كل ذلك بانه كان بوده ان يتنحى ولـكن الموقف كان من الدقة بمكان وانه أخذ على عاتقه مسئولية حفظ الامن وانه لا يمكن ان يقف فى منتصف الطريق أزاء هذه المسئولية . فاذا ما تنحي فيجب ان يكون تنحيه تاما واستقالته نهائية فى الباطن والظاهر . وعلى كل فانه لا يمكنه أن يتبع أى خطة من هاتين الخطتين الا اذا أعطيت له تخلية كتابية من الضمان لانه لا يمكنه ان يتحمل تبعة أمور لا يكون له دخل فيها . وقد أتهم فى حكمه بالعبث والاستبداد وامور أخرى وانه لا يمكنه ان يترك كرسيه الا اذا أخلى طرفه اخلاء تاما من هذه الاتهامات . وقال عرابي أيضا انه مستعد ان يتوجه الى القسطنطينية بعد ان تستتب الامور كفرد عادى ليقدم ولاءه الى جلالة السلطان » ولكن درويش لم يكن مستعدا لتلقى هذا الرد وحينما سمعه :

يسر منه وامتقع لونه ثم قال: « فلتعتبر الآن الامور قد استقرت. وما عليك حينئذ الا أن ترسل تلغرافا الى محافظ الاسكندرية وقائد الحامية تخبرهما فيه انك تنحيت عن مركزك لى وانك ستعمل كوكيل وسيعقد يوم الاثنين اجتماع فى عابدين من الخديوى والقناصل وفى هذا الاجتماع نخليك من ضماناتك للامن ». ولكن عرابى رفض ان يفعل ذلك وقال انى سأبقى فى مركزى متحملا مسئولية ضماني الى أن أتسلم وثيقة مكتوبة تخليني من الضمان وعند هذا الحد وقفت المسألة. ولم يقدم لهادرويش في هذه الاجتماع لا قهوة ولا سجاير وبعد ذلك بمدة أخبرني محمود سامى أيضا بتفاصيل الحادث بأجمعها وبعد الاجتماع مباشرة حمل نديم أخباره الى الاسكندرية وعاد الى مصر فى صبيحة يوم الاحد.

وكنت فى الاسكندرية فى يوم الاحد أى فى اليوم الثاني وكانت المدينة فى سكون تام وعند الساعة الثانية بعد الظهر أرسلت خادمي السوداني ليحضر لى عربة أتوجه بها الى مركز قيادة الحامية وكان القائد شركسيا اسمه خورشيد باشا ولكنه رجل طيب وكان من اتباع اسماعيل باشا ولذلك كان معاديا للخديوى توفيق. وبعد أن تأخر خادمي فى هذه المهمة نصف ساعة عاد وطلب الى أن لا أذهب الى حيث اعتزمت لان هنالك مشاجرة عند قهوة الجزاز فى شارع الاخوات — وهى بقعة يتجمع فيها عادة فى أيام الآحاد جميع أوباش الاوربيين والحالون الاعراب. وقال لى أيضا انه قتل اثنان من المسلمين. وبعد ذلك توجهت الى المكان على قدمي ولكنى لم اخترق الميدان بل سلكت شارعا خلفيا. فوجدت شارع الاخوات مملوءا بالمخلوقات من افرنج ومسلمين ولكنى لم أر اقتتالا بالقرب منى. ولكن على بعد مائتى ياردة شاهدت الجماهير تموج كالبحر ورأيت طلقات نارية تنطلق من النوافذ ولم تلبث المعركة أن تقدمت الى ناحيتنا وتراجعنا الى ان وصلنا الى مدرسة الرهبان حيث رأيت أمام قهوة من القهوات حوالى اثنى عشر روميا مدججين بالبنادق وحينما تركنا الطريق بدأوا فى اطلاق النيران على الجماهير بدون حساب. وفي هذه اللحظة رأيت عربة بداخلها جندى من جنود البوليس مجروحا أو قتيلا. ويظهر أن هذه كانت اشارة الخطر اذ بعدها مباشرة حضر مندفعا الى مكان الحادث جمهور من المسلمين من كل

ناحية وأغلبهم من البرابرة والاعراب من أهل الصعيد مدججين بالعصي وعندها أصبحت الطلقات النارية عامة فى كل مكان ولذلك عدت الى منزلى . ولاقيت في طريق عربة بها المستر كوكسون وأخبرني احد المارة انه كان بمنزل رجل مالطى قبل ذلك بقليل وان هذا المنزل نفسه هو الذى أطلق منه الرصاص وحينما كان المستر كوكسون خارجا منه ضربه الاهالى لأنهم اعتبروه مسئولا عن اطلاق الرصاص .

والمعروف انه كان نصح للمالطيين قبل ذلك بان يحموا أنفسهم فى حالة حدوث هياج ثم قابلت عقب ذلك عند الساعة الثالثة عمر لطفى يتمشي فى ملابس عادية مع نفر من البوليس وسألته عن السبب الذى منعه من ايقاف الاضطراب . فقال « لقد كنت مع القنصل الانجليزى الذى ضربه الاهالى » فقلت « ولكن لماذا لم تذهب فى لباسك الرسمى ومعك خمسون رجل من البوليس السوارى وتوقف الاضطراب » . فقال انه لم يعثر على قنديل رئيس البوليس . « ولكن الجند . لماذا لا يقومون بالعمل ثم أنفسهم » . « فاجاب انهم يعقدون اجتماعا الآن » فسألته ولماذا لم يرسل تلغرافا لمندوب السلطان ؟ فاجاب فى غلظة « وما شأنك وهذا . » وكانت القنصلية الفرنسية مملوءة باللاجئين الاوروبيين .

وبعد ذلك توجهت الى منزلى وارتديت اردأ ملابسى وحملت عصاة بيدى ثم خرجت ثانية ورأيت بضعة أطفال يجرون بأمتعة سرقوها من المحلات التجارية وكان رجال البوليس موجودين حينئذ ولكنهم لم يفعلوا اى شىء لمنع الاقتتال وفي هذه الاثناء قابلت احد حراس القنصلية الروسية واخبرنى ان القتال دائر ايضا بالقرب من الميناء وان المسافرين الذين كانوا على ظهور المراكب فى ذلك اليوم قد ضربوا والقناصل ارسلوا تلغرافات الى مندوب السلطان . وكان ذلك عند الساعة الثالثة ونصف او الرابعة وكان الكل ينتظر ان يتدخل الجيش فى الامر وعند الساعة الخامسة ظهرت الفرق وانتهت الفتنة . وانى اعتقد من مسلك عمر لطفى ومن ظروف اخرى ان عمر لطفى مسئول عن استمرار الهياج . فقد كان الجيش يتدخل قبل ذلك لو انه طلب من الجيش التدخل ولم يتلكأ .

ومن المرجحات لهذا الاعتقاد الظرف الآتى. بعد الهياج باربعة أيام توجه عمر

لطفي الى المركب الاول بالاسطول المرابط وأخبر الاميرال سيمور انه غير مسئول عن النظام وان عرابي عاجز أيضا عن المحافظة عليه . ورجاه ان يرسل فرقا من عنده وطلب ذلك في وقت كانت المدينة في هدوء تام . وكان عمر لطفي خصما لعرابي وصديقاً للخديوي . وقد نحي عن مركزه كما سمعت بناء على طلب القناصل ترضية للرأى العام وذلك حينما اعتزل راغب باشا الحكم وجاءت نظارة ذو الفقار . واوقفت لجنة التحقيق عن متابعة أعمالها حينما طلب عرابي أن يكون التحقيق شاملا يتناول الاوروبيين والمصريين على السواء .

وقد علمت تفاصيل مقابلة عمر لطفي للاميرال سيمور على ظهر باخرة المستر ماريوت الذى كان يتخذه سيمور سكرتيراً له وعلمت بعض المسائل الاخرى من المسيو دي لكس القنصل الروسي .

اما من حيث منشأ الشاغبات فهو كما يأتي : أحدث وصول الاسطول الى مياه الاسكندرية شعوراً عدائياً شديداً بين المصريين وبين الجالية الاوروبية. فالاوروبيون رأوا في حضور الاسطول مقدمات أولى للحرب وأصبحت معاملاتهم للاهالى على شيء كبير من العنف وكانوا يقولون « الآن سترون ماذا نفعل » وبالنسبة للمصريين أصبح الحادث موضع حديثهم اليومى وأثيرت بينهم احتمالات كثيرة . وانتشرت فكرة جديدة وهى ان الجنود ستنزل من الاسطول الى البر وان البلاد ستحتل بالانجليز . وكثيراً ما سئلت فى هذه الاثناء عما اذا لم تكن هذه هى نية الاسطول الحقيقية. وازداد هذا الظن رسوخاً حينما عرف انه كتب عقد بين الاميرال سيمور والمسيو كنراد لتموين الاسطول لمدة ثلاثة أشهر وأصبح الناس ولا حديث لهم الا ذلك وازداد الهياج. ولكن الشعور ضد الفرنسيين لم يكن بهذه الصفة العدائية لان الموقف الذى وقفه الاميرال كنراد حينئذ لم يكن عدائيا بل على العكس من ذلك كان يعمل دائماً على التوفيق بين الوطنيين . وقد سبب هياج الافكار بين الاهالى فزع الاوروبيين وخصوصاً الانجليز والمالطيين منهم الذين كانوا دائمى الاستشارة لقناصلهم عن الطريقة التي يتبعونها لحماية أنفسهم فى حالة حدوث اضطراب وقد أخبرهم المستر كوكسون ان يستعدوا لحماية أنفسهم فى أواخر مايو او اوائل يونيو

وعرف في الوقت نفسه انه أرسلت آلات نارية من اليونان لتسليح الاروام بالاسكندرية . واشترى الانجليز كل ما عثروا عليه منها في المدينة وعلمت من موظفي مصلحة الجمارك ان بنادق ومسدسات من ماركة سنيدر أرسلت اليهم من الاسطول وبناء على ذلك أصبح حدوث معركة من المسائل المؤكدة تقريبا واذ كان يوم الاحد هو اليوم الذي يتجمع فيه الاوروبيون في القهوة وفي الطرقات لتعاطي المشروبات ، فقد كان ينظر الى كل أحد نظرة خاصة وكان توقع الخطر بهذه القوة التي ألجأت كثيراً من مسالمي المصريين والاوروبيين على السواء الى ترك القطر . وبدأ المسلمون كذلك يسلحون أنفسهم بالعصي وعلى الخصوص النوبيين الذين كان يوجد منهم بالاسكندرية ٣٠٠٠٠ . ومن المعلوم ان البرابرة قوم مشاغبون ومحبون للاقتتال . وكان كثير منهم منحازاً للشرا كسة في هذا الحادث.

والقصة التي ألقيت الي عن منشأ الحادث في هذه الاثناء هي كما يأتي : في صبيحة يوم الاحد الحادى عشر من الشهر حضر أحد المالطيين لزيارة أخيه الذى كان في خدمة المستر كوكسون . وأخذ منها بقشيشا من القنصل وخرج ليتمتع به في المدينة وركب عربة وأخذ يدور بها على جميع الحارات في الحي الاوروبي وأخيراً وصل الى قهوة الجزاز . وكان سكرانا في هذه اللحظة وأراد أن يصرف السائق ويعطيه قرشا واحدا فقط . فتشاجرا وما كان من المالطي الا أن قبض على سكين من سكاكين القهوة التي تستعمل لقطع الجبن وكانت مربوطة في خيط كبير متصل بالخوان «الترابيزة» وطعن بها السائق . وكانت طعنة نجلاء أصابت احشاء الرجل وحينما أتى آخر ليعاون الجريح قتل أيضا بيد يوناني آخر . وفي المشاجرة التي تلت هذا الحادث قتل خباز يوناني كان يعيش في البناء الملاصق وبذلك أصبحت المشاجرة عامة . وكان معاون قسم اللبان وهو الرئيس المباشر للبوليس هناك ايطاليا لا يعرف اللغة العربية ولم يتمكن من ايقاف المشاجرة . وجرح أحد رجال البوليس من اتباع المعاون المذكور أما البقية فقد انضمت للمشاجرة وناصرت الاهالي . وهذه المعلومات تلقيتها عن رجل من رجال البوليس المسيحيين وكان حاضراً وقت الواقعة .

أما بالنسبة لقنديل رئيس البوليس فقد كنت رأيته في يوم الخميس السابق يعمل

سومارعًا وعلمت انه مريض لأني جسست نبضه وكان مصابا بالحمى . ولو ان عمر لطفي أراد أن يوقف الهياج لامكنه ذلك بكل سهولة .

والسبب الحقيقي في انتشار الهياج بهذه السرعة هو عرض الموتى من المسلمين لانظار الجمهور . وقد رأيت ٧٦ أوروبيا قتلى وعلمت من السكرتير المسلم في لجنة التحقيق وكذلك من الدكتور المسلم وهو مصطفى بك نجدى أن عدد القتلى من المسلمين كان مائة وأربعين منهم ٢٥ بربريا .

وكذلك كان للاعراب من قبيلة أولاد على ضلع فى المشاغبات فقد رأيت ٢٠ أو ٢٥ منهم بالقرب من بيت جبارا وشاهدتهم يفتحون مخزنا للاسلحة النارية وكان أولاد على فى هذا الوقت متحيزين للخديوى بعد أن أخذوا ٢٠ ألف الف من الجنيهات رشوة من مدير البحيرة ابراهيم توفيق فى دمنهور . وسمعت فيما بعد من أحد موظفى مكتب التلغراف المحلى أن عمر لطفي أرسل فى هذا اليوم كثيرا من التلغرافات الشفرية الى نائب السلطان .

وأقرر أيضا انى لم أترك الاسكندرية مطلقا قبل يوم ١١ يونيو ببضعة أيام وبقيت بها الى ما بعد اطلاق القنابل عليها من الاسطول .

الملحق الثالث

خطابات من عرابي باشا لم تدمج فى أصل الكتاب

مترجمة عن العربية

إلى المستر بلنت من القاهرة .

٢٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

الى صديقي وروح حياتي المستر ولفر بلنت . أدامه الله

بعد تقديم أوفر تحياتي وبثكم أحر أشواقي لرؤية وجهكم المنير . أخبركم أني تشرفت باستلام خطابكم المؤرخ ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وحمدت الله على تمتعكم بالصحة التى أتمنى دوامها . ألبسكم الله حلل العافية والرخاء ! والحق أن خطابكم ملأني سروراً بدرجة أعجز عن التعبير عنها . كما اني أرجو أيضاً ان تبلغ وافر تحياتي لحرمكم المصون اللادى بلنت

والآن اخبر حضرتكم انى لا أعبأ بآلامي ولا بالسجن ولا بالسباب ولا بأى شيء يوجه الى بعد ذلك مادمت قد وقفت نفسى على حرية بلادى ولا شيء يهمني الآن الا أن أنقذ أهل بلادى من هذه الهوة الملوثة بالافاعي السامة وأن أنتشلهم من مخالب هذا التنين الفظيع — ويكون ذلك بمعونة العقلاء من الانجليز الذين يغارون على سمعة بلادهم وشرفها .

وأريد فوق ذلك ان كان فى العمر بقية أن أعيش طليقاً فى دمشق مع أولادى بعيداً عن السياسة مادمت بعيداً عن مصر واذا لم يسمح سلطان المسلمين بان أعيش بين المسلمين فانى أفضل أن أقطن لندن مجاوراً لاخواننا من محبي الانسانية ومساعديها وأعيش هنالك كرجل حر فى أرض الحرية — ولكن على ألا أكون محترقاً او اشراف . وكذلك أصدقائى وأعواني الذين قدموا أرواحهم فى سبيل الوطنية يجب أن يعيشوا أحراراً . ومقابل ذلك فانى أعطي كلمة شرف أكيدة

أن لا أتدخل في الامور السياسية في الوقت الذي أعيشه بعيداً عن بلادي « الى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا » .

اما من حيث الطريقة التي ألقى بها الخصوم على التهـم فيما يتعلق بحوادث ١١ يونيو و ١٢ يوليو — فهذه مجرد افتراءات لا يمكن اثباتها بأدنى دليل او برهان مذ كانت هذه الاعمال تتنافى مع أعمالنا الشريفة . وقد اجتهد خصومنا أن يثيروا أوربا ضدنا بهذه الاتهامات لكي يمزقوا الحريات التي حصلنا عليها لبـلادنا أربا ويذروها في الفضـاء . ومن يدري فربمـا أعاد ذلك بلادنا وبأي وقت تستكمل فيـه حريتها وخلاصها باتجاه الرأي العام الانجليزي الحر اليها رغماً عن مساعي خصومها المكشوفة

واني لا أعبأ بهذه الالقاب العارضة التي لم أكن أرغب فيها في اى وقت من الاوقات . واني مكتف بشرفي الشخصي الذى سوف يلازمني ماحييت ويبقى بعدي اذا مت . وسوف يرضيني دائماً ان أنادى « باحمد عرابي المصرى » فقط وبغير ألقاب .

وفي الختام أرجو أن تبلغ اوفر تحياتي لحضرة صديقنا العزيز المستر سابونجى والمسيو جون نينه واخوانك الذين انضموا اليك في الدفاع عن الانسانية ومن عندنا محمود باشا سامي وعلى باشا فهمي وعبد العال باشا حلمي والشيخ محمد عبـده واحمد بك رفعت يبلغونك تحياتهم . أدام الله عزك ياصديقي المحبوب صديقك

احمد عرابي

من القاهرة

الى المستر بلنت

الى مهجة أرواحنا ومنقذنا المستر ولفرد بلنت .أدامه الله وأبقاه

بعد تقديم وافر تحياتي والتنويه بشرفكم الذى يعجز عن استيعابه الوصف أخبركم أنه بناء على تعليماتكم ومشورة حضرة المحترم المستر برودلى والمستر نابيير قد اعترفنا بالثورة ضد الخديوى وصدر الحكم علينا بالنفي المؤبد. ولكن موافقتنا على ذلك لم تكن الا لتخفيف المصاعب التي تحيط بالسياسة الانجليزية وان ثقتنا في عدالة

الشعب الانجليزى مجملا نعتقد اننا سنعامل في المستقبل بطريقة تزيد من مجد اسم انجلترا فى التاريخ . ولقد عاملتنا الحكومة المصرية من ناحيتها معاملة مخالفة للقانون والعوائد المدنية فى الاسلام فاصدرت مرسوما نصادر به أملاكنا وأراضينا ومواشينا مع ان المحكمة العسكرية نفسها لم تضمن حكمها قراراً كهذا كما أن هذا المرسوم مخالف الشريعة الاسلامية ولم يكن له مثال الا فى حادثتنا . لان قضية درويش باشا التى حكم عليه فيها بالنفي وبالحرمان من الوظائف والالقاب ومن كل شيء الا أملاكه فقد تركت له ومقدارها ثلاثون الفا من الجنيهات — أو تزيد والاعجب من ذلك اننا حرمنا من التوارث بناء على الشريعة الاسلامية فى المستقبل وهناك أمر آخر لا يعدله شيء فى الظلم والاستبداد وهو اننا حرمنا من حق آخر ثابت لنا بمقتضى الشريعة الغراء — حرمنا من ان يرث أبناؤنا أملاك آبائهم وأجدادهم بعد موتهم . وقد احتججنا على ذلك بواسطة محامينا فى المحكمة.

والآن نحن متجهون الى حديقة آدم : سيلان . ولكنى قبل ذلك قد أبنت وجهة نظرى فيما يتعلق بسعادة مصر ورخاء أهلها للسير شارلز ولسن لكي يعرضها على اللورد دوفرين . وسأصطحب معي الى سيلان ابني محمد وزوجته وخادمته وخادمى الخاص فقط وسأترك فى القاهرة أولادى الآخرين وأمهم وأمي الى ما بعد الوضع وبعد أربعة أشهر من الآن أى بعد الوضع باربعين يوما سأرسل ابنى الى مصر ليأتى بهم الى سيلان . أما اخوتي فسيبقون مع أقاربهم فى القرية وبما ان الحكومة المصرية لم تحدد مرتباتنا الشهرية الى الآن وتركت تقرير ذلك لسعادة محافظ جزيرة سيلان حسب ما يراه من تكاليف المعيشة هناك فاني واخواني نأمل من عواطفك واحساسك الشريف ان تكتب لسعادة محافظ سيلان وكذلك نأمل ان يكتب اليه صديقنا السير وليام جريجورى لكي نعامل وتقدر مرتباتنا تقديراً حسنا . كما اننا نرجوك ان تسعى في تخليص ممتلكاتنا من المصادرة وان تجعلنا نعامل بشأنها حسب الشريعة الاسلاميه والعرف الاسلامى وان تتحصل من الحكومة المصرية على تصريح بارسال عائلاتنا الى سيلان على نفقتها الخاصة لانه يستحيل علينا ان ننفق أي شيء فى هذا السبيل وحالتنا المالية المعسرة معروفة للجميع .

وانا نرجو بحرارة أن يكون أصدقاؤنا وأقاربنا فى مصر تحت حماية ممثل الحكومة الانجليزية فيها حتى لاتنسى الحكومة المصرية معاملتهم وتنتقم منهم باتخاذ اجراءات غير شرعية ضدهم ولذلك فنحن نضع أنفسنا واصدقاءنا وأقاربنا فى ظل حمى الدولة البريطانية ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان والآن يا صديق المحبوب سنتبع نصيحتك الصادقة التى أسديتها فى خطابك المكرم المرسل لنا بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وسنمضي أيامنا فى سيلان فى تعلم اللغة الانجليزية وفى عبادة الله تعالى دون ان نتدخل فى أى أمر من أمور السياسة على وجه الاطلاق — الى أن يأتي وقت بمشيئة الله أو يهيء الله لنا ظروفا تقنع انجلترا اننا لم نكن ثائرين — بل على العكس من ذلك كنا ندافع عن بلادنا دفاعا شرعيا

ونرجوك أن لا تحرمنا من اخبارك الشيقة التى نحن دائماً فى تشوق اليها .
وأرجوك ايضا ان تبلغ تحياتى وتحيات عائلتى الى السيدة المصونة اللادى آن بلنت والى اللادي جريجوري وشكرنا العظيم على كل مافعلوه لنا وخدموا به الانسانية

وكل اخواني هنا — يعقوب سامي ومحمود سامي ومحمود فهمى وعلى فهمي وعبد العال حلمي وطلبه عصمت واحمد بك عبد الغفار يرجون أن تذكرهم ويبلغونك اسمى تحياتهم ونحن جميعا نرجو أن تبلغ تحياتنا لصديقنا السير وليم جريجورى والمستر لويس صابونجي والمسيو جون نينه وجميع أصدقائنا من ذوى المروءة الذين ساعدوك في الدفاع عن العدالة .

ادام الله لنا حياتك ياصديقى فى سلام دائم

صديقك الخاضع لامر الله
احمد عرابي المصرى

٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٢

خطاب من عرابى

كتب فى كولومبو فى ٧ يوليو سنة ١٨٨٣

ووصل الى لندن فى ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز الخ صابونجي

بعد التحية أخبرك أنى تسلمت بسرور خطابيك المؤرخين فى ٩ و١٥ يونيو واطمأننت لما جاء فيهما من حسن صحتك الخ .

وانى أشكرك وأشكر اخوانك أنصار الانسانية لاستمراركم على محاربة جيش الظالمين وعلى تبديده بثباتكم واني وان كان واجبي الآن أن لا أتدخل في الامور السياسية الا أن العدل يقضى على أن أبرىء درويش باشا من تهمة الاشتراك فى مذبحه الاسكندرية وأقول هذا دون اي شك او تردد . ولكنى لا أبرئه من انه أخذ رشوة من الخديو فان هذه عادة الاتراك ولكن المبلغ الذى أخذه لم يكن المتحصل من رهن اراضي ميت خاقان التابعة لحرم الخديو ، فان الناتج من رهن هذه الاراضى دفع رشوة للبعثة العثمانية السابقة التى كانت برئاسة على نظامى باشا وكان مبلغها ٦٠,٠٠٠ جنيه أرسلها ثابت باشا الشركسى الى الاستانة بحوالة من البنك الانجليزى . وكذلك لم يطلب درويش إليّ شيئا سوى أن أسافر مع بعض رفاقي الى الاستانة وكان وهو يعرض ذلك يقول للضباط انه رئيسهم ووالدهم لكي يغريهم بالثقة به حتي ينجح فى حضنا على السفر ولكنه فشل فى ذلك .

وقد سبق أن أدليت بتصريح خاص الى المستر برودلى بشأن مذبحة الاسكندرية وبآخر فى الامر نفسه الى صديقنا النبيل المستر بلنت ، وهذان التصريحان يوضحان ظروف تلك الحادثة . وقد علمت ان احدهما لم يصل الى المستر بلنت ولكنه لا يختلف عن التصريح الآخر وفيه الكفاية . غير أني لكي أقفك على الحقائق ولكي أحول

وبين الالتفات للاشاعات الكاذبة اكتب لك هنا تفصيلا ما أذكره من الظروف التي سبقت حادثة ١١ يونيو والتي حصلت في اليوم نفسه أو بعده حتى تعرفها جميعها وهي كما يأتي :

اما الظروف السابقة للحادثة فهي :

أولا — لما رأى الخديو تقدم الحزب الوطني استكثره بالنسبة لنفسه ولمستشاريه وحزبه — وكانوا خيرى باشا الشركسي وطلعت باشا الرومى وأمثالهما — وشرعوا يصممون خطة الهدم . وبناء على ذلك استدعى الخديو زعماء البدو بواسطة ابو سلطان باشا ومحمد سلطان من عربان الشرقية واستخدمهم لمحاربة الحزب الوطنى بعد ان منح معظمهم سيوفا مزينة بالفضة وشجعهم وأثار أطماعهم ، حتى بدا للناس بوجه عام ان الاسماعيلية صارت معسكر البدو

وكان الاوربيون والقناصل فى القاهرة يعرفون ذلك حق المعرفة وقد زاد عدد البدو الوافدين لدرجة انه سبب الخوف من وقوع اضطراب وشرع الاوربيون يشترون جميع الاسلحة التي يجدونها فى حوانيت القاهرة والاسكندرية. وقد أثبت ذلك السير ادوارد ماليت فى برقيته التي أرسلها الى وزارة الخارجية بتاريخ ١١ يونيو

ثانيا — لم تنقطع المراسلات السرية قط بين الخديو وعمر لطفي حتى أنتجت مذبحة الاسكندرية وبعض هذه المراسلات كان شفويا والبعض في برقيات رقية وكان يدير حركتها خيرى باشا الشركسي وطلعت باشا الرومي ولما تم التدبير نفذه عمر باشا لطفى بالتعاون مع اسماعيل كامل باشا الشركسي. ولكن السيد قنديل الذى كان من الحزب الوطني لم يشترك معهم فى ذلك ولم يدعوه يعرف شيئا مما دبروه اذ خشوا ان يقابل سوء أعمالهم بعمل الحزب الوطنى فلا يجنون فائدة وهو بعيد عن كل شبهة .

ثالثا — قال باشجاويش ايطالى — ولا أذكر اسمه — لصديق له قبل الحادثة بيوم « انه خير له ان يغادر الاسكندرية معه لانه علم ان شيئا من الاضطراب سيحدث » وقد فر فعلا ويعرف اسمه حسن بك صديق وكيل الضبطية وكذلك

ضباط البوليس ولا بد أن يعرفوا أيضاً اسم الشرطي الذى قبض على المالطي . ولكن القول بان البدو أودعوا أسلحتهم فى الضبطية قبل الشغب محض اختلاق .

اما الظروف التى كانت يوم المذبحة فهي كما يأتي :

أولا — لم يرسل الىَّ محافظ الاسكندرية نبأ بالمذبحة كما كان واجبه وانما أخبرنى الخديو فى صباح ١٢ يونيو ان المحافظ عمر لطفى أرسل اليه تلغرافا يقول فيه ان مالطيا طعن وطنيا بمدية ثم لجأ الى دار يسكنها أوربيون وان الناس تجمهروا مرتقبين القبض على المعتدى وان البندقيات والمسدسات أطلقت عليهم من منازل الاوربيين وان ذلك أحدث مذبحة كبيرة

ثانيا — لما علم الخديو بذلك لم يخبرني به فى الحال على الرغم من أنه يعلم ان السلطة التنفيذية ليست فى يده وانه نقل الىَّ ضمان الأمن العام بعد ان استخدمه لبذر أسباب الاضطراب . بل انه على العكس استدعى وكيل الحربية ليلا وأرسله الى الاسكندرية فى قطار خاص مع بطرس باشا والياور الاول لدرويش باشا لينضموا الى عمر لطفى فى قمع الهياج.

ثالثا — تشتت الجمع كله عند مجرد ظهور سليمان بك سامي وجنوده فى منطقة الاضطراب ثم وزع الجنود فى الشوارع وجعل يطوف بنفسه فى أحياء المدينة وكذلك وقف الاضطراب فى الحال ولكن المحافظ لم يستدعونى ولم يخبرونى بالامر الا بعد ان اتسع مجال الشغب ونفذت تدابير الخديو وشركائه لكي يسوئوا أعمالنا وينقضوا ضماناتي للامن العام .

أما ما حدث بعد يوم الحادثة فكان كما يأتى:

أولا — لما أخبرني الخديو بالحادثة كما قلت آنفا علمت فى الحال انها مكيدة فأصررت امامه على اجراء تحقيق في أسباب الشغب وتعيين مندوبين عن الدول العظمى وآخرين وطنيين لكشف الحقيقة . وبناء على ذلك أصدر ديكريتو بتعيين لجنة تحت رياسة عمر لطفي نفسه الذى كان المسؤول عن الحادثة . وكذلك عين وكيل الحربية وبطرس باشا عضوين بها ولكنى لا أذكر اسماء المندوبين الذين اختارتهم الدول العظمى التى لحق برعاياها ضرر

ثانيا — لما وصل وكيل الحربية الى الاسكندرية ووقف على الحالة رجانى أن أرسل قوة عسكرية لتأييد الأمن فارسلت في اليوم التالى للاضطراب ورقتين من المشاة وبلوكين من السوارى وبطاريتين من المدفعية وكان ذلك فى اللحظة التى طلبت فيها هذه القوة . وكتبت خطابا الى وكيل الحربية راجيا أن يبذل كل جهده لازالة الاضطراب وتوطيد الامن والهدوء فى المدينة وخارجها وأن يكون متبصرا حين يبدأ التحقيق وأن يحذر الوقوع فى فخاخ الخادعين — أعنى عمر لطفى وجماعة الخديو — وأن يدافع عن شرف الجيش والحكومة وأن يعقد نيته على معرفة الحقيقة وكشف المجرم الحقيق

ثالثا — أمر المحافظ بدفن القتلى دون كشف طبى كما يقضي القانون وبدون حضور ممثلين للدول

رابعا — لم تبحث لجنة التحقيق قط عن سبب المذبحة ولا عن القتلى وانما حصرت بحوثها فى الاملاك التى نهبت متذرعه بأن ممثلى الدول لم يخول لهم التحقيق فى شيء يخرج عن الاملاك المسروقة

خامسا — طلب عمر لطفى من الخديو السماح له بتغيير الهواء فى سوريا لكي يهرب من التحقيق ويبعد عن المسئولية وكان يعرف أن الحرب دانية وقد حصل على اجازة . ثم ذهب الى القاهرة ومكث فيها الى مابعد ابتداء الحرب وبعد ذلك لحق بالخديو عن طريق بور سعيد وقد كافأه الخديو على نجاحه في اشعال نار الفتنة باعطائه وزارة الحربية . ولما استقال من منصب محافظ الاسكندرية ومن رياسة لجنة التحقيق عين ذو الفقار باشا سر تشريفاتي الخديو خلفا له ولم يقم بأى عمل .

سادسا — كانت أوراق التحقيق مع المحافظ عمر لطفى ولم تؤسس على شيء من الصدق وقد حفظت بمحافظة الاسكندرية ولا بد أن تكون هنالك الآن ان لم يتلفها الخديو

والآن اتضح تماما ان اعمال الخديو وجماعته كانت سرية ولم يكن فى استطاعتنا أن نقف عليها لانها كانت مضادة لاعمالنا وقد استحوذت الحكومة على جميع

اوراقنا ووثائقنا مع أملاكنا ولا يمكننا أن نذكر تواريخ الحوادث بالضبط ولكن في هذا وفيما ارسل سابقا الكفاية .

وجميع أصدقائنا هنا يرسلون اليك تحياتهم ويرجونك أن تسعى حتى لا يعين لمصر حاكم غير مسلم لانك تعلم ان اي حاكم غير مسلم يضر بحقوق المصريين .

وقد كتبت آرائي الى صديق العزيز المستر بلنت وحين تطلع عليها ستنضم لمساعدتنا . حفظك الله .... الخ .

صديقك

في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣ احمد عرابي المصري

خطاب من عرابي الى صابونجي استلمه يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز صابونجي

تحيات ... الخ .

سررت كثيراً بخطابك المؤرخ في ٢٢ يونيو وأسأل الله أن يحييك ويوفقك في أعمالك وقد بلغت سلامك الى جميع رفاقنا وهم يرسلون اليك تحياتهم.

هذا ونرجوك أن تبلغ صديقنا المستر بلنت اضافة الى ما كتبناه اليه بتاريخ ١٥ الجاري ، ان النفقات التى تكلفها ١٠٠٫٠٠٠ جندى مصرى أثناء الحرب، قدمتها كلها هبات اكتتبت بها الامة المصرية على اختلاف طبقاتها وعند ابتداء الحرب لم يكن ثمة أكثر من ١٠٫٠٠٠ جندى تحت السلاح ولا أكثر من ١٢٫٠٠٠ بذلة فى المخازن ولم تكن جاهزة ، ولم يكن هناك أيضا غير ١٥٠.. « بشل » من القمح . ولكن عند انتهاء الحرب كان في خزائن الجيش والمديريات وفي المخازن ما تزيد قيمته على مليون جنيه من النقود والحاصلات والماشية والغنم والاقمشة وكانت الامة قد تبرعت بها للجيش الذى يدافع عن بلادها . ويشهد بذلك اولئك الذين رأوا امتلاء المخازن التى تركت فى التل الكبير وكفر الدوار وكفر الزيات وغيرها من المراكز الحربية . وفى ذلك الوقت لم ينفق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة بل بالعكس تركت خزانة المالية وصندوق الدين وخزائن المديريات مملوءة بالاموال . ويشهد بذلك ايضا مانشرته الجرائد المحلية وغيرها في ذلك الوقت وهو أن المبالغ التى وجدت فى صندوق الدين زادت على المطلوب لدفع كوبونات شهرى اكتوبر

ونوفمبر بمبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه ولم يقل أحد أن املاك الحكومة صودرت أو نهبت . ولو كنا ممن يبيعون شرفهم أو ممن يقدمون رحاءهم ومصالحهم الشخصية على المصلحة العامة للوطن لاخذنا الاموال التى كانت بتلك الخزائن المملوءة ولكنا تحت تأثير الرغبة فى الغنى نقوم بأعمال تختلف تماما عما عملناه ولما سرنا فى طريق الاستقامة نقود الامة فى دفاعها عن بلادها محترمين حقوق الامة التى تحاربنا وحقوق الامم الاوربية الاخرى فى أثناء الحرب ، ثم لما سلمنا الودائع التى كانت بأيدينا بذمة وشرف . وان الرجل الذى يدل على مثل هذه القمة وهذا الشرف لا يليق به أن يصير آلة بأيدى المستبدين ذوى النيات السيئة أو يؤجر نفسه بأموال من السلطات أو من الشيطان بل انه في حرصه على شرفه ومسلكه يخشى أن تشوبهما أية شائبة .

وقد أرسلت رفقه هذا خطابا الى صديقنا السير ولبم جرجورى وأرجوك أن تترجمه وترسله مع الترجمة الى عنوانه بعد أن تريه لصديقنا العزيز المستر بلنت . نسأل الله أن يعينك على الخير

صديقك المخلص

احمد عرابي المصرى

حاشية — ياصديق العزيز أرجوك لهذه المناسبة ان تذكر صديقنا المكرم بما قلته فى ختام تصريحي للمجلس الذى حاكمنى ، وهو كما يأتي :

يا أنصار الانسانية : اذا لم تكن ثمة حركة وطنية ولا رأى عام في مصر بل كانت هناك حركة عسكرية كما يقول المغرضون ، فلماذا سجن عشرون الفا من الوطنيين بعد الحرب ومن بينهم حسن باشا الشريعى أكبر سراة الوجه القبلى أبا عن جد وسيد ابو سلطان الذى ساعده حين كان (ابو سلطان) مجرد موظف فى الحكومة . وأيضا عبدالله باشا فكرى العلامة المشهور صديق حسن الشريف باشا . ومن بينهم أيضاً صديقاى محمود باشا سامى ومحمود باشا فهمي اللذان تطوعا فى الجيش أثناء الحرب . ومن بينهم كذلك كثير من كبار الباشوات ورؤساء المصالح المدنية مثل حسين باشا الدرملى ومصطفى باشا نايل وآخرين ، وكثيرون من العلماء الكبار وأعضاء مجلس النواب والمديرين والمفتين والموظفين المدنيين من جميع الدرجات وأعيان التجار والعمد ومشايخ البدو ومشايخ الطرق الصوفية ، حتى ان سجون القاهرة

والاسكندرية والمديريات والمحافظات كانت تختنق بهم أثناء سجننا . وأخيرا نفى كثيرون من أدكيائهم من الاراضى المصرية . فاذا اعتبر الجيش وحده فى حالة ثورة فلماذا عوملت الامة هذه المعاملة ؟

ولكن من جهة أخرى اذا كان الجيش وزعماء الامة — او الامة المصرية كلها فى الحقيقة — قد اتحدوا رغم اختلاف العقائد واتفقوا جميعهم على واحد هو الحق، فلماذا تأتى أمة أخرى معروفة بانها تقيم عمد الحق والعدل فتسحق هذه الامة المنكودة الحظ لكي ترضى فردا واحدا لا يسمح له قانون بلاده بان يكون حاكما باى حال وذلك رغم احترام الحكومة الانجليزية القانون والدين ، وكيف يبدو مثل هذا المسلك أمام العالم المتمدين فى التاريخ ؟

احمد عرابي المصري

خطاب من عرابى الى المستر بلنت

كولومبو فى نوفمبر سنة ١٨٨٣

الى صديقى العزيز المكرم . . . الخ المستر بلنت حفظه الله

اذكرك الآن بظروف العهد المخيف الذى حل ببلادنا مصر ودفعني الى ان أكلف مسيو لويس صابونجى بان يكتب اليك خطابا باسمي بشأن النتائج التي تنجم عن محاربة انجلترا لمصر والاحوال التى تصير اليها البلاد راجياً إياك ان تبين ذلك لرئيس الوزارة المستر غلادستون . وكنت أؤمل قبول هذا التصريح وجنى بعض الخير من ورائه . وكان ذلك قبل ابتداء الحرب ببضعة أيام . وقد كتب وفق رغبتى وبأمرى وان كان الخطاب لم يكتب بخط يدي ولم يختم بختمى . وقد كتبت اليك هذا الخطاب لأنبئك بحقيقة تلك المسألة يا صديقي الكريم .

صديقك

١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣ — أحمد عرابى المصرى

قائمة بأسماء المكتتبين

للدفاع عن عرابي

	بنس	شلن	جنيه
اللورد ونتورث		٠٠	١٠٠
مبلغ جمعه فريدريك هاريسون	٦	١٧	٦١
ج . باسكور ادواردز عضو البرلمان		٠٠	٥٠
ريتشارد ايف		٠٠	٥٠
السير وليم جريجورى		٠٠	٢٥
وليم جون ايفلين عضو البرلمان		٠٠	٢٠
روبرت هاريسون		٠٠	٢٠
السير ولفريد لوسن . عضو البرلمان		٠٠	٢
ايرل أوف وميس		٠٠	٢٠
الاونورابل ا. يورك		١٠	١٠
سبنسر تشارنجتن		١٠	١٠
فردريك هاريسون		١٠	١٠
الجنرال اللورد مارك كر		١٠	١٠
صمويل ستوري عضو البرلمان		١٠	١٠
الرايت انورابل روبرت يورك عضو البرلمان			١٠
ر . فورمي			١٠
ت . س. كارجوم			١٠
اللادى جريجورى			١٠

	بنس	شلن	جنيه
السير آرثر هوبهوس			١٠
ف. بكستون عضو البرلمان			٥
اللورد راندولف تشرتشل عضو البرلمان			٥
ادوار كلارك عضوالبرلمان			٥
ر . س . فيشر			٥
الجنرال س. ا. غوردن (مع الوعد بجنيه كل سنة)			٥
الاونورابل اوبرون لفربرت			٥
ونتورث س. هوقد زورق			٥
الفريد التجورث عضو البرلمان			٥
ا. كنجليك			٥
فرنون واشنجتن			٥
السير هنرى درموند وولف عضو البرلمان			٥
ادجار درموند		٣	٣

ملحوظه — جورج مرديث وولفريد مينل وآخرون اكتتبوا بمبالغ أقل . واللورد دلاوار اكتتب على ما اعتقد بمبلغ ١٠٠ جنيه ولكن ليس عندى مذكرة بها.

خطابات صابونجي

التي وردت إليّ من مصر

القاهرة في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢

في ليلة أمس (الاحد) زرت منزل محمود سامي الذي يجتمع به زعماء الحزب الوطني كل ليلة للمناقشة في خططهم . وفي الوقت نفسه لفت فوزي بك مدير البوليس الانظار الى اعلان من الخديو منشور في الجريدة الرسمية بشأن الاضطراب الاخير الذي حصل في الاسكندرية . وقد أحضرت الجريدة في الحال وأعطيت لنديم فقرأ الاعلان في تهيج فأحدث في الحاضرين أثراً سيئاً شديداً . أما أنا فاني لم أجد اى خطأ في الاعلان لانه وصف حالة البلاد بجملة وأبدى الاسف لما حدث ولقلة الثقة من جانب الاوروبيين ثم دعا الى السلم والهدوء والسلوك الودي ازاء المسيحيين على اختلاف جنسياتهم الخ . . . وقد انتقد نديم وغيره هذا الاعلان وأثاروا مناقشة حادة استمرت حتى الساعة الثانية صباحا وحاولت عبثا ان أنصح لهم وأهدىء نفوسهم ولكنهم أصروا على القول بان الخديو ليس من شأنه أن يذيع مثل هذا الاعلان وان ماليت هو الذى نصح له به . وقد حاولت عبثاً أن أبين لهم أن ماليت غادر الاسكندرية منذ يوم الاربعاء ولكنهم حتموا أن يخلع توفيق وأن يولى ابنه عباس بك بدلا منه تحت الوصاية . والواقع أن نديما رغم خلقه الثوري الطيب وميله الى الاصلاح متسرع مندفع سهل التأثر وأسوأ ما شهدته منه أنه كلما وجد نفسه مغلوبا في مناقشة قفز في عنف الى موارد التعصب الديني وشر ما في الامر انه بعيد عن التدين ولكنه يتظاهر بحماسة للدين تفوق حماسة شيخ الاسلام . وعرابي باشا يعرف كل ذلك وقد نصح له فعلا بالاعتدال ومنعه من السفر للاسكندرية خشية أن يحدث شيئاً آخر لان له هناك نفوذاً أكثر من أى مكان آخر . وأنا أبذل مافي استطاعتي لقيادتهم ولا أضن بأى جهد في هذا السبيل ولكني أخشى خلق نديم المتهيج فانه يستطيع في أي لحظة أن يشعل نار حرب دينية

وقد كان الحزب الوطني حتى الامس راضياً عن الوزارة الجديدة ولكنه اليوم انقلب خصما لها وكان نديم وسامي قد اقترحا ان يشمل برنامج الوزارة أن جميع المكاتبات الاجنبية الرسمية يجب ان يكون طريقها الوزارة وحدها وأن الخديو لا يحق له أن يقبل تلك المكاتبات الا بموافقة مجلس الوزراء . ولكن الخديو رفض هذا الحد من سلطته فاراد الوزراء أن يحولوا دون قيام صعوبات جديدة واتفقوا على تخفيف صيغة الفقرة . ولكن هذا العمل الذي اتخذه عرابي ووزراء آخرون في اعتدال وتبصر حرك شعور نديم فثار ضد الوزراء والخديو معاً وشرع يدعو الى خلع هذا الاخير . وقد جاء في احدى البرقيات أن ماليت سافر الى فينيسيا وان المستر كارترت عين بدلا منه وتقول برقية أخرى ان السلطان أرسل الى عرابي باشا وسام المجيدى والى الخديو وسام « سوفنير » مرصعاً بالماس .

القاهرة في ٢٩ يونيو

ذهبت بالامس لارى حديقتك وكان نديم معي وكان الحر شديداً وقد مكثت هناك طول النهار وكان الوكيل الاوربي ولا أعرف اسمه (هو المستر روسل من لجنة الدومين) قد فر مع بقية الاوربيين الذين غادروا مصر أخيرا . وقد شكا الجنائني العربي الينا عدم معرفته من يلجأ اليه في حالة الضرورة · وزارني يوم السبت ومعه حساباته راجيا أن أرسلها اليك ووعدته بأن أحضر له وكيلا مصريا أهلا للثقة ورجوت نديما أن يدلني على أحد معارفه . والحديقة في هذه السنة أكثر انتاجا من المعتاد والمياه وافرة .

نسيت أن أخبرك في خطابي السابق ان انصار الخديو حاولوا أن يسموا نديما بسيجارة مسمومة وقد دخن نديم جزءاً منها وهو مطمئن فكان هذا الجزء كافيا لأن يفقده وعيه وبصره مدة خمس وثلاثين ساعة . والحق ان نديما حركة دائمة .

وقد كان عرابي في الاسكندرية يوم ٢٧ الجاري وعاد منها الى القاهرة قبيل ارسالي البرقية اليك وقضيت طول الليل معه . وكان محمود سامي والباشوات الآخرون ونديم وعبده حاضرين وحوالى منتصف الساعة الثانية عشرة ذهب الجميع ولكني بقيت

مع عرابي وسامي ونديم وحدثني عرابي عن الاستعدادات الحربية القائمة في نقط مختلفة من مصر. وقد اتخذت الاجراءات لردم قناة السويس في حين ساعات عندما تبدو من جانب اوربا أول دلالة على العداء. والمظاهرة البحرية الحمقاء التي قامت بها انجلترا وفرنسا قوت الحزب الوطني مائة مرة حتى صار عبارة عن الامة نفسها. وأنت تعرف تمام المعرفة ان الدوافع الدينية تلعب دوراً كبيراً في مثل هذه الظروف وأن البعض ممن لا تؤثر فيهم العواطف الوطنية والسياسية تقودهم الحماسة الدينية، وكذلك الحالة في مصر وأخشى مما أراه وأسمعه ان تعلن الحرب الدينية عند أول بادرة للعداء من جانب أية دولة اوربية. والحالة الحاضرة سيئة جداً وقد علمت من قنصل ايطاليا ان ١٠٠,٠٠٠ شخص غادروا مصر منذ قدم الاسطول ودعت القنصلية البريطانية الرعايا البريطانيين الباقين الى الهاجرة من مصر حالا، والذين يختارون البقاء يجب عليهم أن يوقعوا اقراراً بأنهم يبقون هنا تحت مسئوليتهم الشخصية والرعب القاتل يشمل الآن جميع الاوربيين على اختلاف طبقاتهم ولا يوجد اكثر من اثنى عشر محلا اوربيا مفتوحة وتغلق الفنادق ابوابها وليس هنا محلات مؤثثة لتؤجر ومنظر الاحياء الاوروبية بالقاهرة بادى الكآبة ولكن الاحياء العربية مثل ما كانت عليه من قبل تستمتع بالحياة بطريقتها الخاصة والفلاحون وحدهم في قلق لأنهم لا يلقون من يشترى حاصلاتهم وقد مضت الآن ست سنوات والحاصلات بهذا الوفر والقمح الذى كان يباع بخمسة وعشرين فرنكا على الاقل لا يجد الآن شاريا بخمسة عشر فرنكا بينما قيمته في انجلترا خمسة وثلاثون فرنكا الربع. وثمة ربح قدره خمسون في المائة على الدوام وقد فر الاوربيون الذين كانوا يجوبون داخلية البلاد ويشترون من الفلاحين حاصلاتهم وأخذوا معهم أموالهم.

الاسكندرية في أول يوليو

رأيت أن ادهب الى الاسكندرية لان عرابي اضطر الى المكث بها مع راغب باشا والخديو، وعلى ذلك أتيت الى الاسكندرية اليوم وأجرت غرفة في فندق (ابات) وهو مزدحم باللاجئين من الاوربيين وفي المساء ذهبت الى سراى رأس التين لأقابل

عرابي باشا ولكنه كان مشغولا فى مجلس حربي فكتبت اليه مذكرة قلت فيها : «أولا — مادامت انجلترا تحدث هذه الضجة حول قناة السويس فمن المستحسن أن يخبر ممثلى الاول الاوربية بأن القناة بصفتها طريقا دوليا لكل الامم يجب أن تبقى محايدة في حالة الحرب مع مصر ولا تمر بها بارجة أو أية سفينة بها أسلحة ودخائر من تاريخ كيت الى تاريخ كيت . فاذا خالفت ذلك أية دولة فان الحكومة المصرية تدمر القناة فى الحال وتقع المسئولية على عاتق الدولة التى تحمل علمها السفينة الداخلة في القناة . ثانيا — ينبغي للحكومة أن تخبر الدول التى أرسلت أساطيلها الى الاسكندرية لتوطيد السلم والهدوء فى انحاء البلاد بأن بقاء الاسطول فى مياه الاسكندرية يدع نفسية المصريين فى هياج وهذا خطر على الامن العام ومانع الناس من الرجوع الى الاسكندرية ماداموا يعرفون أن الاسطول لا يزال هناك . وبناء على ذلك يجب أن يرسل انذار الى الدول صاحبة الشأن وفيه انه اذا لم ينسحب الاسطول من تلقاء نفسه فى مدة اربع وعشرين ساعة تصوب الحصون مدافعها اليه وترغمه على الانسحاب . واضفت الى ذلك انه مما يرفع شأن عرابي ان يكون البادىء فى هذه الحالة ليرى اولئك الذين هددوه قبل شهر مضى انه بلغ الآن من القوة ماجعله يهددهم ويتحداهم . ثالثا — عرضت على عرابي باشا ان يتبع الحذر ازاء الجيوش التركية ولا يسمح لها بان تنزل الى الارض فان الكراهية السابقة بين الاتراك والعرب لم تمت ولن يتفق الجنود الاتراك والعرب معا ووجود الجيوش التركية في مصر سيخلق الفوضى ويحدث الانقسام فى الجيش والامة ويشل جهود الحكومة بواسطة الدسائس المعتادة فخير له ان ينصح السلطان بان يحجم عن ارسال جيوش الى مصر فاذا اصر على ارسال جيوش يعتبر كدولة مهاجمة ويقاوم على هذا الاعتبار .

فى ٣ يوليو

فى ليلة امس أثناء العشاء ارسل الىّ عرابي باشا ضابطا وترجمانه الخاص راجيا ان اذهب لزيارته وحالما دخلت غرفة الاستقبال وقف في ادب وقال مبتسما : « كنت على وشك ارسال برقية اليك بالقاهرة ولكني علمت انك في الاسكندرية وانك جئت

لزيارتي بعد ظهر اليوم بينما كنت في المجلس مع راغب » . وبعد شرب القهوة سألني عنك وعن السيدة حرمك وعما اذا كنت علمت شيئا من اخبارك وعن كيفية سير الاحوال في البرلمان البريطاني . وقد اخبرته بكل ما اعرفه فانبأني بان مراسلا جديدا لجريدة ستاندارد وصل اخيرا وزاره ليسأله عن وجهة نظره في الحالة الحاضرة وقال عرابي : « وقد قلت له اني آسف لانه اتعب نفسه في المجيء الي بينما كان يستطيع ان يحصل على كل المعلومات اللازمة من المستر بلنت في انجلترا وهو يعرفني كما اعرف نفسي » .فقال المراسل ان الامة الانجليزية تدرك الآن تماما ان المستر بلنت من اكبر اصدقائه المحبين به ولهذا السبب تحسبه مغرضا يغالي في الحقائق . وعلى اثر ذلك جرت محاورة بين عرابي والمراسل وربما تقرأها في الستاندارد.واخبر المراسل عرابي ايضا بان في انجلترا الآن جمعية لحماية الرعايا البريطانيين في الخارج وان هذه الجمعية تطالب الآن بدماء الرعايا البريطانيين الذين قتلوا في الاسكندرية يوم ١١ يونيو فأجاب عرابي قائلا انه يسره كثيراً ان يسمع ذلك وانه هو نفسه سينضم الى الجمعية لا ليطالب بدماء الرعايا البريطانيين وحدهم ولكن بدماء جميع الضحايا من كل جنسية الذين ضحى بهم على أرض مصر ، سيطالب بدمائهم من أصحاب تلك الكارثة . وان من واجبه أيضاً ان يطالب بدماء اخوانه المصريين الذين ذبحهم الاوربيون وان الحكومة البريطانية نفسها كانت سبب الأذى بواسطة ممثلها في مصر . وقد رجاني خمس مرات امام الجميع ان أرسل أصدق تحياته القلبية اليك وأكبر احترامه الى السيدة قرينتك وكلم الحاضرين عنك وعن شديد اهتمامك بالقضية الوطنية وقال انه لو كان كل الانجليز مثلك لأصبحت انجلترا جنة والانجليز ملائكة

وقد ابديت في خطابك الاخير رغبتك في ان تسمع مني بيانا عن الشغب الذي حصل في الاسكندرية يوم ١١ يونيو . وبما اني لم اكن في الاسكندرية في وقت الحادثة أكتب اليك وصفها كما سمعته من الضباط والمصريين والاوربيين ثم كما سمعته من الباشا نفسه ثلاث مرات ثم مرة أخرى في ليلة أمس

في يوم الاحد ١١ يونيو طعن مالطي مكاريا فخر في الحال قتيلا فلم يصبر الوطنيون المشاهدون للحالة حتى يحضر الشرطة بل هجموا على المالطي وقتلوه فوق الحمار واذ ذاك شرعت الجالية المالطية في اطلاق الرصاص من النوافذ وكانت قد تسلحت من قبل . فاحدث هذا اضطرابا عاما بين الجماهير التي تجمعت في الميدان ومن ثم امتد العراك الى أجزاء عديدة من المدينة واستمر الى الساعة السادسة (أى نحو خمس ساعات) حتى حضر الشرطة والجنود ليفرقوا المتشاجرين

وقد جرح القنصل البريطاني جرحا خفيفاً في ظهره بواسطة عصا وهو المعتبر أصل الحادثة ومدبرها ولكنه لم يخرج من بيته وكان الدافع له الى البقاء فيه خوفه من القتل لا خطورة جرحه . ولكن على الرغم من ذلك بعث السير ماليت في منتصف الليل الى المراسل الخديد لجريدة « الديلي تلغراف » يخبره بأن القنصل البريطاني جرح جرحا مميتاً وانه قد يسلم الروح قبل شروق الشمس ويرجوه ان يرسل هذا الخبر في الحال الى لندن . غير أني نصحت للمراسل بان لا يتسرع وان يرتقب حتى آتيه بالنبأ اليقين من عرابي نفسه وذهبت في الليلة نفسها الى عرابي باشا وسألته عن حقيقة المسألة فاجابني بانه أبرق أربع مرات ولكن لم يأت اليه جواب . وبينما كنت لديه أتت برقية وبعد خمس دقائق جاء الحاج رازى وكان قد أرسل من الاسكندرية خصيصاً ليخبر عرابي بالسبب الحقيقي للشغب وتفاصيل حدوثه فعدت في الحال الى المراسل وأخبرته بان مسألة القنصل لا أساس لها بل على العكس لما فرق الشرطة الجماهير وجدوا عند باب القنصلية عربة فيها أربع وعشرون بندقية ومسدسان وصندوقان مملوءان بالبارود وكان القنصل نفسه قد أعدها جميعاً ليستخدمها المالطيون . وقد أخبرني عرابي باشا في ليلة أمس بان لجنة التحقيق أثبتت ان المشاجرة كانت مدبرة وذلك انه في صباح يوم الاحد الذى وقعت فيه الحادثة أخبر ايطالى يشغل وظيفة كونستابل في البوليس المصرى كونستابلا آخر من رفاقه انه ستحدث مشاجرة خطيرة في اليوم نفسه وانه خير لهما ان يهربا وقد اختفيا بالفعل وهما الآن في ايطاليا . والجرائد لا تكتم سر المسألة وتصرح بان القنصل البريطاني و

الاسكندرية هو الذى دبر المشاجرة وأعدها لاغراض سياسية . ولم يعرف عدد الضحايا واتفقت السلطات الاوربية والمصرية على عدم التحقيق في هذا العدد. والواقع ان الشغب كان أخطر مما وصفته الصحف فقد قتل فيه اكثر من ١٤٠٠ شخص معظمهم من الاوربيين . وكان الاوربيون كلهم مسلحين بالبنادق والمسدسات بينما الوطنيون لم يتسلحوا بغير العصي ومع ذلك كان موقف هؤلاء خيراً من الاولين. وهذه التجربة المبدئية هي التي ثبطت من شجاعة الاوربيين وجعلتهم يفرون من مصر كالمجانين والجبناء .

وقد وصل كتابك «مستقبل الاسلام» الى نديم وذكرت لخلاصته وترجم خطابك الذي أرسلته الى المستر غلادستون ونشرته « التيمس » الى اللغة العربية لينشر في « الطائف » وقد سر عرابي باشا به كثيراً وهو يقول ان الجو السياسي معتم وربما أنذر بعواصف أشد وان الحرب أقرب من السلم ولا مثيل للنشاط البادى في الاستعداد للحرب في مصر في الوقت الحاضر ويستعد للحرب الجنود والفلاحون والبدو جميعاً. وسأغادر مصر في اليوم الذى تعلن فيه الحرب وعلى الرغم من ان الباشوات والضباط يطلبون ان أبقي في مصر أثناء الحرب لا أحسب ان بقائي يكون من الحكمة وأؤمل ان تدرك احتمال نشوب الحرب وتنبئني قبل نشوبها بالتلغراف على أن تكون الدلالة على وجوب مغادرتي مصر هي كلمة « اكسودس » . واذا قامت الحرب فستخرب مصر تماما وستغرق الاسكندرية ومديريتان معها وستدمر القناة الى الابد بمياه البحر التي تتدفق من سد أبي قير وستكون حرب اليأس ولن يسلم المصريون حتى يصبحوا بكل نفيس. ويدل لي ما اسمعه وما أراه على انهم أعدوا العدد لكي يجعلوا من الحرب في مصر ثورة عامة يقوم بها المسلمون في آسيا وأفريقيا .

الاسكندرية في ٣ يوليو

رجاني عرابي باشا أن أدون المكاتبة الآتية التي أملاها عليّ باللغة العربية بحضور عبد العال باشا ومحمود باشا فهمي مفتش التحصينات وكثير من الباشوات والضباط وطلب اليّ ان أترجمها الى اللغة الانجليزية وأرسلها اليك لكي تتصل

بتقديمها باسمه الى الرايت اونورابل المستر غلادستون (وذكر هنا خطاب عرابي الى المستر غلادستون وقد سبق ذكره فى أصل الكتاب)

حاشية — خولني عرابي باشا أن أخبرك بأنك بعد أن تقدم هذا الخطاب الى المستر غلادستون يمكنك ان تستخدمه كما تشاء سواء بنشره أو بغير ذلك .

الاسكندرية فى ٤ يوليو سنة ١٨٨٢

تسلمت شاكراً مكتوبك الرقيق مع قصاصات الجرائد . ينظرون هنا الى السياسة التركية بعين الشك وسوء الظن وقد عزم عرابي والباشوات والضباط والامة على منع الجيوش التركية من النزول الى البر ويقولون أنهم غير محتاجين الى مساعدتهم على الارض « واذا كانوا يرغبون حقاً فى مساعدتنا فليحاربوا عدونا المشترك فى البحر » .

الاسكندرية فى ٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كنت ليلة أمس مع عرابي باشا حتى منتصف الليل ولما دخلت غرفة الاستقبال وجدتها مزدحمة بالباشوات والضباط وغيرهم وكانوا قد اجتمعوا هناك ليهنئوه لمناسبة الانعام عليه بالوسام المجيدى الاكبر . وعند الساعة الحادية عشرة انصرفوا وبقينا أربعة وحدنا بالغرفة وأخذنا نتكلم بحرية فى مسائل كثيرة . وقد قرأت له برقيتك المؤرخة في اول يوليو فسر كثيراً ولما ذكرت له اسم درويش هز رأسه وكأنه يقول : « نحن نعرف هذا الشخص حق المعرفة » . ثم قال لى : « أما عن ذهابي الى الاستانة فليقل الناس ما يشاؤون فاني ولدت فى بلاد الفراعنة وستظل الاهرام الخالدة قبرى ولن يحاول الباب العالى أن يخرب احدى الممتلكات العثمانية ومن الامثال العربية : لا يجدع احد أنفه بيده . وسيفكر السلطان مليا قبل أن ينوي دعوتي الى الاستانة او ارسال جيوش الى مصر » .

ويوجد الآن فى مصر شعور قوى ضد الأتراك والامة الانجليزية على السواء . وقد أيقنت أخيراً ان اميرال الاسطول البريطاني هو ماليت او كلفن آخر او شر منهما . وبالامس ارسل انذارا (والانذارات هى الطراز السائد الآن) أرسل اليك صورة منه مع هذا الخطاب وقد وجه الى طلبه باشا .

وقد أحدث رعباً شـديداً بين الوطنيين وأيضاً بين الاوروبيين القليلين الذين لايزالون في مصر . وقد كنت في غرفتي أ كتب بعض الرسائل فاذا باحد خـدم الفندق يأتي الىّ مرتجفاً ويخبرني بشيء لا أفهمه بداءة لانه كان من شـدة الخوف لاينطق الا بنصف الالفاظ وقد حاولت ان أهدئ روعه وسألته ما ذا في الامر . فقال : « ألا تعلم ان الاسطول البريطاني سيضرب المدينة اليوم ؟ » فابتسمت لأبعث في نفسه شيئاً من الشجاعة ونصحت له بان لا يخاف وانه لا يوجد خطر ولكنه قال وهو لايزال يرتجف ان القناصل أمروا جميع الاوربيـين بان يتوجهوا في الحال الى ظهور البواخر . فسألته أجاء هذا الامر رسميا الى الفندق ؟ فأجاب:« كلا ياسيدى، ولكن كل من بالفنـدق يغادرونه » . فقلت له لا تهتم بهـم وأعطيته ثيابي ليسلمها الى الغسالة فرفض وتولى . وفي الحال قمت وذهبت الى عرابي باشا لأرى ماهو جار فلم أجد شيئاً جديداً سوى ان راغب باشا أخبر الاميرال انه لا توجد أعمال جارية في الحصون وقد سكن ذلك ثائرة الاميرال ولكنه لم يطمئن الشعب الخائف. ولذلك ذهبت ثانيا الى طلبه باشا ورجوته ان يرسل الىّ جنديين ليحرسا مدخل فندق المساجيرى الذى أسكنه الآن فتنبعث الثقة في نفوس النازلين به . وقد كنت لدى طلبه باشا حين وصل اليه الانذار فاعطانيه لكي أعربه فعربته في الحال بحضور عرابي باشا والضباط الآخرين . فلما قرأوه قال الكولونيل عابد بك : « هل في الامكان ان انجلترا لا ترسـل الينا سوى موظفين مجانين ؟ ان هـذا الاميرال يحاول ان يظهر نفسـه في مظهر الرجل العاقل الجرىء يبدى الخوف عنـد أدنى حركة في الحصون ولا ينفك يضايقنا بانذاراته ويزعج الناس ويثير شعور العرب وهو يضر أ كثر مما ينفع » . والواقع ان مدينة الاسكندرية أصبحت خاوية

وقد طفت أمس بالمدينة راكبًا فلم أ كد أرى عشرين اوثلاثين أوربيا والحوانيت والقهاوى مغلقة والمهاجرة من الداخل مستمرة وقد أمر مستخدمو الدومين ووكلاء المراقبة وأصحاب المصارف الخ بان يغادروا مصر . بل وصلت الحالة الى درجة ان أدوات شركة التلغراف الشرقية نقلت الى بارجة الاميرال وقد أصبحت المخابرات بالتلغراف صعبة جداً وغـير مأمونة واضحت طريقـة ارسال أحد التلغرافات متعبة

فعلى المرسل ان يكتب نص التلغراف ويعطيه لكاتب حجز نفسه فى غرفة صغيرة جداً بها نافذة ذات قضبان حديدية وليس فيها سوى ثغرة سعتها خمس بوصات. وكذلك الانجليز الشجعان الذين أتوا الى هنا باسطولهم لكي يسحقوا العرب الذين لايزالون يعيشون فى عدوتهم المعتاد !

اما عن نفسي فلا أدرى أمن التبصر ان أبقى فى مصر فى حالة الحرب أم لا؟ ويريدنى أصدقائي على ان أبقى ولكن لا أعلم ان كان ذلك مأمونا.ورجائي اليك ان تراقب اتجاهات وزارة الخارجية وفي اللحظة التى تعلم فيها ان الحرب تقررت ترسل الىّ تلغرافا به كلمة « موسى »

في ٨ يوليو — توجهت صباح اليوم لأرى عرابى باشا فاخبرني انه استقبل سيدة امريكية فتية من فيلا دلفيا رجته ان يوقع باسمه على دفتر الامضاءات « أوتوجراف » وقال انه كتب لها باللغة العربيـة ورجانى ان أترجم ما كتبه الى الانجليزية وأخبرنى أيضا انه كان منذ يومين آتيا من القاهرة الى الاسكندرية فوجد فى المحطة حسمائة ايطالي يستعدون لمغادرة مصر فشرع بحادثهم ويشجعهم على البقاء فى ديارهم لانه لن يوجد خطر مطلقا وضمن لهم أرواحهم واملاكهم وقال انه يضمن سلامة كل انسان . وقد شجعت كلماته أولئك الاشخاص الذين تملكهم الرعب فاندفعوا اليه رجالا ونساءاً وبناتا واطفالا ليقبلوا يده ويشكروه.وكان بينهم رجل مسن فى طول عرابى نفسه شقّ لنفسه طريقا بين هذا الجمع ولما وصل اليه وضع كلتا يديه على كتفه وقال له بالايطالية ما معناه « الله يباركك » . وفى النهاية عاد ثلثهم الى بيوتهم فىالقاهرة .

وبينما كنت مع عرابي تسلم خطابا من رجل ايطالى يرجوه أن يقبله بصفة متطوع فى الجيش المصرى ويقول انه كان فيما سبق جنديا فى الجيش الايطالى تحت قيادة غاريبالدي وانه الآن يريد أن يحارب لاجل حرية مصر .

لا يثق السلطان كثيراً بدرويش باشا وقد أرسل معه الشيخ احمد أسعد وكيل السلطان فى المدينة بصفة جاسوس عليه يرقب حركاته وأعطي السلطان درويش باشا شفراً خاصاً ليرسل به تلغرافاته وفي الوقت نفسه أعطى أحمد أسعد شفراً خاصا

آخر وهكذا بعث هذين المندوبين أحدهما ضد الآخر وكل منهما يرسل تلغرافاته مستقلا . وهذا الشيخ أحمد أسعد صديق حميم لعرابي وقد ساعده كثيرا في أزمته الاخيرة مع الخديو .

ومنذ يومين كنت مع عرابي فأتاه رجل عربي بخطاب ففتحه وتلاه عليّ وعلى الضباط الآخرين وقد كتبه حافظ الكعبة الملحق بشريف مكة وكان الخطاب مكتوبا بأسلوب راق وفيه مدح كثير وقال كاتبه ان جميع الناس في مكة يدعون الله ان ينصر عرابي وان الصلوات تقام من أجله ومن اجل نجاحه في الكعبة وعند قبر اسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفي كل مكان مقدس في مكة . ولم يتردد الكاتب في منح عرابي لقب حامي حمى الاسلام والدولة الاسلامية . وقد أتي بالخطاب رسول خاص . والحجاز كله مع عرابي ولم يرد شريف مكة أن يكدر علاقاته مع السلطان فكلف أحد رجال حاشيته بكتابة هذا الخطاب وهو عباس أغا زمزم . ولما تلي الخطاب اتفق على كتابة خطاب شكر اجابة عليه .

ويظهر أن الاميرال الفرنسي هنا يرتاب كثيرا في حركات الاميرال البريطاني وكلما رأى الاول الثاني يغير موقف بارجته يتبعه في الحال واذا خرجت بارجة انجليزية من الميناء سارت في أثرها بارجة فرنسية واذا وصلت الى الاسكندرية بارجة بريطانية جديدة يبرق الاميرال الفرنسي في الحال طالبا ارسال بارجة فرنسية . والواقع ان هاتين الدولتين تتبع احداهما الاخرى كالقط والفأر .

في الاسكندرية الآن شيخ مشهور من الجزائر يدعي الشيخ محمد البزرلي ويجله جميع المسلمين والسلطان نفسه . وقد سبب للفرنسيين متاعب كثيرة في الجزائر ثم في تونس ولما جاء الى مصر منذ أربعة أشهر بدأ ينشر الدعوة ضد عرابي وأعلن الخديو أن عرابي ثائر على السلطان واذ كان رجلا عالما فصيحا ذا نفوذ أضر بعرابي كثيراً وساعد في الخلاف القتال الذى قام بين سلطان باشا والنواب وعرابي . وفي ذات مرة كان يخطب ضد عرابي في اجتماع فسأله أحد الحاضرين هل يعرف عرابي شخصياً فاجاب الشيخ مشمئزاً بانه لم ير عرابي قط وانه لا يرغب في رؤيته (ثم ذكر الخطاب كيف ان الشيخ قابل عرابي بعد ذلك في احدى الولائم دون أن يعرفه وبحث معه

في مسألة الاصلاح وأثرت فيه مناقشاته وحججه حتى صار أحد أنصاره المخلصين).
ومنذ ثلاث ليال رأيته في دار عرابي وقد أتى ليستأذنه في أن يذهب الى السلطان ويسأله باسم جميع المسلمين ان يعدل عن ارسال جيوش تركية الى مصر فلما سمعت ذلك منه سألته كيف كان ، حين سررت برؤيته لاول مرة ، يدعو الى تدخل الاتراك بحجة ان مصر ولاية عثمانيـة فاذا أتت الى مصر جيوش تركية كانت في بلادها ؟ فاجابني : « صحيح ان ذلك كان اعتقادي في ذلك الوقت ولكن لما سمعتك تقول ان الجيوش التركية اذا أتت الى مصر فلن تخرج منها وان وجودها في مصر سيجدد الضغن القديم بين الجنود العرب والجنود الأتراك — وجدت انك مصيب فيرأيك والآن أتيت لأستأذن من صاحب السعادة أن أذهب مع بعض اصدقائي الى الاستانة لامنع السلطان من ارسال جيوش الى هناك » . وأظن أن عرابي أخبره بانه تأكد من السلطان انه لن ترسل جيوش الي مصر .

في ٩ يوليو

علمت من مصدر ثقة أن خير الدين باشا وسعيد باشا — والاول رئيس وزارة سابقة بالاستانة — يعارضان في فكرة ارسال جيوش الى مصر ويقال انه بينما كان الوزراء يبحثون المسألة في مجلسهم قام خير الدين وأورد من آيات القرآن والحديث ما يدل على أن ارسال جيوش مسلمين لمحاربة أمة مسلمة هادئة أمر يخالف الدين وختم كلامه بحديث مؤداه انه اذا تحارب شخصان مسلمان عـذب القاتل والمقتول كلاهما عذابا أبديا في نار جهنم .

فهمت من الصحف التي تفضلت بارسالها ان ماليت وكلفن هاجماك ولعلك تذكر اني كنت مصيباً في رأيي الذي كونته لنفسي بشأن هذين الشخصين منذ اول يوم دخلنا فيه القاهرة . وقد اعتمدت أكثر من اللازم على صداقة ماليت وعلى اخلاص كلفن المزعوم والآن اصدقاؤنا هنا في أشد السخط عليهما

قرأت خطاب السير وليم جوبجورى المنشور في « التيمس » وترجمته الى اللغة العربيه لعرابي باشا فسر به كثيراً .

في ١٠ يوليو

هذا يوم الاضطراب البالغ ، يوم الرعب والشقاء والفرار العام . ففى صباح اليوم كنت فى سريرى فجاء إلىّ خادم وطنى من خدام الفندق وقال « قم واستعد للذهاب » . فسألته لماذا ؟ فأجابنى : « لأن سيدى سيغلق الفندق ولن يبقى به أحد وقد ذهب الجميع الى البواخر » . فقمت وأمرت الخادم بأن يحضر لي فنجان شاى . فقال « لايوجد شاى » فلبست ثيابي ونزلت الى قاعة الطعام ووجدت فيها صاحب الفندق فى اضطراب ويأس . فسألته عن الحالة فأجابنى « أمر جميع القناصل رعاياهم أن يغادروا الاسكندرية قبل الظهر » . فقلت : « هل تتركنى أسكن الفندق وحدى وأعني به ؟ » فرفض ذلك قائلا انه لا يمكنه . فرجوته أن ينتظر على الاقل ساعة حتي أذهب الى نظارة الحربية وأعود . وفي الحال ركبت عربة وذهبت لأرى عرابي ولكنى لم أستطع رؤية أحد من النظار فقد كانوا جميعاً فى المجلس . ووجدت سكرتير عرابي الخاص فأخبرني بأن الاميرال البريطاني أرسل كلمة شفوية فقط يقول انه سيضرب الحصون بعد أربع وعشرين ساعة وأن قناصل الدول الاخرى ذهبوا الى الاميرال البريطاني ليسألوه عن المسألة . ولما عدت الى الفندق وجدت صاحبه قد حزم أمتعته ووضعها فوق عربات وأنه على استعداد للرحيل ولم أجد وقتاً كافياً لأحضر حقائبي الصغيرة وأركب عربة وأذهب . ولم أدر الي أين أتجه . وقد خرجت الاساطيل فعلا من الميناء وذهبت الى البحر استعداداً لاطلاق المدافع . وكان الناس — وأعنى القليلين الذين بقوا حتى اللحظة الاخيرة — يجرون في سرعة كبيرة الي البواخر المختلفة التى مكثت فى الميناء لتستقبل اللاجئين . ولست أظن أن مهاجرة الاسرائيليين من مصر تداني مارأيت ، فان الرجال والنساء والاطفال والرضع الباكية بين أذرعة أمهاتها ، والشيوخ الذين لا يقدرون على السير ، والمرضى الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم ، هؤلاء جميعاً كانوا يندفعون الى ناحية البحر فى رعب يذكر الانسان بيوم القيامة . وكان هؤلاء الناس البائسون لا يجدون ما يفرج همهم فى ذعرهم ويأسهم سوي لعن القناصل والحكومة البريطانية التى أتت لمصر بهذه النكبة .

وبعد أن شهدت هذا المنظر المفزع بدأت أفكر فى مآلى ولكن كلما

ذهبت الى من أعرفهم وجدتهم قد ذهبوا . ولم أجد مكاناً ألجأ اليه سوى الترسانة ولكني لم أحسبها مكاناً آمناً لقربها من الحصون فى حالة ضرب المدينة. وكان الوقت يمضى أثناء ذلك وقد قرب انتهاء مهلة الاربع والعشرين ساعة . فجال بفكرى أن أذهب الى احدى البواخر ولكن سمعت أنها مزدحمة وكان أحد بحارة القوارب مشغولا بحمل حقائبي الى قاربه فعرض عليّ أن يأخذني الى القارب البريطاني المسمى « تانجور » ولكني رفضت ذلك لان جميع الرعايا البريطانيين والقناصل ومراسلى الصحف — وأكثرهم بمرفوتي — كانوا في البواخر ولذلك لم أجد من الحكمة أن أزج بنفسي بينهم وعزمت على أن أبقى على الشاطئ. وأن أكون آخر من يغادر الاسكندرية ولكن دنت آخر ساعة وكانت القوارب الاخيرة تروح . وفى هذه اللحظة قابلت فرنسياً كان على وشك الابحار مع زوجته فدعاني لان أذهب معه الى الباخرة « سعيد » احدى بواخر المساجيرى ماريتيم فتوجهت اليها وها أنا أكتب فيها هذا الخطاب . ولا أظن انى أقدر على ارسال هذا الخطاب اليك غداً لانه لا يوجد بريد بريطانى . وقد اغلقت جميع مكاتب البريد بما فيها المكاتب المصرية .

وقد تركت شركة التلغرافات الشرقية مدينة الاسكندرية ونقلت أدواتها الى بارجة الاميرال البريطانى .

ولما رأيت أصدقائي منذ ساعتين وجدتهم ثابتين ومتأهبين للقتال والمقاومة الى الى آخر نقطة من دمائهم معاً كلفهم ذلك

فى ١١ يوليو

في صباح اليوم (الثلاثاء) عند الساعة السابعة تماما أطلق الاسطول البريطانى أول طلقة اشارة الى ضرب الحصون . وكنت على ظهر الباخرة « سعيد » على بعد مسافة قصيرة من الاسطول وقد أتت ساعة عرابي الخطيرة. وأما درويش فغادر الاسكندرية عقب ابتداء الضرب وأبحر الى حيث لايدرى أحد . ومن بين ١١٧٠ شخصا كانوا معي هذا الصباح يشهدون ضرب المدينة كنت الوحيد الذى يتمنى حسن الحظ والنجاح لعرابى ورفاقه ولما أطلقت أول طلقة لوح فى الهواء بالقبعات والمناديل والايدى مع الهتاف والنداءات الدالة على الرضا وكان الرجال والنساء والاساقفة

والقسوس والراهبون والراهبات في سرور وجذل يتنبأون بتسليم الحصون بعد ساعتين ولكن استبيادهم بدأ بالعمل والساعة الآن الواحدة والنصف ولما ينقطع اطلاق المدافع من الجانبين وقد كانت المقاومة حتى الآن باهرة وبعض طلقات المدافع المصرية يتخطى الاسطول والبعض الآخر لايصل اليه والمسافة بين الطرفين بعيدة بشكل ظاهر ولكن لايستطيع أحد الآن أن يتنبأ بالنتيجة . وأجلس فى هذه الآونة فوق ظهر الباخرة أرقب الضرب وأكتب كل ماأستطيع رؤيته ولكن ماذا يمكن الانسان أن يراه على البعد ووسط سحابة من الدخان المقتم سوى ابراق المدافع وارعادها ؟

مكثت بلا أخبار منك مدة أسبوع تقريبا وكنت أنتظر أن يصلنى نبأ منك حالما قررت الحكومة البريطانية الحرب ولكنك تركتني فى ظلام حتى اللحظة الاخيرة ولم يكن أصدقاؤنا ولا بعض القناصل أنفسهم ولا انا متأكدين من أن انجلترا كانت ترغب فى الحرب رغبة جدية

وقد عزمت على السفر الى نابولى أو فينسيا حتى تستقر الاحوال فى مصر وأظن ان هذا يتطلب أشهرا ويمكنك من خطاب عرابي الى المستر غلادستون — ولعلك تسلمته أمس كما ينبغى وقدمته اليه ونشرته — أن تحكم على نيات المصريين وتقدر الاضطراب الذى سيحدث فى مصر مدة من الزمن . وقد مزقت الطلقة الاولى جميع المعاهدات قطعة قطعة وأرسلت ملايين روتشلد الى جهنم وأبعدت الرجل التى اتفقت انجلترا وفرنسا على توطيد سلطته وستمتلىء قناة السويس بعد بضعة أيام بـ ١٠٠,٠٠٠ من الفلاحين والبدو دربوا على كيفية اداء مهمتهم من قبل — هذا اذا لم تكن القناة قد دمرت الآن فعلا .

(وقد وصل صابونجي الى فينسيا يوم ١٩ يوليو ثم وصل الى لندن بعد بضعة الاسابيع)

برنامج الحزب الوطنى المصرى

الذى قدمه المستر بلنت الى المستر غلادستون في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١

مع رد المستر غلادستون

---

١ — يرى الحزب الوطنى محافظة على العلاقات الودادية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه فى أعماله — ويعتقد أن (جلالة) السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله فى أرضه وامام المسلمين ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات مادامت الدولة العلية فى الوجود ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج وما يلزمه من المساعدة العسكرية اذا طرأت عليه حرب اجنبية وهذا بمقتضي القوانين والفرمانات الشاهانية كما يعتقد هذا الحزب انه يحافظ على امتيازاته الوطنية بكل مافى وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية (أى من يريد سلب امتيازاتها ونسخ الفرمانات التى منحتها استقلالها الاداري) وله ثقة بدول اوربا لاسيما انجلترا المدافعة عنه ويود أن تدوم هذه المحبة حتى يحصل على حرية مصر واحترامها.

٢ — هذا الحزب يخضع للجناب الخديو الحالى وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية علي قانون العدل والشريعة حسب ما وعد به المصريين فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ وقد قرن هذا الخضوع بالعزم الاكيد على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل وبالالحاح على الحضرة الخديوية بتنفيذ ماوعدت به من الحكم الشورى واطلاق عنان الحرية للمصريين ويطلبون منها الاستقامة وحسن السلوك في جميع الامور وهم يساعدونه قلبا وقالبا كما انهم يحذرونه من الاصغاء الى الذين يحنون اليه الاستبداد والاجحاف بحقوق الامة ونكث المواعيد التى وعد بانجازها

٣ — رجال هذا الحزب يعترفون بفضل فرنسا وانجلترا اللتين خدمتا مصر

خدمة صادقة ويعلمون ان استمرار المراقبة الاوربية هو الكفالة العظمى لنجاح أعمالهم مع قبولهم تلك الديون الاجنبية حرصا على شرف الامة وان كانت تلك الاموال لم تصرف فى مصلحة مصر بل صرفت فى مصلحة حاكم ظالم لا يسأل عما يعمل . ومعلوم لهم أن ما حصلوا عليه من الحرية والعدل كان بمساعدة هاتين الدولتين فهم يشكرونهما ويثنون عليهما .

ثم انهم يرون أن النظام الحالى لم يكن الا وقتيا والا فانهم يؤملون أن يستخلصوا ماليتهم من أيدى أرباب الديون شيئاً فشيئاً حتى يأتي يوم تكون مصر فيه بيد المصريين . وهم لا يخفى عليهم شىء من الخلل الحاصل فى المراقبة ومستعدون لاذاعته فانهم يعلمون أن كثيراً من المستخدمين فى قلم المراقبة لا يقدرون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة وبعضهم يأخذ الرواتب الجسيمة بلا استحقاق مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن اسلوب براتب لا يوازى خمس راتب الاجنبي وبهذا يحكمون بوجود الظلم وخلل الادارة مادام هذا الاسراف الخارج عن الحد باقيا

وهم يتعجبون من اعفاء الاجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد مع تمتعهم بخيرها واقامتهم فيها ولكنهم لا يريدون مداركة هذا الاصلاح بقوة أو جفوة بل يقتصرون على اقامة الحجة ويطلبون من فرنسا وانجلترا التبصر فى هذا الامر فانهما أخذتا على نفسيهما مراقبة المالية فهما مطالبتان بنجاحها وباستخدام أهل الامانة والاستقامة فيها لأنهما مسؤولتان عن رفاهية مصر بعد ان نزعتا ادارة ماليتها من أهلها وتكفلتا بنجاحها .

٤ — رجال الحزب الوطنى يبعدون عن الاخلاط الذين شأنهم احداث القلاقل فى البلاد إما لمصلحة شخصية أو خدمة للاجانب الذين يسوؤهم استقلال مصر . وهؤلاء الاخلاط كثيرون فى البلاد (بل هم معلومون للمصريين ولهذا اشتدت النفرة منهم) والمصريون يعلمون ان الصمت على حقوقهم لا يخولهم الحرية فى بلاد الف حكامها الاستبداد وكرهوا الحرية فان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الا سكوت المصريين وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية فى هذه

السنين الاخيرة فعقدوا خناصرهم على توسيع نطاق التهذيب وهم يرجون ان يكون ذلك بواسطة مجلس شورى النواب (الذى انعقد الآن) وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة وبتعميم التعليم ونمو المعارف بين افراد الامة وهذا كله لايحصل الا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله .

ويرى هذا الحزب ان مجلس النواب ربما أكره على الصمت كما حصل لمجلس الاستانة واستعين عليه بجعل المطابع آلة تفوق نحوه السهام فيتكدر صفو الراحة ويحرم الابناء من التعليم ولهذا فوض الاهالي امرهم الى امراء الجهادية وطلبوا منهم ان يصمموا على طلبهم لعلمهم ان رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو وليس فى عزمهم ابقاء الحال على ماهى عليه بل متى تحصلت الامة علي حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة فان امراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة بعد ان فتح المجلس فهم الآن بصفة حراس على الامة التى لاسلاح لها ولهذا يطلبون زيادة الجند الى ١٨٠٠٠ عسكرى ويرجون التفات قلم المراقبة لهذه الزيادة عند تقرير الميزانية .

٥ — الحزب الوطنى حزب سياسي لا دينى فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم اليه لانه لاينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم ان الجميع اخوان وان حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الازهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون ان الشريعة المحمدية الحقة تنهى عن البغضاء وتعتبر الناس فى المعاملة سواء . والمصريون لا يكرهون الاوربيين المقيمين بمصر من حيث كونهم أجانب أو نصارى واذا عاشروهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون الضرائب كانوا من أحب الناس اليهم

٦ - آمال هذا الحزب معقودة على اصلاح البلاد ماديا وأدبيا ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة . وللمصريين اعتقاد فى دول أوربا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال ان تمتعهم بهذه البركة . وهم يعلمون انه لم تنل أمة من الأمم حريتها

الا بالجد والكد فهم ثابتون على عزمهم آملون فى تقدمهم واثقون بجانب الله تعالى اذا تخلى عنهم من يساعدهم

١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

رد المستر غلادستون

قصر هاواردن بتشتر فى ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢—الى ولفريد .س. بلنت المحترم

سيدى العزيز

انك كما أؤمل ستقدر الاسباب التى تجعلنى لا أستطيع أن أعرض أي شيء يصح أن يكون جوابا مناسباً على خطابك الشائق بشأن المسائل المصرية التي تشغل جزءاً من التفاتي كل يوم

ولكنى أدرك فائدة الحصول على مثل هذا الخطاب ممن كان مثلك مرجعا في هذه الشؤون وأشعر بالثقة التامة باننا سنستطيع ان نصل بهذه المسألة الى نهاية مرضية ، الا ان كان ثمة نقص محزن فى الادراك لدى أحد الجانبين او كليهما.

وقد أبديت آرائي الخاصة بشأن مصر في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن أتولى منصبي بوقت وجيز ولا أرى للآن انى وجدت ما يوجب تغييرها .

المخلص

و . ا . غلادستون

دوننج ستريت نمرة ١٠ هوايت هول في ٢١ يناير سنة ١٨٨٢

عزيزى ولفريد

أشعر باني مدين لك باعتذار كبير لاني لم أرسل اليك قبل اليوم نبأ بتسلمى مكتوبك الشائق الدال على المقدرة بشأن الحركة المصرية . وعذرى هو الاستراحة ولكن غيابى عن دوننج ستريت لم يمنعنى من تقديم خطابك فى سرعة الى المستر غلادستون وأرفق بهذا مذكرة منه . وهو يأسف لانه تأخر شيئا ما فى ارسالها.

ومن الصعب — ان لم يكن من المستحيل — ان اكتب فى الحالة الحرجة الحاضرة بينما الموقف يتغير من يوم الى آخر .

وقد تحسب أن الصفة الوطنية التى تنسب الى الحركة لا بد أن تبدى ميزتها للمستر غلادستون المعروف بعطفه على القوميات الصغيرة التى تجاهد فى سبيل الاستقلال . وانما يظهر ان الصعوبة الكبرى (وانا بالطبع أتحدث عن شخصى مع شعورى التام بالجهل) هى كيف نستطيع تأييد مثل هذه الحركة مع رعاية المسؤوليات التى حملناها على عاتقنا ومع المصالح التى تمسها ؟ إن كل حل يراد اختياره يبدو محاطا بعقبات وصعاب لا يمكن تخطيها . ويمكنني فقط أن أقول انك اذا استطعت أن تعمل شيئا فى سبيل الوصول الى حل لتلك الصعاب فانك تؤدى خدمة جليلة لمصر ولهذه البلاد وللحكومة الحاضرة وأنا أعلم أنك كنت بالفعل ذا نفع كبير وانك يحق لك الكلام فى هذا الموضوع عن يقين ومعروفة قبل أى شخص آخر

مع احتراماتي الخاصة للسيدة آن واعتذاراتى عن هذا الرد الموجز على خطابك

المخلص

ا . و . هاملتون

رد المستر غلادستون

على الخطاب الثانى من المستر بلنت المؤرخ بالقاهرة

فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

دوننج ستريت نمرة ١٠ هوايت هول فى ٢ مارس سنة ١٨٨٢

عزيزى ولفريد

قرأ المستر غلادستون خطابك الثانى باهتمام كبير وهو يشكرك عليه ويؤمل أنك شعرت ، أو ستشعر ، من لغة خطاب العرش — وارفق بهذا نسخة منه بناء على رغبته — أن الحكومة البريطانية في الوقت الذى تنوى فيه نية ثابتة على احترام الاتفاقات الدولية تعطف على رغبة المصريين فى اغراض ووسائل الحكومة الطيبة

المخلص

ا . و . هاملتون

فقرة مقتطفة من خطاب الملكة أرسلها المستر هاملتون

« بالاتفاق مع رئيس الجمهورية الفرنسية منحت التفاتا كبيرا لمسائل مصر حيث الانظمة السائدة قد فرضت على واجبات خاصة . وسأستخدم نفوذى لاحتفظ بالحقوق التى تأسست من قبل سواء بفرمانات السلاطين أو بالاتفاقات الدولية المختلفة ، وذلك بروح التعضيد للحكومة الصالحة في البلاد وتقدم انظمتها فى تبصر »

الملحق السادس

نص الدستور المصري الصادر فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

خطاب من محمود سامى باشا الى الخديو

عند توليه الوزارة فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢

مولاى

صدر أمركم الكريم بأن أشكل وزارة جديدة فصار من أوجب الفروض قضاء أ علىّ ان أعرض لمعاليكم عن المبادىء التى سأتخذها دستورا لأعمالى ومرشدا لسياسة الوزارة الجديدة

ان الحوادث التى توالت على مصر من بضع سنين وشغلت الافكار العمومية فى داخلية البلاد وفى البلاد الخارجية على انواع شتى تنحصر في أمرين الاول تعهداتنا المالية والثاني اصلاحاتنا الداخلية

ولقد نظم الدين العمومي تنظيما نهائيا وصدر فى شأنه عدة أوامر سامية ختمت بقانون التصفية الصادر فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠ وقد عدت هذه الادوار وهذا القانون كأنها معاهدات دولية ما فتئت حكومة عظمتكم عن اعتبارها ومراعاتها وستعتنى الوزارة بانفاذ أحكامها بالدقة والامانة

وصارت تصفية الدين السائر أمرا واقعيا فسددت حسابات الاكثرية ممن اعترفت الحكومة الى الآن بحقوقهم وستصرف العناية الى الاستمرار على اتمام تصفية هذا الدين

كذلك الديون المقررة (قونصوليد) المختص بها قلم الدائرة السنية ومصلحة الاملاك الميرية الموضوعتان رهنا لقرض سنة ١٨٧٨ سائرة أمورها من تأدية فائدة واستهلاك فى طريق الانتظام .

والادارات التى انشئت لتأكيد انتظام سير الديون المذكورة (وهى قلم المراقبة العمومي وادارة خزينة الدين وقلم المراقبة فى الدائرة ومصلحة الاملاك الاميرية) يجب على الحكومة ان تحافظ عليها وتراعيها وذلك دأب الحكومة مع هذه الادارات من حين انشائها الى الآن .

فلا يغير شيء مما ذكر عن وضعه وستجتهد الوزارة فى تأييد تلك الادارات والمصالح لتهون عليها السير فى سبيلها لانها تعد حسن سير هذه الادارات العمومية أمرا لازما لانتظام الاحوال في اشغال الحكومة وعندنا ان الادارة العمومية في البلاد تستفيد من ذلك فوائد جمة لا شك ولا ريب فيها

وقد كان أبدا فى خلد عظمتكم ان لا بد من مساعدة مجلس شورى لاتمام الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالى والوزارة أيضا من هذا الرأى وهي متوجهة همتها وعنايتها الى اصلاح المحاكم والمجالس وانتظام الادارة واجراء التحسين اللازم فى أمر المعارف العمومية مساعدة البلاد على السير فى سبيل المدنية والنجاح .

وستنظر فى اتخاذ الوسائل الآيلة الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية التى كانت موضوع أماني عظمتكم ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب أن تعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له أن يأتى الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وأن يحقق آمال البلاد المحصورة ... ولذلك فأول شيء تشرع فيه الوزارة هو وضع نظام أساسي للمجلس الموما ... ويكون من أحكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعهود الدولية و ...

التعهدات المتعلقة بالدين العمومي وما توجب هذه التعهدات ادراجه في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التي تلحق الوزارة امام المجلس وكيفية المحاورة والمباحثة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها وسيكون هـذا النظام الاساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم بعيداً من أن يكون سبباً لقلق البال .

هذه يا مولاى لائحة الوزارة الجديدة وفقاً لآمال الوطن .

وعنـدي الرجاء الاكيد ان الدول المعظمة — ولا سـيما الباب العالى الذى وازرنا أبداً بعنايتـه ومـساعدته فيا يتعلق بالحقوق والامتيازات التى منحها لنا — ستستمر على مساعدة حكومة عظمتكم مساعدة كانت أبداً وتكون أبداً مفيدة للقطر المصرى

كذلك أرجو أن تكون عناية حكومتكم مصروفة في سبيل المحافظة على الحقوق العمومية وحفظ النظام ومساعدة الامة فى طريق التقدم والعمارة .

وقد وعد جنابكم العالى يوم توليتكم السعيدة ان يفتح لمصر بابا جديداً للنجاح والسعد ونحن الآن نقـدم بين يدى عظمتكم عزمنا على الاجتهاد فى تحقيق ذلك الوعد فاننا نجد فى تحصيل الغاية التى يروم جنابكم العالى الوصول اليها وآمالنا كبيرة فى المستقبل اذ ان ثقتنا فى عظمتكم كبيرة أيضاً .

فاذا راقت لمعاليكم هذه اللائحة وهذه المبادئ التى قدمتها فارجو التوقيع على الاوامر التى ارفعها لمقامكم الكريم متضمنة تشكيل الوزارة الجديدة.

وتفضل يا مولاى الخ

خطاب من صاحب السمو الخديو

الى سعادة محمود سامي باشا ١٥ ربيع أول سنة ١٢٩٩ (و٤ فبراير سنة١٨٨٢)

عزيزي محمود باشا سامي

ان أخذكم على عهدتكم أمر تشكيل الوزارة الجديدة مع علمكم بأهمية هذا الامر الخطير يعد برهاناً جديداً على اخلاصكم وصحة وطنيتكم

وقد عهدنا اليكم بذلك لما نعهد فيكم من الاخلاص وصحة الوطنية فقد تحققنا

ذلك فيكم وأيدتموه بالادلة السديدة في الخدم الصحيحة التي ابديتموها في المصالح التي عهدت اليكم .

وانا نصادق على لائحتكم والمبادىء التي وضعتموها فان هذه المبادىء هي اساس العدالة ومن شأنها حفظ الراحة وتوطيدها في البلاد وتقدم جميع سكانها ونجاحهم

ونوافق على رأيكم المتضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لاتمام الاصلاحات القضائيـة والادارية ونشر قانون أساسى لمجلس النواب ينطبق على الآراء التى أبديتموها في لائحتكم .

كذلك يجب على حكومتنا الاهتمام بتوسيع دائرة المعارف العمومية والزراعة والتجارة والصناعة وسنبذل جهدنا فى مساعدتكم على ذلك .

ونرجو من الله عزّ وجلّ أن يكلل اجتهادنا بالنجاح حبا في خير البلاد وتقدم الأمة   (محمد توفيق)

دكريتو

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الدكريتو الصادر فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ (١١ ذى القعدة سنة ١٢٩٨)

وبعد الاطلاع على قرار مجلس النواب

ووفقا لنصح مجلس وزرائنا قررنا ما يأتي :

المادة ١ — تعيين أعضاء مجلس النواب يكون بالانتخاب والشروط اللازمة لمن له حق الانتخاب ولمن يجوز انتخابه تتبين فيما بعـد فى لائحة مخصوصة تشتمل أيضاً على كيفية الانتخاب.

المادة ٢ — يكون انتخاب أعضاء المجلس لمدة خمس سنوات ويعطى لكل منهم مائة جنيه مصرى فى السنة مقابلة مصاريفه .

المادة ٣ — النواب مطلقو الحرية في اجراء وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا بوعد او وعيد يحصل اليهم

المادة ٤ — لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما واذا وقعت من أحدهم جناية أو جنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز القبض عليه الا بمقتضى اذن من المجلس .

المادة ٥ — للمجلس حال انعقاده ان يطلب الافراج أو توقيف الدعوى موقتا لحد انقضاء مدة اجتماع المجلس عمن يدعى عليه جنائيا من أعضائه أو يكون مسجونا فى غير مدة انعقاد المجلس لدعوى لم يصدر فيها حكم

المادة ٦ — كل نائب يعتبر وكيلا عن عموم أهالى القطر المصري لا عن الجهة التي انتخبته فقط .

المادة ٧ — مجلس النواب يكون مركزه بمحروسة مصر وينعقد بامر يصدر من الحضرة الخديوية بموافقة رأى مجلس النظار ويكون اجتماعه سنويا .

المادة ٨ — تنعقد الجلسات الاعتيادية السنوية بمجلس النواب مدة ثلاثة أشهر من أول شهر نوفمبر لغاية يناير واذا لم تكف هذه المدة لاتمام الاشغال الموجودة وطلب المجلس ان تزاد مدته من ١٥ يوما الى ٣٠ يوما فيجاب الى ذلك بامر يصدر من الحضرة الخديوية .

المادة ٩ — اذا مست الحاجة الى تكرار اجتماع المجلس في غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية تتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع .

المادة ١٠ — تفتتح الحضرة الخديوية أو رئيس مجلس النظار بالنيابة عنها مجلس النواب بحضور باقي النظار .

المادة ١١ - تفتتح أول جلسة فى كل سنة بتلاوة مقالة يقرأها الخديو او رئيس النظار بالنيابة عنه وتشتمل على بيان المسائل المهمة التي تعرض على المجلس فى أثناء انعقاد جلساته وتنفض الجلسة بعد تلاوة المقالة المذكورة .

المادة ١٢ - ينتخب المجلس فى اثناء الثلاثة الايام التالية لتلاوة المقالة لجنة لتحضير جوابها وبعد التصديق عليه من المجلس يصير تقديمه للحضرة الخديوية بمعرفة من ينتدبهم لهذا الغرض من أعضائه .

المادة ١٣ - لا يشتمل الجواب المذكور على التكلم في أي مسألة بوجه قطعى ولا على أى رأي حصلت المداولة فيه .

المادة ١٤ - ينتخب المجلس ثلاثة من أعضائه تعرض أسمائهم على الجناب الخديوى فيعين أحدهم ليتولى رياسة المجلس مدة الانتخاب أى خمسة أعوام بمقتضى أمر يصدر من حضرته .

المادة ١٥ - ينتخب المجلس وكيلين لرئيسه ويعين القلم كتاب بشرط ان يكون الوكيلان من أعضائه

المادة ١٦ - تحرر محاضر الجلسات بملاحظة قلم كتابة المجلس الذي يؤلف من الرئيس ومن الوكيلين ومن الكتاب .

المادة ١٧ - اللغة الرسمية التى تستعمل في المجلس هي اللغة العربية وتحرير المحاضر والملخصات يكون بتلك اللغة

المادة ١٨ - للنظار حق الحضور فى المجلس وابداء ما يرومون ابداءه فيه ولهم أيضا ان يستنيبوا عنهم وكلاء من كبار الموظفين .

المادة ١٩ - اذا قر قرار النواب على أن يستدعي للحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة معينة فعلى الناظر ان يذهب الى المجلس بنفسه او يستنيب عنه أحد كبار الموظفين يجيب عما يسأل عنه .

المادة ٢٠ - للنواب حق الملاحظة على موظفى الحكومة جميعاً ولهم فى أثناء اجتماع المجلس ان يشعروا بواسطة رئيسه كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تعد او خلل او قصور يقع فى أثناء تأدية الوظيفة من احد موظفى الحكومة التابعين لنظارته .

المادة ٢١ - النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه اخلال بالقوانين واللوائح المرعية الاجراء .

المادة ٢٢ - كل من النظار مسئول على الوجه المذكور بالبند السابق عن اجراآته المتعلقة بوظيفته .

المادة ٢٣ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة

أشهر من تاريخ يوم الانفضاض الي يوم الاجتماع ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم .

المادة ٢٤ ـ اذا صدق المجلس الثاني علي رأي المجلس الأول الذي ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأي المذكور قطعيا .

المادة ٢٥ — مشروعات اللوائح والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستورا للعمل مالم يتل في مجلس النواب بندا فبندا ويقرر حكا فحكا ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية وكل قانون يتلى ثلاث مرات بين كل مرة وأخرى خمسة عشر يوما واذا كان القانون مستعجلا فيكفي تلاوته مرة واحدة ويستغنى عن المرتين الاخريين بمقتضى قرار مخصوص يصدر من المجلس واذا تراءي لمجلس النواب سن قانون فيطلب ذلك بواسطة رئيسه من مجلس النظار ومتى وافقت عليه الحكومة فتعمل مشروعه وتقدمه لمجلس النواب على الوجه المبين بهذا

المادة ٢٦ — مشروع كل لائحة أو قانون يعرض على المجلس ينظر فية بمعرفة لجنة من أعضائه تنتخب لذلك ويجوز للجنة المذكورة أن تطلب من الحكومه اجراء بعض تغييرات فى المشروع الذي تكلفت بنظره وفى هذه الحالة يرسل رئيس مجلس النواب الى رئيس مجلس النظار المشروع والتغييرات المطلوب اجراؤها فيه قبل المذاكرة العمومية بمجلس النواب .

المادة ٢٧ — ان لم تطلب اللجنة اجراء تغييرات فى المشروع المحال عليها أو طلبت ولم توافقها الحكومة على ذلك فيقدم النص الاصلى من مشروع القانون لمجلس النواب للمداولة فيه اما اذا صدقت الحكومة على تلك التغييرات فيقدم للمجلس النص الاصلى مع التغييرات التى حصلت فيه للمناقشة فيها وفى حالة مااذا كانت التغييرات قد صار قبولها من الحكومة فللجنة أن تبين رأيها للمجلس وتقدم له ملحوظاتها

المادة ٢٨ — عند تقديم المشروع للمجلس من طرف اللجنة يجوز للمجلس قبوله أو رفضه ويسوغ له أيضا احالته ثانية علي اللجنة للنظر فيه

المادة ٢٩ — على رئيس مجلس النواب أن يرسل الى رئيس مجلس النظار اللوائح والقوانين التي يصدق المجلس عليها .

المادة ٣٠ — لايجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو ويركو في الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس النواب وعلى ذلك لايجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة أمرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر كشوفات أو تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كمختلس وترد الحقوق لاربابها .

المادة ٣١ — ميزانية مصروفات وايرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالا كثر .

المادة ٣٢ — تقدم للمجلس ميزانيـة عموم الايرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها

المادة ٣٣ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الادارة العمومية بتلك النظارة .

المادة ٣٤ — لايجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات الويركو المقرر للاستانة أو الدين العمومي أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفيـة أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية .

المادة ٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة البند السابق) ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالا كثرية .

المادة ٣٦ — اذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان أثبت رأي لجنته فيكون العمل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة وأما ما حصل فيه الخلاف من الميزانية فاذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا

لاعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثانى بمقتضى المادة ٢٣ .

المادة ٣٧ — اذا أيد المجلس الثاني رأي المجلس الاول فى أمر الميزانية وجب تنفيذ الرأي المذكور قطعيا كما فى المادة ٢٣

المادة ٣٨ — كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها لا يكون نهائيا الا بعد الاقرار عليه من مجلس النواب مالم يكن على أمر مبلغه وارد فى ميزانية عامة مقررة بهذا المجلس وأية مقاولة عن أشغال عمومية خارجة عن الميزانية أو مبيع شيء من أملاك الحكومة أو اعطاء أرض بدون مقابل أو امتياز لاحد لا تكون نهائية الا بعد الاقرار عليها من مجلس النواب أيضا .

المادة ٣٩ — يجوز لكل مصرى أن يقدم للمجلس عريضة ويحال النظر في هذه العريضة على لجنة ينتخبها المجلس وبناء على مايجاب منها يحكم المجلس بقبول أو رفض العريضة وما يحكم بقبوله يحال على الناظر المختص به ذلك .

المادة ٤٠ — كل عرض يختص بحقوق أو صوالح شخصية يرفض متى كان من خصائص المحاكم المدنية والادارية وكان لم يسبق تقديمه لجهة الادارة المختصة به .

المادة ٤١ — اذا طرأت ضرورة مهمة تستلزم المبادرة الى الاخذ باسباب الاحتياط لوقاية الحكومة من خطر أو للمحافظة على الأمن العمومى وكان مجلس النواب غير منعقد وكانت الاحتياطات المرغوب اتخاذها داخلة بخصائصه ولم يسع الوقت اجتماعه جاز لمجلس النظار اجراء مايلزم اجراؤه على مسؤوليته مع التصديق على ذلك من الحضرة الخديوية ولدى انعقاد مجلس النواب يقدم الأمر اليه ليرى رأيه فيه

المادة ٤٢ — لايجوز لاى شخص أن يعرض لمجلس النواب مسألة ما أو يناقش فيها أو يشترك فى المداولة الا ان كان من اعضائه أو من النظار أو ممن كان حاضرا معهم أو نائبا عنهم .

المادة ٤٣ — يكون اعطاء الآراء في المجلس بواسطة رفع اليد أو النداء بالاسم أو ضع الاوراق فى صندوق

المادة ٤٤ — لايجوز اعطاء الآراء بالنداء بالاسم الا اذا طلب ذلك عشرة من أعضاء المجلس بالاقل وعلى كل حال فالرأي فيما نص عليه بالمادة السابعة والاربعين يكون دائما بالنداء بالاسم .

المادة ٤٥ — انتخاب الثلاثة الاعضاء الذين يعين منهم رئيس المجلس وكذا انتخاب الوكيلين والكاتب الاول والثاني يكون دائما بوضع الآراء في صندوق .

المادة ٤٦ — لاتكون المداولة بالمجلس صحيحة الا اذا كان حاضرا فيه ثلثا أعضائه بالاقل والا كانت المداولة لاغية ويكون صدور القرارات بالاغلبية المطلقة .

المادة ٤٧ — كل قرار يترتب عليه مسئولية النظار لايجوز صدوره الا بالاغلبية المتوفرة فيها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة .

المادة ٤٨ — لايسوغ لاحد من النواب أن يستنيب عنه غيره لابداء رأيه

المادة ٤٩ — على مجلس النواب ان يحرر لائحة اجراءاته الداخلية وتكون تلك اللائحة نافذة الحكم بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية

المادة ٥٠ — للمجلس الحق أن يعدل هذه اللائحة الاساسية بالاتفاق مع مجلس النظار

المادة ٥١ — اذا أغمض معنى بند أو عبارة من هذه اللائحة فيكون تفسيره باتحاد مجلس النواب مع مجلس النظار .

المادة ٥٢ — كل احكام القوانين والاوامر واللوائح والقرارات المخالفة لهذه اللائحة لايعمل بها بل تكون لاغية .

المادة ٥٣ — على نظارنا تنفيذ هذه اللائحة كل فيما يخصه .

صدر بسراى الاسمعيلية فى ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ و ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

الملحق السابع

مكاتبات عرابي مع الكونت فرديناند دي لسبس

في اثناء الحرب

لاسيناد (الهند) في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٨٢

— الى المسيو بلنت

سيدى العزيز

أسارع الى الرد على خطابك المؤرخ في ١٧ . لما تقابلنا معا في بداية هذه السنة في مصر حيث كان عرابي وزيرا للحربية ذهبت لازوره مرة في ديوانه وفي اثناء زيارتي اياه كان يحيطه كبراء القاهرة بالاحترام وكان في حوش قصر النيل الواسع جمع كبير من الفلاحين وكانت الغرفة السابقة لغرفته مملوءة بالناس ومن ذلك ظهر لى أنه محل تقدير الرأى العام وفي المساء نفسه رأيته بالمسرح بجوق الخديو الى جانب سموه

وقد قال لى في المحادثة التى جرت بيني وبينه هذه الكلمات بنصها :

« انى أعرف يامسيو دى لسبس انك كنت طول حياتك رجل تقدم وحرية ولست أرغب غير ذلك لبلادى » .

ورأيته بعد ذلك مع الوزراء الآخرين في وليمة أقيمت « في نيو أوتيل » لمناسبة الذكرى السنوية لاستقلال امريكا وقد اشترك في شرب نخبة الخديو . وبعد ذلك عدت الى فرنسا ولم أعد الى مصر الا بعد ضرب الاسكندرية ولم تكن بيني وبين عرابي باشا منذ ذلك الى نزول الجيوش الانجليزية في الاسماعيلية سوى العلاقات الموضحة في مكاتباته دون ان نتقابل ولا مرة واحدة .

وهذه المكاتبات العربية التى أرسلت أصولها الى رئيس المجلس الحربي المنعقد

بالقاهرة ، لم يكن لها غرض سوى وقاية القناة البحرية التي كان عرابي دائما محلها في وقايتها وسوى حماية أرواح وأملاك الرعايا الاوروبيين المقيمين في مصر .

وأرسل اليك الترجمة الفرنسية لتلك الوثائق وهي تشرف موكلك الذي توليت الدفاع عنه في كرم نفس .

ويبدو لي من الصعب ان قائداً لاحد الجيوش يمكن ان يعرض لعقوبة الاعدام بعد ان سلم سيفه لقائد انجليزي منتصر .

وتقبل يا سيدي تأكيد احترامي الفائق الكونت فرديناند دي لسبس

المرفقات

بورسعيد في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٢ (وصل من المعسكر)

الى المسيو دي لسبس ببورسعيد

أشكر سعادتك على الجهود النبيلة التي تفضلت ببذلها لاجل منع الجيوش التابعة لسفن الدول من النزول في بورسعيد وكذلك على التشجيع الذي منحته لسكان هذه المدينة والى الاوربيين لحضهم على البقاء . وهذا منتهى ما يمكن أن أؤمله .

وتقبلوا أصدق الاحترام لشخصكم الكريم .

وزير الحربية والبحرية

الاسماعيلية في الصباح وصل الساعة ١٢٫٤٥ يوم اول أغسطس سنة ١٨٨٢ آتٍ من كفر الدوار

صاحب السعادة صديق المكرم المسيو دي لسبس بالاسماعيلية

استلمت رسالتك المحررة بالفرنسية وبناء على ما جاء فيها كتبنا الى مدير بوليس القاهرة لكي يتخذ الاجراءات اللازمة لضمان طمأنينة الاوروبيين الموجودين في المستشفى الاوربي بالعباسية بالقاهرة ولكي تترك لهم الحرية الكاملة في البقاء او الرحيل . وكتبنا أيضا الى مدير الشرقية ليضاعف عنايته بالاوروبيين الذين في الرقادية ويضمن لهم الوقاية الكاملة وانا سعيد بتوطيد علاقات المودة بيننا

وزير الحربية والبحرية بالمعسكر

الاسماعيلية فى ٤ (؟) اغطس سنة ١٨٨٢

الى المسيو فرديناند دى لسبس بالاسماعيلية

أتشرف بان أخبر سعادتك بان قومندان السفن الانجليزية بالاسماعيلية أرسل الى قائد قوات هذه المدينة منشورات فى النية الصاقها على الحيطان وقد علم بهذا الامر اعضاء المجلس العام الموكل اليه أعمال الحكومة فاتخذ هذا القرار الآتي وأرسلت صورة منه الى قائد قوات الاسماعيلية:

قرر المجلس المجتمع اليوم بقصر النيل بان المنشورات التى أرسلت اليك من جانب قومندان السفن الانجليزية لالصاقها على الحيطان في المدينة ، والتي تنص على ان الاهالى يجب عليهم ان يمكثوا فى بيوتهم ويعطوا أسلحتهم ليست لها أية صفة الزامية لان اصدار المنشورات التي من هذا القبيل من حقوق السلطات المحلية وحدها ولا قيمة لها اذا أتت من سلطة أخرى.

ونحن ننقل الى سعادتك هذا الخبر بناء على أمر المجلس واذ أني احترم حيدة القناة بغاية الدقة خصوصاً وانها أظهر عمل يسجل اسم سعادتك فى التاريخ أتشرف بابلاغ سعادتك ان الحكومة المصرية لن تخرق حيدة القناة الا عند الضرورة القصوى وفى حالة قيام الانجليز بعمل عدائى ضد الاسماعيلية او بورسعيد او نقطة أخرى واقعة على القناة وستضطر السلطات المحلية الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل عمل عدائي ولكنها لن تكون مسؤولة عن النتائج التى تنجم فيما بعد كما تدركه سعادتك . وانا واثق ان سعادتك ستتخذ أحسن الوسائل لهذه الغاية من قبل ان يلجأ القوم الى شيء من ذلك.

وتفضل بقبول وافر الاحترام

وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار

الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ (بدون تاريخ)

الى المسيو دى لسبس بالاسماعيلية

علمت من تلغراف وارد الىّ من قائد الجيوش نفيشة بحضورك مع حرمك وزوج ابنتك الى المكان الذى عسكرت به الجيوش وأشكرك لحضورك الى هذا المكان للثقة والامان اللذين يبثهما ذلك بالنسبة للاسماعيلية والقناة كلها ولعل سعادتك تعلم حق العلم ان كل ما ننشده ونريده هو الامان والاعمال الطيبة . وستساعد على ذلك من جانبك بعون الله تعالى وتفضل بقبول وافر الاحترام

قائد الجناح الشرقي بالتل

الاسماعيلية الساعة ٤ والدقيقة ١٥ مساء (بدون تاريخ)

الى المسيو فرديناند دى لسبس بالاسماعيلية

أرسل اليك صورة من التلغراف الذى استلمناه من رئيس اركان الحرب للجناح الشرقي بالتل الكبير والذى يبرهن لسعادتك على ان الأنجليز لا يحترمون حيدة القناة

من يعقوب باشا ياور وزير الحربية بقصر النيل

من رئيس أركان الحرب للجناح الشرقي الى سعادة ياور وزير الحربية بالقاهرة: نخبر سعادتكم انه فى يوم الاربعاء الموافق اول شوال سنة ١٢٩٩ غادرنا التل لنفتش على جميع النقط التى توجد بها أعمال عدائية ولما وصلنا الى جناح الشالوفة علمنا أخباراً جاء بها المستكشفون وقد تأكدنا من صدق هذه الاخبار اذ وجدنا ان فرقة استطلاع كانت تمر على الشاطىء الشرقي لقناة المياه الحلوة فابصرت بالقرب من جهة القشرة بعضاً من جنود الاعداء ولما اقتربت جنودنا أطلق العدو النار ولكنهم قابلوه بشجاعة ففرت فرقة الاعداء الى بركة القارب وقد أسرها رجالنا وقادوها الى جناح الشالوف ووجدوا بها ١٣٣ من دواب الحمل .

وقد حصل ذلك فى اليوم المذكور ومنذ ذلك لم يظهر العدو وأخبار المسكر الشرقي حسنة ولم يعرف عدد الجرحى من الاعداء واما من حفتنا فلم يمس أحد . ووجدنا من اللازم ان نخبر بهذه الواقعة التى استمرت نحو عشر دقائق

(بدون امضاء)

فى ٢٠ اغسطس سنة١٨٨٢ بعد الظهر

من وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار الى صاحب السعادة المسيو دى لسبس بالاسماعيلية

علمنا من تلغراف أرسله قائد الجناح الشرقي ان الانجليز أطلقوا المدافع من بوارجهم على جيوشنا التى بجهة الاسماعيلية وهذا العمل العدائى من جانب الانجليز انتهاك لحرمة القناة ونقض لحيدتها . ومصر مستعدة لان تزيل القناة من الوجود لكي تدفع الاعمال الحربية التي يقوم بها الانجليز هناك فما هو رأى سعادتك ؟ نؤمل ان يصل إلينا جوابك فى مدة ٢٤ ساعة . لقد بذلت أكبر الجهود ونحن من جانبنا قد احترمنا حيدة القناة حتى اللحظة التي ارتكب فيها الانجليز هذا العدوان مخالفين جهودك واحترامنا الحيدة .

الاسماعيلية فى ١٥ اغسطس سنة ١٨٨٢ مساء وارداً من المعسكر الى المسيو فرديناند دى لسبس

علمنا ان الانجليز يعملون الآن لاقامة حصون بجانب السويس والقناة وان آلات الحرب والمدافع الخ تمر بالقناة باذن من الشركة . وتشييد هذه الحصون ينقض مبدأ الاحترام الواجب للقناة ووجود سعادتك لا بد منه لتتخذ الاجراءات اللازمة لمنع هذه الاعمال واحترام حيدة القناة التى لم أمسها من جهتى قط حتى اليوم.

وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار

الاسماعيلية فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢

الى المسيو دي لسبس بالاسماعيلية

علمنا الآن من تلغراف ان القناة مهددة مع استعمال القوة ضد شخصك وان التلغراف الفرنسى الخاص بالقناة قطع عند السويس وانه منع مرور سفن الدول عند بورسعيد والسويس

واذا كانت الامور هكذا فما هى الاحتياطات التى ستتخذها ؟

وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار

الى المسيو دى لسبس بالاسماعيلية

(ملحق بالتلغراف نمرة ٧١٧)

اذا كانت الامور هكذا فما هى الاحتياطات التى ستتخذها للدفاع عن حيدة القناة؟

وزير الحربية والبحرية

يوم الاربعاء اول شوال سنة ١٢٩٩ قابلت جنود الاستطلاع التابعة لنا الجنود الانجليز عند قناة المياه الحلوة وحدثت بين الفريقين موقعة وهذا مايضطرنا الى ردم هذه القناة مع احترام القناة الكبرى فأعلنت بذلك الوزير

اقرار نينيه الذى أقسم عليه

بشأن الحوادث التى وقعت أثناء الحرب

جون نينيه الذى كان فى الاسكندرية والذى يقيم الآن فى لندن يقول ما يأتى مقسما على صحته :

لى من العمر خمس وستون سنة وأنا سويسرى الاصل وقد عشت فى مصر مدة اثنتين وأربعين سنة قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ وقد ذهبت الى مصر لاول مرة بصفة مدير زراعة القطن الخاصة بمحمد على وصرت بعد ذلك تاجراً . ولكنى اعتزلت التجارة منذ عشرين سنة . وفى أثناء اقامتى بمصر وقفت على أحوال الامة وعاداتها وصار لى كثير من الاصدقاء الخصوصيين ومنهم عرابى بك الذى صار فيما بعد عرابى باشا .

وكنت مقيما فى الاسكندرية قبل أن يضربها الاسطول البريطانى وفى اليوم الذى ضربها فيه وفى صباح هذا اليوم رأيت عدداً من القنابل تمر فوق بيتى وقد رميت بعض القنابل الكبرى وعليها اسم « الاسكندرية » فى المنزل المجاور لمنزلى . وثالثة القنابل التى مرت فوق بيتى قتلت احد عشر شخصاً وجوادين بالقرب من باب محرم بك وقد أحرقت قنابل السفن بيوتا ومبانى ودمرتها فى جميع الجهات . وفى صباح اليوم التالى استأنفت البوارج الضرب فاجابها حصن أو حصنان فى ضعف . ورفع علم أبيض فوق الترسانة وأرسل طلبه باشا الى القومندان البريطانى ليسأله لماذا أعيد الضرب مع أن الحصون سكتت .

وكان جواب الاميرال لطلبه باشا كما قرره هذا لآخرين بحضورى بانه لوحظ أن بعض الحصون أصلحت فى أثناء الليل وانه بسبب اطلاق المدفاع فى اليوم السابق قرر الاميرال اطلاق النيران على جميع الحصون بما فيها حصن كوم الدكة (دمشق) وحصن كوم الناضورة (نابليون) الا اذا سلمت له جميع الحصون والقشلاقات . فأوضح له طلبه باشا انه لم يخول له تسليم أى حصن أو قشلاق له دون موافقة وزارة

الخديو وانه من القسوة أن يضرب حصنا كوم الدكة وكوم الناضورة بعد أن قرر عرابي باشا عدم استعمالها وعدم الدفاع عنها لوقوعها داخل المدينة ولان الطلقات منها قد تسبب دمار المدينة . فكان الجواب أن البريطانيين لايمكنهم أن يراعوا ذلك وانه اذا لم تسلم جميع الحصون والقشلاقات لغاية الساعة الثالثة فسيعاود الأنجليز الضرب ويدمروها فبين طلبه باشا انه لايمكنه أن يتخابر مع الخديو ومجلسه بالرمل ويأتيه الجواب في الوقت المناسب وذهب طلبه باشا ولكنه عاد ليسأل عما يفعله البريطانيون اذا لم يسلم الحصون والقشلاقات ولم يبق فيها جنود ليدافعوا عنها فكان الجواب : « سنضربها جميعا وندمرها الا اذا سلمت لغاية الساعة الثالثة » . فذهب طلبه الى الرمل وبقى العلم الابيض نفسه يخفق فوق الترسانة لحين عودته ولم يكن يرى أى علم أبيض آخر وقد ساد الخوف والذعر الاهالى حين علموا أن ضرب المدينة سيعود عند الساعة الثالثة وحدثت مهاجرة عامة من جانب الاهالى والجيش وفي الساعة الثامنة كنت في ميدان القناصل وكان مكتظا بالجنود وبكثير من الضباط الممتازين وكانوا سائرين فى اتجاه باب رشيد وكان سليمان بك سامى — وهو ضابط أعرفه — يقود الجنود الى باب رشيد بقصد اخلاء مدينة الاسكندرية لانه أمر بتدمير جميع الحصون وضرب القشلاقات بالقنابل فى الساعة الثالثة .

وكان آلاف من الاهالى البائسين يغادرون المدينة حاملين أمتعتهم التى أمكنهم نقلها وكانت جثث الجنود القتلى تنقل بعيدا وقد صاح الجمهور حين رآني قائلا : « اقتلوا هذا الكلب الأنجليزى. اقتلوا النصراني » ولحسن الحظ أتت في ذلك الوقت فرقة من الجنود المشاة فانضممت اليها وحتى وبذلك نجوت وفى الساعة الثالثة تقريبا رأيت عرابي باشا وكان يغادر المدينة مع الاورطتين الاوليين متجهين الى القناة وأرشدني الى الانضمام للاطباء والصليب الاحمر واتباعهم . وقبل ان استطيع الانضمام الى الاطباء سمعت زئير المدافع من السفن واستمر الضرب نصف ساعة تقريبا ولكنه انقطع لان الحصون لم تجب

وكان البدو من قبيلة أولاد على قد دخلوا المدينة من الشارى او باب عمود الصوارى فشرعوا ينهبون الحوانيت وقد رأيت كثيرين منهم قبض عليهم وجلدوا

بامر سليمان بك سامى اذ حاولوا ان يغادروا المدينة حاملين أسلابهم . وكان عرابي باشا قد أمر قبل تحركه باغلاق باب المدينة ليمنع البدو من دخولها او من مغادرتها باسلابهم وأمرت فرقتان من الرديف بالبقاء فى المدينة لتحرسا الشوارع الرئيسية وتحفظا الأمن والنظام ولكن الامر باغلاق باب المدينة كان سدى لان جميع الجنود بذلوا كل ما فى استطاعتهم ليخرجوا من المكان وكان طلبه باشا بعد الظهر فى الرمل يتباحث مع الخديو وكنت طول هذا الوقت فى قاعة الطعام الخاصة بالضباط بالقرب من باب رشيد وكان هناك كثير من الباشوات ومن بينهم محمود سامي البارودى ومحمود فهمي وقد غادرت المدينة معهم ومع عدد من الاطباء والضباط عن طريق باب رشيد لكي نلحق بالجيش. ونمت الليلة في بعض القصور بالضواحي وبعد ان تركت المدينه قذفت الريح فى أثناء الليل بدخان أزرق من المدينة واتضح من ذلك ان النيران شبت في أمكنة مختلفة منها . ولم يكن في المدينة حريق حين غادرناها ولم يشعل الجنود النار فيها بل بذلوا أكبر جهدهم لمنع امتداد الحرائق التى سببتها مدافع الاسطول ولمنع العرب وغيرهم من السلب ومن المحتمل ان بعض جنود الفرقتين اللتين تركتا لحفظ الامن والنظام انضموا الى البدو فى نهب المكان ولكن هذا كان مخالفا تماما لاوامر عرابى باشا والضباط الآخرين .

ويمكننى ان أقول مؤكداً ان عرابى باشا أو أي ضابط من الضباط الآخرين ما كان يفكر في ان مدينة الاسكندرية قد تشعل فيها النيران بأيدي العرب او غيرهم وأنا أعرف ان عرابي باشا وجميع الضباط الآخرين حزنوا ودهشوا اذ رأوا المدينة تحترق بعد ان تركوها وأبدوا جميعاً أملهم في ان ذو الفقار باشا محافظ الاسكندرية وصديق الخديو الحميم سيؤدى كل جهد مستطاع مع رجال المطافي لاخماد تلك النيران وحفظ الأمن . وأنا أقول فى وضوح ان العلم الابيض الوحيد الذى رفع هو العلم الذى كان فوق الترسانة حين ذهب طلبه باشا الى الاميرال ولم ينزله طلبه باشا اذ ذهب الى الرمل مؤملا ان يعود بجواب وزارة الخديو ولكن طلبه حجزه الخديو ووزرائه بالرمل مع درويش باشا حتى الساعة الخامسة تقريباً ولما عاد الى المدينة كان الجيش قد أخلاها فكان من المحال حينئذ انزال العلم . وفى فجر اليوم التالى مشينا

مدة ثلاث ساعات على شاطئ قناة المحمودية ثم ركبنا « النشأ » بخاريا مع عرابي باشا متجهين نحو كفر الدوار . ووقف بنا عنـد مكان يسمى عزبة خورشيد باشا حيث عسكر قسم من الجيش وبينما كنا هناك مر قطار به عربات حديدية فى طريقـه الى الاسكندرية وقال عرابي باشا ان هذا القطار طلب وأمر بارساله لينقل الخديو وأسرته الى القاهرة وبعد ان ارتقبنا عودة القطار مدة ساعتين جاء تلغراف يقول ان الخديو أبدل رأيه ولن يبادر الاسكندرية وقد مكث عرابي باشا تلك الليلة في النش البخارى وبينما كان هناك أتت الانباء عن مذابح وقعت فى دمنهور وطنطا فأرسل عرابي فى الحال ثلاث فرق من الجنود مع أوامر دقيقة لمديرى تلك الامكنة بأن يرسلوا جميع الاوربيين دون أجر الى الاسماعيلية وبورسعيد وبان يحموهم والا حكم عليهم بالاعدام. وبينما كنت مع عرابي باشا جاء نبأ يقول ان احمد بك المنشاوى أحـد سراة طنطا خاطر بحياته وأنقـذ خمسمائة من الاوربيين المسيحيين واليهود فارسل عرابى خطاباً خاصاً الى احمد المنشاوى شكره فيه لحماية الاوربيين . وأصدر عرابى أمراً ضمن الاوامر اليومية بأن جميع الاجانب أياً كانوا يجب ان يعاملوا بالانسانية فى كل مكان وان تحميهم السلطات المدنية والعسكرية ومن يقصر فى ذلك يحكم عليه بالاعدام . وقضى عرابي بنقل هذا الامر الى جميع انحاء القطر ونشره بين أفراد الجيش وأرسل أيضاً الى القاهرة مع تعليمات حازمة خاصة الى « الضابط » او مدير بوليس العاصمة ليعنى بتنفيذه . وان نجاة الاوربيين في القاهرة وغيرها ليرجع فضله كله الى عرابى وأنا أعرف ان عرابي أمر برمي ستة وثلاثين من البدو بالرصاص لانهم قتلوا أوربيين ونهبوا أملاكهم وكذلك أمر بشنق عدد من الاهالي فى دمنهور وطنطا لانهم كانوا السبب فى مذابح الاوربيين وأرسل الاشياء المنهوبة التى أخذها من الناهبين الى القاهرة واذكر ان دى شير أخذ أسيراً فعنى به وعومل بالشفقة وقد اعتنيت بشأنه بارشاد عرابي

وكنت مع عرابى حين تسلم خطاب الخديو الذى رغب فيه اليـه ان يذهب الى الاسكندرية فأجاب عرابي على هذا الخطاب باخبار الخديو انه « أى عرابي » في كفر الدوار ليؤدى العمل الذى أمر به مجلس النظار الذى انعقد بالاسكندرية والذى

حضره الخديو ودرويش باشا وانه عازم على العمل وفق هـذا الامر وعلى تنفيـذه بامانة . وكنت أيضاً مع عرابي حين وصـل الخطاب الثاني من الخديو وفيـه يفصل عرابي من منصب وزير الحربية اعتباراً من يوم ٥ رمضان ويعلن أنه معتـبر عاصياً. وقد اجتمع المجلس على أثر ذلك فى القاهرة ولم يحضره عرابي ولكن حضره أ كثر من ستمائة من الاعيان أتوا خصيصا لهذا الغرض من أنحاء القطر ، وقرر هذا المجلس ان عرابي لايمكن اعتباره عاصيا الابأمر السلطان وان الخديو ليست له هذه السلطة. وقرر أيضا مواصلة الدفاع الوطني وفقا لقرار مجلس النظار الذي اجتمع بالاسكندرية بحضور الخديو ودرويش باشا والذي عهد الى عرابي باشا بالدفاع عن الوطن .

وبعد عشرة أيام أي حوالي العشرين من رمضان والخامس من أغسطس عقد مجلس آخر حين تقرر ان تقطع قناة السويس فى أربعة أمكنة هي راس العش والقنطرة وسنبيل وشالوف. وكان عرابي ومحمود فهمي باشا هما المعارضان لاقتراح قطع القناة وحثا على ان لايفعل ذلك الا اذا أتى الجيش البريطاني عملا عدائيا من ذلك الجانب وقد أعد كل شيء من الرجال والاجهزة لتدمير القناة فى ليـلة واحدة بأمر المجلس ولكن اذا بتلغراف يأتي من دى لسبس فى مساء الثانى والعشرين من أغسطس وعلى ذلك سحب الديناميت بناء على أوامر عرابي وصار على العالم ان يحمد لعرابي انقاذه قناة السويس .

وكلما طلب أحد من عرابي ان يحمي الاوربيين منحهـم كل مساعدة لحمايتهم وتأمينهم. وأنا أعرف انه منح الاوربيين حمايته بناء على طلب دى لسبس والقنصل الفرنسي وقنصل اليونان بالزقازيق وغيرهم وقد صرح هؤلاء القناصل علنا بانهـم لايغادرون هذه البلاد التى عاشوا فيها طويلا ما داموا لا يخافون شيئا بفضل رجل متنور كعرابي باشا . وكان تحت رياسته ضباط لعلهم كانوا يعاملون الاوربيين معاملة سيئة لولا أن عرابي عارضهم وضمن قدر استطاعته الحرية والوقاية للجميع . وأتذكر جيداً انه قيل ان برقيات كاذبة أرسلت بشركة التلغرافات الشرقية الى أوربا وانها أحدثت ضرراً بالغا ولذلك كان فى العزم ان يرسل ضابط الى مكتب التلغراف ليمنع

ارسال البرقيات الجفرية ولكن عرابي رفض ان يؤيد أي تدخل قائلا ان طائفة التجار تتهمه فى هذه الحالة بأنه يضر بمصالح التجارة .

وكانت الخطوات التى اتخذها عرابي للدفاع عن بلاده عند الاسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وغيرها بناء على أمر مجلس النظار الذى عقد فى الاسكندرية تحت رياسة الخديو نفسه وحضره درويش باشا وغيره من رسل السلطان وهذا الامر لم ينقض قط . ولما اتخذ عرابي موقفه وانشأ خط الدفاع عند كفر الدوار كان يعمل وفق أمر مجلس النواب وكان الشعب المصرى يؤيده ويعطف عليه . وكان الاعيان والتجار ورجال السلطات المدنية والدينية يأتون من أنحاء البلاد الى كفر الدوار يوماً بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ليهنئوا عرابي ويشكروه على وطنيته ويفوضوا اليه أمر الدفاع عن الوطن وكانوا كلهم يأخذون حفنا من التراب فى أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم فى العمل .

وقد رأيت بين هؤلاء الاعيان الذين زاروا المعسكر وشكروا عرابي فى كفر الدوار : فخرى باشا واحمد نشأت باشا مدير القاهرة وجميع اعضاء المحكمة الاهلية والقضاة الوطنيين ووكيل النائب العمومي بالمحاكم المختلطة وعثمان فوزي باشا ورؤوف باشا وعرفى باشا ومبارك والعلماء ومفتى الاستانة وكثيراً من المقربين الممتازين وكثيراً من الرؤساء وأساتذة الازهر وعددا من افراد أسرة رياض باشا والتوملي باشا وحسن العقاد وكثيراً من العمد وأصحاب الاملاك وعلى الخصوص احمد بك المنشاوى الذى أشرت اليه آنفا. وقد اكتتب الجميع بمبالغ لتغطية نفقات حرب الدفاع ودفع البعض مبالغ هائلة وأعرف منهم قليلين دفع كل منهم عشرة آلاف جنيه . وكانت الاموال كلها ترسل الى القاهرة ولا يأتي منها شيء الى المعسكر وانما كان يرد اليه مقادير من الغذاء والقمح والفاكهة وكان كبار الزائرين يقبلون عرابي ويعانقوه . وقد قال له مفتى القاهرة المرحوم : « نحن ممثلي أكثر من خمسين ألف من الاعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الاملاك الخ نشكرك جميعا لانك توليت بيدك أمر الاسلام والامة وأنك في الحقيقة أكبر وطنى فى وادى النيل » فقال له عرابي ضمن رده : « اننا لا نريد شيئا سوى العدل الشامل وضمان حياتنا وأشخاصنا واملاكنا وحقوقنا.

نريد برلمان مستقلا ينتخب على أساس الحرية ووزارة مسؤولة وخديويا يملك ولا يحكم. نريد الاقتصاد الدقيق في الادارة دون مراقبة سياسية ودون موظفين أجانب على رأس الوزارة يتقاضون مرتبات ضخمة . نريد مصر للمصريين مع الحرية والسلامة لكل الاجانب اذا خضعوا مثلنا للضرائب والرسوم »

وأقول دون تردد ان عرابي لم ينقل قط السلب والمذابح الى أرض مصر وان الامة المصرية وأعيانها هم الذين عهدوا اليه بالدفاع عن البلاد، ولم يكن عرابي السبب في أن ينهب أو يذبح أي مصري أو أجنبي بل انه على العكس عمل كل ما في وسعه ليحمي حياة وأملاك المصريين والاجانب على السواء وليعاقب جميع الذين ارتكبوا جرائم النهب والمذابح .

وقد كنت مع عرابي من اليوم الذي غادر به الاسكندرية الى الرابع والعشرين من أغسطس اذ سافر ليلحق بالجيش المرابط بالقرب من الاسماعيلية . وقد لحقت بعرابي بالقاهرة في صباح اليوم التالي للموقعة وعقد اجتماع في بيت عرابي بالقاهرة يوم الخميس للبحث في مسألة تسليم القاهرة فدارت فكرة عرابي التي ترمي الى تسليم القاهرة دون دفاع وجاء نبأ بان الجنود الانجليزية وصلوا الى العباسية فسألني عرابي وطلبه رأيي فيما يجب ان يعملاه فنصحت لهما بان يذهبا الى القائد البريطاني ويسلما له سيفيهما باعتبارهما أسيري حرب فيحميهما شرف انجلترا . وقد تركاني بمنزل أولهما وركبا معاً الى العباسية .

جون نينيه

أقسم على ذلك أمامنا في قاعة بلدية وستمنستر بمقاطعة مدلسكس بانجلترا في هذا اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

الامضاءات

ويلي ذلك قصيدة طويلة نظمها المستر بلنت في السياسة وشرفها وفي مصر وانجلترا . ويبلغ عدد أبياتها أربعمائة تقريبا وقد نشرت في انجلترا سنة ١٨٨٣

مقتل اسماعيل صديق باشا

قضت ظروف على قلم الترجمة في « البلاغ » ، حينما كانت الترجمة تنشر متوالية أن يترك تعريب ما كتبه مستر بلنت في كتابه هذا عن مقتل اسماعيل صديق باشا الملقب بالمفتش ، فاكتفى بان يقول في صفحة ٣٤ : وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن» . ولذلك نعود هنا فننشر تعريب ما كتبه في هذا الموضوع وهو :

اذكر جيداً ماقاله لي السير ريفرز ولسن بشأن أكبر مأساة بين الجرائم الكثيرة التي ارتكبها الخديو اسماعيل — وهي قتله اسماعيل صديق المفتش وكان هذا خيانة أثرت أكثر من غيرها في ولاء جماعة الارقاء والخدم الذين كانوا يحيطون بالخديو ، ولا أقول في ولاء رعاياه المصريين لانه فقده منذ زمن .

ولد اسماعيل صديق في الجزائر وأتي في طفولته الي مصر وارتفع بكفاءته في خدمة الخديو وكانت بداءة صلته بالبلاط في عهد عباس وكان يشغل وظيفة رئيس اسطبلاته على ما أظن . ثم شغل مراكز مختلفة في عهدي سعيد واسماعيل حتى صار اداة اسماعيل في ابتزاز آخر قرش لدي الفلاحين . ولكنه رغم قسوته الشديدة على الفلاحين وتفوقه في اشكال الوسائل لنهبهم كانت له في القاهرة شهرة حسنة الي حد ما لانه كان يعتبر عربيا يحفظ فضيلة الكرم وكان سخيّ اليد في تبديد الثروة التي يجمعها . وشغل في السنوات القليلة الاخيرة من حياته مركز وزير المالية وقد برهن دائما لاسماعيل على أنه خادم مخلص أمين . ولكن بالرغم من هذا خانه اسماعيل الي حد القتل قبل أن اكتب هذا ببضعة أشهر ، وكان ذلك في ظروف تدعو الى الاشمئزاز حتى أنها أزعجت الامة المصرية رغم اعتيادها وقوع الجرائم في الدوائر العليا . وكان الدافع للخديو على ذلك دافعا أنانياً وهو ستر نفسه بنقل التهمة في بعض حوادث الغش التى ارتكبها الي وزيره الذى زاد اخلاصه عن الحد ، ثم ضمان سكوته بقتله والتفصيلات التي ذكرها ولسن كما يلي :

كان اسماعيل في علاقاته مع المندوبين الاوربيين الذين كان يدعوهم بين وقت وآخر لفحص شئون المالية ، معتاداً أن يخفي عنهم ما استطاع في الحقيقة فى تبذيره غير المعقول فقدم أخيراً بمساعدة وزيره اسماعيل صديق بياناً كاذباً عن ديونه . غير أن الضغط كان شديدا عليه لان بعضهم أومأ الى اللجنة — وأذكر جيداً أنه — رياض باشا — بأن الخديو يخدعها ، فخشي هذا أن تظهر الحقيقة كلها وأن يفضح وزيره بالوقائع اذا ما حققت اللجنة . فعزم على أن يضحي بوزيره ليخلص منه . وتولى هذه المهمة بنفسه . وكانت بينه وبين وزيره صداقة شخصية متينة فكان معتاداً أن يمر عليه احياناً بعد الظهر فى وزارة المالية ليأخذه معه فى عربته الى شبرا أو الى قصر من قصوره . فمر عليه ولم يكن الوزير يرتاب فى شيء فركب معه العربة الى قصر الجزيرة ونزلا هناك ودخلا . ثم انتحل اسماعيل بعض الاعذار وتركه وحده فى احدى القاعات وأرسل اليه ابنيه الاصغرين حسيناً وحسناً وياوره مصطفى بك فهمي واذا بالاميرين يضربان الوزير الاعزل ويدفعان به الى احدى البواخر الخديوية الراسية بجانب الرصيف . وهناك قتل هذا الرجل المجرم بعد ان قاوم مقاومة عنيفة »

ومن رأيي ولـــن أن الفاعل المباشر لهذه الجريمة هو مصطفى بك مؤتمراً بامر الخديو وقد أخبرني بان الحقيقة يانتحيباً مرض الياور الشاب بالحمى عقب تلك الفعلة واعترف بها في هذيانه . ولكن عندي ما يدعوني الى الاعتقاد بان روايته فيما يتعلق باشتراك مصطفى بك غير صحيحة وان كانت بقية الوقائع قد ثبتت لي. والذي عرفته هو ان مصطفى بك سلم اسماعيل صديق الى اسحاق بك فمات في يده . ولست متأكداً من انه مات فى الحال أو بعد حين . ويقول بعضهم ان اسماعيل صديق رمي مثل كثيرين غيره في النيل بعد ان ربط حجر في قدمه . ويقول آخرون انه نقل حياً الى ما بين وادي حلفا ودنقله وخنق هناك . ولكن الذي لا شك فيه هو انه لم ير حياً بعد أن رمي به الى ظهر الباخرة . وبعد أسابيع من سير الباخرة فى النيل وأعلن رسمياً ان المفتش ذهب الى الصعيد لتغيير الهواء وانه اعتاد الخمر هناك فمات .

ومن المؤكد أيضا ان مصطفى بك — وهو شاب معتدل لم يعتد مناظر العنف ومن أصل جزائري كالمفتش — أخافه الدور الذى أمر بلعبه فرض على أثره مرضا خطيراً طال به . وهذه التجربة هى التى دعته الى أن يكون ضد سيده بعد سنة من ذلك ، ثم الى أن ينضم لعرابي فى باكورة ثورة سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ . وهو مصطفى فهمي الذي شغل منصب رئيس نظار مصر سنين عديدة .

فهرس الكتاب

تنويه - وجدنا في الطبعة الأصلية للكتاب (طبعة مطبعة البلاغ) خطأ في ترقيم الصفحات التالية لصفحة ٢٧٢ حيث بدأ الترقيم ب ٢٦٥ وتتالى الترقيم صحيحا إلى آخر الكتاب؛ فآثرنا تركه كما كان في الأصل وذلك تسهيلاً على الباحثين الذين يعتمدون على الطبعة الأولى للكتاب.